

بحرث مشرقية ومغربية

في

التاريخ والحضارة الإسلامية

مؤسسة شباب الجامعة
سعد الدين عبد العزيز
استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة

٤٥ ش. الدكتور مصطفى مشرفة

٠١٩٧٤٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

١٩٩٧

بحوث مشرقية ومفريية فى التاريخ والحضارة الإسلامية الجزء الأول

تأليف

الدكتورة/ سحر السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت : ٨٣٩٤٧٢ الإسكندرية

إلي كل من ساندني أدبيا ومعنويا من مصر
وخارجها، خلال مشوار العلم والحياة
اهدي هذا الكتاب

مقدمة:

يتضمن هذا الكتاب اثني عشر بحثاً قمت بكتابتها خلال السنوات الثلاثة الأخيرة منذ أواخر عام ١٩٩٣ وحتى بدايات عام ١٩٩٧. وهى أبحاث متنوعة فى التاريخ والحضارة الاسلامية من المشرق الإسلامى ومغربه بعضها القى فى مؤتمرات علمية وبعضها الآخر نشر فى مجلات محكمة.

والبحث الأول وعنوانه «بنو أبى عبدة وزراء وقادة الدولة الأموية فى الأندلس» (طبعة أولى سنة ١٩٩٧) يتناول بالدراسة تاريخ أسرة من أشهر الأسر فى تاريخ الأندلس، هى أسرة أبى عبدة التى برز منها قادة عظام ووزراء وكتاب وحجاب وعمال للخلافة الأموية. وقد تتبعت أهم الشخصيات فى هذه الأسرة وأهم المناصب التى تولوها، والخدمات التى أسدوها لدولة بنى أمية وأهم الانتصارات العسكرية التى أحرزوها ضد اعداء هذه الدولة بالأندلس سواء من الثوار بالداخل أو ملوك المسيحية باسبانيا فى الخارج.

ويعكس قيامى بالتأريخ لهذه الأسرة، اهتمامى بدراسة تاريخ الأسرات الأندلسية البارزة عبر العصور الاسلامية المختلفة، فمنذ نحو ثمان سنوات أفردت دراسة هامة عن بنى خطاب من نسل عبد الجبار بن نذير، وتدمير بن عبدوش، كما قمت بنشر دراسة خاصة لى سنة ١٩٩٥ عن بنى سراج آخر وزراء بنى نصر حكام غرناطة، فى مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية فى تونس، وذلك فى العدد التكريمى الخاص بالمستشرق لوى كاردياك وهى أيضاً منشورة فى هذا المجموعة (البحث العاشر) كما يقوم معهد الدراسات الاسلامية بمديرى بنشرها ضمن عدد خاص بالذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة.

ومن خلال دراسة أصول هذه الأسر، وتتبع سلسلة نسبهم، وأهم الشخصيات البارزة فيهم، نستطيع أن نلقى الضوء على جوانب حضارية هامة من تاريخ الأندلس. ويتضح من خلال ماقمنا به من دراسات عن أشهر الأسرات الأندلسية أن

حكام الأندلس، بدايةً من بنى أمية، وانتهاءً ببنى نصر كانوا يميلون إلى تركيز الوظائف الادارية فى أيدى من يشقون بهم من مواليتهم أو الشخصيات المقربة منهم، وكان توارث تلك المناصب الادارية العليا فى جميع ابناء الأسرة الواحدة ظاهرة ملحوظة فى الأندلس مثل آل ابى عبدة، وبنى شهيد، وبنى حدير، وبنى خطاب وبنى سراج، وبنى الزجالى، وبنى عبد الواحد الاسكندراني وغيرهم. كذلك من العوامل التى دفعتنى لدراسة تاريخ هذه الأسرة (بنو ابى عبدة) الذين كانوا موالى للأمويين أنهم كانوا أسلاف بنى جمهور الذين اضطلعوا بحكم قرطبة فى عصر دويلات الطوائف، بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وهذا يعنى أن هذه الأسرة لعبت دوراً كبيراً ولفترة زمنية طويلة من تاريخ الأندلس ممايزيد من أهمية التاريخ لها وتتبع أبرز اعمال أفرادها.

أما البحث الثانى الذى يحمل عنوان «أضواء على فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف» (طبعة أولى سنة ١٩٩٧) فهو يتناول بالدراسة جانباً فنياً وحضارياً هاماً تميز به المجتمع الأندلسى منذ بداية تكوين ملامح شخصيته الحضارية زمن بنى أمية، وقد استمر تأثير ملامح هذا الفن فى المجتمعات المغربية حتى وقتنا الحاضر، فالموسيقى الشعبية التونسية والمغربية تحمل تأثيرات أندلسية واضحة المعالم فيما يعرف باسم موسيقى «المالوف» و «الموشحات».

وقد تناولنا بالدراسة فن الغناء والموسيقى برؤية جديدة، فلم نركز على دور زرياب الموسيقى العراقى، فى احداث تطور فى مجال الفن والموسيقى وفى عادات المجتمع الأندلسى لأن ذلك كان مجالاً لعشرات من الدراسات السابقة، وانما اعتمدنا على منهج التحليل الاستنباطى للنصوص التاريخية والأدبية، لمعرفة الجديد عن هذا الفن فى الأندلس كما لجأنا إلى صور للآلات الموسيقية، التى نقش بعضها فى عددٍ من التحف العاجية والرخامية، كما اعتمدنا على الصور الواردة فى كتاب أناشيد الملك الفوسو العاشر وهى ان كانت فى معظمها مسيحية إلا أنها

ذات أصول أندلسية. كما ركزنا فى البحث على شخصيات أخرى بحلاف شخصية زرياب، اهتمت بالتلحين وتآليف الكتب فى الموسيقى، كما أشرنا إلى أهم من برز من الأمراء الأمويين فى عصر الامارة ممن كانوا يجيدون الغناء ويحذقون الضرب بالعود أو النفع بالمزمار.

وقد ازدهر فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصرى الخلافة والطوائف، وقد خضع هذا العصر الأخير لتطور واسع النطاق نتيجة لظهور الموشحات والأزجال أو مايعرف بالشعر الشعبى الأندلسى.

ولذلك فقد تعددت مراكز الغناء والطرب فى كل أنحاء الأندلس فى هذا العصر. وقد اختتمنا هذه الدراسة بالاشارة إلى أثر الموسيقى والغناء الاندلسى فى اسبانيا المسيحية.

أما البحث الثالث الذى يحمل عنوان «صور من التعاون العسكرى بين القاهرة ودمشق ضد الصليبيين فى العصر الفاطمى، رؤية جديدة» فقد شاركت به فى مؤتمر «التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور» الذى عقده قسم التاريخ بكلية الآداب/ جامعة الاسكندرية فى الفترة من ٨ - ٩ أكتوبر ١٩٩٥ بمناسبة الاحتفالات بذكرى انتصار السادس من أكتوبر.

وقد اخترت هذا الموضوع للتأكيد على أنه فى تفرق المسلمين كل الضعف وفى توحدهم وتماسكهم كل القوة. وقد ابرز البحث أهم صور التعاون والتنسيق والتضامن العسكرى بين دمشق والقاهرة خلال فترة اليقظة والصحو الإسلامية التى سبقت بداية مرحلة توحيد الجبهة الإسلامية على يد الناصر صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين ايوب. وهى الفترة التى لمعت فيها أسماء قادة مسلمين كانوا على مستوى المسئولية فتناسوا خلافاتهم وترفعوا عنها من أجل الصالح العام ومن أهمهم كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقى فى الموصل، وظهير الدين طغتكين ونور الدين

محمود في دمشق. وهذا يؤكد أن حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تكن سوى حلقة من حلقات سلسلة التعاون والتنسيق العسكرى بين مصر وسوريا عبر العصور المختلفة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المستشرقين حاولوا تشويه صورة بعض هؤلاء المجاهدين الأبطال لاسيما طفتكين (*)، وقد مال بعض مؤرخينا إلى وصمه بالانتهازية والوصولية وذكروا أن دوافعه من توحيد الجبهة الاسلامية انما كانت للمصلحة الشخصية، وقد اتجهنا في هذا البحث اتجاهاً آخر وأعدنا التأريخ لطفتكين بنظرة ورؤية جديدة بعد استقراء النصوص وتحليلها بما ينصف هذه الشخصية التي كانت لها أياد بيضاء في مجال الجهاد الاسلامي.

والبحث الرابع بعنوان «لمحات انسانية من حياة المعتمد بن عباد الأسرية» وقد شاركت به في مهرجان «المعتمد بن عباد» الذي نظمته وزارة الشؤون الثقافية بالمملكة المغربية في ديسمبر سنة ١٩٩٥ تحت رعاية الملكين الحسن الثاني وخوان كارلوس، في مدينة مراكش. ويلقى البحث الضوء على الجانب الآخر من شخصية المعتمد بن عباد، آخر ملوك الطوائف باشبيلية، فقد ركزت معظم الكتابات التي تصدرت للتأريخ لاشبيلية زمن الطوائف، على الأحداث السياسية الداخلية والخارجية، وحتى اذا ما تطرقت إلى الجانب الشخصي من حياة ملوكها، تعرضت لنبوغ كل من المعتضد بن عباد وولده المعتمد في مجال الشعر، أما النواحي الانسانية في المعتمد وصورة الأب والزوج، فقد غابت عن تلك الكتابات وهذا ما حاولت ابرازه في البحث فقد تعرضت لحياة المعتمد منذ نعومة اظفاره ونشأته وتأثير هذه النشأة على تكوين ملامح شخصيته، وعلاقته بأبنائه وبناته، وزوجته اعتماد الرميكية، وموقفه المتحضر من المرأة.

والبحث الخامس بعنوان «علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب

(*) حتى صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب لم يسلم من الهجوم في كثير من الكتابات الحديثة.

سقوطها»، وقد اوضحت فيه مدى عمق العلاقة بين مصر والأندلس حتى مطلع القرن التاسع الهجرى، ثم أوضحت الظروف السياسية السيئة التى كانت تمر بها مصر المملوكية فى نفس الوقت الذى كانت سلطنة غرناطة تتجه فيه نحو الانهيار المحتوم.

وقد أوضح البحث أن مصر المملوكية لم تقم بالدور المنتظر والمتوقع منها كدولة اسلامية كبرى، فلم تبادر بانجناد غرناطة فى لحظاتها الأخيرة، وعللت أسباب هذا التباطؤ، فالمماليك كانوا يعانون من الاضطرابات الداخلية والأزمات الاقتصادية ونقصان فى الغذاء الرئيسى وهو القمح لاسيما فى بلاد الشام ويتخوفون فى ذات الوقت من خطر العثمانيين الذين باتوا على أبواب البلاد. وفى تصورى أن المماليك لو كانوا قد وحدوا جهودهم مع العثمانيين لكانوا قد تمكنوا معاً من انقاذ الاسلام فى الأندلس.

وقد أبرز البحث كذلك أهم الرحلات المتبادلة بين أهل الأندلس ومصر قبيل سقوط غرناطة، كما تناول أخبار غرناطة فى كتابات المؤرخين فى مصر أمثال «ابن اياس» عشية وغداة سقوطها. ومن هذا المنطلق، نؤكد أنه اذا كان فى دروس التاريخ عظة وعبرة، فلتتخذ من تفرق المسلمين وتقاتلهم فى ذلك الوقت، من ممالك وعثمانيين فى المشرق الاسلامى والبيت الحاكم فى الأندلس، درساً يفيدنا فى المستقبل فى ضوء الظروف المحيطة بنا.

أما البحث السادس، فهو يحمل عنوان «قطر ومواردها الاقتصادية فى العصور الوسطى». وكنت قد دعيْتُ فى السنوات السابقة للمشاركة فى أكثر من مؤتمر عن الخليج العربى أهمها المؤتمر الذى نظمته هيئة اليونسكو عن طريق التحرير بالقاهرة سنة ١٩٩٠، ومؤتمر العلاقات العمانية المصرية عبر التاريخ والذى عقد بمسقط سنة ١٩٩١، ومؤتمر عمان عبر التاريخ الذى عقد بمسقط أيضاً سنة ١٩٩٤ «ومؤتمر الخليج العربى عبر العصور» الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٩٦.

وقد شاركتُ في هذه المؤتمرات بأبحاث متنوعة تدور حول كل من عمان والبحرين وتجارتها في الخليج العربي والمحيط الهندي وخليج عدن في العصور الاسلامية، ولاحظتُ اثناء اعدادى هذه الأبحاث وجود اشارات في بعض المصادر إلى قطر مما يؤكد أن قطر شكلت كياناً طبيعياً وجغرافياً معروفاً ومتميزاً في العصور الوسطى.

وهذا يخالف رأى الكثيرين من ان اسم قطر ليس سوى مسمى حديثاً لامارة برزت واستقلت في عصرنا الحالى، وبالتالي فقد دفعنى هذا إلى أن أفرد بحثاً عن قطر ووضعيتها الاقتصادية في العصور الوسطى الاسلامية انتهت من اعداده في يناير ١٩٩٧.

ويؤكد البحث أن المسعودى يعتبر أول من أشار إلى ذلك في كتابه «مروج الذهب» فهو قد وصف قطر بأنها مجموعة من الجزائر التى تقع في بحر فارس وتبعه الاديسى في ذلك.

وقد أكدنا في البحث بعد رجوعنا إلى العديد من النصوص العربية ان اسم قطر كانت له خلال العصور الوسطى دلالاته الجغرافية والطبيعية الخاصة به شأنه شأن اسم «البحرين» واسم «عمان». واكدنا بعد سلسلة من المناقشات لمختلف الأخبار التى وردت في المصادر ان استخدام كبار المؤرخين المسلمين امثال الطبرى وابن الأثير ومصطلح «البحرين» للدلالة على المنطقة المحتدة مابين كل من البصرة وعمان لايعنى ابدأ انكار وجود كيان قائم بذاته لقطر، فهذا الاستخدام أشبه باستخدامنا لبعض المصطلحات السياسية والجغرافية في العصر الحديث فعندما نقول «الخليج العربى» فقط دون تحديد فاننا نعنى بهذا المصطلح فى واقع الأمر ستة دول خليجية هامة لكل منها كيان سياسى مستقل وكذلك مصطلح «الشام» فهو يشمل ضمناً اربع كيانات سياسية قائمة بذاتها وايضاً مصطلح «المغرب العربى» ومصطلح «الشرق الأقصى» و«الشرق الأوسط» و«القرن الافريقى» فكل مصطلح من هذه المصطلحات يتضمن عدة دول مستقلة وقائمة بذاتها.

كما استعرضنا في البحث أهم موارد الثروة الاقتصادية في قطر في العصر الاسلامي فقد اشتهرت قطر ببعض الصناعات كصناعة الحمور والمنسوجات كما عُرِفَ ابناءؤها بأنهم تجار مهرة.

وفيما يتعلق بالبحث السابع والذي يحمل عنوان «موقف مدينة صور من احداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى سقوطها في ايدي الصليبيين سنة ٥١٨هـ» فقد اخترت الكتابة عن هذه المدينة على وجه التحديد عندما دعيت للمشاركة في «مؤتمر بلاد الشام في العصر السلجوقي» في دمشق سنة ١٩٩٤ ونظراً لما أبداه أهالي صور من مقاومة باسلة ضد الصليبيين، ونظراً لتشابه الأمس باليوم، فصور اليوم تتحمل بآباء وشمم مع بقية مدن الجنوب اللبناني الضربات الاسرائيلية المتتابة، لذلك فقد قررت التأريخ لهذه المدينة العريقة في هذه الفترة الحرجة من تاريخها الاسلامي.

والبحث الثامن يتناول الجوانب الايجابية والسلبية للزواج المختلط في الأندلس، وهو مكتوب باللغة الاسبانية وكنت قد شاركت به في مؤتمر «المرأة في حوض البحر المتوسط» الذي عقد سنة ١٩٩٤ في مدريد.

أما البحث التاسع فهو ترجمة لأحد الأبحاث التي نشرت مؤخراً للمؤرخة الفرنسية راشيل آرييه، والتي تعد من المؤرخات القليلات المتأسبنات واحدى المتخصصات، البارزات في مجال الدراسات الأندلسية. وبحثها بالاسبانية وهو يحمل عنوان «رحالة من المغرب إلى المشرق» وقد نشر في كتاب صدر في غرناطة باسبانيا سنة ١٩٩٥. وقد قمت بترجمة هذا البحث سنة ١٩٩٦ من اللغة الاسبانية إلى العربية كما اعقبت هذه الترجمة بدراسة نقدية للبحث.

والبحث العاشر بعنوان «بنو سراج وزراء بني نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية» فقد نشره مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية في تونس سنة ١٩٩٥ بمناسبة تكريم المستشرق لوى كاردياك كما يقوم معهد الدراسات

الاسلامية بمديره الآن بنشره فى عدد خاص عن غرناطة والشق الأول من البحث يعالج أصل بنى سراج تاريخياً، فقد كانوا من اعرق الأسرات الأندلسية، وقد رجحنا انتسابهم إلى كلاب بن ربيعة على حد قول كل من ابن بسام وابن حزم، كما تتبعنا أهم شخصيات هذه الأسرة وتحدثنا عن دورهم السياسى الهام والمؤثر كوزراء لمسلطين غرناطة، كما أشرنا إلى ثورة فرج بن فرج من بنى سراج ضد الحكم الاسبانى المسيحى بعد سقوط الحكم الاسلامى بالمدينة. أما الشق الثانى من البحث فيعالج ماورد بشأن بنى سراج فى القصص الشعبى ومدى ارتباط ذلك بالواقع التاريخى، ومن أهمها رواية «ابن سراج» التى ظهرت بعد سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاماً. كما تعرضنا بالنقد لكتاب «الحروب الأهلية فى غرناطة» لخنيث بيريث دى هيتا الذى صدر فى القرن السادس عشر الميلادى، وكذلك اشرنا إلى قصة «آخر بنى سراج» للفيكونت دو شاتو بريان.

أما البحث الحادى عشر فهو بعنوان «دور الطراز فى الأندلس فى عصر بنى أمية» فقد نشر مرتين فى عام ١٩٩٥، المرة الأولى فى مجلة كلية الآداب بجامعة سوهاج (العدد ١٧) والمرة الثانية فى مجلة دراسات أندلسية بتونس فى عدد يناير ١٩٩٥ وكتلاهما دورية علمية محكمة. وقد عالجت فى هذا البحث انشاء دار الطراز فى قرطبة، كما تعرضت لذكر دار الطراز باشبيلية التى انشأها ابراهيم بن حجاج الشائر بها فى عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) والتى نافست دار قرطبة إلى أن سقطت دولة بنى حجاج على يد الرحمن الناصر سنة ٣٠١ هـ.

وأشار البحث إلى أهم التطورات التى طرأت على دار الطراز بقرطبة وأهم من تولى هذه الخطة من الفتيان، وتعرضت إلى نماذج من قطع النسيج التى انتجتها دار الطراز القرطبية وأهمها قطعة من النسيج الرقيق تعرف بطراز هشام المؤيد بالله، عثر عليها فى سانت استبيان دى جورمات (غرماج) وتحفظ بها الأكاديمية التاريخية بمديره وأشرت إلى وضوح أثر التقاليد الفنية العراقية بها كما يتضح هذا التأثير الفنى العراقى فى قطعة النسيج المعروفة بنسيج الفيلة المحفوظة بكنيسة سان ايسيدرو بليون.

، وقد تعرض اسحت أيضاً بالاصافة إلى دور الطرار الخاصة بقرطبة وباسبيديه إلى دور طرا، العامه التي حصصت لأهل الأندلس، التي كانت مورعة على معظم مدن الأندلس بالاصافة إلى بعض التجمعات العمرانية القروية التي كانت لها أنوال لنسج المنسوجات الكتانية أو القطنية أو الحريرية، فكانت بالمرية وبجانة ومالقة ومرسيه وعرناطة واشبيلية وقرطبة وبطليوس وشنترين ولشبونة وغيرها من مدن الأندلس، دور طراز عامة واختصت بعض هذه المدن بنوع معين من المنسوجات مثل شهرة بجانة في صناعة الحرير حتى ظهور المرية التي ورثت أيضاً شهرة قرطبة في صناعة الوشي والديباج واختصاص سرقسطة بصناعة السمرور

أما البحث الأخير فهو دراسة عن برعواطة بعنوان «من جديد حول برعواطة هراطقة المغرب في العصر الاسلامي» وكان هذا البحث باكورة أبحاثي بعد حصولي على درجة استاذ مساعد مباشرة فقد صدر في أواخر عام ١٩٩٣، وقد نشر هذا البحث في طبعة خاصة ١٩٩٣ بعدت فأعدت نشره ضمن هذه المجموعة

وقد سبقني في التأريخ لبرعواطة عدد من كبار الأساتذة والمؤرخين في العالم العربي نذكر منهم على سبيل المثال الاستاذ الدكتور محمود اسماعيل في بحثه «حقيقة المسألة البرغواطية، مغربيات - دراسات جديدة» والأستاذ الدكتور رجب محمد عبد الحليم في بحثه «دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى»

وقد اتجه هذا الفريق من المؤرخين إلى الدفاع عن العقيدة البرغواطية واعتبارها إحدى فرق الخوارج ولكنني أكدت في بحثي على أن برعواطة دولة بخارجة عن تعاليم الاسلام، اعتماداً على ماورد بشأنها من أخبار في المصادر العربية إلى حد ان كثير من المؤرخين القدامى قد وصموها بالهرطقة مثل ابن أبي زرع والحسن بن الوران

وقد ناقشت جميع الآراء الخاصة بأصل برعواطة ومنازلها في المغرب الاسلامي وصيغة الكيان السياسي سرعواطة وقيام هذه الدولة وأهم ملوكها

وسياساتهم الخارجية وصلاتهم مع الدول المغربية المجاورة كما عالجت بشيء من التفصيل الفكر العقائدى لبرغواطية، وأشارت إلى اعتقادى بأنه كان يجمع بين افكار ومذاهب واديان متعددة بدءاً من الفكر السننى إلى الخارجية المتطرفة والتشيع كذلك جانباً من الدونائيه وبعض الأفكار اليهودية كما نلمح فى فكرهم العقائدى بعض التقاليد البربرية المحلية والوثنية الأمر الذى يجعل من البرغواطية فكراً خارجاً عن الدين الاسلامى الحنيف.

وبعد، أرجو من الله عز وجل أن تحظى هذه البحوث باهتمام الباحثين فى التاريخ والحضارة الاسلامية وعلى الله التوفيق،،

د/ سحر السيد عبد العزيز سالم

يناير ١٩٩٧

بنو ابي عبدة وزراء وقادة الدولة الأموية في الأندلس

بنو أبى عبدة وزراء وقادة الدولة الأموية فى الأندلس

أولية بنى أبى عبدة

ينتمى بنو جمهور أصحاب قرطبة فى عصر دويلات الطوائف إلى أبى عبدة حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر^(١). وعرفت هذه الأسرة خلال فترة حكم الأمويين بالأندلس «بأبى عبدة»، إلى أن برز أحد ابنائها وهو أبو الحزم جمهور بن محمد بن جمهور بن عبيد الله من نسل عبد الغافر بن أبى عبدة حسان بن مالك، على المسرح السياسى الأندلسى فى أواخر عصر الخلافة، فهو مؤسس الدولة التى حملت اسمه واضطلعت بحكم قرطبة فى عصر دويلات الطوائف بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس فعرفت هذه الأسرة منذ ذلك الحين «ببنى جمهور»^(٢).

وينتسب عبد الله بن جابر الجد الأعلى لهم إلى كلب^(٣)، وكان مولى لمروان ابن الحكم وشارك فى موقعة مرج راهط وأبلى فيها بلاء حسناً فأعتقه^(٤).

وكان أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة، أبو عبدة حسان بن مالك، دخلها فى سنة ١١٣ هـ (٧٣١ / ٧٣٢ م) أى قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بخمس وعشرين عاماً، وكان حسان يعيش قبل ذلك بالشرق، حيث أنجب عدداً من الأبناء، قتلوا جميعاً ماعداً ابنه أبو أمية عبد الغافر لصغر سنه، فنشأ مع عبد الرحمن بن معاوية وتأدب معه بالشرق^(٥).

وبعد سقوط الخلافة الأموية فى الشرق، ونجاة عبد الرحمن بن معاوية من مذبحه نهر أبى فطرس، وفراره إلى بلاد المغرب، وجه مولاة بدر إلى زعماء الموالى المروانية فى الأندلس يسألهم نصرته ويلتمس منهم أن يبذلوا له العون فى تحقيق رغبته فى دخول الأندلس. ولم يتردد بدر فى الجواز إلى الأندلس واتصل بآدى ذى بدء بأبى عبدة حسان بن مالك لارتياحه إليه فبادر أبو عبدة بارسال ابنه أبى أمية عبد الغافر إلى عبد الرحمن فى ملجئه عند قبيلة نفزة ليطلعه على أحوال الأندلس ويؤكد له استعداد الموالى لتأييده^(٦).

ويميل فريق من المؤرخين الحديثين إلى التمييز بين بنى جمهور أصحاب

قرطبة، وهم الذين ينتهى نسبهم إلى أبى عبدة حسان بن مالك، وبين أسرة أخرى كانت تسمى بنى جهور كذلك، وهى أسرة الجهاروة البختيين الذين ينتمون إلى جهور بن يوسف بن بخت^(٧)، فى حين أن بعض المصادر العربية قد خلطت بين البيتين، ومن بين هؤلاء ابن عذارى الذى ذكر فى معرض حديثه عن دولة بنى جهور فى قرطبة أن مؤسسها هو «جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة»^(٨)، كما ذكر أن الجد الأعلى لهذه الأسرة وهو «بخت بن أبى عبدة» كان فارسى الأصل وأنه كان مولى لعبد الملك بن مروان وأن ابنه يوسف بن بخت دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بعدة سنين، وكان أحد كبار الموالى بقرطبة^(٩).

وحذا ابن الخطيب حذو ابن عذارى فى نسبة أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور إلى عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبى عبدة الذى كان لدخوله الأندلس على حد وصفه «أثر عظيم من جميل الذراع وسعة الباع وأسندوا إليه مهمهم وعدوا من خصله مالم يختلفوا فيه»^(١٠).

ويتضح مما سبق عرضه أن المؤرخين المذكورين يربطان بين بنى جهور البختيين، وبين بنى جهور الذين ينتمون إلى بيت «ابن أبى عبدة وهو مالانقبلة فنحن نميل الى التفرقة بين الجهاروة من بيت أبى عبدة، والجهاروة البختيين، فابن عذارى نفسه وهو أحد الذين خلطوا بين نسب البيتين ذكر فى موضع آخر من البيان المغرب مايفيد بأن وزراء عبد الرحمن الداخل كانوا أربعة هم عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت وحسان بن مالك^(١١).

ولو أننا رجعنا إلى رأيه الأول فإن يوسف بن بخت يكون طبقاً لما ذكره حفيداً لحسان بن مالك «أبى عبدة» وهذا مالايمكن أجازته بناء على ماورد فى هذا خبر الذى أشار ابن عذارى فيه إلى وزراء عبد الرحمن الداخل فقد فصل فيه تمام بين شخصية يوسف بن بخت، وأبى مالك حسان بن مالك الذى كان زميلاً له فى الوزارة وليس حفيداً له، وأورد صاحب أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس مايشير إلى أن عبد الرحمن الداخل انتقل بعد نزوله بطرش إلى دار أبى الحجاج يوسف بن

بخت فى قرية طرش Torrox، فجاءه ابن بخت نفسه وانتالت عليه الأموية كلها ومن بين من وفد عليه للترحيب به وتأييده له ومبايعته بخلاف يوسف بن بخت، عاصم بن مسلم الثقفى، وأبو عبدة حسان بن مالك، ولم يشر ابن القوطية على الإطلاق إلى وجود أية علاقة تربط بين كل من ابن بخت وأبى عبدة^(١٢)، كما أن سير الأحداث لا يدل على أن يوسف بن بخت كان حفيداً لأبى عبدة.

كذلك يفرق ابن الأبار بين كل من البيتين وأولية كل منهما بما لا يدع مجالاً لأى شك^(١٣) فى ارتباطهما أسرياً. أما ابن حيان فقد كان دائم التمييز فى أخباره بين جهاورة بنى أبى عبدة والجهاورة البخنيين^(١٤).

وكان لأبى عبدة حسان بن مالك دور كبير فى اقناع أبى الصباح اليحصبى شيخ اليمانية فى غرب الأندلس بنصرة عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فقد كان أبو الصباح يقطن فى قرية مورة من شرف اشبيلية إلى جوار أبى عبدة، ولذلك فقد عمد أبو عبدة إلى ملاطفته لحمله على تأييد عبد الرحمن والوقوف إلى جانبه وأخذ يذكره بأفضال^(١٥). بن عبد الملك تجاهه ونجح فى استمالته، ثم قام أبو عبدة ومعه أبو عبد الله بن خاند وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان بمخاطبة بقية سادات العرب اليمانية فى غرب الأندلس مثل علقمة بن غياث اللخمى، وأبو علفة الجذامى وزباد بن عمر الجذامى، كما خاطبوا رؤساء اليمانية فى البيرة وحيان ومنهم جد بنى أضحى، وبنى حسان وبنى عمر أصحاب وادى آش^(١٥).

ولم ينس عبد الرحمن الداخل لأبى عبدة حسان بن مالك هذا الصنيع وماقدمه له هو وولده عبد الغافر من أجل توطيد دعائم دولته فى الأندلس فيذكر كل من صاحب أخبار مجموعة وابن عذارى أن عبد الرحمن الداخل اختار حسان ابن مالك ليكون وزيراً له ضمن أربعة آخرين^(١٦) كما سبق أن أشرنا وبالإضافة إلى ذلك يزودنا ابن الأبار بخبر هام مماثل ذكر فيه أنه لما «توطد عبد الرحمن، استوزر أباً عبدة واستقوده، ثم استعمله على اشبيلية قائداً بها ومضيقاً على أهل باجة وغيرها، فملك الغرب أجمع خمسة أعوام إلى أن توفى باشبيلية وقبره بها»^(١٧).

وعلى الرغم من النص الذى أورده المقرئ وأكد فيه أنه لم يكن لعبد الرحمن الداخل من يطلق عليه لقب وزير، وأنه إنما عين أشيخاً للمشاور والمؤازرة فحسب

ومنهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وأبو عبدة صاحب اشبيلية وكذلك شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن الحكم وعبد السلام بن بسيل الرومي^(١٨)، فاننا نستنتج مما أورده كل من ابن الأبار والمقرئ أن أبا عبدة حسان بن مالك كان يشغل مكانة سامية في دولة عبد الرحمن الداخل بحيث اعتبر وكأنه وزير من وزرائه الأثييين لديه، ويؤكد تلك الحقيقة النص الذي أورده كل من صاحب أخبار مجموعة وابن عذارى كما سبق أن أوضحنا. كذلك نستنتج أن أبا عبدة لم يكن مجرد مستشار أو وزير لعبد الرحمن الداخل فحسب وإنما كان أيضاً من أكبر قادته العسكريين وعامله على كورة اشبيلية والغرب كله، ويفسر هذا الخبر الذي انفرد بذكره ابن الأبار أسباب تغلب الأمير عبد الرحمن على الثورات التي احتدم أوارها في غرب الأندلس، لاسيما ثورة العلاء ابن مغيث في باجة، وثورتى عبد الغافر اليماني وأبى الصباح بن يحيى اليحصبي في أشبيلية وثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطرى في لبلة^(١٩).

وبرز من أبناء أبى عبدة حسان بن مالك اثنان هما أبو أمية عبد الغافر وعبد العزيز^(٢٠).

وفيما يتعلق بأبى أمية عبد الغافر بن أبى عبدة، فقد حل محل والده لدى عبد الرحمن الداخل، فكان له نعم المشير والمعين بحيث عهد إليه عبد الرحمن الداخل، فكان له نعم المشير والمعين بحيث عهد إليه عبد الرحمن بخاتمه إلى أن مات^(٢١)، وكان على حد قول ابن الأبار من بين وزراء عبد الرحمن بن معاوية وأنه أحسن التصرف في الوزارة^(٢٢). وازدادت مكانة أبى أمية عبد الغافر بن أبى عبدة، سمواً، في عهد الأمير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٨٩٦ م) فتولى عدداً من المناصب الهامة فكان صاحب شرطته^(٢٣)، وأحد حجابيه وصاحب خاتمه^(٢٤)، واستمر يحتفظ بخاتم الامارة في عهد الحكم الرضى^(٢٥) (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م).

أما عبد العزيز بن أبى عبدة أخو أبى أمية عبد الغافر فقد ورد اسمه أيضاً ضمن حجاب الأمير الحكم الرضى^(٢٦).

وقد أنجب أبو أمية عبد الغافر عدداً من الأبناء نعرف ثلاثة منهم من خلال

ماورد في المصادر العربية هم يحيى (٢٧)، وحسن (٢٨) ومالك (٢٩) ولا نعرف عن يحيى بن عبد الغافر سوى أنه الجد الأعلى لأبي الحزم جهور مؤسس دولة الجهاورة في قرطبة، بعد انهيار الخلافة، فقد أجمعت المصادر العربية على ذلك، فجهور هو ابن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة (٣٠).

أما حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة فقد انفرد ابن حيان بذكر خبر مفاده أنه كان ضمن وزراء الأمير عبد الرحمن الأوسط (٣١) (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م).

وفيما يتعلق بمالك الابن الثالث لعبد الغافر بن أبي عبدة فقد كان وفقاً لما أورده ابن الفرضي الجد الأعلى لأبي الإصمغ عيسى بن أحمد من بني أبي عبدة، وهو أحد علماء قرطبة الموسوعيين، من أقران وزملاء ابن الفرضي نفسه (٣٢).

وفيما يلي بيان تفصيلي شامل للزاري كلي من الأبناء الثلاثة لأبي أمية عبد الغافر بن أبي عبدة:

أولاً يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة وذريته

أنجب يحيى بن عبد الغافر ولداً هو الغمر الذي أنجب بدوره أبناء عرفنا منهم ولدين هما عثمان (٣٣) ومحمد (٣٤).

وفيما يتعلق بعثمان بن الغمر، فقد أشار ابن حيان في سياق حديثه عن انبعاث الفتنة بكورة اشبيلية سنة ٢٧٦ هـ زمن الأمير عبد الله إلى استمساك جماعة من موالى الأمويين بالطاعة، ويعبر عن ذلك بقوله «فتميزت عنهم جميعاً فرقة أهل الطاعة المستمسكة بالجماعة فلم يدخلوا مع أحد من الفريقين في شيء من المعصية وأقاموا على حريتهم في التمسك بدعوة السلطان وفيهم رجال صدق من قریش ومواليهم من العرب والبرابرة وغيرهم منهم من قریش ابن الأشعث ووليد وحكيم بن هشام بن وثان، من الأمويين عثمان بن الغمر بن أبي عبدة وحسان بن عامر بن أبي عبدة ووهب بن بسيل...» (٣٥) ونلاحظ من خلال هذا النص أن ابن حيان أورد اسم عثمان بن الغمر بن أبي عبدة بين أسماء موالى الأمويين الذين

استمسكوا بالطاعة للحكومة المركزية. ونرجح أن والد عثمان من بنى أبي عبدة المذكور هنا هو الغمر بالغين وليس العين كما ورد في نص ابن حيان وأن اختفاء النقطة من فوق العين في النص انما حدث نتيجة خطأ في القراءة أو النسخ والطباعة وذلك لتواؤم الفترة الزمنية التي عاش فيها عثمان هذا (أواخر القرن الثالث الهجري) وكونه ابناً للغمر وحفيداً ليحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة.

كذلك نستنتج من نص ابن حيان هذا حقيقة هامة، وهي استمرار بقاء فرع كبير من بنى أبي عبدة في اشبيلية فقبيل دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس كان أبو عبدة حسان بن مالك مقيماً بها، كما سبق أن أشرنا ثم تولى ادارتها في عهد عبد الرحمن الداخل هي ومنطقة الغرب، وفقاً لما أورده كل من ابن الأبار، والمقرئ.

ولم يكن عثمان بن الغمر بن أبي عبدة وحده الذي كان مقيماً باشبيلية فقد أورد ابن حيان اسماً آخرأ لأحد أفراد هذه الأسرة شارك عثمان في الإقامة بها وقت انبعاث الفتنة سنة ٢٧٦هـ وهو حسان بن عامر بن أبي عبدة.

وقد يتبادر إلى الذهن أن عثمان بن الغمر بن أبي عبدة هو نفسه عثمان بن أبي عبدة القرشي المذكور بين شهود صلح تدمير على حد قول الضبى^(٣٦)، ولكنهما في حقيقة الأمر شخصان مختلفان تماماً فعثمان المذكور في صلح تدمير قد أورد العذري اسمه على أنه عثمان بن عبيدة القرشي^(٣٧) وليس عثمان بن أبي عبدة كما ذكر الضبى، وكان عثمان بن عبيدة هذا من وجوه أصحاب موسى بن نصير الذين شاهدوا معه فتح الأندلس، واسمه ثابت في كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى سنة ٩٤ هـ لتدمير بن عبدوش. وهو يتعد بذلك كثيراً عن عصر عثمان ابن الغمر بن أبي عبدة الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري.

أما محمد بن الغمر فقد تألق اسمه بسبب شهرة أحد ابنائه وهو أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبي عبدة^(٣٨) الذي تصرف للأمير عبد الله في الكور وحجابه الأولاد، والمدينة، والخيل، والقيادة ثم في الكتابة الخاصة والوزارة^(٣٩)، وكان على براعته في الآداب وعلوم البلاغة، قائداً عسكرياً قديراً أثبت جدارة في ساحات القتال وله فتوح جمّة أحرز فيها انتصارات عدة ضد المارقين

والمنتزين على الحكومة المركزية فى قرطبة، من ذلك دوره سنة ٢٧٥هـ فى مواجهة عبد الله بن خنجر الثائر على الأمير عبد الله بحصن جريشة من جيان، وكان عبيد الله آنذاك عاملاً على جيان^(٤٠)، وبادر بالخروج على رأس قواته لمواجهة ابن خنجر، وأحكم الحصار على الحصن وظل يشدد عليه الحصار إلى أن وافاه كتاب الأمير عبد الله يأمره فيه بالقفول عنه إلى حصن أرجونة، فلما فك عبيد الله بن أبى عبدة الحصار عن ابن خنجر، طمع فيه هذا الثائر فحشد عليه كل الثوار من جهة البيرة وتدمير واعترضوا طريقه بجبل افركلس وهناك دارت معركة عنيفة تغلب فيها عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة على ابن خنجر واصحابه وقتل منهم خمسة وسبعين رجلاً واعتصم فلهم بجال المنطقة^(٤١).

وكان لأبى عثمان عبيد الله كذلك دور كبير فى الانتصار الذى احرزته جيوش الامارة فى المعركة الحاسمة التى دارت بين الأمير عبد الله وبين عمر ابن حفصون عند بيشتر فكافة الأمير عبد الله بتقليده الوزارة، ويعبر ابن حيان عن ذلك بقوله «وكان لأبى عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبى عبدة فى اليوم الذى وقعت فيه الحرب بين الأمير عبد الله وبين المارق عمر بن حفصون عندما أخذ عليه المضيق عند منصرفه عنه عند بيشتر قاعدته مقام محمود وغناء عظيم فاق فيه جميع أهل العسكر نظر الله الأمير عبد الله ولم يغيب عنه فقدمه خطة الوزارة يومه ذلك وازدادت منزلته فنال بذلك الذروة»^(٤٢).

ويؤكد ابن عذارى ما ذكره ابن حيان فقد أورد خبراً مفاده أن الأمير عبد الله عهد بقيادة الصوائف لعدد من أفراد أسرة «أبى عبدة» أبرزهم عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة، ومسلمة بن على بن أبى عبدة، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة، كما أكد على أن عبيد الله تقلد الكتابة للأمير بالاضافة إلى القيادة^(٤٣)، وحدث أنه اعتل وهو يتولى الكتابة^(٤٤) وفى ذلك يقول العتبي الشاعر^(٤٥)؛

لأينع العى مذ أصبحت مرتدياً .: ثوب السقام وجفت زهرة الكلم
واستوحش الطرس من أنس البديع اذا .: نشبت فيه وطالت عجمة القلم^(٤٦)

كذلك كان له دور كبير فى تهدئة احداث الفتنة التى انبعثت باشبيلية زمن الامير عبد الله واعتزم عبيد الله أداء فريضة الحج وعند عودته إلى قرطبة زهد فى

المناصب والسلطة وأُخلد إلى الخمول ولزم داره إلى أن توفاه الله سنة ٢٩٦ هـ آخر أيام الأمير عبد الله، وكان عبيد الله بن أبي عبدة شاعراً مجيداً ومن أشعاره:

صدود ليس يبلغه عقاب .: وعتب ليس يثنيه عتاب
وابعداد - بلا ذنب - طويل .: واعراض وهجر واجتناب
فلاسه يطيّب ولارقاد .: ولاطعم يسوع ولاشراب
فحسمي ناحل والجفن منى .: قريح والفؤاد له اضطراب
وموت عاجل أحلى وأشهر .: إلى من أن يطاولني العذاب (٤٧)

وكان أبو عثمان عبيد الله قد أنجب عدداً من الأبناء، منهم ثلاثة أبناء وردت اسماءهم في المصادر العربية هم عثمان ومحمد وجهور.

أما عثمان فقد ولاه الخليفة عبد الرحمن الناصر طرطوشة وثرغرها سنة ٣١٧ هـ (٤٨) وأما محمد فكان أس من أخيه جهور وإن كان جهور أشهر منه. وقد تصرف محمد هذا في الكور والقيادة، كما كان شاعراً بارزاً أنشد له الحميدى يخاطب أبا عمر ابن عبد ربه:

أعدها في تصايها خداعاً .: فقد فضت خواتمها نزاعاً
قلوب يستخف بها التصابي .: إذا أسكنتها طارت شعاعاً

فأجابه:

حقيق أن يصاخ لك استماعاً .: وإن يعصى العذول وأن تطاعاً
متى تكشف قناعك للتصابي .: فقد ناديت من كشف القناعا (٤٩)

وفيما يتعلق بالابن الثالث جهور بن عبيد الله فقد تولى نفس المناصب التي كان يتولاها أبوه عبيد الله للأمير عبد الله في أواخر عهده (٥٠)، كما سجل له الخليفة الناصر في ربيع الأول من سنة ٣١٨ هـ على كورة اشبيلية (٥١).

وكان قد تولى اشبيلية في سنة ٣١٨ هـ ثم عزل عنها وتولى في سنة ٣٢١ هـ كورة شذونة بدلاً من أمية بن اسحاق القرشي (٥٢)، ثم عزله الناصر عنها في سنة ٣٢٢ هـ ووليها مكانة أحمد بن أبي العاص (٥٣)، وعاد ليتولى كورة اشبيلية من جديد في سنة ٣٢٣ هـ (٥٤).

ويشير ابن حيان في سياق عن أحداث سنة ٣٢٤ هـ إلى أنه في هذه السنة عزل جهور بن عبيد عن كورة اشبيلية وتولاها ولده محمد بن جهور بن عبيد

الله (٥٥). وكان جمهور من بين من شهدوا على الأمان الذي أعلنه الناصر للثائر محمد بن هاشم التجيبي سنة ٣٢٥ هـ (٥٦)، كما لعب جمهور دوراً هاماً في إعادة هذا الثائر إلى الطاعة والخضوع للحكومة المركزية بقرطبة، فقد كان محمد ابن هاشم يأمن لجمهور لما عرف عنه من صدق وأمانة، وكان على حد قول ابن حيان «آخر من تردد إليه من رجال السلطان وكان يثق بصدقه والصدق عنه فسكنت بجمهور نفرت وأصبحت مقادته واطمأنت روعته فأصبغت إلى الإنابة ولاذ بالتوبة فقبل السلطان انابته وبذل له الأمان» (٥٧).

وكان الخليفة الناصر قد بعث السفراء سفيراً تلو الآخر إلى محمد بن هاشم التجيبي أثناء ثورته بسرقسطة ليعرضوا عليه الأمان حقناً للدماء وكان جمهور آخر هؤلاء السفراء، وقد استنتجنا من النص أنه نجح تماماً في مهمته هذه وعاد بموافقة هاشم على بذل طاعته للخليفة الناصر (٥٨).

ويبدو أن نجاح جمهور بن عبيد الله في مهمته الدبلوماسية تلك، قد عززت من مكانته في نفس الخليفة الناصر، إذ أننا نطالع في أخبار سنة ٣٢٦ هـ نبأ وفاة أحد الوزراء وهو سعيد بن المسر القرشي المرواني، فبادر الناصر بتنصيب جمهور بن عبيد الله بن محمد أبي عبدة مكانه في الوزارة كما ولاه خطة المدينة في شهر ربيع الأول من نفس السنة (٥٩).

واستمر جمهور بن عبيد الله يؤدي عمله وزيراً مدة عامين فقد أورد ابن حيان اسمه بين وزراء الخليفة الناصر العشرة في أخبار سنة ٥٢٨ هـ (٦٠) ثم حدث أن أصدر الناصر أمره في سنة ٣٢٩ هـ بعزل جميع وزرائه بغتة لأمر أنكره عليهم صرفهم به جميعاً إلا قليلاً منهم، وكان جمهور بن عبيد الله من بين الذين عزلهم من منصب الوزارة، وإن كان صرفه عنها هو وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي قد تأخر بعض الوقت إلى غرة ذي القعدة من هذه السنة (٦١) ثم عاد الناصر فأعاد بعضهم إلى الوزارة سنة ٣٣٠ هـ، وكان جمهور من بين الذين أعيدوا إلى الوزارة في هذا العام (٦٢).

ونعتقد أن جمهور استمر وزيراً للخليفة الناصر حتى سنة ٣٤٤ هـ فقد أورد ابن عذارى خبراً هاماً في أحداث سنة ٣٤٤ هـ أشار فيه إلى أن الناصر ثقف أمور

الخدمة السلطانية وقام بتوزيعها بين وزرائه فقلد جهور بن أبى عبدة الذى وصفه ابن عذارى «بالوزير» النظر فى كتب جميع أهل الخدمة^(٦٣).

وكان لجهور بن عبدة الله بن أبى عبدة عدد من الأبناء أشهرهم أبو الوليد محمد^(٦٤) الذى تقلد هو الآخر منصب الوزارة^(٦٥) وكان من أهل الأدب والشعر^(٦٦)، ذكره ابو محمد بن حزم ومن أشعاره:

أبلغت فى جبل أسماعى فصرت	لا أصغى إلى الداعى
من صمم أورثنييه الأسى	وحرقه تشعل أوجاعى
كلفتنى الصبر وأنى به	وكيف بالصبر لمراع ^(٦٧)

وحظى أبو الوليد محمد عند الحكم المستنصر الذى ولاه فى سنة ٣٥١هـ على شرطة المدينة بقرطبة بدلاً من عبد الله بن بدر، وأنفذ له الحكم سجلاً بذلك بخط يده^(٦٨). وأنجب أبو الوليد محمد ابناً هو أبو الحزم جهور مؤسس دولة الجهاورة فى قرطبة فى عصر دويلات الطوائف، ومنذ ظهور أبى الحزم جهور على مسرح الأحداث السياسية فى قرطبة تحول اسم هذه الأسرة من آل «بنى عبدة» إلى «بنى جهور»، والحديث عن أبى الحزم جهور وأسرته يخرج عن دائرة البحث باعتباره من الموضوعات التى تناولها كثير من الباحثين بالدراسة^(٦٩).

ثانياً: حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة وذريته

ذكرنا فيما سبق أن حسن بن عبد الغافر كان طبقاً لما أورده ابن حيان وزيراً للأمير عبد الرحمن الأوسط^(٧٠). وقد أفاض ابن حيان فى الحديث عن شخصية ولده الحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة الذى تولى الحجابة للأمير محمد بعد حاجبه عيسى بن شهيد^(٧١) فقد وصفه ابن حيان بحسن الخلق والتصرف فى أمور الدولة وكانت كلها تجرى على غاية التصحيح والاستقامة كما كان حكيماً فى إصدار آرائه التى رسمت بالإصابة، ويصفه ابن حيان أيضاً بسرعة البديهة فاذا وقع فى أمر غير موفق أحسن الخروج منه بالحيلة، فما أثار عليه حسد كبار الشخصيات فى المجتمع وكبار الوزراء^(٧٢) أمثال هاشم بن عبد العزيز، وتمام ابن عامر بن تمام ومحمد بن موسى وغيرهم من المقربين من الأمير محمد. وكان

يغلب على الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة رغم ذكائه وسرعة بديهته، نوع من حسن النية عبر عنها ابن حيان بغفلة السلامة^(٧٣) مما شجع حساده ومنافسيه لاسيما الوزير هاشم بن عبد العزيز على توريطه في أمر دفعوه لكي يكون أول متكلم فيه أمام الأمير محمد بعد أن وعدوه في الظاهر بنصرتهم له فيما يذهب إليه من رأى بينما يضمرون في الواقع خذلانه مستهدفين اسقاط مكانته امام الأمير. فلما بدأ الحاجب عيسى في الحديث عن ذلك الأمر بادروا بنقده ناكثين بذلك وعودهم بتأييده وأخذوا يسفهون رأيه ويهزأون منه لاجراجه أمام الأمير ففطن الحاجب عيسى إلى ما يهدفون إليه، وطلب من الأمير أن ينفرد به، فلما فعل حدث الأمير في أمر آخر لاعلاقة له بما اتفق مع الوزراء على اثارته من قبل. وكان الأمر الذي ناقش فيه الأمير محمد بعد أن هداه الله إلى فتحه وساقه إليه حضور بديهته وسرعة تفكيره للخروج من ورطته متعلقاً بمصلحة من مصالح البناء وشراء كميات من الأخشاب، فشكره الأمير محمد على تذكيره بذلك واثنى على اهتمامه وغيرته على مصالح الامارة وصدق نصيحته^(٧٤). ولم يكف الوزير هاشم بن عبد العزيز عن الكيد للحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة والتآمر عليه، ومما يؤكد ذلك القصة التي أوردها ابن حيان في سياق حديثه عن القائد عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث، فقد رأى الأمير محمد ان يوليه الغرب كله لكفايته وشجاعته في ميادين القتال، فجمع له قلمرية وباجة، وأمر الأمير محمد بأن يعقد سجله وكلف الحاجب عيسى بابلاغه بمكان ولايته، ولكن عيسى نسى المكان فسأل وزيره هاشم ابن عبد العزيز ليذكره، فضلل هاشم سعيًا منه في اجراجه فقال له باغة. ولما كانت باغة (التي تقترب في نطقها من باجة الموضع الأصلي المناط بعبد الحميد بن مغيث قيادته) بلدة صغيرة من أعمال غرناطة، قليلة الشأن والخطر، عديمة الأهمية، فقد ثار عبد الحميد بن مغيث وتنمر عندما أخبره عيسى بن أبي عبدة خطأً بنأ توليه قيادتها ورد عليه بما يفيد أن غلامه يرفض أن يتولاها وأن في ولايته لها تقليل من قدره وبادر القائد عبد الحميد بكتابة احتجاج للأمر محمد، الذي أغرق في الضحك عند قراءته له وأرسل إليه قائلاً أنه يعلم بالقصة وبمن خدعه وأوصى له بولاية الغرب^(٧٥).

ويعلل ابن حيان سبب انحراف هاشم عن عيسى بن أبي عبدة وكرهيته له رغم فضله وحسن سيرته بصداقة عيسى بن أبي عبدة لخالد بن عبد الله عم الوزير هاشم، فقد كان بين خالد بن عبد الله وهاشم ابن أخيه، خلاف وعداوة، وكان عيسى يقول لهاشم اذا انبسط عليه: وقر يا صبي فيقول له هاشم: «رب صبي ارسخ عقلاً من هرم» (٧٦).

وكان عيسى من القادة العظام ليس في مجال الحروب البرية فحسب بل وفي المعارك البحرية أيضاً ففي عام ٢٤٥ هـ، اغار النورمان على ساحل الغرب من أرض الأندلس في اثني وستين مركباً (٧٧) وكان هذا هو خروجهم الثاني (٧٨) إلى شبه الجزيرة الايبيرية فوجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة، فتقدم مركبان من مراكب النورمان نحو الساحل الشمالي الغربي من ساحل الأندلس فطاردهما بعض سفن الأسطول الأندلسي وتمكنت من أسر المركبين في بعض كور باجة وغنمت ماكان فيهما من ذهب وفضة، ومرت سائر مراكب الجيوش في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر اشبيلية في البحر (٧٩)، فبادر الأمير محمد باخراج الجيش إلى الغرب وأمر باستنفار الناس إلى العدو الطارق فنفر الناس من كل أوب، وتولى الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة قيادة جيش الامارة الرسمي وكذلك جيوش المطوعة (٨٠). وقد فصل كل من ابن حيان وابن عذارى تفاصيل الغارة النورمندية، فذكر أن النورمان تقدموا حتى احتلوا الجزيرة الخضراء واستباحوا أهلها وأحرقوا مسجدها الجامع، ووصلوا حتى ريف الأندلس الشرقي وسواحل تدمير ثم انتهوا إلى حصن أوربولة وتقدموا إلى افرنجة حيث أمضوا فصل الشتاء وأصابوا الذراري والأموال وتغلبوا على إحدى المدن التي نسبت اليهم ثم انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس، فلقيتهم المراكب التي كان قد أعدها لهم قرقاشيش بن شكوح وخشخاش، وواجهوهم بالنفط وأصناف العدة البحرية، وفي هذه المعركة استشهد خشخاش، ومضت بقية سفن النورمان منسحبة نحو الشمال حتى ادركت أسوار بنبلونة وأغارت على البشكنس.

ونلاحظ هنا أن المصادر التي تحدثت عن المعركة التي دارت بين جيوش الامارة والمتطوعين بقيادة عيسى بن أبي عبدة الحاجب وبين الجيوش ٢٤٥ هـ، لم

تشر إلى قيادة عيسى بن ابي عبدة للأسطول، وإنما اكتفت بالإشارة إلى دوره في قيادة الجيوش المنظمة والمتطوعة، وركزت الأنظار على الدور الذي قام به كل من خشخاش وقرقاشيش بن شكوح في المقاومة البحرية.

ولكن ابن حيان انفرد في أخبار سنة ٢٤٧ هـ عند عرضه لأحداث الهجوم الذي شنه النورمان على الأندلس^(٨١) بذكر خبر مفاده أن الحاجب عيسى بن الحسن زاد بمن معه في الأسطول وعلى رأسهم خشخاش وابن شكوح عن اشبيلية^(٨٢) وفي ذلك ما يؤكد بأن عيسى بن أبي عبدة الحاجب تولى قيادة الاسطول بالإضافة إلى قيادته للجيش والمطوعة.

ويذكر ابن حيان في أخبار سنة ٢٥١ هـ أن الأمير محمد أرسل ولده المنذر على رأس الصائفة إلى ألبه والقلاع وقد تولى قيادتها عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب^(٨٣) فأوغل في أرض العدو وخرب وانتسف وجال ودمر، وفي موضع ذكره ابن حيان بفج المروكيز^(٨٤) اشتبكت قواته بقوات أمير الجلالة ودارت موقعة ضارية انهزم فيها الجلالة وقتل منهم وأسر اعداد عظيمة^(٨٥).

ويبرز أسم محمد من بين ابناء عيسى، وتشير المصادر العربية لاثنين من أبناء محمد بن عيسى الحاجب هما عيسى^(٨٦) وأبو العباس أحمد^(٨٧) اللذين تقلدا منصب القيادة العسكرية في عصرى الامارة والخلافة.

أما عيسى بن محمد بن أبي عبدة، فقد أورد ابن حيان ذكره في أخبار سنة ٣٣٠ هـ، بمناسبة صدور أمر الناصر بتقليده على كورة لبلة بدلاً من عمر بن أحمد^(٨٨). وأما أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن الحسن بن أبي عبدة^(٨٩) فقد ولى الكتابة للأمير عبد الله إلى جانب أبي عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبي عبدة^(٩٠)، كما ولاه الأمير عبد الله الوزارة والقيادة العليا^(٩١). ويذكر ابن القوطية أن أبا العباس أحمد تولى القيادة بعد وفاة القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية بن يزيد وكان قبل ذلك وزيراً وصاحباً للمدينة^(٩٢).

ويعد أبو العباس أحمد من أعظم القادة العسكريين الذين انجبتهم الأندلس فقد اضطلع بالعبء الأكبر في محاربة الثوار والمنتزعين على قرطبة طوال عهد الأمير عبد الله ولولا جهوده الموفقة لكانت دولة بني أمية في الأندلس تعرضت للانهايار خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس^(٩٣).

ورغم تولى أبى العباس أحمد عبء القيادة العسكرية زمن الأمير عبد الله فقد ظل يجمع بينها وبين الوزارة، واستمر أبو العباس يجمع بين المنصبين حتى وفاة الأمير عبد الله حيث يؤكد ابن حيان أنه عند وفاة هذا الأمير كان له أربعة وزراء فحسب هم العباس بن عبد العزيز القرشى المروانى وأحمد بن محمد بن أبى عبدة، ومحمد بن وليد بن غنيم وعبد الله بن محمد الزجالى الكاتب^(٩٤).

وقد لعب الوزير القائد أبو العباس أحمد دوراً كبيراً فى استئزال الثائر خير بن شاكر بحاضرة جيان وفى ذلك يذكر ابن حيان أنه فى سنة ٢٧٧ هـ «غزا القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة إلى حاضرة جيان وبها خير بن شاكر على الخلاف فحاصره بالحاضرة وقتل جميع أصحابه وبعث برءوسهم إلى قرطبة وأحرق كثيراً من دور الحاضرة وبلغ بحربه لهم وشداته عليهم باب يعلس وسلم الله أصحابه على استئصالهم فلم يبق منهم غير الرياحى العريف...»^(٩٥).

ولعب أبو العباس أحمد بن أبى عبدة الوزير القائد دوراً كبيراً فى إخضاع كل من ابن هذيل وحريز بن هابل وديسم بن اسحاق سنة ٢٨٣ هـ، وفى هذا العام غزا بالصائفة الأمير هشام بن الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانت الحملة بقيادة أبى العباس أحمد بن أبى عبدة، وسميت هذه الغزوة بغزوة تدمير، فقد خرجا من قرطبة على رأس جيش الامارة عقب ربيع الأول من هذه السنة ونزلوا على حصن قامرة من أعمال رية على وادى بلون، ثم تابعوا السير إلى أن نزلوا على قلعة الأشعث وشرعوا فى افساد زرع ابن هذيل وأقاموا على هذه القلعة أياماً، ثم خرج القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة بالعلافة لافساد الزروع وانتساف الأشجار فاضطر ابن هذيل إلى الخروج من قلعته واشتبكت قواته مع قوات أحمد بن أبى عبدة فى معركة حامية استمرت من الصباح حتى وقت صلاة الظهر وقد حسم المعركة موقف ابن هذيل نفسه الذى أرسل رسوله يطلب الأمان ويشترط أن يكون والده هو الذى يأخذ له أمانه فأجيب إلى طلبه وتم صلحه على مارسمه ونزل والده إلى الأمير هشام فتوثق لابنه وأرسل إلى قرطبة ضمن الرهائن^(٩٦).

ويذكر ابن حيان أن جيش الامارة واصل تقدمه لمواجهة الثائر حريز بن هابل فى بختورة، وشرع فى تدمير المزارع وانتسافها طوال مسيرته ثم واصل زحفه حتى

أشرف على الوصول إلى بياسة التي كانت تابعة للحكومة المركزية، فأقامت بها قوات الإمارة مدة ثلاثة أيام رحلوا بعدها إلى بلدة تشكر التي كانت قد خلت تماماً من سكانها فأمر الأمير هشام باحراقها هي وحصنين آخرين بجوارها.

واتفق أن هطلت الأمطار الغزيرة واجتاحت المنطقة موجة عاتية من البرد القارس واستمر هطول الأمطار أياماً، ولكن ذلك لم يفت في عضد قوات الإمارة فلم تلبث أن حطت على حصن بختوية وفيه حريز بن هابل، فاضطر إلى الخروج عن حصنه مع قوة من عساكره واشتبك مع جيش الإمارة في معركة عنيفة انتهت بهزيمة حريز فلما أيقن بالهزيمة لاذ بالأمان وأرسل ولده رهينة وضمن الفين وخمسمائة دينار وثمان خيل الجند المعقورة للإمارة في حربه، فأجيب إلى التماسه وتم عقد الصلح بين الجانبين وكتب له الأمان. ثم تابعت الحملة سيرها حتى وصل جيش الإمارة إلى حصون البراجلة وحط عسكر قرطبة بطرش منها وأثناء ذلك عصفت بهم ريح عاتية صاحبها مطر شديد ورعد وبرق مفرع، وبعد أربعة أيام ازدادت العاصفة عنفاً واتفق ذلك يوم الاحتفال بعيد العنصرة ولكنها لم تعق الحملة عن متابعة... فقد مضت الجيوش إلى حصن اللقون وقاتلت حاميته وتمكنت من التغلب عليها والاستيلاء على الحصن فأصابته به خيلاً ومتاعاً وطمعاً وفيراً، ثم أمر القائد أحمد بن أبي عبدة باخراج اتباع ابن هذيل من الحصن وابدلهم بالعرب والبربر ثم جدد عمارة الحصن. ولما فرغ من كل هذه المهام أمر قواته بالسير إلى حصن ونجة من حصون وادي آش وهناك أقامت إياماً، ثم رحلت إلى حصن رغشانة من تاجلة وركب القائد أحمد بن أبي عبدة لمنازلته مع صلاة الظهر. فلما توجه إليه لم يجد فيه ما يستحق عناء القتال فلم يقاتل أهله، ثم تابع الجيش زحفه إلى بسطة ومنها إلى بلش وقاتل أهلها يومين خرب خلالها العمران ودمر الزروع وقتل عدداً كبيراً من أهلها ثم غادرت قواته بلش لمهاجمة بقية حصون ديسم بن اسحق بتدمير وتخريبها وتدمير أسوارها. ويذكر ابن حيان أنه نزل على مائة من حصون هذا التأثير في وادي طادرو، وكان من أشهرها حصن رقوط الذي ناشب أهله الحرب، واستمات أصحاب هذا الحصن في الدفاع عنه، ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً فلم تلبث جيوش الإمارة أن تغلبت على الحصن وأوقعت بحماته هزيمة نكراء وقتل في المعركة عدد كبير من أنجاد أصحاب الحصن أما بضربات

سيوف ابن ابي عبدة وجنده أو عرقاً في الوادي، وكان من بين وجوه القتلى انا عمر دى النول الشنترى، وغاز بن عزوان الطلبرى، ثم نزل الجيش الى مرسية فنزل بها على طادور وتلوم بها عشرة أيام حتى تقاضى مغارم هذه المنطقة، ثم رحل، القائد احمد بن ابي عبدة الى الثائر ديسم بن اسحق بلورقه Lorca الذى أصر على العصيان فاشتبك جيش بن ابي عبدة مع قوات ديسم فى موقعة دارت على مقربة من لورقة وانتهت بهزيمة الثوار وارتداد ديسم بن اسحق إلى قرطبة^(٩٧)

ويبدو أن الوزير القائد أبا العباس أحمد بن أبى عبدة الذى كان كما أشار ابن القوطية صاحباً للمدينة قبل توليه قيادة جيوش الإمارة، قد عزل عنها فيما بعد، استناداً على رواية ابن حيان الذى يشير فى أخبار سنة ٢٨٣ هـ بعد حديثه عن أخبار انتصارات هذا القائد على الثوار والمنتزعين والتي تحدثنا عنها فيما سبق إلى أن الأمير عبد الله عزل مروان بن عبد الملك بن أمية عن المدينة وولاها القائد أبا العباس أحمد بن محمد بن ابي عبدة بدلا عنه ونرجح أن اعادته لولاية المدينة كان تقديراً منه لجهوده فى اخضاع المتمردين والخارجين على سلطان الحكومة المركزية واعادة الهيبة الى الأمير الأموى.^(٩٨)

ولم تقتصر جهود القائد الوزير ابي العباس أحمد بن محمد بن ابي عبدة على منازلة ابن هذيل وحريز بن هابل وديسم بن اسحاق سنة ٢٨٣ هـ، فقد واصل بذل جهوده العسكرية عام ٢٨٤ هـ، لمنازلة ابن خصب الثائر فى منت ميور، وخرج على رأس جيوش الإمارة فى صائفة هذا العام إلى لبلة ولقنت وكان يغزو بها الأمير ابان بن الأمير عبد الله^(٩٩)

وقامت جيوش الامارة بالاغارة على حصن مرشانة واحتلته رغم سوء الأحوال الجوية وشدة العواصف ثم أغارت على مزارع برديس ولقندر وقصر ابن غراب بمرور، واحتلت بقلسانة وتلوم بها العسكر اياماً ثم انتقلوا بعدها الى مدينة شريش فخرجت الخيل فى العلافه وعليها مسلمة بن السليم فتغلب خيالة قرطبة على خيالة المتمردين وقتلوا منهم عددا كبيرا، ويذكر ابن حيان ان القائد أبا العباس بن ابي عبدة نجح فى القضاء على قوة عسكرية كانت تكمر بالقرب من شريش ثم

هاجم شعونشة وجبل جعفر وصخرة ابي مالك وفنت طحنة واراشرت من كورة اشبيلية، ثم زحف جيش الامارة الى حصن منت ميور مقر الثائر ابن خصيب (١٠٠٠) فحاصره، وقذف المدينة بقذائف المجانيق حتى أرغم ابن خصيب على بذل الطاعة فانعقد أمانه.

كذلك كان للقائد ابي العباس احمد دور في انهالك قوى عمر بن حفصون إمام الثوار وأعتاهم، بهجمات العنيفة التي كان يشنها في ابريل من سنة ٢٨٤هـ، ووردت تفاصيل ذلك في المقتبس لابن حيان، فقد ذكر أن الأمير عبد الله أصدر أوامره الى ولده ابان بالخروج في صائفة أخرى بخلاف الصائفة الاولى التي كانت تستهدف ابن خصيب والى أشرنا اليها في الفقرة السابقة، وتولى قيادة الحملة ايضا القائد احمد بن ابي عبده، وكانت وجهته هذه المرة الى مناطق نفوذ عمر بن حفصون ، وعرفت هذه الغزوة بغزوة الجزيرة .

وقد هاجم جيش الامارة في طريقه الى طريف والجزيرة الخضراء عدة حصون لابن حفصون اهمها 'ن منت شنت' . وعند مدينة الجزيرة الخضراء اشتبكت قوات ابن حفصون مع جيش الامارة في معركة عنيفة استغرقت يومين متتاليين وانتهت لصالح جيش قرطبة الذي تقدم نحو حصن لورة وتجدد القتال عليه وانهزم الثوار التابعون لابن حفصون، ووقع في اسر ابن ابي عبده، «أحمد بن محمد» كبير ثوار البرانس الذين كانوا يمدون عمر بن حفصون بنيرة والمؤن وعدد كبير من أتباعه وضرب رقابهم في أول يوم من شهر شعبان من نفس هذه السنة ومضى ابن ابي عبده على رأس الجيش في طريقه مفتتحا عدة حصون من القصر الى مرسى الشجر الى خندق الجنة الى سهيل الى ذكوان حيث نزلها يوم الاثنين الموافق أول يونيو من سنة ٢٨٤هـ، وهناك اشتبكت قواته مع القوات التابعة لابن حفصون وقتل عددا كبيرا من وجوههم من بينهم احمد بن خيرون وابن الأيسر، ومضت الجيوش الاميرية على «قصر بنيرة» حيث تجدد الاشتباك مع الثوار فانهزم ابن حفصون وأتباعه الذين ولوا الأدبار ولاذوا بالجبال الوعرة، وواصل جيش بن ابي عبده زحفه في المناطق التابعة لابن حفصون الى أن وصل العسكر إلى « وادي بني عبد الرحمن» .

قبالة ببشتر ، فتلوم العسكر على تدمير لمدة ستة أيام لم يقع خلالها أى قتال ، ثم تابع الجيش تقدمه حتى نزل على مدينة ارشدونة يوم العنصرة، فاندلع القتال حتى منتصف النهار، وانهزم الثوار وأذعنوا بالطاعة، وتوقف القتال فى اليوم التالى بعد الاتفاق على شروط التسليم، ولكن الثوار لم يلبثوا أن نكثوا بعهدهم فتجدد القتال بكل عنف وأرغم ابن ابى عبدة الثوار على الاذعان بالطاعة والتماس الأمان، ولم يكتف القائد ابن ابى عبدة بذلك فقد تابع السير بقواته حتى نزل فى المرج بحاضرة البيرة فى أول يوم من يوليو من نفس السنه ، ومن هناك انتقل إلى حصن غرناطة فحصنى شلو بينية فمنت قاية ثم إلى عريفون حيث قضى فترة عيد الفطر وتحرك بعد ذلك نحو اندرش إلى أن وصل إلى ببشتر نفسها قاعدة الثائر ابن حفصون فأحكم عليها ابن ابى عبدة الحصار مدة ثلاثة أيام، كما أغار بقواته على ما حولها من مدن وحصون، فاستولى على حصن مرشانة ومن روى وقلشانة ومدينة سامى بوادى آش وطربلة الحمة وحصن المرة والبنبول وحصن منتيشة. واكتفى احمد بن ابى عبدة بما احرزه من انتصارات على قوات ابن حفصون وما استولى عليه من حصونه وقفل عائداً إلى قرطبة^(١٠١).

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من جهود بذلها القائد الوزير ابو العباس أحمد ابن ابى عبدة، فقد كان له الفضل فى تخليص الامارة من الثائر طالب بن مولود فقد خرج فى سنة ٢٨٧هـ بصائفة إلى كورة مورور وحاصر المضرية الشوار بها وزعيمهم طالب بن مولود وأنهى هذا القتال بهزيمتهم ومصرع زعيمهم ابن مولود، ثم تقدم بعد ذلك إلى كورة شذونة فاجتاحها ثم تجاوزها إلى كورة رية حيث اشتبكت قواته بثوارها وتمكنت من التغلب عليهم^(١٠٢).

وفى هذه السنة (٢٨٧هـ) تجدد القتال بين قوات القائد ابى العباس أحمد وقوات الثائر عمر بن حفصون الذى تحالف مع ابراهيم بن حجاج المتغلب على كورة اشبيلية وكان الثائران المتحالفان قد التقيا بمدينة قرمونة التى كانت تابعة لابن حجاج، وتعاهدا على التنسيق والتعاون فيما بينهما وأخذ كل منهما يرسل للآخر المؤن والخيول. وقد تولى فجيل بن ابى مسلم الشذونى قيادة الفرقة التى أمد بها

ابراهيم بن حجاج عمر بن حفصون . وكان فجيل محاربا شجاعا مجريا ، فاتفق مع ابن حفصون على محاربة قوات القائد ابي العباس أحمد ودارت بين الفريقين موقعة عنيفة راح ضحيتها عدد كبير من فرسان جيش الامارة الذين بدأوا في التراجع والانسحاب ، ولكن القائد القدير ابن ابي عبدة تمكن من الالتفاف حول الثوار المتحالفين وأوقع بهم الهزيمة مما غير من نتيجة المعركة لصالح جيش الامارة . وكان فجيل بن مسلم قد نصح ابن حفصون بأن يكتفى بانتصاره الأول على ابن ابي عبدة ونهاه عن مطاردته ولكن ابن حفصون وقد اعماه غروره ، رفض الأخذ بنصيحة حليفة وتمادى في تتبع فلول جيش الامارة مما سهل على ابن ابي عبدة عملية الالتفاف حول جيشه وابدال الهزيمة بنصر ساحق لقوات الامارة وانتهت هذه المعركة بانتصار القائد ابن ابي عبدة وارسله عبد الرحمن بن ابراهيم ابن حجاج وابن أخى عمر بن حفصون إلى الأمير عبد الله (١٠٤) .

كما كان للقائد ابي العباس أحمد الفضل الأول في القضاء على ثورة عمر ابن مضم الهترولى الملاحى فى جيان ، ففى سنة ٢٨٩هـ حاصر القائد ابو العباس احمد حاضرة جيان فافتتحها وقبض على ابن مضم وأرسله إلى قرطبة (١٠٥) .

وفى سنة ٢٩١هـ (٦ من جمادى الآخرة) خرج الأمير ابان بن الأمير عبد الله فى الصائفة المعروفة بغزوة رية (١٠٦) ، وتولى القيادة ايضا الوزير القائد ابو العباس احمد وذلك بنية قتال عمر بن حفصون . واشتبك جيش ابن ابي عبدة بقوات عمر بن حفصون عند قلعة ببشتر فى معركة ضارية وفشت الجراح خلالها بين الفريقين خاصة بعد أن نجح ابن حفصون فى استدراج قوات الامارة لكمين نصبه لهم ، فاستشهد جماعة من خيرة فرسانهم امثال زيدان غلام الامير المنذر ، ورغم ذلك قد تمكن جيش الامارة من اعادة تنظيم قواته فحملوا حملة رجل واحد على الثوار وهزموهم وارغموهم على التراجع إلى وادى ببشتر والاعتصام بالمناطق الوعرة .

وبعد يومين تجدد القتال ، وتمكن القائد ابو العباس أحمد من ايقاع الهزيمة بقوات ابن حفصون للمرة الثانية وأقدمت قواته على حرق القرى المجاورة لببشتر

والكنائس الفخمة حولها وعقر كثير من خيول الثوار وقتل عدد كبير منهم . واستمرت المناوشات مدة ستة عشر يوماً حتى الحق ابن ابي عبده هزيمة نكراء بقوات الثائر ابن حفصون^(١٠٧) عند بيشتر وانتقل بعد ذلك إلى لوشة ثم إلى طرش حيث خرج أهلها لقتاله فهزمهم القائد ابن ابي عبده وقتل زعيمهم المعروف باسم «أخي زيني» المتحالف مع ابن حفصون، ثم نازل الحصن وحاصره وضربه بالمنجنيات وأمر جيشه بحرق وتدمير ونسف الزروع المحيطة بهذه المنطقة، كذلك أحتل القائد ابن ابي عبده بمسانة من قرى قبره قبيل قفولة إلى قرطبة، وقد استغرقت الصائفة ثلاثة أشهر وستة عشر يوماً^(١٠٨).

كذلك تشير المصادر العربية إلى الدور الكبير الذي قام به الوزير القائد ابو العباس أحمد ابن ابي عبدة في استئصال بني الخليفة البربر الذين ثاروا على الحكومة المركزية بحصن قبيط من كورة تاكرنا، ففي سنة ٢٩٣هـ، دخل القائد القدير ابو العباس أحمد بن ابي عبده بجيشه إلى هذا الحصن، وولى عليه عاملاً من قبل الأمير عبد الله واستنزل من كان فيه من ثوار هذه الاسرة^(١٠٩).

كما تشير المصادر إلى دوره في استئصال مساور بن عبد الرحمن الثائر بحاضرة رية، ففي يوم الجمعة ٢١ من رجب سنة ٢٩٤هـ غزا أبان ابن الأمير عبد الله في صائفة إلى الجزيرة الخضراء في حين تولى ابو العباس أحمد قيادة جيوش الامارة، وتقدمت قوات الامارة إلى حصن لوزة وحاصروه وقضوا على بعض الثائرين فيه، ثم واصلوا السير حتى حاضرة رية وبها مساور بن عبد الرحمن فأحرقوا أرباض الحاضرة وحاصروا من كان فيها وأرغموا مساور على الإذعان للطاعة فبادر بتقديم الرهائن اظهاراً لحسن النية والرغبة في السلم فأجيب إلى ذلك، ولم يكتف ابن ابي عبدة بذلك الانتصار، فقد تقدم إلى الساحل فهاجم كل الثوار هناك وخرج من حصون البيرة قافلاً إلى قرطبة فدخلها في الثاني من ذي القعدة من نفس السنة^(١١٠).

وفي سنة ٢٩٥هـ تجدد خروج ابان بن الأمير عبد الله في صائفة يقودها القائد ابو العباس أحمد إلى رية بنية مهاجمة بيشتر نفسها قاعدة الثائر عمر بن حفصون وأخذت قوات الحكومة المركزية تعيث بساحة بيشتر ونواحيها وأحرزت عدة

انتصارات على ابن حفصون^(١١١)، ولم تنته الأمور عند هذا الحد فقد خرجت الصائفة في العام التالي سنة ٢٩٦ هـ من قرطبة لغزو مناطق نفوذ ابن حفصون بقيادة ابي العباس والأمير ابان ونازلا بقواتهما ابن حفصون في بيشتر، وأرسل القائد ابو العباس أحمد، ولده عيسى ليغزو حصون سعيد بن مستنه، ريثما يفرغ من حربه مع ابن حفصون في بيشتر فلما فرغ تماماً من غزوه في رية، تقدم لمساندة ولده، ونازل حصن لك من حصون ابن مستنة فأقام عليه حتى فتحه في صدر المحرم من سنة ٢٩٧ هـ^(١١٢).

ويبدو ان سعيد بن هذيل نكث بعهده للأمير عبد الله سنة ٢٩٧ هـ بعد أن افتتحت بياسة واستنزل منها حفيده محمد بن يحيى بن سعيد بن هذيل^(١١٣). فقد اورد كل من ابن حيان وابن عذارى ما يفيد بتحالفه في هذا السنة مع كل من عمر بن حفصون وسعيد بن وليد بن مستنة على العصيان، فقاموا بشن غارات مدمرة على ناحية جيان فأصابوا الدواب والبقر والماشية^(١١٤) ثم توجهوا الى حصن جريشة بالغنائم ، فلما علم القائد أبو العباس أحمد بذلك لحق بهم ونازلهم في هذا الحصن وأوقع بهم هزيمة منكرة^(١١٥) ثم افتتح حصن الزبيب وابتنى حصن ترضيخ ليضيق به ابن هزيل ، كذلك اهتم بتحسين قلعة الأشعث وحشدها بالرجال^(١١٦). وامضى ابن ابي عبدة شتاء هذه السنة بجبل أروس (أيروس) من كورة قبرة على حد قول ابن حيان^(١١٧) أو جبل أريش في قول ابن عذارى^(١١٨)، ومن هناك أخذ ينطلق طوال فترة الصيف في حملات على الثوار .

وفي هذه السنة ٢٩٧ هـ كان غزو ابي أمية العاصي ابن الامير عبد الله الغزوة المعروفة بغزوة رية وفريرة وقد أسند قيادة الجيش الى أبي العباس احمد. وخرج جيش الامارة في ٢١ من شعبان متقدماً إلى بلدة من حصون ابن حفصون حيث اشتبك الجيشان في معركة ضارية ، ومنها تقدم الجيش الأميري الى نهر طنجيرة حيث تجدد القتال بين جيش الامارة وبين اتباع عمر ابن حفصون، ودارت معركة عنيفة فقد فيها كل من الطرفين اعدادا كبيرة من المحاربين ثم تقدم ابن ابي عبدة الى حصون البيرة وغرناطة فنزل على حصن شبيلش حيث التقى بقوات ابن حفصون ووقعت حرب شديدة بين الفريقين ونالت ابن طلحس فيها جراحات ، ثم نقل

جيش الامارة الى حصن جلياقة وتجهل فى كورة البيرة وحل بمحل بجانة ثم قفل عائداً على كورة جيان حيث نازل حصن المنتلون يوم الثامن والعشرون من ذي القعدة ، فظل يحاصره اياما ، ثم عاد الى قرطبة فى ١٤ من ذي الحجة (١١٩) .

وفى سنة ٢٩٨ هـ خرج بالصائفة كل من الأمير العاصى ابن الامير عبد الله والقائد أبى العباس أحمد باتجاه حصن ببشر وغيره من حصون الساحل بكورتى رية والبيرة . وكان عيسى ابن القائد احمد بن ابى عبدة مقيما بالخيال ببيانة (١٢٠) .

فأغار الحليفان عمر بن حفصون وسعيد بن مستنة على قرى قبرة وقرى قرطبة ، فخرج عيسى بن أحمد لمطاردهما واشتبك بهما على نهر ألبية كما يذكر ابن حيان (١٢١) أو ألبية كما يذكر ابن عذارى (١٢٢) ، ودارت بين الفريقين معركة ضارية عند قرية مطنانة انهزم فيها عمر بن حفصون وحليفه ابن مستنة وقتل من قواتهما اعدادا كبيرة واستولى عيسى بن أحمد بن أبى عبدة على علمهم وأرسل الى قرطبة عددا كبيرة من رؤوسهم .

وفى صدر المحرم من سنة ٢٩٩ هـ كانت غزاة القائد ابى العباس احمد الى حصن فنتجالة من حصون ابن هذيل بالقرب من جبل المنتلون ، أحكم خلالها الحصار على الحصن حتى أتم فتحه (١٢٣) .

وفى نفس السنة ٢٩٩ هـ غزا بالصائفة كل من الأمير ابان بن الامير عبد الله والقائد الوزير عباس بن عبد العزيز . وقد توجه جيش الامارة بقيادة الوزير عباس بن عبد العزيز بداية الأمر الى ببشر حيث حارب ابن حفصون وأوقع به . ثم استدعى الوزير عباس بن عبد العزيز الى قرطبة ، فخرج فى أثره القائد الاعلى الوزير احمد ابن محمد بن أبى عبدة ، حيث تولى قيادة الجيش بدلاً منه ، وقصد القائد ابن ابى عبدة حصون ابن حفصون وحارب من كان فيها (١٢٤) .

وفى مستهل ربيع الأول من سنة ٣٠٠ هـ افتتح عبد الرحمن الناصر عهده بارسال تقليد بيعته الى الكور والأطراف وأقر فى يوم مبايعته الوزير احمد بن محمد ابن ابى عبدة على القيادة (١٢٥) ثم امره بالتوجه الى كورة قبرة على رأس جيش الامارة لمواجهة الثوار على الحكومة المركزية هناك (١٢٦) .

ورغم هذه الجهود العسكرية التي بذلها الوزير القائد احمد بن ابي عبدة، فإن عبد الرحمن الناصر بادر بعزله عن الوزارة والقيادة في السادس والعشرين من ربيع الآخر من نفس السنة (٣٠٠هـ) واستبدله باحمد بن محمد بن حدير الذي ولاه الوزارة والقيادة (١٢٧)، غير ان الناصر سرعان ما أعاد القائد القدير أحمد في صفر من العام التالي (٣٠١هـ) إلى كل من الوزارة (١٢٨) والقيادة (١٢٩). وكان الناصر قد امضى هذا العام في محاربة الثوار على حكومة قرطبة وكانت أولى حملاته عليهم حملته إلى المنتلون لمحاربة سعيد بن هذيل الذي استسلم له كما اشتبك مع عبيد الله بن أمية بن الشالية بحصن شنتمان (١٣٠)، غير أن ابن هذيل سرعان ما نكث عهوده وعاود الخروج على الإمارة في أواخر هذا العام، اثر عودة الناصر الى قرطبة مباشرة مادفع الناصر إلى أن يعهد الى الوزير القائد احمد بن محمد بن ابي عبدة بمحاربته، وقد تقدم هذا القائد القدير اليه ونجح في التغلب عليه واسره هو وعدد من رجاله وعاد بهم موثقين بالأغلال إلى قرطبة (١٣١) وفي سنة ٣٠٢هـ فقد الوزير القائد ابو العباس احمد بن ابي عبدة أشهر ابنائه وهو ابنه القائد عباس ابن ابي العباس أحمد بن ابي عبدة الذي استشهد أثناء حصاره لحصن منت روى كما سنشير فيما بعد، وقد شارك عبد الرحمن الناصر والده ابا العباس في حزنه وتكليه (١٣٢).

وتتقطع أخبار الوزير القائد أبي العباس احمد بن ابي عبدة العسكرية ماتبقى من عام ٣٠٢ هـ وكذلك طوال عام ٣٠٣هـ، وفي تصوري أنه قد تأثر بحادثة مقتل ولده عباس طوال هذين العامين، ولكنه سرعان ما عاد إلى الظهور على مسرح المعارك الحربية في عام ٣٠٤هـ بقوة وجد لم يسبق لهما مثيل، فقد أوردت المصادر العربية «وخاصة ابن حيان الذي نقل عن الرازي»، بمزيد من التفصيل كل ما يتعلق بهذه النشاطات والتحركات العسكرية للقائد القدير، وأشارت إلى أن الناصر قد أغزى ابا العباس بن ابي عبدة إلى جهتين، الأولى تتعلق بممالك اسبانيا المسيحية والثانية تتعلق بالثوار على الحكومة المركزية، وفي ذلك يقول ابن حيان «قال الرازي: فيها (٣٠٤هـ) أغزى الناصر لدين الله بالصائفة الى دار الحرب الوزير القائد ابا العباس احمد بن محمد بن أبي عبدة مسهماً مشكوراً سعيه في جهاد

اعداء الله الكفرة مع تورطه حروب المارقين بالموسطة الشاقين عصا الجماعة، فجرّد القائد ابا العباس فى هذا الوجه فى اكتف جمع وأجمع قوة، فصل بها لسبيله يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم منها. وهى أول غزاة كانت لقواده الى أرض العدو، فوطى العسكر أطراف المشركين، وروع قلوبهم على طول عهد بالأمنة وجمال فى نواحيهم واداخ بلدهم، ثم قفل القائد أبو العباس بالمسلمين سالمين ظاهرين بنقمة الله عليه» (١٣٣).

ويردد كل من صاحب مدونة الناصر وابن عذارى نفس الخبر وان كان ابن عذارى قد أرخه بيوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم من سنة ٣٠٤هـ الموافق اليوم الثامن عشر فيه يوليه (١٣٤).

ويتبين مما أوردناه أن هذه الصائفة كانت الأولى من نوعها فى عهد الناصر التى يتوجه فيها ابن ابي عبدة الى نصارى اسبانيا، بل اننا لم نصادف خلال تاريخ ابن ابي عبدة العسكرى الطويل إلا حروبه ضد الثوار على الحكومة المركزية منذ عهد الأمير عبد الله، ويسجل هذا التوجه نحو أرض العدو الاسبانى منعطفاً جديداً فى تاريخ الوزير القائد ابي العباس احمد بن ابي عبدة العسكرى (١٣٥).

ويحدد ليفى بروقنسال وجهة القائد ابي العباس احمد بن ابي عبدة بمملكة ليون. وكانت هذه الصائفة التى قاد بها ابو العباس احمد بن ابي عبدة سنة ٣٠٤هـ إلى ليون رداً على الهجوم واسع النطاق الذى شنّه أردون الثانى الملك الليونى (٣٠٢ - ٣١٢هـ / ٩١٤ - ٩٢٤م) (١٣٦) على غرب الأندلس سنة ٣٠١ - ٣٠٣هـ (٩١٣ - ٩١٤م) (١٣٧). وقد نجح ابن ابي عبدة فى حملته على مملكة ليون فاجتاح أراضيها وغنم وسبى وقفل عائداً بقواته منتصراً الى قرطبة. وكان رد فعل ملك ليون أن أغار فى عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) على منطقة يابرة مما دفع عبد الرحمن الناصر إلى أن يعاود ارسال قائده ابي العباس احمد بن ابي عبدة من جديد لقتاله، ولكن سوء الحظ حالف المسلمين هذه المرة، فقد تلقى ابو العباس بن ابي عبدة هزيمة مروعة على ايدى قوات ليون فى موقعة قشترة مورش Castro mores المعروفة بشنت اشتيين واستشهد القائد احمد ابن ابي عبدة فى هذه الموقعة (١٣٨).

حدث اللقاء في ١٤ ربيع الأول من سنة ٣٠٥هـ (٤ سبتمبر ٩١٧م) وانهزم المسلمون في هذه الموقعة هزيمة شنعاء وأذرع الليونيون فيهم بسيوفهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة بالغت مدونة سيلوس في تصويرها فذكرت أن المرتفعات والغابات والسهول أبتداء من وادي دوبره حتى بلدة أتينزا Atienza وبار اكويوس Para cuel- los، كانت مغطاة بجثث عسكر المسلمين. وعاد اردون الثانى عقب انتصاره على المسلمين الى ليون بعد أن نصب رأس القائد الشهيد أحمد بن ابى عبدة على سور شنت اشتين San Esteban بجوار رأس خنزير^(١٣٩). وتجمع المصادر العربية على أن أحمد بن أبى عبدة ثبت فى لحظاته الأخيرة ثبات الأبطال وكان حريصاً على طلب الشهادة التى رزقه الله وحياه بها^(١٤٠).

ومن عوامل هزيمة المسلمين فى هذه الموقعة أن الجيش الاسلامى كان يتكون معظمه من البربر المرتزقة الذين اهتموا بغنائمهم، فلما رأوا هجوم الليونيين الساحق التمسوا النجاة بأنفسهم فتسلل معظمهم من أرض المعركة ولاذوا بالفرار من ساحة المعركة.

ويشير البكرى إلى استشهاد عبد الرحمن بن سعيد بن ادريس صاحب نكور فى هذه المعركة مع القائد ابى العباس بن ابى عبدة^(١٤١)، وتشير المدونات المسيحية إلى أسماء عدد من القادة المسلمين القتلى فى شنت اشتين من بينهم عبد الرحمن بن سعيد الذى أشار اليه البكرى^(١٤٢).

وكان ابو العباس أحمد بن محمد بن ابى عبدة قد أنجب عدداً من الأبناء، اشتهر بعضهم كقادة ووزراء فى حياته، ومن هؤلاء الأبناء عباس وعيسى وعبد الله وعبد الرحمن.

١- عباس الابن الأول للقائد ابى العباس احمد بن ابى عبدة؛

أما عباس ابن القائد . أبى العباس احمد، فقد شارك مثل والده فى كثير من الحملات الموجهة من قبل الحكومة المركزية للقضاء على الثوار، ففي سنة ٢٩٨هـ خرج على رأس جيش كبير فى صائفة للأمير العاصى بن الامير عبد الله إلى حصن المتلون لمحاربة سعيد بن هذيل، وكان جيشه يتكون من فرقة من البربر الطنجيين سبق لهم أن غزوا مع والده القائد الشهير ابى العباس بن ابى عبدة.

وتذكر المصادر العربية أن هولاء البربر نبذوا الطاعة للإمارة وانضموا إلى ابن هذيل أثناء المعركة، ولكن عباس بن أبي العباس أحمد بن أبي عبدة، تمكن من سحق جموعهم وألحق بهم هزيمة منكرة في ببشتر ثم في المنتلون وأرغم من بقى منهم على قيد الحياة على العودة إلى الطاعة، وقد تحقق لجيش الإمارة هذا الانتصار رغم الأمراض والأوبئة التي استشرت في صفوف الجيش خلال هذه الغزوة^(١٤٣). وفي سنة ٣٠١ هـ تولى قيادة جيش الحكومة المركزية في قرطبة إلى اشبيلية للقضاء على ثورة محمد بن إبراهيم بن حجاج.

ولم يقتصر عباس بن أحمد بن أبي عبدة على القيادة العسكرية لبعض فرق جيش الإمارة بل تولى أيضاً الشرطة العليا لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٠١ هـ^(١٤٤). واستمر عباس بن أبي عبدة يتولاها حتى وفاته^(١٤٥). وتختلف المصادر العربية في تحديد السنة التي توفي فيها، فبينما يرى كل من ابن حيان وابن عذاري أنه استشهد في سنة ٣٠٢ هـ أثناء حصاره لحصن منت روى، نتيجة لضربة تلقاها تسببت في القضاء عليه^(١٤٦) يرى صاحب مدونة عبد الرحمن الناصر أن وفاته حدثت في سنة ٣٠٣ هـ^(١٤٧).

وتذكر المصادر أسماء ثلاثة من أبنائه، أولهم عبد الله الذي أورد ابن حيان اسمه بين كبار الشخصيات من الموالي الذين شهدوا على الأمان الذي منحه عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ لمحمد بن هاشم الثائر بسر قسطة^(١٤٨)، وكان قد شاركه عدد لا بأس به من نفس هذه الأسرة «آل أبي عبدة» في الشهادة على هذا الأمان^(١٤٩).

وثانيهم محمد الذي ولّاه عبد الرحمن الناصر على كورة البيرة وأعمالها سنة ٣٢٣ هـ ثم عزله عنها في سنة ٣٢٤ هـ، فتولاها يوسف بن محمد^(١٥٠) بدلاً منه. أما ثالثهم فاسمه أحمد، ولم تزودنا المصادر العربية بتفاصيل عن نشاطه العسكري. ويذكر ابن حزم في طوق الحمامة اسم حفيد له من ولده محمد يدعى يحيى وذلك في سياق حديثه عن رقة مشاعره وعاطفته، فقد كان مفتوناً بحب جارية له، فقامت أمه ببيعها حتى يتخلص من حبها وأجبرته على الزواج من بعض العامريات. وعرف يحيى هذا بنبأ اخلاقه وتعمقه في الفقه واللغة فقد كان زميلاً لابن حزم وتلميذاً للفقيه أبي الخيار اللغوي. وقد تسبب حزنه على محبوبته في فقدانه لصوابه^(١٥١).

٢- عيسى الابن الثاني للقائد ابي العباس احمد بن ابي عبدة:

كان عيسى بن ابي العباس احمد بن ابي عبدة، وزيراً وقائداً للأمير عبد الله، وشارك في القضاء على كبار الثوار على دولة بنى أمية أمثال^(١٥٢) سعيد بن مستنة الذى خرج لقتاله سنة ٢٩٨هـ كما عمل قائداً لبيانة فى عهد هذا الأمير، وفى نفس هذه السنة ٢٩٨هـ، أقام عيسى بن احمد فى قوة من الخيالة بهذه المدينة، وكان عمر بن حفصون وحلفاؤه قد أغاروا على بسائط قبرة وقرى قرطبة وسبوا وغنموا، فخرج القائد عيسى بن أحمد للقائهم على نهر ألية وألحق بهم هزيمة كبيرة كما أشرنا من قبل^(١٥٣).

أما عبد الرحمن الناصر فقد ولاه يوم مبايعته سنة ٣٠٠هـ على الشرطة العليا بعد أن صرف عنها قاسم بن وليد الكلبي^(١٥٤)، ثم أقدم فى ٤ من ربيع الآخر من نفس السنة (٣٠٠هـ) على خلع والده احمد بن محمد من منصبى الوزارة والقيادة كما عزله هو عن الشرطة العليا^(١٥٥).

وفى العام التالي (٣٠١هـ) أعاد الناصر الأب «أبا العباس احمد» إلى خطة الوزارة، كما ضم ولده عيسى الى هذه الخطة إلى جانب أبيه ومحمد بن سليمان ابن وانسوس^(١٥٦) فجمع الناصر بذلك فى وزارته بين الأب وابنه. أما الشرطة العليا فقد تولاها احمد بن محمد بن مسلمة بعد أن عزل عيسى بن احمد ابي عبدة عنها، ولكن احمد هذا لم يطل عهده بهذا المنصب : سرعان ما عزله الناصر هو الآخر وعهد بهذه الخطة إلى عباس بن الوزير القائد احمد بن ابي عبدة وشقيق عيسى بن ابي عبدة^(١٥٧).

وفى نفس سنة ٣٠١هـ، ولي الناصر عيسى بن احمد بن ابي عبدة على القيادة وعلى كورة اشبيلية بالاضافة الى توليه خطة الوزارة^(١٥٨) ونلاحظ أنه منذ ذلك التاريخ أخذ عيسى بن احمد بن ابي عبدة يتذبذب فى منصبه الوزارى فقد ولاه عبد الرحمن الناصر الوزارة وعزله عنها أكثر من مرة، وفى سنة ٣٠٣هـ عزل الناصر عيسى بن احمد عن الوزارة ويبدو أنه اعادتها إليها مرة أخرى بعد فترة قصيره^(١٥٩) فقد أشار المؤرخ المجهول صاحب مدونة عبد الرحمن الناصر الى ذلك فى اخبار سنة ٣١٣هـ فى سياق حديثه عن جهود كل من درى بن عبد الرحمن وعيسى

ابن احمد بن ابى عبدة الذى وصفه المؤرخ مجهول الاسم «بالوزير» فى استئزال حصن اشتين وتجاههما فى افتتاحه والقضاء على الثوار الممتنعين به^(١٦٠) .

ولما توفى محمد بن عبد الله الخروبي صاحب المدينة فى مستهل سنة ٣١٤هـ نصب عبد الرحمن الناصر مكانه عيسى بن احمد بن ابى عبدة^(١٦١) ولم يلبث ان عزل عيسى بن احمد بن ابى عبدة عن منصبه الوزارى^(١٦٢) سنة ٣١٦هـ كما عزله فى نفس العام عن المدينة وولى عليها احمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف^(١٦٣) ، ولم تمض اشهر على ذلك حتى أعاده مرة أخرى إلى الوزارة فى سنة ٣١٧هـ^(١٦٤) ليُعزله عنها من جديد عام ٣٢١هـ^(١٦٥) .

وفى سنة ٣٢٣هـ أعيد عيسى بن احمد بن ابى عبدة إلى خطة الوزارة واستمر يتولاها طوال عامي ٣٢٤هـ^(١٦٧) ، ٣٢٥هـ^(١٦٨) . وكان عيسى بن احمد بن ابى عبدة من بين من شهد من الوزراء على الأمان الذى أعطاه الناصر للثائر محمد بن هاشم التجيبى بسرقة سنة ٣٢٥هـ^(١٦٩) .

ثم عزله الناصر عن الوزارة فى العام التالى ٣٢٦هـ) وولى فى نفس العام ابن عمه جهور بن عبيد الله بن محمد بن ابى عبدة مكانه^(١٧٠) .

ومن الجدير بالذكر أن تنافساً شديداً حدث بين الوزير القائد عيسى بن احمد ابن ابى عبدة، وبين الوزير موسى به حدير خاصة فى عهد الأمير عبد الله، اذ أراد كل منهما أن يتقدم على صاحبه، وكان الامير محمد يميل الى تقديم بنى حدير على بنى أبى عبدة تفضيلاً منه للشاميين على البلديين فى حين كان عيسى ابن احمد يتوقع من الأمير أن يقدم بنى ابى عبدة على بنى حدير بحكم الخدمات والأعمال الجليلة التى يقومون بها لصالح الامارة، ولكن الأمير عبد الله آثر أن يظل الأمر كما رسمه ابوه، وقرر أن يظل بنو حدير متقدمين على بنى ابن عبدة^(١٧١) .

وتشير المصادر الى ثلاثة من ابناء عيسى بن احمد بن ابى عبدة هم أحمد وحسن وحسين.

أما أولهم وهو احمد فكان كثيراً ما ينوب عن والده عيسى فى الاشراف على المدينة، من ذلك ما حدث سنة ٣١٥هـ عندما توجه عبد الرحمن الناصر إلى

بيشتر لاستنزال ابن حفصون فخلف على المدينة احمد بن ابى عبدة بدلاً عن والده الوزير عيسى الذى يبدو أنه اشترك مع الناصر فى هذه الحملة^(١٧٢) ، ثم تكرر ذلك فى السنة التالية (٣١٦هـ)^(١٧٣) . وفى هذه السنة أمر الناصر بتولية احمد بن عيسى بن ابى عبدة على خزانة المال^(١٧٤) واستمر احمد به عيسى يتولى هذه الخزانة منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٣٢٠ هـ عندما نقله الناصر من الخزانة الى قيادة بجانة^(١٧٥) ونستنتج من خبر أورده ابن حيان أن احمد بن عيسى بن ابى عبدة كان والياً على كورة البيرة أيضاً^(١٧٦) .

وقد أثبت احمد بن عيسى بن احمد بن ابى عبدة كفاءة كبيرة كقائد بحرى بدليل أن الخليفة الناصر لم يكتف بتقليده قياده مدينة بجانة بالاضافه إلى ولايته على كورة البيرة، بل أنه عهد إليه بالاشراف على اسطول المرية وترميم ما يحتاج منه الى اصلاح بدار الصناعة والاهتمام بدعمه بمزيد من القطع البحرية والعدد والآلات.

وعندما فرغ احمد بن عيسى بن ابى عبدة من مهمته فى ترميم القطع البحرية بدار صناعة المرية وإنشاء مزيد من هذه القطع دعماً للأسطول، أخرج الناصر الحشم من قرطبة مع القائدين سعيد بن يونس وعمرو بن مسلمة الباجى ليغزوا بهذا الاسطول الى حيث أمر، فتوجه ابن يونس إلى بلاد افرنجة فى حين أغزا عمرو ابن مسلمة الباجى إلى الجزائر الشرقية^(١٧٧) .

ويبدو أن الناصر قد ولى أحمد بن عيسى بن ابى عبدة على خطة المدينة استناداً الى نص أورده ابن حيان فى حوادث شهر ربيع الأول من سنة ٣٢٦ هـ ذكر فيه أن الوزير جمهور بن عبيد الله بن ابى عبدة تولى خطة المدينة بدلاً من احمد ابن عيسى بن ابى عبدة^(١٧٨) .

أما حسن وحسين ابناء عيسى بن احمد بن ابى عبدة فليس لدينا من أخبار عنهما سوى ما انفرد بذكره ابن حيان فى المقتبس فى سياق عرضه لاحداث سنة ٣٢١ هـ فهو يشير الى عزلهما معاً عن كورة تدمير وتولية كل من دلهات بن محمد وسعيد بن عبد الرؤوف^(١٧٩) ، كما أشار الى حسين بن عيسى فى أخبار سنة ٣٢٤ هـ عندما تحدث عن قيام الناصر بعزله عن كورة بجانة وأعمالها

واستبداله بيوسف بن سليمان^(١٨٠) وفي أخبار سنة ٣٣٠ هـ عندما ولاه الناصر على كورة أشونة^(١٨١).

٣- عبد الله الابن الثالث للوزير القائد ابي العباس احمد بن محمد بن ابي عبدة.

أما عبد الله بن ابي العباس احمد بن محمد بن ابي عبدة فقد تولى الشرطة العليا لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٢ هـ^(١٨٢) بدلاً من اخيه عباس الذي قتل اثناء حصاره لحصن منت روى كما سبق أن أشرنا ولكن الناصر سرعان ما عزله عنها في العام التالي إذ أن ابن عذارى يذكر في أخبار سنة ٣٠٣ هـ أن الناصر ولي محمد ابن محمد بن ابي زيد الشرطة العليا بعد أن كان يلي الشرطة الصغرى^(١٨٣).

وفي سنة ٣١٧ هـ اسند الخليفة الناصر ولاية كورة بسطة إلى عبد الله بن احمد ابن ابي عبدة^(١٨٤). هذا وقد أنجب عبد الله بن احمد بن ابي عبدة ابناً هو محمد الذي ولاه الناصر على الخزانة سنة ٣٠٠ هـ^(١٨٥).

٤- عبد الرحمن الابن الرابع للوزير القائد ابي العباس احمد بن محمد بن ابي عبدة.

انفرد ابن حيان بذكر اسم هذا الابن الرابع من أبناء القائد احمد بن ابي عبدة في أخبار سنة ٣١٨ هـ بين عمال هذا العام، فقد ولاه الناصر على كورة تاكرنا في ربيع الأول منه^(١٨٦).

ثالثاً : مالك بن عبد الغافر وذريته :

لانعرف من ذرية مالك بن عبد الغافر بن ابي عبدة سوى ابا الاصبغ عيسى ابن احمد بن محمد بن حارث بن ابي عبدة محمد بن مالك بن عبد الغافر. وقد ترجم له ابن الفرصى الذي أوضح أن تاريخ مولده في احد شهرى ربيع من سنة ٣٥١ هـ يتفق مع تاريخ مولد عيسى هذا، وأنه كان صاحباً له، وقد وصفه ابن الفرصى بأنه كان نبيلاً، جيد الفهم، متصرفاً في فنون العلم.

سمع من محمد بن ابي دليم ويحيى بن مالك العائدى ومحمد بن احمد بن يحيى بن مفرج وتوفي ليلة السبت في الخامس والعشرين من شهر صفر

سنة ٣٨٠ هـ ودفن بعد وفاته بيومين في مقبرة قريش من قرطبة وصلى عليه القاضي محمد يبقى (١٨٧) .

رابعاً شخصيات هامة من بنى أبى عبدة:

زودتنا المصادر العربية بأسماء عدد من الأفراد ينتسبون إلى «بنى أبى عبدة» دون اية تفاصيل عن نسبهم بالقدر الذى يسمح لنا بمعرفة آبائهم وأجدادهم لضمهم الى سلسلة النسب، ومن بين هؤلاء «جهور بن عبد الملك بن ابى عبدة» الذى عمل سفيراً لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وعهد اليه بمهمة الفصل فى القضايا السياسية الداخلية الشائكة، من ذلك ما أشار اليه ابن حيان فى المقتبس فى سياق حديثه عن جهود الناصر سنة ٣٢٥ هـ لاعادة محمد بن هاشم التجيبى الثائر بسرقطة الى الطاعة، فقد ختم الناصر سفراءه الى هذا الثائر بجهور بن عبد الملك ابن ابى عبدة الذى نجح فى تنفيذ مهمته على خير وجه فحمل هذا الثائر على التوبة وتوسط لدى الناصر فى منحه العفو والأمان (١٨٨) .

ولانعرف الى أى فرع من فروع الأسرة ينتمى جهور بن عبد الملك بن ابى عبدة وقد اختلط الأمر على ليفى بروغنسال فخلط بين «جهور بن عبد الملك بن ابى عبدة» هذا، وبين عبد الملك بن جهور من فرع الجهاورة البختيين فاستقى من المصادر اخباراً تتعلق بالبختيين ونسبها الى جهور بن عبد الملك ابن ابى عبدة (١٨٩) .

كذلك أورد ابن حيان وابن عذارى فيما ذكراه عن وزراء الامير عبد الله أسماء ثلاثة افراد من هذه الأسرة هم «سليم بن على بن ابى عبدة» (١٩٠) و «عبد الرحمن بن حمدون بن ابى عبدة» و «عبيد الله محمد بن أبى عبدة» (١٩١) .
كما اورد ابن عذارى اسم «محمد بن ابى عبدة» الذى تولى خزانة المال لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٢ هـ (١٩٢) .

ويذكر ابن حيان فى سياق حديثه عن الموالى الذين شهدوا على الأمان الذى منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ لمحمد بن هاشم التجيبى، أسماء بعض شخصيات من أسرة «ابى عبدة» أشرنا الى بعضهم فى الصفحات السابقة

كل فى حينه، وبقى واحد منهم لم تتمكن من تحديد مكانه من شجرة النسب هو «محمد بن عباس بن محمد بن أبى عبدة» (١٩٣)، كما أشار فى أخبار سنة ٣٣٠ هـ إلى «عيسى بن محمد بن أبى عبدة» الذى ولاه الخليفة الناصر على كورة لبلة فى هذا العام (١٩٤).

كذلك أشار المقرئ فى نفح الطيب إلى الشاعر الأديب «حسان بن مالك بن أبى عبدة» الذى كان معاصراً للمنصور بن أبى عامر. وكان حسان بن مالك هذا صاحب تواليف كثيرة أشهرها كتاب اسماء «ربيعة وعقيل» اهداه إلى المنصور فسر به كثيراً (١٩٥). ولما نشبت الفتنة اضطربت أمور حسان بن مالك بن أبى عبدة لفترة، إلى أن استوزره الخليفة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام، ولكن حسان ابن مالك كره أحوال المستظهر الذى بالغ فى الاستبداد فكتب إليه ذات يوم بعض الأبيات الشعرية منها:

إذا غبتُ لم أحضر وإن جئتُ لم أسل

فسيان منى مشهد ومغيب

فأصبحت يتيماً وما كنت قبلها

ليتم ولكن الشبيه نسيب (١٩٦)

كما أورد المقرئ بعض أبيات له فى عيد المهرجان منها:

أرى المهرجان قد استبشرا غداة بكى المزن واستعبرا

وسربلت الأرض أمواهها وتحلت السندس الاخضرا

وهز الرياح صنابيـرها فضوعت المسك والعنبرا (١٩٧)

ومما سبق من أشعاره يتبين لنا اشتهاره فى اللغة والأدب ويؤكد ذلك ما وصفه به المقرئ من ابداع فيما ألف من كتب.

الحواشى

(١) ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ج١، ص٢٤٤ - تحقيق د. محمود على مكى لكتاب المقتبس لابن حيان، بيروت، ١٩٧٣، ص٤٥٤ - خالد الصوفى، تاريخ العرب فى اسبانيا، جمهورية بنى جهور، دمشق، ١٩٥٩، ص٤٦.

(٢) الضبى، بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، مدريد، ١٨٨٤، ص٢٤٣ ترجمة ٦٢٣، ص٥٤٤ ترجمة ٧٦، ص٢٤٤ ترجمة ٦٢٥ - ابن بشكوال، الصلاة، القسم الأول، طبعة تراننا، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٣١، ترجمة ٣٠٠ وراجع ما ذكره ابن حيان، المقتبس، تحقيق ب. شالميتا، ف. كورينطى، م. صبح، مدريد، ١٩٧٩، ص٤١٩، ٤٢٩، ٤٠٤، ٣٧٩ - ابن بسام، الدخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، بيروت، ١٩٧٨، القسم الأول، المجلد الثانى، ص٦٠٤ - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج١، ص٢٤٦ - المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محى الدين عبد الحميد، ج١، ص٢٨٢ - تحقيق د. محمود على مكى لكتاب المقتبس ص٤٥٤، ٤٥٥ - خالد الصوفى، جمهورية بنى جهور، ص٤٦، ٤٧.

(٣) الضبى، بغية الملتبس، ص٨٩ ترجمة ١٨٧ - المقرئ، نفح الطيب ج١، ص ٢٧٨.

(٤) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج١، ص٢٤٦ - تحقيق د. محمود على مكى لكتاب المقتبس لابن حيان، ص٤٥٤. كما قيل أن بنى ابى عبدة كانوا موالى مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك حفيد مروان بن الحكم ولهذا فقد كانوا معدودين بين البلديين وعن صلتهم بمغيث الرومى ارجع إلى «ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، ص١٩٦، ١٩٧ - ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق د. حسين مؤنس، ج١، ص١٢٠ حاشية (٣).

- (٥) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج١، ص٢٤٦، ج٢، ص٣٠.
- (٦) المصدر السابق، ج١، ص٢٤٦.
- (٧) راجع رأى الدكتور حسين مؤنس في تحقيقه للحلة السيرة لابن الأبار، ج١، ص٢٤٥ حاشية رقم (٤) ورأى د. محمود على مكي في تحقيقه لمقتبس ابن حيان، ص٤٥٤.
- (٨) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، تحقيق ليفي بروفسال، ج٣، ص١٨٥.
- (٩) المصدر السابق، ج٣، ص١٨٦.
- (١٠) ابن الخطيب، اعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، تحقيق ليفي بروفسال، بيروت، ١٩٥٦، ص١٤٧.
- (١١) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٤٨.
- (١٢) أخبار مجموعة، ص٧٦.
- (١٣) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج١، ص٢٤٥-٢٥٢، ج٢، ص٢٧٥ ومايليها. ولزيد من التفاصيل عن الجهاورة البختيين راجع ما أورده ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكي، ص١٥٥ وتعليق د. مكي على بنى جهور من نسل يوسف بن بخت، ص٤٥٣، ٥٣٠-٥٣١.
- (١٤) ابن حيان المقتبس، تحقيق د. مكي، ص١٩٢.
- (١٥) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، مجريط، ١٨٦٨، ص٢٢ - ويذكر ابن القوطية أن إبا عبدة حسان بن مالك كان من بين من دخل على أرتباس مع عشرة من الشاميين منهم ابو عثمان عبيد الله وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم زمن عبد الرحمن الداخل بعد ان كان قدولاه القماسة، فكان أول قومس بالأندلس «ابن القوطية، ص٢٣٨».
- (١٦) أخبار مجموعة، ص٧٦ - ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٤٨.

- (١٧) ابن الأبار، الحلة السراء، ج١، ص٢٤٦.
- (١٨) المقرئ، نفح الطيب، ج٤، ص٤٥.
- (١٩) ابن الأبار، الحلة السراء، ج١، ص٢٤٦، حاشية (٣). ولمزيد من التفاصيل عن تلك الثورات التي واجهها عبد الرحمن الداخل، ارجع إلى «ابن القوطية، ص٣٣ ومايليها - اخبار مجموعة، ص١٠٢، ١٠٥ - ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٧٧ ومايليها - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، الاسكندرية، ١٩٦٢، ص١٩٩ ومايليها».
- (٢٠) ابن الأبار، الحلة السراء، ج٢، ص٣٠.
- (٢١) المصدر السابق، ج١، ص٢٤٧.
- (٢٢) نفسه، ج١، ص٢٤٧، ج٢، ص٣٠.
- (٢٣) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٦١.
- (٢٤) ابن الأبار، الحلة السراء، ج٢، ص٣٠.
- (٢٥) المصدر السابق، ص٣٠.
- (٢٦) نفسه، ص٣٠.
- (٢٧) الضبى، بغية الملتبس، ص٢٤٣، ترجمة ٦٢٣ - ابن بشكوال، الصلة، القسم الأول، طبعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٣١ - ابن الأبار، الحلة السراء، ج١، ص٢٤٥.
- (٢٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكى، ص٢٨.
- (٢٩) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، مجموعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦، ج١ ترجمة ٩٩٠، ص٣٣٥.
- (٣٠) راجع الحاشية رقم (٢٧). ويخطئ ابن الخطيب فى ذكر اسم ابى الحزم

جهور فهو يذكره في أعمال الاعلام على أنه «ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن احمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن ابى عبدة» فهو بذلك قد أضاف اسم احمد بن عبيد الله ومحمد وهذا لم يرد في أى من المصادر العربية الأخرى كما خلط بين بيتى «ابى عبدة» ويوسف بن بخت، وقد سبق أن ناقشنا هذا الموضوع في المتن «ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ص ١٤٧».

(٣١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكى، ص ٢٨، ٢٩.

(٣٢) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٣٣٥، ترجمة ٩٩٠. واسمه كاملاً كما أورده ابن الفرضى هو «ابو الاصمغ عيسى بن احمد بن محمد بن حارث بن ابى عبدة بن محمد بن مالك بن الغافر بن حسان ابى عبدة».

(٣٣) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله، تحقيق د. اسماعيل العربى، منشورات دار الآفاق، المغرب، ١٩٩٠، ص ٩١.

(٣٤) الضبى، بغية الملتبس، ص ٢٤٣ - ابن بشكوال، الصلة، ق ١، ص ١٣١ - ابن الابار، الحلة السراء، ج ١، ص ٢٤٥.

(٣٥) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ٩١.

(٣٦) الضبى، بقية الملتبس، ص ٤٠٠ ترجمة ١٠٩٢.

(٣٧) العذرى، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى المحالك، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥، ص ٥.

(٣٨) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، تحقيق د. اسماعيل العربى، ص ١٢٥ - ابن الابار، الحلة السراء، ج ١، ص ١٤٦.

(٣٩) ابن الابار، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٦.

(٤٠) أخطأ ابن حيان عندما ذكر اسم عبيد الله بن محمد بن ابي عبدة للمرة الأولى في هذا النص. فقد ذكره على أنه «عبيد الله محمد عامل جيان» ولكنه استدرك هذا الخطأ في آخر هذا النص فذكر اسمه على أنه «عبيد الله بن أبي عبدة» فيكون ابن حيان بذلك قد نسي وضع كلمة «ابن» في العبارة الأولى بين اسمي «عبيد الله» و «محمد» فتكون صحتها «عبيد الله بن محمد عامل جيان» «ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله، ص٧٣».

(٤١) لمزيد من التفاصيل راجع ابن حيان، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص٧٤.

(٤٢) المصدر السابق، ص١٢٥. ولمزيد من التفاصيل عن جهوده في القضاء على ابن حفصون ارجع الى نفس المصدر، ص١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

(٤٣) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص١٥٢.

(٤٤) ابن الأبار، الحلة السراء، ج١، ص١٤٧.

(٤٥) هو محمد بن عبد العزيز العتبي، وكان من نبهاء شعراء دولة الامير محمد «لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوق بضيف، ج١، ص١٣٤».

(٤٦) ابن الأبار، الحلة، ج١، ص١٤٧.

(٤٧) المصدر السابق، ج١، ص٩٧، ص١٤٧ وأرجع كذلك إلى ابن عذارى، البيان ج٢، ص١٤٥.

(48) Una Cronica Anonima De Abd Al- Rahman 111 Al Nasir, E.levi Provençal y Garcia Gomez, Madrid, 1950, P 83.

(٤٩) ابن الأبار، الحلة السراء، ج١، ص٢٥٢.

- (٥٠) المصدر السابق، ج١، ص٢٤٧.
- (٥١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٨٤، ٢٨٥.
- (٥٢) ابن حيان، المقتبس، المصدر السابق، ص٣٣٠.
- (٥٣) نفسه، ص٣٥٥.
- (٥٤) نفسه، ص٣٧٦.
- (٥٥) نفسه، ص٣٩١.
- (٥٦) نفسه، ص٤٠٨.
- (٥٧) نفسه، ص٤١٣.
- (٥٨) نفسه، ص٤٠٤.
- (٥٩) نفسه، ص٤٢٩.
- (٦٠) نفسه، ص٤٦١.
- (٦١) نفسه، ص٤٧٠.
- (٦٢) نفسه، ص٤٨٧.
- (٦٣) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٢٢٠.
- (٦٤) عن محمد بن جهور ارجع الى الضبي، بغية الملتمس، ص٥٤، ترجمة ٧٦ - ابن عذارى البيان، ج٢، ص٢٣٥.
- (٦٥) الضبي، بغية الملتمس، ص٥٤، ترجمة ٧٦.
- (٦٦) المصدر السابق، ص٥٤.
- (٦٧) نفسه، ص٥٤.
- (٦٨) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص٣٣٥.
- (٦٩) من أهم هذه المؤلفات كتاب الدكتور خالد الصوفى، جمهورية بنى جهور، دمشق، ١٩٥٩. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب تناول تاريخ هذه الاسرة

منذ عهد ابي الحزم جهور دون ان يتعرض إلى تفاصيل تاريخ وأولية هذه الاسرة منذ بداية عصر الدولة الأموية.

(٧٠) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود على مكي، ص٢٨، ٢٩.

(٧١) المصدر السابق، ص١٥٢.

(٧٢) نفسه، ص١٥٢.

(٧٣) نفسه، ص١٥٢.

(٧٤) نفسه، ص١٥٣.

(٧٥) نفسه، ص١٥٤، ١٥٥.

(٧٦) نفسه، ص١٥٥.

(٧٧) ابن عذارى البيان، ح٢، ص٩٦.

(٧٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكي، ص٣١٨.

(٧٩) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص٩٦.

(٨٠) العذري، ص١١٨، ١١٩ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكي،

ص٣٠٨ - ابن عذارى، ح٢٢ ص٩٦.

(٨١) راجع تعليق د. محمود على مكي على الهجوم الذي قام به النورمان على

الاندلس سنة ٢٤٧هـ في ص٦٠٣ حاشية رقم ٥١٠.

(٨٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكي، ص٣١٢.

ويرى د. مكي أن الأحداث قد اختلطت لدى ابن حيان، فقد أورد في اخبار

وتفاصيل هذا الهجوم الجديد سنة ٢٤٧هـ نفس تفاصيل هجوم النورمان سنة

٢٤٥هـ خاصة حادثة استشهاد خشخاش.

(٨٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكي، ص٣١٩.

(٨٤) يرى د. محمود على مكي أنه تحريف للفظ «المركوير» وكان فرانسيسكو كوديرا قد حقق هذا الموضع على أنه هو نفسه الموضع المعروف اليوم باسم Hoz de la Morcuera أو Foz de le Malcuera وهو هضبة تخترقها سلسلة من الجبال التي تشققها وديان عميقة إلى الجنوب الغربي من بلدة ميراندا وادى ابره Miranda del Ebro الواقعة على بعد نحو من ١٣٠ كلم غربي بنبلونة «لمزيد من التفاصيل عن هذا الموقع راجع تعليق د. محمود على مكي، في تحقيقه لمقتبس ابن حيان، ص ٦٠٥، ٦٠٦ حاشية رقم ٥١٩».

(٨٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكي، ص ٣١٩.

وقد أورد ابن الأثير أخبار هذه الصائفة ضمن أحداث سنة ٢٥١هـ، وإن كان لم ينص على اسم القائد عيسى الحاجب، وذكر أن ملك الفرنج كان لذريق وسمى موضع المعركة بفج المركوين، وذكر أن أعداد القتلى بلغت ٢٤٩٢ قتيلًا «ابن الأثير؛ الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، ج ٧، ص ١٦٢» أما ابن عذارى فقد أورد خبر هذه الغزوة في أخبار سنة ٢٥١هـ واسماها بهزيمة المركوير أيضاً شأنه في ذلك شأن ابن حيان، ولكنه اختلف معه في بعض التفاصيل حيث ذكر أن الأمير محمد قد أنفذ ابنه عبد الرحمن على رأس هذه الصائفة وأن عبد الملك بن العباس القرشي كان القائد الذي تولى قيادة الجيوش، وليس عيس بن الحسن بن ابي عبدة كما ذكر أن أمير النصارى كان رذريق صاحب القلاع عند ابن عذارى وأن عدد القتلى بلغ ٢٤٧٢ رأساً «لمزيد من التفاصيل راجع ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ٩٨، ٩٩».

ونحن نميل إلى الأخذ برأى ابن حيان «ت سنة ٤٢٢هـ» لقربه من زمن وقوع الأحداث بخلاف ابن عذارى الذي يعد مصدراً متأخراً من جهة ولاشراك ابن الأثير مع ابن حيان، في ذكر غالبية تفاصيل هذه الصائفة من جهة أخرى.

(٨٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٤٨٩.

(٨٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص١٠٤ - ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله. ص٢١، وتحقيق د. مكى، ص٢١٧، ص٦٩، ١٦٩ - ابن عذارى، البيان، ج٢، ص١٥٢.

(٨٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٤٨٩.

وقد يتبادر إلى الذهن ان عيسى بن محمد بن ابى عبدة هذا الذى أشار إليه ابن حيان فى اخبار سنة ٣٣٠هـ كان ابنا لمحمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبى ... من الفرع الأول لهذه الأسرة، ولكننا بالنظر الى العام الذى ورد فيه اسمه وهو سنة ٣٣٠هـ نعتبره معاصراً للخليفة الناصر، بينما كان كل من محمد بن الغمر بن ابى عبدة وولده ابى عثمان عبید الله وهو من المفترض ان يكون أنحاً لعيسى هذا، معاصراً للأمير عبد الله مما يجعلنا نرجح أن عيسى بن محمد بن ابى عبدة الوارد ذكره فى المتن هو ابن لمحمد ابن عيسى بن الحسن بن عبد الغافر، وليس ابناً لمحمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر.

(٨٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل الع ... «قطعة من عهد الأمير عبد الله» ص٢١ - محمود على مكى فى تحقيقه لمقتبس ابن حيان، ص٥٥٥ حاشية ٣٧٤.

(٩٠) ابن عذارى، البيان، ج٢، ص١٥٢ - ابن الأبار، الحلة السرياء، ج١، ص١٤٦.

(٩١) ابن القوطية، ص١٠٤ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، ص١٩٧ والمقتبس تحقيق شالميتا، ص٢١٧ والمقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، ص٦٩، ١٦٨ - ابن عذارى، البيان، ج٢، ص١٥٢. ويدكر ابن حيان أنه عندما توفى الأمير عبد الله كان له أربعة وزراء محسب هم العباس بن عبد

العزیز القرشی المروانی، أحمد بن محمد بن ابی عبدة، والقائد محمد بن ولید ابن غنیم، وعبد الله بن محمد الزجالی الكاتب «ابن حیان، المقتبس، قطعة من عهد الامیر عبد الله، ص ۲۱۱».

(۹۲) ابن القوطیة، تاریخ افتتاح الأندلس، ص ۱۰۴.

(۹۳) اخبار مجموعة، مجريط، ۱۸۶۷، ص ۱۵۱، حسین مؤنس فی تحقیقه للحلة للسیراء لابن الابرار، ص ۱۲۱، حاشیة (۳) محمود علی مکی فی تحقیقه للمقتبس، ص ۵۵۵ حاشیة (۳۷۴).

(۹۴) ابن حیان، المقتبس، تحقیق د. اسماعیل العربی، ص ۲۱۱.

(۹۵) المصدر السابق، ص ۱۱۵. ویزکر ان حیان ابن عمر بن حفصون تمكن من الغدر بخیر بن شاکر، فقد ارسل الیه ابن حفصون احد اتباعه ویدعی «الریول» متظاهراً بامداده ودعمه ولكنه كان یبطن قتله وبالفعل قتل الریول خیر بن شاکر عندما خرج لاستقباله وأرسل رأسه الی ابن حفصون. وكان ابن حفصون یهدف بذلك الی أمرین الأول التقرب الی الامیر عبد الله لایهامه بطاعته والثانی السيطرة علی حاضرة جیان. وقد توجه ابن حفصون بالفعل الی حاضرة جیان واستولى علیها واغرم أهلها اموالاً طائلة «لمزید من التفصیل راجع المصدر السابق، ص ۱۱۵ وما یلیها».

(۹۶) ابن حیان المقتبس، قطعة من عهد الامیر عبد الله، تحقیق د. اسماعیل العربی، ص ۱۳۶.

(۹۷) لمزید من التفصیل، راجع المصدر السابق، ص ۱۳۶ - ۱۳۹. ویزکر العذری ان ديسم بن اسحق كان من فرسان عمر بن حفصون المنتزى بیشر، وقد ثار بلورقة واستولى علیها وقد عثر علی معادن الفضة بتدمیر فضرب الدراهم علی اسمه، فغزاه احمد بن محمد بن ابی عبدة وحاربه وضایقه فأذعن بالطاعة وادی قطعاً من الجبایة وضرب الدراهم علی اسم الامیر عبد

الله، وتوفى بمرسيه سنة ٢٩٣هـ «العذرى، ص ١١» وارجع كذلك إلى ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٣٥ ومايليهها.

(٩٨) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ١٤٢.

(٩٩) كانت هذه الصائفة اولى غزوات الامير ابان ولكنها كانت فاتحة التعاون العسكرى بين ابان بن الامير عبد الله وبين الوزير القائد ابن العباس احمد بن ابي عبدة فقد تكررت الصوائف التى تشاركها فيها معاً على مدى السنوات التالية كما سنوضح فى المتن فى الصفحات التالية.

(١٠٠) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، ص ١٤٣ - ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٣٨.

(١٠١) لمزيد من التفاصيل، ارجع الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، ص ١٤٥ ومايليهها. وارجع كذلك الى ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٣٣.

(١٠٢) ابن حيان، المصدر السابق، ص ١٥١ - ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٣٩.

(١٠٣) ومن أهلى بلاءً حسناً فى هذه المعركة لصاح جيش الامارة الفارس عبد الواحد الروطى أحد فرسان الأمير عبد الله «ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربى، ص ١٥٢».

(١٠٤) ويذكر ابن حيان ان الأمير عبد الله أمر بقتل ابن اخى عمر بن حفصون ولكن فيما يتعلق بعبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج فقد استمع الى نصيحة مولاه بدر الخصى الصقلبى فأطلق سراحه وسجل له على اشبيلية ولأخيه محمد على قرمونة فكان لذلك أطيب الأثر فى نفس ابراهيم بن حجاج الذى استجاب لمطلب الأمير عبد الله بأن يحل مايينه وبين ان حفصون من مناصرة وتحالف بينهما وان أبقى على صداقته به «لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الأمير عبد الله، ص ١٥٣».

(١٠٥) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٤٥، ص ١٦٢ - وعن عمر بن مضم الهترولى الملاحى ارجع الى ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٣٦.

(١٠٦) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ١٦٣. وان كان ابن عذارى قد أشار الى هذه الغزوة وحدد تاريخ خروج جيش الامارة فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٢٩١ هـ «ابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ١٤٠».

كذلك يختلف ابن عذارى مع ابن حيان فى بعض التفاصيل خاصة فيما يتعلق بأسماء بعض الحصون فابن عذارى يشير الى ان المعارك التى دارت بين الفريقين كانت فى وادى نسقانية وليس من يشتر نفسها «كما ذكر ابن حيان».

(١٠٧) لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ١٦٣.

(١٠٨) يذكر ابن عذارى أن القائد احمد بن ابى عبدة تقدم الى حصن الخشن بعد فراغه من حصن لوشة فى جرائد من الخيل كما أنه طلب من ابان ابن الامير عبد الله البقاء فى معسكره بمحلة لوشة فى حين قام هو بمحاربة حصن الخشن وقتل عدداً من أهله واسر منهم جماعة ثم انصرف بالرووس والأسرى الى لوشة وذلك قبل قفوله بالعسكر الى قرطبة يوم الخامس والعشرين من رمضان. وقد استغرقت هذه الغزاة فى رأى ابن عذارى مدة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً «ابن عذارى البيان، ح ٢، ص ١٤١».

(١٠٩) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ١٦٤ - ابن عذارى، البيان ح ٢، ص ١٤٢.

(١١٠) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ١٦٤ - ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٤٢.

(١١١) ابن حيان، المصدر السابق، ص١٦٥ - ابن عذارى، المصدر السابق،
ح٢، ص١٤٣.

(١١٢) وعند افتتاح هذا الحصن يقول عبيد الله بن يحيى بن ادريس مهنثاً الامير
عبد الله:

على من لحظه سيفان سلهما فكم بقاء أسير بين سيفين
الاكقدر بقاء الجانبين معا من بين جندين للتقوى معدين
الله ايد عبد الله حين غدا يذب عن دينه الارضى عدوين
﴿ابن حيان، المقتبس، ص١٦٥﴾.

وارجع كذلك الى ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٤٤.

(١١٣) أورد ابن عذارى اسمه على أنه محمد بن يحيى بن سعيد بن بزيل بالبلاء
ولكننا نرجح انها هذيل بالهاء، ﴿ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٤٥﴾.

(١١٤) ابن حيان، المقتبس فى ص١٦٧.

(١١٥) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٤٦. وقتل ابن ابى عبدة عدداً كبيراً من
قواد ابن حفصون أشهرهم تسريل العجمى.

(١١٦) المصدر السابق، ص١٤٦.

(١١٧) ابن حيان، المقتبس، ص١٦٧.

(١١٨) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٤٦.

(١١٩) المصدر السابق، ص١٤٥ - ولمزيد من التفاصيل عن هذه الغزوة ارجع
الى ابن حيان، المقتبس، ص١٦٦، ١٦٧.

(١٢٠) ذكره ابن حيان لأول مرة على أنه عيسى بن محمد بن احمد وفى نفس
الفقرة عاد فذكره على أنه عيسى بن احمد بن محمد بن ابى عبدة. وقد

أخطأ ابن حيان في المرة الأولى وأصاب في المرة الثانية لأن عيسى هو ابن للقائد احمد بن ابي عبيدة وليس حفيداً له. وقد أورد ابن عذارى نفس الخبر في احداث سنة ٢٩٨هـ وذكر اسمه على أنه عيسى بن احمد بن ابي عبدة
 ﴿ابن حيان، ص١٦٨ ، ابن عذارى، البيان ، ح٢ ، ص١٤٧﴾.

(١٢١) ابن حيان، ص١٦٨ .

(١٢٢) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٤٧ .

(١٢٣) المصدر السابق، ح٢، ص١٤٩ .

(١٢٤) لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. اسماعيل العربي ص١٦٨ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٤٩ .

(١٢٥) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٥٨ ، ١٦٠ .

(١٢٦) المصدر السابق، ص١٥٩ .

(١٢٧) نفسه، ص١٥٩ ، ١٦٠ .

(١٢٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٩٧ . وارجع كذلك الى مدونة عبد الرحمن الناصر، ص٤٧ .

(١٢٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٩٢ .

(١٣٠) لمزيد من التفاصيل راجع المصدر السابق، ص٥٩ ومايليهها .

(١٣١) نفسه، ص٩٢ ، ٩٣ .

(١٣٢) مدونة الناصر، ص٥٢ ، ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص١٠٧ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٦٧ .

(١٣٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص١٢٧ .

(١٣٤) مدونة الناصر، ص٥٢ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٦٩ .

(135) Levi Provercal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950, T. II, P37.

(١٣٦) خلفَ اردون الثانى والده غرسية ٢٩٨ - ٣٠٢ هـ ٩١٠ - ٩٠٤ م على عرش ليون وقد سار على نفس سياسة ابيه وجده الفونسو الثالث فيما يتغلّق بسياسته العدوانية على جيترانه المسلمين وغاراته المتتالية على القواعد الاسلامية المتاخمة لمملكة ليون مثل استرقه وسمورة وشلمنكه وشقوييه. «لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر سالم، تاريخ بطليوس الاسلامية و غرب الأندلس فى العصر الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٣، ح٢، ص٣١٢ ومايلها».

(١٣٧) كان اردون الثانى قد غزا يابرة سنة ٣٠١ / ٣٠٢ هـ، وفيها استشهد معظم سكان هذه المدينة المسلمة ومن بينهم واليها مروان بن عبد الملك بن احمد كما أغار على ر ماردة واستولى على حصن الحنش Alanje وذبح جميع حاميته «ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٩٨، ١٢٠. وارجع الى مدونة الناصر، ص٤٤. Levi Provencal, Histoire, t.,II, P36. ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ غزوة اردون على ماردة والحنش وهل سبقت غزوه ليابرة أم تأخرت عنها ارجع الى سحر سالم، تاريخ بطليوس الاسلامية، ح١، ص٣٠٥ - ٣٢٥».

(١٣٨) مدونة الناصر، ص٥٤ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص١٣٥ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٧٠، ١٧١.

(١٣٩) لمزيد من التفاصيل ارجع الى، Lévi Provencal, Histoire, T. II, p37.38.

(١٤٠) مدونة الناصر، ص٥٤ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص١٣٥ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٧٠، ١٧١.

(١٤١) البكرى، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ، ص ١٢

(١٤٢) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Lévi Provençal, Op. cit. T. II P. 37-39.

وعن رد الفعل الاسلامى لهذه الهزيمة وخروج حملة اسلامية سنة ٣٠٦ هـ بقيادة الحاجب بدر بن احمد وهى الغزوة الشهيرة بمطونية ارجع إلى ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ١٤٥ - ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٧٢ - سحر سالم، بطليوس، ح ٢، ص ١١٧ ومايلها.

(١٤٣) أورد ابن حيان اخبار هذه الصائفة التى قادها عباس بن احمد بن ابي عبدة فى اخبار سنة ٢٩٩ هـ «ابن حيان، المقتبس، قطعة من عهد الامير عبد الله، ص ١٦٨، ١٦٩ فى حين اوردها ابن عذارى فى اخبار سنة ٢٩٨ هـ «ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٤٧، ١٤٨.

(١٤٤) ابن حيان. المقتبس تحقيق شالميتا، ص ٩٧، ٨٢ - ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٦٥.

(١٤٥) ابن حيان. المقتبس تحقيق شالميتا، ص ١٠٧ - ابن عذارى، البيان، ح ٢، ص ١٦٧.

(١٤٦) ارجع الى الحاشية السابقة.

(١٤٧) مدونة الناصر، ص ٥٢ وارجع الى Levi Provercal, L'Espagne musulmane au Xeme Siecle, Paris, 1932, P. ٥٠٨.

(١٤٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٤٠٨.

(١٤٩) منهم عيسى بن احمد بن محمد بن عيسى بن ابي عبدة، ومحمد بن عباس بن محمد بن ابي عبدة، وهذان سنتحدث عنهما فى المتن فى

الصفحات المقبلة، وكذلك ذكر ابن حيان فى شهود هذا الأمان اسم جهور
ابن عبيد الله بن محمد بن ابى عبدة الذى سبق ان اشرنا اليه فى الصفحات
السابقة، (ابن حيان، المصدر السابق، ص ٤٠٨).

(١٥٠) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٣٩١. وكان ابن حيان قد أورد فى اخبار
سنة ٣٢٢هـ. خبراً مفاده عزل محمد بن عباس بن أبى عبدة عن كورة البيرة
وتولية محمد بن عمرو مكانه (المصدر السابق، ص ٣٥٥) فيكون محمد بن
عباس بن ابى عبدة قد تولى بذلك كورة البيرة مرتين، الأولى سنة ٣٢٢هـ ثم
عزل عنها ثم اعاده الناصر إلى ولايتها سنة ٣٢٣هـ لمدة عام ثم عزله عنها
مجدداً سنة ٣٢٤هـ.

(151) Ibn Hazm, lo collier du pigeo, ed. leon Bercher, Alger, 1949,
p270).

(١٥٢) ابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ١٤٤ - ابن الأبار الحلة السيراء، ج ١،
ص ١٢٠.

(١٥٣) ابن عذارى، ص ١٤٧. وكانت بيانة من اعمال قبرة وتقع على بعد
٦٤ كلم من قرطبة.

(١٥٤) نفسه، ص ١٥٨.

(١٥٥) ابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ١٦٠.

(١٥٦) مدونة الناصر، ص ٤٧ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٩٧.

(١٥٧) المصدر السابق، ص ٩٧.

(١٥٨) ابن عذارى، البيان، ج ٢، ص ١٦٥.

(١٥٩) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ١١٠، ١١١.

(١٦٠) مدونة الناصر، ص ٧١، ٧٢.

- (١٦١) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٩٣. وارجع الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢١٠.
- (١٦٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٤٢.
- (١٦٣) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٩٣.
- (١٦٤) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥٢ - ابن عذارى، البيان، ج٢ ص٢٠١.
- (١٦٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٣٠.
- (١٦٦) المصدر السابق، ص٣٧٦.
- (١٦٧) نفسه، ص٣٧٩.
- (١٦٨) نفسه، ص٤١٦.
- (١٦٩) نفسه، ص٤٠٨.
- (١٧٠) نفسه، ص٤١٩ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، ص١٩٨.
- (١٧١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. مكى، ص١٩٦ - ابن الابار، الحلة السيرة ح١، ص١٢٠، ١٢١ حاشية (١).
- وكتب الأمير عبد الله ابيات شعرية فى هذا الصدد اوردها كل من ابن حيان وابن الأبار منها:

موالى قريش من قريش فقدموا

موالى قريش لاموالى معتب

اذا كان مولانا يساويه عندنا

سواه فمولانا كآخر أجنب

(١٧٢) ابن حيان، المقتبس، نشر، شالميتا، ص٢٠٩، ٢١٠ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٩٣.

(١٧٣) ابن حيان، المقتبس، نشر شالميتا، ص٢١٥ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٩٦.

(١٧٤) تولى خزانة المال فى هذه السنة ٣١٦هـ أربعة خزان وهم محمد ابن جهور، واحمد بن عيسى بن ابى عبدة، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى واحمد بن محمد بن أبى قابوس «ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٩٧».

(١٧٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٢٢ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص٢٠٨. وان كان ابن عذارى قد اورد هذا الخبر فى احداث سنة ٣٢٠هـ. أما ابن حيان فقد ذكره فى اخبار اول محرم من سنة ٣٢١هـ.

(١٧٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٣٢٣.

(١٧٧) لمزيد من التفاصيل راجع المصدر السابق، ص٣٢٤.

(١٧٨) نفسه، ص٤١٩.

(١٧٩) نفسه، ص٣٣٠.

(١٨٠) نفسه، ص٣٩١.

(١٨١) نفسه، ص٤٨٩.

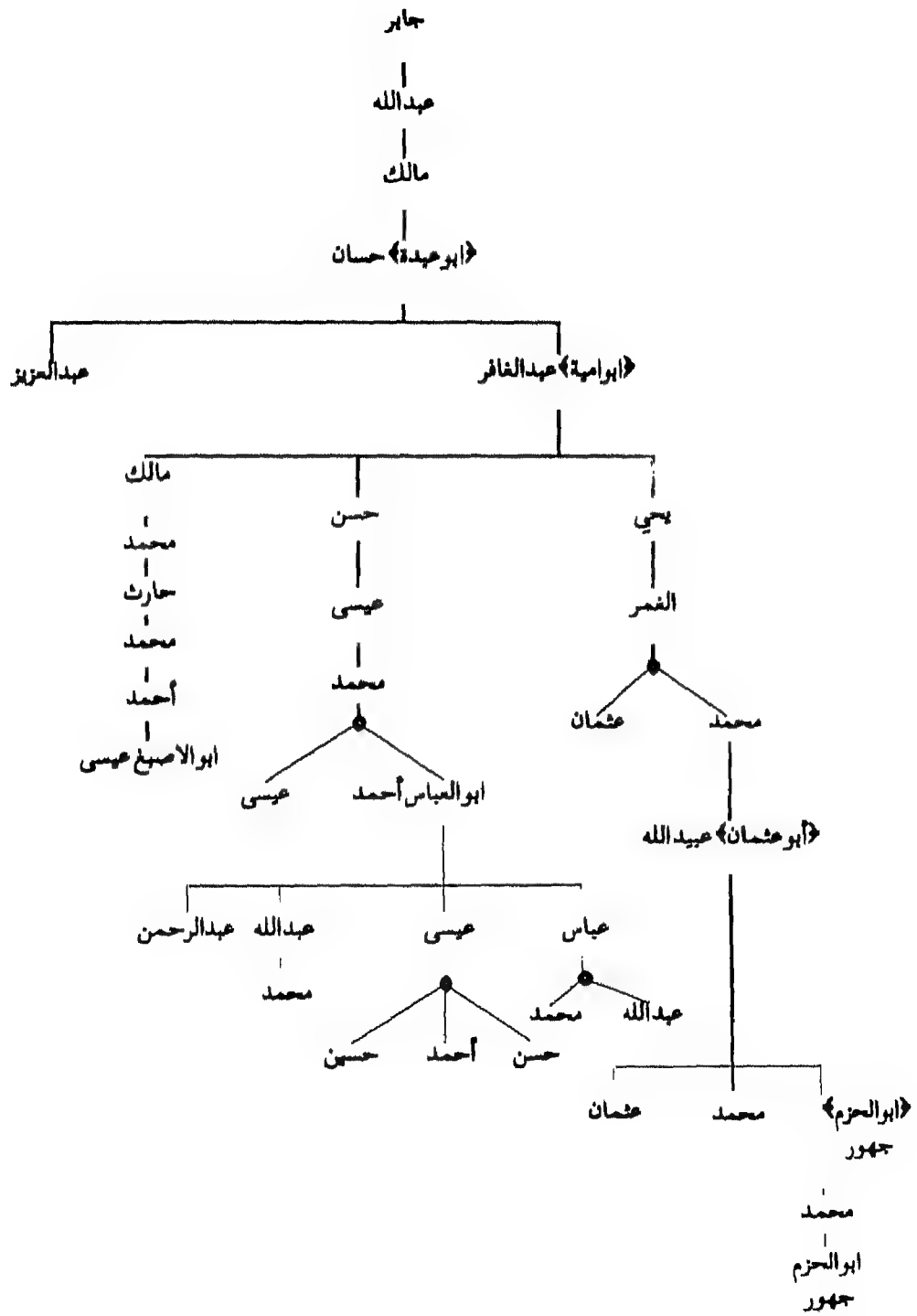
(١٨٢) مدونة الناصر، ص٥٢ - ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٦٧. وان كان صاحب مدونة الناصر قد أورد هذا الخبر فى احداث سنة ٣٠٣هـ. وارجع كذلك الى ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص١٠٧.

(١٨٣) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٦٨.

(١٨٤) مدونة الناصر، ص٨٤ - ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٥٤.

- (١٨٥) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٥٨.
- (١٨٦) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٢٨٥.
- (١٨٧) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، مجموعة تراثنا، القاهرة، ١٩٦٦، ترجمة ٩٩٠، ح١، ص٣٣٥.
- (١٨٨) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٤٠٤.
- (189) Levi Provencal, L'Espagne musulmane, P 100 - 101.
- (١٩٠) ابن حيان، المقتبس، قطعة من عصر الامير عبد الله، ص٢١.
- وقد ذكره ابن عذارى على أنه «سلمة بن على بن ابى عبدة» ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٥٢. وقد أخذنا بالاسم الذى اوردته ابن حيان لقرب ابن حيان من الأحداث زمنياً.
- (١٩١) راجع الحاشية السابقة.
- (١٩٢) ابن عذارى، البيان، ح٢، ص١٦٧.
- (١٩٣) ابن حيان، المقتبس، تحقيق شالميتا، ص٤٠٨.
- (١٩٤) المصدر السابق، ص٤٨٩.
- (١٩٥) المقرئ، نفح الطيب، ح٥، ص٨٩.
- (١٩٦) لمزيد من التفاصيل راجع المصدر السابق، ح١، ص٤١٢.
- (١٩٧) نفسه، ح٥، ص٨٩.

سلسلة نسب بنى ابي عبدة



أضواء علي فن الغناء والموسيقى
في الأندلس في عصر الدولة الأموية
وعصر دويلات الطوائف

أضواء على فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف

مقدمة:

ارتبط الاحساس بنشوة الجمال السماعى عند الانسان منذ أقدم العصور، بخيرير المياه وسجيع الحمام وتغريد الطيور وحفيف الأشجار وصفير الرياح^(١)، ثم بدأ يبتكر من الآلات ما يحقق له نشوة السماع، وتوصل إلى صناعة المزمار والطبل والبوق، وبمرور الزمن تمكن من صناعة الآلات الوترية كالجنك الذى نشهده فى آثار مصر الفرعونية واستخدم هذه الآلات مصاحبة لأصوات مقطعة تنسجم مع التلاحين، وهذا ما يعرف بفن الغناء. ويعرف ابن خلدون هذا الفن بقوله: «هى تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فيلد سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات». ويواصل ابن خلدون تعريفه لفن الغناء بقوله: «.... وقد يساق ذلك التلحين فى النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجماعات، وإما بالقرع أو بالنفخ فى الآلات تتخذ لذلك، فترى لها لذة عند السماع»^(٢). ومن المعروف أن الصوت الحسن

1) Antonio Aragonés Subero, Danzas, rondas y musica popular de Guadajajara, Guadalajara, 1973, p 15.

٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي، ج٣،

القاهرة، ١٩٦٠، ص ٩٦٤، وانظر صلاح أحمد البهنسى، مناظر الطرب فى التصوير الايراني

فى العصرين التيمورى والصفوى، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٦

يحدث في النفس نشوة حسية يسميها ابن خلدون «لذة» قد يسلك السامع له سلوكاً غير ارادى كأن يشق ثيابه مثلما فعل الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك، عندما أنشد شعراً طرب عند سماعه طرباً شديداً شق له ثيابه وعبر عن ذلك بقوله:

لا تلمنى بأن طربت لشدو ∴ يبعث الأنس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حقاً علينا ∴ إنما الحق أن تشق القلوب^(٣)

ومما يروى عن شق الثياب عند الطرب بالسماع ما رواه ابن خلدون عن أبي بكر ابن تيفلويت عامل يوسف بن تاشفين على سرقسطة فذكر أن أبا بكر محمد بن باجة التجيبى صاحب التلاحين المعروفة وكان عواداً بارعاً مجيداً لصناعة الموسيقى حضر مجلساً من مجالس ابن تيفلويت، فألقى على بعض قيناته موشحته التى بدأها بقوله:

جرر الذيل أياجر ∴ وصل الشكر منك بالشكر
فطرب ابن تيفلويت لذلك، فلما ختمها بقوله:

عقد الله راية النصر ∴ لأمير العلا أبى بكر
يقول ابن خلدون «قلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالايمان المغلظة لا يمشى ابن باجة إلى داره إلا على الذهب.» فاحتال ابن باجة لإرضائه بأن وضع قطعة من الذهب فى نعله ومضى على هذا النحو إلى داره^(٤).

ويذكر المسعودى أن قاضى المدينة فى ولاية عمر بن عبد العزيز طرب طرباً

(٣) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، ج٢، القاهرة، ١٩٥٣،

ص ١١٧، المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محى الدين عبد الحميد،

القاهرة، ١٩٤٩، ج٢، ص ١٩٣

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ح٤، ص ١٣٣٠، ابن ابى اصبيعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء،

تحقيق د. نزار رضا، ص ٥١٥

شديداً عند سماعه عناء جاريته فدفعه احساسه بالطرب إلى حلق أحد عليه وعلمه في أذنه وجثا على ركبتيه، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها وهو يقول:

«اهدوني إلى البيت الحرام فاني بدنه حتى أدمى أذنه». وعندما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز أمر بصرفه من عمله، «فاحتج القاضي وقال: نساؤه طوالق لوسمعهما عمر لقال اركبوني فاني مطية. فلما بلغ ذلك عمر أشخصه وأشخص الجارية، وطلب منها أن تغني فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا .: أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها، فأبأدنا .: صرروف الليالي والجدود العوائر
فلما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طرباً يـ وأقبل يستعيدها ثلاثاً،
وقد بكت دموعه لحيته، ورضى عن القصص وأعادته إلى عمله»^(٥).

ومن ذلك أيضاً أن ابن عائشة القرشي المغني، غنى للوليد بن يزيد أبياتاً من الشعر طرب لها الوليد، وطلب اعاتتها مرات، ثم أكب على ابن عائشة يقبله ويقبل رأسه ويقول: واطرباه!! واطرباه. ثم نزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقي مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها^(٦).

وعقد ابن ابي عامر مجلس غناء وشراب وطرب دارت فيه الكؤوس، فأخذوا يرمون القلانس ويجرون العمائم، ويصفقون بالأكف ويرقصون^(٧).

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا طرب ضرب برجله الأرض طرباً^(٨). وذكر

٥) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة محي الدين عبد الحميد، ج٣، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٩٨، ١٩٩

٦) المسعودي، المصدر السابق، ص ٢٢٨

٧) ديهوان ابن شهيد الأندلسي، تحقيق يعقوب ركي، القاهرة، ص ١٥٦ - شارل بلا، ابن شهيد الأندلسي حياته وآثاره، عمان، ١٩٦٥، ص ١١٦

٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق الاساندة أحمد أمين وابراهيم الايباري وعبد السلام هارون، ج٦، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٧

المقرى أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى من بنى يحيى بن يحيى الليثى
خرج يوماً لحضور جنازة، وكانت لرجل من أصحابه دار قريبة من مقبرة قریش
(فى الجانب الغربى من قصبة قرطبة) فآلح عليه صاحبه أن يزوره بداره قبل أن
يتوجه لحضور الجنازة، فقبل القاضي الدعوة وأنزله صاحبه بداره وقدم له طعاماً
ثم غنث جاريته أبياتاً من الشعر جاء فيها:

طابت بطيب لقائك الأقداح .: وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه .: نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماءها .: فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فطرب القاضي طرباً شديداً، ولم يملك أن سجلها على ظهر يده، وشوهد
يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده^(٩).

ويقتر الفقيه العالم ابن حزم القرطبى فى كتابه طوق الحمامة بأنه أحب
جارية بلغت الغاية فى الحسن والجمال والعفاف والتعقل والخفر، بنت ١٦
عاماً، لا ترغب فى اللهو لجديتها، وكانت بالإضافة الى ما تميزت به من
جمال وخصال تحسن ضرب العود والغناء، فسعى إلى التحدث معها، فلم ترد
عليه بكلمة، وحدث أن تجمعت النساء بقصبة كانت بدار بنى ابن حزم،
مشرفة على بستان الدار، ثم نزلن إلى البستان، وأبدت كرائم هؤلاء النساء إلى
سيدة الدار رغبتهن فى سماع غناء تلك الجارية فلم تتردد فى أن تأمرها بالغناء،
وعندئذ أخذت الجارية العود وسوته بخفر واندفعت تغنى بأبيات للعباس بن الأحنف قال فيها:

انى طربت إلى شمس اذا غربت .: كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس مثله فى خلق جارية .: كأن اعطافها طى الطوامير
ليست من الإنس إلا فى مناسبة .: ولا من الجن إلا فى التصاوير
فالوجه جوهره والجسم عبهرة .: والريح عنبرة والكل من نور
كأنها حين تخطر فى مجاسدها .: نخطو على البيض أو حدّ القوارير

(٩) المقرى، نفخ الطيب من عصف الأندلس الرطيب، ج٥، ص ١٠٤.

فطرب ابن حزم طرباً شديداً عبّر عنه بقوله «فلعمري لكان المضرب انما يقع على قلبي وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا»^(١٠).

ونخرج من هذه الأمثلة بأن الطرب يحدث في النفس الإنسانية نشوة تنس صاحبها ما يقوم به من سلوكيات غير ارادية، ويبدو أن ما ذكره ابن عبد ربه فيما يتعلق بأثر الصوت الحسن من النفس يعبر بصدق عن ذلك فهو يذكر استناداً إلى مزاعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسرى في الجسم، ويجرى في العروق فيصفوله الدم ويرتاح له القلب، وتهمس له النفس وتهتز الجوارح وتخف الحركات^(١١). وقد يفضى بصاحبه أحياناً إلى البكاء^(١٢) ومن أمثلة ذلك أنه لما توفي أبو بكر بن تيفلويت أكثر ابن باجة من رثائه، وغنى بمرثياته في ألحان مبكية^(١٣).

وبينما كان فقهاء المالكية يتشددون في تحريم آلات الموسيقى، ومنهم أحمد بن عبد الرؤوف في رسالته «في آداب الحسبة» استناداً على النبي ﷺ «صوتان ملعونان في الدنيا وفي الآخرة: النياحة والزمير»^(١٤)، ومنهم يحيى بن عمر الذي حرم آلات الموسيقى وتساهل في الدف المدور والكبير ويقصد به الطرب^(١٥)، وكان

١٠ ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق وترجمة النص إلى الفرنسية للاستاذ ليون برشيه Leon Bercher، الجزائر، ١٩٤٩، ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

١١ ابن عبد ربه، المقد الفريد، ج٦، ص ٤، فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٨٤، ١٨٥.

١٢ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ص ٥.

١٣ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص ١١٩.

١٤ يقول ابن عبد الرؤوف في ذلك «يؤمر بمنع اللهو كله على أنواعه في الأعراس وغيرها كالعود وغيره إلا ما كان من الدف العربي الذي هو شبه الغربال واختلف في الكبير وكذلك شراء الدرامات وشبهها للصبيان، ومن اشترى من آله للهو شيئاً فسح بيعه وأدب أهله. من تقول ابن الماجشون» (رسالة أحمد بن عبد الملك بن عبد الرؤوف في آداب الحسبة من كتاب رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥، ص ٧٧، ٨٣.

١٥ يحيى بن عمر، أحكام السوق، تحقيق د. محمود على مكي، ص ١١٩، هامش ٢.

هذا التحريم على حد قول أحد الباحثين الحديثين «أمراً نظرياً أكثر منه واقعياً في كثير من الأحيان»^(١٦). وقد كتب ابن حزم رسالة عبّر فيها عن إباحة الغناء المصحوب بالموسيقى ورفض فيها الآراء المعارضة مستنداً في ذلك على شهادة الفقيه ابن عبد البر الذي لم يجد غضاضة في تفسير ابن حزم^(١٧).

ويواجه الباحثون في فنون الغناء والموسيقى الأندلسية صعوبات جمة مرجعها المشكلات المنهجية والنقدية العويصة التي تتطلب دراسات تحليلية متعمقة، ذلك أن قسماً كبيراً من البحوث التي صدرت حول الموضوع تفتقد، ذلك أن قسماً كبيراً من البحوث التي صدرت حول الموضوع تفتقد التحليل الاستنباطي الذي لا غناء عنه، والنصوص التاريخية والأدبية الكافية لسد الثغرات، وصور للآلات الموسيقية التي نقش بعضها في عدد من التحف العاجية والرخامية أو الواردة في كتاب أناشيد الملك الفونسو العاشر ومعظمها مسيحية، وإن كانت ذات أصول أندلسية أناشيد الملك الفونسو العاشر ومعظمها مسيحية، وإن كانت ذات أصول أندلسية إسلامية وبعض مقطوعات من الموسيقى والغناء «الفلامنكو» (Canto Jondo) وكذلك الموسيقى المغربية الحالية والموشحات الغنائية التي يعتقد أنها من أصول أندلسية^(١٨). ومن المعروف أن شبه جزيرة إيبيريا كان لديها وقت دخول المسلمين الأندلس تراث قديم من الموسيقى الشعبية والحضرية، كما أن العرب والبربر الفاتحين كانت لديهم موسيقاهم الخاصة، غير أن المصادر التاريخية والأدبية العربية لم تسعفنا بنصوص كافية تعين على دراسة حالتها التطور والتواصل اللتين تعرضت لهما هذه الموسيقى في الفترة

(١٦) عبد الوهاب خلاّف، قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري، بدون تاريخ، ص ٣٢٠.
(١٧) Cruz Hernandez, El Islam de al-Andalus, Historia y estructura de su realidad social, Madrid, 1992, p 438

(١٨) Cruz Hernandez, El Islam, op. cit, p 436 - 437.

السابقة لسنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م) على وجه التقريب، فكل ما زدنا به لا يعدو أسماء لبعض المغنين والمغنيات ممن اجتلبهم أمراء بني أمية في الأندلس بداية بعبد الرحمن الداخل، وكلهم ينتمون إلى المدرسة المدنية التي ذاعت تقاليدھا في الأندلس إلى أن ظهرت مدرسة زرياب بغدادية الأصل، وبدأنا نلتقط أول الأخبار التي یعول علیھا فی دراستنا لفن الغناء والموسيقى وتتعلق بدخول الموسيقى البغدادية التي يرجع الفضل فی انتشارھا فی الأندلس إلى زرياب^(١٩)، فقد وفق زرياب فی تأسيس مدرسة لفن الغناء والموسيقى فی قرطبة، ونجح تلاميذه فی نقل دروسھا إلى معظم أنحاء الأندلس، ولاقت رواجاً واسع النطاق بین كافة طبقات أهل الأندلس وأصبح فن الغناء والموسيقى على حد قول أحد الباحثين جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الشعب الأندلسي^(٢٠) وكيانه فی مختلف طبقات المجتمع^(٢١)، ويعبر أبو بكر الطرطوشي عن مدى شغف أهل الأندلس وتعلقهم بهذا الفن إلى حد أنهم فی أوساطهم الشعبية قرأوا القرآن بالألحان وهی عادات ابتدعوھا^(٢٢) وفي ذلك يقول الطرطوشي «وجعلوا لكل لحن من ألحانهم فی القرآن اسماً مخترعاً، فقالوا اللحن الصقلي^(٢٣)». ولم يعد فن الغناء والموسيقى فی الأندلس قاصراً على الخاصة من الأمراء وأصحاب البيوتات

(١٩) Cruz Hernandez op. cit, p 438.

(٢٠) محمود الحفنى، زرياب، سلسلة اعلام العرب، عدد ٤، ص ١٣٨، وانظر عبد الوهاب

خلاف، قرطبة، ص ١٣٠.

(٢١) احمد مختار العبادى، الاسلام فی أرض الأندلس، بحث فی المختار من عالم الفكر (أ)،

الكويت ١٩٨٤، ص ١٤٢.

(٢٢) الطرطوشي، كتاب بالحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، ص ٧٧، ٧٨ وراجع الترجمة

الاسانية Abu Bakr al Turtusi, Kitab al Hawadit wal Bida: ellibro de las Novedades. y las innovaciones, trad. Maribel Fierro, Madrid, 1993 n 266.

(٢٣) الطرطوشي، المصدر السابق، وانظر مختار العبادى، المرجع السابق، ص ١

العريقة، وإنما أصبح له قبول واسع النطاق لدى الشعب وأهل الفن والأدب، وامتلئ بعض علماء الأندلس البارزين في علوم الحكمة علماء المشرق في الاهتمام بفن الغناء والموسيقى، وكما ظهر بين علماء المشرق الإسلامى من اهتم بالكتابة في فن الغناء والموسيقى أمثال أبو الفرج الأصفهاني والفارابي والسرخسي وثابت بن قرة والرازي وقسطا بن لوقا البعلبكي والحسن بن موسى النصيبى وأبو أيوب سليمان المدينى ومنصور بن طلحة وعلى بن يحيى بن ابي منصور وابناء يحيى وهارون^(٢٤)، نجد فريقاً من علماء الأندلس وبعض الشخصيات البارزة في المجتمع الأندلس يهتمون بالتأليف في فن الغناء والموسيقى نذكر منهم أسلم بن عبد العزيز الذى بالإضافة إلى كونه أحد المتميزين من أهل الفقة والأدب، كان ذا معرفة بالأغاني وتصرفها، فكان على حد قول ابن حزم صاحب تواليف في طرائق غناء زرياب وأخباره «وهو ديوان عجيب جداً»^(٢٥). ومنهم أيضاً أبو الصلت أمية بن أبي الصلت الأشبيلي (تـ ٥٢٨ هـ) الذى صنف في الطب والتنجيم والألحان^(٢٦) وعنه أخذ أهل افريقية الألحان أثناء اقامته الطويلة في كنف الزيريين، ويقول عنه ابن ابي أصيبعة «كان من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم وله التصانيف المشهورة والمآثر المذكورة... وكان أوحده في العلم الرياضى متقناً لعلم الموسيقى وعمله، جيد اللعب بالعود» وكان من بين مؤلفاته العديدة رسالة في الموسيقى^(٢٧)، ومنهم عبد الوهاب بن الحسين الحاجب، وكان من أشهر المغنين ضاربي العود وصانعي الألحان، وكان أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه، وصنعة اللحون. ويقول عنه ابن الرقيق أنه كثيراً ما كان يقول المعاني اللطيفة في الأبيات الحسنة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة اختراعاً منه وحذاقاً^(٢٨). ومنهم أيضاً عباس بن فرناس الذى أبدع في فنون الموسيقى وحذاقها

(٢٤) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٩٤ - ٢٠١.

(٢٥) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٣٠٠.

(٢٦) ابن سعيد، المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٧ - المقرئ نفخ الطيب، جـ ٢، ص ٣٠٨. وينسبه

إلى ابي اصيبعة الى دانية (ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق) ص ٥٠١

(٢٧) ابن ابي اصيبعة، حيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥١٥.

(٢٨) المقرئ، نفخ الطيب، جـ ١، ص ١٨٠، ١٨١.

إلى أن عانى ضرب العود وصوغ اللحون وأدناه الأمير محمد منه ورفع من منزلته، وكان عباس على حدقول معاوية ابن هشام الشبنيسى يصنع له قطعاً من رقيق الأشعار تنتظم بمدحه، وتصوغ قياته فيها الألحان فيغنيه بها^(٢٩). ونضيف إلى هؤلاء الذين ذكرناهم أبا الحسين بن الحسين بن الحاسب الذى رزق فى علم الموسيقى ذوقاً مع صوت بديع، وكان شيخاً لأبى الحسين بن الوزير أبى جعفر الوقشى^(٣٠)، وكذلك أبا الفضل حسداى ابن يوسف بن حسداى الطبيب والموسيقى (توفى بعد ٤٥٨ هـ) الذى برع فى علم العدد والهندسة والتنجيم وصناعة الموسيقى^(٣١) ومنهم أيضاً أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة الغرناطى، الذى كتب فى علم الموسيقى، وكان فى المغرب على حد قول ابن حزم بمنزلة أبى نصر الفارابى بالمشرق، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد^(٣٢)، وكان متقناً لصناعة الموسيقى مجيداً فى اللعب بالعود^(٣٣)، وله رسالة فى التلاحين الموسيقية، ما زال قسم منها مخطوطاً فى مكتبة بودليانا باكسفورد تحت رقم ٢٠٦ بوكوك^(٣٤). ومنهم أيضاً يحيى الخدج المرسى الذى صنف كتاباً فى الأغانى الأندلسية على غرار كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني^(٣٥). ومن علماء الموسيقى فى الأندلس أبو عامر محمد بن الحمار الغرناطى تلميذ أبى بكر محمد بن باجة الذى كان إماماً فى الأندلس فى الألحان

(٢٩) ابن حيان، المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق د، محمود على مكى (قطعة خاصة بالسنوات الأخيرة من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر الأمير محمد)، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٧٩ - ٢٨٥.

(٣٠) المقرئ، نفح الطيب، ج٥، ص ٢٧٣.

(٣١) ابن ابى اصبيحة، المصدر السابق، ص ٤٩٩.

(٣٢) المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٧٦.

(٣٣) ابن ابى اصبيحة، المصدر السابق، ص ٥١٥.

(٣٤) Curz Hernandez, op. cit, p 437.

(٣٥) المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٧٦.

واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى به فيطرب سامعيه^(٣٦).

(١)

الغناء والطرب فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية

أ- فى عصر الإمارة:

اعتمد أمراء بنى أمية فى الأندلس فى فنون الغناء والموسيقى على مدرسة المدينة، فكانوا يجلبون القيان المجيدات لفنون الغناء والطرب على العود من المدينة التى كانت مركزاً هاماً لهذه الفنون بفضل انتجاع المغنين من الفرس والروم إليها فى أعقاب حركة الفتوح، وأصبحوا موالى للعرب، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزمار. ظهر منهم فى المدينة نشيط الفارس وطويس وسائب جائر، وعنهم أخذ معبد وطبقته وابن سريج ونظرائه^(٣٧). وفى الفترة من قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (سنة ١٣٨ هـ) إلى بداية عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (فى سنة ٢٠٦ هـ) كان جل من وفد إلى الأندلس من المغنين والمطربين المشاركة ينتمون إلى مدرسة المدينة، فكانت لعبد الرحمن الداخل قينة مدينة تسمى غفرة كانت تغنى على العود^(٣٨)، كما اشتهرت له جارية بارعة فى فن الغناء تسمى العجفاء حملت إليه من المدينة^(٣٩). ومن الدخلات فى الأندلس من المغنيات المدنيات فضل المدينة، وقلم المدينة، وهذه الأخيرة كانت أندلسية الأصل من سبى البشكنس حملت صببة إلى المدينة حيث

(٣٦) ابن سعيده، المغرب فى حلى المغرب، جـ ٢، ص ١١٩، المقرئ، نفع الطيب، جـ ٥، ص ٢٧٥.

(٣٧) ابن خلدون، المقدمة، جـ ٣، ص ٩٧٠.

(٣٨) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١١٧.

(٣٩) المقرئ، المصدر السابق، جـ ١، ص ١٣٩.

تعلمت الغناء وحذقته، وابتغيت إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى خصص
لهن ولأخريات مدنيات داراً عرفت بدار المدنيات بقصر الإمارة بقرطبة، وكان
يؤثرهن لجودة غنائهن^(٤٠).

وفى عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بدأ فن الغناء والموسيقى
يشغل مكانة سامية فى البلاط الأميرى ، وفى عهده دخل الأندلس علون وزرقون،
فنالا من الشهرة ما رفع من قدرهما، فنفقا على الأمير الحكم، وانضما إلى طائفة
من الموسيقيين بالبلاط الأميرى على رأسهم العباس بن النسائي ومنصور
اليهودى^(٤١)، وهذا الأخير أوفده الأمير الحكم إلى المغرب لاستدعاء زرياب الى
قرطبة^(٤٢)، فما كاد يجتاز بصحبته الزقاق إلى الجزيرة الخضراء حتى وافته الأخبار
بوفاة الأمير الحكم الرضى فى سنة ٢٠٦ هـ، فهم بالعودة إلى المغرب، ولكن
منصور اثناه عن ذلك ورغبة فى قصد الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم،
فكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب الأمير يذكر فيه ترحيبه بزرياب وتطلعه
إليه^(٤٣)، فقد كان عبد الرحمن صعباً بالغناء مولعاً بالسماع مقدماً له على جميع
لذاته^(٤٤)، كما كان يتوق إلى سماع غناء أو أحد من أشهر تلاميذ اسحق
الموصلى وأكثرهم حذقاً فى الغناء على العود. ولسنا بصدد الحديث عن زرياب
فيكفى ما كتب عنه فى كثير من المصادر العربية والمراجع الحديثة حتى أصبح
المزيد من الكتابة عنه يثير الملل ولا يتضمن الجديد فيما يتعلق بابتكاراته الزريرية.

(٤٠) المقرئ ، نفس المصدر، ج٤، ص ١٣٦.

(٤١) فارمر، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٤٢) فارمر، نفسه، ص ١٥٤.

(٤٣) المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٢٠.

(٤٤) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، نشر لويس مولينا، ص ١٤٤. وقد أخطأ ابن خلدون إذ ذكر ان

زرياب لحق بالحكم بن هشام (مقدمة ابن خلدون)، ص ٩٧١.

(٤٥) ابن حيان، المقتبس، القسم الخاص «بهد الرحمن الأوسط وابنه محمد، تحقيق د. محمود على

مكى، ص ٥٤٩.

وتتلمذ على زرياب ابناؤه الذكور الثمانية (عبد الرحمن ومحمد والقاسم وعبد الله ويحيى وجعفر وأحمد وحسن) وبناته عليّة وحمدونة^(٤٥) التي تزوجها الوزير هاشم بن عبد العزيز، وتفوقت على أختها عليّة في الغناء، وقد مارس كل بنيه صناعة الغناء، وكان قاسم أحذقهم غناء^(٤٦)، وبرزت من جواريه في فن الغناء والطرب غزلان وهنيدة، وكانتا تأخذان عودهما ويطارحهما بعوده، وكذلك اشتهرت من تلميذاته أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل، وكانت في غاية الاحسان وطيب الصوت^(٤٧)، وكذلك متعة التي علمها افضل اغانيه وأهداها زرياب للأمير عبد الرحمن فحظيت عنده^(٤٨).

وما لاشك فيه أن الفن الموسيقي الذي أدخله زرياب الأندلس كان فناً بغدادياً اختص به البلاط الأموي الأندلسي، ودعم هذه الموسيقى الشرقية البغدادية مغنيات قدامن من بغداد أو غيرها من بلاد المشرق منهن قمر البغدادية جارية أبي اسحق ابراهيم بن حجاج الشاعر باشبيلية، ابتاعها من بغداد بأموال طائلة^(٤٩). وكانت قمر تحسن صوغ الألحان. كذلك دعمها وفود بشارة الزامر وكان من حذاق زمرة المشرق ويقول عنه المقرئ «كان بعيد الهمة سمحاً بما يجد، تغل عليه ضياعه كل عام أموالاً جليلة، فلا تحول السنة حتى ينفذ جميع ذلك ويستلف غيره، فمن وصله منهم استقبله بصنوف البر والأكرام وكساه وخلطه بنفسه، ولم يدعه إلى أحد من الناس^(٥٠)».

(٤٥) ابن حيان، المقتبس، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد، تحقيق د. محمود على مكى، ص ٥٤٩.

(٤٦) المقرئ، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢١ - ١٢٦

(٤٧) المقرئ، نفسه، ص ١٢٧

(٤٨) نفسه، ص ١٢٧.

(٤٩) ابن عذاري، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، نشر دار الثقافة ببيروت ١٩٦٧، ج ٢،

ص ١٣٨ - المقرئ، نفسه، ج ٤، ص ١٣٧

(٥٠) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٨١

ومن الوافدين من مصر من المغنين، المغنى عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني الذي قدم إلى الأندلس وهو حدث متظرف يحسن الغناء، ولزم عيسى بن شهيد حاجب الأمير عبد الرحمن الاوسط ولكنه أمسك عن الغناء بعد فترة قصيرة من اقامته بالأندلس امثالاً لنصح الحاجب عيسى بن شهيد الذي أوصله إلى الأمير عبد الرحمن، فرفع منزلته، وناداه وأنس به واستخدمه حتى قلده منصب الوزارة والقيادة^(٥١).

ونستخلص مما أورده المؤرخون عن التلاحين الغنائية الزرنايية، إذا صح سميتها بهذا المسمى، بأنها تتميز بالإبهار الذي جعل الأمير عبد الرحمن بعد أن سمح غناء زرياب لأول مرة - يطرح كل غناء سواه، ويقدمه على سائر من لديه من المغنين. وكان طبيعياً أن تتأثر هذه الموسيقى الشرقية بمرور الزمن بالموسيقى المحلية التي كانت شائعة عند المستعربين، وما أدخله البربر من موسيقاهم المغربية، حتى تخرج من نطاق الموسيقى البلاطية، وتتغلغل بعمق في المجتمع الأندلسي في القرنين الرابع والخامس للهجرة^(٥٢)، وتتبع تدريجياً عن التقاليد الشرقية البغدادية لاسيما بعد أن ابتكر أهل الأندلس الموشحات والأزجال، وظهرت في قرطبة في عهد المنذر مغنية بارعة الحسن اسمها طرب عرفت بحسن غنائها^(٥٣)، كما اشتهرت في عهد الأمير عبد الله بجارية حسنة الصوت تسمى جيحان، هام بها الأمير عبد الله قبل توليه الإمارة^(٥٤). ومن الشهيرات في فن الغناء من الجوارى أمهات ولد لأمراء الأندلس غزلان أم

(٥١) ابن حيان، المقتبس تحقيق د. مكى، ص ٣٠.

(٥٢) Cruz Hernandez, op. cit, p 443

(٥٣) المقرئ، نفع الطيب، ج ٥، ص ١١٦.

(٥٤) ابن حيان، المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق د. اسماعيل العربي، المغرب، ١٩٩٠، ص

١٤٧ - ابن الأبار، الحلة السراء، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص

المطرف بن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكانت مغنية بديعة محسنة عوادة أدبية، كما كان لمحمد بن الأمير المنذر جارية مغنية تسمى الأراكة^(٥٥).

ومن أشتهر من المغنين في عصر الإمارة عباس بن فرناس الذي كان يحضر مجالس الأندلس التي كان يعقدها الأمير محمد بن عبد الرحمن في خاصته، فكان يغنيه بعوده أشعاراً في مدحه^(٥٦). ومن بين الموسيقيين الذين حذقوا الغناء على نغمات الآلات الموسيقية المختلفة كالعود والمزمار، شرحبيل الزامر، وكان أثيراً لدى الأمير محمد^(٥٧).

وبرز من بين الأمراء الأمويين في عصر الإمارة ممن كانوا يجيدون الغناء ويحذقون الضرب بالعود أو النفخ بالمزمار، عبد الله بن الأمير عبد الرحمن الأوسط من جاريته طروب، وكان يعقد مجالس الطرب في داره المطللة على باب القنطرة من مدينة قرطبة حيث كان لا يسمع سوى الغناء والزمير^(٥٨). وكان الأمير المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط مولعاً بالسماع، مثمناً في محسنات القيان، وكان يحسن الضرب بالعود ويصوغ عليه أصواتاً رائعة، وأحدث لنفسه طريقة حسنة حملها المغنون عنه، وكانوا يعزونها إليه^(٥٩)، وكان على حد قول معاوية ابن هشام الشبيني أكلف ولد الأمير محمد بالأدب وافضلهم في صوغ الشعر وأكثرهم اقبالاً على السماع، وأبصرهم بالموسيقى، وأجمعهم لمحسنات القيان^(٦٠). وكان عثمان وإبراهيم ولدا الأمير محمد بن عبد الرحمن حاذقين لفن الغناء^(٦١).

(٥٥) المقرئ، نفح العليب، ج٥، ص ١٢٠.

(٥٦) ابن حيان، المقتس، تحقيق د. مكى، ص ٢٧٩: ٢٨٠.

(٥٧) ابن حيان، المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٥٨) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر وتحقيق دون خيلان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦ ص ٨٠.

(٥٩) ابن حيان، المقتس، تحقيق د. محمود مكى، ص ٢٠٥، ٢٠٨.

(٦٠) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٢٤٠ - ابن حزم، جمهرة انساب العرب، تحقيق الاستاذ عبد

السلام هارون، القاهرة ١٩٧١، ص ٩٩.

(٦١) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٩٩.

ب- فى عصر الخلافة:

ازدهر فن الغناء والموسيقى فى الأندلس فى عصر الخلافة، فعبد الرحمن الناصر رغم المشكلات السياسية التى كان يعانىها فى مستهل توليه الإمارة إلى أن تلقب بألقاب الخلافة ثم اشتغاله بمواجهة الفاطميين الذين كانوا يتهددون الأندلس بغاراتهم على سواحله الجنوبية، ورغم اشتغاله فى أوقات السلم بالبناء والتعمير، كان يختلس من وقته ما يتيح له امتناع نفسه بسماع بعض المغنيات من جواريه، فكان بطبعه ميالاً لسماع الغناء مهتماً رغم اعبائه الثقيلة فى الداخل والخارج باجتلاب عدد من المغنيات من المشرق بدليل أنه سیر فى سنة ٣٤٤ هـ سفينة إلى الإسكندرية عادت مشحونة بعدد من الجوارى والمغنيات^(٦٢).

وكانت زوجته السيدة القرشية الحرة، فاطمة بنت المنذر، عم أبيه، ولكنه كان يؤثر عليها مرجان أم ولده وولى عهده الحكم، التى عرفت بالسيدة الكبرى، وكان السبب فى ذلك حسبما أورده ابن حيان أنه انفرد يوماً لراحته فى بعض رياض القصر بمن استدعى من جواريه، فقضى وقتاً مليئاً باللهو والطرب، ثم تاق إلى رؤية زوجته الحرة السيدة القرشية التى كان قد تزوجها عندما آلت إليه الإمارة سنة ٣٠٠ هـ وحظيت عنده، وأنجب منها ولده أبا الحكم المنذر، فأمر وصيفة من وصائفه باستدعائها فانطلقت الوصيفة إلى دار الحرة فأبلغتها رسالة عبد الرحمن الناصر لها، وكان يلتف حولها جماعة من كرائم الخليفة الناصر وأمها أولاده فيهن مرجان أم الحكم ولى العهد فنهضت مرجان وتناولت العود وقرعته مغنية ببيت شعر سنج لها نصه.

يا ليلة لو أنها تتنازع لى أو تشتري .: شريتها بكل ما أطلبه من المنى

(٦٢) ابن الأنير، الكامل فى التاريخ، طعة ليد، ١٨٦٧، ج٨، ص ٥١٣ - أبو الفداء، المختصر

فى أخبار البشر، طبعة بيروت، ١٩٥٦ - ١٩٥٩، ج٣، ص ١٢٧

وأخذت تعيد غناء البيت، فقالت لها القرشية الحرة «ويحك يا مرجان!! لقد أفرطت في إطرابي هذه الليلة وذلك من فرط صلفك ومجونك» وطلبت منها القرشية أن تعطيها مقابل ذهابها بدلاً منها عشرة آلاف دينار، فأحضرت لها مرجان ما طلبته من الدنانير مقابل تخليها عن الدعوة، واشترطت عليها أن تخط بيدها ما حدث بينهما ثم انصرفت مرجان بالرقعة إلى دارها، ثم جلست في طريق الخليفة إلى دار القرشية، فلما شاهدهة مقبلاً نهضت من جلستها وأخبرته بما فعلته زوجته الحرة القرشية، وأبرزت له مرجان الرقعة التي سجلت عليها اسماء الشاهدات، فاستاء الخليفة الناصر من صنيع زوجته القرشية، ورأى أن مرجان أحق منها بأن تكون سيدة نسائه وكبرى حظاياها وقيمة قصره، وزادت منزلتها عنده حتى ملكت زمام قيادة (٦٣).

ويبدو أن قصر الخلافة بمدينة الزهراء كان يموج بالجوارى والقيان، وإن عدداً كبيراً منهن كن من المغنيات المجيدات لفن الغناء، وقد أثر وجودهن بالقصر بهذه الكثرة في اقبال بعض ابناء الناصر على مشاركتهن في الغناء وشغفهم بسماعهن، بدليل أن عدداً من هؤلاء الأبناء كان مولعاً بهذا الفن، نذكر منهم على سبيل المثال الأمير عبد العزيز ابن الناصر، ويذكر ابن سعيد أنه كان مغرمًا بالشراب والغناء فترك الخمر لبغض أخيه الحكم (ولى العهد) لها، وكان الحكم يقول: لو ترك الغناء لكمل سروره، وكان جواب عبد العزيز «والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها» ثم أنشد قائلاً:

أنا في صحةٍ وجاء ونعمى .: هي تدعو للذة الألبان
وكذا الطير في الحداث تشدو .: للذى سر نفسه بالقيان (٦٤)

وكانت جعفر التي عرفت بالسيدة صبح زوج الحكم المستنصر بالله

(٦٣) ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، تحقيق د. بدر شالميتا ود. كورينطى ود. صبح، مدريد، ١٩٧٩، ص ٥ - ١٣.

(٦٤) ابن سعيد، المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٤، ترجمة ١٢١

مغنية^(٦٥) حظية عند الحكم رغم ولعه بالعلوم والآداب واستغراقه جل وقته في قراءة المصنفات، وعزوفه عن المبالذ ومجالس اللهو، وعندما أنجبت له ولده عبد الرحمن في سنة ٣٥١ هـ أصبحت أم ولده، ولم تمض خمس سنوات على ولادته حتى توفي في سنة ٣٥٦ هـ، فحزن الحكم لوفاته، وكانت صبيح قد أنجبت له ولداً آخر في سنة ٣٥٤ سماه هشاماً، سرّبه^(٦٦) وقرت له عينه به فولاه العهد من بعده.

وكان هشام صبيهاً عندما بويغ بالخلافة في سنة ٣٦٦ هـ ولقب بهشام المؤيد بالله، وكان قد نشأ بين حريم البلاط والجواري، الأمر الذي هياً للحاجب المنصور محمد بن أبي عامر أن يستبد بالحكم، وكان المنصور رغم مشاغله الكثيرة وما عرف منه من جدية وصراحة يقبل في بعض الأحيان على عقد مجالس الطرب في منية السرور بمدينة الزهراء، وكانت تغنيه من جواره جارية تسمى أنس القلوب^(٦٧). وذكر ابن بسام أن أبا العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي كان فرداً في علم الموسيقى حاذقاً للضرب على العود، وأنه تناول العود يوماً في حضرة المنصور بن أبي عامر وجس أوتاره وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر، واندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر:

أبي القلبُ إلا حبّها عامرية .: لها كنية عمرو وليس لها عمرو
تكاد يدي تندی إذا ما مالستها .: وينبت في أطرافها الورق الخضر^(٦٨)

ومع ذلك فقد كان يتوقع أن تنهار القيم من بعده، ويجنح من يخلفه في الحجابة من بنيه إلى اللهو والمجون، فقد ذكر ابن الكردبوس أنه قال لكوثر الفتى الصقلبي ساعة احتضاره «وها أنذا هالك، وليس في بني من يخلفني،

(٦٥) ابن عداري، البيات المغرب، ج٢، ص ٢٥٣ - مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص ١٧٤.

(٦٦) ابن عداري، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٥.

(٦٧) المقرئ، مع الطيب، ج٢، ص ١٤٦.

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قم ٤، مجلد ١، ص ٣٠، ٣١.

وسيشغلون باللهو والطرب والشرب»^(٦٩). وصح ما توقعه المنتصور فعندما خلف عبد الرحمن شنجول أخاه عبد الملك في الحجابة، افتتح عهده بالخلاعة والمجون، فكان يخرج من منية إلى منية ومن متنزه إلى متنزه مع الخياليين والمغنين والمضحكين^(٧٠).

ومن اشتهر بالمجون واللهو والشغف بالطرب في عصر الفتنة التي أعقبت مصرع شنجول، محمد بن هشام بن عبد الجبار، وكان مغرمًا باللهو واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب، وكانت لديه من الجوارى المغنيات جارية أبى القاسم المصري الخيالي المسماة بستان، وامرأة ابن الشرح التي تسمى واجد^(٧١). وكان الخليفة الأموي المعتد بالله هشام بن محمد يعرف بولعه باقتناء الجوارى المغنيات وقد أعد له وزيره حكيم بن سعيد القزاز عددًا كبيرًا من القينات والمهيات^(٧٢).

(٢)

فن الغناء والموسيقى في عصر دويلات الطوائف

تعرض فن الغناء والموسيقى بعد سقوط الخلافة الأموية في سنة ٤٢٢ هـ - قيام دويلات الطوائف لتطور واسع النطاق نتيجة لظهور الموشحات والأزجال أو ما يعرف بالشعر الشعبي الأندلسي^(٧٣). ومن المعروف أن الموشحات الأندلسية

(٦٩) تاريخ الأندلس لابن الكردوبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، مدريد، ١٩٧١، ص ٦٥.

(٧٠) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٧٩.

(٧١) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٧٢) نفسه، ص ١٤٩.

(٧٣) عن شعر الموشحات والأزجال ارجع إلى: ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول - ابن سعيد المغرب في حلى المغرب - ابن عبد ربه، العقد الفريد - ديوان ابن قزمان، مخطوطة (نسخة مصورة) رقم ١٥١٣ أدب، دار الكتب المصرية - عبد العزيز الأهواني، الزجل في الأندلس =

ابتكرها مقدم بن معافى اعمى قبرة فى قول، أو محمد بن محمود القبرى
الضرب فى قول آخر، والموشحة والزجل تجيز للشاعر أن يستخدم بحوراً غير بحور
العروضيين، ويخالف بين القوافى فى القصيدة الواحدة، ووجه الاختلاف
بينهما أن الموشحة تصاغ بلغة فصيحة بينما يصاغ الزجل بلغة دارجة ملحونة،
كما أن الموشحة تنتهى عادة ببيتين يعرفان بالخرجة، يصوغهما الوشاح فى لغة
دارجة أو رومانية، وكان يقصد بالموشحة أو الزجل الغناء، فكان المغنون
والمغنيات يعتمدون على الوزن فى تجزئة اللحن وتقسيمه^(٧٤)، وقد ربط اخوان
الصفاء بين مقاييس الغناء وأوزان الشعر، وقالوا «ان قوانين الموسيقى مماثلة لقوانين
العروض»^(٧٥). وكانت مجالس الغناء بهذا الشعر الغنائي الشعبى تعتمد على
جوقة مؤلفة من عواد وزامر فى الناي أو المزمار، وضارب على الدف أو
بالصنوج، ويبدأ المغنى غناءه بالمطلع، ويواصل غناءه للأغصان الثلاثة، فإذا بلغ
الجزء الرابع المعروف بالسمط والذى تتفق قافيته المطلع، رددته معه البطانة.

ويعتقد الأستاذ رامون منندث بيدال أن الزجل هو حلقة الاتصال بين
الموسيقى الإسبانية الحالية والموسيقى الايبيرية فى التراث اليونانى واللاتينى^(٧٦).

= القاهرة، ١٩٥٧ - مصطفى الكريم، فن التوشيح، بيروت، ١٩٥٩ - سيد مصطفى
غازى، فى أصول التوشيح، الاسكندرية، ١٩٧٦ - جودة الركابى، فى الأدب الأندلسى،
دمشق ١٩٥٥ - عبد الرحمن الحجبى، تاريخ الموسيقى الأندلسية: أصولها، تطورها، أثرها
على الموسيقى الأوروبية، بيروت، ١٩٦٩ - السيد عبد العزيز سالم، تأثير الأرحال الأندلسية
فى الشعر الغنائى الأوروبى، كتاب الشعب، عدد ٥٦٤ - ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب
والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى، القاهرة، ١٩٥٨.

(٧٤) سيد مصطفى غازى، فى أصول التوشيح، ص ٤٢.

(٧٥) رسائل اخوان الصفا، تحقيق خير الدين الزركلى، القاهرة، ١٩٢٨، ج ١، ص ١٤٤.

(٧٦) ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ - سيد مصطفى غازى،

فى أصول التوشيح، ص ٤٦.

وافتنن أهل الأندلس بالشعر الشعبي الذى يصاغ بلغته العامية أو تقتصر خرجاته على العامية أو الرومانسية (الأعجمية)، ونظموا فيه أغانيهم الشعبية وأخضعوها لمطالب البيئة التى يحيون فيها، وأخذوا يرددونها فى الأعراس والأعياد^(٧٧).

وعلى هذا النحو شاع تلحين الأزجال والموشحات فى الأندلس فى عصر دويلات الطوائف لملاءمتها لأذواق عامة الناس، وأصبح يتغنى بها الخاص والعام، فى هذا العصر الذى ساد فيه السفه واللهو، وأهدرت القيم الرفيعة وأقبل ملوك الطوائف على المجون والعبث وعكفوا على الشراب والمغانى والعيان^(٧٨) فكان منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة يميل للتبذل ويكثر من اتخاذ الجوارى^(٧٩). وكان ابو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة يميل إلى اللهو واكتساب الآلات، وذكروا أنه كان «أول من بالغ الثمن بالأندلس فى شراء القينات، اشترى جارية أبى عبد الله المتطيط ابن الكتانى بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سوماها. فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار فملكها، وكانت واحدة القيان فى وقتها لا نظير لها فى مغناها، لم ير أخف منها روحاً، ولا أملح حركة ولا ألين اشارة، ولا أطيّب غناء ولا أجود كتابة، ولا أملح خطأ ولا أبرع أدباً ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه الى الشروع فى علم صالح من الطب ينبسط بها القول من المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الاعضاء «الباطنة» وغير ذلك مما يقصّر عنه كثير من منتحلى الصناعة إلى حركة بديعة فى معالجة الثقاف والمجاولة بالجحفة، واللعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرفهة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ولا عديل، وابتاع إليها كثيراً من المحسنات المشهورات بالتجويد طلبهن بكل جهة، فكانت ستارته ذاك أرفع ستائر الملوك بالأندلس»^(٨٠).

(٧٧) سيد مصطفى غازى، المرجع السابق، ص ٨٨، ٨٩

(٧٨) تاريخ الأندلس لابن الكردوبس، ص ٨٩.

(٧٩) ابن بسام، الذخيرة، قسم ١، مجلد ١، ص ١٨١

(٨٠) ابن بسام، المصدر السابق، ق ٣، م ١، ص ١١٢ - ابن عذارى، البيان المغرب، ح ٢، ص ٣٠٨

وكان لدى المعتضد بالله بن عباد ملك اشبيلية مغن مشهور يعرف بالمغنى السوسى^(٨١) يتضح من اسمه أنه من بلاد السوس فى أرض المغرب، وذكروا أن المعتضد بالله انتهز فرصة وفاة ابن الرميمى الوزير، واجتلب قينته من قرطبة لما وصفت له بالحذق فى صنعتها، فوجهت نحوه. وقلده المظفر ابن الأفطس ملك بطليوس وخصمه اللدود فى التماس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، فاشترى صبيتين ملبستين من قرطبة^(٨٢). وكان المعتمد على الله بن المعتضد بالله بن عباد شغوه بالسماع والطرب، وكانت له من الجوارى جوهرة ووداد^(٨٣)، كما أهدها يوسف بن تاشفين جارية مغنية نشأت بالعدوة من أرض المغرب، وجاء بها إلى^(٨٤) اشبيلية. وبرز فى مجالس الطرب التى كان يعقدها ولده الرشيد، المغنى أبو بكر الأشبيلي^(٨٥).

وظهرت فى بلاط المعتصم بن صمادح ملك المرية جارية أندلسية مغنية هى غاية المنى^(٨٦)، وكانت لأبى محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبى مغنية تغنى على ألحان عودها يقال لها هند^(٨٧). واتخذ الوزير الشاعر أبو الوليد بن زيدون جارية مغنية تسمى عتبة^(٨٨). وكان أبو جعفر أحمد بن عبد الله الشاعر المعروف بأعمى تطيلة متيحاً بحب مغنية تسمى «الليذة» أنشد فيها كثيراً من أشعاره، وما قاله فيها:

(٨١) المقرئ، نفع الطيب، جـ ٥، ص ٢٣٥.

(٨٢) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢١٢.

(٨٣) المقرئ، المصدر السابق، جـ ٥، ص ٢٣٢.

(٨٤) المقرئ، نفسه، جـ ٦، ص ١٢.

(٨٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٣٨٥ - المقرئ، نفع الطيب، جـ ٦، ص ٨.

(٨٦) المقرئ، المصدر السابق، جـ ٦، ص ٢٢.

(٨٧) نفسه، ص ٢٩.

(٨٨) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م ١، ص ٤٣١.

غنت فلوان ميتاً كان يسمعها .: لعاد حيا كأن لم يرد يوم ردى^(٨٩)
 وكان الجغرافى الأندلسى المشهور أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز
 البكرى مولعاً بالغناء والشراب، وفى ذلك يقول:
 خليلي انى قد طربت على الكاس .: وتقت إلى شم البنفسج والآس
 فقوموا بنا نلهو ونستمع الغنا .: ونسرق هذا اليوم سراً من الناس^(٩٠)

(٣)

مجالس الطرب فى حواضر الأندلس

كان امراء بنى أمية فى الأندلس يعقدون فى قصرهم بقرطبة وما يحف بها
 من منيات ومنتزهات مجالس للغناء والموسيقى يشهدها الندماء من الوزراء
 والأعيان وأصحاب... طلة والشعراء، فكان الأمير محمد بن عبد الرحمن يجمع
 لقيفاً من هؤلاء الندماء، ويأمرها بمراتب الغناء وآلات الصهباء^(٩١) على نغمات
 البوق والدف والمزمار، وكان فى خدمته عدد من المهرة فى استخدام البوق^(٩٢).
 ويذكر ليفى بروفنسال أن الأمير محمد نفسه كان يجيد استخدام البوق، وكان
 له بوق من الأبنوس المرصع بالذهب والأحجار الكريمة^(٩٣). وتتمثل هذه

(٨٩) المصدر السابق، ق ٢، م ٢، ص ٧٣٨.

(٩٠) ابن الأبار، الحلة السيرة، ص ١٨٧ ويعتقد د. حين مؤنس ان هذه الايات لعبد الله بن عبد العزيز المروانى.

(٩١) المقرئ، نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٣١.

Rachel Arié, Espana Musulmana, trad. Berta Julia, Barcelona, (٩٢) 1982, p 319.

Lévi- Provençal, Histoire de L'Espagne Musulmane, t. III (٩٣) Leiden, 1954, p 450.

المجالس فى نقوش آدمية محفورة داخل جامات صندوق من العاج مستطيل الشكل محفوظ فى كاتدرائية بنبلونة، صنع خصيصاً للمظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبى عامر ففى أحد الجانبين الطويلين من الصندوق ثلاث جامات تمثل مجالس طرب وشراب نشهد فى الجامعة الوسطى مجلس غناء وموسيقى من ثلاثة أفراد أوسطهم عواد يجلس القرفصاء ويعزف بيده على عود بينما ينفخ الأيسر فى مزممار ذى فرعين أما الأيمن فقد طمست معالم وجهه بسبب المزلاج الذى يغلق به الصندوق^(٩٤).

ومن أمثلة النقوش التى تمثل مجالس الأنس والطرب جامعة مفصصة بالعلبة العاجية اسطوانية الشكل المحفوظة بمتحف اللوفر وبداخلها مجلس طرب وشراب أبطاله شخصان يجلسان القرفصاء، الأيمن منهما يمسك بآلة موسيقية لعلها القيثار، والثانى يمسك بيده اليمنى قارورة ويتوسطهما عواد يقف على قدميه يعزف على أوتار عود^(٩٥).

ويحتفظ متحف الآثار الأهلى بقرطبة بتاج عمود من الطراز الخلافى المركب يتوسط كل وجه من أوجهه الأربعة نقش بارز يمثل أحد الموسيقيين يقف مواجهاً الناظر إليه ويرتدى قميصاً وسروالاً وقد تشوهت معالم وجهه فى كل نقش من النقوش الأربعة ربما بتوجيه من رجال الفقه، ويتميز أحد النقوش بأن صاحبه يضرب بأوتار عود فى حين تتميز صورته الثانية بأنه يعزف على القيثار^(٩٦). كما يحتفظ نفس المتحف بقارورة من الخزف المزجج من عصر الخلافة، عليها رسوم ملونة تمثل رجلاً متقلساً ينفخ بالبوق، وآخر بيده دف^(٩٧).

(٩٤) السيد عبد العزيز سالم، تحف العاج الأندلسية فى العصر الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٥٩، شكل ٢٣.

(٩٥) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٥٢ شكل ١٥.

(٩٦) Al-Ándalus: Las artes islámicas en España, artículo de Rene-Holod, en Artes Suntuarias del periodo Califal, Madrid, 1992, p 248.

Ibid. p 233 (٩٧)

وفي متحف شاطبة للآثار حوض من الرخام مستطيل الشكل، يرجع تاريخه إلى عصر دويلات الطوائف، نقش في جوانبه الأربعة نقوش بارزة يمثل بعضها في الجانبين الطويلين جوقة من الموسيقيين، أحدهم زامر ينفخ في مزمار، وآخر عواد يمسك بعود يضرب على أوتاره، وفي جانب آخر صورة رجل يمسك بعود يضرب على أوتاره هذا إلى جانب نقش يمثل زامر يجلس القرفصاء^(٩٨).

ويعتبر هذا الحوض أهم أثر إسلامي بالمتحف المذكور، وأبرز الصور المنقوشة في جوانبه منحوتات تمثل مناظر صيد ونقوش صقور تنقض على غزلان، وصور أسود تفترس غزلاناً، ورجال بأيديهم عصي يرقصون على نغمات الطنبور والمزمار. ويعتقد عالم الآثار الأندلسية مانويل جومث مورينو أن هذه النقوش تمثل على نحو رمزي الاحتفال بعيد الأضحى، وربما دفعه إلى هذا الاعتقاد صور التيوس المتناطحة والماعز التي يحملها رجال أو يسوقونها للذبح، بالإضافة إلى صور الرقص والعزف على العود والطنبور والنفخ بالمزمار^(٩٩).

ويذكر ابن حيان أن الوزير هاشم بن عبد العزيز استدعى فرج بن سلام البزاز الراوية الأديب الظريف لكي يأنس به في مجلس سمر وشراب، عنت فيه إحدى قياته^(١٠٠)، ومعظم ما وصلنا في المصادر العربية عن وصف مجالس الأنس والطرب والرقص يرجع تاريخه إلى عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف، ومن هذه المجالس مجلس عقده المنصور محمد بن أبي عامر ودعا إليه الندماء والوزراء وبعض الشخصيات الهامة في الدولة، وكان من بين الحاضرين

(٩٨) Ibid. artículo de Cynthia Robinson, Las artes en los Reinos de Taifas, Lamina 49, p 261, 262.

(٩٩) سحر السيد عبد العزيز سالم، شاطبة الحصن الأموي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ٣٦٥.

(١٠٠) ابن حيان، المقتبس، تحقيق د. محمود مكي، ص ١٦٣.

الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وكان يعاني من نقرس لازمه، فحملوه على محفة، وقضى الجميع يوماً لم يشهدوا مثله، وطما الطرب وسما بهم إلى حد أن القوم تصايحوا وأخذوا يرقصون بالنوبة، فلما أتى الدور إلى ابن شهيد أخذته الحماس ونسى أوجاع النقرس، فنهض من مجلسه، وساعده في بهوضه الوزير أبو عبد الله بن عباس، وجعل يرقص وهو متكئ عليه^(١٠١).

ويذكر ابن عذارى أن المنصور عقد مجلس طرب في الثالث من شعبان سنة ٣٧٢هـ ضم عدداً كبيراً من علية القوم، وأمر جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي بأن يسقى الحاضرين، واستخف الطرب بالجميع حتى قاموا يرقصون على نغمات الموسيقى^(١٠٢). وجددير بالذكر أنه كان من بين الشخصيات التي كانت تتردد على مجالس الطرب التي يعقدها المنصور، أبو مضر محمد بن الحسين التميمي الطنبلي الشاعر وأبو بكر عبد الله بن أبي الحسن، والشاعر أبو عبد الله محمد بن شخيص^(١٠٣). وكان الوزير الحائك حكيم يكثر من تقديم مجالس الطرب للخليفة هشام المعتد، ويعد له القينات والملهيات والمغنيات^(١٠٤).

ومن مجالس الطرب والغناء التي كانت تعقد في عصر الطوائف، مجلس عقده المستعين بالله بن هود على مركب يسير بنهر سرقسطة وقد حفت بمركبه الزوارق، واجتمع له من أصحابه من اختصه لاستصحابه، وفيهم الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداي، وقد أحضر المستعين الكثير من آلات ايناسه، وعلت نغمات الأوتار، وطرب لسماعها الحاضرون^(١٠٥). ولما أعرس المستعين

(١٠١) ابن بسام، الدخيرة، ق ٤، م ١، ص ٢٧، ٢٨ - المقرئ، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤٤، ٢٤٣

(١٠٢) ابن عذارى، البيان، المغرب، ج ٢، ص ٢٨٠

(١٠٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ٢٠٢

(١٠٤) ابن بسام، الدخيرة، قسم ٣، مجلد ١، ص ٥٢٥

(١٠٥) الفتوح بن حاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق محمد العنابي، تونس، ص

٢١١ - المقرئ، نفع الطيب، ج ٢، ص ١٦٧

بالله بن هود بينت الوزير أبى بكر بن عبد العزيز احتفل أبوه المؤتمن بالله فى ذلك احتفالاً مذهلاً، فقد أحضر فيه من الآلات المبتدعة، والأدوات المخترعة ما بهر الأبواب، وقطع دون حرفتها الأسباب^(١٠٦).

ومن مجالس الأنس والطرب التى كانت تعقد فى عصر دويلات الطوائف مجلس أعده الوزير أبو بكر بن سعيد والى غرناطة، وفيه يقول الشاعر أبو بكر الخزومى المرورى المدورى الأعمى:

دار السعيدى ذى أم دار رضوان .: ما تشتهى النفس فيها حاضر داني
سقت أباريقها للند سحب ندى .: تحدو برعدٍ لأوتار وعيدان^(١٠٧)

ومنها مجلس طرب عقده أبو الحسن بن نزار فى وادى آش ودعا إليه أبا جعفر بن سعيد وأتشد شعراً ليستدعيه، جاء فيه:

شزون ورقص واقتطاف فكاهة .: وتعانق وتغامر بنواظر^(١٠٨)

وحدث مرة أن أمر عبد الله بن مردنيش بسجن الشاعر الوشاح أبى الحسن ابن نزار، وفى السجن تحيّل فى جارية محسنة للغناء، حسنة الصوت وطلب منها أن تحفظ موشحة صاغها فى مدح ابن مردنيش لتغنيها أمامه إذا ما استدعاها للغناء، وأوصاها أن تغنيها فى أطرب أوقاته، وافق أن أحسنت المغنية غناء الموشحة، فطرب ابن مردنيش لسماع الموشحة، وسأل المغنية عن صاحبها فلما عرف اسمه أمر بفك قيده والإفراج عنه^(١٠٩).

ومن المجالس التى كان يعقدها بعض الأمراء فى عصر دويلات الطوائف مجلس عقده ذخر الدولة بن المعتمد على الله بن عباد باشبيلية وكان يصحب الشراب فى هذا المجلس أنغام المثانى والمثالث^(١١٠).

(١٠٦) الفتح بن خاقان، المصدر السابق، ص ٢١٠ - المقرئ، نفع الطيب، ج٢ ص ١٦٦، ١٦٧.

(١٠٧) المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٨ - ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، نشر وتحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان، ج١، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٤٢٥.

(١٠٨) المقرئ، نفس المصدر، ج٥، ص ٤٢.

(١٠٩) نفس المصدر، ج٥، ص ٣٩، ٤٠.

(١١٠) نفسه، ج٦، ص ١٦، ١٧.

وكتب الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسلم يصف مجلس موسيقى وغناء، وقال «وأوحى إلى المزممار أن ينطق، ورأى الأوتار أن تخفق وإلى الغناء أن يذيب القلوب، ويشق الجيوب ويحث الشمول ويكفى الساقى أن يقول، وقد أسبلت على بهو السماع وقبة الغناء قطعة من الخسروان^(١١١) اللازوردية، وقد ألهب بالذهب نحورها وحواشيها، وقرنت بالعسجد أسافلها وأعاليتها وكحلت بأسلاك الجواهر خطوطها ورسومها، ووصلت بالياقوت الأحمر دوائرها ورقومها... فاندفعت منها بلابل المدارى تغرد، وحمام الأوتار تصوب وتصعد وأطيّار المعازف تتجاوب وأصناف الملاهى تتناوب^(١١٢)».

ويصف ابن خفاجة مجلس أنس فيقول «فاحتلنا قبة خضراء، ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق، ومازلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، وتشتمل عليه برداء نسيم عليل، ونجّيل الطرف فى نهر صقيل صافى لجين الماء كأنه مجرة السماء... وقد حضرنا مسّح يجرى فى النفوس لطافة، فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر، يشفى منه الورق، كأنه كاتب حاسب، تمشّق يمناه وتعقد يسراه،

يحرك حين يشدو ساكنات .: ويتعث الطبايع للسكون^(١١٣)

وهذا ابن خفاجة يصور مجلس طرب يدعو إليه من يحضر من الأصحاب فيقول «ان النبيذ بساط، موضوعه الراحة و الانبساط، وقلما يطيب رضاع الكأس إلا مع الصديق الشفيق، المشتبه بالأخ الشقيق، فهو رضاع ثان ترعى حرمة وتحفظ ذمته، وهذا يوم ضربت منه أروقة الأنواء وأعرست الأرض فيه بالسماء، فالغصن يتلوى ويتثنى والحمامة ترجع وتتغنى والماء يرقص من طرب ويصفق، والزهر يشق جيب كمامه ويمزق، فإن رأيت أن تكون فى من شهد هذا الإملاك، وتحضر فى من حضر هناك أجبت منعما^(١١٤)».

(١١١) برع من النسيج الحريرى.

(١١٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، م ٢، ٥٤٤.

(١١٣) المصدر السابق، ق ٣، م ٢، ٥٤٤ - المقرئ، نفع الطيب، ج ٢، ص ٧٥

(١١٤) ابن بسام، المصدر السابق، ق ٣، م ٢، ٥٤٦

واحتفل المأمون بن ذى النون فى طليطلة باعذار حفيده يحيى، فعقد مجلس أنس وصفه ابن حيان بقوله «وذهب المأمون إلى تتميم تكريم زواره من رجال الأمراء الذى استحضرهم يومئذ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته، وتنعيم اسماعهم بلذات أغانيه، وقد علم أن فيهم من يرخص فى النبذ، ولا يسوغ له نعيم دونه فاحتمل حرج ذلك مبالغة فى تأنيسهم، فاحتفل لهم فى مجلس قد نُضد، وأحضر فيه جميع آلات الأنس، فلما استوى بالقوم مجلسهم واشربوا إلى الأخذ فى شأنهم، قرب إليهم أطعمة طيورية جوامد وباردة، وصنوف من المصوص والأشربة والطباهج موائد مترعة، اتخذوها بسطا لنبيذهم ثم اثنوا إلى الشراب ونسوسهم به صبة، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ونظمت نوبة المغنين زمرا، فهاجوا الأطراب واستخفوا الألباب، ونقلوا الطباع فجاءوا بأمر عجاب، بلّهم فيه سابق حليبتهم، المحسّد من جماعتهم، الاسرائيلى ذى، الزائد باحسانه على ابراهيم الموصلى صديق ابليس، الظريف فى فتنه وتخيله بالمأخوري^(١١٥) المكنون، الذى اغتدى فى باطله نسيج وحده، يزدهى العيدان جسّه ويخرس الأطيّار شجوه.... فطربوا وطرب المأمون ليلتذ على وفور حلمه، وكان الذى غناه فيها «ذى» صوتاً شجياً لحنه من خفيف الرمل مطلق بالخصر، فى مقطوعة نظمها عبد الله بن الخليفة الملقب بالمصرى وهى:

باكر ل بكر الدنان إن ∴ هداء العروس فى السحر
واشرب عقارا تخال حمرتها ∴ تحرق ايدى السقا بالشر
فان يحيى أحيا بدولته ∴ ما قد محاه تصرف القدر
ملك هو الدهر فى عزيمته ∴ يطلع فينا مطلعة قمر

فطمح باين ذى النون الأطراب، وخلع لوقته عليه ثوبا من التستري الأخضر مطرزاً بالذهب، ثم فض الصلات والخلع فى سائر الطبقات تعاور المغنون فى تلك الليلة الغناء بها^(١١٦).

(١١٥) نوع من الألحان.

(١١٦) ابن بسام، نفس المصدر، ق ٤، م ١، ص ١٣٥ - ١٣٧

وفى وصف مجلس طرب ولهو يقول الشاعر أبو بحر يوسف بن عبد
الصمد:

رئى ليل قطعته فى رياض .: وندامى وقهوة ومثانى
ووجوه مثل البدر تلالا .: وقدود كأنها قُضِبَ بان (١١٧)

وفى وصف مجلس أنس يقول ابن خفاجة:

وكم يوم لهر قد أدركنا بأفقه .: نجوم كزوس بين أقممار ندمان
وللقصب والأطيار نلهى بجزعه .: فما شئت من رقص على رجع الحان (١١٨)

ويصف الأديب أحمد الشروانى صاحب حديقة الأفراح لإزالة الأتراح أحد
مجالس الطرب بقوله «كنت بمالقة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) واعتلت مرة
ولزمت فراشى وسهرت طول الليل لما بى من آلام، وإذا بى اسمع اوتار العيدان
والطنابير من كل ناحية وتختلط الأصوات بالغناء مما زاد ألى وأن كانت نفسى
تعاف سماع تلك الضروب ثم سمعت ما أنست له نفس وارتاحت حتى خيل
إلى أن أرض المنزل ارتفعت بى، وأن حيطانه تدور حولى».

ويتابع الأديب وصف ما سمعه، فيذكر أنه لم يملك نفسه إلا أن نهض
من سريره، واتجه نحو مصدر الصوت، فالفى نحو عشرين رجلاً قد اصطفوا فى
وسط بستان وبين أيديهم شراب وفاكهة، ورأى جوارى يزمرن ويعزفن على
العيدان والطنابير، وشاهد جارية تغنى غناء حسناً وقد وضعت عودها فى حجرها،
فتأثر بسماعها تأثراً بالغاً دفعه إلى أن يحفظ أشعارها وينسى أوجاعه
وآلامه (١١٩).

(١١٧) ابن بسام، نفسه، م٢، ق٣، ص ٨١١.

(١١٨) نفسه، ق٣، م٢، ص ٥٨٥.

(١١٩) أحمد الشروانى، حديقة الأفراح لإزالة الأتراح، القاهرة، ١٣٠٢ هـ ص ١٢٧ وما يليها،

وانظر عبد الوهاب خلاف، قرطبة، ص ٣٢٣، وما يليها.

(٤)

أشهر مراكز الغناء والطرب فى الأندلس

تعددت مراكز الغناء والطرب فى كل أنحاء الأندلس لاسيما فى عصر دويلات الطوائف عندما اشتغل الملوك بشرب الخمر واقتناء القيان، وركوب المعاصى وسماع العيدان « واعتكفوا على المغانى والعيدان »^(١٢٠). ونفشى الاقبال على اللهو والطرب وسماع الألحان بين طبقات المجتمع الأندلسى بحيث أصبحت فنون الأندلس جزءاً أساسياً من كيان أهل الأندلس^(١٢١)، ووجد فى مختلف أنحاء البلاد من تصدر لاعداد القيان وثقيفهن علميا وادبيا وفنياً ثم يبيعهن بأعلى الأثمان، وكان من بين هؤلاء محمد بن الكتانى المتطبب الذى يصف فى رقعة من رسالة يذكر فيها أنواع الثقافات التى كانت تتلقاها القيان فيقول «فأنا منبه الحجارة فضلاً عن أهل القدامة والجهالة، وأعتبر ذلك بأن فى ملكى الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات حكيما منطقيات فلسفيات، هندسيات موسيقيات، اسطرلابيات معدلات، نجوميات عروضيات أدبيات خطاطيات»^(١٢٢).

وكان تعلم الموسيقى يشكل جانباً رئيسياً من التعليم العام للقيان منذ عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وذلك عندما أسس زرياب مدرسته بقرطبة أعظم مراكز الغناء والموسيقى فى العصر الأموى، وظلت قرطبة تحتفظ بمكانتها السامية فى فن الغناء طيلة هذا العصر حتى سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف ثم خلفتها اشبيلية، وفى هذا المعنى يقول الأستاذ محمد المنونى نقلاً عن التيفاشى:

(١٢٠) تاريخ الأندلس لابن الكردوبس، ص ٧٧، ٨٩.

(١٢١) أحمد مختار العبادى، الاسلام فى أرض الأندلس، ص ١٤٤.

(١٢٢) ابن سام، المصدر السابق، ق ٣، م ١، ص ٣٢٠.

«وهذا الغناء اليوم موقوف على اشبيلية من مدن الأندلس، وبها عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوار مملوكات لهن ومستأجرات عليهن مولدات، ويشترين من اشبيلية لسائر ملوك المغرب وافريقية، تباع الجارية منهن بألف دينار مغربية وأكثر من ذلك وأقل على غنائها لا وجهها ولا تباع إلا ومعها دفتر فيه جميع محفوظها... ولا بد للجارية المغنية عندهم من أن تكون تحسن الخط وتعرض محفوظها على من يصححه لها من جهة العربية فيقرأ مشتريها ما في الدفتر ويعرض عليها منه ما أحب، وتغنيه بالآلة التي تشتتر في بيعها، وربما كانت محسنة في جميع الآلات وفي جميع أنواع الرقص والخيال ومعها آلاتها والجواري اللواتي يطلبن عليها ويزمرن، فتسمى مكملة وتباع بعدة ألوف من الدنانير المغربية» (١٢٣).

وكانت قرطبة في عصر بني جهور ما تزال تتبوأ مكان الصدارة في وفرة المغنين والمغنيات، وأهم مراكز الغناء والموسيقى في الأندلس، فقد ذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال «وردت على من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة» (١٢٤). وفي سنة ٤٤٢ هـ أرسل المظفر ابن الأفطس إلى قرطبة رسولا يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، كتب رسوله في قرطبة عنهن «وكن قد عدن من قرطبة يومئذ فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما فاشتراهما له... وبعد وفاة عبد الرحيم وزير قرطبة اجتلب المعتضد قينته لما وصفت له بالحدق في صنعته، فوجهت نحوه» (١٢٥).

(١٢٣) محمد المنوب، ثقافة الصقلية بالأندلس، مجلة أوراق، العدد الخامس والسادس، مدريد،

١٩٨٢ - ١٩٨٣، ص ٢٣

(١٢٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٠.

(١٢٥) ابن بسام، المصدر السابق، ق ٢، م ١، ص ٣٥ وما يليها.

وكانت اشبيلية من أهم مراكز فن الغناء والموسيقى فى الأندلس وفيها يقول صاحب منهاج الفكر «من أحسن مدن الدنيا وأهلها يضرب المثل فى الخلاعة»^(١٢٦) وعليها ينطبق قول أبى الفضل التيفاشى «إذا مات عالم باشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية»^(١٢٧).

ويذكر المقرئ أن وادى اشبيلية كان لا يخلو من مسرة، وأن جميع آلات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر^(١٢٨). وكان بطرانة، الرض القبلى لاشبيلية من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهود فى البلاد^(١٢٩).

وكانت بلنسية مركزاً هاماً فى الأندلس لفنون الطرب. ويذكر العذرى أن أهلها عرفوا بقلّة تحملهم للهموم بحيث لا يكاد المرء يجد فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم نموء كان غنياً أم فقيراً «ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على نسيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني، ويقولون: عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك» وبلغ العذرى أن مغنية تجاوز ثمنها ألف مثقال طيبة، وأما دون الآلاف فكثيرات^(١٣٠).

وكان بنو ذى النون أصحاب طليطلة يقيمون الاحتفالات فى شتى المناسبات، كالاحتفال باعذار أحد أبناء الأمراء، داخل مجالس قصر الناعورة، حيث يجتمع كبار رجال الدولة وتقدم لهم الأطعمة وتعقد لهم مجالس الطرب

(١٢٦) المقرئ، نفع الطبيب، ج١، ص ١٥٠.

(١٢٧) المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ١٤٧.

(١٢٨) نفسه، ج٤، ص ١٩٩.

(١٢٩) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، ج١، ص ٢٩٣.

(١٣٠) العذرى، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق د. عبد

العزیز الأهوانى، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الاسلاميه بمدرید، مدرید، ١٩٦٥، ص ١٨

يغنى فيها كبير المغنين فى بلاط الأمير (ذى الاسرائيلى) (١٣١) وغيره من كبار المغنين. كذلك ذاعت شهرة الجانه من اقليم شريش بمجالسها الغنائية التى كانت تقام فى متفرجاتها على النهر، ومنها يقول أبو عمرو بن غياث:

باكر الجانه مع روح الجنان .: واصطبح فيها على نقر المثنان (١٣٢)

وشغف أهل وادى الحجارة بالموسيقى والطرب وأجادوا فن الضرب على العود والعزف على القيثارة، واستمرت تحتفظ بهذه الشهرة حتى يومنا هذا فقد اشتهر واحد من أبنائها اليوم يدعى انيجه لوبث دى مندوة بالضرب على العود (١٣٣).

ويجربنا الحديث عن مراكز فن الغناء إلى الحديث عن آلات الطرب، وهى متنوعة وكثيرة، وكان معظمها فى المشرق الإسلامى وأكثرها شيوعاً فى الأندلس الرباب والمزمار والبوق والدف والعود والطبل، فقد سبق أن ذكرنا أن الأمير محمد كان يطيب له استخدام البوق، وكان لديه بوق يزدان بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة، كما شاع استخدام الدف وآلات النفخ كالمزمار والشبابة فى الأعراس.

وورد فى أبيات شعرية لأبى الحسن بن سعيد فى الطالع السعيد ما يفيد بالغناء على الرباب والزممر، بينما ورد فى بيت من الشعر فى الشاعر الأعمى ابى بكر المخزومى المشهور بالهجاء القاذع ما يفيد باستخدام الأوتار والعيدان (١٣٤). وورد فى أشعار أبى زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني أحد شعراء عصر الطوائف اسم آلة موسيقية اسمها الكنك وتعرف أيضاً بالكنككة (١٣٥).

(١٣١) عن هذه الاحتفالات ارجع إلى ابن بسم، الذخيرة، ق ٤، م ١، ص ١٠٥ وما يليها وانظر السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور فى الأندلس، سلسلة اقرأ، عدد ١٩٠، القاهرة ١٩٥٨، وقرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، ج ٢ ص ١٠٥.

(١٣٢) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، ج ١ و ص ٣٠٢.

António Aragonés Subero, Danzas, Rondas y Musica Popular de Guadalajara, 1979, p 22.

(١٣٤) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٨.

(١٣٥) ابن بسم، الذخيرة، ق ٢، م ٢، ص ٧٨٨.

وفى رد أبى الطيب عبد المنعم بن من الله القروى على رسالة ابن غرسية الشعوبى ما يعبر عن أصالة الألحان التى برع فيها العرب، وكان يتغنى بها مع الأرغن والسلياق والصنج والكنكلة والقندورة والقيثارة^(١٣٦). ويصنف ابن خلدون آلات الطرب إلى ثلاثة أنواع: آلات النفخ والآلات الوترية وآلات القرع. فمن آلات النفخ الشبابة وهى قصبة جوفاء مزودة بأبخاش معدودة فى جوانبها ينفخ فيها فيتخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الأنجاش، ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأنجاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب منسجمة بين الأصوات فيه. ومنها المزمار المسمى أيضاً بالزلامى ويتخذ شكل قصبة جوفاء من الخشب منحوتة الجانبين من قطعتين منفردتين وبأبخاش معدودة، ينفخ فيها بقصبة صغيرة، فيصدر منها صوت بنغمة حادة يقطع بأصابع اليد.

ومنها البوق وهو من أفصل آلات الزمر، يصفه ابن خلدون بأنه من النحاس الأجوف له أبخاش ويبلغ طوله مقدار الذراع، وينفخ فيه بقصبة صغيرة، ويصدر الصوت من خلالها دويماً.

أما الآلات الوترية فجوفاء كلها، وهى إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون أو الكنيرة، توزع الأوتار على بسائطها مشدودة فى رأسها إلى دسر جائلة مهمتها شد الأوتار وارتخائها عند الضرورة وذلك بادارتها ثم تضرب الأوتار اما بعود آخر أو بوتر مشدود من طرفى قوس يمر عليها بعد أن يطلّى بالشمع والكندر، ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى إمراره أو نقله من وتر إلى وتر، واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يطرب بالضراب أو بحك الوتر فتصدر الأنغام متناسبة.

(١٣٦) ابن بسام، نفس المصدر، ق ٣، م ٢، ص ٧٣٩.

ويتم القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب^(١٣٧).

ونستنتج مما أورده الشقندى في سياق حديثة عن اشيلية أن هذا البلد كان يتوافر فيه الكثير من الآلات الطرب كالخيال والكريج Carrizo والعود Alaud والروطة Rota والرباب Rabel والقانون والمؤنس والكثيرة Citara والقنار Gui-tarra والزلامى والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والبوق Alboque فى حين استخدم البربر فى المغرب الدف والأقوال وهى نوع من الطبول والبرا وأبو قرون^(١٣٨).

ويعتبر العود أهم آلات العزف الوترية عند المغنين والمغنيات، وكان معروفاً عند عرب المشرق، وكان يطلق عليه العود الكامل أو الشبوط، وكان مزوداً بأربعة أوتار أضاف إليها زرياب الوتر الخامس. وكان معظم القيان يكثرن من اصطحاب المزامير والبطول والدقوف فى المرتبة الثانية بعد العيدان^(١٣٩). ويصف ابن غبدر به البربط من الآلات الوترية بأنه محدودب الظهر، أرسح البطن، له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الاحرك أعطافه وهز رأسه^(١٤٠).

ويضيف بعض الباحثين إلى آلات القرع البندير والمزهر والكبر والنجرة والجربال وهى أنواع من الطبول^(١٤١)، وإلى آلات النفخ السرنای والصورنة والنورة واليراعه، وكلها من نوع المزامر والشبابة^(١٤٢)، أما الطسوت فكانت تقرر بالقضبان.

(١٣٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٩٦٤ وما يليها.

(١٣٨) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٣٠.

(١٣٩) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ص ١٣٠.

(١٤٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٦، ص ٧٣.

(١٤١) Miguel Cruz Hernandez, op. cit, p 442 - عبد الوهاب خلاف، قرطبة

الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى، ص ٣٢٠

M. Cruz Hernández, op. cit, p 442 - Rachel Arié, op. cit, p 320. (١٤٢)

(٥)

أثر الموسيقى والغناء الأندلسي

فى أسبانيا المسيحية

كما أثر الشعر الغنائي الأندلسي والموشحات والأزجال على شعر التروبادور والتروفير والشعراء المنشدين المعروفين فى اللغة القشتالية باسم Las Ju glares^(١٤٣) عن طريق الاتصال بين الأقطانيين فى جنوب فرنسا الذين أسهموا فى الحملة الصليبية على بربرشت سنة ١٠٦٤م، وساعدوا ألفونسو المحارب ملك أرجون فى معركة كتندة سنة ١١٢٠م، وكذلك عن طريق الألوف من أسرى المسلمين الذى حملوهم معهم إلى أقطانية، أثرت فنون الغناء والموسيقى الأندلسية تأثيراً واضح المعالم فى نظائرها المسيحية فى ممالك أسبانيا المسيحية وجنوبى فرنسا. لقد بدأ تأثير الموسيقى الأندلسية فى الغرب المسيحى على نحو متواضع منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) عندما أدخل العرب آلة العود والرباب وأنواع متعددة من آلات الزمر إلى الموسيقى المستعربة، ولم يلبث القشتاليون والأرجونيون ان تأثروا بالموسيقى الأندلسية عن طريق المستعربين واليهود وأسرى المسلمين وكذلك المدجنين من أهل الأندلس، وخير شاهد على الأثر الاسلامى فى الموسيقى المسيحية الكم الهائل من المصطلحات واسماء الآلات الموسيقية التى نقلها الغرب بألفاظها العربية إلى لغاته الأوروبية ومنها Alaud و Lute من كلمة العود، و Rabel و Reber و Rehible من رباب، وكلمة Nekero من النقارة و Timpal و Tambour و Tambore من الطنبور والطلب و Guitarra و Guitar من القيثارة و Rota من الروطة وكلمة Carrizo من الكريج وكلمة Al-

(١٤٣) عن تفاسيل ذلك ارجع إلى الاسلام فى المغرب والأندلس، مقال الشعر العربى فى اسبانيا وشعر أوروبا فى العصر الوسيط، لليفى بروفنسال، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلمى، طبعة لانية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٨٠ - ٣٠٣ - Henri Pé- rés, La poésie arabe d' Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des Troubad ours, Paris, 1947, pp. 107 - 130.

boque من البوق، و Adufe من الدف، وكلمة Atabale من الطبل^(١٤٤)

ونستدل على استخدام نصارى اسبانيا للجوارى والمغنيات المسلمات مما ذكره ابن بسام الشنتريني في معرض حديثه عن سقوط مدينة برشتر في ايدي الصليبيين والنورمان، يقول ان بسام ان أحد تجار اليهود «أتى إلى برشتر بعد الحادثة عليها ملتصقاً فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها حصلن في سهم قوس، فوجده جالساً مكان رب الدار، مستولياً على فراشه، رافلاً في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهما يوم محنته لم يتغير شيء من ريشهما وزينتهما، ووصائف على رأسه ووقته مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات لخدمته، معهن مغنية صاحب الدار المسلم كانت تشدو له على نشواته، طلب منها القومس أن تأتي بعودها وتغنى، فأخذت العود وقعدت تسويها واندفعت تغنى بشعر لم يفهمه العليج الذى أظهر الطرب»^(١٤٥).

ويتحدث أبو محمد بن الحسن المعروف بابن الكتانى بأنه شهد يوماً مجلس العليجة بنت شاذجة ملك البشكنس، زوج الطاغية شاذجة بن غرسية بن فردند لبعض تردده عن الثغر إليه وذلك فى عهد الفتنة، فلاحظ أن بالمجلس عدة قينات مسلمات ممن وهبن سليمان بن حكم الملقب بالمستعين، «فأومات العليجة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

خليلى ما للريح تأتى كأنما :. يخالطها عن الهبوب حلق
أم الريح جاءت من بلاد أحببى :. فأحسبها ريح الحبيب تسوق
سقى الله أرضاً حلها الأغيد الذى :. لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادى فرقتين فعنده :. فريق وعندى للسياق فريق

(١٤٤) على أحمد، المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية والمغربية فى الغرب الأوروبى تركيفية انتقالها خلال العصور الوسطى، من بحوث الندوة العلمية الدولية التى نظمتها كلية الآداب بالرباط سنة ١٩٩٤ تحت عنوان: الغرب الاسلامى والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ١٩٩٥، ص ٢١١ - ٢٣٢.

(١٤٥) ابن بسام، الدحيرة، ص ٣، م ١، ص ١٨٦ - ١٨٨ - المقرئ، نفع الطيب ج ٦، ص ١٩٥

فأحسنّت وجودت، وعلى العلجة من القوامات أسيرات كأنهن فلقات
قمر (١٤٦).

وفى كتاب أناشيد الفونسو العاشر صور يظهر فيها موسيقيون مدجنون
ومسيحيون يمسون بالآتهم الموسيقية، وبعض الآلات الوترية الممثلة فى الرسوم
تبدو محدثة وتختلف بعض الشئ عن الآلات الوترية الإسلامية المعروفة. وفى
السقف الخشبي بكاتدرائية. ترويل صور لأفراد يلبسون ثيابا مدجنة ومعهم آلة
موسيقية. كما تظهر على صفحة من مخطوطة مسيحية يرجع تاريخها إلى
القرن السابع الهجرى (١٣م) صورة امرأة ترتدى زى المدجنات تعزف على
البيانو. وهناك نقش بارز مدجن الطابع يتمثل فى تابوت يرجع تاريخه إلى سنة
١٣٩٠م، وكان محفوظاً فى دير نويسترا سنيورة دى بيدرا يحمل صوراً تمثل
موسيقيين (١٤٧).

ومن خلال ما ذكرناه يتبين أن الميل إلى الطرب الذى تميز به أهل
الأندلس تفشى فى اسبانيا المسيحية، وأصبح من العادات الشائعة بين طبقات
المتجمع الاسباني المسيحي.

(١٤٦) ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، ج١، ص ٣١٨.
(١٤٧) M. Cruz Hernandez, op. cit, p 441

**صور من التعاون العسكري بين دمشق والقاهرة
ضد الصليبيين في العصر الفاطمي
٤٩٨ - ٥٦٤ هـ / ١١٠٤ - ١١٦٨ م
(رؤية جديدة)**

صور من التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة

ضد الصليبيين فى العصر الفاطمى

٤٩٨ - ٥٦٤ / ١١٠٤ - ١١٦٨ م

(رؤية جديدة) (*)

مقدمة:

يعتبر موضوع هذا البحث موضوعاً حياً تجدر الاستفادة من دروسه فى مستقبل علاقاتنا مع العالم المحيط بنا. والفترة التى يعالجها البحث هى الفترة المواقبة لأهم مراحل الحركة الصليبية ضد المشرق الإسلامى، وهى الفترة التى شهدت أول نجاح حققته الهجمة الصليبية الشرسة على الشرق الأدنى الإسلامى فى نهاية القرن الخامس الهجرى الموافق الحادى عشر الميلادى وكانت بلا شك بتجنيز قاسية فى تاريخ المسلمين وكارثة عظمى هزت الكيان الإسلامى، وزلزلته وذلك عندما استغل الغرب الأوروبى المسيحي الظروف المؤسفة التى كان يعيشها العالم الإسلامى من تناحر أبنائه وتفكك قواهم وتنازعهم وغلبة المصالح الشخصية على مصالح المسلمين العليا، الأمر الذى أتاح المجال أمام قوى الغرب المسيحي للتسلل إلى قلب المشرق الإسلامى.

وسنوضح من خلال البحث أنه لم يمض وقت طويل حتى أفاق المسلمون من هول هذه الصدمة واستيقظوا من سباتهم العميق وأدركوا أن العدو الذى تغلغل فى قلب الأمة الإسلامية وتمكن من غرس أربع كيانات دخيلة فوق ترابها المقدس وداس مقدساتها وانتهك حرمانها واستولى على ثرواتها، لم يتمكن من ذلك إلا بسبب تناحرهم وتفرقهم. ومن حسن الطالع أنه كان قد تبقى لدى مسلمى القرن السادس الهجرى، بقايا وعى وإدراك وضمير إسلامى دفعهم إلى مراجعة النفس، والدعوى إلى الجهاد المقدس قبل فوات الأوان وظهرت أولى بوادر التضامن

(*) شاركت الباحثة بهذا البحث فى مؤتمر «التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور» الذى عقده قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى الفترة من ٨-٩ أكتوبر ١٩٩٥.

والتآزر والتنسيق العسكرى بين القوى الإسلامية المختلفة وهى التى طالما تنازعت وتقاتلت فيما بينها لأسباب مذهبية وسياسية، ممثلة فى الحلف الإسلامى الذى تكون فى بلاد الشام وشمال العراق تحت زعامة كربوغا اتابك الموصل فى المحرم من سنة ٤٩١ هـ (أواخر ديسمبر ١٠٩٧ م).

وسنركز فى هذا البحث على إبراز أهم صور التعاون والتنسيق والتضامن العسكرى بين دمشق والقاهرة خلال فترة اليقظة والصحو الإسلامية التى سبقت بداية مرحلة توحيد الجبهة الإسلامية على يد الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، وهى الفترة التى لمعت فيها أسماء قادة مسلمين كانوا على مستوى المسئولية، فتناسوا خلافاتهم وترفعوا عنها من أجل الصالح العام، من أهمهم كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقى فى الموصل، وظهير الدين طغتكين ونور الدين محمود فى دمشق.

ويرجع السبب الحقيقى من وراء اختيارى لهذا الموضوع فى ذكرى الانتصار المصرى/ السورى العظيم فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ اثبات أن أحداث التاريخ وملابساته تتشابه فى كثير من الأحيان وأنه اذا كانت فى وقائعته دروس وعظات وعبر فلنلتمس من أجدادنا الحكمة فقد ادركوا قبل فوات الأوان أنه لاسبيل للخلاص الا فى الوحدة وأن الهلاك كل الهلاك فى التفرق والتنازع والتمزق.

تمهيد:

الأوضاع السياسية للمشرق الإسلامى فى مطلع القرن الخامس الهجرى حتى مجيء الحملة الصليبية الأولى.

شهد الشرق الأدنى الإسلامى منذ قيام الدولة الفاطمية بمصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) خلافتين، الخلافة العباسية السنية فى بغداد، والخلافة الفاطمية الاسماعيلية فى القاهرة^(١). ودار صراع قوى بين العباسيين والفاطميين، اتسم بأنه كان فى آن واحد صراعا مذهبيا، وسياسيا، واقتصاديا وعسكريا. فعلى الصعيد السياسى والعسكرى^(٢)، نجد أن بلاد الشام كانت المحور الأساسى لهذا الصراع، ونجحت الدولة الفاطمية فى ضم جنوب بلاد الشام إلى مصر منذ عام ٣٥٩ هـ

(٩٧٠م) وحتى بداية خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠م) ولكن الفاطميين فشلوا فى بسط نفوذهم على شمال الشام بسبب موالة الحمدانيين فى بداية العصر الفاطمى للبيزنطيين ومناوأة البيزنطيين للدولة الفاطمية^(٣).

وكان تطلع الفاطميين بأنظارهم إلى جنوبى الشام، أمراً طبيعياً ومنطقياً باعتبار أن الشام امتداد جغرافى طبيعى لمصر، وارتأى الفاطميون ان ضمهم للشام فيه تأمين لنفوذهم فى مصر من الخطرين العباسى والبيزنطى فى آن واحد، كما أن بلاد الشام كانت تمثل بالنسبة للفاطميين، القاعدة الأمامية للثوب على العباسيين.

ورغم نجاح الفاطميين فى السيطرة على جنوبى الشام الا أن الشام ظل منذ فتح الفاطميين له وحتى انفصاله عنهم، مصدر قلق واضطرابات وفتن وثورات، كما ساعدت المؤامرات التى كانت تحيكها الدولة البيزنطية للفاطميين على اضطراب الوضع السياسى للفاطميين فى الشام فى أواخر القرن الرابع الهجرى وطليلة القرن الخامس، ومن ذلك تورط الامبراطور البيزنطى بسيل الثانى (٣٨٦ - ٤١٦هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٥م) فى تأييده للملاح العلاقة الثائر فى مدينة صور سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) على الحكم الفاطمى^(٤). وقد انتهت ثورته بالفشل. ورغم محاولة الفاطميين أحكام قبضتهم على الشام بعد أن اتفقوا مع البيزنطيين على توقيع هدنة مدتها عشر سنوات، استغلوها فى القضاء على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين وعلى نفوذ الحمدانيين فى حلب، الا أن هذه السيطرة لم تستمر طويلا اذ سرعان ما بدأ نفوذ الفاطميين فى التراجع منذ طليلة القرن الخامس الهجرى. منذ عام ٤٢٩هـ وحتى عام ٤٦٢هـ تناوب كل من الفاطميين والمرداسيين السيادة على حلب إلى أن أستقلت حلب تماما عن الدولة الفاطمية فى ١٨ شوال سنة ٤٦٢هـ، وذلك عندما أعلن عز الدولة تاج الملوك محمود بن نصر بن صالح المرادسى (٤٥٧ - ٤٦٧هـ / ١٠٦٤ - ١٠٧٤م) الدعوة للخليفة القائم بأمر الله العباسى وقطع الخطبة للفاطميين فى عاصمة حلب^(٥).

وفيما يتعلق بالخلافة العباسية فقد خضع خلفاؤها منذ منتصف القرن الخامس الهجري لسيطرة سلاطين الأتراك السلاجقة^(٦) ودخل طغرلبيك بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) بعد أن استدعاه الخليفة العباسي ليخلصه من القائد أبي الحارث البساسيري الذي خلع الدعوة للعباسيين مناديا باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر^(٧) العراق. ومالبث أن أعاد طغرلبيك الدعوة للعباسيين، كما قبض على الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه (٤٤٠ - ٤٤٧ هـ / ١٠٤٨ - ١٠٥٥ م) وأرسله إلى السجن بالقرب من الرى بعد أن تمكن من القضاء نهائيا على الفتنة التي أثارها البساسيري.

وخلف ألب أرسلان، عمه طغرلبيك في زعامة الأتراك السلاجقة (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) واستندت شهرته على ما أبداه من نشاطات ضد الدولة البيزنطية وعلى ما قام به من جهود في مد حدود الدولة بمساعدة وزيره نظام الملك فاجتاح ارمينية واصطدم مع قرأت الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينوس في موقعة ملاذكرت (مانزكرت) الكبرى قرب بحيرة فان عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) فالحق بالبيزنطيين هزيمة نكراء ووقع الامبراطور اسيراً في يده^(٨) مما مهد الطريق أمام والده ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٣ م) ليصبح أكبر قوة اسلامية في المشرق الإسلامي في ذلك الوقت.

وكان من الطبيعي أن تكون بلاد الشام مجالا خصبا لامتداد نفوذ السلاجقة، وبالفعل، فقد شهد عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) نزول السلطان ألب أرسلان على مدينة حلب واخضاعه أميرها محمود بن نصر بن صالح المرداسي وريطه بالتبعية له كما سبق أن أشرنا^(٩). أما في جنوب الشام فقد تمكن أئسز بن أوق (الأقيسي)، مقدم الأتراك الغز وأشهر قادة ألب أرسلان من انتزاع بيت المقدس والرملة من أيدي الفاطميين في نفس العام، ثم مالبث أن انتزع منهم دمشق أيضا عام ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) مما أدى إلى تفجر الصراع بين أكبر قوتين في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، الأتراك السلاجقة مدعمين بالشرعية الممثلة في الخلافة العباسية من جهة، والخلافة الفاطمية من جهة أخرى^(١٠).

واندفع أئسز بعد ما أحرزه من نجاح ضد الفاطميين في دمشق وفلسطين، إلى مصر في محاولة لغزوها، فخرج في العام التالي سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) قاصدا

حدودها عازما على فتحها الا أنه لقي هزيمة منكرة على يد أمير الجيوش بدر الجمالي فعاد منهزما في حالة سيئة إلى الرملة ومنها إلى دمشق^(١١).

ويشير ابن ميسر إلى اهتمام ألب أرسلان بفكرة غزو مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية بها، ولكن انشغاله بحروبه مع البيزنطيين حال دون اقدامه على ذلك، وإن كان حاول اضعاف الخلافة الفاطمية بطريق غير مباشر من خلال تدعيمه لحركة ناصر الدولة الحسين بن حمدان الذي قاد حركة تمرد ضد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ترمي إلى الدعوة للخلافة العباسية في ظل رعاية السلاجقة سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠) (١٢).

وفي سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٣م) تولى ملكشاه عرش الدولة السلجوقية وقام في عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) بإرسال أخيه تاج الدولة تتش إلى الشام مقطعا اياه كل مايفتتحه فيها من بلاد، كما أمر شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل بمساعدته.

ويذكر ابن القلانسي أن ملكشاه كان قد عزم على قصد مصر عند توجهه من أصفهان إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)^(١٣). قبيل وفاته مباشرة وكان أخوه تتش قد نجح في انتزاع دمشق من يد أئمن بعد أن قتله كما آل إليه حكم بيت المقدس والرملة، فأناوب عنه الأمير أرتق التركماني ببيت المقدس^(١٤).

ولكن سرعان ماتغيرت سياسة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي تجاه تتش فطمع في ضم حلب إلى ملكه ليكون بذلك جبهة قوية تضم كل من الموصل وحلب. ونجح في سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) في تحقيق أطماعه، فدخل حلب، وبدأ حكم العقيليين بها^(١٥) ولم يكتف مسلم بن قريش بذلك فقد تحالف مع الفاطميين أعداء تتش السلجوقي حليفه السابق^(١٦) بهدف انتزاع دمشق من يده منتهزا فرصة خروجه لغزو انطاكية فتوجه مسلم إلى دمشق في سنة ٤٧٥هـ/ ١١٨٢م مما دفع تتش للعودة بسرعة إليها ليحول بينها وبين السقوط في يد العقيلي وقد نجح بالفعل في انقاذها.

ولم يلبث مسلم العقيلي أن وجه جهوده للتصادم مع قوى اسلامية جديدة تتمثل في دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فاشتبك مع سليمان بن قتلمش

سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) فى موضوع قرزاحل على نهر سفين. وانتهت المعركة بهزيمة مسلم بن قريش ومقتله (١٧).

ورفع هذا الانتصار من شأن سليمان بن قتلمش، مما أطمعه فى الدخول فى صراع مع سلاجقة الشام لالتهام أكبر قدر من الأراضى الشامية. وهذا الصراع فى حد ذاته بين فرعين من فروع السلاجقة، يكفى لتوضيح مدى ضعف المسلمين آنذاك فلم يكن الصراع قاصرا على القوى الإسلامية الكبرى واعنى بها الخلافتين العباسية والفاطمية، بل أنه امتد ليشمل الكيانات الصغيرة التى ظهرت على مسرح السياسة الإسلامى فى ذلك الوقت مما مهد الطريق أمام العدوان الصليبي على المشرق الإسلامى. وعلى هذا النحو ساد الاضطراب والفوضى السياسية بلاد الشام الأمر الذى أدى إلى تدخل ملكشاه بنفسه فى أمور البلاد سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) فأعاد تقسيم مناطق النفوذ بها، كما حد من سلطة أخيه تتش وأن كان قد سمح له بالتوسع على حساب الفاطميين، فاستولى تتش بمساعدة قسيم الدولة أقسنقر على كل من حمص سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وعرة وأفامية (١٨).

وبذلك كادت جميع بلاد الشام أن تخضع للسيادة السلجوقية سواء كانت تابعة للسلطان ملكشاه نفسه أو لأخيه تتش الذى أصبح يسيطر على دمشق وبيت المقدس والرملة وحمص وعرة وأفامية إلى جانب بعض حصون الساحل الشامى.

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد من الانقسام والضعف والتفتت السياسى فقد ازدادت ب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ترديا وسؤا، وانتهى عصر الامبراطورية السلجوقية التى تفككت بدورها، وانقسم الأمراء السلاجقة فيما بينهم وتفرغوا للقتال والتناحر ودخلوا فى سلسلة من الحروب عرفت باسم حروب الوراثة السلجوقية. وانقلب تتش على بركيا روق ابن ملكشاه أخيه وطالبه بالسلطنة. وازداد تفرق الحلفاء عندما انحاز كل من قسيم الدولة أقسنقر وبوزان إلى بركييارق ضد تتش.

واستمرت المنازعات التى اسفرت عن مقتل تتش فى احدى معاركه ضد بركييارق سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) مما زاد من تفكك بلاد الشام وضعفها (١٩).

وفيما يتعلق بأملاك تتش فقد انقسمت عقب وفاته بين ولديه، فخر الملوك رضوان، وشمس الملوك دقاق اللذين تنازعا بدورهما. كل منهما يسعى لانتزاع أكبر قدر من الأملاك والأراضي والمدن دون أخيه. ثم استقر الأمر على أن تكون حلب لفخر الملوك رضوان ودمشق لشمس الملوك دقاق.

واعتمد كل منهما على أتابك يسير له أموره وينظم له دولته، فبينما اعتمد رضوان على جناح الدولة الحسين الذي كان أتابكا له في حياة أبيه، توجه ظهير الدين طغتكين أحد اتباع تتش إلى دمشق فأصبح أتابكا لدقاق الذي عهد إليه بكل أموره (٢٠).

وساهم الخلاف بين رضوان ودقاق في إضعاف الموقف السياسي في بلاد الشام عشية مجيء الصليبيين، فقد دخل رضوان في صراع حاد مع ياغي سيان، أمير انطاكية كما عمل على مهاجمة أملاك أخيه دقاق في دمشق مما دفع هذا الأخير وطغتكين أتابكه إلى مهاجمة رضوان في حلب.

ورغم الصلح الذي تم بين الأخوين سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) عقب هزيمة جيش دقاق وحليفه ياغي سيان أمام جيوش رضوان بالقرب من قنسرين، فقد استمرت روح التشكك والعداء قائمة بينهما (٢١).

وفي ذات الوقت كانت أحوال الخلافتين العباسية والفاطمية تسير من سيء إلى أسوأ، ففيما يتعلق بالخلافة العباسية، فإن التنافس الذي شهدته مع الخلافة الفاطمية كان تجسيدا وترجمة حقيقية للفوضى الدينية التي شهدتها المشرق الإسلامي مما أوجد حالة من البلبلة وعدم التوازن في المنطقة بأسرها، ورأينا كيف نجح أبو الحارث البساسيري في فترة من الفترات في الدعوة لخلفاء الفاطميين على منابر العراق مما دفع الخليفة العباسي القائم، إلى استدعاء طغرل بك السلجوقي وتسليمه مقاليد الأمور في حين قنع هو بالرسوم الشكلية للخلافة وظلت الخلافة على هذه الحالة من الضعف حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ وقيام ابنائه بالتنازع والتصارع على السلطة.

وتوفى الخليفة المقتدى بأمر الله العباسي سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) فجأة بعد أن عاين تنازع السلاطين السلاجقة على السلطنة إلى الحد الذي جعله يتلصقاً في إقامة الخطبة لأى منهم، ويبدو أنه تأنى في إقامة الخطبة لبركيا روق فلما توفى المقتدى فجأة قيل انه مات مسموماً بتحريض منه (٢٢).

وقد شجع هذا الضعف الذي أصاب الخلافة وضرب هيبتها في الصميم على تمرد بعض العناصر البدوية العربية النازعة نحو الاستقلال على الخلافة خاصة أصحاب الحلة من بنى مزيد على الضفة الغربية لنهر الفرات، فقد استقل صدقة بن منصور بن ديبس بن مزيد الأسدي، بحكمها سنة ٤٩٤ (١١٠١ م) (٢٣).

أما الخلافة الفاطمية فلم تكن أحسن حالا، فبعد أن نعمت مصر في النصف الأول من عهد الخليفة المستنصر بالله ... سى، باستقرار سياسى ورخاء اقتصادى لم تشهده من قبل، وبعد أن كان نفوذ الدولة الفاطمية يظل آنذاك وسط الشام وجنوبه والحجاز وصقلية والمغربين الأدنى والأوسط (٢٤)، واعترف الصليحي الشيعى فى اليمن بسلطات الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٥٥ هـ (٢٥) (١٠٦٣ م)، وخطب البساسيري للفاطميين على منابر بغداد، تراجع هذا المجد وتقلص النفوذ الفاطمى لاشتعال نيران الثورات على الفاطميين فى بلاد الشام ولاندلاع الحروب الداخلية بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى كما أصيبت البلاد بالمجاعات والأوبئة وهو ما عرف فى التاريخ باسم الشدة العظمى المستنصرية (٢٦) مما دفع الخليفة المستنصر بالله إلى استدعاء بدر الجمالى واليه على عكا.

ورغم نجاح الجمالى فى اقرار الأوضاع الداخلية الا أنه لم ينجح فى اعادة بسط النفوذ الفاطمى على الشام، ولكن ولده الأفضل شاهنشاه نجح فيما اخفق فيه والده، فتمكن من تأكيد نفوذ الفاطميين على مدينة صور (٢٧) كما استرد مدينة بيت المقدس من يد حاكميها الأرثقيين فى أواخر رمضان أو شوال سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) فى قول، وفى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) فى قول آخر. ولم يتوقف الأفضل منذ ذلك الحين عن بسط النفوذ الفاطمى على مدن الساحل الشامى،

وتشهد على ذلك العملات الفاطمية التي عثر عليها في معظم الساحل والتي تحمل اسم الخليفة المستعلى بالله الفاطمي. ولم يحل خريف سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) الا وكان الأفضل قد أمن حدود الخلافة الفاطمية في بلاد الشام حتى مجرى نهر الكلب على الساحل شمالي مدينة بيروت وحتى ارباض اللاذقية بالاضافة إلى سيطرته الاسمية على مدينة طرابلس. (٢٨)

على أن هذا التقدم في المسار العسكري لم يحل دون انتشار الفوضى في السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، فعقب وفاة الخليفة المستنصر بالله، استبعد الأفضل شاهنشاه ولده الأكبر نزار، وثبت المستعلى بالله، أخاه الاصغر بدلا منه على، عرش الخلافة الفاطمية مما أدى إلى قيام الفتن والثورات من قبل الطائفة المشايعة والمؤيدة لنزار الابن الأكبر للمستنصر بالله، فأدى ذلك إلى اضطراب الأحوال الداخلية للدولة (٢٩) الفاطمية.

ومن خلال هذا العرض السريع يتبين لنا أن المشرق الإسلامي كان يعاني حالة من الضعف والتفكك وصفها المؤرخ الفيومي في العصر الوسيط بقوله «وكان الخلفاء والملوك في ذلك الوقت، مامنهم الا مشغول بنفسه، مكث على مجالس أنه يصطبغ في لهوه ويغتبغ ويجرى في مضمار لعبه ويستبق، ويرى السلامة غنيمة واذا عن له وصف الحرب يوما، لم يسئل عنها الا عن طريق الهزيمة وقد بلغ أمله في الرفاهية، وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة، أموال تنهب وممالك تذهب ونفوس قد تجاوزت الحد في اسرافها وبلاد تأتيتها الاعداء فتنتقصها من أطراف لا يبالون بما سلبوا». (٣٠).

ووصفها المؤرخ هولت في العصر الحديث بقوله «عندما تقدمت الحملة الصليبية الأولى نحو سوريا في خريف سنة ١٠٩٧ م، كان المشاركون فيها يتقدمون نحو منطقة تمزقت أراضيها إلى أجزاء ضعيفة، وكان حكام هذه البلاد قبيقى الأفق تعوزهم الخبرة السياسية، وكان يحرك هؤلاء الملوك المتفرقين (ملوك الطوائف) قوتان رئيسيتان، الأتراك السلاجقة والدولة الفاطمية وكلاهما كان في مرحلة انهيار...» (٣١).

اليقظة الإسلامية وبداية التعاون العسكري بين اتابكية دمشق والخلافة الفاطمية في مصر: ..

شهد عام ٥٣٩هـ انتصاراً كبيراً لفكرة الجهاد الأعظم ضد الصليبيين، وذلك عندما استرد عماد الدين زنكي اتابك الموصل (٥٢٢ - ٥٤١هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) إمارة الرها الصليبية إحدى الإمارات الصليبية الأربعة التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام. وكانت البشائر الأولى لهذه اليقظة قد ظهرت قبل ذلك بسنوات أثناء الزحف الصليبي نفسه على بلاد الشام وفي الأعوام الأولى لاستقرار الصليبيين على أراضي الإسلام^(٣٢).

ويعرف بعض المؤرخين هذه المرحلة بأنها مرحلة الصحوة والافاقة الإسلامية^(٣٣)، فقد شهدت محاولات عديدة من قبل بعض القوى الإسلامية للتصدي لجحافل الصليبيين متناسية ما كان بينها من صراع وخلاف.

وتمت أولى هذه المبادرات على أيدي السلاجقة الذين كانوا أسبق في إدراكهم لخطورة الهجمة الصليبية من الفاطميين. من الفاطميين. ففي الوقت الذي بادر فيه الأفضل شاهنشاه بارسال سفارة فاطمية إلى الصليبيين أثناء حصارهم لانتطاكية بهدف التحالف معهم ضد الأتراك السلاجقة إخماداً لآلهة في الدين، عارضوا عليهم اقتسام بلاد الشام بينهما، فيكون شمالها بما ذلك انتطاكية من نصيبهم في حين تكون بيت المقدس وجنوب الشام من نصيب مصر^(٣٤)، كان ياغي سيان المسلم حاكم انتطاكية المحاصرة يستنجد بكافة القوى الإسلامية المجاورة له. مما أدى إلى سريان روح قوية من التعاطف والتضامن الديني بين تلك القوى في بلاد الشام، فسعت إلى التكتل وتوجهت مجتمعة إلى انتطاكية لايقاف تقدم الصليبيين نحوها.

أما الأفضل شاهنشاه فقد كان أكثر حكام المسلمين استهانة بهذا الخطر الصليبي فهو لم ير في الانتصارات الصليبية الأولى على السلاجقة، أية خطورة على الإسلام ولم يستشعر مدى الكارثة التي حلت ببلاد الشام، والتي ستحل عليه فيما

بعد، بل تصور أن مجيء الصليبيين إلى الشام كان بمثابة حركة انقاذ للدولة الفاطمية لتخليص الشرق الأدنى كله من سيطرة السلاجقة ورد الصليبيون على هذه السفارة الفاطمية بسفارة صليبية يرأسها يوحنا الخادم الذي كان أحد رجال الدين الجنوبيين لتوطيد العلاقات الاقتصادية بين جنوة ومصر الفاطمية. وقد تلقى أعضاء الوفد الفاطمي عقب اتصالهم بالصليبيين هدية من الفرنج تتمثل في مائتي رأس من رؤوس القتلى الشهداء من الأتراك السلاجقة موجهة للخليفة الفاطمي فأبدى أفراد السفارة الفاطمية سرورهم البالغ^(٣٥) مما يشير إلى عمق التعصب المذهب الأعمى الذي ابداه ممثلو الأفضل تجاه الأتراك السلاجقة اخوانهم في الدين، وإلى جهلهم بأهداف الحملة الصليبية الأولى.

كما استقبل الأفضل سفارة من الكسيس كومنين الامبراطور البيزنطي يعرض فيها عليه المساعدة في الخطط الفاطمية القادمة.

لقد حرصت القوى الإسلامية في بلاد الشام على التضامن فيما بينها لصد جحافل الصليبيين المحاصرين لانتطاكية، فتشكل حلف إسلامي تحت زعامة كربوغا^(٣٦) صاحب الموصل في المحرم من سنة ٤٩١ هـ (أواخر ديسمبر ١٠٩٧ م). وكان يشمل إلى جانب كربوغا، دقاق بن تتش ملك دمشق واتباعه طغتكين، وجناح الدولة حسين بن ملاعب صاحب حمص، وأمير حماة، وشمس الدولة ابن ياغى سيان.

واجتمعت هذه القوات الإسلامية بأرض شيزر، ثم التقت بسرية كبيرة من الفرنج كان يقودها بوهمند النورمندى وروبرت أمير فلاندر، بأرض البارة قرب حلب ودارت معركة في نهاية ديسمبر سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) لم تسفر عن أى نتائج حاسمة بالنسبة للطرفين بالرغم من تأكيد المصادر العربية على تفوق المسلمين في هذه المعركة.

كما بادر رضوان بن تتش ملك حلب تحت ضغط والحاح من ياغى سيان، بانفاذ جزء من جيشه بقيادة سكرمان بين ارتق ليلحق بالجيوش الإسلامية

المتحالفة^(٣٧). ولعبت الخيانة دورا فى حسم هذه الأحداث فقد قام مسيحيو حلب وحارم من الأرمن والسريان بتسريب أسرار الخطة الإسلامية إلى الجانب الصليبي مما أسفر عن هزيمة نكراء منى بها المسلمون المتحالفون عند لقائهم بالصليبيين عند بحيرة العمق فى (فبراير ١٠٩٨ م)^(٣٨).

ورغم هذه الهزيمة الا أننا نرى - على خلاف ما يراه بعض المؤرخين - أن قيام هذا الحلف فى حد ذاته بصرف النظر عن النتائج العسكرية التى ترتبت عليه، كان بمثابة خطوة أولى ايجابية نحو افاقة اسلامية حقيقية تمخض عنها فى النهاية توحيد شامل للجبهة الاسلامية زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٣٩).

وفى أعقاب استيلاء الصليبيين على انطاكية وتنكيلهم بأهلها وارتكابهم بها أبشع أنواع المذابح وأشنعها، تقدموا باتجاه بيت المقدس، التى وصلوا أمام أسوارها فى ٧ يونيو ١٠٩٩ هـ (٤٩٢ هـ) فشرعوا على الفور فى حصارها، ثم اقتحموها وانتزعوها من ايدى الفاطميين فى ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (١٤ يوليو ١٠٩٩ م)، وقتلوا بمسجدها الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا. وعندئذ أحس الفاطميون بالخطر وأدركوا مدى الخطأ الذى وقعوا فيه عندما جنحوا إلى التحالف مع الصليبيين، وتلقى الأفضل شاهنشاه درسا قاسيا أدرك من خلاله مدى جهله السياسى وحمقه وسؤ تصرفه بعدم تعاونه مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام ضد هذا الخطر الداهم.

ولم يقف الأفضل مكتوف الأيدى بعد تسببه فى ضياع بيت المقدس، فى وقت كانت المقاومة السلجوقية قد انهارت فيه تحت وطأة الضربات الصليبية المتتالية، فسرعان ماخرج على رأس الجيش الفاطمى فى سلسلة من الحملات ضد الصليبيين واشتبكت قواته معهم فى عدة مواقع أهمها الموقعة المعروفة باسم موقعة عسقلان الكبرى (رمضان سنة ٤٩٢ هـ / أغسطس ١٠٩٩ م) وهى الموقعة التى سحق فيها الجيش الفاطمى، وهزم هزيمة نكراء، فقام الأفضل بحل جيشه القديم

واعاد تكوين فرق جديدة لتكون بمثابة نواة الجيش قوى استعدادا لمعارك قادمة ضد الصليبيين (٤٠).

وقبع الأفضل وانكمش داخل مصر قرابة عامين قبل أن يفكر مرة أخرى في مواصلة الجهاد، مما أتاح الفرصة للصليبيين لتأسيس المملكة الصليبية دون أى مضايقة كما استولوا على كل من أرسوف وقيسارية مما أجبره على الخروج مرة أخرى لمواجهة أعدائه. والتقى الأفضل مجددا بالصليبيين فى حملة الرملة الأولى سنة ٤٩٤ هـ (١١٠١ م).

ويرجع السبب فى اختيار الأفضل لهذه المدينة على وجه الخصوص إلى أنه كان باستطاعته أن يهدد منها كل من يافا وبيت المقدس، بيد أن هذه الحملة انتهت بهزيمة الفاطميين وأنسحابهم من أرض المعركة إلى عسقلان. ورغم فشل هذه المحاولة الفاطمية وتكبد جيوش الخلافة خسائر جسيمة إلا أن الأفضل ما لبث أن أعاد الكرة، وذلك فى حملة الرملة الثانية سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) وفى هذه المرة أحرز الفاطميون نتائج كان من الممكن لو أحسنوا استغلالها أن تسفر عن مكاسب عسكرية رائعة، ولكن الخلاف الذى دب بين قيادة الحملة، مكن الجيش الصليبي من النجاة من خطر الحماس الذى انتاب الفاطميين.

ولسنا هنا فى معرض الحديث عن تفاصيل هذه الحملات الفاطمية إذ أنها كانت مجالا لدراسات تاريخية قيمة قائمة بذاتها (٤١).

ولكن ما نود الإشارة إليه هو أن الأفضل استفاد جيدا من الدروس السابقة إذ أنه طرح جانبا الخلافات المذهبية والسياسية التى طالما غلبت على علاقاته بحكام دمشق من السلاجقة، وطلب معونتهم للقيام بعمل واحد مشترك ضد الصليبيين هذه المرة.

ويذكر ابن ميسر أن الأفضل بادر فى عام ٤٩٦ هـ (١١٠٢ / ١١٠٣ م) بالاستنجد بدقاق ملك دمشق وذلك حين أصيب الفاطميون بانتكاسات متتالية أمام الصليبيين إلا أن دقاقا اعتذر عن ذلك ولم يحضر (٤٢).

ولكن بعد مرور نحو عامين تغيرت الأوضاع السياسية فى امارة دمشق فقد توفى دقاق وتولى ظهر الدين طفتكين أمور البلاد.

وبعد طفتكين من أعظم الشخصيات الاسلامية التى برزت فى هذه المرحلة التاريخية والتي لم تسلط عليها الأضواء بالقدر الذى يستحقه ولم تنل حقها من الدراسات التاريخية بالنظر إلى الدور الذى اضطلع به، فهو حاكم صادق فى إيمانه العميق بالجهاد المقدس، أفنى زهرة عمره فى قتال الصليبيين، كما آمن بفكرة الوحدة الاسلامية وترفع عن الصغائر وتعالى على أية خلافات مذهبية لتحقيق التضامن الاسلامى والتكتل مع مختلف القوى الاسلامية فى مصر والموصل لمواجهة التيار الصليبي الجارف.

وكانت شخصية ظهر الدين طفتكين مجالا للنقاش بين المؤرخين فى العصور الاسلامية الوسطى وكذلك فى العصر الحديث، وناله شأن الكثير من رموزنا وشخصياتنا العربية والاسلامية العظيمة بعض التجريح والتلويح، ولكننا إذا تتبعنا اعماله ونظرنا إليها نظرة مجردة ومحايدة واضعين فى اعتبارنا الظروف التى أحاطت به فى ذلك الوقت لوجدناه من رواد حركة الجهاد المقدس ومن أقطاب فكرة الوحدة الاسلامية، ويكفيه شرفاً أنه هاجم حصن علعال أحد الحصون الصليبية التى كانت تنطلق منها قواتهم لضرب المدن الساحلية الاسلامية، واستولى عليه، كما انقض على جيش هيو حاكم الجليل فى نهاية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) اثناء عودته محملاً بالغنائم وأصابه بهرح توفى على أثره. وفى سنة ٥٠٢ هـ (اوائل مايو ١١٠٨ م) اشتبك طفتكين مع الصليبيين فى موقعة اسفرت عن أسره لجرفيه جرفاس أمير الجليل وقتله له.

وكانت هذه الأعمال العسكرية بمثابة انتصارات اسلامية كبيرة تحققت بعد سلسلة من الهزائم وقد رفعت هذه الانتصارات من روح المسلمين المعنوية وساعدتهم على الاستمرار فى المقاومة^(٤٣). وسنستعرض أمثلة أخرى على الصفحات القادمة لتوضيح دوره البطولى كما سنناقش بعض الاتهامات التى وجهها بعض المؤرخين إليه.

وطغتكين أو طغركين وقيل طغدكين وقطلغتين^(٤٤) كان مملوكا لتاج الدولة
تتش بن ألب أرسلان، ومقدما لديه، وقد زوجه تتش من رقمان أم ولده^(٤٥)، ورتبه
في إمارة ميافارقين بعد استيلائه عليها. وعرف طغتكين منذ ظهوره بالمهارة
والكفاءة العسكرية والسياسية، فعندما ثارت مدينة آمد التابعة لميافارقين قام باخضاع
ثوارها وضرب على أيديهم وإعادة المدينة إلى نفوذ تتش^(٤٦)، وانتقل حكمها من
بعده إلى ولده دقاق.

وتختلف المصادر حول الوضع الذي كان عليه طغتكين عند وفاة سيده تتش،
ففى حين يذكر ابن القلانسي أنه حضر مع سيده الوقعة الأخيرة في الري، فلما
قتل تتش وقع طغتكين في أسر بركياروق، وظل لديه مدة عام، خرج بعده إلى
دمشق حيث استقبله دقاق بالترحاب واعتمد عليه في تدمير مملكته^(٤٧)، يذكر
الفارقي أن طغتكين لم يشهد تلك الوقعة وأنه كان في ميافارقين آنذاك، وأنه مضى
إلى دمشق حيث استقبله دقاق عند سماعه بمقتل تتش، وولى الأمير التاش على
ميافارقين^(٤٨). وقد ساند طغتكين دقاق ابن سيده، طوال حياته وتفانى في الدفاع
عن دمشق عندما هاجمها الحليفان رضوان صاحب حلب وسكمان ابن أرتق، ثم
قام بمطاردتهما حتى أجبرهما على العودة إلى حلب، وبعدها قام طغتكين
بمهاجمة رضوان في عقر داره، إلا أن رضوان انتصر على الدماشقة فترجعوا إلى
دمشق^(٤٩). كما شارك مع سيده دقاق في حلف كربوغا سنة ٤٩١ هـ لمواجهة
الصليبيين المخاضرين لانطاكية كما سبق أن أشرنا ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة
جهاده ضد الصليبيين. وعندما توفي دقاق سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م)^(٥٠) قام
طغتكين بتولية تتش ابن دقاق على عرش البلاد وخطب له، ثم قطع خطبته لتتش
وخطب لأرتاش أخى دقاق الذى كان لا يزال صبيا والذى خوفته أمه من طغتكين
لزوجته من أم دقاق، فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك في صفر سنة ٤٩٨ هـ.
أما طغتكين فقد نصب الطفل تتش ابن دقاق مرة أخرى وخطب له مدة قصيرة ثم
ما لبث أن عزله وقام هو بأمر دمشق.

وقد تعرض طغتكين لهجوم شديد من قبل بعض مؤرخي العصور الوسطى^(٥١). كما تعرض لحملة من التشكيك في مدى صدقه كمجاهد اسلامي، واتهم بالانتهازية والطموح اللامحدود.

وفيما يتعلق بقضية استئثاره بحكم دمشق واتهام المؤرخين له بالانتهازية والاستبداد لا يسعنا إلا القول بأن طغتكين عندما تولى حكم هذه الامارة عقب وفاة دقاق إنما كان ينفذ بذلك وصية سيده الذي أكد قبيل وفاته على رغبته بأن يتولى طغتكين حكم البلاد من بعده وأن يشرف كذلك على حضانة ولده الصغير تتش^(٥٢).

وعندما فكر طغتكين في تنصيب أرتاش بن تتش واخي دقاق كان صادقا في ذلك، فقد جاء أرتاش بالفعل إلى دمشق. ويذكر بعض المؤرخين أن طغتكين ارهبه ففر من دمشق هاربا^(٥٣). والواقع أن شخصية أرتاش كانت شخصية سيئة مذمومة يجب علينا ألا ندافع عنها أو حتى نتعاطف معها، فالمصادر تؤكد أن أم أرتاش هي التي خوفته من طغتكين^(٥٤) كما أشرنا، ففر من تلقاء نفسه من دمشق، وسنراه ينضم فيما بعد إلى الصليبيين وسيحارب إلى جانبهم ضد قوات ابنائه جلدته من الدماشق^(٥٥) وحلفائهم من الفاطميين في موقعة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٥م) كما ستوضح بعد قليل، وحتى لو افترضنا جدلا أن طغتكين هو الذي أرهب أرتاش ودفعه إلى الهرب، فإن ذلك كان بلا ادنى شك لصالح دمشق الاسلامية، ولنا أن نتصور نوعية السياسة التي كان سينتهجها شخص مثل أرتاش في حالة توليه حكم البلاد وهو الذي سعى إلى التحالف مع عدو دينه وبلاده في سبيل مصلحته الذاتية. ولو كان طغتكين قد أرهب أرتاش، ونحى ابن دقاق الصغير لينفرد بحكم دمشق وحده، فإن المصلحة العليا للاسلام والظروف التي كان يمر بها العالم الاسلامي في ذلك الوقت من هجوم الصليبيين، على بلاد الشام وتهديدهم لباقي الأقطار الاسلامية، كانت تفرض عليه كرجل مسلم وحاكم محنك وسياسي بارع بعيد النظر أن يقوم هو بادارة دفة الأمور في دمشق، خاصة وأن دمشق لم تكن بالمدينة الصغيرة بل كانت امارة وحاضرة من حواضر الاسلام الكبرى، وكان

الضمير والواجب الاسلامي يحتمان عليه أن ينحى عواطفه جانبا فيقوم بإبعاد ابن سيده وولي نعمته حفاظا على دمشق من السقوط في أيدي الصليبيين، وستثبت^(٥٦) لنا الأحداث التي تلت حملة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ أن أمارة دمشق كانت دائما مطمعا للصليبيين الذين لم يزهّدوا أبدا في الاستيلاء عليها ومهاجمة نواحيها.

ويؤكد رأيي ما أورده المصادر العربية من أخبار عن حسن سيرة طفتيكين وعدالته ورضا رعيته عنه،^(٥٧) وسعيه إلى التضامن مع الأفضل في مصر من جهة وحكام الموصل من جهة أخرى لمواجهة الصليبيين.

وتعتبر حملة الرملة الثالثة هي أول مظاهر التعاون العسكري بين دمشق والقاهرة ولكنها كانت في نفس الوقت آخر المحاولات العسكرية الكبرى للأفضل ضد الصليبيين في بلاد الشام لاستعادة النفوذ الاسلامي هناك^(٥٨). واستعد الأفضل للخروج بهذه الحملة خير استعداد، فكان الجيش الفاطمي يتكون من خمسة آلاف جندي^(٥٩) يقودهم عدد من القادة المشهورين أمثال زهر الدولة بناء الجيوش أمير عكا السابق، وجمال الملك أمير عسقلان، وأمير قيسارية، ولكنه وضع القيادة العامة للجيش تحت إشراف سناء الملك حسين أحد ابنائه^(٦٠)، كما تقدم الاسطول البحري لمساندة الجيوش البرية.

وكان الأفضل الذي تلقن درسا قاسيا بتحالفه السابق مع الصليبيين، هو الذي بادر بالاتصال بأتابكية دمشق السنية، طالبا معونتها العسكرية. ويرى بعض المؤرخين في هذا المطلب الفاطمي، مؤشرا على عقد حلف عسكري فاطمي شيعي - سلجوقي سني ومحاولة فاطمية - سلجوقية للاتفاق على الصليبيين من الشمال والجنوب وحصرهم بين شقي الرحي.

واستجاب طفتيكين أتاك دمشق لهذا النداء الفاطمي معربا عن سرورة لمساندة الأفضل شاهنشاه وتوحيد جهودهما لمواجهة الصليبيين.

ويرى فريق كبير من المؤرخين أن هذا التحول المفاجئ في سياسة دمشق

مساعدة الأفضل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢م) إلا أن طغتكين بموافقتة هذه المرة انما كان يهدف إلى اسباغ نوع من الشرعية على حكمه لكسب الرأى العام الاسلامى فى دمشق إلى صفه فتغاضى رعبته عن اغتصابه عرش امارتهم^(٦١).

والواقع أنه إذا جاز لبعض المؤرخين الغربيين امثال ستيفنسون *Stevenson أن يفسروا روح التضامن والرغبة الملحة لدى طغتكين للتنسيق العسكرى مع الأفضل رغم خلافاتهم المذهبية، بهذا التفسير فاننا يجب ونحن نتصدى لتأريخ فترة حاسمة وهامة - من تاريخنا الاسلامى أن نتوقف قليلا لتأمل هذا الرأى وصولا منا إلى الحقيقة التاريخية وتبرئة شخصية اسلامية لها اياذ ببيضاء فى مجال الجهاد المقدس ضد الصليبيين مما اتهم به ونحن نستبعد أن يكون عامل المصلحة الذاتية وراء اندفاع طغتكين للتضامن مع الأفضل لعدة أسباب:

أولاً: لم تكن هذه هى المرة الأولى التى شارك فيها طغتكين فى حلف اسلامى بهدف الجهاد ضد الصليبيين فقد ساهم من قبل فى حلف كربوغا الاسلامى سنة ٤٩١ هـ لانقاذ انطاكيه، وكان دقاق لا يزال حاكما لدمشق وعلى قيد الحياة، ولم يكن طغتكين آنذاك فى حاجة لاسباغ أى نوع من الشرعية على حكمه.

ثانياً: لو كان طغتكين يسعى إلى التظاهر بالتقوى والورع من خلال جهاده مع الأفضل ضد الصليبيين، كسبا للرأى العام فى اماره دمشق وتقويتا للفرصة على أرتاش، لكان قد اكتفى بالمشاركة فى هذه الحملة إلى أن تستقر له دعائم الحكم فى دمشق، ولكن بالنظر إلى تاريخ طغتكين الطويل فسنجد أنه أمضى حياته كلها مجاهداً وأن مشاركته الفاطميين فى حملة الرملة الثالثة انما كانت بمثابة نقطة البداية لتعاون عسكرى طويل بين دمشق والقاهرة، كما سنوضح فى الصفحات التالية كما أن طغتكين قد شارك بنفسه فى القتال ضد الصليبيين فى مواقع أخرى عديدة فى بلاد الشام وتحالف مع حكام الموصل فى أكثر من مناسبة.

ثالثاً: لو لم يكن الجهاد هو هدف طغتكين الرئيسى، لما جازف وهو القائد العسكرى المحنك بالاحتكاك بالصليبيين ومشاركة الأفضل فى قتالهم، لأنه بذلك

قد استثارهم وفتح باب المواجهة معهم على مصراعيه ولفت انظارهم إلى امارته، ولو كان طغتكين يبغي حقيقة مصلحته الشخصية فحسب، لكان قد أثر تجنب تلك المواجهة. ويشير نفس المؤرخين العرب الذى تشككوا فى صدق نوايا طغتكين ورغبته الحققة فى الجهاد مع الفاطميين إلى أنه باشتراكه فى حملة الرملة الثالثة، انما عرض دمشق للخطر الصليبي وأنه لولا الخسائر الفادحة التى اصيب بها الصليبيون فى هذه المعركة لكانوا قد تحولوا لمهاجمة دمشق ذاتها لتلقين اتابكها درسا لا ينساه^(٦٢).

رابعا: ان انضمام ارتاش إلى الصليبيين وسعيه إلى التحالف معهم والحاحه فى ذلك رغم رفض بلدوين مساعدته فى بداية الأمر، كان كفيلا فى حد ذاته لتغيير مشاعر أهالى دمشق تجاهه ونفورهم منه ودافعا لتمسكهم بآتابكهم طغتكين الذى حسنت سيرته فيهم^(٦٣)، وبذلك لم يكن هناك داع لأن يجازف طغتكين باستشارته للصليبيين ومواجهتهم لو لم يكن هدفه الرئيسى هو الجهاد المقدس.

وتختلف الولايات الاسلامية فيما بينها حول مسألة قيادة الجيش الدمشقي، فبعضها يؤكد على خروج طغتكين بنفسه على رأس قواته الدمشقية للقتال ضد الصليبيين^(٦٤) فى حين تذكر بعض الروايات الأخرى أنه أرسل أصبهبند صبارو^(٦٥) أحد قيادته نيابة عنه.

وتحرك الجيشان المتحالفان باتجاه عسقلان ومنها صوب الرملة فى الوقت الذى واكبهم الاسطول الفاطمى فى البحر. واتخذت القوات الاسلامية موقعا فى سهل الرملة. ومن الجدير بالذكر أن الأفضل كان قد تخير هذا التوقيت لبدء حملته على وجه التحديد، لعلمه التام بخلو مدينة القدس من الحجاج فضلا عن انشغال بعض الامارات الصليبية الأخرى بالمنازعات الداخلية والحروب الأهلية فيما بينها، ولا سيما بين بوهيمند صاحب انطاكية والكسيس كومنين الامبراطور البيزنطى مما عرقل امكانية وصول أية مساعدات للقدس فسهلت على المسلمين مهمة الانقضاض على الفرنج.

وقد أصيب الصليبيون بحالة من الهلع والتوتر عندما وصلتهم انباء وفود الجيش الاسلامى المتحد، لذلك أسرع بلدوين بترك يافا وتوجه مع اتباعه وافصاله وجيوشهم وحاميات الجليل وحيفا وبطريارك وبيت المقدس واتباعه نحو الرملة ليتمكن من حماية كل من بيت المقدس ويافا، وكان ارتاش قد انضم اليهم بقواته.

واتسمت الخطة الاسلامية المشتركة بالدقة والاحكام، فقد قسم القادة المسلمون الجيش المتحد إلى قسمين، وفيما يتعلق بالقسم الأول وهو الأصغر فقد اقتضت مهمته على الاتجاه إلى الرملة لشغل الصليبيين واستدراجهم فى قتال مكشوف فى حين يتوجه القسم الآخر إلى يافا لمهاجمتها واسقاطها، بمعاونة الأسطول الفاطمى.

وبدأت المعركة يوم الأحد ١٤ ذى الحجة سنة ٤٩٨ هـ (٢٧ أغسطس ١١٠٥م) فى سهل الرملة، وأبلى فيها كل من الدماشقة والفاطميون بلاء حسنا واستماتوا فى ميدان القتال. وتميز الدماشقة بالسرعة الفائقة والمهارة البالغة فى التصويب الدقيق على أهدافهم بالسهم فتمكنوا من محاصرة إحدى الفرق الفرنجية وانهاؤا بتسديد سهامهم عليها مما أثار نائرة الملك الصليبي فأخذ علمه الأبيض من يد أحد فرسانه واقتحم الصفوف وأخذ يقاتل حتى تمكن من فك شبكة الحصار حول اتباعه وشتت شمل جند دمشق والحق بهم خسائر فادحة^(٦٦). وكان فى امكان المسلمين التغلب على قوات الصليبيين لولا أن انسحبت ميمنة الجيش فى محاولة للاستيلاء على ميناء حيفا مما أضعف الجيش الاسلامى، وانتهت هذه المحاولة بالفشل، وعند عودة هذه الفرقة فى المساء، وجدت أن المعركة قد انتهت بتراجع الدماشقة إلى دمشق والفاطميين إلى عسقلان.

وفيما يتعلق بنتيجة هذه المعركة المشتركة بين الجيشين الفاطمى والدمشقى فقد كانت محورا للنقاش بين المؤرخين. فالفريق الأول منهم وعلى رأسه ابن ميسر وابن القلاسى والمقرىزى يؤكد أن المعركة انتهت باستظهار الفرنج على المسلمين وان كان عدد القتلى من كلا الجانبين متقاربا^(٦٧). أما الفريق الثانى، من

المؤرخين كالعظيمي وابن الأثير فيؤكد أن المعركة انتهت بدون كسرة على (٦٨) أحد من الفريقين. ونحن نميل إلى الأخذ برأى الفريق الثاني، لأن الصليبيين لو أنهم انتصروا وسحقوا الجيش الاسلامي لما تردد بلدوين في تعقب فلول المسلمين حتى اسوار عسقلان نفسها مثلما حدث عقب حملة عسقلان الكبرى وحملت الرملة الأولى والثانية، ومطاردة جيش طغتكين حتى دمشق ومهاجمتها تأديا له لأنه تجاسر على مقاتلتهم من جهة وتأييدا لأرتاش بن تتش وتمكينه من عرش دمشق من جهة أخرى.

ومن نتائج هذه المعركة أيضا استشهاد جمال الملك امير عسقلان ووقوع كل من زهر الدولة الجيوشي (٦٩) أمير عكا، وكذلك امير ارسوف السابق في الأسر حيث حصل بلدوين على فدية كبيرة مقابل إطلاق سراحهما في حين نجح سناء الملك حسين ابن الأفضل في الفرار إلى القاهرة. وقد أبدى فوشيه دى شارتر حزنه لقراره حيث كان يأمل في حصول الصليبيين على فدية كبيرة مقابل إطلاق سراحه.

ورغم عدم احراز هذا الحلف الدمشقي / الفاطمي، نصرا حاسما في هذه الحملة إلا أنه كان خطوة ايجابية على طريق التعاون والتنسيق العسكري المشترك بين البلدين.

وفي عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) تكرر هذا التعاون العسكري عندما خرج الأمير عز الملك متولى صور وواليها من قبل الفاطميين فأوقع بالفرنج على حصن تبين (٧٠). الذي كان الصليبيون قد ابتنوه منه ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) ليسهل عليهم مهمتهم في الاستيلاء على مدينة صور التي كانت منطلقا للغارات الفاطمية ضدهم. فلما علم بلدوين بذلك، توجه من طبرية لمهاجمة المدينة انتقاما من حاميتها. وتذكر المصادر العربية أن طغتكين أسرع بالتحرك من دمشق الى طبرية فور وصول انباء التحركات الصليبية إلى اسماعه، وبادر بمهاجمة املاكهم وأخذ حصنا

لهم بالقرب من طبرية نفسها وأسر بعض من كان فيه وقتل البعض الآخر فارتد الصليبيون إليه، والتقى الجيشان في وضع حدده ابن القلانسي بناحية زرا.

وكان الدماشقة على أهبة الاستعداد للاشتباك مع الصليبيين وقد قويت نفوسهم وارتفعت روحهم المعنوية ولكن الصليبيين جنبوا على الاقدام على هذه المواجهة، وعندما زحف الجيش الدمشقي الى موضع مخيمات الصليبيين ألفاهم قد رحلوا عائدين إلى طبرية ومنها إلى عكا فاضطر طغتكين إلى العودة بجيشه إلى دمشق (٧١).

ونلاحظ هنا أن ظهر الدين طغتكين كان قد خرج بنفسه على رأس قواته لمهاجمة طبرية وحصونها، وهذا يدفعنا إلى ترجيح رأى ابن القلانسي الذي يؤكد أن طغتكين قد شارك بنفسه في حملة الرملة الثالثة سنة ٤٩٨ هـ.

وفي نفس العام ٥٠٠ هـ (٩ أكتوبر ١١٠٦ م) أنتهز مسلمو عسقلان وصور وصيدا بيروت فرصة انشغال بلدين الأول بأمر الجليل فبادروا بالهجوم على الصليبيين على طريق يافا - بيت المقدس وخروج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية من تلك المدن إلى سهل نهر العوجة بين أرسوف ويافا وقتلوا خمسمائة من حجاج الصليبيين. واستمرت تلك الهجمات الاسلامية ضد الصليبيين حتى علموا بتقدم بلدين لقتالهم عندئذ انسحب المسلمون عائدين إلى مدنها الساحلية. ومن ذلك يتضح أن مملكة بيت المقدس ألقت نفسها بين شقي رحى، فضرربات الدماشقة كانت تنهال عليهم من الشمال وضرربات الفاطميين من الجنوب في تنسيق رائع، هذا بخلاف العمليات العسكرية المصرية (٧٢) الشامية المشتركة. واعتمد فريق كبير من مؤرخي العصور الوسطى (٧٣) على رواية أوردها بعض المستشرقين عندما قام الصليبيون بمحاصرة مدينة صيدا التابعة للفاطميين سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ / ١١٠٨ م) تمهيدا للاستيلاء عليها، اتخذت كل من القاهرة ودمشق العدة للدفاع عن هذه المدينة الساحلية الهامة في نفس الوقت الذي استعد فيه

الاسطول المصرى لمساندة الجيوش البرية فى ذلك واشتبك الاسطول الجنوى المشارك فى الحصار الصليبي، مع الأسطول المصرى فى معركة بحرية ضارية، أسفرت عن هزيمة الجنويين مما أصاب الصليبيين بانتكاسه معنوية. ولما وصلت إلى اسماعهم انباء قرب وصول طغتكين على رأس قواته، قرر بلدوين الأول فك حصاره عن المدينة والرحيل بعد أن أحرق معداته الحربية حتى لا تتاح للمسلمين فرصة الاستيلاء عليها^(٧٣). ويعتمد فريق كبير من مؤرخى العصور الوسطى^(٧٤) على رواية أوردها بعض المستشرقين وعلى رأسهم رانسمان وستيفنسون نقلا عن البرت دكس^(٧٥) مفادها أن والى صيدا قد عرض على طغتكين ألف دينار مقابل مساعدته لهم فى مقاومة الصليبيين. فلما اصطدم الاسطول المصرى بالأسطول الجنوى وانهزم الجنويون وقام بلدوين بفك الحصار عن المدينة، عدل والى صيدا عن دفع المبلغ المذكور لطغتكين ورفض السماح له ولقواته بدخول المدينة لارتياحه فى نواياه مما أثار غضب طغتكين وجنده فقام بتهديد والى المدينة الفاطمى باستدعاء بلدوين وتمكينه منها، وعندئذ اضطر والى صيدا إلى أن يدفع له عشرة آلاف دينار تعويضا عن خروجهم لنجدته.

ونحن نأخذ هذه الرواية التى اوردتها المراجع الأوربية نقلا عن البرت دكس بشئ من الحذر لعدة أسباب:

أولاً: لم يرد فى المصادر العربية أى تأكيد أو حتى إشارة إليها فابن القلانسى يذكر فى سياق حديثه عن هذه الأحداث فى أخبار سنة ٥٠١ هـ ما يلى «وفى هذه السنة نهض بغدوين فى عسكره المخدول من الافرنج نحو ثغر صيدا فنزل عليه فى البحر والبر ونصب البرج الخشب عليه ووصل الاسطول المصرى للدفع عنه والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية وعسكر البر واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقى لحماية صيدا والذب عنها فرحلوا عنها عائدين إلى اماكنهم.....»^(٧٦).

وواضح أن ابن القلانسى لم يذكر شيئا عن رواية البرت دكس من قريب أو

بعيد. وحذا حذوه كل من ابن الأثير^(٧٧)، وسبط ابن الجوزي^(٧٨) والمقرئزي^(٧٩).

ثانيا: لو كانت هناك اتفاقية أو صفقة بين كل من طغتكين وأتابك دمشق ومجد الدولة والي صيدا الفاطمي لكانت المصادر العربية قد أشارت إلى ذلك مثلما حدث في عام ٥٠٥ هـ (١١١١ م) عندما قام طغتكين بالدفاع عن مدينة صور التابعة للسيادة الفاطمية كما سنشير في السطور القادمة.

ثالثا: وحتى فيما يتعلق بدفاع طغتكين عن مدينة صور، فقد نصت المصادر العربية على أن قبوله مبلغا من المال من قبل واليها الفاطمي لم يكن ثمنا لدفاعه عنها، فطغتكين لم يكن بالجندى المرتزق، وإنما كان ذلك مساهمة من أهالي صور واليها في تجهيز جيش طغتكين بالرجال والعند لتسهيل مهمته في الجهاد والدفاع عن المدينة وقد أورد ابن الأثير خبرا ينص على ذلك صراحة نطالع فيه ما يلي: «ثم ان عز الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من الرجال ويقصدهم ليملك البلد.....»^(٨٠).

ويذكر ابن القلانسي أن والي صور لم يستطع الوفاء بما كان قد وعد طغتكين به فجاءه رد أتابك دمشق كالتالي «انما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين ولا لرغبة في مال ولا مملكة فكثير الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم انه متى دهمتهم خطب مثل هذا سارع إليه وبالع في المعونة عليه وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقة في مقابلة الأفرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور...»^(٨١). كما أنه يتضح من خلال ما سبق ذكرناه، مدى صدق طغتكين سواء في مشاركته الفاطميين في الجهاد ضد الصليبيين أو في دفاعه عن موانئ الشام الإسلامية وللحيلولة دون سقوطها في أيديهم. وإذا كان موقف طغتكين من صور فيما بعد بهذا النبل فلماذا لا نتصور أن يكون موقفه في الدفاع عن صيدا مماثلا؟؟ ولماذا نقبل رواية أوردتها مؤرخ لا تبنى ولم يرد ما يماثلها أو يقابلها في المصادر العربية، وروج لها المؤرخين الغربيون أمثال رانسمان وستفنسون طعنا في

نزاهة وصدق وجدية أحد كبار القادة المسلمين؟؟

رابعاً: أن تاريخ طغتكين في الجهاد ضد الصليبيين والدفاع عن المدن الشامية طويل فبخلاف دفاعه عن مدينة حمص فقد أرسل أهلها سنة ٤٩٦ هـ إلى دقاق الذي كان لا يزال حاكماً على دمشق يلتمسون منه انقاذ من يتسلم مدينتهم بعد مقتل صاحبها الأمير جناح الدولة حسين على يد الباطنية اثناء صلاة الجمعة فسار شمس الملوك دقاق وبصحبته ظهر الدين طغتكين في عسكر من دمشق ووصلوا الى حمص ووافق ذلك وحول الفرخ ونزولهم إلى الرستن فلما عرفوا بقدم الدماشقة احجموا عن الاقتراب منها^(٨٢).

وكذلك موقفه من مدينة عرقه، فقد تولى طغتكين الدفاع عنها ولكن محاولاته باءت بالفشل. وعرقه إحدى الحصون المنيعة من اعمال طرابلس، وكانت بيد غلام لفخر الملك بن عمار، استقل بها بعد أن خرجت طرابلس نفسها من يد فخر الملك.

وقد ضيق الصليبيون على المدينة وقطعوا عنها الميرة، فلم يجد أهلها وواليتها من يستنصرون به سوى طغتكين صاحب دمشق، وكان ذلك في عام ٥٠٢ هـ فأرسل طغتكين رجلاً من قبله يسمى اسرائيل، قام بتسلم حصن المدينة، ثم عزم طغتكين على زيارة الحصن لتفقدته وشحنه بالعسكر وآلات الحرب وافتتح عدة حصون في طريقه إليه ولكن الصليبيين فاجأوا قواته ليلاً واشتبكوا معه في موقعه ضاربه اسفرت عن هزيمته واستيلائهم على عرقه. وكانت لهذه الاشتباكات أعظم الأثر في زيادة التعاون العسكري بين دمشق والقاهرة، وبدأ البلدان في الدخول في مرحلة جديدة من التنسيق المشترك، وتجسد ذلك بوضوح اثناء دفاعهما عن مدينة صور في محاولة لانقاذها من السقوط في ايدي الصليبيين.

وكانت مدينة صور لا تزال خاضعة للسيادة الفاطمية في ذلك الوقت، وفي نفس الوقت كانت هذه المدينة ترتبط ارتباطاً ادارياً وثيقاً بجبال بشارية أو جبل عامل^(٨٣) مما وثق العلاقات الاقتصادية بين كل من صور ودمشق ولذلك اعتبرت

صور بمشابة المنفذ البحرى الرئيسى لدمشق^(٨٤) ولعل ذلك يفسر أحد أسباب استماتة طغتكين فى الدفاع عنها والحفاظ عليها من السقوط فى أيدي الصليبيين، إلى جانب رغبته فى الجهاد فى سبيل الله.

وكانت مدينة صور قد تعرضت سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) لحصار صليبي^(٨٥) فقد بادر بلدوين بمهاجمة المدينة واستمر يحصارها لمدة شهر أنشأ خلاله حصنا على تل المعشوقة ليكون بمثابة نقطة ارتكاز عسكرية صليبية يوجه منها مزيدا من الضربات اليها. واستمات سعد الدولة كمشتكين الافضى، والى صور فى الدفاع عنها وعرض على بلدوين أن يدفع له اثاوة قدرها سبعة آلاف دينار فى مقابل رحيله عنها^(٨٦)، وعندئذ رحلت القوات الصليبية متجهة إلى مدينة صيدا لحصارها.

وتكرر هذا الخطر الصليبي على مدينة صور سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) خاصة بعد أن قام الأسطول الفاطمى الراسى فى صور بدور كبير فى الدفاع عن مدينة صيدا سنة ٥٠٤ هـ عشية سقوطها فى أيدي الصليبيين، مما دفع بلدوين إلى اتخاذ قرار بضرورة الاستيلاء على صور، فجهز الجيوش والاساطيل اللازمة لذلك.

ولسنا هنا فى معرض شرح تفاصيل هذا الحصار الصليبي الثانى الذى ضرب حول المدينة، فقد تعرضنا لدراسة ذلك فى بحث مفصل خاص بمدينة صور^(٨٧).

وما نود الاشارة إليه هو الدور البطولى الذى قام به طغتكين أتابك دمشق عندما تصدى للدفاع عن هذه المدينة الخاضعة للسيادة الفاطمية تلبية لاستغاثة واليها عز الدين انوشتكين بعدما لمسه من تباطؤ الأفضل الفاطمى فى انجاد المدينة لانشغاله بالظروف الداخلية العصبية التى كانت تمر بها مصر من أوبئة وطواعين^(٨٨). وبادر طغتكين بارسال قوة كبيرة من الأتراك مزودة بالزاد والعدة الكاملة، وكانت تتألف فى معظمها من جماعة من مقاتلة جبل عاملة أو الجليل واحواز صور مع رجال من دمشق، ولم تكن هذه القوة الفرقة الوحيدة التى ارسلها بل اتبعها بفرقة أخرى كذلك خرج طغتكين بنفسه وخيم ببانياس وأخذ يهاجم ورجاله اعمال الفرغ

ارغاما لهم على فك الحصار عن صور واقتحم حصن الجبیس أحد الحصون الهامة القريبة من دمشق.

ولم يكن الخطر الصليبي على مدينة صور بالهين هذه المرة فقد شارك الأسطول البيزنطي في حصار المدينة كما شارك في ذلك يوستاش جازنييه بارون صيدا ولكن استماتة أهالي المدينة في الدفاع عن مدينتهم واستبسال طغتكين في ذلك، جعل الصليبيون يتحققون من عدم جدوى حصارهم هذا، فشرعوا في فك الحصار والرحيل عن المدينة وأحرقوا كثيرا من سفنهم التي كانت راسية في البحر ورحلوا قاصدين عكا*. وفي عام ٥٠٦ هـ (١١١٣م) عزم بلدوين على منازلة صور مرة أخرى فلما وصلت الأنباء الى مسامع أهالي المدينة أجمعوا بالاتفاق مع واليهم عز الملك الأفضل على مراسلة ظهير الدين طغتكين اتابك دمشق ودعوته لتسلم المدينة وتؤلى الدفاع عنها، ولم ينسوا ما فعله طغتكين لحمايتهم وما بذلك من جهود لاستنفاد المدينة من السقوط في ايدي الصليبيين. ولم يتردد طغتكين في قبول طلب والي المدينة فأمر سيف الدين مسعود بن سلال واليه على بانياس وابنه تاج الملوك بورى نائبه في دمشق بأن يتسلما صور نيابة عنه لأن كان قد رحل، إلى حماة لاقرار الأوضاع فيما بينه وبين فخر الملك رضوان وحرص طغتكين على اظهار تعففه عن بسط نفوذه على المدينة فرغم مذهبه السني إلا أنه استقر مبقيا على الخطبة الفاطمية على منابر صور كما ظلت السكة تحمل اسم الخليفة الفاطمي، إلى جانب مبادرته بارسال مبعوث من قبله الى مصر حاملا رسالة يفسر فيها طغتكين سبب تصرفه موضحا للأفضل أن هدفه الوحيد هو الابقاء على صور اسلامية عن طريق تقويتها بالرجال، ويبلغه فيها ان بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأنه (طغتكين) على أتم استعداد لاجلاء قوته عن المدينة اذا ما ارتأى الأفضل ذلك.

وتذكر المصادر العربية أن الأفضل حمد لطغتكين ما قدمه لصور من معونات ورد عليه بكتاب عبر فيه عن شكره العميق له على ما فعله واستصوب رأيه فيما اعتمده.

وموقف طغتكين هذا يعبر تعبيرا صادقا عن رغبة أكيدة فى الدفاع عن ديار الاسلام والتعاون مع مصر الفاطمية فى التصدى للصليبيين كما يتضمن ردا على بعض المؤرخين الغربيين الذين روجوا للرأى القائل بأن طغتكين بتدخله فى صور انما قد انتزعها من ايدى الفاطميين^(٨٩).

ويذكر وليم الصورى ان صور أصبحت منذ دخول الامير مسعود نائب طغتكين فيها خاضعة لحاكمين فقد احتفظ خليفة مصر لنفسه بقسمين فيها كحاكم أعلى لها، ومنح الجزء الثالث إلى صاحب دمشق لأنه كان قريبا منها وكان قد وثق ثقة تامة بطغتكين^(٩٠) مما يجعلنا نرجح قيام نوع من الادارة الثنائية أو حكم فاطمى / دمشقى مشترك بمدينة صور وهو ما يعرف باسم Condominium.

ويسجل عام ٥٠٧ هـ (١١١٣م) تطورا ملحوظا فيما يتعلق بالتعاون والتنسيق بين أكبر ثلاث قوى اسلامية فى ذلك الوقت، الموصل ودمشق والقاهرة وكانت امارة الموصل قد آلت إلى شرف الدين مودود بن التونتكين^(٩١). الذى اعاد اليها، بحكمه لها الاستقرار والهدوء بعد فترة من الاضطرابات التى مرت بها عقب وفاة اميرها كربوغا. وعرف الامير مودود بتقواه وورعه ورغبته الصادقة فى جهاد الصليبيين^(٩٢). ولعل ذلك كان أحد الأسباب التى قوت اواصر الصداقة والود بين كل من مودود وطغتكين فكلما الرجلين كان شغوفاً بفكرة الجهاد المقدس وباستخلاص الأراضى الاسلامية من ايدى الصليبيين مما دفعهما إلى التحالف. ولعل اشهر نتائج هذا التحالف، خروجهما معا لحصار مدينة طبرية ونجاحهما فى نصب كمين لبلدوين الأول فى سنة ٢٠٧ هـ (٢٠ يونيو ١١١٣م) تعرض بسببه لهزيمة ساحقة عند جسر الصنبرة الواقع جنوبى غربى بحيرة طبرية. وتنفرد المصادر اللاتينية بذكر خبر مفاده ان نوعا من التنسيق العسكرى بين الموصل ودمشق والقاهرة تحقق بالفعل اثناء هذه المعركة، فبينما كان بلدوين محتجزا فى منطقة طبرية مع جميع قوات مملكته تحاصره جيوش مودود وطغتكين انتهزت القوات الفاطمية الفرصة فانطلقت حامية عسقلان، لتهاجم مملكة بيت المقدس، وتقدم المصريون نحو المدينة ودمروا فى طريقهم، مزارع القمح واحرقوها وقتلوا وسبوا

من من صادفوه حتى وصلوا إلى بيت المقدس وأقاموا أمامها عدة أيام ثم عادوا إلى عسقلان خوفا من عودة بلدوين من المعركة (٩٤) - غير أنه سرعان ما أصيب هذا التعاون العسكري الاسلامي الشامل بصورته الجديدة بضربة في الصميم بأغتيال الأمير مودود (٩٥) سنة ٥٠٧ هـ في دمشق حيث كان يقيم مع بعض خواصه في ضيافة طغتكين. وكان قد خرج في يوم الجمعة الأخيرة عن شهر ربيع الآخر من هذه السنة إلى المسجد الجامع بدمشق، لأداء الصلاة وهو يتأبط ذراع طغتكين، فوثب عليه شخص طعنه وأصابه بعدة جراح أدت إلى وفاته. ولم يحدد ابن القلانسي شخصية القاتل واكتفى بوصف الواقعة (٩٦). أما ابن الأثير فقد نص على أن القاتل كان باطنيا (٩٧). ويفسر ابن الأثير مقتل مودود بأحد احتمالين أولهما أن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وثانيهما أن طغتكين هو الذي خافه ونحش من نفوذه فوضع عليه من قتله (٩٨).

ويميل فريق كبير من المؤرخين المحدثين إلى اتهام طغتكين بالتدبير لمقتل مودود مدللين على رأيهم هذا، بمبادرته وتعجله بقتل القاتل وقطع رأسه واحراق جثمانه، واعتبروا ذلك بمثابة دليل قوى على تورطه في الجريمة ورغبته في طمس الحقيقة (٩٩) ونحن نستبعد هذا الاتهام الموجه إلى طغتكين بتأمرة على قتل حليفة وشريكه في الجهاد المقدس لعدة أسباب منها:

(١) ان غالبية المصادر العربية المعاصرة أشارت الى حزن طغتكين وأسفه الشديد على مقتل حليفة وصديقه مودود، فابن القلانسي الدمشقي الأصل والأقدم بين مؤرخي أحداث الشام، أكد على ذلك بقوله «فتلق أتابك لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه وكذلك سائر الأجناد والرغبة وتألوا لمصابه...» (١٠٠).

وكذلك سبط ابن الجوزي الذي رد هذه التهمة عن طغتكين بقوله «وذكر بعضهم ان اتابك خاف منه فوضع عليه من قتله وليس بصحيح فان طغتكين كان أحب الناس اليه وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد وشق ثوبه عليه وجلس

فى عزائه سبعة أيام وتصدق عنه بـمال جزيل» (١٠١).

(٢) لم تكن هذه هى الحادثة الأولى أو الوحيدة من نوعها فى التاريخ الاسلامى الوسيط التى اغتيلت فيها شخصية اسلامية كبرى على يد طائفة الباطنية حتى نـعجب لهذا الفعل ونبادر إلى تأويل اسبابه وارجاعها إلى عنصر الخيانة، فطائفة الباطنية اهتمت بتنظيم جماعات الفداوية لتنفيذ خططهم الرامية إلى اغتيال من شاءوا من زعماء المسلمين لا سيما من السنة أو من الصليبيين. ومن ذلك اغتيالهم لجناح الدولة حسين أمير حمص منه ٤٩٦ هـ (١٠٢)، وخلف بن ملاعب صاحب أقامية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) (١٠٣) وأقسنقر البرسقى سنة ٥٢٠ هـ (١٢٢٦م) (١٠٤)، ومحاولتهم الفاشلة لقتل بصلاح الدين يوسف بن ايوب مرتين (١٠٥)، كما اغتالوا الكونت ريموند الثانى امير طرابلس سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢م) والمركيس كونراد دى مونترفرات صاحب صور (١٠٦) وريموند الابن الأكبر لبوهنمندا الثالث.

(٣) لم يكن رد فعل طغتكين السريع والتلقائى بالمبادرة بقتل قاتل مودود بالشع الغريب المثير للريبة كما تصور بعض المؤرخين، بل اننا نرى أنه على العكس، فإن هذا التصرف من قبل طغتكين يشير إلى براءته من التهمة المنسوبة إليه، لأنه لو كان متورطا فى جريمة اغتيال مودود لكان أجدر به، وهو امير دمشق وصاحب الأمر والنهى بها، أن يقبض على القاتل ويتجنب قتله فوراً منعا من اثاره الأقاويل والشكوك حول نفسه، فيقوم بحبسه لفترة وجيزة ثم يقوم بقتله فى سجنه فيما بعد، عندما يتأكد أن الأمور قد هدأت. أما قتله على الفور فهو أمر طبيعى وتلقائى لأنه يعبر عن انتقام سريع من قتل شخصاً عزيزاً للمنتقم وقد قرأنا فى المصادر التاريخية الاسلامية عن حوادث مماثلة لما حدث عند مقتل مودود، من ابرزها وأقربها إلى الأحداث التى نعالجها، ما حدث عام ٤٩٦ هـ عند مقتل الاتابك جناح الدولة حسين صاحب حمص على يد ثلة عجم من الباطنية، ومعهم شيخ يدعون له، قاموا جميعاً ببطنه بسكاكينهم فقتلوه ومعهم جماعة من أصحابه فى المسجد الجامع، وكان بالجامع عشرة من المتصوفة العجم اتهموا ظلماً بمشاركتهم فى

المؤامرة، ويشير ابن القلانسي إلى أنهم مظلومين عن آخرهم في الحال (١٠٧).

وكذلك ما حدث سنة ٥٢٠ هـ عند مقتل الامير سيف الدين أفسنقر البرسقي أمير الموصل على يد الباطنية في مسجد المدينة الجامع فقد قتل جميع من دبر لقتله واغتياه (١٠٨).

وفى سنة ٥٢٥ هـ عندما هاجم بعض الخراسانية والديلم والأحداث، تاج الملوك بورى بن طغتكين الذي كان قد تولى حكم اتابكية دمشق بعد وفاة والده سنة ٥٢٢ هـ، فقد بادر حراسه بقتل المعتدين بالسيوف على الفور (١٠٩).

(٤) لم يكن طغتكين بالرجل الذي تسول له نفسه التخلص من أقرب اصدقائه وحلفائه في سبيل الحفاظ على ولايته لدمشق كما صورته كتابات بعض المؤرخين، ولكنه كان رجلاً حسن النوايا إلى ابعد الحدود، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما أورده المصادر العربية في أخبار سنة ٤٩٨ هـ عندما تعرض طغتكين لمرض اشتد به ولازمه فخاف على نفسه واشفق على أهله ورعيته من أخطار الصليبيين، ان توفاه الله، لذلك فقد بادر بالاستنجاد بالامير سكرمان ابن ارتق صاحب حصني كيفا وماردين، واستدعاه للحضور الى دمشق ليتولى حمايتها.

وكان الأمير سكرمان قد تحالف مع الامير جكرمش صاحب الموصل، ورفعاً معاراة الجهاد ضد الصليبيين. وبالفعل شرع سكرمان في التوجه إلى دمشق ولكن اصحاب طغتكين ونخواصه سرعان ما استشعروا الخطر تجاه نوايا سكرمان ونحشوا أن يفعل ما سبق أن فعله بأتسر، وأخذوا يخوفون أميرهم طغتكين ونجحوا في نهاية الامر في إثارة شكوكه وجعلوه يندم على غفلته وحسن نيته، وكان قضاء الله وأمره أسرع من سكرمان اذ لحقه مرض شديد حدده ابو الفدا بالخوانيق، وهو بمنطقة القريتين في طريقه إلى دمشق وقضى منه امراً كان محتوماً (١١٠).

ومن خلال هذا المثال يتبين لنا أن طغتكين كاد يعرض حياته هو شخصياً وملكه للخطر باستدعائه سكرمان إلى دمشق، وذلك حماية لأنابكيتته من السقوط من ايدي الصليبيين، فهو بذلك قد فضل مصلحة بلده ودينه على مصالحه الشخصية.

(٥) لم يكتف هذا الفريق من كبار المؤرخين باتهام طغتكين بقتل مودود بل وزادوا على ذلك باتهامه بأنه انما سعى الى قتال الصليبيين لكسب مكانة معنوية زائفة فى نفوس أهل دمشق خاصة بعد انتزاعه الحكم من أسرة دقاق بن تتش كما سبق أن أشرنا فى الصفحات السابقة.

ونضيف الى ما سبق أن ذكرناه أن طغتكين سعى منذ بداية الحركة الصليبية الى التصدى للصليبيين ومجاهدتهم بداية من مشاركته فى حلف كربوغا ومرورا بتحالفه مع مودود واستمر طغتكين فى سياسته هذه حتى بعد وفاة مودود، فسرعان ما وجدناه يسعى إلى التحالف مع الأسفهلار سيف الدين أقسنقر البرسقى أمير الموصل الجديد ولعل أبرز أمثلة هذا التحالف والتعاون ما أشار إليه ابن القلانسى فى أخبار سنة ٥١٠، عندما وصل البرسقى الى دمشق لمعاونة ظهير الدين على الافرنج فقد كان بدران (برترام) ابن صنجيل صاحب طرابلس قد هاجم نواحي البقاع وعاث فيها فسادا.

وقد أحرز الجيشان الموصلى والدمشقى انتصارا كبيرا على الصليبيين واستولوا على عددهم وخیولهم^(١١١). ويشير ابن القلانسى الى احتفاء طغتكين بقدوم البرسقى واصحابه إلى دمشق واکرامه لهم. ويعبر ذلك أولا على أن الجهاد كان الهدف الرئيسى فى سياسة طغتكين وانه كان يسعى بكل قواه الى تكوين جبهة اسلامية موحدة، ولذلك فقد تحالف مع مصر من جهة ومع أمراء الموصل امير بعد الآخر من جهة أخرى.

ويؤكد هذا المثال على أن طغتكين لم يكن يخشى من نفوذ امراء الموصل على دولته سواء زمن مودود أو زمن البرسقى وأنه برئ من التهمة التى ألصقت به بشأن مودود فلو كان يفكر فى حماية عرشه فحسب لما سعى إلى الاستعانة بالبرسقى أمير الموصل واستضافته هو وقواته فى دمشق، بل كان على العكس قد تحاشاه وابعده عن بلاده خاصة بعدما أثير من أقاويل حول ازدياد نفوذ مودود الامير السابق للموصل وتهديده لعرشه.

يذكر هذا الفريق من المؤرخين أن طغتكين انتهز فرصة اغتياله لمودود وبادر عقب مصرعه مباشرة بالتحالف مع الصليبيين^(١١٢).

وحقيقة الأمر أن عقد الهدنة بين طغتكين والصليبيين انما تم قبيل وفاة مودود بل وقبل أن تتوثق أوأصر الصلة والصداقة بينهما، ولو تتبعنا تاريخ عقد المهادنات بين طغتكين والفرنج، سنجد أن أول هدنة عقدت بينهما كانت في سنة ٥٠٢ هـ في أعقاب فشل محاولة طغتكين في الدفاع عن عرقة ونجاح الصليبيين في امتلاكها. وقد أعقب هذه الانتكاسة الإسلامية انتكاسة أخرى تمثلت في سقوط طرابلس في نفس هذه السنة. واثناء هذه الظروف المتدهورة التي كانت تعيشها بلاد الشام، أرسل بلدوين الأول رسله إلى طغتكين يلتمسون منه المهادنة والموادة. ولم يتردد طغتكين في قبول هذا العرض.

واعتقد أن قبوله هذه الهدنة مع الصليبيين كان بغرض إتاحة الفرصة له، ولجيشه لالتقاط الأنفاس تمهيدا لمواصلة الجهاد ضدهم مرة أخرى بعد أن يكون قد أخذ العدة لذلك، بدليل أنه لم يتردد في مساعدة نجم الدين ايل غازي ابن ارتق في سنة ٥٠٣ هـ وقواته عند لقاءهم بالفرنج عند نهر الفرات رغم الهدنة^(١١٣). وفي نفس الوقت وخلال فترة الهدنة كذلك، بادر بمراسلة شرف الدين مودود أمير الموصل آنذاك للتعاون معه ضد الصليبيين كما سبق أن ذكرنا مما يؤكد أنه كان يعمل خلال الهدنة على اعداد العدة للانقضاض على العدو من جديد.

وفي أعقاب ذلك، وصل بلدوين إلى نواحي بعلبك عازما على العيث والافساد فيها، ثم جدد مراسلته لطغتكين عارضا عليه اقرار الهدنة والموادة بينهما، ورغم ذلك فقد نقض الفرنج عهدهم في سنة ٥٠٤ هـ، وكان طغتكين قد بدأ يحقق لامارته وجيشه ما أراد من اعداد عسكري وتنظيم عند قبوله التهادن مع الفرنج فنهض في عسكره ونزل في المنزل المعروف برأس الماء ثم رحل عنه إلى اللجاة وفرق عسكره من عدة جهات، وبث في المعابر خيلا تمنع على العدو الميرة مما ضايقهم أشد الضيق فعادوا إلى مراسلته طلبا للهدنة التي تجددت مرة أخرى.

ومما يؤكد ما نقول أن طغتكين بادر في سنة ٥٠٥ هـ (١١١١م) بالاستجابة لاستغاثة والى مدينة صور عندما تعرضت المدينة للحصار الصليبي كما سبق أن ذكرنا، رغم الهدنة التى كانت قد وقعت بينه وبين الصليبيين، ثم ارسل فى سنة ٥٠٦ هـ نائبا عنه إلى المدينة ليتولى الدفاع عنها ضد أى هجوم صليبي محتمل. وفى سنة ٥٠٧ هـ اجتمع مع الامير مودود على الجهاد ضاربا عرض الحائط بالموادعة مع الفرنج. ويبدو أن بلدوين حاول أن يستميله عدة مرات ولكن طغتكين الذى كان قد نجح فى الاستفادة من الهدنة فى اعادة ترتيب قواته، رفض تجديد الموادعة مما دفع بلدوين على العودة الى شن الغارات فى بلاد الشام^(١١٤).

وفى اعقاب مقتل مودود توترت العلاقات بين طغتكين فى دمشق وبين محمد ابن ملكشاه السلطان السلجوقي. ويورد ابن القلانسي أسباب ذلك التوتر فى كتابه ذيل تاريخ دمشق، إذ يشير إلى انه لما شاع ذكر ظهير الدين طغتكين اتابك فى الأعمال العراقية والدركاه السلطانية بما عرف عنه من بأس فى محاربة الفرنج. حسده قوم من مقدمى الدرك السلطانية الغيائية وراموا القدح فيه والطنن عليه.

ويذكر ابن القلانسي أن طغتكين لم يهتم بهذه الوشايات وأنه تأهب للقاء السلطان واعد ما يصحبه من أنواع التحف المستحسنة من اوانى البلور والمصاغ والثياب المصرية والخيول العربية^(١١٥).

ويشير كل من ابن العديم وابن الأثير الى أن طغتكين بادر بالاتصال بأمر انطاكية الصليبي للتحالف معه تأميناً للملكه وخوفاً من الجيوش التى ارسلها السلطان السلجوقي بقيادة برسق بن برسق لمهاجمة دمشق^(١١٦).

وتشير نفس تلك المصادر التى اوردت خبر تحالف طغتكين مع صاحب انطاكية الصليبي بطريقة غير مباشرة، إلى أسباب ذلك فابن الأثير ذكر ما يفيد بأن السلطان محمد قد أوصى جيوشه بداية بقتل ايلغازى وطغتكين فإذا ما فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وقتلوهم^(١١٧). وفى تصورى أن سبب تهادن طغتكين مع صاحب انطاكية الصليبي، يرجع الى رغبته فى تأمين ظهره أثناء مواجهته للخطر

القادم من السلاجقة. وأرى ان اللوم انما يقع فى معظمه على السلطان السلجوقى نفسه وليس على طغتكين أتابك دمشق، فلم تكن الظروف مناسبة لكى يرسل السلطان جيوشه للاستيلاء. على املاك امراء الشام ومن بينهم طغتكين الذى جعل على عاتقه عبء التصدى للفرنج، وكان دخول برسق بن برسق على رأس الجيوش السلطانية الى مدينة حماة التابعة لطغتكين عنوة، «والتي كان بها ثقله» على حد تعبير ابن الأثير، وإباحته نهبها لمدة ثلاثة أيام أكبر دليل على عظيم الخطأ الذى وقع فيه السلطان السلجوقى باقدام جيشه الذى أرسله على هدم كل محاولة اسلامية للتوحد.

وقد اثبتت الأحداث التالية صحة الرأى الذى نأخذ به فابن العديم نفسه يشير إلى دور هام قام به طغتكين لمنع اشتباك الجيوش الصليبية مع جيش برسق السلطانى ويعلم ابن العديم ذلك بقوله «وجعل اتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه أو ينكسروا فتستولى العساكر السلطانية على ما فى يده» (١١٨).

وفى العام التالى ٥٠٩هـ (١١١٥م) توجه طغتكين الى بغداد طالبا الصفح من السلطان بعد أن تأكد من فشل حملة برسق، فرضى عنه السلطان وخلع عليه وأحسن استقباله وأمر بإنشاء منشور أورد ابن القلانسى نصه كاملا، جدد له فيه إمارة الشام (١١٩) مما يؤكد صدق نوايا طغتكين وانه قبل التحالف مع امير انطاكية الصليبي مضطرا ليتمكن من حماية نفسه من مهاجمة الجيوش السلطانية له.

ولكن ما أن زال التهديد السلطانى حتى أبدى فروض الطاعة والولاء للسلطان السلجوقى وعاد سياسة والجهاد ضد الفرنج فلم تأت السنة التالية سنة ٥١٠هـ إلا وكان طغتكين قد تحالف مع آقسنقر البرسقى صاحب الموصل كما سبق وأن أشرنا وأحرزا معا انتصارا كبيرا على صاحب طرابلس. وفى سنة ٥١٢هـ كاتب ظهير الدين طغتكين أرباب الجهات والمناصب يحثهم على التعاون على دفع شر الصليبيين بالتآزر والتواظب (١٢٠). وورد الخبر بتوجه الامير نجم الدين ايل غازى الى

دمشق في عسكره للاجتماع مع طغتكين على اعمال الرأى فى التدبير والتشاور وأسفر اللقاء عن اتفاقهما على بذل المكنة والاجتهاد فى مجاهدة الفرنج وحددا لنفسهما تاريخا يلتقيان فيه مع جيوشهما للجهاد، وحددا شهر هو صفر من سنة ٥١٣ هـ موعدا للقاء بالفعل والتقى الجيشان عندما وردت الأخبار بظهور روجر صاحب إنطاكية فى حشد من طوائف الصليبيين ورجاله الأرمن وكان يزيد عددهم على ٢٠ ألف فارس وراجل، عندئذ ضرب طغتكين بالهدنة عرض الحائط وانطلق مع الجيوش الاسلامية لمهاجمتهم واحرز المسلمون انتصاراً ساحقاً على الصليبيين يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وأسفرت المعركة عن مقتل روجر نفسه (١٢١).

ولم يتوقف جهاد طغتكين ضد الصليبيين عند هذا الحد كما سنوضح على الصفحات التالية مما يؤكد أن المعاهدات التى وقعها مع الفرنج لم تكن سوى هدنات حتمتها ظروف سياسية معينة، أفاد منها طغتكين فى إعادة تنظيم قواته استعدادا لمواصلة الجهاد.

وقبل اختتامنا لهذه المناقشة تجدر الإشارة الى حقيقة هامة وهى أنه ليس كل من وقع هدنة مع الصليبيين متهم بالخيانة. فصلاح الدين نفسه وهو الحاكم الذى لا يمكن بأى حال اتهامه بالخيانة والتواطؤ مع العدو، وقع معاهدات مع الصليبيين ويكفي أن نذكر من بينها صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ (سبتمبر ١١٩٣م)، وكذلك أخوه العادل ابوبكر وكبار سلاطين المماليك أمثال الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى والمنصور قلاوون.

وتشهد سنة ٥١٢ هـ ذروة التعاون والتنسيق العسكرى بين القاهرة ودمشق، وكان بلدوين دى بويون ملك بيت المقدس قد وجه حملة فاشلة على مصر تصدى لها الجيش الفاطمى بعنف، وبادر الأفضل شاهنشاه بارسال قوات ضخمة لمطاردة فلول الصليبيين وتعقبها حتى فلسطين، ثم ما لبث أن توفى بلدوين، وتولى بلدوين أوف بورج كونت الرها Baldwin of Bourg ملك بيت المقدس، خلفا له فى ١٨

ذى الحجة من سنة ٥١٢ هـ (١٤ أبريل ١١٨ م) (١٢٢) ووسط هذه الظروف المضطربة التي كان يمر بها الفرنج، فكر الأفضل بضرورة القيام بعمل يكون بمثابة رد قوى على الحملة الصليبية على مصر ويبين للفرنج بأن مصر قادرة على مواجهتهم وقرر الأفضل أن يستعين مرة أخرى بطغتكين اتابك دمشق فهو بلا شك لم ينس جهوده الصادقة وتعاونته السابق معه في مواجهة الصليبيين ولذلك لم يتردد في الكتابة إليه مقترحا عليه القيام بحملة فاطمية / دمشقية مشتركة على غرار حملة الرملة الثالثة لمواجهة طغيان الفرنج واطماعهم التوسعية في مصر والشام أن تكون عسقلان مركزا رئيسيا لتجمع قوات الجانبين (١٢٣).

واستجاب طغتكين بالفعل لنداء الأفضل، وكان قد سار من دمشق لقتال الفرنج فنزل بين دير ايوب، وكفر بصل باليرموك، ولم تكن انباء وفاة بلدوين قد وصلت الى اسماعه بعد، فلما علم بعد ثمانية عشر يوما، فوجئ برسل الصليبيين تتردد عليه، طلبا لتجديد الهدنة. ولكن طغتكين الذي كان قد استفاد من الهدنات السابقة وأعاد تنظيم قواته، حرص على اشعار الصليبيين بالعجز التام أمام شروطه، لذلك فقد طالبهم بترك المناصفة التي بينهم من جبل عوف والحنانه والصلت والغور، ولما رفض الصليبيون عرضه، سار طغتكين الى طبرية ونهبها ثم زحف منها نحو عسقلان حيث التقى بالقوات الفاطمية (١٢٤).

وقبل أن نستطرد في سرد احداث هذه الحملة الفاطمية / الدمشقية المشتركة يجدر بنا الاشارة إلى أن في موقف طغتكين هذا ما يبرئه تمام من كل الاتهامات التي ألصقت به والتي سبق أن عرضنا لها في الصفحات السابقة فهو نقض الهدنة مع الصليبيين ورفض تجديدها من أجل مناصرة الفاطميين، رغم أن ذلك عرضه وعرض بلاده لأخطار جسام.

وقد ابدى الأفضل روحا عالية من التسامى والترفع عن الصغائر في تلك الظروف الحرجة، إذ أنه أرسل رسالة مع مقدم جيشه الى طغتكين يعلمه فيها بأنه قد اختاره هو لقيادته الجيش المشترك، وأن الجيشين سيقفان عند رأيه ومشورته (١٢٥).

وتقدمت الجيوش الصليبية بقيادة بلدوين الثانى الذى كان قد استنجد بروجر اوف سالرنو امير انطاكية Roger of Salerno ، وبونز Ponz كونت طرابلس وجوسلين دى كورتناى Joccelinde Cortenay اميرتل باشر لمساندة الصليبيين أمام الجيوش الاسلامية المتحالفة^(١٢٦).

وعلى أن الجيشين الاسلامى والصليبي ظلا يواجهان بعضهما دون المخاطرة بأى اشتباك فعلى، وتجمد الموقف بينهما لمدة شهرين فى رأى^(١٢٧) وثلاثة أشهر فى^(١٢٨) رأى آخر. وسرعان ما تفرق الجانبان وعاد كل فريق من حيث أتى.

ويعلل المؤرخ وليم الصورى سبب هذا الانسحاب المفاجئ من الجانبين بأن المسلمين انبهروا بضخامة القوات الصليبية التى كانت تضاهى القوات الاسلامية، كما أن الشعور الصليبي كان مشابها للشعور الاسلامى لذا انسحب الجانبان^(١٢٩).

وعلى أى الأحوال فقد نجحت هذه التظاهرة العسكرية الاسلامية المشتركة فى ارباب الصليبيين وتهديدهم وإيهامهم بأن الأوضاع قد تغيرت فى الجانب الاسلامى، وأنه لم يعد بوسع الصليبيين التغرير بحكام المسلمين كما حدث فى السابق وأن صحوة اسلامية وروحا جديدة بدأت تسرى فى نفوس المسلمين حكاما وشعوبا.

واستمر التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة قائماً حتى بعد مقتل الأفضل شاهنشاه فى سنة ٥١١ هـ.

ولم يكن المأمون البطائحي، الوزير الفاطمى الجديد، رغم شجاعته، على مستوى الأفضل من حيث الحنكة السياسية والقدرة على التصرف، فما كاد يتولى الوزارة حتى عزم على ازالة نفوذ طغتكين من صبور كما قرر عزل الأمير مسعود الذى كان يتولى المدينة من قبل الأتابك الدمشقى.

وفى بداية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) أرسل المأمون الأسطول المصرى الى ثغر صبور بقيادة وحشى بن طلائع مشحونا بالرجال البحرية والجنود ومحملا بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف اردب وأقوات كثيرة. ولما وصل الأسطول

المصرى الى صور خرج الأمير مسعود لاستقبال وحشى مقدم الاسطول ، فطلب منه مقدم الاسطول ان ينزل بسفينته فاستجاب مسعود لرغبته ولكن ما كاد مسعود ينزل الى سفينة مقدم الاسطول حتى أعتقله وأقلع الاسطول عائدا الى مصر بعد أن أنزل الجند على البر وأمرهم باحتلال صور^(١٣٠).

ولما علم الصليبيون بأمر هذا الانقلاب الذى تم فى صور على يد المأمون البطائحي تحركت أطماعهم من جديد فانتهزوا فرصة الخلافات التى اشعلها المأمون مع نواب طغتكين فى صور، وبدأوا يعدون العدة لحصارها حصارا محكما من البر والبحر ومنع نفاذ أى عدد وأقوات تصل إليها تمهيدا لاسقاطها هذه المرة.

ولن نتحدث هنا عن تفاصيل الحصار الصليبي لمدينة صور، فقد سبق ان استعرضناها فى بحث سابق^(١٣١) وكل ما نود الإشارة إليه هو موقف طغتكين اتاهك دمشق من هذه الأحداث.

فعندما تنبه والى صور الجديد من قبل المأمون البطائحي بالتحركات الصليبية الجديدة أخذ يعيد حساباته، فأدرك مدى عجزه عن دفع الخطر الصليبي الداهم لقلة ما لديه من عدد وأقوات فبادر بارسال تقرير مفصل إلى الأمر بأحكام الله الخليفة الفاطمي. عندئذ قرر الفاطمي رد ولاية المدينة إلى ظهير الدين «طغتكين مع حق مصر فى الاشراف على المدينة وفرض سلطانها عليها. وكان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥١٧ هـ (يوليو/ أغسطس ١٢٣ م)^(١٣٢).

ولم يتردد طغتكين فى قبول هذه المسئولية الجسمية ما دام ذلك يتفق مع اهدافه الرامية الى الجهاد ضد الصليبيين. وتجمع المصادر العربية واللاتينية على أن طغتكين لم يأل جهدا فى الدفاع عن مدينة صور وعندما اشتد كلب الصليبيين، عليها اتجه الى بانياس وارسل قوة كبيرة فى الأتراك وعدد كبير من الفرسان للدفاع عنها*.

ولما علم بازدياد وطأة الحصار عليها، واشراف أهلها على الهلاك فى انتظار معونة المأمون البطائحي الذى تقاعس عن نجدها، اضطر طغتكين الى مراسلة الفرنج

بالملاطفة والمهادنة^(١٣٣).

وكان بلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب قد بلغته الأنباء بقرب سقوط مدينة صور رغم محاولات طغتكين المستميتة لاستنفاذها فتجهز لنجدة أهلها، وعزم بصدق على مساندتهم بعد أن يفرغ من حصاره لمنبج، ولكن القدر لم يمهله إذ أنه استشهد في منبج سنة ٥١٨ هـ، مما أضاع الأمل الوحيد المتبقى لأهالي صور في التغلب على عدوهم^(١٣٤).

واستمر طغتكين في محاولاته مهادنة الصليبيين ولكن جهوده ضاعت عبثا ولم يتزحزح الفرنج عن مواقفهم حتى استسلم أهل المدينة بعد مقاومة بطولية رائعة. ونجح طغتكين بعد مفاوضات أجراها مع قادة الفرنج في انتزاع الأمان لكل أهالي صور واشترط لتسليمها أن يخرج منها كل من أراد الخروج من العسكر والرعية أمانا بما يستطيع حمله في حين يبقى من يريد الإقامة بمدينة، وقبل القادة الفرنج والبنادقة شروط طغتكين على الرغم من اشتداد ثائرة الجند البحريين الذين كانوا يطعمون في نهب صور، وهددوا بالتمرد والثورة، ولكن الشروط التي التزم بها قادتهم نفذت ومنح أهالي المدينة الأمان^(١٣٥) فخرجت منها في حشود هائلة من أهلها أنفوا المقام في ظل الحكم الصليبي، ولم يبق بصور إلا كل ضعيف عجز عن الرحيل.

وتم سقوط صور في أيدي الصليبيين في ٢٣ جمادى الأولى من سنة ٥١٨ هـ الموافقة ٧ يوليو من سنة ١١٢٤ م بعد استماتة طغتكين وجيوشه في الدفاع عنها.

ومن خلال ما استعرضناه على الصفحات السابقة يتبين لنا أن طغتكين يعتبر من أوائل القادة المسلمين الذين حاولوا توحيد الجبهة الإسلامية في الشام ومصر والموصل بعمليات مشتركة لمواجهة الفرنج وطردهم من بلاد الشام.

وإذا كان بعض المؤرخين يرجعون الفضل في التعاون والتنسيق العسكري بين القاهرة ودمشق إلى الأفضل شاهنشاه^(١٣٦)، فإننا لا يمكن أبدا أن نغفل دور ظهير

الدين طغتكين اتابك دمشق فى هذا المجال، بل اننا نقدمه على الأفضل ونعتبره أحد الرموز والشخصيات الاسلامية الكبرى التى لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الدراسات المتعمقة. وفى اعقاب سقوط مدينة صور سنة ٥١٨ هـ امضى ظهير الدين طغتكين ايامه فى صراع مستمر مع الصليبيين^(١٣٧) ومع المرض الذى بدأ يداهم منذ سنة ٥٢٠ هـ^(١٣٨) حتى انهك قواه واضعف جسده. ولما اشتد عليه المرض أوصى لتاج الملوك بورى اكبر أولاده بولاية العهد من بعده ثم توفى فى ٨ صفر من سنة ٥٢٢ هـ^(١٣٩).

وقد تجدد التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة عقب وفاة طغتكين، فلم تعد المصادر تشير إلى ذلك فى عهد خلفائه من أمراء الأسرة البورية، إلا أن العلاقات الودية لم تنقطع بوفاته بين البلدين، فابن القلانسى يورد فى أخبار سنة ٥٢٧ هـ ما يفيد بأن الأمير المنتضى ابو الفوارس وثاب بن مسافر الغنوى وصل من مصر إلى دمشق رسولا إلى شمس الملوك اسماعيل بن بورى فى يوم السبت لأربع بقين من ذى القعدة. وكان يحمل معه جوابا على ما كان صدر من مكاتبة شمس الملوك للفاطميين كما كان يحمل معه الخلع السنية وأسفاط الثياب المصرية والخيول والمال. وأقام فترة معززا مكرما فى دمشق حتى عاد إلى مصر فى سنة ٥٢٨ هـ يوم السبت لليلتين بقينا من شهر ربيع الأول منها^(١٤٠).

ولعل الظروف التى كانت تمر بها كل من الامارة البورية فى دمشق والدولة الفاطمية فى مصر كانت العامل الرئيسى وراء توقف التعاون العسكرى المشترك فيها بين البلدين ضد الصليبيين وتجميده.

فالصراعات الداخلية على الحكم واحاكة المؤامرات والدسائس كانت السمة الرئيسية فى كل من الدولتين ففى دمشق، زخر عهد شمس الملوك اسماعيل ابن بورى بالاضطرابات ومحاولات الاغتيال مما دفعه إلى الاتصال بعماد الدين زنكى يحثه على القدوم الى دمشق ليتسلم حكمها، وقد أسفر هذا الموقف عن قتله على يد أمه وكبار رجال دولته فى نهاية الأمر^(١٤١).

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الهدف الرئيسى لزكى هو ضم دمشق الى دولته فى حلب والموصل، وأصبح هم البوريين الأول مركزا على دفع زكى عن امارتهم^(١٤٢).

أما فى مصر، فكان الصراع بين الوزراء السمة الغالبة على الحكم، وأصبح الخلفاء الفاطميون ألعوبة فى ايدي وزرائهم وتأرجحت الوزارة ما بين وزير سنى وآخر مسيحي وتذبذبت السياسة الخارجية للدولة طبقا لميول كل وزير من هؤلاء الوزراء تجاه الصليبيين.

ومن أمثلة ذلك أن الوزير بهرام الأرمنى المسيحي لم يدخر وسعا فى فتح ابواب مصر امام بنى جنسه من الأرمن وشجع سياسة المعاشية السلمية مع الصليبيين فى الشام وقاوم انصار الجهاد مما أدى إلى ثورة رضوان بن الولخشى عليه، واسفرت هذه الثورة عن فرار بهرام وتولى ابن الولخشى الوزارة^(١٤٣).

وكان الوزير ابن الولخشى السنى المذهب، من أشد المتحمسين للجهاد، فأنشأ ديوانا جديدا أسماه ديوان الجهاد^(١٤٤) وأخذ يندد بسياسة الاستكانة التى اتبعها الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي تجاه الصليبيين بالشام.

وبرزت خلال وزارته محاولة جديدة للتنسيق والتعاون بين مصر والشام، وكان عماد الدين زكى آنذاك يحاول اتمام توحيد الجبهة الاسلامية بالاستيلاء على دمشق وضمها إلى دولته فى الموصل وحلب، فتوجه رضوان بن الولخشى للقاءه اثناء حصاره لبلبلك للاتفاق معه على خطة مشتركة لمواجهة الصليبيين.

وعندما علم معين الدين أثر صاحب النفوذ الأكبر فى امارة دمشق بنية ابن ولخشى التحالف مع زكى استشعر خطرا كبيرا على امارته فاستدعى أسامة ابن منقذ فى مهمته تلك، فعدل انر الولخشى عن مقابلة زكى وعاد إلى مصر حيث قتل بعد ذلك بقليل^(١٤٥).

وفشلت محاولة التنسيق العسكرى بين مصر وكل من الموصل وحلب هذه المرة. أما عماد الدين زكى فقد تمكن من توجيه ضربة قاصمة للوجود الصليبي

فى بلاد الشام باستيلائه على اماره الرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م)، وكان يحلم باستكمال مشروع الوحدة الاسلاميه بضمه لدمشق، ولكن القدر لم يمهلّه اذ اغتيل على يد أحد غلمانه سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م).

وانقسمت دولته بين ابنائه، فخلفه سيف الدين غازى على الموصل، فى حين نصب نور الدين محمود على حلب.

وفى سنة ٥٤٣ هـ تعرضت دمشق لحصار صليبي المانى مما دفع اميرها مجير الدين ابقى واتابكه معين الدين أنر إلى الاستنجاد بسيف الدين غازى امير الموصل، فسار بعسكره من الموصل إلى الشام، ورافقه نور الدين محمود اخوه، بعسكره ونزلت قواتهما على حمص مما فت فى عضد الفرنج وأرسل أنر إلى فرنج الشام يعرض عليهم تسليم قلعة بانياس مقابل تخليهم عن ملك الأمان، وقبل صليبيو الشام هذا العرض وطلبوا منه الرحيل، فرحلوا وملكهم عن دمشق، واضطر أنر إلى التخلي عن بانياس^(١٤٦) تنفيذاً لوعوده للفرنج.

أما فى مصر فقد توفى الخليفة الحافظ سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩م) وبويع بالخلافة لابنه اسماعيل، ولقب بالظافر بأمر الله (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤م) وتقلد على بن السلار والى الاسكندرية والبحيرة الوزارة، فى عهده.

وحاول ابن السلار ان يحيى التعاون العسكرى بين القاهرة وحلب، وكان نور الدين صاحب حلب يسعى فى نفس الوقت الى ضم دمشق، فاستدعى ابن السلار، اسامة بن منقذ، الذى كان آنذاك فى مصر، وعهد إليه بمهمة الاتصال بنور الدين محمود لأنه كان يخشى ان ينجح الصليبيون فى الاستيلاء على عسقلان وغزو مصر. ولكن نور الدين محمود لم يتحمس لمشروع ابن السلار، لأنه خشى أن يغامر بحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية فى الوقت الذى لم تكن وحدة الجبهة الاسلاميه قد اكتملت بعد كما كان حكام دمشق يناصبونه العداء^(١٤٧).

وتركز اهتمام نور الدين محمود على ضم دمشق خوفاً من سقوطها فى أيدي الفرنج، فكاتب أهل المدينة واستمالهم فى الباطن ثم سار إليها وحصرها، ففتح له

الباب الشرقى ودخل منه وملكها^(١٤٨) سنة ٥٤٩ هـ.

ومهد امتلاك نور الدين محمود لدمشق عودة التنسيق والتعاون العسكرى بينها وبين القاهرة، وبدا ذلك جليا سنة ٥٥٨ هـ عندما لاذ شاور، أحد المتنافسين على كرسى الوزارة فى مصر بنور الدين محمود فرارا من خصمه ضرغام، وهناك فى دمشق أخذ شاور يستنجد به ويطمعه فى الديار المصرية، وهو يعلم تمام العلم أن نور الدين محمود كان يحلم بتوسيع نطاق الوحدة الاسلامية.

وقد تردد نور الدين كثيرا فى ارسال حملة إلى مصر ولكن خوفه من سقوطها فى أيدي الصليبيين الذين استعان بهم ضرغام، وحرصه على توحيد الجبهة الاسلامية، دفعه الى التدخل عسكريا لحسم هذا الصراع بين الوزيرين سنة ٥٥٩^(١٤٩).

وعندما حسم الصراع لصالح شاور بفضل أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قائد الجيش النورى، انقلب شاور وتكرر لوعوده لنور الدين محمود وأمر قاداته بالرحيل عن مصر وبدأ يتصل بالصليبيين^(١٥٠).

هنا تحول الجيش النورى الى جيش انقاذ اسلامى يهدف إلى تخليص مصر من وزرائها الخونة وحمايتها من السقوط فى أيدي الفرنج وبادر نور الدين بارسال قائديه اسد الدين شيركوه، وصلاح الدين فى حملتين جديدتين، الأولى سنة ٥٦٢ هـ والثانية سنة ٥٦٤ هـ خاصة بعد أن حدث تحالف بين البيزنطيين والصليبيين بغرض تقسيم مصر فيما بينهما^(١٥١).

وتجلى التعاون العسكرى بين أهل مصر وبين الجيوش الدمشقية فى الحملة النورية الثانية سنة ٥٦٢ هـ، عندما التجأ صلاح الدين وقواته الدمشقية إلى مدينة الاسكندرية التى عرف أهلها بوطنيتهم وكرهم لشاور لخيانته لبلده وتحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين، ولذلك لم يترددوا فى فتح ابواب مدينتهم لقوات شيركوه، الذى نصب صلاح الدين ابن أخيه نائبا عنه فى حكمها، ومضى هو الى الصعيد ليشرف على شؤونه ويجمع بعض المال، وأحكم شاور وخلفاؤه من الفرنج

الحصار حول الاسكندرية مدة أربعة شهور عانى خلالها صلاح الدين ورجاله كثيرا غير أن أسد الدين شيركوه عندما بلغه شدة حصار الفرغ لابن اخيه لجأ إلى حيلة مضادة فأتجه بجيشه شمالا ليوهم شاور وحلفاءه الفرغ بأنه ينوى محاصرة القاهرة، ونجحت الحيلة واضطر شاور وحلفاؤه إلى رفع الحصار عن الاسكندرية والاسراع بالعودة إلى العاصمة خشية أن ينجح شيركوه في الاستيلاء عليها.

وكانت هذه الحملات النورية الثلاثة على مصر مجالا لدراسات قيمة اوضحت الهدف الحقيقي من ورائها^(١٥٢) فنور الدين محمود كان يرمى الى ضم مصر بهدف توحيد الجبهة الاسلامية وتخليصها من العملاء والخونة ليتفرغ الى الجهاد الاعظم وهو بذلك قد مهد الطريق أمام صلاح الدين يوسف لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وتحقيق اعظم الانتصارات على الصليبيين.

الحواشى:

(١) وإلى جانب هاتين الخلافتين، وجدت خلافة ثالثة فى الأندلس، بعد أن تلقب عبد الرحمن بن محمد الأموى فى قرطبة بالناصر لدين الله، ولكننا لن نتعرض لها فى دراستنا فى هذا البحث وسنركز فقط على خلافتى المشرق الاسلامى لما لهما من علاقة بصميم الموضوع.

(٢) على الصعيد الاقتصادى، حاولت الدولة الفاطمية، ضرب طريق تجارة التوابل والحرير فى الخليج العربى، الذى يمثل الثروة والرواج الاقتصادى للدولة العباسية، وكانت الدولة الفاطمية تهدف من ذلك السيطرة على تلك التجارة عصب الاقتصاد العالمى فى ذلك الوقت لتدعيم اقتصادها على حساب الدولة العباسية، وشجعت ذلك عن طريق نشر المذهب الاسماعيلى فى اليمن وعمان والهند، ونجحت فى ذلك فى كل من اليمن والهند، أما عمان فقد ظل ابناءؤها يتمسكون بالمذهب الاباضى. وقد أشارت السجلات المستنصرية إلى وجود دعاة اسماعيلية فاطميين فى تلك البلاد. وسمى الدعاة الفاطميون الذين ذهبوا الى الهند على هيئة تجار باسم «البوهر» نسبة لتجارهم فى التوابل أو البهار، ولذلك أطلق فيما بعد على طائفة الشيعة الهنود اسم طائفة البهرة. وكان من نتائج تلك السياسة الفاطمية تعطيل طريق الخليج العربى كطريق رئيسى لتجارة التوابل، واحياء طريق البحر الأحمر كمنافس خطير للخليج العربى وان لم يقضوا عليه تمام كما يذكر بعض المؤرخين (لمزيد من التفاصيل عن التنافس التجارى بين الخلافتين العباسية والفاطمية ارجع الى Kenneth M. Setton, A history of the Crusades, Philadelphia, 1958, P 96 جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها - عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥ - ١٨٠ - السجلات المستنصرية، تحقيق د. عبد المنعم ماجد، ١٩٥٤، ص

٣٨-٤٢، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٦-١٧٩-١٩٠، ١٩٣، ص ٢٠٣-٢٠٦،
عبد المنعم ماجد، سياسة الفاطميين في الخليج مستمدة من السجلات
المستصرية، بحث مقدم الى ندوة قطر ١٩٧٦ عن تاريخ شرق الجزيرة العربية،
ج٢، ص ٢٦٧ وما يليها - ولمزيد من التفاصيل عن هذا التنافس الاقتصادي
فيما بين بغداد والقاهرة وأثار ذلك على نشاط الخليج العربي التجاري ارجع
إلى سحر عبد العزيز سالم، تجارة عمان في الكارم وصداها على سياسة مصر
حتى طليعة القرن السابع الهجري، مجلة كلية الآداب، الاسكندرية، ١٩٩١ -
١٩٩٢، العدد ٢٤.

Sahar Abdel Aziz Salem, Head Light on the commercial Relation between India and Egypt during the Islamic Period, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria, 1991 - 1992 - J.J. Saunders. A history of Medieval Islam, U.S.A, 1972, P. 136.

(٣) صلاح الدين محمد نوار، تاريخ الشام السياسي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رسالة دكتوراة، أشرف أ. د. السيد عبد العزيز سالم أ. د. / جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١١٨.

وعن تعاون الحمدانيين مع البيزنطيين معاً للتصدي للفاطميين، وتطور الصراع في شمال الشام بين الحمدانيين والفاطميين ارجع إلى (جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤٩ - ٥٣.

(٤) عن نشاط بسيل الثاني ضد الدولة الفاطمية ارجع إلى (الفارقي «أحمد بن يوسف بن علي الأزرق»، تاريخ الفارقي، تحقيق د. بدوي عبد اللطيف، بيروت ١٩٧٤، ص ١٠٩). وعن ثورة العلاقة ارجع إلى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨، ص ٥٠، ٥١ - تاريخ يحيى بن سعيد الاتطاكي، بيروت، ١٩٠٩، ص ١٨١) وارجع كذلك إلى (ابن شداد، الاعلاق الخطيرة

في ذكر أمراء الشام والجزيرة، وتحقيق ونشر سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢، ص ١٦٤ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ج٩، ص ١٢٠ - المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٧١، ج٢، ص ١٨ - و ١٧، G. Wiet, Histoire de la nation Egyptienne, t. L'Egypte Arabe, Paris, 1937, P. 198, 199

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، بيروت ١٩٧٢، ص ٩٩، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٨ - محمد احمد عبد المولى، بنو مرداس الكلبيين في حلب والشام وسياستهم الخارجية مع دولتي الفواطم والروم (١٠٢٥ - ١٠٨٠ م)، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٦، ١٧.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق - أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، بيروت ١٩٥٦، ج٣، ص ١٠٤ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية في الشام، ص ٢٦٦. وان كان الدكتور محمد عبد المولى يعتبر أن خضوع المرداسيين في سنة ٢٦٣ هـ للسلاجقة قد اضعف من كيانهم، وساعد على ذلك اندلاع الحرب الأهلية بين بنى كلاب مما أثار في النهاية عن الاحتلال العقيلي لحلب في ظل السيادة السلجوقية (٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م) مما أدى إلى انقراض دولة بنى مرداس بحلب وشمال الشام. وفي سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢) انقطع ذكر المرداسيين تماما من اعمال حلب فقد اعتقل شرف الدولة مسلم ٣٠٠ فارسا تركمانيا بقايا من كان يخدم بنى الروقلىة (بين مرداس) وفرقهم في القلاع وكان ذلك آخر العهد بهم لمزيد من التفاصيل أرجع إلى محمد احمد المولى، بنو مرداس، ص ١٧٣ - ١٨٦ - خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل في الموصل بغداد، ١٩٦٨، ص ١٠٧ محمد ضامن، اماره حلب في ظل الحكم السلجوقي، دمشق، ١٩٩٠، ص ٦٣ - ١١٣.

(٦) السلاجقة: من فرع الأتراك الغز، ينتسبون إلى زعيمهم الأكبر سلجوق ابن

تقاق (دقاق) خرجت قبائلهم من سهوب التركستان واتجهوا إلى الأراضي الإسلامية في الغرب عند بلاد ما وراء النهر، وسيطروا على الوادي الأدنى لسيحون واعتنقوا الدين الإسلامي على المذهب السني. ويرجع الفضل في توحيدهم إلى سلجوق. وقد ازدادت قوتهم في عهد زعيمهم طغرل بك أبو طالب محمد بن ميكائيل السلجوقي وتمكنوا من إلحاق هزيمة مروعة بالسلطان مسعود الغزنوي سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠م) أسفرت عن سيطرتهم على معظم بلاد فارس وشمال العراق وarmiيا وآسيا الصغرى (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، ١٩٨٠ - الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية القاهرة، ١٩٦٠ - البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة، ١٩٠٠ - المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، ج٢، ق١، ص ٣٠ - فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة د. الساداتى، القاهرة، ١٩٦٥ - عبد النعيم حسنين، سلاجقة ايران والعراق، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها - زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨ - ٥٣ - وعن السلاجقة ارجع ايضا إلى Setton, op. cit, P. 135 - 175- C.E Bos Worth, Islamic surveys, the Islamic Dynasties, 1967, vol I, P 116- 118 - JJ. Saunders, A history of Medieval Islam, P 146.)

(٧) هو أبو الحارث ارسلان البساسيرى، نسبة إلى بساسير في بلاد فارس، أيد الدعوة الشيعية في العراق مما دفع الخليفة العباسى ووزيره الأول أبو القاسم على ابن مسلمة إلى الاستنجد بطغرل بك السلجوقي لتحرير البلاد من سطوة البساسيرى (الفارقى ص ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩). وتمكن طغرل بك من قتل البساسيرى وإعادة الخطبة للخليفة القائم العباسى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧ - ٩٠ - ابن ميسر، اخبار مصر، تصحيح هنرى مارسيه، القاهرة، ١٩١٩، ص ١١ - المقرئى، أتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٣٢ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة،

القاهرة، بدون تاريخ، جـ ٥، ص ٢٠. وارجع كذلك إلى (صدر الدين على بن ناصر الحسيني، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩ - ابن الصيرفي، الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، مطبعة القاهرة، المعهد العلمى الفرنسى، ١٩٣٤، ص ٤٤، ٤٥ - محمد أحمد عبد المولى، استبداد البساسيرى مقدم الأتراك بالسلطة فى العراق وسقوط بنى بويه، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص ٦ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ١٠٩٧ - ١١٤٤ م، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٦٢ وما يليها - Lane Poole, S, History of Egypt in the Middle Ages, London 1914, P 138 J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, P 146.

(٨) لمزيد من التفاصيل عن موقعة ملاذكرت ارجع إلى (العظيمى، تاريخ العظيمى، نشر كاهن، باريس، ١٩٣٨، ص ٣٥٩ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٠) وارجع كذلك الى (اومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٦٩، ١٩٨ -

Nikita Elisseeff, L'Orient musulman au moyen Age, 622 - 1260, Paris, 1977, P 215 -

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٢٤ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العرينى، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٦٨، جـ ١، ص ١٠٠.

C.E. Bosworth, Islamic Surveys, vol I, 117.

صلاح نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٤١٩ - ٤٢١.

(٩) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ١٩ - ابن الأثير الكامل، جـ ١٠، ص ٦٣.

وارجع كذلك الى (الاصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٩ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٣ - زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، ص ٥٠ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٤ - ١٥).

(١٠) يسميه ابن خلكان اتسز بن اوق ابن الخوارزمى التركى (ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء أهل الزمان، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، بدون تاريخ، ج١، ص ٢٩٥) أما الفارقى فيسميه بالاقسيس (الفارقى، ص ١٩٩). ويعلق كل من ابن الأثير وابن خلدون بأن الشاميين يطلقون عليه اسم اقسيس، ولكن الصحيح أنه أتسز ابن اوق وهم اسم تركى (ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٨، ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، طبعة دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٣، ج٩، م ٥، ص ٨). أما ابن ميسر فيسميه اتسزالتركمانى ويصفه بأسد دمشق (ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٤). ولكن المقرئى فى اتعاظ الحنفا يسميه باطسز بن ارتق المعروف بالاقسيس (المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٣١٥) وهذا خطأ لأن اتسز لم يكن ابنا لأرتق، فقد كان مؤسس أسرة الملوك الارائقة ولدان هما سكمان وايلغازى. وكان ارتق رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس فى بلاد الشام، ولم يملك دمشق، وقد حكم القدس من قبل تتش السلجوقى. ولما توفى ارتق تولى ولداه سكمان وايلغازى بعده فى القدس حتى استولى عليها الأفضل شاهنشاه وانتزاعها منهما سنة ٤٩٠ هـ، فتوجهها الى الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر وماردين (ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١، ص ١٩١، ترجمة ٨٠) وقد أطلق عليه ابو الفدا اسم يوسف بن ابق الخوارزمى (ابو الفدا، المختصر، ج٣، ص ٩٥) أما ابن القلانسى فقد ذكر انه اتسز بن اوق (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨). ونرجح أن يكون المقرئى قد نقل الاسم محرفا من أوق أو ابق فجعله ارتق. ولزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع إلى (Setton, op. cit. P. 94).

(١١) وعبر مشاعر أهل دمشق العدائية تجاه اتسز يقول ابن القلانسى «وبرز من

دمشق (انسز) ونهض في جمع عظيم إلى ناحية الساحل ثم منها إلى ناحية مصر طامعاً في ملكها ومجتهداً في الاستيلاء عليها والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللحن له متتابع متصل، فلما قرب من مصر، وأظلت خيله عليها، برز إليه امير الجيوش بدر فيمن حشده من العساكر ومن انضاف اليها من الطائف والعرب، وكان قد وصل إليها واستولى على الوزارة، وعرف ما عزم عليه انسز، فاستعد للقاءه، وتأهب لدفع قصده، واعتدائه وجد في الايقاع به وحصلت العرب وأكثر العساكر من ورائه وصدقوا الحملة عليه، فكسروه وهزموه ووضعوا السيوف في عسكره قتلاً واسرا ونهباً وأفلت هزيماً بنفسه في نفر يسير من أصحابه ووصل إلى الرملة وقد قتل اخوه وقطعت يد اخيه الآخر، ووصل بعض الفل إلى دمشق...» (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٠٩ - ١١٢).

ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى (ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٥، ابن الأثير الكامل جـ ١٠، ص ١٠٣ في أخبار ص ٤٦٩ هـ) وكذلك إلى (ابو الفدا، المختصر، جـ ٣، ص ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، جـ ٩، م ٥، ص ٩ - W.B Stevenson, M.A, The Crusaders in the east, Cambridge, 1907, P 19).

(١٢) وفي ذلك يقول ابن ميسر «فيها (سنة ٤٦٢ هـ) بعث ناصر الدولة بن حمدان الفقيه أبا جعفر بن أحمد ابن أحمد بن البخاري رسولا إلى السلطان ألب ارسلان ملك العراق يسأله أن يسير إليه عسكراً من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له فتجهز الب ارسلان من خراسان في عساكر جمعة...». وفي موضوع آخر يقول «ولما بلغ المستنصر ارسال ناصر الدولة إلى السلطان ألب ارسلان يستدعيه إلى الديار المصرية فجهز اليه عساكر كثيرة من الأتراك...» (ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٩، ٢٠، محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٥).

(١٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١ - محمد محمد مرسى الشيخ،
الجهاد المقدس، ص ١٦.

(١٤) ارتق بن أكسب التركمانى: اشرنا فى الحاشية رقم (١٠) الى شخصية ارتق
ابن اكسب أو اكسك الذى كان يلقب بظهير الدين، وكان ينتمى إلى قبيلة
الدقر Dogar التركمانية وهى احدى البيوت الكبيرة التى تنتمى للغز. وكانت
زعامتها قد انتهت إلى ارتق (ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١، ص ١٩١).
ويرجح كل من ابى الفدا وابن خلدون أن الاسم الأصح لوالد ارتق هو اكسك
وليس اكسب (ابو الفدا، المختصر، ج٣، ص ١٠٥ - ابن خلدون، العبر،
ج٥، ص ٤٦١، ٣١٥) وكان ارتق من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان،
وبدأ حياته السياسية بتقديم خدمات جليلة للسلاجقة فحارب فى آسيا الصغرى
ضد البيزنطيين سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م) كما توجه سنة ٤٧٠ هـ على رأس
حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين (ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص
١٠٦) واستولى على منطقتى حلوان والجبل التى تقع جنوبى كردستان على
الحدود الواقعة بين العراق وفارس وضعها الى السلاجقة سنة ٤٧٢ هـ.
(١٠٧٩م) (ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١، ص ١٩١). وعن علاقة ارتق
مع الفاطميين اثناء وزارة بدر الجمالى ارجع (إلى عماد الدين خليل،
الامارات الأرتقية فى الجزيرة والشام ٤٦٥ - ٨١٢ هـ / ١٠٧٢م - ١٤٠٩م،
اضواء جديدة على المقاومة الاسلامية للصليبيين والتتر، بيروت، ص ١٥٧ وما
يليهها). وقد قام نشش بتوليته ارتق على القدس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٦٨م)، وظل
يتولاها حتى وفاته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) (ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥،
ص ١١٥). ويعتبر ارتق مؤسس الكيان السياسى للأرتقية. وبعد وفاته لم تبق
القدس فى حوزة ولديه فترة طويلة، اذ سرعان ما استردها الأفضل شاهنشاه
الوزير الفاطمى سنة ٤٩١ هـ فانتقلا الى ديار بكر واسسا امارتهما هناك
(عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية، ص ٦٩. وارجع كذلك الى سعيد

كذلك الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣، ج١، ص ١٠٥ وما يليها.

C.E Bos worth, Islamic surveys, the Islamic dynasties, P 119- P. A. Holt, the age of the crusades, the near east from the eleventh century to 1517, London and New York, 1986, P 28.

(١٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٣ - ابن الأثير، الكامل، ج١ ص ١١٤. وان كان كل من العظيمي وابو الفدا يذكر أن استسلام مدينة حلب له تم في سنة ٤٧٣ هـ وليس في سنة ٤٧٢ هـ (العظيمي، تاريخ العظيمي، ص ٣٦٣، ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، ج٣، ص ١٠٤). وقد كان الاختلاف حول تاريخ دخول مسلم العقيلي حلب مجالا خصبا للنقاش بين المؤرخين قديما وحديثا، وقد ابرز هذه القضية وناقشها بمزيد من التفصيل الدكتور محمد ضامن (ارجع إلى محمد ضامن، اماره حلب في ظل الحكم السلجوقي، ص ١١٥). وارجع كذلك إلى (خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، بغداد، ١٩٦٨، ص ٥٩، ١٠٧ وعن علاقة العقيليين بالسلاجقة ارجع إلى (نفس المرجع السابق، ص ٩٨ وما يليها).

(١٦) ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ١٢٧ حيث يذكر أن وصول تتش إلى دمشق كان فى أول المحرم سنة ٤٧٦ هـ فى حين وصل شرف الدولة أواخر المحرم. كما أشار ابن الأثير إلى عدم وصول أى عسكر أو قوات من الفاطميين لمساعدة شرف الدولة العقيلي فى فتح دمشق. ولزيد من التفاصيل ارجع إلى (محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ص ١٧). وعن علاقة العقيليين بالدولة الفاطمية ارجع إلى (خاشع المعاضيدى، المرجع السابق، ص ٨٣ وما يليها).

(١٧) العظيمي، ص ٣٦٥ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٨ - ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، ج٣، ص ١٠٦ هذا وقد أورد ابن الأثير هذا

وارجع كذلك إلى ما أورده ابن خلدون بهذا الشأن (ابن خلدون، العبر، ج ٩، م ٥، ص ١٥) وقد علل الدكتور محمد ضامن هزيمة مسلم بن قريش وقواته امام سليمان بن قتلمش بعدة أسباب منها تخلى قوات جبج التركمانية عنه وانضمامها إلى جانب سليمان منذ بداية المعركة، كما تخلى عنه اصحابه من بعض القبائل اثناء القتال، ولم يبق معه سوى أحداث حلب إلى جانب شدة حرارة الجو في فصل الصيف (شهر يونيو) (لمزيد من التفاصيل راجع محمد ضامن، اماره حلب في ظل الحكم السلجوقي، ص ١٢٢).

أما فيلا توربوس براخامبوس Philaretos Brakhamios فقد كان على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الامبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها في جنوب شرق آسيا الصغرى بعد هزيمة ملازكرت فرفض الاعتراف بالامبراطور الجديد ميخائيل السابع وتمكن من السيطرة على ثلاث مدن رئيسية في قيليقية هي طرسوس والمصيصة وعين زرية ثم تولى انطاكية باختيار امرائها حتى لا تقع في يد الأتراك السلاجقة (سعيد عاشور، الحركة الصليبية ج ١، ص ٩٩) وان كان قبل أن يحكمها كتابع للسلاجقة.

(١٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع إلى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٩٧ - ١٢٥ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٢. وقسيم الدولة أفسنقر، هو ابو سعيد ابن عبد الله المعروف بقسيم الدولة وهو والد البطل المسلم عماد الدين زنكي (ابن واصل، مفرج الكروب، القاهرة، ١٩٥٣، ج ١ ص ٢٨) وجد ملوك الموصل، وهو بخلاف أفسنقر البرسقى قسيم الدولة (راجع ترجمة كل منهما في ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١، ص ٢٤١، ٢٤٤). ويرجع بأصله إلى قبيلة ساب يو وقيل أنه كان مملوكا للسلطان ألب ارسلان في رأى آخر. ومن أقوى الدلائل على الحظوة التي نالها أفسنقر لدى السلطان ملكشاه منحه لقب قسيم الدولة فقد كانت الألقاب لا تمنح الا لمستحقيها وقد وصلت مكانة أفسنقر الى الحد الذي أقلق الوزير نظام الملك رغم تحكمه بأمور الدولة. وقد اعتمد السلطان

ملكشاه فى كثير من الحروب على أقسنقر إلى الحد الذى أقلق الوزير نظام الملك رغم تحكمه بأمور الدولة. وقد اعتمد السلطان ملكشاه فى كثير من الحروب على أقسنقر مثلما حدث فى عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ / ١٠٨١ م) عندما عينه السلطان قائدا للجيش الذى أرسله إلى الموصل بصحبة ابن جهير. وفى سنة ٤٧٩ هـ أقطع السلطان ملكشاه أقسنقر حلب ومناطقها حماة ومنبج واللاذقية فى حين أقطع أنطاكية للآمير ياغى سيان. وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تعيين أقسنقر واليا على حلب فمنهم من قدر ذلك بأنه فى أواخر سنة ٤٧٩ هـ (٢٠٨٦ - ١٠٨٧ م) ومنهم من قدره بأول سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ / ١٠٨٨ م). وقد شق أقسنقر عصا الطاعة على تتش، فانتهت حياته على يديه سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) (الفارقى، ص ٢٤٣). ودفن بمشهد قربيا مدة إلى أن نقله الاتابك زنكى الى المدرسة الزجاجية بحلب (لمزيد من التفاصيل ارجع الى العظمى، ص ٣٦٦، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٩ وما يليها).

ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٢، ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الدينية بالقاهرة والمثنى ببغداد ١٩٦٣، ص ١٥ - ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، جـ ٩، ص ١٧، ١٨، والدراسة القيمة للدكتور محمد ضامن، اماره حلب، القسم الخاص بأقسنقر وحكمه وسياسته الداخلية والخارجية، ص ١٣٥ - ١٥٢).

(١٩) وتذكر بعض المصادر أن بعض أصحاب قسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب قتلوه (ابن القلانسى، وذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١ ص ٢٤٥) وراجع ابن خلكان، جـ ١، ص ٢٩٥، ترجمة ١٢٢. وانظر كذلك إلى ما أورده ابو الفدا، المختصر، جـ ٣، ص ١١٩ - ابن خلدون، ق ٥ م ٩، ص ٣٤).

فى حين يذكر الفارقى فى تاريخه ان مملوكا لبزان أو بوزان صاحب الرها رماه

بسهام في ظهره في وسط المعركة أرداه صريعا ثارا لقتل تتش لبوزان (الفارقي، ص ٢٤٤).

(٢٠) هو جناح الدولة الحسين بن ايتيكن، أحد كبار القادة في جيش السلاجقة بالشام وتذكر المصادر العربية أنه كان متزوجا بأمر رضوان (ابو الفدا، مختصر اخبار البشر، ج٣، ص ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٤٦). وكان قد حضر مع تتش معركته التي استشهد فيها ولكنه نجا من المعركة. وقد أحسن تدبير المملكة وكان في ذلك شبيها بطغتكين في ادارته لدمشق أيام حكم دقاق لها ولزید من التفاصيل عن جناح الدولة وعلاقته بصاحبها رضوان ابن زوجته ارجع الى (محمد ضامن، اماره حلب، ص ١٦٦ وما يليها وارجع كذلك الى ستيفن رانسمان، الحركة الصليبية، بيروت، ١٩٦٨، ج٢، ص ٢٧).

(٢١) العظيمي، ص ٣٧١ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠ وما يليها - أبو الفدا، مختصر اخبار البشر، ص ١٢٠ - ابن خلكان، ج١، ص ٢٩٦ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٤٦ - محمد ضامن، اماره حلب، ص ١٥١ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٩.

Stevenson, op. cit, p 24, 25.

(٢٢) عن مختصر التواريخ للسلامي ارجع إلى محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٤٠.

(٢٣) عنه وعن ولده ديبس بن صدقة الذي تمكن في خلافة الامام المسترشد من الاستيلاء على كثير من بلاد العراق (ارجع الى ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٢ ص ٢٦٤ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، المرجع السابق، ص ٣٩).

(٢٤) عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٨.

(٢٥) عن سياسة الفاطميين في اليمن والدعوة الاسماعلية وهناك وعلاقة التبعية والولاء التي ربطت الصليحيين بالخلافة الفاطمية (ارجع إلى حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣٩ - محمد أحمد عبد العال أحمد الايوبيون في اليمن، الاسكندرية، بدون تاريخ، ٢٧ - ٦٧ - جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها - عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن في ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥ - ١٨٠).

(٢٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٦، ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٧ ابن الأثير الكامل، ج ٩، ص ٦١٤ - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب طبعة بيروت، ج ٣، ص ٢٧٧ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٦ - عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله، ص ١٥٦ وما يليها - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٦١ وما يليها.

(٢٧) Conder, The latin Kingdom of Jerusalem, London 1897, P 48 - Stevenson, The Crusaders, P. 20.

صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسي، ص ٥٥٣.

(٢٨) راجع الحاشية السابقة.

(٢٩) عن الفتنة النزارية ارجع إلى ان القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٨ وما يليها.

(٣٠) الفيومي، نثر الجمان، مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٤٦ ج ٢ ورقة ٣٢٤ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي على العالم الاسلامي (٤٩٠ - ٥١٥ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١ م)، الاسكندرية ١٩٩٣، ص ٥١.

(٣١) Holt, The age of the Cursades. P. 15.

(٣٢) محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٠٠٤ .

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٠٤، ١٠٥ .

(٣٤) لقد تصور الأفضل شاهنشاه ان هذه الحملات الصليبية شبيهة بالحملات البيزنطية على ديار الاسلام، واعتقد ان الصليبيين قد قدموا بناء على استصراخ الكسيس كومنين واستنجداه بهم لضرب السلاجقة Cambell, G. The Crusades, London, 1935, P. 119 - Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1934, vol I, P 85.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٣٦ وما يليها - مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى (٤٨٨ - ٥٦٧ هـ / ١٠٩٥ - ١٧٧١م)، الاسكندرية، ١٩٨١، ج١، ص ١٢٤ .

وساعدهم على ذلك التصور محاولات الصليبيين طمأنة حكام المسلمين وايهامهم عن طريق الشائعات بأن هدفهم الوحيد هو استعادة الأراضى البيزنطية المفقودة فى آسيا الصغرى.

ويذكر بعض المؤرخين أن الصليبيين اثناء حصارهم لمدينة نيقية وجهوا سفارة من معسكرهم الذى أقاموه امام المدينة، إلى القاهرة وكانت أهم اهدافها اقامة تحالف مع الفاطميين، وذلك بناء على نصيحة الكسيس كومنين وأرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ٤٩٠ هـ (١٢ يونيو ١٠٩٧م) (صاحب هذا رأى هو المؤرخ Pierre Tudebodus فى كتابه الحرب المقدسة Historia belli sacri ولزيد من التفاصيل عن هذه السفارة المزعومة ورأى ستيفن رانسمان فيها ارجع إلى (كتابه تاريخ الحروب الصليبية ج١، ص ٣٢٦) - وعن سفارة الفاطميين الى الفرنج عند أسوار انطاكية ارجع إلى (ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة د. حسين عطية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٠٤، ١٠٥ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١٩٧ - مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ص

١٢٤ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٩٠. Lane)
 poole, A history of Egypt, P. 164 ويذكر الدكتور صلاح الدين نوار أن
 الفاطميين ارسلوا سفارة أخرى للصليبيين اثناء حصارهم لمدينة عرقة (لمزيد
 من التفاصيل عن هذه السفارات والمفاوضات ارجع الى صلاح نوار الذى
 استعرض كل الآراء التاريخية بشأنها، فى كتابه العدوان الصليبي على العالم
 الاسلامي، ص ٥٢ - ٨٣). وعن السفارة التى ارسلها الصليبيون الى مصر
 عقب استيلائهم على انطاكية والبارة ، ارجع الى وليم الصورى، تاريخ
 الحروب الصليبية، ترجمة د. سهيل زكار، طبعة مؤسسة دار الفكر، ١٩٩٠،
 ج١، ص ٣٩٤ - المؤرخ المجهول، اعمال الفرنبجة وحجاج بين المقدس،
 ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥٩، ٦٣.

(٣٥) - ريمونداجيل، ص ١٠٤.

صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٦٤.

(٣٦) كان قوام الدولة أبو سعيد كربوغا، أحد القادة الكبار فى جيش السلطان
 ملكشاه السلجوقي. وبدأ اسمه يتردد منذ وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢م)
 وعندما قامت ترکان خاتون بتنصيب ولدها محمود فى السلطنة وتأهبت
 للعودة إلى أصفهان فاختارت كربوغا على رأس فرقة من الجيش ليسبقها إلى
 هناك وكلفته بالاستيلاء على قلعة اصفهان ليمهد لها الطريق فى العاصمة،
 وظل كربوغا يقوم بدور حاسم وهام فى الأحداث التى قامت بين خاتون
 وبركيا روق حتى وفاتها سنة ٤٨٧ هـ (ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص
 ٢٤٠ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٣).

وفى اعقاب وفاة محمود بن خاتون دخل كربوغا فى طاعة برکيا روق الذى
 سيره امدادا للأميرين أقسنقر، وبوزان، فى حربه مع عمه تتش بن ألب ارسلان
 بالشام، وشارك كربوغا فى هذه المعركة الحربية التى انتهت بهزيمتهم أمام
 تتش وبمقتل كل من أقسنقر وبوزان (ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١١٨)

فى حين وقع كربوفا اسيرا فى يد تتش الذى اودعه فى سجن مدينة حمص (ابن واصل، مفروج الكروب فى اخبار بين ايوب، القاهرة، ١٩٥٣، ج١، ص ٢٦). وعندما قتل تتش بالرى، طلب بركيا روق من رضوان بن تتش ان يطلق سراح كربوفا الذى توجه بعد فك اسره الى حران فملكها ثم توجه الى نصيبين فملكها ايضا، أما الموصل فقد حاصرها مدة تسعة أشهر حتى استسلمت له فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٦) (ابن الأثير، الكامل، ج١٠ ص ٢٥٨). ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته ودوره فى الجهاد ضد الصليبيين، وحملته الى انطاكية وموقفه من السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية أثناء جهاده ضد الصليبيين واسباب هزيمته امام الصليبيين ارجع الى Stevenson, op. cit) P 27 - Setton, op cit, p 320 - 326-

محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٠ وما يليها)
(٣٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ - ابن الاثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٧٦ - ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٣٢ أخبار سنة ٤٩١ هـ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٤٧.

وحول موقف رضوان صاحب حلب من هذا التحالف ومن الصليبيين ارجع الى Conder, op. cit, p 46.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١٩٩ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١١، محمد ضامن، امارة حلب فى ظل الحكم السلجوقي، ص ١٨٤، ١٨٥ صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ١٧ وما يليها).

(٣٨) وليم الصورى، ج١، ص ٣٦٣ وما يليها . سيعد عاشور، الحركة الصليبية، ج١ ص ٢٠٠، ٢٠١ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١١٢.

وعن أحداث سقوط انطاكية وحصار كربوفا لها وعثوره على الحربة المقدسة

ارجع الى ريموندا جيل ، تاريخ الفرنجة، ص ١٠٣ وما يليها.

(٣٩) المصدر السابق، ص ١٠٣ وما يليها.

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن موقعة عسقلان الكبرى (سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م) واهم نتائجها واسباب هزيمة الفاطميين فيها ارجع الى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ١٣٥ - ١٦٣.

(٤١) عن حملات الرملة الثلاثة ارجع الى (أسامة زكى زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل، ١١٠١ / ١١٠٥ م - ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٨١ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٩٢ وما يليها - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٥٢ وما يليها - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ١٨٧ - ٢١٩.

(٤٢) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤١.

(٤٣) العظيمى، احداث سنة ٥٠٢ هـ - ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٠٤، ١٥٥ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١ ص ٣٠٨.

(٤٤) ابن خلدون، العبر، المجلد الخامس، القسم الأول، ج٩، ص ٨٨، ٨٩، ٩١.

(٤٥) الفارقى، تاريخ الفارقى، ص ٢٣٧ وكان من عادة السلاطين السلاجقة الزواج بأكثر من امرأة ولما كان الاسلام لا يسمح بالجمع بين أكثر من اربع حرائر فقد كان السلطان يقون بتطليق بعض زوجاته ويمنح المطلقة الى واحد من امرائه ويعهد اليه بتربية ابنه (ارجع الى تعليق د. سهيل زكار لكتاب تاريخ الحروب الصليبية، لوليم الصورى، ج٢ ص ٤١.

(٤٦) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٤٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٠، ١٣١ - وراجع ايضا ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٢١.

- (٤٨) الفارقي، تاريخ الفارقي، ص ٢٤٥.
- (٤٩) لمزيد من التفاصيل عن علاقة رضوان صاحب حلب بامارة دمشق ارجع الى محمد ضامن، امارة حلب في العصر السلجوقي، ص ١٦٠ - ١٦٦.
- (٥٠) العظمي، ص ٣٧٧ - ابن القلانسي، ذيل دمشق، ص ١٤٤ - ابن الاثير الكامل، ج ١٠، ص ٣٧٥ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٨٩ - في حين يذكر الفارقي ان وفاته كانت سنة ٤٩٨ هـ (الفارقي، ص ٢٧١).
- (٥١) من بين هؤلاء المؤرخين الدكتور سعيد عاشور في كتابه الحركة الصليبية، ج ١، ص ٣٢٣ والدكتور محمد محمد مرسى، الجهاد المقدس، ص ٨٠، ١٧٤، الدكتور صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٢١٣. والدكتور شاكر مصطفى في بحثه طغتكين رأس الأسرة البورية ومؤسس النظام الأتابكي، مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت، ص ٥١ ومايلها
- (٥٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٤.
- (٥٣) محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨١.
- (٥٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٧٦.
- (٥٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - المقرئزي، انعاظ الحنفيا، ج ٣، ص ٣٥.
- (٥٦) يذكرنا ذلك بموقف صلاح الدين يوسف الأيوبي من الصالح اسماعيل ابن نور الدين محمود، سيده وولى نعمته، وموقف السلطان المظفر قطز من المنصور ابن سيده عز الدين ابيك.
- (٥٧) من ذلك ما ذكره ابن القلانسي عن حسن سيرة طغتكين فهو يقول «وشرع في احسان السيرة في العسكرية وفي الرعاية واحسن الى الأمراء والمقدمين من الدولة وأطلق يده من الخزانة في الخلع والتشريفات والصلوات والهبات وأمر

بالمعروف ونهى عن المنكر وأقام الهيبة على المفسدين المسيئين وبالغ في الاحسان الى المطيعين والمحسنين وتألف القلوب بالعطاء واستعمال الجناح بالتردد والحباء واستقامت له الأمور وأجمع على طاعته الجمهور» (ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٤٤). وفي موضع آخر من كتابة يقول ابن القلانسي «وحسنت أحوال دمشق بآيائه وعمرت بجميل سياسته وقضى الله تعالى بوفاء تتش ولد الملك شمس الملوك دقاق المقدم ذكره في هذه الأيام، واتفق ان الاسعار رخصت والغلات ظهرت وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن دمشق وظاهرها لاحسان سيرته واحمال معاملته وبث العدل فيهم وكف اسباب الظلم عنهم...» (نفسه، ص ١٤٥).

وارجع كذلك الى ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٨٩، فقد وصف طغتكين بأنه قام بأمر دمشق أحسن قيام وراجع كذلك الى (ابو الفداء، المختصر، ص ١٦٠).

(٥٨) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢١٢.

(٥٩) اختلفت المصادر العربية والمسيحية حول اعداد الجيش الاسلامي المتحد وتجمع المصادر جميعها على أن الجيش الاسلامي كان يزيد على خمسة آلاف من المشاة ورماة السهام والفرسان فابن القلانسي يؤكد أن الجيش الفاطمي وحده، كان يبلغ عشرة آلاف جندي (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨). ويذكر ابن الأثير أن الجيش المشترك كان يزيد على خمسة آلاف جندي (ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٣٩٤ -

في حين يشير فوشيه دي شارتر على أن الجيش الاسلامي المشترك بلغ خمسة عشر ألف مقاتل بخلاف رجال الاسطول (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، عمان، ١٩٩٠، ص ١٣٨).

(٦٠) ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٣٩٤ - ابن خلدون، العبر، ج٩، م ٥، ص ٤٠٠ في حين ذكر كل من ابن ميسر وابن القلانسي والمقريري ان قائد

الحملة كان شرف المعالي ولد الأفضل (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٨ - ابن ميسر اخبار مصر، ص ١٤١ - المقریزی، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، القاهرة، ١٩٧٣، ج٣، ص ٣٥). ولمزيد من التفاصيل عن اعداد القوة الاسلامية راجع Stevenson, op. cit, p 47 - ستيفن رانسمان تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٦٨، ج٢ ص ١٤٤ - سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٤ - محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ١٧٤ - اسامة زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين، ص ٥٨ وما يليها - صلاح نوار العدوان الصليبي، ص ٢١٢ وما يليها.

(٦١) ارجع الى المصادر والمراجع في الحاشية السابقة Stevenson, op. cit, p 48 وأرجع إلى ما ذكره د. شاکر مصطفى في المرجع السابق، ص ٦٣.
(٦٢) محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ١٧٤ وما يليها - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢١٧ وما يليها.
(٦٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٥ - وارجع الى حاشية رقم (٥٧).

(٦٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩.
(٦٥) ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٣٩٤ - ابن خلدون، ج٩، م ٥ ص ٤٠٠ المقریزی، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٣٥. ويذكر د. شاکر مصطفى أحداث هذه الحملة في سنة ٥٠٠ هـ بدلاً من ٤٩٨ هـ ويعلل تعاون طغتكين مع الأفضل برغبته في تأمين طريق القوافل التجارية بين مصر ودمشق بعدما قطعت غزوات بلدوين المتكررة، شاکر مصطفى، المرجع السابق، ٦٤.
وارجع الى فوشيه الشارترى، ص ١٣٥ - ١٣٨.
(٦٦) المصدر السابق (فوشيه الشارترى، ص ١٣٥ - ١٣٨).
ولزيد من التفاصيل ارجع الى اسامة زكي زيد، حملات الرملة الثلاثة، ص ٦٦ - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢١٦.
(٦٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤١ - المقریزی، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٣٥.

(٦٨) العظيمي، ص ٣٧٧ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٣٩٥

(٨٩) أشهر من نادى بهذا الرأى السير هاملتون جب Gibb (ولزيد من التفاصيل عن آرائه، ارجع الى كتاب العدوان الصليبي للدكتور صلاح نوار، ص ٣٠٨).

(٩٠) وليم الصوري، ج٢، ص ٦١٧.

(٩١) هو مودود بن التوتكين المكنى بشرف الدين (ابن القلانسي، ص ١٧٤ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٢٢). كان أحد رجال السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وشارك في الوقائع التي دارت بينه وبين أخيه برشيا روق، وأظهر خلالها شجاعة وبسالة مما استدعى انتباه السلطان محمد فقربه اليه وأسند إليه في نهاية الأمر حكم امارة المرسل، ومهمة الجهاد ضد الصليبيين. ومن أشهر اعماله حملته على الرها سنة ١١١٠ م (لزيد من التفاصيل عن مودود، ارجع الى ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ١٧ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١٤ وما يليها، عبد الغنى ابراهيم رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، ٥٠١ - ٥٠٧ هـ + ١١٠٨ - ١١١٣ م، مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع، جامعة الرياض، ١٩٧٥ - ١٩٧٦).

(٩٢) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٩٣) وقد توثقت اواصر الصداقة والمودة بينهما فيما بين عامي ٥٠٣ هـ، ٥٠٥ هـ، وظهر ذلك اثناء حصار الرها (لزيد من التفاصيل، ارجع الى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٠، ١٧٨). وعن هذه المعركة ارجع الى (الفارقي، ص ٢٨١ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٩٦ والباهر ص ١٨، ١٩ - ابن خلدون، العبر، ج٩، م ٥، ص ٨٨). ومن المصادر اللاتينية ارجع (الى فوشية الشارترى، ص ١٥١).

وراجع كذلك - Conder, The Latin Kingdom, P 88

(٦٩) كان بلدوين قد حاصر عكا قبل الاستيلاء عليها، وكانت لا تزال تابعة للفاطميين ففر زهر الدولة الجيوشي واليها الفاطمي، الى دمشق سنة ٤٩٧ هـ. حيث استقبله ظهر الدين طغتكين خير استقبال، وأكرمه وأحسن اليه ثم جهزه الى الأفضل الذي أنكر عليه خروجه من عكا وتضييعها (المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٣٤).

(٧٠) حصن تبينين أو Toron: حصن شيده الصليبيون سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) ليسهل عليهم عملية الاستيلاء على مدينة صور التي استمرت خاضعة للسيادة الفاطمية حتى سنة ٥١٨ هـ، وأبدت ضروبا من المقاومة لصد هجمات الصليبيين عليها، وكذلك للدفاع عن امانة الجليل الصليبية من جهة العزب، وضرب الحركة التجارية بين صور والمسلمين في الداخل ولا سيما دمشق. وقد تمتعت صور بموقع استراتيجي هام، وكانت تمثل مركزا من مراكز المقاومة الفاطمية ضد الصليبيين، فقد كانت القاعدة البحرية التي تبحر منها السفن الفاطمية للدفاع عن مدن الشام الساحلية التي تخاصرها أساطيل الفرنج. ولم يكن تبينين هو الحصن الوحيد الذي ابتناه الصليبيون لاستنزال مدينة صور ولكنهم شيّدوا حصنا آخر سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) على تل المعشوقة وقلعة سكانداليون Scandalion أو أسد الحقل على بعد ٥ أميال من صور في الطريق إلى عكا. (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ وارجع الى وليم الصوري، ج٢، ص ٦٢٧ - رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، بيروت ١٩٨٧ ص ٤٩ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٦ - عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٨٩).

في حين يذكر جان ريشارد أن قلعة سكانداليون قد تم بناؤها سنة ٥١٠ هـ (١١١٦م) ويتفق معه في هذا الرأي كل من روبن فيدين وجون طوسون راجع (Jean Richard. The Latin Kingdom, p 25, 156- Fedden and John Thomson, Crusader Robin Castles, London, 1957 - p 25).

وان كانا يذكران ان بناء قلعة تبينين أو تورون كان قد تم في عام ٤٩٧ هـ (١١٠٣م) (op. cit. p. 25) ويذكر أحد المؤرخين الحديثين أن قلعة تل المعشوقة هي نفسها قلعة سكانداليون (صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩). وفي تصوري أن قلعة تل المعشوقة هي قلعة أخرى بخلاف قلعة سكانداليون التي بنيت في فترة متأخرة وفي المنطقة الواقعة ما بين صور وعكا. أما قلعة تبينين Toron فهي من انشاء النبيل الفرنسي هيودي سان اوامر Hough de Saint Omer حاكم طبرية سنة ٤٩٩، على الطريق التي يربط بين صور وبانياس ودمشق وعلى بعد ١٣ ميلا شرقي صور (لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر عبد العزيز سالم، موقف صور من احداث الشام، ص ٤، ٥).

(٧١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥١ اخبار سنة ٥٠٠ هـ - وبيط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ١٩، المقرزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٣٧ - سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٧ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ٩٥ - صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٢٩٨.

وارجع كذلك إلى

وليم الصوري، ج١، ص ٥٨٩

وعن البرت دكس ارجع إلى Stevenson, p 50

(٧٢) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٧ وما يليها.

(٧٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠ ص ٤٥٦. وعن البرت دكس ارجع الى أسامة زكي زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ٨٨. وارجع كذلك الى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٣١٠ - السيد

عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٦ - عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، طرابلس ١٩٩٤، ص ٢٧٨.

(٧٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١ ص ٣١٠ - اسامة زيد، صيدا ودورها، ص ٨٨ - عمر عبد السلام تدمرى، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ٢٧٨.

(٧٥) رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٤٨، ١٤٩ - Stevenson, The Crusaders, P 50.

وراجع رأى Frederick Carl Eislen, Sidon, A Study of Oriental history, New York 1907, p 84

(٧٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢.

(٧٧) ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٤٥٦.

(٧٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٢٥.

(٧٩) المقرئزي، انعاظ الحنفاء، ج٣، ص ٤٣، وان كان المقرئزي قد أوردها في أحداث سنة ٥٠٢ هـ، وليس سنة ٥٠١ هـ مثل كل من ابن القلانسي وابن الأثير.

(٨٠) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٨٩.

(٨١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨١.

(٨٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(*) نفسه، ص ١٦٢ - ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٤٦٨ - عمر عبد السلام تدمرى، المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٨٣) أجمع المؤرخون على تحديد جبل عامل شرقا بواحة الحولة إلى نهر العجر،

ووادى التيم وشمالا بنهر الأولى المعروف قديما بوادى الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعة الشوف وجزين بالقرب من صيدا، وغربا بالبحر المتوسط، وفيما يتعلق بحدوده الجنوبية فيجمع فريق كبير من المؤرخين على ادراج صور فى بلاد بشارة أو جبل عامل. لمزيد من التفاصيل ارجع الى (رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٠ ١٨ - سحر سالم، موقف صور، ص ٢)

Jean Richard, The Latin Kingdom, Vol I, P (٨٤)

30)

(٨٥) عن اسباب هذا الهجوم الصليبي ارجع الى سحر سالم، موقف صور، ص ١٥.

(٨٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٤٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٥٦ - المقرئى، اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٣٨. وعن البهرت دكس ارجع الى Stevenson, P 50 - السيد عبد العزيز سالم دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٥ - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٨٧ - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩.

(٨٧) لمزيد من التفاصيل، راجع بحثى السابق، ص ١٧ وما يليها.

(٨٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٨٨، ٤٨٩ - المقرئى، اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٤٨ - ابن خلدون، العبر، م ٥، ج ٩، ص ٤١٣، ٤١٤.

(*) لمزيد من التفاصيل عما ورد بشأن هذه الأحداث فى المصادر الأوروبية ارجع الى فوشية الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ص ١٥ - وليم البصوري، ج ١، ص ٥٤٦ وارجع كذلك الى Anna Comnena, The Alexiad, P 442.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣١٩ - محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٣٥ وما يليها - Nikita Elisseff, L'Orient Musulman au Moyen Age, Paris, 1977, P 237.

وقد شارك عماد الدين زنكى فى هذه المعركة وأبلى فيها بلاء حسنا وأظهر من ضروب الشجاعة والبسالة الكثير (ابن الأثير، الباهر، ص ١٨)

(٩٤) عن هجوم حامية عسقلان على بيت المقدس اثناء تطويق كل من مودود وطغتكين لبلدوين عند جسر الصنبرة، ارجع الى ما أورده كل من فوشيه الشارترى، ص ١٥٣، ووليم الصورى، جـ ٢، ص ٥٤٧، ٥٤٨.

(٩٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧.

(٩٦) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٩٧) ابن الأثير الكامل، جـ ١٠، ص ٤٩٧، الباهر، ص ١٩.

(٩٨) وارجع كذلك الى ابن خلدون، العبر، جـ ٩، م ٥، ص ٨٨.

(٩٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٢٣ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٤١، عبد الغنى ابراهيم رمضان، شرف الدين مودود اتابك الموصل والجزيرة، ص ١٤٧ وما يليها، شاعر مصطفى طغتكين، ص ٦٢.

(١٠٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧.

(١٠١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ص ٥١. وراجع ما ذكره ابن الفرات فى تاريخ الدول والملوك، جـ ١، ص ٧٨. ولمزيد من التفاصيل عن ما ورد من آراء فى المصادر العربية، راجع عبد الغنى ابراهيم رمضان، المرجع السابق، ص ١٤٧ وما يليها.

(١٠٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٢.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٤٩.

- (١٠٤) نفسه، ص ٢١٤.
- (١٠٥) أبو الفداء، المختصر، ج٥، ص ٧٧، ٨٠.
- (١٠٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٣٨١.
- (١٠٧) ابن القلانسي، ص ١٤٢.
- (١٠٨) المصدر السابق، ص ٢١٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٣٤
وارجع كذلك الى ابن خلكان، ج١، ص ٢٤٢.
- (١٠٩) ابن القلانسي، ص ٢٣٠.
- (١١٠) المصدر السابق، ص ١٤٦. ولزيد من التفاصيل عن سكرمان ارجع الى
(أبو الفداء، المختصر، ص ١٣٧).
- (١١١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٧، ١٩٨.
- (١١٢) راجع ما ذكره الدكتور محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٤٤.
- (١١٣) ابن القلانسي، ص ١٧٠.
- (١١٤) المصدر السابق، ص ١٨٤.
- (١١٥) نفسه، ص ١٩٢، ١٩٣.
- (١١٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١١٧، ص ١١٧ - ابن الأثير الكامل،
ج١٠، ص ٥٠٣، ٥١٠. وارجع الى ما أورده وليم الصوري، ج١، ص
٥٥٥.
- (١١٧) ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٥٠٩.
- (١١٨) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٧٥.
- (١١٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٣.
- (١٢٠) المصدر السابق، ص ١٩٩.

- (١٢١) نفسه، ص ٢٠٠، ٢٠١.
- (١٢٢) وقد وافق هذا الموعد يوم عيد الفصح (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة الى القدس، ص ١٨٥)
- (١٢٣) Setton, op. cit, P. 98 - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٤٩.
- (١٢٤) ابن الأثير الكامل، جـ ١٠، ص ٥٤٣.
- (١٢٥) المصدر السابق، ص ٥٤٣. ويذكر فوشيه دى شارتر أن الجيش الفاطمي وحده كان يقدر عدده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين الف راجل وكان الاسطول الفاطمي قد ابحر الى عسقلان لمشاركة القوات البرية الا أنه سرعان ما غادر الى صور، تاركا الجيوش البرية وحدها فى عسقلان انتظارا لبدء المعركة (فورشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ١٨٥).
- (١٢٦) فوشية الشارترى، نفسه، ص ١٨٥، ص ٢٤٣ حاشية (٤) - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٥١.
- (١٢٧) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٥٤٣.
- (١٢٨) فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ١٨٦.
- (١٢٩) وليم الصورى، جـ ١، ص ٥٧٥ وما يليها.
- وليزيد من التفاصيل عن هذه الحملة ارجع الى صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٣٥٠ وما يليها.
- (١٣٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ - المقریزی، اتعاظ الحنفاء، جـ ٣، ص ٩٦ - ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٢٧.
- (١٣١) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سحر سالم، موقف صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى ايدى الصليبيين سنة ٥١٨ هـ، ص ٢٢.

(١٣٢) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠١، ١٠٢.

(*) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٢١ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠٧. بينما يذكر وليم الصورى أن طغتكين استقر فى منطقة مجاورة لصور تقع على ضفاف نهر يبعد عنها بنحو أربعة أميال. (وليم الصورى، ج٢، ص ٦٢١)

(١٣٣) تجمع المصادر العربية على تخاذل المأمون البطائحي فى نجدة مدينة صور. ارجع الى (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ وابن ميسر، اخبار مصر، ص ٦٤. وارجع ما أورده ابن الأثير الكامل، ج١٠، ص ٦٢١ وكذلك ابن شداد، الاغلاق الخطيرة، ص ١٧٠ - ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص ١٨٢). ان كان المقرئى قد أورد فى الخطط المقرئية، ج٢، ص ٣٧٦ ان اسطولا مصريا خرج لانهجاء صور ولكنه تعرض لهجوم بعض السفن البندقية.

(١٣٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦١٩.

وراجع ما ذكره وليم الصورى، ج٣، ص ٦٢٣ - ستيفن رانسمان، ج٢، ص ٢٧٢.

(١٣٥) ستيفن رانسمان، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٧٢.

(١٣٦) راجع رأى صلاح نوار العدوان الصليبي، ص ٣٥٣.

(١٣٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٢.

(١٣٨) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(١٣٩) نفسه، ص ٢١٨.

(١٤٠) خلف تاج الملوك بورى والده طغتكين، فى حكم دمشق منذ عام ٥٢٢ هـ حتى عام ٥٥٦ هـ عندما توفى متأثرا بجراحه من جراء الهجوم الذى دبره بعض الباطنية الموتورين (لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن القلانسى، ذيل

تاريخ دمشق، ص ٢٣٠) وخلفه ولده شمس الملوك ابو الفتح اسماعيل على حكم دمشق (٥٢٦ هـ - ٥٢٩ هـ) وقد انتهت حياة شمس الملوك اسماعيل بالقتل ايضا، فقد اساء السيرة وطفى وبغى وظلم الرعية مما عرضه لمؤامرة اغتيال فاشله دبرها له احد مماليك والده، وأمر اسماعيل بعد نجاحه، بقتل هذا المملوك، وكل من حامت حوله الشبهة حتى أنه قتل أخاه سونج (ابن القلانسي، ص ٢٤١، ٢٤٢). واستخدم اسماعيل رجلا كرديا كافرا لا يعرف الاسلام، كمستشار له، مما زاد من نقمة الرعية عليه، فلما أحس اسماعيل بالموامرات تحاك ضده من كل جانب، عمل على الاتصال بعماد الدين زنكي أمير الموصل وحلب الذي كان يطمع في ضم دمشق الى امارته استكمالا لتوحيد الجبهة الاسلامية والشرع في مواجهة الفرنج مواجهة حاسمة. وقد أثار هذا الفعل سخط صفوة الملك خاتون، والددة اسماعيل، فاجتمعت بكبار رجال الدولة في دمشق، ودبرت معهم قتل ولدها غير راحمة ولا متألمة لفقده، وتمت المؤامرة، واغتيل اسماعيل سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م)، واقامت والدته بالقاء جثته في موضع من الدار ليشاهده غلمانته وأقامت مكانه اخاه شهاب الدين محمود. (ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٤٦). وتذكر بعض المصادر أن صفوة الملك خاتون أتهمت بالحاجب سيف الدولة يوسف بن فيروز أحد خواص زوجها تاج الملوك بوري، فعزله اسماعيل، وقرر قتل امه، فبادرت هي بالتدبير لقتل ولدها (ابو الفداء، المختصر، ص ١٥). أما فيروز فكان قد فر الى تدمر (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٤).

ظهیر الدین طفتکین (۴۹۷ - ۵۲۲ هـ)

تاج الملوك بورى (۵۲۲ - ۵۲۶ هـ)

شمس الملوك اسماعيل	شهاب الدين محمود	جمال الدين محمد
(۵۲۶ - ۵۲۹ هـ)	(۵۲۹ - ۵۳۳ هـ)	(۵۳۳ - ۵۳۴ هـ)
		مجير الدين ابق
		(۵۳۴ - ۵۴۹ هـ)

(۱۴۱) ابن القلانسی، ذیل تاریخ دمشق، ص ۲۳۹، ۲۴۰، ۲۴۱، ۲۴۶،
المقریزی اتعاظ الحنفاء، ج ۳ ص ۱۴۶ - محمد محمد مرسى الشیخ، الجهاد
المقدس، ص ۳۳۰ وراجع كذلك ما اورده ابو الفداء، المختصر، ص ۱۵.

(۱۴۲) ابن القلانسی، ذیل تاریخ دمشق، ص ۲۴۷ وما يليها.

(۱۴۳) لمزيد من التفاصيل ارجع الى سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية فى
الحركة الصليبية، أحد ابحات كتاب «بحوث ودراسات فى تاريخ العصور
الوسطى بيروت، ۱۹۷۷، ص ۱۹۴.

(۱۴۴) ابن ميسر، تاريخ مصر، ج ۲، ص ۸۲ - سعيد عاشور، شخصية الدولة
الفاطمية، ص ۱۹۴ وما يليها.

(۱۴۵) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ارجع الى اسامة بن منقذ، كتاب
الاعتبار، تحرير فيليب حتى، مطبعة برنستون، ۱۹۳۰، ص ۳۰ وما يليها
سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ۱۹۶.

(۱۴۶) ابو الفداء، مختصر اخبار البشر، ص ۳۰.

(۱۴۷) اسامة بن منقذ الاعتبار، ص ۱۰ سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية،
ص ۱۹۸.

(١٤٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٧ - ابن الأثير الكامل ج ١١، ص ١٩٦. وراجع كذلك ما أورده أبو الفدا، مختصر اخبار البشر ص ٤٢.

(١٤٩) بدأ شاور بن مجير السعدى حياته كتابع للصالح طلائع بن رزيك الذى ولاه الصعيد. وكانت ولاية الصعيد من أكبر الاعمال بعد الوزارة. وابدى شاور كفاية عظيمة وتقدم زائد، واستمال الرعية والمقدمين من العرب مما أثار خوف الصالح ولكنه عجز عن عزله لتوطيد نفوذه هناك. ولما جرح الصالح، كان من جملة وصيته لولده العادل أن يستميل شاور ولا يعزله لتفاقم نفوذه وعظم شوكرته. ولكن العادل الذى خلف والده على الوزارة، حاول الاطاحة بشاور، ولم يقف شاور مكتوف اليدين فجمع جموعا كثيرة وسار بهم الى القاهرة، فهرب العادل ابن الصالح بن رزيك ثم قبض عليه وقتل، واصبح شاور وزيرا وتلقب بأمر الجيوش واستولى على أموال بنى رزيك وروائعهم وذخائرهم (لمزيد من التفاصيل عن شاور السعدى ارجع الى ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٩٠ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٤٦).

(١٥٠) ابو شامة، الروضتين فى اخبار الدولتين، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٦٢، ج ١، ص ١٣١ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٩٨، الباهر، ص ١٢٠، ١٢١ - ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٥ ص ٢٤٧.

(١٥١) وليم الصورى ج ٢، ص ٩٢٧، ٩٣٩ وما يليها.

(١٥٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الحملات النووية الثلاثة سنة ٥٥٩ هـ، ٥٦٢، ٥٦٤ هـ على مصر، واصطدام أسد الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين يوسف مع الصليبيين على أرضها فى معركة البابين وفى الاسكندرية ارجع الى سعيد عاشور، شخصية الدولة الفاطمية، ص ٢٠٠ وما يليها - أحمد الشامى، صلاح الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٩١، ص ٥٩ وما يليها.

لمحات إنسانية من حياة المعتمد بن عباد الأسرية*

* هذا البحث شاركت به المؤلفة في مهرجان المعتمد بن عباد الذى نظمته وزارة الشؤون الثقافية بالمملكة المغربية فى مراكش فى الفترة من ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٩٥ تحت رعاية كل من الملكين الحسن الثانى وخوان كارلوس.

لمحات إنسانية من حياة المعتمد بن عباد الأسرية

هيا القدر للمعتمد بن عباد منذ نعومة أظفاره حياة مترفة وظروفا خاصة تضافرت جميعها لتكوين شخصية هذا الأمير الذي بقيت سيرته حية حتى بعد مماته وتحول هو ذاته إلى رمز جسده الكتابات التاريخية والأدبية وأشعاره الرقيقة التي ملأت صفحات المصنفات كأسطورة من أساطير التاريخ.

ولد محمد بن عباد يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٠٧ هـ^(١)، ونشأ في أسرة ملكية فولده، هو المعتضد بالله أبو عمرو بن عباد بن محمد بن اسماعيل ابن عباد أعظم ملوك الطوائف بأسا وأوسعهم ثقافة، أما أمه فهي السيدة الكبرى بنت مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية^(٢).

وأعتقد أن المعتضد بن عباد كان له الأثر الأكبر في تكوين شخصية ولده محمد فالمعتضد كان يجمع بين النقيضين^(٣) فهو على حد ما وصفته المصادر العربية حاكم مستبد، جبار تجاوز الحدود في اصطناع القسوة وأسرف في قتل خصومه واعدائه والمثلة بهم وبالغ في الأخذ بالظنة والاختفار للذمة^(٤).

واقنتى بباب قصره حديقة تحمل رؤوسا محنطة لاعدائه الذين سقطوا في ساحة الحرب^(٥) أو قتلوا غيلة وقد بلغت به القسوة أنه أقدم على قتل ولده اسماعيل المتسمى بالمنصور عندما ثار عليه وأخفى جثته وعذب شركاءه أشنع عذاب وقطع أطرافهم ثم اعدمهم مع نفر من حرم ولده ونسائه وكانت تلك الحادثة مأساة مروعة تركت اصداء عميقة المدى في سائر أنحاء الأندلس^(٦).

^(٧) ورغم اقباله على سفك الدماء وجنوحه إلى البطش باعدائه والتنكيل بهم، إلا أنه كان على حد وصف ابن حيان ذا قدرة فائقة على «تخبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة في معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة واكتبتها الأدباء للافادة فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى حود كف بارى بها السحاب». كما كان له اهتمام شديد بالمرأة وكانت للنساء مكانة في حياته وزوجته الحرة ابنة مجاهد العامري وأخت علي بن مجاهد صاحب دانية كانت ذات حظوة كبيرة

ومكانة أثيرة لديه^(٨)، وكان على قسوته وجبروته شديد الميل لاحدى بناته فلما توفيت سنة ٤٦١ هـ، حزن لذلك حزنا شديدا وأصيب بصدمة عنيفة عقب دفنها أفضت به إلى الموت فى اليوم التالى^(٩)، كما استكثر من الجوارى وأمهات الأولاد من كل جنس ولون وخلف وراءه سبعين جارية^(١٠)، فكان له من البنين نحو عشرين ومن البنات مثل ذلك^(١١)

وقد تأثر المعتمد محمد بن عباد بلا أدنى شك بشخصية أبيه سلبا وإيجابا ففى اعتقاده أن القسوة الشديدة التى عامل بها المعتضد خصومه واعداءه قد ولدت لدى ابنه محمد احساسا مضادة، ودفعته إلى اصطناع النقيض والنفور من هذا العنف وسفك الدماء فنشأت لدى المعتمد محمد بن عباد مشاعر رقيقة مشبعة بالحب، مشاعر بعيدة كل البعد عن صفات أبيه، فكان فى ذلك نقيضا له وغلبت عليه الوداعة والكرم والبعد عن شهوات القتل والقهر التى اتصف بها أبوه. وقد أجمع المؤرخون مشاركة ومغاربة على وصفه بأجمل الصفات وأرقها، فابن خلكان المؤرخ المشرقى نقل عن أبى الحسن على بن القطاع السعدى وصفه للمعتمد بقوله «أندى ملوك الأندلس راحة وأحبهم ساحة وأعظمهم ثمادا وأرفعهم عمادا، ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه^(١٢)....»

أما ابن الأبار فقد وصفه بقوله «وكان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل مخالفا لأبيه فى القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية، رد جماعة ممن نفى أبوه، وسكن مانفر وأحسن السيرة وملك فأسجع^(١٣)..»، فى حين وصفه ابن الخطيب بأنه كان «كثير المعانى حر المآخذ، لدن معاطف الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المتش وكثير البديع، رائق الديباجة..» وذكر فى موضع آخر أنه «كأ شجاعا مقداما، حسن السيرة رفيقا بالرعية..»^(١٤)

وإذا كان لحادثة قتل المعتضد لولده الأكبر اسماعيل، أصداء قوية فى جميع

أنحاء الأندلس، فقد تركت جرحا داميا عميقا فى نفس ابنه المعتمد بن عباد. ومما لاشك فيه أن قسوة المعتضد وعنفه كانا وراء اندفاع ابنه اسماعيل على التمرد عليه، وأدى ذلك فى نهاية الأمر إلى اقدام الأب على قتله. وأثرت هذه الجريمة الشنعاء فى محمد بن المعتضد تأثيرا عميقا دفعه إلى نبذ سياسة أبيه الدموية وإلى الارتباط الوثيق بأبنائه، فغمرهم بعطفه وشملهم بحنانه وأسبغ عليهم من فيض أبوته.

عرف المعتمد بحبه الشديد لأبنائه وبناته وبلغت به الثقة الكاملة بهم أنه كان يسند إلى البنين أن ينوبوا عنه فى ولاية المدن التابعة لمملكته، فولى ولده عبادا الملقب بسراج الدولة على قرطبة أعظم مدن الأندلس^(١٥) رغم المخاطر التى كانت تواجهه فيها، وعند ما دبر المأمون بن ذى النون خطة لاستردادها وقتل ولده عباد على يد ابن عكاشة أثناء الدفاع عنها، تقدم المعتمد إلى قرطبة على رأس قواته واستعادها ولم يتردد فى الفتك بابن عكاشة أخذا بالثأر لولده^(١٦)، ثم ولى عليها بعد ذلك أبنا آخر له هو الفتوح الملقب بالمأمون^(١٧) وهو الذى سيقتل فى صفر سنة ٤٨٤هـ أثناء دفاعه عن المدينة عند دخول قوات المرابطين وسترفع رأسه على رمح دلالة على النصر المرابطى. كما ولى المعتمد ولده أبا خالد يزيد الراضى على الجزيرة الخضراء واستمر الراضى يتولاها حتى خصصها المعتمد لنزول قوات يوسف بن تاشفين بها عند جوازها إلى الأندلس لمساندة ملوك الطوائف، فنقل المعتمد ابنه إلى رندة^(١٨)، فلما انقلب المرابطون على المعتمد وأرادوا الاطاحة بملكه، حاول الراضى التصدى لهم فكان فى ذلك نهايته فقد استنزل الراضى من رندة عند خلع ابيه وعقب مخاطبته من قبل المرابطين على عهود أضفرت ومواريق نقضت فقتل صبورا فى رمضان سنة ٤٨٤هـ^(١٩) وأخفى جسده^(٢٠).

وقد أورد المقرئ فى ترجمته للراضى ما يشير إلى أسلوب المعتمد بن عباد المتطور السابق لعصره فى معاملته لأبنائه وتوجيهه لهم، فهو لم يكن يقسو عليهم أو يعنفهم وإنما كان اذا أخطأ أحدهم يرميه بلامه مثلما فعل المعتمد مع ولده الراضى، الذى تباطأ فى الدفاع عن مدينة لورقة وأظهر التمارض مما دفع المعتمد

إلى إرسال ابنه الآخر المعتد على رأس جيش الدفاع عن المدينة وأعرض عن ولده
الراضى تماما عقابا له على اهماله، ويؤكد المقرئ أن الراضى حاول استرضاء والده
فكتب اليه ابياتا من الشعر. ولكن المعتد تمادى فى خصامه حتى اشتاق إلى ولده
وغلبه الحنين فكتب إليه بهزل قائلا:

الملك فى طى الدفـاتـر فتخل عن قود العساكر
طفت بالسرير مسلما وارجع لتـوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعـا رف تقهر الحبر المقامر (٢١)

ثم صالحه المعتد وقربه إليه وأدناه منه.

كما ولى المعتد أكبر أبناءه أبا الحسن عبيد الله بن محمد الرشيد عهده
وقدمه إلى خطة القضاء بأشبيلية فكان يجلس للأحكام جلوسا تاما يوم الخميس من
كل أسبوع ويدعو للحضور أعيان الفقهاء وأهل العلم وثقات الشهداء وتتجاذب
عنده النوازل فيحكم فيها ويستفتى الفقهاء وتنقد عليه السجلات بالأحكام.
كما كان ينيبه فى إدارة شئون أشبيلية فى كثير من الأحيان. وقد أشار ابن الأبار
أيضا إلى بعض الأبيات التى كتبها الرشيد إلى أبيه المعتد يسترضيه ويستعطفه بعد
أن عتب عليه عتابا شديدا لخلاف وقع بينهما وذلك فى طريقه من مكناسة إلى
اغमत نطالع منها البيتين التاليين:

ياحليف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والأرواح
من تمام النعمى على التماس لحظة من جبينك الوضاح

فرد عليه المعتد ببعض أبيات توضح أسلوبه التربوى فى معالجة أخطاء أبنائه
بقوله:

كنت حلف الندى درب السماح وحبيب النفوس والأرواح
اذ يمينى للبلذ يوم العطايا ولقبض الأرواح يوم الكفاح
وشمالى لقبض كل عنان يقحم الخيل فى مجال الرماح (٢٣)

ويعبر ميل المعتمد بن عباد إلى تولية ابنائه على المناطق التابعة لمملكته واستناد المناصب العليا اليهم عن حبه الشديد لهم وثقته العمياء بهم كما يعبر هذا التصرف عن استفادته من الدرس الذى تلقاه فى فجر شبابه عندما أقدم والده على قتل ابنه اسماعيل فكأنما أراد بحبه الفياض لأولاده أن يكسب محبتهم له فيخلق بذلك علاقة حميمة تختلف عن تلك التى ربطت بين والده وأخيه القتل.

وشاءت الاقدار أن يشهد المعتمد فى حياته مقتل خمسة من أبنائه الذكور هم سراج الدولة عباد، والفتح الملقب بالمأمون، وأبو خالد يزيد الراضى كما سبق أن أشرنا وابنه الرابع مالك الذى قتل عند اقتحام المرابطين لاشبيلية اما الابن الخامس فهو عبد الجبار الذى قتله المرابطون فى أواخر أيام المعتمد، لأنه ثار على حكمهم بعد أن امتنع مع جماعة من أصحابه بحصن اركش^(٢٤)، كما أرسل إلى الفونسو السادس يطلب معاونته العسكرية، فلما علم الأمير المرابطى سير بن أبى بكر بأنباء تلك الثورة توجه على الفور إلى اركش وأرسل فى ذات الوقت إلى يوسف بن تاشفين يستمده، فأمدّه بعدة اضافية من الخيل والرجال، ثم تقدم المرابطون إلى الحصن واتصلت الحرب بين الفريقين، وكان عبد الجبار بن عباد يخرج من حصنه للقتال بنفسه واشتبك معهم فى عدة معارك فأوقعوا به الهزيمة ودفعوه إلى التحصن داخل الحصن بعد أن كبده خسائر فادحة، وظل الوضع كذلك إلى أن نجح أحد الرماة المرابطين فى اصابته بسهم فى احدى المعارك فاحتمله اصحابه جريحا، وتوفى لايام قلائل فكتّم اصحابه موته وبعد مرور ستة أشهر تمكن المرابطون من اقتحام الحصن واستخرجوا جثة عبد الجبار واحتزوا رأسه ورؤوس أصحابه وحملت إلى مدينة اشبيلية وعُلقت على أسوارها سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) (٢٥).

وقد أثارت هذه الأحداث آلام المعتمد بن عباد وأحزانه وهو فى منفاه بأغمات، فعاش لحظات قاسية وهو يسمع بمصارع أبنائه الواحد بعد الآخر، وعندما أصدر سير بن أبى بكر أمانا للمعتمد فى النفس والأهل والولد^(٢٦) أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد الذى كان ممتنعا فى مرتلة للتسليم. وحاول المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد الرميكية حث ابنيهما على التسليم فأذعن الأميران،

ولكن المرابطين نكثوا بعهدهم مع الراضى فقتلوه (٢٧).

ويورد ابن الأبار أبياتا شعرية للمعتمد أنشدها بعدها يرثى فيها ولديه المأمون والراضى منها:

معى الأخوات الهالكات عليكمما وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
تبكى بدمع ليس للغيث مثله وتزجرها التقوى فتصنى إلى الزجر
تذلله الذكرى فتفزع للبكا وتصبر فى الأحيان شحا على الأجر
أبا خالد أورثتنى البث خالدا أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى
وقبلكما ما أودع القلب حسرة تجدد طول الدهر: لكل أبى عمرو (٢٨)

كما أورد المقرئ بعض الأبيات التى رثى بها المعتمد أبناءه وقد رأى قمرية بائحة بشجنها نائحة بفننها على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغما ويغردان ترحة وترغا:

بكت أن رأت الفين ضمهما وكر مساء وقد أضمنى على ألفها الدهر
وناحت فباحث وأستراحت بسرها ومناظقت حرفا يبساح به سر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده وابكى لآلاف عسديدهم كثر
بنى صغير أو خليل موافق يمزق ذا فقر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أورندة القبر

كذلك أورد المقرئ أبيات للمعتمد أنشدها عندما اعتقل عقب مقتل ولده عبد الجبار فقال:

غننتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالشعبان رمحك فى الورى فغدا عليك القيد كالشعبان
متمردا يحميك كل تمرد متعطفا لارحمة للعانى
قلبي إلى الرحمن يشكو بشه ماخاب من يشكو إلى الرحمن (٢٩)

وإذا كانت قسوة المعتضد بن عباد قد أثرت سلبا في شخصية ولده المعتمد فوجدناه أبا حنونا رقيقا في معاملته لأبنائه، فان المعتمد قد تأثر ايجابا ببعض خصال أبيه فقد ورث عنه ملكته الشعرية الفائقة ونزعة الأدبية بل تفوق عليه في ذلك، فكان له في الأدب باع وساع ينظم وينثر، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء فتسابقوا (٣٠) إليه وتهافتوا عليه. ولسنا الآن في معرض الحديث عنه كشاعر متميز وانما ينصب اهتمامنا في هذا البحث على ابراز مايتعلق بحياته الأسرية، وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى حقيقة هامة وهي أن المعتمد ورث في جملة ماورثه عن أبيه من صفات، اهتمامه بالمرأة وحرصه على رعايتها ورفع منزلتها. لقد ورث المعتمد بن عباد هذا السلوك عن والده، فاذا كان المعتضد قد أجل ابنة مجاهد العامري زوجته وأم ابنه المعتمد، اجلالا كبيرا فحظيت عنده واحتلت مكانة أثيرة في قلبه ونفسه فان المعتمد بن عباد قد أجل زوجته اعتمادا اجلال فاق كل اجلال (٣١) فغلبت عليه وكان شديد الميل إليها حتى تلقب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها (٣٢). كما لقبت بأُم الربيع وعرفت بالسيدة الكبرى (٣٣) تعظيما لها وتقديرا لما كانت تحظى به من حب المعتمد لها، ولانعجب لهذه المكانة العالية التي كانت تنعم بها اعتماد الرميكية في نفس زوجها وتأثيرها البالغ عليه إلى حد أنها أوغرت صدره على ابن عمار صديق عمره ورفيق شبابه ووزيره عندما هجأها بقوله:

تخيرتها من بنات الهجين رميكية ماتساوى عقالا (٣٤)

ولهذا الهجاء أصل من الحقيقة فقد أوردت المصادر العربية الظروف التي التقى فيها المعتمد بن عباد باعتماد للمرة الأولى وأشارت إلى نشوب عاطفة رقيقة بينهما عبرت عن مدى رقة مشاعره، فيذكر المقرئ أن المعتمد كان يتنزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار في نهر الوادي الكبير، وكانت الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد فنظم المعتمد الشطر التالي:

«صنع الريح من الماء زرد»

وطلب إلى ابن عمار ان يكمل البيت فعجز الوزير الشاعر، فردت سيدة كانت

تراقبهما وصفها ابن عمار بأنها امرأة من الغسالات بقولها:

«أى درع لقتال لو جمد»

وقد أثار هذا الرد السريع دهشة المعتمد وأعجب لسرعة خاطرها وذكائها وخفة روحها فنظر إليها فاذا هى جميلة الوجه فأعجبته ووقعت فى قلبه موقعا حسنا وسألها ان كانت مرتبطة بالزواج فلما أجابت بالنفى طلبها للزواج^(٣٥) وقد أنجب المعتمد من اعتماد كل أولاده^(٣٦) ونعرف منهم من البنين أبا الحسين عبيد الله الملقب بالرشيد الذى كان والده يوليه أمر اشبيلية نيابة عنه وقد حمل مع أبيه إلى العدو بعد خلعها، وأبا بكر عبد الله المعتد وأبا نصر الفتح الملقب بالمأمون زوج زائدة، قتيل قرطبة، وأبا خالد يزيد الملقب بالراضى قتيل رندة، وسراج الدولة أبا عمرو عباد قتيل ابن عكاشة بقرطبة وأبا سليمان الربيع تاج الدولة وأبا هاشم العلوى زين الدولة، وعبد الجبار الثائر على المرابطين فى أركش ومالك ل اشبيلية^(٣٧).

أما بنات المعتمد من زوجته اعتماد فلانعرف منهن رغم كثرتهن سوى^(٣٨) بثينة. وتعتبر العلاقة الحميمة الشاعرية التى ربطت بين الزوجين، المعتمد واعتماد عن مدى انسانيته فى المقام الأول، فقد اختار للزواج جارية ويسببها زهد فى أميرات بيت عباد أو غيرهن من بنات الملوك فى عصر الطوائف. فقد تمثلت فيها صفات كان يحرص على توفرها فى المرأة التى سوف تشاركه حياته من ذكاء وفطنة ولباقة، هذا على الرغم من أن أمه كانت بنتا لأحد ملوك الطوائف فى حين أن اعتماد كانت مجرد جارية حتى انها لقبّت بالرميكية نسبة إلى سيدها رميك بن حجاج الذى^(٣٩) باعها للمعتمد وهو بعد أمير ولم يتردد المعتمد فى الزواج منها فى حياة أبيه.

ويشير ابن الأبار أن أباه لما علم بزواجهما ثار ثورة عارمة على ولده الذى فضل الجارية على أى امرأة من البيوتات الأندلسية العريقة فعزم المعتضد على عقابه والتنكيل به وخرج بالفعل من أشبيلية قاصدا شلب التى كان يتولاها المعتمد آنذاك، وكانت اعتماد قد أنجبت للمعتمد ابنه عبادا الملقب بسراج الدولة أكبر

أولاده. فلما بلغ المعتمد وصول أبيه إليه، أشار على زوجته أن تحسن استقباله، فرق قلب المعتضد لها وفتر عزمه على الايقاع بهما^(٤٠).

ويشير هذا الخبر إلى مدى عمق العلاقة بين الزوجين العباديين وإلى انسانية وشاعرية المعتمد الذى عرض نفسه لنقمة ابيه بما عرف عنه من جبروت وبطش فى سبيل زوجته التى أحبها وأثرها على غيرها.

ويورد المقرئ خبراً يؤكد ما نشير إليه من مشاعر المعتمد بن عباد الانسانية ورقته وحنانه كزوج، وتقديره لزوجته ولمشاكلها النفسية فذات يوم رأت اعتماد حشداً من النساء وقد وضعن أرجلهن فى معجن به طين لصنع الآجر فأخذت تنعى حظها الذى جعلها تفقد حرمتها وتمنت لو كانت حرمت من السلطان لتجيا حياة البسطاء وتعيش على سجيته مثل أولئك العاملات، فقدر المعتمد مشاعر زوجته وأحس بها كل الاحساس وراعى أنها تتوق إلى الحياة العامة وانها ضاقت ذرعا بحياة الأمراء فأمر باحضار كميات هائلة من المسك والعنبر فسحقت وذرت فى ساحة القصر حتى ملأته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدى حتى أصبحت كالطين فخاضت فيها اعتماد وجواربها وشعرت بسعادة غامرة^(٤١).

وذات يوم، اختلف الزوجان فأقسمت اعتماد الرميكية انها لم تر منه خيراً قط فسألها المعتمد مذاعباً «ولايوم الطين» فخجلت منه واعتذرت.

ويعلق المقرئ على هذه الحادثة الطريفة بقوله «ومصداق قول نبينا ﷺ فى حق النساء (لو احسنت إلى احداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت، ما رأيت منك خيراً قط).

وقد أشار المعتمد بن عباد فى أبياته الرائية إلى هذه الحادثة حيث قال فى بناته:

يطأن فى الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا^(٤٢).

وكان المعتمد يحرص فى كثير من أشعاره على الإشارة إلى زوجته اعتماد الرميكية من ذلك ما أورده ابن الأبار على لسان المعتمد وهو يحتسى كأسا من الخمر فقال:

تظن بنا ام الربيع سامة الا غفر الرحمن ذنبا تواقعه
أهجر ظبيا فى فؤادى كناسه وبدر تمام فى ضلوعى مطالعى
وروضة حسن أجتنيها وباردا من الظلم لم تحظر على شرائعه

وله فيها وضمن أوائل الأبيات حروف اسمها:

أغائبه الشخص عن ناظرى وحاضرة فى صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت منى صعب المرام وصادفت منى سهل القياد
مرادى أغياك فى كل حين فياليت أنى أعطى مرادى
أقيمى على العهد فى بيننا ولاستحيلى لطول البعاد(٤٣)
دست اسمك الحلو فى طيه والفت فيك حروف «اعتماد»

كما أشار إليها فى قصيدته التى رثى فيها ابنه المأمون والراضى والتى سبق أن أوردنا بعض أبيات منها فى الصفحات السابقة!

وظل المعتمد متيماً بحب زوجته الأثيرة مقيماً لها على العهد طوال فترة امارته إلى أن خلف أباه على مملكة اشبيلية فرفع من منزلتها بحيث أصبحت ترافقه فى معظم مجالسه الأدبية، وشاركت زوجها فى هوى الشعر ونظمه، واسهمت بنصيب وافر فى الارتقاء بالمستوى الادبى الرفيع الذى بلغته اشبيلية فى عهد المعتمد(٤٤). وكان المعتمد لا يطبق البعد عنها لاسيما فى مجالس أنسه وطربه التى تتخللها المطارحات الشعرية.

ولعل تعلق المعتمد الشديد بزوجته الرميكية وحنوه عليها واطلاقه لها حرية الاختلاط بالشعراء والأدباء فى مجالسهم، دفع البعض إلى الطعن فى أخلاقياتها وسلوكياتها فقد نقل لنا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى «وهى التى ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة حتى كتب أهل اشبيلية عليه بذلك

وبتعطيل صلوات الجمع عقودا ورفعوها إلى أمير المسلمين فكان من أمره ما كان وسجن
المعتمد بأغصات وسجنت الرميكية معه فمات هنالك قبله^(٤٥) وكانت نهايتها في غاية
السوء فقد نفى المعتمد وآله بأغصات وقضى البقية الباقية من عمره سجيناً مع زوجته
وبناته، غير أنها لم تتحمل ذل الأسر والاعتقال فسرعان ماذوت وتوفيت تاركة زوجها
غارقا في أحزانه يعاني مرارة الفراق ودفنت في ظاهر أغصات على مقربة من معتقل
المعتمد.

ولم يقتصر حنان المعتمد وغطفة على زوجته بل شملت نساء بيته جميعها، فكان
أبا عطوفا على بناته يخنو عليهن ويسعى جاهدا إلى إسعادهن، ولعله تأثر في ذلك بوالده
المعتضد الذي كان يحب إحدى بناته حبا جما حتى أنه مات حزنا عليها عقب وفاتها.

ومن الأمثلة المعبرة عن تعلق المعتمد بن عباد، الأب ببناته، ما ذكره المقرئ عن
المعتمد في أول عيد قضاه بأغصات عندما دخلت عليه بناته الجميلات «وعليهن أطمار
كأنها كسوف وهن أقمار يبيكين عند التساؤل ويدين الخشوع بعد التخلييل وضياح
الملك قد غير صورهن وحير نظرهن وأقدامهن حافية» فقال بعض الأبيات منها:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا	فساءك العيد في أغصات ماسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة	يغزلن للناس ما يملكن قطميرا ^(٤٦)
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطان في الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لا تخذ لا تشكى الجسد بظاهره	وليس الا مع الأنفاس ممطورا ^(٤٧)

أما بثينة ابنة المعتمد بن عباد التي ورثت عن أمها جمالها وموهبتها الشعرية فقد
كانت قد وقعت سبية عند دخول المرابطين اشبيلية، وعندما رحل أبواها مغربين إلى
أغصات، كان الحزن والأسى يعتصرهما عليها إذ كانا لا يعلمان ما آلت إليه أحوالها إلى
أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين أهل المغرب، وأخبرتهما بما أصابها، فقد
اشتراها أحد تجار اشبيلية على أنها جارية سرية ووهبها لولده ولكنها اصبرت على الزواج

رافضة أن تكون مجرد جارية، وأظهرت له سبها واشترطت أن يوافق والدها المعتمد على زواجها وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها انتظارا لجوابه وكتبت بخطها عدة أبيات منها:

فخرجت هاربة فحازني امرو لم يأت في اعجاله بسداد
اذ باعني بيع العبيد فضمني من صـانني الا من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجـل طاهر حسن الخلائق من بني الأنجاد
ومضى اليك يوم رأيك في الرضا ولانت تنظر في طريق رشادي
فمساك يا ابنتي تعرفني به ان كـسان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعولنا باليمن والاسعاد (٤٨)

فلما وصل شعرها لأبيها وهو يعاني ذل الاسر باغمات أسعده المصير الذي انتهت إليه ابنته وتوفيقيها في الزواج من رجل فاضل يقدرها فكتب إليها والدها ناصحا لها بقوله بنيتي كـوني به بره فقد قضى الدهر باسعافه (٤٩)

وتشير المصادر إلى رفق المعتمد بن عباد بجواريه وقيل أنه ترك بعد أن خلع عن عرشه ثمانمائة سيدة ما بين أمهات أولاد واماء خدمة (٥٠).

ومن الأمثلة الدالة على ترفق المعتمد بجواريه الخبر الذي أورده المقرئ من أن المعتمد جلس يوما وبين يديه جارية تسقيه وهي تقابل وجهها بنجم الكاسر في راحة كالثرثرا واتفق أن لعب البرق بحسامه فارتاعت لخطفته فقال المعتمد يلاطفها:

روعها البرق وفي كفها برق من القـهـوة طاع
عجبت منها وهي شمس الضحى كـيف من الأنوار ترتاع (٥١)

ويشير ابن خلكان إلى خبر مفاده أن المعتمد عزم ذات يوم على ارسال حفلاياه من قرطبة إلى اشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح فودعهن ورجع وأنشد ابائا من جملتها:

سايرتهم والليل غفل ثوبه حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثم مودعا وتسلمت منى يد الاصباح تلك الانجما

وله في وداعهن أيضا:

ولما وقفنا للوداع عـدية وقد خفقت في ساحة القصر رايات
بكينا دما حتى كأن عيوننا يجرى الدموع الحمر منها جراحات (٥٢)

وتوفي المعتمد بن عباد سنة ٤٨٨ هـ في سجنه بقلعة أغمات بعد اعتقال دام أربع سنوات، وكان قد بلغ من العمر ٥٧ عاما ودفن بظاهر اغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية مختتما بذلك حياة تقلبت مابين عز وذل وملك واسر، ضرب خلالها وفي كل الاحوال أروع الامثال للإنسان أبا وزوجا فاستحق بجدارة أن يكون مثالا أعلى للأب الرحيم بأبنائه والزوج الوفي، وهي صفات جعلت منه رمزا للترابط الاسرى بين الناس ونموذجا صادقا لما يجب أن يتحلى به الملوك بحيث يستحق أن يطلق عليه ملك ملوك الطوائف في الأندلس.

الحواشي:

- ١- ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص ٥٣.
- ٢- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال بيروت، ج٣، ص ٢٠٨ - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٤٣ - ٤٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المراتبي، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٦٧.
- ٣- ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٤٠.
- ٤- المصدر السابق، ص ٤١، وأرجع كذلك إلى ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، بيروت، ج٥، ص ٢٣.
- ٥- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٦.
- ٦- لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، راجع ابن بسام الشتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، بيروت، القسم الثالث، المجلد الأول، تحقيق احسان عباس ١٩٧٩، ص ١٤٤ ومايلها - محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٥٠ ومايلها.
- ٧- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٧.
- ٨- ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٤٣، وعن قصائده في والدها مجاهد العامري، راجع، ص ٤٧، وعن شعره لأنها على بن مجاهد راجع ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٨.
- ٩- لمزيد من التفاصيل راجع ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٥٣.
- ١٠- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٨ - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٤٣.
- ١١- ابن عذارى، البيان، ج٣، ص ٢٠٨.
- ١٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٢٤.
- ١٣- ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٥٤، ص ٥٥.
- ١٤- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٥٧.
- ١٥- ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٦٢.

١٦- لمزيد من التفاصيل راجع ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ١٥٨ ، محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٦١ .

١٧- ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٦٢ .

والمأمون بن عباد هو زوج زائدة المسلمة التي امتلأ قلبها حقدا على قاتلي زوجها فرحلت باحثة عن ملاذ لها في مملكة الفونسو السادس وهناك ارتدت عن الإسلام واعتنقت المسيحية وتزوجت الفونسو السادس وانجبت له ولده الوحيد سانشو الذي لقي مصرعه سنة ١١٠٨م في موقعة اقليش (لمزيد من التفاصيل راجع ليقي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، الإسكندرية، ١٩٩٠، مقال زائدة المسلمة، ص ١٥٢ - ١٦٤).

١٨- ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٧٠، وارجع كذلك إلى المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج ٥، ص ٣٨٢ .

١٩- ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٧١ .

٢٠- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٤٣ .

٢١- المقرئ، نفع الطيب، ج ٥، ص ٣٨٤، ٣٨٥ .

٢٢- ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٦٨، وارجع المقرئ، ج ٥، ص ٣٧٩ .

٢٣- ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٧٠ .

٢٤- حصن يقع جنوبي اشبيلية وشرقي شريش. ويذكر المقرئ أن اعتماد قد لحقت بولدها في أركش، ج ٥، ص ٣٤٩ .

٢٥- عن البيان المغرب من أوراق مخطوطة عثر بها في خزانة القرويين بفاس راجع المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٥، ص ٣٤٩ وارجع كذلك ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ١٦٤، عنان، المرجع السابق، ص ٣٦١، ٣٦٢ .

٢٦- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، أوبسالة، ١٨٤٣، ص ١٠٠ .

- ٢٧- المراكشى، المعجب، ص ١٤٣
- ٢٨- ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٦١
- ٢٩- المقرئ، نفع الطيب، ج ٥، ص ٢٨٣، ٣٥٠
- ٣٠- ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٥٥.
- ٣١- المصدر السابق، ص ٦٢.
- ٣٢- نفسه، ص ٦٢.
- ٣٣- نفسه، ص ٦٢.
- ٣٤- نفسه، ص ٦٣.
- ٣٥- المقرئ، نفع الطيب، ج ٥، ص ٣٤٢ - عبد الهادى التازى، المرأة فى الغرب الإسلامى، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص ١٨٧.
- ٣٦- وان كان ابن الخطيب يؤكد أنها أم أربعة من أولاده فقط (أعمال الإعلام ص ١٥٩).
- ٣٧- ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٦٢، وراجع كذلك المقرئ، نفع الطيب، ج ٥، ص ٣٧٩.
- ٣٨- المقرئ، نفع الطيب، ج ٦، ص ٢٠.
- ٣٩- ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٦٢.
- ٤٠- ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٧١.
- ٤١- المقرئ، نفع الطيب، ج ٦، ص ٩.
- ٤٢- المصدر السابق، ج ٦، ص ٩. ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذر الطيب فى قصورهم حتى يطؤه باقدامهم زيادة فى التمتع.
- ٤٣- ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٦٠-٦١.
- ٤٤- عنان، المرجع السابق، ص ٦٧.
- ٤٥- نفسه، ص ٣٥٨.

٤٦- فى ذلك اشارة إلى أن بنات المعتمد كن يعملن بغزل النسيج للانفاق على والديهن واكد ابن

خلكان ذلك وأشار إلى أن احداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذى كان فى خدمة ابيها وهو

فى السلطان (ابن خلكان ج٥، ص ٣٥، وكذلك ابن الخطيب، فى أعمال الأعلام، ص ١٦٤

٤٧- المقرئ، نفع الطيب، ج٦، ص ١٠

٤٨- المهذب السابق، ص ٢١.

٤٩- نفسه، ص ٢١.

٥٠- ابن الأبار، الحلة، ج٢، ص ٥٥.

٥١- المقرئ، نفع الطيب، ج٥، ص ٣٩٥.

٥٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٢٥

علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها

علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها

(١) عمق العلاقة بين مصر والأندلس حتى مطلع القرن التاسع الهجري:

كانت علاقة مصر بالأندلس وثيقة للغاية طوال العصر الإسلامي، وساعدت على توثيق هذه الروابط عوامل كثيرة، على رأسها عامل التجارة، فموقع مصر في قلب العالم الإسلامي، أتاح لها المجال أن تتبوأ مكانة سامية وأهمية سياسية واقتصادية واستراتيجية، كما هيأ لها الفرصة في أن تكون الوسيط التجاري بين الشرق الأقصى مصدر التوابل والكارم عصب التجارة العالمية في العصور الوسطى، وبين الغرب الإسلامي والأوروبي^(١). كما كان لإطلال مصر بموانئها وأهمها الإسكندرية^(٢)، على البحر الأبيض المتوسط، أعظم الأثر في ارتباطها الوثيق بتجاريا وعلميا واجتماعيا بالمغرب والأندلس، مما دعا العديد من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن بحر الاسكندرية ينتهي عند المحيط الأطلسي. كذلك هناك من يرى أن وحدة البحر المتوسط في العصر الروماني قد تجددت مرة أخرى، بدءا من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بفضل نشاط حركة التجارة بين موانئ هذا البحر المختلفة^(٣)، فقد كان يربطها بموانئ الأندلس وتونس^(٤)، والمغرب الأقصى خط ملاحى مباشر يحاذى الساحل الشمالى للقارة الأفريقية.

(١) راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٥٥ ومايليها - سحر السيد عبد العزيز سالم، «تجارة عمان في الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طلعة القرن السابع الهجري»، بحث من أبحاث ندوة العلاقات العمانية/ المصرية، مسقط، ١٩٩١، ص ٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٢٥٧ ومايليها - حسين مؤنس، «أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط»، في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول، مايو ١٩٥١، ص ٥١١.

- Viajes De Benjamin of Tudela, Madrid, 1918, p. 115.

(3) Kruger, "The Wars of Exchange", in Speculum 12, 1973, p. 57-Goitein, A Mediteranean Society, Vol: 1, Berkelley, 1967, p. 61, 212 - 215 - Goitein, Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966, p. 297.

- سحر السيد عبد العزيز سالم، مظاهر الحضارة في بطليوس الإسلامية، رسالة دكتوراه، الإسكندرية ١٩٨٧، ج ١، ص ٤٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٤٩.

كذلك كان العامل الديني، أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى تعميق الصلة بين مصر وبلاد المغرب الإسلامي، فقد كان حجاج المغرب والأندلس يؤثرون الرحلة البحرية إلى الإسكندرية، ثم ينتقلون منها إلى القاهرة أو الفسطاط ليركبوا السفن النيلية، وتبحر بهم جنوباً حتى يصلوا إلى قوص حيث كانت تنتظرهم القوافل البحرية لتعبر بهم وادي العلاقي إلى ميناء عيذاب المطل على البحر الأحمر، ومن هناك يركب الحجاج الجلبيات التي كانت تعبر بهم البحر الأحمر وترسو بساحل جدة ومنها إلى مكة المكرمة^(١). هذا بخلاف طريق الحج البري الذي كان يخترق شبه جزيرة سيناء إلى آيلة ثم إلى الحجاز بحداء الساحل، وأن كان قد أبطل استخدامه في فترة الحركة الصليبية تأميناً لسلامة الحجاج والمشتغلين بالتجارة الكارمية.

ولا يمكن كذلك أن نغفل العامل العلمي والثقافي، فطلب العلم كان دائماً هدف علماء المسلمين في العصور الوسطى، وكان عالم الأندلس يتجشم انخراط السفر ومتاعبه ليلتقى بشيوخ مصر في مراكزها العلمية المختلفة مثل القاهرة أو الفسطاط أو الإسكندرية أو قوص وغيرها على نحو ما كان متبعاً في كثير من المراكز العلمية بالشرق الإسلامي كبغداد، حاضرة الخلافة العباسية والبصرة والكوفة ودمشق وحلب ومكة والمدينة وغيرها. وقد امتزج مفهوم العلم في العصر الإسلامي بالتجارة، فكثير من علماء الأندلس والمغرب كانوا يرحلون إلى المشرق طلباً للعلم، وفي الوقت ذاته سعياً للتكسب من التجارة.

(١) ابن جبير، الرحلة، تحقيق ولیم رایت، لیدن ١٩٠٧، ص ٦٥. (كان طريق التجار الكارمية هو نفسه طريق الحجاج وكانت عيذاب تستقبل أفواجا من كل منهما) ارجع إلى المقرئ، الخطط، طبعة بيروت، ج ١، ص ٣٥٦. وبما يؤكد هذه الروابط التجارية ما ذكره القشتالي في تحفة المغترب ببلاد المغرب في سياق حديثه عن كرامات الولي أبي مروان عبد الملك بن إبراهيم القيسي اليعنسي نسبة إلى بلدته Ohanes في إقليم المرية بالأندلس الذي يروى أنه انفصل عن رفاقه في رحلة إلى الإسكندرية ومنها إلى عيذاب ثم ركب من هناك مركباً إلى جدة. وقد عاش هذا الولي في القرن السابع الهجري، وتوفي سنة ٦٦٧ هـ (القشتالي «أحمد بن إبراهيم الأزدي»، تحفة المغترب ببلاد المغرب، تحقيق د. فرناندو دي لاجرانخا، مدريد، ١٩٧٤، ص ٢٢: ٢٣).

وكان سقوط طليطلة حاضرة بنى ذى النون من ملوك الطوائف فى الأندلس فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة وليون ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ضربة أصابت دويلات الطوائف فى الأندلس، وتهديدا مباشرا للإسلام فى أسبانيا، سجلت اندفاعا سريعا وقويا لحركة الاسترداد الاسباني La Reconquista . وادى سقوط مملكة طليطلة وبعض مدن غرب الأندلس إلى هجرة عدد من الأندلسيين إلى المشرق الإسلامى، كما ترتب على ذلك انبعاث حركة دينية واسعة النطاق فى الأندلس، أثرت الاستعانة بقوى المرابطين فى المغرب للتصدي لقوى المسيحية فى أسبانيا، والذب عن الإسلام، وقدر للمرابطين أن يخلصوا الأندلس من سقوط أكيد، فأعادوا الأندلس إلى سابق وحدتها السياسية، وسخروا قدراتهم للدفاع عن الإسلام فى الأندلس، واحرزوا على القوى المسيحية فى أسبانيا، انتصارات متلاحقة فى الزلاقة الأولى وأقلش وافرغه والزلاقة الثانية والبكار، إلى أن تدخل الموحدون، استجابة لبعض ثوار غرب الأندلس على المرابطين، عسكريا ضد المرابطين وتمكنوا من بسط سلطانهم على الأندلس، منذ عام ٥٤٠ هـ، وحققوا بدورهم انتصارا حاسما على القشتاليين فى الارك سنة ٥٩١ هـ اعقبته هزيمة نكراء فى العقاب سنة ٦٠٩ هـ، لم يبق للمسلمين فى الأندلس قائمة تحمد وأخذت قواعد المسلمين فى الأندلس على أثرها تتساقط الواحدة بعد الأخرى، ومع بداية انكماش الوجود الإسلامى بأسبانيا بتساقط قواعد، ازدادت اعداد أهل الأندلس الذين آثروا الهجرة من بلادهم على البقاء فيها مدجنين فى ظل السيطرة المسيحية. كما أنف عدد كبير من شيوخ الأندلس ومفكرها الخضوع للملك قشتالة وليون وأرغون والبرتغال فهاجر العدد الأعظم منهم إلى بلاد المغرب وقدم عدد من هؤلاء المهاجرين إلى مصر، يحثون سلاطينها الماليك على انقاذ ماتبقى من الأندلس^(١) وتزخر كتب التراجم والمصادر التاريخية والأدبية بأسماء عديد من الشخصيات الأندلسية التى وفدت إلى مصر بعد

(١) السيد عبد العزيز سالم، المأذن المصرية منذ الفتح العربى حيث الفتح العثمانى، الإسكندرية، ١٩٨٣،

سقوط طليطلة أغلبهم من العلماء وعلية القوم من أشهرهم على سبيل المثال لا الحصر، أسرة ابن حديد التي تولى أحد أفرادها وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد ابن عبد المجيد منصب قاضى الإسكندرية فى العصر الفاطمى، ويرى الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم أنه أندلسى الأصل من أسرة ابن الحديدى الطليطلية التى تولى أحد أعيانها الوزارة^(١) لبني ذى النون، كما قام أحد أفرادها وهو القاضى أحمد بن حديدى بإنشاء مسجد باب المردوم بطليطلة سنة ٣٩٠هـ، ومن أشهر العلماء الذين زاروا مصر ونزلوا بالإسكندرية واستوطنوها الفقيه العالم الشيخ أبو بكر محمد الطرطوشى الذى دخل القاهرة ٥١٦هـ وعاش بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٢٠٥هـ فى قول، وسنة ٥٢٥هـ فى قول آخر، وله ضريح كان مازال قائما حتى سنة ١٩٨٧ ثم هدم وأقيم فى موضعه مسجد حديث، وكان المقرئ قد ذكر أنه زاره مرارا^(٢). ومن نزل الإسكندرية الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن محمد بن سليمان المعافى الشاطبى الذى زار مصر عقب سقوط شاطبة سنة ٦٤٤هـ، وعاش بالإسكندرية منقطعاً للعبادة فى رباط سوار، توفى بها فى رمضان سنة ٦٧٢هـ، ودفن فى تربته، ولا يزال أحد أكبر أحياء الإسكندرية يحمل اسمه إلى يومنا هذا^(٣). وقد اورد «السيوطى» فى كتابه حسن المحاضرة «اسماء عديدة من علماء الأندلس

(١) ابن بسم، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، المجلد الأول، القسم الرابع، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١١٨ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، تحقيق ليفى بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٧٧، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢١٦: ٢١٧.

(٢) راجع ترجمة الطرطوشى، ابن بشكوال، كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، مدريد، ١٨٨٣، مجلد ٢، ص ٥١٨ - الضبى، بنية الملتبس فى تاريخ رجال الأندلس، تحقيق كوديرة، مدريد، ١٨٨٥، ص ١٢٥: ١٢٨، السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر، ١٣٢١، ص ١، ص ٢١٣، المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩، تحقيق محى الدين عبد الحميد، ج ٢، ص ٢٩٣.

- Ara - Francisco Pons Boigues, Ensayo bio - bibliografico Sobre Los Historiadores Geografos bigo-espanoles, Madrid, 1898, p. 183.

- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٢٣ - جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠٠: ٥٠.

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٧٩.

من زاروا مصر في القرنين السادس والسابع للهجرة، أشهرهم أبو الحجاج يوسف ابن عبد العزيز الميوقى (ت ٥٢٣هـ) الذى استوطن الإسكندرية^(١)، والقاسم بن خيرة بن خلف الشاطبى المقرئ الضير (توفى بمصر سنة ٥٩٠هـ)^(٢)، وابن وثيق شيخ القراء أبو اسحق إبراهيم بن محمد الأموى الاشبيلى الذى رحل إلى المشرق وزار الشام، واستقر بمصر حيث توفى بالإسكندرية ٦٥٤هـ. ومن المعروف أن سقوط اشبيلية فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة تم فى عام ٦٤٦هـ^(٣). وهناك ابن دحية الإمام أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى السبتي الذى كان بصيرا بالحديث ودرس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة وتوفى بها سنة ٦٣٣هـ^(٤) وفتح الدين بن سيد الناس الأندلسى الأصل والذى درس الحديث بالظاهرية وتوفى فى مصر سنة ٧٣٤هـ^(٥)، وأبو اسحاق إبراهيم بن عيسى المرادى الأندلسى الذى توفى بمصر سنة ٦٦٨هـ^(٦)، وإبراهيم بن على بن عبد الغفار الأندلسى ثم القنائى الذى مات بقنا سنة ٦٥٦هـ^(٧)، والشيخ أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى شيخ الإسكندرية ورأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ت ٦٨٦هـ) ودفن برباطه ويعتبر المسجد الذى يحتوى على ضريحه أشهر مساجد الإسكندرية فى عصرنا الحاضر^(٨) على الاطلاق. وهناك الإمام أبو حيان اثير الدين الأندلسى

(١) السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٨، ومن المعروف أن طليطلة سقطت فى يد الفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م). أما ماردة فسقطت فى سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) وقرطبة فى ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) وبلنسية فى ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) ودانية فى سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) وجيان فى سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٦م) وشاطبة فى سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٧م) واشبيلية فى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) أما سقوط الجزيرة الخضراء فتم فى سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م)، (ارجع إلى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، القاهرة ١٩٨٣، ص ٣٠١، ومايلها وكذلك انطونيو دومينغيز هورثز، وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، الدوحة، ١٩٨٨، ص ٣.

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٦) نفسه، ص ١٩٤.

(٧) نفسه، ص ٢٤٧.

(٨) نفسه، ص ٢٤٩.

الغرناطي (ت ٧٤٥م) الذي رحل إلى مصر وأخذ على عدد من شيوخها^(١). ومن أشهر من زار مصر من علماء الأندلس، محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي الوادياشي الأندلسي الذي زار مصر ودرس على عبد الرحمن بن مخلوف بالإسكندرية، كما جال في البلاد الشرقية وعاد إلى تونس حيث توفي سنة ٧٤٩هـ^(٢)، ومحمد بن غالب بن يونس بن غالب الانصاري الأندلسي الجياني، الذي زار مصر عقب سقوط جيان في يد فرناندو الثالث، وأدى فريضة الحج وتوفي بها سنة ٧٠٣هـ^(٣) ومنهم أيضا الشاعر الطبيب الأديب أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجلياني من جليانة من أعمال غرناطة، نبغ في الطب في ظل الموحدين ثم رحل إلى المشرق وطاف بمصر والشام في القرن السابع الهجري^(٤). هذا وقد شاهد القرن الثامن الهجري بدوره ظهور عدد كبير من علماء الأندلس في مصر منهم محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الشريشي القنائي الذي ناب بقطر وادفو وأسوان وعيذاب وتوفي سنة ٧٠٥هـ^(٥). ومحمد بن سهل الأزدي الغرناطي، وكان أبوه رئيسا لغرناطة، زار مصر في طريقة إلى مكة لاداء فريضة الحج، وتوفي بمصر بعد ادائه الحج سنة ٧٣٠هـ^(٦). أما محمد بن محمد بن محمد بن أحمد اليعمرى (ابن سيد الناس الاشبيلي، فقد كان من بيت رياسة في بلاده، وكان ابن عمر قائدا وحاجبا باشبيلية ولد سنة ٦٧١هـ أى بعد سقوط أشبيلية بنحو ٢٥ سنة ورحل أبواه إلى مصر حيث نشأ محمد اليعمرى نشأة علمية وسمع على شيوخها واجيز، وتولى التدريس بالجامع الطولوني وتوفي سنة ٧٣٤هـ^(٧). وعلى بن أحمد

(١) نفسه، ص ٢٥٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، طبعة القاهرة، ج ٤، ص ٣٣، ترجمة ٣٦١٨.

(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٠، ترجمة ٤٢١٤.

(٤) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٥٩.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٣٣٧، ترجمة ٤٤٤٣.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٩٦، ترجمة ٤٣٤٧.

(٧) نفسه، ص ٣٣٠، ترجمة ٤٤٣٧.

ابن حديدة الأندلسى الذى ولد فى حدود سنة ٦٦٥هـ وعاش بالإسكندرية وعمر بها عدة زوايا وتوفى ببيت المقدس سنة ٧١٩هـ^(١)، ومحمد بن عثمان الغرناطى الذى ولد سنة ٦٨٠هـ وزار مصر وتوفى سنة ٧٥٢هـ^(٢) ومحمد بن على الرندى الذى عمل مؤذنا بجامع مصر وتوفى سنة ٧٣١هـ^(٣) ومحمد بن البلوى الأندلسى أبو الحسن الذى زار القاهرة فى طريقه للحج وتوفى سنة ٨٨٧هـ^(٤)، وقد ظهرت آثار هذا التوافد الأندلسى المتزايد على مصر فى الفنون المعمارية والزخرفية بمصر على مدى العصر الإسلامى. ففى جامع أحمد بن طولون على سبيل المثال، نجد أن الاصلاحات التى اجريت فى مئذنته فى عهد السلطان المملوكى حسام الدين لاجين ٦٩٦هـ ١٢٩٦م تحمل طابعا اندلسيا، فهناك قنطرة من البناء تصل بين الجدار الشمالى للمسجد والمئذنة، يحملها عقدان متجاوران لنصف الدائرة من نفس طابع العقود القرطبية، وتتكىء قبوة هذه القنطرة على كوابيل ذات لفائف من نوع الكوابيل القرطبية، ويقترّب كثيرا من شكل عقد المحراب بجامع قرطبة وتحيط به تربيعة مستطيلة الشكل على الطراز الأندلسى، وتتفق العقود جميعها فى نسبها ومواقعها ومراكزها وتشيع سنجاتها مع العقود الأندلسية الخلافية من نفس طراز قرطبة، وتزدان الأوجه الأربعة للطابق الأول من مئذنة ابن طولون بعقدين توأمين مزدوجين تحيط بهما تربيعة. كل ذلك يؤكد أن أحد الفنانين القرطبيين ربما من بين من نرحل إلى مصر بعد سقوط قرطبة فى ايدى القشتاليين، تولى تجديد المئذنة فى العصر المملوكى بمشاركة فنانين مصريين^(٥) ووضع بصماته الأندلسية عليها. كذلك نشهد فى مئذنة مدرسة المنصور قلاوون بعض التأثيرات الأندلسية ممثلة فى أعلى القاعدة المربعة، اذ نرى افريزا من المقرنصات

(١) نفسه، ج ٣، ص ٨٠، ترجمة ٢٦٥١.

(٢) نفسه، ج ٤، ص ١٦٣، ترجمة ٣٩٩٥.

(٣) نفسه، ج ٤، ص ٣٢٥، ترجمة ٤٤٢٠.

(٤) نفسه، ج ٤، ص ٣٥٠، ترجمة ٤٤٧٤.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص ١٦: ١٧.

يشبه افريز العقود المتجاورة المتشابكة الذى نشهده فى مئذنة جامع اشبيلية وغيرها من مآذن الموحدين، بل أن الطابق الثانى يكشف بجلاء عن هذا التأثير فى افريز العقود ثلاثية الفصوص، كما أن الطابق الأخير يمثل شبكة من المعينات تشبه ذلك النوع من التشبيكات التى ظهرت فى واجهة بهو الجص بقصر اشبيلية وزخارف المعينات بالجيرالدا. كذلك تتمثل هذه التأثيرات الأندلسية فى تفاصيل الزخرفة الجصية بمئذنة مسجد الناصر محمد بالنحاسين، وعقود مئذنة ضريح الاميرين سلاور وسنجر الجاولى. ويمثل تناوب الألوان بمئذنتى المنصور قلاوون وسلاور وسنجر تقليدا أندلسيا مغربيا واضح المعالم، سبق أن ظهر فى جامع الزيتونة بتونس سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤م)، وجامع قرطبة سنة ١٧٠ هـ ومسجد باب المردوم بطليطلة^(١).

هذا وكانت تربط السلطان الناصر محمد بن قلاوون صلات طيبة بالسلطان ابنى الحسن على بن عثمان بن يعقوب المرينى صاحب فاس ومن المعروف ان السلطان أبى الحسن على المرينى كان من أعظم المجاهدين من بين سلاطين بنى مرين وأكثرهم حماسا لحماية ماتبقى من دولة الإسلام فى الأندلس والذب عن الإسلام. وفى سنة ٧٣٨ هـ ارسل السيدة الحرة والددة اخته فى موكب إلى مصر فى طريقها إلى مكة لاداء فريضة الحج، وقد حملت معها من الهدايا والحلى الكثير، من ذلك مصحف خطه السلطان بيده واستقبلها الناصر محمد بن قلاوون افخم استقبال ورد على هدية سلطان المغرب بهدية نفيسة^(٢). وفى سنة ٧٤٥ هـ عاود السلطان أبو الحسن المرينى مكاتبة سلطان مصر آنذاك السلطان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وشكا له فى رسالته من ضياع ثغر الجزيرة الخضراء من ايدى

(١) المرجع السابق، ص ٢٩ : ٣١.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الزيارة والهدايا التى قدمها الوفد المغربى، ارجع إلى المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثانى، القسم الثانى، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩١٤، ص ٤٤٧. ويرى المقرئى ان السيدة الحرة هى ابنة السلطان ابنى الحسن على المرينى، وارجع كذلك إلى ص ٤٦٠، فى احداث عام ٧٣٩ هـ عند عودة الحرة المغربية من الحج، المقرئى، نفع الطيب، ج ٦، ص ١٣٨، ١٣٩، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٢٨ ومايلها.

مسلمى الأندلس فى ربيع أول سنة ٧٤٤هـ، كما ذكر له فى رسالته انه فقد أحد أبنائه فى جهاده مع أبناء الأندلس ضد النصارى وانه ينوى رغم ذلك مواصلة مدافعة النصارى الاسبان والجهاد^(١)، وقد رد عليه سلطان مصر فى رمضان سنة ٧٤٥هـ كتابا رقيقا، يعزى فيه ويدى اسفه على سقوط الجزيرة الخضراء، ويذكره بأن الحرب سجال ويدى اغتباطه لاحتفاظ المسلمين بجبل طارق.

أما سلاطين الأندلس فقد حرصوا على مداومة الاتصال بسلاطين مصر المملوكية، من ذلك الرسالة التى أرسلها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٢ - ٧٥٥هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤م) إلى سلطان مصر الصالح عماد الدين اسماعيل (٧٤٣-٧٤٦هـ / ١٤٣٢-١٣٤٥م) يستنجد به ويستنصره ضد نصارى اسبانيا. إلا أن السلطان المملوكى اكتفى بأن قدم له امانيه الطيبة^(٢) كذلك أرسل السلطان محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥-٧٦٠هـ / ١٣٥٤ - ١٣٥٩م) إلى المنتصور أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون رسالة من انشاء لسان الدين ابن الخطيب، يصف لسلطان مصر فيها، الظروف السيئة التى كان يتعرض لها الإسلام فى الأندلس.

كما أرسل السلطان محمد الخامس، رسالة أخرى إلى يلبغا الخاصكى الذى كان يمسك بزمام السلطة فى زمن السلطان المملوكى الملك الأشرف شعبان بن

(١) المقرئى، السلوك، الجزء الثانى، القسم الثالث، ص ٦٧٠ وعن الخطاب الذى أرسله الملك أبو الحسن على المرىنى مع السيدة الحرة اخته سنة ٧٤٥هـ، ارجع كذلك إلى المقرئى، نفع الطيب، ج٦، ص ١٣٩-١٤٠- محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٢٨ ومايليهها. ولزيد من التفاصيل عن هزيمة المرىنيين فى موقعة طريف البحرية أو نهر سلاو التى دارت فى ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ بين الاسطول الارغونى والقشتالى والبرتغالى، وبين اسطول المرىنيين والغرناطين، ارجع إلى أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٤١٨ - ٤٢٠.

(٢) لزيد من التفاصيل، ارجع إلى أحمد الطوخى، الممالك والأندلس، دراسة فى العلاقات السياسية والعلمية والاقتصادية والفنية، الاسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٣.

الناصر محمد بن قلاوون، وفيها يسرد السلطان الغرناطى، أخبار انتصاراته على القشتاليين، كما يطلب المعونة من سلطان مصر، وقد رد الاشرف شعبان على رسالة السلطان الغرناطى ردا طيباً^(١). هذا وتتمثل مشاعر الود القائمة بين سلاطين غرناطة وسلاطين مصر وتعبر عن روابط الاخوة الوثيقة التى تربط بين الشعبين الغرناطى والمصرى، فى رد الفعل الأندلسى على الغزوة الغادرة التى قام بها القبارصة على ثغر الاسكندرية وفيها اقتحم القبارصة مدينة الاسكندرية من البحر وعاثوا فسادا فى المدينة وانتهبوا ثرواتها ودمروا عمرانها وقتلوا الكثير من اهلها، مما دفع السلطان الغرناطى عبد الله الغنى بالله محمد الخامس سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) إلى الاقدام على مهاجمة جيان (Jaen) التى كانت تابعة لقشتالة منتهزا فرصة انشغال ملكها بدور الأول بمحاربة أخيه غير الشرعى انريكى دى تراسمارا. وفى هذه الغارة اطلق عسكر غرناطة أثناء هجومهم هذا عبارة (ياشارات أهل الإسكندرية) وهذه العبارة تعبر عن شىء واحد لا يمكن لعربى أن ينسأه أو يتناساه فى أى عصر من العصور وتحت أى ظرف من الظروف وهو ان المسلمين من مشارق الأرض إلى مغاربها كانوا يدا واحدة وقلبا واحدا^(٢). وقد أورد النويرى قصة رجل مصرى من قرية مليج بمصر، كان بالاسكندرية وقت هجوم القبارصة عليها سنة ٧٦٧هـ فوقع اسيرا فى يد رجل اسباني كان مشاركاً فى الحملة، وانتقل مع بقية الأسرى المسلمين إلى أوروبا وطاف فى البلاد حتى وصل مع الأسباني الذى أسره إلى جيان، فلما استولى السلطان محمد الخامس على جيان، وقع هذا الأسير المصرى فى يده، ودار بينه وبين السلطان حوار، اطلق السلطان بعده

(١) نفس المرجع، ص ١٤-١٥، السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، ص ٢٩. وعن كل من السلطان أبى الحجاج يوسف الأول، ومحمد الخامس، ارجع إلى يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٣: ٤٦.

(٢) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، بتحقيق محمد بن ناويث، القاهرة، ١٩١٥، ص ١٩٢ - القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٥، ج ٦، ص ٥٥١.

سراحه وافتداه، وسمح له بالرجوع إلى مصر فى صحبة الركب المغربى القادم لفريضة الحج^(١) وأكد الأندلسيون أن سلطان غرناطة رفض عرضا بالصلح قدمه له ملك قشتالة احتجاجا على هجوم القبارصة على مصر^(٢).

٢- أسباب انهيار سلطنة غرناطة:

إذا أردنا أن نقيم تاريخ مملكة غرناطة ونتعرف على الأسباب التى أدت إلى سقوطها، لا ينبغي أن نوجه اللوم على أهلها وحدهم أو حكامها الذين انقسموا على أنفسهم وتفرغوا لخلافاتهم الأسرية، وإنما يجب أن نوجهه أيضا إلى أخوتهم فى العروبة والإسلام، الذين تخاذلوا عن نصرتهم وانقادهم. لقد كانت الظروف الداخلية والخارجية التى سبقت غرناطة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م خطيرة تنذر بالنهاية المحتومة. فعلى الصعيد الداخلى فى الأندلس، نجد أنه بعد هزيمة الموحدين فى موقعة العقاب ٦٠٩هـ / ١٢١٢م أخذت المدن الأندلسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بعد أن عجز حكام الأندلس عن إيقاف المد الصليبي الجارف، وأمام هذه الأخطار الداهمة حاول بعض الشوار على الموحدين أن يتماسكوا. ومن هؤلاء ابن مردينش وابن هود ومحمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر صاحب حصن ارجونة، وقد اشتدت المنافسة بين كل من ابن هود وابن الأحمر، وانتهى الأمر بأن تمكن محمد بن الأحمر من دخول غرناطة مؤسسا فيها دولة «بنى الأحمر»، أو بنى نصر سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م ومالبثت مملكة أن دخلت فى طاعة ابن الأحمر ٦٣٥هـ وذلك بعد مقتل ابن هود فى المرية. وبذلك امكن لابن الأحمر أن يجمع أشلاء الأندلس الممزقة ويجعل منها دولة استطاعت أن تصمد أمام حركة الاسترداد قرنين من الزمان. وكانت مملكة غرناطة تمتد من جيان وبياسة جنوبا حتى البحر وشرقا حتى المرية وغربا حتى مصب الوادى الكبير، وكان يشقها

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى أحمد الطوخى، الممالك والأندلس، ص ٢٠: ٢١

(٢) نفس المرجع، ص ٢١

وادي شنييل وحدره، وكان يطل عليها جبل شليير المعروف بسيرا بيفادا وهضبة البشرات^(١).

ويرجع الفضل في مقاومة غرناطة لحركة الاسترداد هذه الفترة الطويلة، إلى تماسك الجبهة الداخلية في بداية قيام هذه الدولة، وتنازع الممالك المسيحية في الشمال، وكذلك مساعدات بنى مرين المتواصلة ووفود المجاهدين المغاربة إليها للجهاد. بفضل كل هذه العوامل، تمكن الغرناطيون من صد الهجمات الاسبانية الشرسة^(٢) ولكن الظروف تغيرت، بعد ذلك اذ تفرغ أبناء البيت النصرى للقتال والتصارع من أجل العرش الهش. ولعل خير مثال على ذلك ماحدث زمن السلطان أبى عبد الله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالأيسر الذى كان يدين فى اعتلائه عرش السلطنة، لوزرائه من بنى سراج الذين وقفوا إلى جانبه ضد منافسيه من نفس أسرة بنى الأحمر، ولقد اتسم عهد الايسر بالفوضى السياسية، والاضطرابات العنيفة والحروب الأهلية، فقد خلع عن عرشه واستعاده ثلاث مرات واستعان المتنافسون

(١) نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، لمؤلف مجهول، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دمشق ١٩٨٤، ص ١٣-١٥، يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٣ ومايليها.

- ومحمد بن الأحمر، هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجى من نسل امير الأنصار سعد بن عباد. وهو مؤسس مملكة بنى الأحمر بغرناطة وقد اقتضت مصالحة أن يساعد فرناندو الثالث فى الاستيلاء على اشبيلية ضد أبناء جنسه ودينه الذين استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم طيلة ٦ أشهر وكان ذلك عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وقد أعلن ابن الأحمر مبايعته للخليفة العباسى المستنصر بالله. عاش ابن الأحمر نحو ثمانين عاما وتوفى سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م. ومن أهم أعماله إلى جانب بنائه قصر الحمراء أنه انشأ مأوى للعميان ودارا للعجزة ومستشفى كبيرا، كما أكثر من المدارس وأعد المنازل للغريب واشتهر بالكرم والجود. (لمزيد من التفاصيل راجع ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، القسم الأول، المجلد الرابع، طبعة دار الكتاب اللبنانى، ١٩٦٨، ص ٣٦٦ ومايليها، يوسف شكرى فرحات، المرجع السابق، ص ٥٣ ومايليها.

(٢) محمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦، ١٧، م، الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص ٥٣.

على عرشه واستعاده ثلاث مرات واستعان المتنافسون على عرش غرناطة في صراعهم الداخلي بخوان الثانى ملك قشتالة مما أتاح الفرص أمام النصارى للتدخل في شؤون غرناطة تمهيدا للسيطرة عليها واستقاطها ارتقى الأيسر عرش السلطنة في سنة ٨٢٠هـ ١٤١٧ م بعد وفاة أبيه أبى الحجاج يوسف الثالث، ولكن ثورة اندلعت ضده في غرناطة انتهت بخلعه وتولى قريب له أو ابنه (محمد التاسع الشهير بالزغير أو الصغير) وذلك بعد نحو عشر سنوات من حكم الأيسر، ففر هذا الأخير إلى تونس وأقام فيها إلى أن تمكن من استعادة ملكه. وبعد عامين آخرين، ثار عليه نائير جديد من نفس أسرة بنى الأحمر، هو يوسف بن المول وذلك سنة ٨٣٦هـ ١٤٣٢/م، فخلع عن العرش للمرة الثانية، ولاذ بمالقة التي كانت تدين له بالطاعة وقام بها إلى أن أدركت الوفاة يوسف بن المول في نفس العام فعاد الأيسر للمرة الثالثة إلى غرناطة، وظل في ملكه حتى خلع للمرة الثالثة على يد محمد بن نصر (محمد العاشر الشهير بالاعرج El Cojo) وكان ذلك هو الخلع النهائي وتم ذلك في سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م في أغلب الروايات التاريخية^(١)

وتتمثل الانقسامات بين الحكام المسلمين في غرناطة بجلاء في أواخر عهد هذه الدولة في زمن أبى الحسن على بن نصر بن سعد بن السلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن من سلاطين بنى نصر. لقد تولى أبو الحسن السلطنة في ٨٦٧هـ، بعد أن انتزعها قسرا من أبيه الذى نفى إلى المرية وأقام بها حتى وفاته. ولم يقف النزاع في الأسرة المالكة عند هذا الحد، بل نجده يتسع ليصبح صراعا على العرش بين أبى الحسن على، وأخيه أبى الحجاج يوسف، انتهى بوفاة يوسف، وظهور أبى عبد الله محمد بن سعد (الزغل). لقد كان من سوء

(١) لمزيد من التفاصيل راجع يوسف شكرى فرحات، المرجع السابق، ص ٥٣ ومايليها - ومحمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٥ ومايليها عبد العزيز الأهواني، «سفارة سياسة من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجرى»، سنة ٨٤٤هـ، مجلة كلية الآداب، المجلد السادس عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٤ القاهرة، ١٩٥٤، ص ١١٣ ومايليها

طالع المسلمين في الأندلس أن تفرغ حكاهم للتقاتل والتناحر والتصارع في وقت كانوا في أمس الحاجة للتضامن والتوحد أمام الخطر الجاثم وكأنما غشت أعينهم عن رؤية تكالب العدو لاسقاط عرشهم والاطاحة بملكهم والقضاء على آخر معقل للإسلام، في الأندلس ولكن حكام غرناطة بدلا من تداركهم للموقف الخطير واللوذ إلى العصبية والوحدة، اقبلوا على التحالف مع ملوك المسيحية الواحد ضد الآخر، فأبو عبد الله محمد بن سعد (الزغل) الذي كان واليا على مالقة استعان بهنري الرابع ملك قشتالة، ليساعده في الاستيلاء على املاك أخيه أبي الحسن، واستمر الصراع سجالا بين الأخوين وانتهى إلى هدنة مؤقتة بين الأخوين على أن يبقى أبو عبد الله الزغل مستقلا بمالقة واحوازا في حين يستقر أبو الحسن على عرش غرناطة. بيد أن الصراع انبثق من جديد في غرناطة بين أبي الحسن على وولده أبي عبد الله الصغير من السيدة عائشة الحرة، وتدخل في هذا الصراع بنو سراج الذين كانوا يؤيدون ابن السيدة الحرة عائشة، على الابن الآخر لابي الحسن على من زوجته ثريا الاسبانية الاصل. وحدث أن تمكن أبو عبد الله محمد ابن مولاي أبي الحسن من السيدة عائشة من انتزاع عرش غرناطة سنة ٨٨٧هـ، ولذا أبوه أبو الحسن على إلى أخيه الزغل بمالقة. وحدث ان أنهزم الأمير أبو عبد الله محمد بن مولاي أبي الحسن أمام الجيوش القشتالية في ظاهر قلعة اللسانة Luceno سنة ٨٨٨هـ، ووقع اسيرا في يد الاسبان، ولكن الملكين الكاثوليكين فرناندو الرابع وايزابيلا، وافقا على اطلاق سراحه بشرط أن يبذل لهما الطاعة، ويدفع جزية سنوية، ويتعهد بالافراج عن أربعمائة من الرهائن النصارى في غرناطة، ويقدم رهائن من أبناء الأكابر والأمراء، صمنا لتنفيذ تلك الشروط.

وكانت هذه المعاهدة حجر الأساس في القضاء على مملكة غرناطة. وفي ذلك الوقت كانت أسبانيا المسيحية قد سارت في الطريق النهائي للوحدة حيث اقترح فرناندو الرابع بن خوان الثاني ملك اراجون، بايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة، وتم اعلانهما ملكين على قشتالة وارجون سنة ٨٨٣هـ

١٤٧٩م^(١). وزاد الأمور تعقيداً احتدام الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة، فقد تولى الزغل حكم غرناطة خلال فترة أسر ابن أخيه أبي عبد الله محمد، واشتد الصراع بينه وبين الأمير يوسف أبو الحجاج بن أبي الحسن شقيق أبي عبد الله محمد، فلما أطلق الملك الكاثوليكيان سراح أبي عبد الله محمد، تجدد الصراع بينه وبين عمه الزغل وكان رضى البيازين الواقع فى الشمال الشرقى من غرناطة مسرحاً لهذا الصراع واستغل العدو هذه الفرصة وازداد تكالبه على التهام مابقى من دولة الإسلام فى الأندلس^(٢). فتساقطت فى يد العدو معاقل غرناطة الواحد بعد الآخر،

(١) فرديناند الكاثوليكي أو «فرناندو» هو ابن ملك نبرة خوان الأول الذى عرف فيما بعد بالملك خوان الثانى ملك ارغون. ولد فرديناند سنة ١٤٥٢م (٨٥٦هـ) من زوجة خوان الثانية، خوانا انريكت ابنة أمير بحر قشتالة. تولى فرديناند عرش مملكة ارغون منذ عام ١٤٧٩-١٥١٦م (٨٨٤-٩٢٢هـ) كما اعتلى عرش مملكة نابلى منذ عام ١٥٠٤ حتى ١٥١٦م (٩١٠-٩٢٢هـ) وصقلية عام ١٤٦٨ حتى ١٥١٦م (٨٧٣-٩٢٢هـ) وقشتالة من عام ١٤٧٤ إلى عام ١٥٠٤م (٨٧٩-٩١٠هـ) ثم تزوج من ايزابيلا الأولى ملكة قشتالة عام ١٤٧٤م (٨٧٩هـ) وقاد الحرب ضد المسلمين فى مملكة غرناطة حتى سقوطها ١٤٩٢م. وعند وفاة زوجته ايزابيلا الكاثوليكية عام ١٥٠٦م تزوج من الفرنسية خيرمانا دى فوا. ولمزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله ارجع إلى محمد عبده حتملة، التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين، عمان، ١٩٨٠، ص ١٤.

- Luis Suarez Fernandez, Historia de Espana, Madrid, 1970, Capt XL VIII, p. 681-682.

أما ايزابيلا - فقد ولدت فى مدريدال دى الناس تورس عام ١٤١٥م، كانت ابنة ملك قشتالة خوان الثانى، وأمها هى ايزابيلا البرتغالية، ابنة حفيد خوان ملك البرتغال. تزوجت من فرديناند أمير ارغون وصقلية سنة ١٤٦٩م، وعرفا عندئذ بأبيري قشتالة. وعندما توفى شقيقها الملك انريكي الرابع عام ١٤٧٤م، عرفت هى وزوجها بملكي قشتالة وارجون (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد عبده حتملة): التنصير القسرى، ص ١٦، وكذلك إلى

T.De Azcona, Isabel La Catolica, Madrid, 1964.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الاحداث الأخيرة فى عهد مملكة بين الاحمر، والحروب الأهلية التى تخللتها ارجع إلى المقرئ، نفع الطيب من عصم الأندلس الرطب، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، ج ٦، ص ٢٥٨ ومايليه، ابن ياس. بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٣، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٩٩، ٢١٨، ٢٣٠- بدة العصر فى انقضاء

دولة بنى نصر، لمؤلف مجهول، تعليق المؤلف، ص ١٥، ٣١، ٣٢، ٩٤، وقد اتهم مؤلف نبذة العصر، الزغل وشك فى إخلاصه وولائه للإسلام والأمة، ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان، يدافع عنه مشيراً إلى أنه لم يكن باستطاعته أن يضع حداً لأسباب ضعف السنين التى سقته وانه حاول انقاذ مايمكن انقاذه (نبذة العصر) ص ٣٣، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٨ كما **والجميع** الأستاذ عنان عن أبى عبد الله الصغير ووصف بطولاته الأخيرة، ص ٢٨٤ ومايليها. وعن أحداث غرناطة الأخيرة قبيل السقوط، ارجع إلى عنان، ص ١٨٨-٢١٧- فون شاك، الفن العربى فى أسبانيا وصقلية، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٢٠ ومايليها - يوسف شكرى فرحات، غرناطة. فى ظل بنى الأحمر، ص ٥٦ ومايليها، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٩٠، ٨.

أما عبد الله محمد بن أبى الحسن على بن نصر آخر سلاطين غرناطة، الذى لقب بالصغير تمييزاً له عن عمه الزغل، هو ابن مولاي السلطان أبو الحسن على النصرى من زوجته الملقبة بالحرّة، وكان له شقيق آخر هو أبو الحجاج يوسف. عندما تقدمت السن بمولاي أبى الحسن تزوج من جارية أسبانية هى «إزابيلا سوليس» المعروفة باسم لريا الرومية، وكانت امرأة شديدة الدهاء والأطماع، فسعت أن **الملك** ولدها يحيى ولى العهد دون ولدى عائشة الحرّة، وأوقعت فيما بين مولاي أبى الحسن وزوجته عائشة الحرّة حتى اعتقلها مع ولديها فى برج قمارش بالحمراء ولكنهم تمكنوا من الهرب بمساعدة بنى سراج لبدء الصراع بين ابنها أبى عبد الله محمد مع والده على العرش سنة ٨٨٧هـ وكذلك مع عمه الزغل. وهو آخر أمراء غرناطة، وتم على يديه تسليم المدينة، وقد توفى فى فاس واختلف فى تاريخ وفاته بين سنة ٩٤٠هـ. ٩٤١هـ، ودفن بأزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين أحدهما يوسف والآخر محمد. (المزيد من التفاصيل ارجع إلى المقرئ، نفع الطيب، ج ٦، ص ٢٦٠، ٢٦١)، وعن خروج الأمير أبو عبد الله محمد الصغير إلى فاس ووفاته وشيء عن عقبه، ارجع إلى المقرئ، أزهار الرياض فى أخبار عياض، الرباط، ١٩٧٨، ج ١، ص ٦٧، ٦٨ ومايليها، نبذة العصر، ص ٣٢، من تحقيق المؤلف، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٩٩ - يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ٥٦ ومايليها.

أما ابو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، فقد كان وإلياً على مالقة أيام أخيه أبى الحسن ثم ارتقى عرش السلطنة فى سنة ٨٩٠هـ بعد أن ضعف أبو الحسن. وقد دخل ابن أخيه وسميه أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن (إلى غرناطة سنة ٨٩٢هـ) فى حين كان الزغل يحاول استنقاذ بلش مالقة من ايدى النصارى. واستقر الزغل فى مالقة حتى سقطت فى سنة ٨٩٢هـ. وأشهر الأحداث فى عهد الزغل استنجاهه بملوك المشرق والمغرب الإسلامى فى تونس ومصر (المزيد من التفاصيل ارجع إلى، نبذة العصر، ص ٣٢، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٨)

بدءاً بالحامة في سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م وحصناً قرطبة وذو كين وعدة حصون أخرى في الشمال الغربي من مالقة سنة ٨٩٠هـ، وتمكن من عزل مدينة رندة التي لم تلبث أن سقطت بدورها في جمادى الأول من نفس العام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م وبسقوطها انهارت المقاومة في المنطقة الغربية من مملكة غرناطة ففي سنة ٨٩١هـ استولى العدو على مدينة لوشة، وخرج أهلها إلى غرناطة حاملين امتعتهم وخيلهم، وانتهز فرناندو الرابع احتدام الصراع بين الزغل وابن أخيه أبو عبد الله في سنة ٨٩٢هـ، فهاجم مدينة بلش مالقة (Valez Malaga) واستولى عليها. وبدلاً من أن يوحد سلطان غرناطة، جهود المسلمين للصمود والتصدي نجده يواصل صراعه ضد عمه الزغل في الوقت الذي انقسم ماتبقى من مملكة غرناطة الصغيرة إلى قسمين: القسم الأول يشمل غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحسن، أما الثاني فيشمل وادي آش وأعمالها وكان يحكمه الأمير محمد بن سعد الزغل. ولما كان فرناندو وإيزابيلا قد كبلا الأمير أبا عبد الله محمد بمعاهدة جعلت غرناطة تابعة لسيادتهما وضمنا بذلك انضواءها إلى ملكهما، فقد آثرا عندئذ مهاجمة القواعد الشرقية والجنوبية التي يسيطر عليها الزغل، وعلى هذا النحو زحفت قواتهما في سنة ٨٩٢هـ نحو مالقة التي تخلى عنها الزغل لمصيرها المحتوم دون أن يستنقذها خوفاً من غدر ابن أخيه سلطان غرناطة، وقاومت مالقة مقاومة بأسلة ثلاثة أشهر، ولكنها سقطت في النهاية بعد ملحمة رائعة من البطولة والشجاعة وأعقب سقوطها سنة ٨٩٣هـ، سقوط بيرة والبلشين واشكر سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م، وتبعها ثغر المنكب في المحرم من سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م. أما بسطة فقد بدأ النصاري هجومهم عليها في رجب سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م ولكنها قاومت ببسالة فترة طويلة قبل أن يسلمها قائدها يحيى للقشتاليين سنة ٨٩٥هـ وأعقبها بقليل سقوط المرية في ربيع الأول سنة ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م أما وادي آش آخر معاقل الزغل فقد سقطت في أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ بعد أن أدرك الزغل عدم جدوى المقاومة^(١).

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة، ارجع إلى محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص

وبقيت غرناطة أو الورقة الأخيرة التي كان على الملكين الكاثوليكين أن يطويها على الكتاب ليختتما بذلك ثمانية قرون استغرقتها حركة الاسترداد المسيحي التي بدأت منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس.

وفي سنة ٨٩٥هـ / فاتحة ١٤٩٠م أرسل الملكان الكاثوليكين إلى السلطان أبي عبد الله محمد، يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء، وقصورها حيث مقر الملك والحكم، وسمح له أن يقيم في غرناطة، في طاعتها وتحت حمايتها. وأبدى السلطان الغرناطي رفضه لهذا الطلب، وحاول عبثاً أن يثنيهما عن عزمهما فاضطر أبو عبد الله الصغير إلى القتال، ولكن انتصاراته الهزيلة في اندرش وشلوبانية لم تفت في عضد الملكين الكاثوليكين اللذين حطوا بقواتهما بكل عدتها وعديدها على مدينة غرناطة. واضطر سلطان غرناطة في نهاية الأمر إلى التسليم بعد أن عقد مع الملكين الكاثوليكين معاهدة أقسم الملكان الأسبانيان باحترامها، دون أي تغيير في بنودها. وكانت بنود المعاهدة المفضلة كفيلة بأن تضمن للمسلمين في الأندلس ممارسة حريتهم في دينهم ولغتهم وسائر انظمتهم الشرعية، وعاداتهم الاجتماعية. وهكذا كانت الخلافات والفتن والانقسامات بين عرب الأندلس وتفكك الأسرة الحاكمة في الوقت الذي توحدت فيه مملكتا قشتالة واريغون، السبب الأول في سقوط غرناطة. وساهمت في سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس، الظروف الصعبة التي كانت تمر بها دول المغرب الإسلامي التي كانت تمر بظروف سياسة واقتصادية واجتماعية سيئة، فمن غلاء مفرط ومجاعة إلى طواعين وأوبئة فتكت بسكان المغرب إلى حد أن بعض الأفراد اضطروا في بعض مدن المغرب، لبيع أطفالهم ونسائهم للحصول على القوت اليومي^(١). أما دولة بني مرين التي طالما انفذت الحملات لانقاذ الإسلام في الأندلس، فقد كانت تمر بمرحلة حرجية من تاريخها بسبب المنازعات بين أفراد البيت المريني وكثرة الثورات الداخلية، واضطراب الأحوال في المغربين الأدنى والأوسط. وخلال هذه

(١) محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب، ص ٦٣.

الفترة تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ٨١٨هـ. كما استولى الأسبان على جبل طارق ٨٦٩هـ، كذلك سقطت عنابة سنة ٨٦٧هـ، واستولى البرتغاليون على قصر المجاز سنة ٨٦٢هـ، وعلى طنجة سنة ٨٦٩هـ واصيلا سنة ٨٧٦هـ. وتزايدت الاضطرابات أيام السلطان عبد الحق بن سعيد. وسقوط كل من جبل طارق وطريف من جهة وسبتة وطنجة من جهة ثانية، انقطعت الاتصالات بين المغرب والأندلس وتوقفت المعونات العسكرية التي كانت تتوافد على مملكة غرناطة وانزلت غرناطة وأصبحت محصورة بأساطيل العدو، وقواته من جميع الجهات^(١).

أما مصر المملوكية فكانت في ذلك الوقت في شغل شاغل عن هذه الأحداث، فقد وقف سلاطينها موقفا سلبيا تجاه مسلمي الأندلس، ربما لبعد الأندلس عن مصر، فطول المسافة بين البلدين كانت تمثل عقدة كأداء أمام العون العسكري لاسيما وأن أسطول مصر زمن المماليك لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يواجه الأساطيل المسيحية في أسبانيا، والبرتغال، بل أن سفن القراصنة القطلان والاراغونيين والقبارصة والروادسة، كانت تهدد سواحل مصر والشام، وهناك عامل ثان للموقف السلبي الذي وقفته مصر آنذاك وهو الخطر المغولي الذي كان لا يزال يهدد دولة المماليك في مصر والشام بالإضافة إلى القوة العثمانية الفتية التي ظهرت في هذه الفترة وأصبحت تشكل خطرا جاثما يتهدد دولة المماليك في مصر والشام^(٢) وتشير المصادر المعاصرة ككتاب «بدائع الزهور» لابن اياس إلى أن مصر شغلت منذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري بصراعها مع العثمانيين، في نفس الوقت الذي كان مسلمو غرناطة في اشد الحاجة إلى التماس العون من

(١) المقرئى، السلوك، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الرابع، القسم الثالث، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٠٥٩ - ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢١٨-٢٦٠، ج ٢ أحداث ٨٤١هـ - نبذة العصر وتحقيق المؤلف، ص ١٤، ١٥، ومايليها، وملحق ١، ص ١٤٥ - على مظهر، محاكم التفتيش، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٦، ١٧، وملحق ١، ص ١٤٥ انطونيو دومينغير، تاريخ مسلمي اسبانيا، ص ٧ - محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، ص ٦٣.

(٢) أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٣٥ ومايليها - محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٤ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٠.

ممالك مصر الذى ترددوا فى مساعدتهم لحاجتهم إلى كل جندى فى معرفة مصيرهم، بدليل أن دولة المماليك لم يطل بها العمر بعد سقوط غرناطة، إذ سقطت مصر بدورها فى أيدي العثمانيين سنة ١٥١٦م ونضيف إلى هذه الأسباب جميعا سببا آخر هو القلاقل الداخلية التى انبعثت بسبب الصراعات فى مصر والشام بين أمراء المماليك حول عرش السلطنة، وثورات العربان فى الصعيد وانهيار الاقتصاد المملوكى بسبب تحول طريق التجارة من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح فى ختام القرن التاسع الهجرى. أما الدولة العثمانية الفتية التى اقلق ظهورها الغرب الأوروبى، خاصة بعد استيلائها على القسطنطينية وانتصاراتها العسكرية التى تحققت فى أوروبا الشرقية، فقد أصبحت تنعم بمكانة سياسية وعسكرية عالية بين دول العالم فى نهاية العصر الوسيط، وقد سير أهل غرناطة سفارة غرناطية إلى السلطان بايزيد الثانى سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧م أى قبل سقوط غرناطة بخمس سنوات، يشكو فيها أهل غرناطة من معاناتهم، ويبلغونه بقرب سقوط الإسلام فى أسبانيا. وقد رد السلطان بايزيد على هذه الرسالة باسطول عثمانى برئاسة القائد كمال رايس، سيره إلى الشواطىء الاسبانية، ربما لتهديد اسبانيا لترجع عما سعت إليه. وفى المراحل التالية التى تلت سقوط غرناطة كانت الدولة العثمانية على اتصال دائم بالموريسكيين وحاولت مساعدتهم بوسائل عديدة، رغم انشغال الاتراك بفتح جزيرة قبرص وبالمناوشات التى قامت بينهم وبين روسيا القيصرية المجاورة^(١).

٣- علاقة مصر المملوكية بمملكة غرناطة قبيل سقوطها:

أ- السفارات والرسائل الغرناطية الموجهة إلى سلاطين دولة المماليك فى مصر: تعد أهم السفارات الغرناطية إلى دولة سلاطين المماليك فى مصر هى تلك السفارة التى ارسلها السلطان الغرناطى الأيسر إلى الظاهر جقمق.

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الرسالة التى ارسلها الموريسكيون إلى السلطان بايزيد الثانى، ارجع إلى الدكتور عبد الجليل التميمى، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، زغوان، ١٩٨٩، ص ١١، ويرجع د. محمد رزوق أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى سنة ١٥٠١م (محمد رزوق، الاندلسيون، ص ٦٤).

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول تحديد اسم سلطان غرناطة الذى امر بارسال هذه السفارة، وبالتالي السنة التى ارسلت فيها. ويتفق كل من المقرئى والسخاوى والجوهري على أنه عبد الله بن محمد بن نصر. قالمقرئى يذكر انه فى عام ٨٤٤هـ فى يوم «الاثنين رابع عشرينه» ورد كتاب الغالب بالله عبد الله محمد ابن الأمير ابى الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أبى الوليد اسماعيل ابن نصر «متملك غرناطة من الأندلس، يتضمن مافيه المسلمون بغرناطة من الشدة من النصارى أهل قرطبة واشبيلية ويسأل النجدة»^(١). أما السخاوى فقد أورد فى ترجمته لعبد الله بن محمد بن نصر الغالب بالله انه «متملك غرناطة من الأندلس. وحفيد الأمير أبى الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أبى الوليد اسماعيل بن نصر. ذكر المقرئى فى حوادث سنة أربع وأربعين أنه فى رجب منها ورد كتابه يتضمن مافيه المسلمون بغرناطة من الشدة مع النصارى أهل قرطبة واشبيلية وتطلب النجدة»^(٢).

هذا وقد ورد فى مخطوط نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان لعلى بن داوود، الخطيب الجوهري مايقيد بانه فى عام ٨٤٤هـ تم ارسال هذه السفارة، ولكن اسم السلطان ورد على انه الغالب بأمر الله بدلا من الغالب بالله^(٣).

أما المؤرخون الاسبان الذين يعتمدون على الروايات المسيحية، فيختلفون فى ذلك الرأى. وقد قام الأستاذ الدكتور الأهوانى بمناقشة دقيقة لكافة الاراء المختلفة، ورجح فى النهاية أن صاحب السفارة هو السلطان الغرناطى محمد الثامن بن يوسف الأيسر Mohamaed El Izquierdo, El Zuido، ويذكر الدكتور الاهوانى أنه لاىستطيع أن يحدد تحديدا دقيقا، الظروف التى دفعت السلطان الغرناطى الأيسر

(١) المقرئى، السلوك، ج٤، القسم الثالث، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٢١٩.

(٢) السخاوى، الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع، ج٥، المجلد الثالث، ص ٦٧.

(٣) عبد العزيز الأهوانى، سفارة سياسية، ص ١١٣، ومايلها.

إلى إرسال هذه السفارة إلى السلطان المملوكي جقمق، إلا أنه من الممكن بوجه عام القول بأن هدنة عقدت بين المسلمين والقشطلبيين قبيل إرسال هذه السفارة بعام أو اثنين، كما ورد في المصادر المسيحية وفي الأخبار التي ذكرها المقرئ في أحداث شهر المحرم من عام ٨٤٣هـ^(١).

وكانت هذه السفارة الغرناطية تضم أربعة سفراء غرناطيين، قدموا كتابا من سلطانهم إلى الظاهر جقمق، يستنجد فيه بالسلطان المملوكي، وقد وعد السلطان جقمق في رده بأنه سيبعث إلى ابن عثمان أي السلطان العثماني لنجدة الأندلس، واعتذر جقمق للسفراء الغرناطيين بسعد الأندلس عن مصر مما يحول بينه وبين إرسال جنود لمساندتهم، ولما طلب السفراء من السلطان أن يساعد غرناطة بمعونة مالية من مصر، وعدهم الظاهر جقمق خيرا^(٢).

وفي هذه السفارة قدم رسل سلطان غرناطة هدية إلى السلطان المملوكي قوامها بعض أواني من الفخار المائتي والاثني عشر الغرناطى وأثوابا من الخز الأندلسية، وانتهز سفراء غرناطة فرصة وجودهم بمصر، ليؤدوا فريضة الحج مع ركب الحج، ويفهم من قراءة النص أن السلطان جقمق للأسف، لم يف بوعوده لنجدة مسلمي غرناطة بالمال والسلاح^(٣). وقد وصل إلينا رد جقمق على رسالة السلطان الغرناطى ممثلا في رسالة مبتورة وناقصة لا تحمل سوى اسم السلطان وبها عبارات الود والدعاء له

(١) المقرئ، السلوك، القسم الثالث، الجزء الرابع، ص ١١٥٨، عبد العزيز الأهواني، سفارة سياسية، ص ١٢٠ وأرجع كذلك إلى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٢ ومايلها، أحمد الطوخى، الممالك والأندلس، ص ٢٢-٢٨، محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٣-٦٥ وأرجع كذلك إلى أحمد دراج، الممالك والفرج في القرن التاسع الهجرى (١٥م)، القاهرة، ١٩٦١، ص ٧٠ ومايلها.

(٢) كان السلطان العثماني في ذلك الوقت هو مراد بن محمد الذى يرتبط مع جقمق بعلاقات ودية طيبة، ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة ونصها أرجع إلى، نبذة العصر في انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق الحق، محمد رضوان الداية، ص ١٤٧، ومايلها.

(٣) أحمد الطوخى، الممالك والأندلس، ص ٢٦، ٢٧ - تحقيق الحق في نبذة العصر ص ١٤٩.

بالنصر على الاعداء واحاطته علما بوصول سفارته، كما اخبره بأنه قد كلف سفيراً من قبله للتوجه إلى الأندلس لمقابلته وقد قام الاستاذ الدكتور أحمد السيد دراج بنشر هذه الرسالة في كتابه «الممالك والفرنج»^(١) ويعلل بعض المؤرخين تقاعس الظاهر جقمق عن ارسال معونة عسكرية إلى الأندلس، ببعد المسافة بين البلدين وصعوبة تدبير سفن لنقل المساعدات في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الممالك بعد أن اخفق في حملته البحرية الأولى على جزيرة رودس، كما أن العلاقات بين السلطان المملوكي جقمق والفونسو الخامس ملك نابلي الذي كانت قواته البحرية تسيطر على غربي البحر المتوسط، قد توترت آنذاك إلى حد كبير^(٢).

وقد اعقبت هذه السفارة، رسالة ارسلها محمد الاحنف بن عثمان، سلطان غرناطة إلى السلطان المملوكي الظاهر جقمق (قام بنشرها هي الأخرى الاستاذ الدكتور دراج) في ١٣ جمادى الأول عام ٨٥٥هـ / ١٣ يونيو ١٤٥١م ليستنجد به ويناشده فيها أن يرسل معونة من مصر إلى مسلمي الأندلس. وتولى حمل هذه الرسالة إلى سلطان مصر، التاجر أبو عبد الله محمد البنيولي. وفي هذه الرسالة يذكر السلطان الغرناطي أن هذا التاجر قد استأجر هذه السفينة هو ومن معه حتى الاسكندرية، وان كراءها كلفه ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة دينار الذهب، ذهاباً وعودة، بهدف شحن مايسر الله تعالى من صدقات المسلمين ونوافل خيراتهم. وقد طلب السلطان الغرناطي في هذه الرسالة، من الظاهر جقمق أن يعاون وطنه المستصرف بأبواب مصر المتمسك بأسابها^(٣).

(١) دراج، نفس المصدر ص ١٧٨.

(٢) الطوخى، المرجع السابق، ص ٢٦- دراج، الممالك والفرنج، ص ٧١ - ٧٣.

(٣) دراج، المرجع السابق، ص ٧١-٧٣، ص ١٨١ ومايليها - الطوخى، الممالك والأندلس، ص ٢٦ ومايليها ومحمد الأحنف هو محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله، وكان أحد خصوم السلطان الغرناطي، الأيسر، وقد نجح الأحنف في دخول غرناطة سرا مع عدد من أنصاره، وساهم في إذكاء بيران الفتنة والاضطرابات الداخلية في غرناطة، كما نجح في الاستيلاء على الحمراء والحصون المحاورة لها، وقبض على الأيسر وأهله وزوج بهم في السجن، وارتقى عرش غرناطة إما في عام =

وفى جمادى الأولى سنة ٨٦٨ هـ ارسل السلطان الغرناطى سعد المستعين بالله رسالة إلى السلطان المملوكى الظاهر خشقدم ٨٦٥-٨٧٢ هـ / ١٤١٦ - ١٤٦٧م يستنجد به فيها، من ضربات عدوه ملك قشتالة الذى كان على حد قوله كما ورد فى الرسالة، يهجم فى كل عام على بلاده وثغوره ويجدد فى كل ساعة ولحظة شجعان قلبه وصدره. وقد استولى فى سنة ٨٦٧ هـ على مدينة جبل الفتح (جبل طارق) وعلى حصن اللقوق، أحد حصون غرناطة، وفى سنة ٨٦٨ هـ، وهى السنة التى ارسلت فيها هذه الرسالة، استولى على حصن ارجدونة، وقد حمل هذه الرسالة الشيخ أبو عبد الله محمد بن الققيه^(١).

ويبدو أن السلطان خشقدم استجاب لطلب السلطان الغرناطى وبادر بتقديم العون المادى له، ولكن ذلك العون لم يجد نفعا فقد استنزفت الحروب الأهلية والفتن المشتعلة فى غرناطة بين السلطان سعد المستعين بالله، وابنه أبى الحسن على، والتى لم تكن سوى صفحة من صفحات الصراع المتواصل فى هذه الأسرة الحاكمة، قدرات المسلمين وقواهم، ودفعتهم دفعا سريعا نحو النهاية المحتومة^(٢).

= ٨٤٥ هـ (١٤٤١م) أو ٨٤٦ هـ (١٤٤٢م) وكان يتميز ببطشه وعنفه بحيث كانت معظم الأسر الكبيرة فى الأندلس وعلى رأسها أسرة بنى سراج تسعى لإسقاطه، رغم خوضه العديد من المعارك ضد النصارى، وبعد سلسلة من المعارك الطاحنة والحروب الأهلية، انهزم الأحنف أمام منافسيه (٨٥٩ هـ) (١٤٥٤م) فى قول وفى سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨م) فى قول آخر. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٣ - ١٦٤).

(١) ارجع إلى نص الرسالة المنشورة فى ملحق رقم ١٢ من كتاب أحمد دراج، الماليك والفرنج، ص ١٩١ - ١٩٩.

(٢) أحمد الطوخى، الماليك والأندلس، ص ١٩ - ٢٠.

أما سعد المستعين بالله فهو سعد بن محمد بن يوسف، الذى ماكاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض من بنى سراج. وقد تمكن ولده أبو الحسن من طرده من غرناطة والاستيلاء عليها، فسار سعد المستعين بالله إلى ماله سنة ٨٦٧ هـ واستقر بها مدة عام وفى العام التالى ٨٦٨ هـ اصطلم مع ولده أبو الحسن لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة، ولكن سعد المستعين اختار هذه المرة الإقامة فى المربة حتى وفاته فى آخر هذا العام. وبدأ عهد ولده أبو الحسن بخلافات مع أخيه أبى الحجاج يوسف كما سبق أن ذكرنا من قبل فى المتن.

وفى ذى القعدة من عام ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م استقبل **السلطان الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباى المحمودى** سفيرا من الأندلس يحمل رسالة من أبى عبد الله الزغل، يستنصره فيها ويطلب منه أن يبعث إليه بقوة من مصر تعينهم على التصدى لعدوهم وتوقف من عدوانه، وكانت الضربات الاسبانية المتلاحقة قد اشتدت فى تلك الفترة على الأجزاء الشرقية والجنوبية من مملكة غرناطة الخاضعة لنفوذه، فى حين كانت غرناطة وأعمالها تدين بالطاعة للملكين الكاثوليكين طبقا للمعاهدة التى عقدت بين أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن الأسير عندهم. لقد كانت هذه السفارة الغرناطية إلى مصر احدى محاولات أبى عبد الله الزغل، للاستنجاد بملوك المغرب والمشرق الإسلامى، ولكن دول المغرب كانت فى ذلك الوقت تعاني من التفكك والضعف والخلافات المحتدمة بينهم، ولذلك لم يلب نداء مولاي الزغل سوى اعداد قليلة من المطوعة المجاهدين^(١). أما مصر التى كانت لها «هيبة كبيرة» بين الدول المسيحية والاروپية نظرا لجهادهم الطويل ضد قوى الصليبيين وقوى المغول، فقد كانت معقدة امال حكام غرناطة فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخهم، اذ أن الزغل ومن سبقه من ملوك هذه المملكة الصغيرة أمثال الأيسر، والاحنف، وسعد المستعين بالله، تصوروا أن مصر المملوكية التى تتحكم فى الأراضى المقدسة فى فلسطين، بمن فيها من الرعايا المسيحيين قادرة على اغاثة الأندلس وحمايتها من الضياع.

ويشير ابن اياس إلى هذه السفارة الغرناطية إلى مصر فى احداث شهر ذى القعدة من عام ٨٩٢هـ، ورد فعل مصر ازاءها ونتائج ذلك بقوله «وفى ذى القعدة قدم قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يده مكاتبة من مرسله، تتضمن بأن السلطان يرسل إليه تجريدة تعينه على قتال الفرنج، فانهم قد أشرفوا على أخذ غرناطة، وهو فى المحاصرة معهم، فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه بأن يبعث إلى القسوس الذين بالقيامة التى بالقدس أن يرسلوا كتابا على يد قسيس من

(١) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢١٨

اعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل بأن يكاتب صاحب قشتيلية بأن يحل عن أهل الأندلس ويرحل عنهم، والا يشوش السلطان على أهل القيامة ويقبض على اعيانهم، ويمنع جميع طوائف الفرنج من دخول القيامة ويهدمها، فارسلوا قاصدهم، وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل كما اشار السلطان، ولم يفد من ذلك شيء، وامتلكت الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد^(١).

وبينما تتضمن الرواية السابقة إلى اجراء قام به السلطان قايتباي محاولة منه لفك الخناق الاسباني عن غرناطة، نجد أن المصادر الغربية تشير إلى خطة وضعتها مصر بالاتفاق مع السلطان العثماني بايزيد الثاني لانقاذ مسلمي غرناطة. وتقضى هذه الخطة بأن يتهاون بايزيد الثاني والاشرف قايتباي سلطان مصر، هدنة مؤقتة رغم ما بينهما من عدااء ومعارك طاحنة، للنظر فيما هو أهم من تلك الخلافات وهو انقاذ الإسلام في الأندلس، لذلك اتفقا على أن يقوم بايزيد الثاني، بارسال اسطول قوى لغزو جزيرة صقلية التي كانت تابعة آنذاك لاسبانيا المسيحية، في حين ترسل مصر سرايا من قواتها إلى الأندلس لمساعدة المسلمين هناك. ويستبعد المؤرخون هذا الاتفاق الذي عقد على حد الرواية الغربية بين مصر والأتراك العثمانيين لما كان بينهما من علاقات جفاء وقطيعة، ويرجحون تحريك مصر دبلوماسيا فحسب طبقا لما ورد في كتابات ابن اياس^(٢).

ومن الواضح أن السفارة الغرناطية ارسلت إلى مصر في وقت كانت القوات المسيحية تحاصر فيه مالقة في جمادى الثانية ٨٩٢هـ/ يونيو ١٤٨٧م عسى أن تسرع مصر بانجناد مسلمي الأندلس، فتحول بين مالقة وبين السقوط في ايدي القشتاليين، ولكن يبدو أن هذه الدعوة الأندلسية لم تصل إلى مصر الا في أواخر ٨٩٢هـ بعد سقوط مالقة بالفعل. ومن سوء الطالع أن مصر كانت تعاني من

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢١٩ - أحمد الطوشي، الماليك والأندلس، ص ٣١ -

اضطرابات داخلية، كما كانت تتخوف من الخطر العثماني، فلم يتمكن الاشراف قايتباي الا من الضغط سياسيا على قشتالة لتكف عن محاربة مسلمى الأندلس. ويتمثل هذا الضغط السياسى، الدبلوماسى، المصرى فى سفارة ارسلها الاشراف قايتباي إلى البابا، وإلى ملوك المسيحية مثله فيها راهبان احدهما القس القشتالى الأصل انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس، يعاونه فى ذلك أحد الرهبان الايطاليين. وقد قاما بهذه المهمة الدبلوماسية لدى كل من فرناندو الأول ملك نابلى والبابا انوسنت الثامن، والملكين الكاثوليكين فرناندو ايزابيلا^(١).

غادر الراهبان القدس فى أواخر عام ٨٩٢ هـ متوجهان إلى نابلى، حيث قابلا فرناندو الأول، ثم غادرا نابلى إلى رومة حيث التقيا بالبابا انوسنت الثامن ومن رومة تابعا رحلتهم إلى أسبانيا. وقد كتب الباب إلى الملكين الكاثوليكين يطلب إليهما أن يجيبا مطالب السلطان الاشراف قايتباي بحسن معاملة مسلمى الأندلس والكف عن مقاتلتهم. كما قام ملك نابلى (فرناندو الأول) بمكاتبة الملكين الكاثوليكين يستفهم منهما عن سير الحرب ضد مسلمى الأندلس، كما يلومهما على سوء معاملة المسلمين، ويرى المؤرخون أن تدخل ملك نابلى على تلك الصزرة، يرجع فى حقيقة الأمر إلى خلاف، قام بينه وبين ملك اراجون على حثوق عرش نابلى، وإلى تخوفه من نوايا فرناندو العدوانية تجاهه اذا ما انتهى من حروبه فى الأندلس^(٢). وصل السفيران إلى أسبانيا بعد عام ونصف من وصول سفارة الأندلس إلى مصر، وكان قد مضى على سقوط مالقة نحو عامين، وكانت القوات المسيحية فى ذلك الوقت تحكم الحصار حول بسطة - وأمام أسوار بسطة طلب الراهبان مقابلة الملك الكاثوليكى فرناندو الرابع، وتمت مقابلتهم له وتسلم الملك فرناندو رسالة الاشراف قايتباي، التى هدد فيها ملك قشتالة بالانتقام من رجال كنيسة القيامة والرعايا

(١) ابن اياس، البدائع، ج ٣، ص ٢٤٤ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢١، أحمد الطوخى، الممالك والأندلس، ص ٣١ ومايلها.
(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٢٢.

النصارى فى بلاده، اذا لم يتوقف عن محاربة المسلمين واضطهادهم كما رحب بالراهبين وأحسن وفادتهما، ثم زار الراهبان كذلك مدينة جيان حيث رحبت بهما الملكة ايزابيلا، وبعد أن أتم الراهبان مهمتهما، تلقيا رد الملكين الكاثوليكين إلى السلطان قايتباى، وفيه يوضحان للسلطان المملوكى انهما لا يفرقان فى المعاملة بين الرعايا المسلمين والمسيحيين.

واكتفت مصر بذلك الدور الدبلوماسى، ولم تنفذ حتى وعيدها بالضغط على رعاياها المسيحيين، واقتصرت على الاهتمام بشئونها الخاصة، تاركة مسلمى الأندلس لمصيرهم التعسفى، بل للأسف الشديد لم يكن لتصميم الملكين الكاثوليكين على متابعة الحرب ضد غرناطة حتى نهايتها، أدنى أثر على العلاقات الودية والتجارية التى كانت قائمة بين دولة المماليك وأسبانيا المسيحية. ففي ٢ يناير سنة ١٤٨٨م / ٨٩٤هـ طلب الملك فرناندو من البابا أن يسمح له ببيع كميات من القمح إلى السلطان العثمانى الذى كان فى أشد الحاجة إليه لإطعام أهل الشام الذين كانوا مهتدين بالجماعة. وتدل هذه الحادثة على ذكاء شديد من الملك الكاثوليكى، الذى استطاع بثمن هذا القمح أن يواصل آخر معارك الاسترداد ضد مسلمى الأندلس، وفى نفس الوقت كان الملك الكاثوليكى يرى أنه بتقديمه القمح للمماليك كان يقوى مصر المملوكية ضد الأتراك - العثمانيين الذين باتوا يشكلون خطرا جسيما على المسيحيين فى أوروبا^(١).

ب- الرحلات المتبادلة بين أهل الأندلس ومصر قبيل سقوط مملكة غرناطة:

وردت فى المصادر العربية أسماء عدد من الأندلسيين الذين زاروا مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى، فى الفترة التى اشتدت فيها الضربات المسيحية على مسلمى غرناطة وأعمالها. وتمت رحلة بعض هؤلاء إلى مصر قبيل سقوط مدنها مباشرة فى أيدي النصارى، أما للاستقرار أو مروراً لاداء فريضة الحج، كما زارها البعض الآخر بعد سقوط مدنها، فى الفترة السابقة مباشرة لسقوط

(١) أحمد الطوخى، المماليك والأندلس، ص ٣٣.

غرناطة، آنفة من ذلك الخضوع للحكم الاسباني المسيحي والتعرض للاضطهاد الديني الذي قد يحول دون الاحتفاظ باسلامهم ورغبة في الاستقرار في أرض يظللها الإسلام ويعيش فيها أخوة لهم يحيطونهم برعايتهم ويعتبرونهم مواطنين لهم، ومن بين هؤلاء الأندلسيين الذين زاروا مصر قبيل سقوط مدنهم التابعة مباشرة لمملكة غرناطة، أبو القاسم ابن علي بن محمد بن فرج بن محمد بن فرج السبتي الأصل، الوادي آشي، الأندلسي، المالكي. ولد أبو القاسم بمدينة وادي آش من مدن مملكة غرناطة في سنة ٨٦٥هـ، ونشأ بها، وقرأ الكثير من الروايات على علي بن داود، الذي كان يقيم زمن السخاوي بتلمسان، وعليه قرأ في الفقه واللغة العربية، ورحل أبو القاسم إلى تونس في ٨٨٧هـ، ثم انتقل إلى القاهرة، وادي فريضة الحج سنة ٨٨٨هـ، وجاور بمكة نحو سنة، وكذلك بالمدينة ومنها سافر إلى دمشق، كما زار بيت المقدس^(١). ومنهم محمد بن عيسى الشمس أبو عبد الله التبسي الأندلسي المغربي المالكي النحوي، الذي رحل إلى المشرق وأقام في حماة فترة وتولى قضاءها، وأقام فترة من الوقت في القاهرة، وسمع عليه عدد من طلاب العلم، ومن قرأ عليه بالقاهرة البدر بن القطان^(٢). ومنهم أيضا إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن محمد أبو المكارم بن أبي الحسن الحضرمي الأندلسي المغربي المالكي المعروف بالحري، وبابن الصباغ الذي رحل إلى مصر وأقام بها والتقى في القاهرة

(١) السخاوي، الضوء اللامع، المجلد السادس، ج ١١، ص ١٣٦، ومن المعروف أن وادي آش سقطت سنة ٨٩٣هـ أي قبل سقوط مملكة غرناطة بنحو ٤ سنوات، ومعنى ذلك أن أبا القاسم صاحب الترجمة رحل من الأندلس قبل سقوط وادي آش في أيدي الاسبان ومن أبناء مالقة (من أعمال غرناطة) الذين زاروا مصر في النصف الأول من القرن التاسع الهجري، قاسم بن علي بن محمد ابن علي الشرف أبو القاسم التينملي الفاسي المغربي، الملقب الأندلسي المالكي، ولد سنة ٧٤٣هـ بمالقة من الأندلس وسمع على عدد من العلماء أشهرهم، أبو جعفر أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي، وأبو القاسم بن سلمون القاضي، وأبو الحسن التلمساني الحافظ، وقد أجاز له لسان الدين ابن الخطيب، وقدم إلى مصر حاجا، وتوفي سنة ٨١١هـ بالبيمارستان من القاهرة، (السخاوي، الضوء اللامع، مجلد ٣، ج ٦، ص ١٨٣).

(٢) المصدر السابق، المجلد الرابع، ج ٨، ص ٢٧٧.

بشمس الدين السخاوى، وتناظرا علميا، وقد سأل ابراهيم بن سعد فى بعض المسائل وقدرها له. وكان هذا العالم قد رحل من الأندلس، إلى الإسكندرية بعد وفاة والده التاجر. وقد توفى ابراهيم سنة ٨٩٣ هـ بعد أن شارك فى شرح الالفية الحديثة^(١).

ومن الأندلسيين الذين زاروا مصر كذلك، عبد الله بن محمد بن سليمان بن عطاء بن جميل الشقورى الاسكندرى، المالكى المعروف بابن خير، ولد سنة ٧٣٩ هـ، وأخذ عن والده فى سنة ٧٤٣ هـ، وحدث ببلده ثم وفد إلى القاهرة فى سنة ٨١٥ هـ فحدث فى جامع الأزهر، وتوفى بعد بضع عشرين وثمانمائة^(٢)، وكذلك عمر ابن أبى بكر بن على بن على بن عبد الحميد السراج الأندلسى الأصل القاهرى الشافعى، المعروف بابن المغريل، ولد فى حدود عام ٧٦٧ هـ، وتوفى بالقاهرة فى ذى القعدة سنة ٨٥٠ هـ فى زاويته بقنطرة الموسيقى عن ٨٣ سنة^(٣).

وهناك عدد من علماء غرناطة اهتموا بالرحلة خارج الأندلس قبيل سقوط غرناطة ربما لتهيئة رأى العام الإسلامى خارج الأندلس لمساعدتها أو لاثبات أن علماء الأندلس مازالوا روادا فى أمور دينهم، ولم يفرطوا فيه، ولم يتسببوا فى ضياع الأندلس^(٤). ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله المجارى، الذى يعد بشهادة معاصريه من أبرز الشخصيات العلمية. وقد اتجه المجارى، الذى يعد بشهادة معاصريه من أبرز الشخصيات العلمية. من غرناطة إلى تلمسان ومنها قصد تونس عن طريق بجاية، ثم تابع الطريق إلى مصر، وهناك تتلمذ على العديد من الشخصيات التى أصبح لها شأن فيما بعد. وألف كتابا عنوانه «برنامج المجارى»

(١) نفس المصدر، ج ١، ص ٥١.

(٢) نفسه، المجلد الثالث، ج ٥، ص ٦٣.

(٣) نفسه، المجلد الثالث، ج ٦، ص ٧٥.

(٤) محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٧٠.

بعد هذه الرحلة المشرقية، ذكر فيه أهم الشيوخ حسب بلادهم وأماكنهم التي تلقى عنهم فيها مبتدئاً بشيوخ غرناطة، تليها تلمسان ثم بجاية ثم تونس، فمصر، وتوفي سنة ٨٦٢هـ^(١).

ومنهم أبو الحسن على القلصادى الذى يرجع بأصله إلى مدينة بسطة، وقد تلقى دراسته الأولى على يد أبرز شيوخ غرناطة، وعندما انتقل إلى تلمسان أخذ عن علمائها، وأقام بها ثمان سنوات قبل أن ينتقل إلى تونس، ومنها إلى القاهرة فالأراضى المقدسة. لقد استغرقت رحلة القلصادى خمسة عشر عاماً، عاد بعدها إلى غرناطة حيث اشتغل بالتأليف والتدريس خاصة فى علم الفرائض والحساب، ولما احس بالاختطار المحدقة بوطنه، غادره إلى تلمسان حيث أقام عند صديقه ابن مرزوق الكفيف. وقد وصف القلصادى فى رحلته المناطق التى زارها وذكر شيوخ العلم بها. وتوفى القلصادى بباجة افريقية سنة ٨٩١هـ^(٢).

وعنه يقول المؤرخ المصرى السخاوى «على بن محمد بن محمد بن على، أبو الحسن القرشى الأندلسى، البسطى، نسبة إلى بسطة، مدينة من جزيرة الأندلس، المالكى، ويعرف بالقلصادى، ولد قبل سنة ٨١٥هـ فى مدينة بسطة وقرأ بها القرآن لورث، وقد دخل مدينة المنكب، وقرأ على خطيبها أبى عبد الله البجلى فى النحو ثم انتقل إلى تلمسان سنة ٨٤٠هـ، ودرس هناك علم التفسير والحديث والفرائض والنحو، ثم انتقل إلى تونس، ورحل منها سنة ٨٥٠هـ، ودخل القاهرة، وفى التى بعدها حج فيها، وعاد وأقام بها فقرأ عليه الناس وكتبوا من مصنفاته^(٣). ومن المعروف أن حصار مدينة بسطة بدأ فى سنة ٨٩٤هـ^(٤).

(١) لمزيد من التفاصيل عن المجرى وزيارته لمصر ولقائه بابن خلدون ارجع إلى (أبو عبد الله المجرى الأندلسى، برنامج المجرى، تحقيق محمد أبو الاعم، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٥ ومايلها) وكذلك محمد رزوق، المرجع السابق ص ٧٠ - ٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧١

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الثالث، ج ٦، ص ١٤

(٤) المقرئ، نفع الطيب، ج ٦، ص ٢٧١ - ندة العصر، ص ٩٥ ومايلها

ومن الأندلسيين الذين ولدوا وعاشوا في مصر في القرن التاسع الهجري، محمد بن عبد الرحمن بن عوض بن منصور بن أبي الحسن الأندلسي الأصل الطنتدائي ثم القاهري الحنفى نزيل البيبرسية، ولد سنة ٧٧٠ هـ بطنتدا (طنطا). وقرأ بها القرآن، ثم تحول إلى القاهرة في سنة ٧٨٥ هـ. وكان للشيخ ناصر الدين ابن أنس الحنفى إمام البيبرسية به عناية فائقة فشغله حنفيا بعد أن اشتغل في مذهب الشافعى، وقد توفى محمد بن عبد الرحمن سنة ٨٥٢ هـ بخانقاة بيبرس ودفن خارج باب النصر عن ٨٢ سنة^(١).

ومنهم عمر بن على بن أحمد بن محمد السراج أبو حفص الانصارى الوادياشى الأندلسى، التكرورى، المصرى الشافعى المعروف بابن الملقن. وقد ولد بالقاهرة سنة ٨٢٣ هـ من أصل أندلسى، وكان والده قد تحول إلى التكرور حيث أقرأ أهلها القرآن وتميز في اللغة العربية، وحصل مالا كثيرا وقدم بعدها إلى القاهرة. وتوفى وولده صاحب الترجمة لديه من العمر سنة فأوصى به إلى الشيخ عيسى المغربى الذى كان يلحق القرآن بجامع ابن طولون، فتزوج من والدته وعرف لذلك صاحب الترجمة به، اذ قيل له ابن الملقن. ورحل عمر إلى الشام ٨٧٠ هـ، وأخذ عن علمائها وقرأ في بيت المقدس على العلائى. وتوفى بمصر سنة ٩١٤ هـ ودفن على أبيه بحوش سعيد السعداء^(٢).

ومن أبرز علماء غرناطة الذين زاروا مصر عشية سقوط غرناطة العالم أبو عبد الله محمد بن على بن محمد، الشهير بابن الأزرق الغرناطى، الاصبهى، المالكى، المالقى، وقد ترجم له المؤرخ المصرى السخاوى ترجمة طويلة، ذكر فيها انه ولد بمالقة حيث نشأ وحفظ القرآن. وسمع من قاضى مالقة أبى اسحق إبراهيم بن أحمد البدوى، وكذلك من عدد من علماء الأندلس أمثال إبراهيم ابن أحمد بن فتوح مفتى غرناطة وأبو عبد الله محمد بن محمد السرقسطى، والخطيب ابى

(١) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الرابع، ج٧، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق، المجلد الثالث، ج٦، ص ١٠٠: ١٠٥.

الفرج عبد الله البقنى. ويذكر السخاوى المناصب القضائية التى تقلب عليها ابن الأزرق^(١) ورحل ابن الأزرق إلى تلمسان ومن هناك انتقل إلى مصر. وعن زيارة ابن الأزرق لمصر يذكر السخاوى انه خرج مع الأمير النصرى أبى عبد الله بن سعد الزغل إلى وادى آش «وهما منفصلان فوجهه قاصدا إلى السلطان أبى عمرو عثمان ابن محمد أبى فارس لمساعدة الأندلسيين على عدوهم الكافر، فلم يلبث أن مات أبو عمرو فارتحل صاحب الترجمة (ابن الأزرق) إلى الديار المصرية ليحج، فحج فى البحر وأقام بضعة شهور فى الحجاز ثم عاد بعد حجه إلى مصر فى البحر أيضا»^(٢).

أما المقرئ فقد ترجم لابن الأزرق فى عدة مواضع من كتبه وأكد فى الجزء الأول من ازهار الرياض أنه خرج من الأندلس قبل أخذ غرناطة مباشرة، فلما رأى استطالة العدو عليها وأنه أخذها لامحالة، قوض رحاله عنها ونزل بتلمسان وكانت غرناطة قد سقطت بعد ارتحاله بفترة قصيرة^(٣). ويناقض نفسه فى موضع آخر من الجزء الثالث من نفس الكتاب فيذكر أن ابن الأزرق ارتحل رحمه الله إلى تلمسان عند غلبة العدو الكافر على (هضم مابقى بيد المسلمين من) بلاد الأندلس ثم ارتحل منها إلى المشرق، ولم أقف على وقت وفاته، الا أنه كان ارتحاله لتلمسان بعد التسعين وثمان مائة بلا شك وغالب ظنى أن ذلك فى أواخر العشرة التى كملت بها تسع مائة سنة للهجرة، والله أعلم. ولم اتحقق الآن هل دخلها، أعنى تلمسان، بعد أخذ غرناطة أو قبله^(٤).

وهناك بعض علماء أندلسيين ينتسبون إلى مدن من أعمال غرناطة أو من

(١) لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى المصدر السابق، المجلد الخامس. ج ٩، ص ٢٠ ومايلها.

(٢) نفسه، وارجع كذلك إلى محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٩.

(٣) المقرئ، ازهار الرياض فى أخبار عياض، ج ١، ص ٧١.

(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٨، ولمزيد من التفاصيل عن مؤلفاته وحياته، ارجع للمصدر السابق،

ج ٣، ص ٣١٨، ومايلها - السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الخامس ج ٩، ص ٢٠ ومايلها -

ومحمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٩ ومايلها، أحمد الطوخى، الماليك والأندلس، ص ٣٤

ضواحيها، زاروا مصر وأقاموا بها عقب سقوط مدنهم في أيدي الأسبان، نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن محمد بن أحمد بن محمد الفهرى الشاطبي المريى أو المروى نسبة للمرية من بلاد الأندلس^(١) على حد قول السخاوى، فقد ولد بالمرية سنة ٨٦٨هـ ونشأ بها وتلقى فيها دروسه في مرحلة صباه ثم رحل إلى مصر في أول سنة ٨٩٥هـ بعد سقوط مدينة المرية ونزل بترية السلطان. ومنهم أحمد ابن أبى يحيى بن محمد بن خلف الغسانى الأندلسى الوادياشى المالكى المعروف بالأزيرق الذى وفد إلى القاهرة فى سنة ٨٩٦هـ عند سقوط وادى آش، بغرض اداء فريضة الحج واجتمع بالسخاوى وسمع على علماء مصر، وبعد فترة رحل إلى مكة عبر ميناء الطور، ثم عاد لمصر بعد قضاء نسكه^(٢).

وليس غريبا أن نرى بعض هؤلاء الأندلسيين يقررون الحىء لمصر عقب سقوط مدنهم، اذ أن مصر اعتادت استقبال الأندلسيين الذين تعرضوا لمثل هذه الظروف، وتتضمن المصادر أمثلة لذلك فى فترات سابقة، من ذلك على سبيل المثال ابراهيم ابن عبد الملك بن ابراهيم الجدامى البرنتيشى نسبة إلى حصن برنتيش من غرب الأندلس من أعمال أشبونة التى سقطت سنة ٥٤٢هـ. هذا الأندلسى استقر بالقاهرة، ووصفه السخاوى بأنه «تاجر السلطان» وتوفى بالإسكندرية فى أواخر رجب وأول شعبان سنة ٨٨٠هـ. وكان من أصحاب الاشرف قايتباى. ومن الغريب أنه أوصى قبيل وفاته بمعظم تركته لأهله الذين كانوا لا يزالون يعيشون فى برنتيش بالاشبونة بعد سقوطها فى ايدى البرتغاليين، ويقول السخاوى انه «لم يترك عنده الا مايكون شيئا تغتصبه الدولة»^(٣) وبعد وفاته بنحو ثلاثة أعوام وفد إلى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٣هـ مواطن آخر يدعى محمد بن أبى القاسم ويكنى بأبى الفضل بن أبى عبد الله محمد البرنتيشى وهو ابن عم والد ابراهيم البرنتيشى

(١) السخاوى، الضوء اللامع، المجلد الخامس، ج ٩.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) نفسه ج ١، ص ٥٢.

صاحب الترجمة السابقة، ربما سعيا إلى الظفر بميراث ابن عم والده المذكور. واستغل اقامته في القاهرة، فأخذ عن العلاء الحصني في الاصلين والمنطق والحكمة وعن حمزة البجائي نزيل الشيخونية في المنطق والمعاني والبيان. غير أنه حدث له أبحاف في أرثه، فقرر له السلطان راتباً في الجوالي، وصار يكرمه ثم لم يزل يتلطف به حتى استقر به في متجره بالإسكندرية كابن عم والده، وعاش بها حتى توفي سنة ٨٩٢هـ^(١).

ويذكر السخاوي أن أحد أفراد أسرة ابن الأحمر ويدعى أحمد بن عبد الله ابن إسماعيل ابن الأحمر، زار مصر في أوائل القرن التاسع الهجري. وقد روى عن الميدومي، والتقى بأبي بكر القلقشندي وحدث بالقاهرة سنة ٨٠٤هـ^(٢).

أما عن المصريين الذين زاروا مملكة غرناطة قبل سقوطها، فليس لدينا سوى اسم أحد الرحالة المصريين الذي زار غرناطة عشية سقوطها سنة ٨٧٠هـ وأعنى عبد الباسط بن خليل ابن شاهين الملطي المصري، وقد وصف أحد مواضع غرناطة بأنه يستخرج منه تراب أحمر اللون، يشبه في لونه الطين الارميني، يعرف في الأندلس بتراب الانجبار المعدني، كانت تصنع منه الكيزان التي يشرب بها الماء هناك، وكانت تبرد الماء إلى حد كبير^(٣).

ج- أخبار مملكة غرناطة في كتابات المؤرخين المصريين عشية سقوطها:

ورغم أن مواقف المملوكية السياسية، تجاه مسلمي غرناطة، لم تكن ايجابية، كما كان يتوقع من دولة كبيرة مثل مصر طالما ساندت الإسلام والعروية وتصدت لأعداء الإسلام من صليبيين ومغول وقبارصة وبيزنطيين عبر العصور، إلا أنها في

(١) نفسه، المجلد الرابع، ج ٨، ص ٢٨٩.

(٢) نفسه، ج ١، ص ٣٥٦.

(3) G.Levi Dell Vida: "Il Regno di Granata nel 1456. 66 Nel Ricrodidi un Viaggiatore Egiziana in (Al Andalus, Vol, Fasc. 2 ano 1933, p. 315).

راجع: نبذة العصر، ص ١٦١.

هذه المرحلة لم تضطلع بالدور المنتظر منها، وربما كان لسلطين المماليك فى مصر بعض العذر، اذ أن دولة المماليك فى هذه الفترة السابقة لسقوط غرناطة كانت فى دور الاحتضار، اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير. ولكن السياسة الرسمية الحذرة والمتحفظة لسلطين المماليك نحو مملكة غرناطة، لم تمنع المصريين من التعاطف مع اخوانهم الاندلسيين، ونلمح تلك المساندة النفسية والروحية فى كتابات مؤرخى مصر فى هذه الفترة التى تسبق سقوط غرناطة مباشرة، فقد تلهفوا على التقاط أخبار اخوانهم فى الأندلس، وكتبوا ما كان يصلهم عنهم من أخبار مختصرة. ومن تلك الأمثلة، الخبر الذى أورده المقرئزى فى كتابه «السلوك» فى أحداث عام ٨٤٠هـ عن أبى عبد الله محمد بن الأيسر بن الأمير نصر الدين بن السلطان أبى عبد الله بن نصر المعروف بابن الأحمر صاحب غرناطة^(١). كما ذكر المقرئزى فى أحداث شهر الحزم من سنة ٨٤٣هـ انه «وقع الصلح بين الفنسن ملك اشبيلية وقرطبة وغيرهما من ممالك الفرنج، وبين محمد بن الأحمر ملك المسلمين بغرناطة من بلاد الأندلس، بعد ما امتدت الفتنة بين الفريقين عدة سنين ولله الحمد»^(٢).

وذكر المقرئزى فى أحداث شهر ذى القعدة من عام ٨٤٤هـ انه بلغه أن «صاحب قشتالة من بلاد الفرنج عمر أربعين بينى وعشرة أغربة يريد رودس ليأخذ بثأرهم من المسلمين»^(٣) كما أورد فى حوادث نفس العام خبر سفارة السلطان الأيسر إلى الظاهر جقمق شأنه فى ذلك شأن السخاوى والجوهري كما سبق أن ذكرنا^(٤).

(١) المقرئزى، السلوك، الجزء الرابع، القسم الثانى، أخبار سنة ٨٤٠هـ. كما أورد المقرئزى فى أحداث سنة ٨٤١هـ أخبار المغرب وصراعه مع دولة البرتغال (المقرئزى): السلوك، ج ٤، القسم الثالث، أخبار سنة ٨٤١هـ، ص ١٠٥٩. هذا وقد ذكر ابن اياس أخبار الصراع بين صاحب فاس والافرنج فى أحداث ربيع الآخر سنة ٨٤١هـ، مما يدل على اهتمام مؤرخى مصر بأمر المغرب الإسلامى.

(٢) المقرئزى، السلوك، ج ٤، القسم الثالث، ص ١١٥٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢٧.

(٤) نفسه، ص ١٢١٩ - وارجع كذلك إلى السخاوى، الضوء اللامع، ج ٢٥، المجلد الثالث، ص ٦٧ - عبد العزيز الالهوانى، سفارة سياسية، ص ١١٣.

وفى سنة ٨٨٧ هـ ذكر ابن اياس انه «فى أواخر هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن حسن بن على بن أبى نصر بن سعد بن الأحمر، قد ثار على ابنه الغالب بالله صاحب غرناطة، وملك منه الأندلس بسبب أمه، فحقده عليه ذلك، واخرجه من غرناطة وملكها من ابنه، وجرى بينهما أمور يطول شرحها، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين وملكها الفرخ والأمر لله فى ذلك»^(١).

واستمرت أخبار مملكة غرناطة على هذا النحو تصل تباعا إلى مصر وتسجل فى كتابات ابن اياس، وفى احداث عام ٨٨٨ هـ أورد ابن اياس خبرا يذكر فيه وفاة قاضى الجماعة الأندلسى الغرناطى، المالكى الذى وصفه بانه كان من أهل العلم والفضل وقد توفى فى غرناطة^(٢).

وفى شهر رجب من عام ٨٩٠ هـ ذكر ابن اياس انه «جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة، وهو الغالب بالله أبو الحسن على بن سعد بن محمد بن الأحمر، وكان من خيار ملوك الغرب، مشتهرا بالعدل، عارفا بتدبير المملكة، حسن السيرة، لا بأس به»^(٣) ويسوق فى حوادث نفس العام اخبارا أخرى عن الأندلس انه «فى شهر شعبان عام ٨٩٠ هـ جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب بتونس وفاس وغير ذلك من البلاد، وأن الفرخ استولوا على مدينة مالقة»^(٤) ويكرر ابن اياس خبر سقوط مالقة فى احداث عام ٨٩٣ هـ^(٥).

وفى احداث شهر جمادى الآخرة من عام ٨٩١ هـ يذكر ابن اياس انه بلغه «وقوع فتنة كبيرة ببلاد فاس من أعمال الغرب، وقد حصل بين صاحب فاس والفرخ مالاخبر فيه من الحروب وقتل العسكر، وأن صاحب غرناطة توجه إلى عمه

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٩٩ - محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٦٣.

(٢) ابن اياس، البدائع، ج ٣، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٤) نفسه، ص ٢١٨ ومايليها.

(٥) نفسه، ص ٢٥٢.

يسأله في أن يرسل إليه نجده تعينه على قتال صاحب قشتالة، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله». ^(١) ويشير ابن اياس في حوادث ذى القعدة من عام ٨٩٢ هـ إلى السفارة الغرناطية إلى مصر كما سبق أن ذكرنا ويذكر رد فعل السلطان المملوكي قايتباي ازاءها. ^(٢) وفي احداث جمادى الآخرة من عام ٨٩٣ هـ يذكر ابن اياس انه بلغه نبأ استيلاء «الفنش صاحب قشتالية على مدينة مالقة من بلاد الأندلس وكانت كارثة عظيمة وقعت هناك» ^(٣).

وفي صفر من عام ٨٩٤ هـ، أورد ابن اياس خبرا مفاده أن صاحب فاس من بلاد الغرب، غزا الفرنج واستخلص منهم عدة بلاد كانت أخذت من يد المسلمين فأعادها لهم وقتل ولده في المعركة ^(٤).

وفي ذى الحجة من عام ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) يقول ابن اياس «وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن الفرنج أستولوا على مدينة غرناطة، وهى دار ملك الأندلس، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة. ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج وقرروا للفرنج فى كل سنة شيئا من المال يردونه لهم» ^(٥).

٤- علاقة المورييسكيين فى غرناطة بمصر عقب السقوط.

أ- السفارات المتبادلة بين مصر وأسبانيا.

بعد أن استولى الأسبان على المناطق المحيطة بغرناطة، بدأوا فى حصار المدينة واستمر هذا الحصار نحو سبعة أشهر، خسر خلالها أهل المدينة الكثير من فرسانهم ورجالهم الذين دافعوا عنها دفاعا بطوليا سجله التاريخ بسطور من نور، ولكنهم

(١) نفسه، ص ٢٣٠ : ٢٣١.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٣) نفسه، ص ٢٥٢.

(٤) نفسه، ص ٢٧٦.

(٥) نفسه، ص ٢٧٦.

اضطربوا في نهاية الأمر، بعد أن فقدوا الرجال ولم يعد لديهم مايقرون به على الصمود وبعد أن تخلى الأصدقاء والايخوان عنهم، إلى قبول المفاوضات سعيا إلى حقن الدماء. وأسفرت هذه المفاوضات عن عقد معاهدة بين السلطان أبى عبد الله، وبين الملكين الكاثوليكين في ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ / ٢٥ نوفمبر ١٤١٩م، تضمنت سبعة وستين بنداً طبقاً للمصادر العربية أو ستة وخمسين شرطاً طبقاً للمصادر القشتالية^(١).

وتعهد الملكان الكاثوليكيان بمقتضى هذه المعاهدة، بأمور كثيرة، ضماناً لأمن وسلامة سكان غرناطة وحفاظاً لحقوقهم. فقد كفلت للمسلمين حقهم في ممارسة لغتهم وشعائرهم ونظمهم الشرعية وعاداهم الاجتماعية. ورغم أن الملكين أقسما بدينهم وعرضهما على صيانة هذه المعاهدة إلى الأبد، إلا أن التعصب الأعمى والكراهية العميقة للعرب والمسلمين، لم تسمح بتنفيذ هذه البنود، فلم يحافظ الأسبان على عهودهم ولم يفوا بقسمهم فأخذوا يصطنعون سياسة تقوم اساساً على قمع واضطهاد مسلمي غرناطة، الذين اطلقوا عليهم اسم «الموريسكيين» والتنكيل بهم وارغامهم على التنصير. ويقسم المؤرخون تاريخ الموريسكيين في الأندلس إلى ثلاث مراحل أساسية:

أ- المرحلة الأولى وهي مرحلة الملكين الكاثوليكين، وهي التي حاول الأندلسيون خلالها مواجهة الاضطهاد الذي تعرضوا له رغم معاهدة التسليم التي تحفظ لهم حقوقهم وهي المرحلة التي يتناولها البحث بالدراسة بالذات.

٢- مرحلة الملكين شارل الخامس وفيليب الثاني، وتتميز باستمرار اصدار

(١) المقرئ، نفع الطيب، ج٦، ص ٢٦٨ ومايليها - نبذة العصر، ص ١٢٠ ومايليها، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، هيئة كتابة التاريخ، بغداد، ١٩٨٨، ص ٨ ومايليها، محمد عبده حتملة، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين، عمان ١٩٨٠، ص ١٤ ومايليها. وعن الخلاف في تحديد تاريخ سقوط غرناطة في يد العدو، ارجع إلى المقرئ، أزهار الرياض، ج١، ص ٦٥ ومايليها.

القرارات الرامية إلى ادماج الموريسكيين في المجتمع الاسباني، ومن أهم وقائعها الجهاد البحري الذي ساهم فيه الموريسكيون لانقاذ اخوانهم الذين قدر لهم البقاء في أسبانيا.

٣- مرحلة الملك فيليب الثالث، وأهم ما اتسمت به قناعة الملك بفشل محاولات الادماج واقارره لسياسة الطرد النهائي لباقي الموريسكيين من الأندلس^(١). وفي المرحلة الأولى من مراحل تاريخ الموريسكيين وهي التي يعالجها موضوع هذه الدراسة، خرج السلطان المخلوع أبو عبد الله من بلاده إلى المغرب فهاجر معه عدد كبير من أهل غرناطة^(٢)، وبذل الملكان الكاثوليكيان جهودا كبيرة لاغراء المسلمين بالرحيل مع ملكهم، غير أن عددا كبيرا منهم آثروا البقاء في الأندلس بعد أن اشتروا أملاك من رحل بأرخص الأسعار وساد الهدوء النسبي غرناطة، بعد سقوطها في أيدي الأسبان نحو سبع سنوات، وربما يرجع ذلك إلى اثنين من المسؤولين الاسبان ارتأيا أنه من الحكمة أن يتركوا الأمور تسير في بادئ الأمر بهدوء وفقا لشروط معاهدة التسليم حتى تستتب لهم الأمور. هذا المسؤولان هما كونت دى تنديا من أسرة مندوزا De Tendilla الذى عين قائدا وحاكما عام على غرناطة، وهرناندو دى تالافيرا Hernando De Talavera الذى عين اسقفا لغرناطة. وقد حاول أهالي غرناطة التأقلم مع الوضع الجديد، على الرغم من المضايقات التي تعرضوا لها منذ دخول الأسبان إلى المدينة. ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل بعد وصول رئيس الكنيسة الاسبانية الكاردينال خيمينث دى سيسنيروس Francisco Jimenez De Cisneros إلى غرناطة.

فقد كان هذا المطران خير من عبر عن تعصب رجال الكنيسة الاسبانية ضد البقية الباقية من المسلمين في أسبانيا، لقد كان رجال الدين المسيحيين يرون في

(١) محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٥٠.

(٢) المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨، نفح الطيب، ج ٦، ص ٢٨٠ ومايليها، نبذة العصر، ص ١٢٨ - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية، ص ١٣.

تكتل المسلمين في منطقة غرناطة وبلنسية وسرقسطة وبعض مناطق من اراغون وقشتالة، خطرا على الكيان الاسباني المسيحي^(١).

لذلك بدأ الكاردينال خيمينث في سياسة العنف والقمع ضد المسلمين الذين تمسكوا بدينهم، ناكثا بذلك نصوص معاهدة التسليم، واقتضى منه ذلك تفسيرها على هواه لصالح المملكة الاسبانية، فزالت حرمة أهل غرناطة وادرك الموريسكيين العذاب والهوان، وبدأ في ممارسة سلسلة من الاضطهادات بالضغط لإرغامهم على النصر، وقيل أن خمسين ألفا من المسلمين تنصروا لأول مرة في سنة ٩٠٤ هـ / ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م عندما اساء القساوسة اليهم، مما أدى إلى حدوث فتنة كبيرة بغرناطة. ورغم تنصرهم فقد كانوا موضع الرية والشك دائما^(٢). وقد ربط الكاردينال خيمينث بين تمسك الموريسكيين بدينهم وإقدامهم على الثورة وبين وجود بعض الفقهاء الذين كانوا يدفعونهم إلى الثورة، فأمر بالقبض على كبار فقهاء المسلمين وسجنهم بسبب امتناعهم عن اصدار فتوى تبيح للمسلمين التخلي عن اسلامهم. ولما وجد خيمينث أن سياسته التبشيرية العنيفة لم تقابل بالنجاح، عمل على قطع ارتباط الموريسكيين بتاريخهم، فأمر عام ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م موريسكى غرناطة أن يسلموا مالديهم من مخطوطات عربية ومصاحف. وقد حملت إلى ساحة المدينة العامة في ميدان باب الرملة لحرقها. وكانت هذه الآلاف من الكتب تشمل مختلف العلوم والآداب والأحاديث أى خلاصة التراث العربي الأندلسي. ويقدر البعض عدد تلك المؤلفات التي احترقت بشمانين ألف مخطوط عربي في حين يبالغ البعض الآخر في عددها فيقدرونها بمليون وخمسة آلاف كتاب^(٣). وقد أدى هذا الموقف إلى ازدياد التوتر بين مسلمي غرناطة خاصة بعد

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصيات الاسبانية، واحداث غرناطة في عهودهم، ارجع إلى محمد عبده حتمالة، التنصير القسري، ص ٦٢ ومايليها، على مظهر، محاكم التفتيش، ص ٧٥ ومايليها - جمال عبد الكريم، «الموريسكيون: تاريخهم وأديهم» مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، العددان الخامس والسادس يناير ويوليو ١٩٩٠ ص ١٤ ومايليها - عادل سعيد البشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص ١٠٨ ومايليها، محمد رزوق، الأندلسيون وهجرانهم، ص ٥٧ ومايليها.

(٢) على مظهر، محاكم التفتيش، ص ٧٥.

(٣) عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة، ص ١٧ - ١٨

أن أعقب هذا الحادث محاولات خيمينث حمل الموريسكيين على التنصر بالاكراه، وأكثر من عانى من تلك الأوضاع سكان حى البيازين، الذين تحول مسجدهم الجامع إلى كنيسة باسم «سان سلفادور» واكرهت بناتهم على الاقتران باسبان مسيحيين، كما أجبر رجالهم على الزواج بمسيحيات بهدف القضاء النهائى على روح العروبة^(١) والإسلام وقد كانت هذه الاجراءات سببا وراء انتفاضة أهالى حى البيازين سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م ومن بعدهم ثورة سكان منطقة البشرات Alpujarras الأولى سنة ١٥٠١م/٩٠٦هـ. وقد انتهت كلتا الثورتين بالفشل امام سياسة الارهاب التى اتبعها الاسبان، فعانى الموريسكيون بعد ذلك من الاضطهاد المتواصل مما دفعهم إلى طلب النجدة من اخوانهم فى بقية الأقطار الإسلامية كالمغرب ومصر والدولة العثمانية.

أما فيما يتعلق بمصر. فقد حاول موريسكيو غرناطة الاستنجاد بها، فأرسلوا كتبهم إلى سلطان مصر المملوكى (الغورى) يصفون له اكراه الأسبان لهم على التنصر، ويطلبون منه أن يتحرك دبلوماسيا بأن يندر الملكين الكاثوليكين بأنه سوف ينكل ويتقم من النصارى المقيمين عنده فى مملكته. وقد استجاب سلطان مصر لطلبهم وارسل إلى فرناندو يندره ويتوعده^(٢)، بأنه سيعامل رعاياه المسيحيين بمثل معاملته للموريسكيين فى غرناطة وانه سوف يجبرهم على اعتناق الإسلام غصبا وكرها^(٣).

(١) نفس المرجع، ص ١٧ ومايلها - محمد عبده حتملة، التنصير القسرى، ص ٧٣، وارجع كذلك إلى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص ١١٠ - ١١١، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣١٦ ومايلها.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٧٢ - ٣٢٤.

(٣) وفى ذلك يقول المؤرخ الأسبانى Luis Carciay Garcia :

Dicese que este amenaza de todos los cristianos para que renegando de la ley de Cristo, se abracen a Mahoma, el pretexto es que los pueblos granadinos han abandonado a Mahoma porque les han

فى تلك الاثناء أوحى جماعة من يهود غرناطة للملكين الكاثوليكين، بايفاد سفارة إلى مصر للقاء سلطانها المملوكى. بهدف اقناعه بأن مسلمى الأندلس يلقون رعاية ورفقا كبيرين فى ظل الحكم الأسباني^(١) لدحض أية محاولة مملوكية لمساندة المورييسكيين. وقد بادر الملكان بايفاد هذه السفارة فى يونيو ١٥٠١م برئاسة حبر ايطالى الاصل هو بيترو مارتير دى انجلريا Pedro Martir De Angleria وبمنظرة سريعة على ترجمة حياة هذا الحبر، ندرك تماما أى نتيجة ناجحة ستحرزها هذه السفارة الاسبانية.

وكان بيدرو مارتير من أصل ايطالى ولد سنة ١٤٥٥م، وكان أول اتصال له باسبانيا عندما وصل إليها فى ٢٩ أغسطس سنة ١٤٨٧م، برفقة سفير الملكين الكاثوليكين برومة. وشهد بيدور سقوط مملكة غرناطة، وسعد لسقوطها مما قربته كثيرا من نفس الملكين الكاثوليكين. وكان رجلا متعدد المواهب، فهو رجل حرب وسلام، وكذلك رجل فكر وأدب وسياسة، كما كان يمتاز بدهاء شديد وهى صفات لمحها فرناندو الكاثولىكى فأسند إليه فى سنة ١٤٩٥م، مهمة القيام بسفارة إلى ملك بوهيميا وهنغاريا، كما أرسله فى سنة ١٥١٨م فى سفارة إلى القسطنطينية زمن السلطان سليم الأول، بعد أن كان قد رأس سفارة مصر ١٥٠١ - ١٥٠٢م.

وقد رحب بيدرو مارتير بهذه المهمة لأنها وفرت له فرصة التعرف على مزيد من البلاد الشرقية وقد بدأت الرحلة بداية سيئة فقد اجتاحت المنطقة القطلانية التى خرجت منها السفارة، وباء سقطت له ضحايا كثيرة منها ثلاثة أفراد من أصدقاء بيدرو مارتير.

⁼ "obligado a ello por la violencia" Una Embajada de los reyes Catolicos a Egipto. Traduccion y notas de Luis Garcia y Garcia , Valladolid, 1947, p. 8.

(1) Una Embajada de los reyes Catolicos a Egipto, p.8.

ووصل أفراد السفارة إلى القاهرة (بولاق) في ٣١ يناير ١٥٠٢م^(١)، وقضوا الليلة في مراكزهم، وتم إبلاغ السلطان المملوكي بوصولهم، وبينما يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن السلطان المملوكي في ذلك الحين، كان الأشرف جانبلاط^(٢)، يؤكد الأستاذ الدكتور محمد عبده حتملة أن السلطان المملوكي كان قانصوه الغوري^(٣). ونحن نتفق مع الدكتور حتملة في أن قانصوه الغوري كان السلطان المملوكي الذي استقبل سفارة بيدرو مارتير. فقد كان الأشرف جانبلاط قد خلع في جمادى الآخرة سنة ٩٠٦هـ ما بين ٢٣ ديسمبر ١٥٠٠م إلى ٢١ يناير سنة ١٥٠١م ونفى في رجب ٩٠٦هـ / يناير / فبراير سنة ١٥٠١م. وتولى سلطنة مصر بعده العادل طومان باي الذي حكم مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام^(٤)، خلع بعدها فتسلطن قانصوه الغوري بعد أن وثب العسكر على العادل في أول رمضان سنة ٩٠٦هـ الموافق الأحد ٢١ مارس سنة ١٥٠١م، ومن الثابت أن بيدرو مارتير تلقى الاذن بالخروج إلى مصر في يونيو ١٥٠١م وخرج في أغسطس من نفس العام، ووصل إلى مصر في يناير من العام التالي ١٥٠٢م، مما لا يدع مجالاً للشك في أن سلطان مصر كان قانصوه الغوري.

وما يدل على تعاطف مصر المملوكية مع موريسيكي الأندلس، الرواية التي ذكرها بيدرو مارتير نفسه، وهي التي ذكر فيها أنه التقى بالشاب البلنسي «لويس دي برات» المسيحي الذي قبض عليه في إحدى السفن هو رفاقه، وسجن ثلاث سنوات في مصر، وحكم عليه بالأشغال الشاقة خلال فترة سجنه، وارغم عن طريق الجوع على نبذ المسيحية، أملاً في أن يعود إلى اعتناقها عند عودته لاسبانيا. وقد تحمل هذا الشاب حسبما يذكر بيدرو مارتير، تغيير اسمه، وحاول التقرب من

(١) المصدر نفسه، ص ٩٢.

(٢) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٧٢.

(٣) محمد عبده حتملة، التنصير القسري، ص ١٠٠.

(٤) ابن أبياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٧٧.

السلطات المصرية ونجح إلى حد ما بحيث انه عين مترجما لدى السلطان المملوكى عند مقابلته لبيدرو مارتير وأصحابه^(١).

وفى أول فبراير عام ١٥٠٢م، سمح لبيدرو مارتير بالدخول إلى القاهرة. وفى يوم ٢ فبراير اذن له بالصعود إلى القلعة المقابلة للسلطان، وكان السلطان ملما بما كان للملكين الكاثوليكين من قرارات ومكانة عالية. ويؤكد بيدرو مارتير، أنه كانت بالقاهرة جماعة من أهل غرناطة المطرودين وكذلك جماعات من اليهود^(٢). وقد كانت تلك المقابلة قصيرة، اذ نقل إلى اسماع السلطان قانصوه الغورى، امتعاض الاندلسيين المنفيين إلى مصر وبعض السفراء المغاربة الذين كانوا فى زيارة لمصر، وانكارهم لمسلكه فى تكريم سفارة من قضى على الإسلام فى الأندلس، ونكل بالمسلمين وسامهم العذاب. لذلك أمر السلطان المملوكى السفير بيدرو مارتير بالانصراف خوفا من سوء العواقب. ويذكر بيدرو مارتير فى سرده لرحلته. أن تلك المقابلة الأولى أعقبتها مقابلتان أخريان، بعد أن نجح فى اقناع السلطان المملوكى التى فند فيها ما يقال من انهما استوليا ظلما على غرناطة، واضطهد المسلمين واجبراهم على التنصر قهرا. ومن الواضح لمن يقرأ تفاصيل هذه السفارة انها حققت نجاحا كبيرا خاصة وان بيدرو مارتير تمكن من انتزاع اعفاء من السلطان المملوكى، لمسيحي بيت المقدس من المغارم والفروض^(٣).

ومن ذلك يتضح أن موقف الممالك من مسلمى الأندلس، كان سلبيا إلى حد كبير، وربما يرجع ذلك كما سبق أن ذكرنا إلى بعد الأندلس واعتماد الممالك على القوة البرية دون البحرية وتطلع السلطان المملوكى فى سياسته الخارجية نحو الشرق الأدنى، حيث انبثق خطر قيام الدولة العثمانية الفتية بالعدوان على مصر والشام. ومع ذلك فاننا لانستطيع أن نعفى الممالك من المسؤولية،

(1) Una Embajada, p, 94.

(2) Ibidem., p. 100.

(3) Ibidem., pp. 100-110.

ولانملك أن نغنى غيرهم من القوى الإسلامية التي تواجدت على المسرح السياسى فى ذلك الوقت، فلو أن المسلمين من أتراك - عثمانيين وماليك، قد وحدوا قواهم ونظموها ونسقوا فيما بينها واهتموا جديا بنصرة أهل غرناطة لكانوا قد حالوا بين حدوث هذه الكارثة التى لاتزال سيرتها تمثل جرحا عميقا داميا فى نفوس كل المسلمين^(١)، يؤلم ضمائرنا ويهز وجداننا ويوقظ من غفل منا على الاخطار المحيطة بنا.

ب- غرناطة فى كتابات ابن اياس غداة سقوطها:

عقب سقوط آخر صرح لدولة الإسلام فى الأندلس، استمر اهتمام مؤرخى مصر الذين كانوا يعبرون بلا شك عن نبض الشعب المصرى العربى المسلم. فقد استمرت كتابات ابن اياس تشمل الاهتمام أبناء المغرب الإسلامى. ففى حوادث عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٨ م يتحدث ابن اياس عن انتصارات مسلمى المغرب على الفرنج^(٢). وفى حوادث ذو الحجة من عام ٩٠٤هـ يذكر أبناء حدوث فتنة مهولة ببلاد المغرب بين ملوك الفرنج وملوك المغرب، ويحمد ابن اياس ربه، أن الفتنة انتهت بانتصار المسلمين^(٣). وفى حوادث صفر من عام ٩٠٦هـ يورد ابن اياس خبرا يذكر فيه أنباء عامة ربما عن أحداث ثورتى البيازين والبشرات الأولى. وفى ذلك يقول «وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب، بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة، التى هى دار ملك الأندلس، ووضعوا فى المسلمين السيف، وقالوا: من دخل فى ديننا تركناه ومن لم يدخل فى ديننا قتلناه فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل، ثم ثار عليهم المسلمون ثانيا، وانتصفوا عليهم بعض شىء، واستمر الحرب بينهما ثائرا والامر لله^(٤)».

(١) انطونيو دومينغير هورتز، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون، حياة ومأساة أقالة، ص ٨٢٧.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٤) نفسه، ص ٤٤٨.

ج- اندلسيون فى مصر بعد سقوط غرناطة:

يؤكد بيدرو مارتير عند زيارته لمصر، وجود عدد كبير من الغرناطين فيها، وإن كانت المصادر العربية لم تذكر أسماء بعض هؤلاء الوافدين إلا فيما ندر. وربما ازداد عدد القادمين من الأندلس إلى مصر بعد إعلان قرار النفي الأخير ١٦٠٩ م، فقد أكد المقرئ إبحار الأندلسيين المنفيين إلى مصر والشام والقسطنطينية^(١) وفيما يلي أسماء بعض الأندلسيين الذين أما عاشوا فى مصر أو زاروها بعد سقوط غرناطة. فالمؤرخ نجم الدين الغزى يذكر فى كتاب «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» أن محمد بن يوسف بن عبد الله الأندلسى، قاضى القضاة المالكية، قدم إلى دمشق، وولى قضاءها، واعتضد أموره بحفتى المالكية هناك، ولكنه نفى بعد ذلك إلى قوص بمصر، وأقام بها فترة ثم تركها ورحل إلى بلاد التكرور حيث مات ٩٢٠ هـ^(٢).

هذا وقد كثرت زيارات الموريسكيين الذين أقاموا فى بلاد المغرب الإسلامى إلى مصر أثناء قيامهم باداء فريضة الحج، ومن هؤلاء رحالة وأديب موريسكى هو «حاج بيوى منسون» الذى رحل إلى الحج من بلنسية إلى تونس فمصر فالحجاز، وذلك فى القرن العاشر الهجرى ١٦ ميلادى وقد وصف رحلته والديار المقدسة ووجد نصها الاسبانى مكتوبا بحروف عربية صعبة القراءة وغير واضحة، وقد نشر هذه الرحلة الموريسكية المستشرق مريانا دى بانو بحروف لاتينية^(٣).

ومن العلماء الموريسكيين الغرناطينيين الذين زاروا مصر فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى العالم، أحمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قاسم بن

(١) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٤٠١.

(٢) نجم الدين الغزى، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبر، ج ١، بيروت، ١٩٤٥، ص ٧٣.

(٣) خالد بن عيسى البلوى، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق العلامة الحسن السائح، ج ١، طبعة صندوق أحياء التراث الإسلامية، ص ٩٥.

الشيخ الحجري المعروف بالشهاب الحجري وكذلك بأفوقاي^(١) وأفوقاي موريكي من أحواز غرناطة، فر من الأندلس في سنة ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨ م وقد روى لنا قصة فراره من أسبانيا في خاتمة كتابه «العز والمنافع» ويشير الشهاب الحجري في كتاب المذكور إلى المقرئ مؤرخ الأندلس وإلى كتابه «نفع الطيب» فقد التقيا في مصر أثناء مرور الحجري بها في طريقه للحج، أو عند عودته من أداء الفريضة فيما يقرب من سنة ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م أى قبيل وفاة المقرئ بقليل.

ولأفوقاي كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين» وقام بتحقيقه الدكتور محمد رزوق وقد تحدث فيه الشهاب الحجري (أفوقاي) عن الشخصيات البارزة التي قابلها في مصر ومنها الشيخ على بن محمد المدعو زين بن العلامة الشيخ عبد الرحمن بن الاجهوري المالكي ويعبر عن ذلك بقوله «وذكرت بعد ذلك حين وليت إلى مراکش شيئاً من الحكايات والمناظرات والاجوبة، منى اليهم لبعض الأخوان، وطلب منى غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتفق العمل، إلى أن أمر بى شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله، وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه في الأقطار والبلدان: الشيخ على بن محمد المدعو زين أبو العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن الاجهوري المالكي بأكثر مما طلبوا، وجعلت التأليف رحلة سميتها برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، وذكرت فيها أولاً بلاد الأندلس في أى موضع هى من معمور الدنيا والأقطار المجاورة لها..^(٢) ويتضح مما سبق ذكره أن أفوقاي دخل في مناظرات علمية مع الاجهوري كما دخل في مناظرة مع أحد الرهبان^(٣). ويبدو أن أفوقاي زار الأزهر حيث قابل بعض الهنود في رواق الهنود^(٤).

(١) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٥٠٢، ٥٠٣.

(٢) أحمد بن قاسم الحجري، (أفوقاي) ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق،

١٩٨٧، الدار البيضاء، ص ١٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٣ - ١١٥.

(٤) نفسه، ص ٩٧.

ومن الجدير بالذكر أن افوقاي يشيد بمكانة مصر في نفسه وفي ذلك يقول «وتقول النصارى أن أعظم مدن الدنيا القسطنطينية ثم مدينة بریش، ثم مدينة لشبونة ببلاد الأندلس، وكان من حقهم أن يذكروا مصر، الا أنهم يقولون لها القاهرة الكبيرة، وإذا جمعا مع مصر، مصر العتيق، وبولاق وقاية باى، لم ندر من هى أعظم بریش أو مصر بما ذكرنا»^(١).

وهذا الوصف يؤكد مدى العلاقة القوية التى ربطت بين أبناء مصر وأبناء الغرب الإسلامى، فمكانة مصر كانت لديهم كبيرة إلى حد أنهم كانوا يرونها تفوق باريس حسنا وجمالا ويؤكد ذلك ما ذكره فى موضع آخر فى كتابه «فأما مصر المحروسة بالله، فهى من أعظم مدن الدنيا، هى مثل بریش (باريس) بفرنصة، إذا اضيف إليها مصر العتيق، وبولاق، وهى تحتوى على اثنى عشر الف قرية...»^(٢).

أما الجبرتى شيخ مؤرخى مصر فى العصر الحديث فيزودنا بترجمة لعالم اندلسى يرجع بأصله إلى المرية، زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى، وهى فترة متأخرة كثيرا عن سقوط غرناطة، ولكنها تؤكد استمرار الصلة العميقة التى طالما ربطت بين مصر من جهة وأبناء المغرب والأندلس من جهة أخرى، ذلك العالم هو الإمام الفقيه المحدث المتجر الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الطالب بن سودة المرى الفاسى الذى ولد بفاس سنة ١١٢٨هـ، وتلمذ على يد علمائها هناك مثل أبى عبد الله محمد بن عبد السلام الناصرى، شارح الاكتفاء والشفاء والشهاب أحمد بن عبد العزيز الهلالى السجلماسى، وكذلك الشهاب أحمد بن مبارك السجلماسى اللمطى الذى قرأ عليه المنطق والكلام والبيان والأصول والتفسير والحديث.

وفد الإمام أبو عبد الله محمد المرى إلى مصر فى سنة ١١٨١هـ، وغادرها فى سنة ١١٨٢م، وقد ألف درسا حافلا بالجامع الأزهر برواق المغاربة، وقرأ الموطأ

(١) نفسه، ص ٤٩.

(٢) نفسه، ص ٩٦.

بتمامه وحضره معظم الموجودين من العلماء ، وقد اجاد في تقريره ، وافاد وسمع عليه الكثير، وذهب إلى مكة، وعاد إلى مصر حيث اجتمع بكبار علمائها امثال الجوهرى والصعيدى وحسن الجبرتى والطحلاوى والسيد العيدروس والشيخ محمود الكردى، وعيسى البراوى والبيومى وعطية الاجهورى وللإمام أبى عبد الله محمد المرى تأليف كثيرة منها حاشية على البخارى فى أربع مجلدات^(١).

(١) الجبرتى، عجائب الآثار، ج ٢، ص ٢٤٢.

قطر ومواردها الاقتصادية في العصور الوسطى

قطر ومواردها الاقتصادية في العصور الوسطى

تمهيد:

الأبعاد الجغرافية والتاريخية لقطر في العصور الوسطى:

يعتقد الكثيرون أن اسم «قطر» ليس سوى مسمى حديثا لامارة برزت واستقلت سياسيا في العصر الحديث. ولكن بالعودة إلى المصادر العربية التي ترجع إلى العصور الإسلامية الوسيطة نجد أن قطر شكلت كيانا طبيعيا وجغرافيا معروفا ومتميزا في تلك العصور. فقطر بفتح القاف والطاء واسكان الراء، هي شبه جزيرة كبيرة تحيط بها مجموعة من الجزر الصغيرة وتقع جميعها على الساحل الغربي للخليج العربي^(١).

ويعتبر المسعودي أول من أشار إلى ذلك في كتابه مروج الذهب، فقد وصف قطر بأنها مجموعة من الجزائر التي تقع في بحر فارس^(٢). وتبعه الإدريسي في ذلك فقد أكد في كتابه نزهة المشتاق أن بحر قطر به عدة جزائر خالية من السكان^(٣).

ويختلف الجغرافيون والمؤرخون العرب فيما بينهم حول تحديد الوضع الجغرافي والأبعاد الطبيعية والتاريخية التي كانت عليها قطر في العصور الوسطى، فمنهم من يرى أن قطر كانت قصبة عمان وأنها كانت تابعة لكوثرها ويأتي على رأس هذا الفريق ابن خلكان الذي وصف قطر في كتابه وفيات الاعيان في سياق حديثه عن قطري بن الفجاءة بقوله «وقيل أن قطري ليس باسم ولكنه نسبة إلى موضع بين البحرين وعمان وهو اسم بلد كان منه أبو نعامه المذكور «قطري بن الفجاءة» فنسب إليه وقيل أنه هو قصبة عمان والقصبة هي كرسى الكورة^(٤)».

وهناك من الجغرافيين العرب من أطلق اسم البحرين على المنطقة الواقعة على الساحل الغربي للخليج العربي، والممتدة من البصرة حتى عمان وهي المنطقة التي تشمل أراضي اماراة الكويت حاليا ومنطقة الاحساء في المملكة العربية السعودية

تشمل أراضي إمارة الكويت حالياً ومنطقة الاحساء في المملكة العربية السعودية ودولة قطر وسلطنة عمان وجزر البحرين، ومن الجدير بالذكر أن البحرين كانت تسمى قديماً بأوال، كما كان اسم هجر بفتح الهاء والجيم يطلق على الاحساء ومحولها من بلاد، كذلك كان اسم الخط يطلق على ساحلها.^(٥)

ويعتبر هذا الفريق أن كلا من القطيف والعقير وقطر كانت بمثابة قرى للبحرين^(٦). ومن هؤلاء ياقوت الحموي الذي وصف قطر في معجم البلدان بقوله «في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية يقال لها قطر....».^(٧) وكذلك يحدد البكري موقع قطر بين البحرين وعمان ويعتبرها من بلاد البحرين^(٨). ويصفها البغدادي الذي نسب قطري بن الفجاءة إلى قطر بأنها موضع بين البحر وعمان من بلاد البحرين^(٩). أما ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر فقد اكتفيا بتحديد موضع قطر بين المراحل الممتدة على طول الطريق بين البصرة وعمان دون أن يحددا وضع قطر الإداري والطبيعي^(١٠).

ويرى بعض المؤرخين أن بلاد قطر الحالية هي أصل بلاد البحرين القديمة بناء على ماورد من روايات في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، وذلك خلافا لما يراه كل من ياقوت الحموي والبكري^(١١).

فهذه الروايات والنصوص تذكر أن البحرين سميت بهذا الاسم لأن هناك دخلة من الأرض في البحر الكبير (المقصود به الخليج العربي) كالجزيرة، وبذلك فإن هذه الدخلة البرية التي يمكن أن نطلق عليها «اسم شبه الجزيرة» طبقاً للمصطلحات الجغرافية الحديثة، تكاد تقسم الخليج العربي إلى قسمين أو بحرين وهذا مايتفق الآن وشبه جزيرة قطر الحالية^(١٢).

وبعد استعراض هذه الآراء المختلفة والمتناقضة نتبين أن اسم «قطر» كانت له خلال العصور الوسطى دلالة الجغرافية والطبيعية الخاصة به شأنه في ذلك شأن اسم «البحرين» واسم «عمان» وأن قطر لم تكن مجرد قرية من قرى البحرين المغمورة كما ورد في بعض الآراء أو قصبة عمان كما ورد في البعض الآخر بل

كانت كيانا خاصا له قدر كبير من الاستقلالية والتميز إلى حد أن ابن منظور يصف قطر في لسان العرب بأنها مدينة وليست قرية تقع بين القطيف وعمان^(١٣). ويؤكد ذلك أننا نجد اشارات عديدة في المصادر العربية إلى درر قطرية وأشخاص ينتسبون إلى قطر، فقطرى بن الفجاءة على حد قول ابن خلكان انتسب إلى قطر مسقط رأسه كذلك وصف الاصطخرى عبادان أنها كانت رباطا فيه محارس للقطرية اتباع قطرى بن الفجاءة^(١٤). كما يشير كل من ابن رسته في الاعلاق النفيسة والمسعودى فى مروج الذهب إلى مدى شهرة قطر بمغاص اللؤلؤ الذى نسبته ابن رسته إليها بقوله «اللؤلؤ القطرى»^(١٥)، بل ان المسعودى عندما تحدث عن اللؤلؤ الخاص بالبحر الحبشى ذكر أنه يستخرج من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب فساوى بذلك بين هذه المسميات واعتبرها بلادا قائمة بذاتها وهو ما يشير إلى وضع قطر فى العصر الإسلامى، وينسب الادريسى مياه الخليج العربى المحيطة بقطر إليها ويسمياها بحر قطر كما يطلق اسم قطر على احدى الجزر بالخليج العربى^(١٦)، فلو كانت قطر مجرد قرية مغمورة من قرى البحرين فلماذا نسبت إليها شخصيات وسلع ومنتجات ومواضع معينة، ولماذا لم نقرأ فى المصادر العربية من ينتسب إلى القرى الأخرى، كالقطيفى أو العقيرى أو نقرأ عن بحر القطيف وبحر العقير مثلما قرأنا عن بحر قطر، وهذا يثبت بما لا يدع مجالا للشك فى أن قطر كانت لها شخصية طبيعية وجغرافية على قدر كبير من الخصوصية والتميز عن سائر قرى البحرين والمواضع الخليجية الأخرى. وأستند فيما ذهبت إليه إلى الأدلة التالية:

أولاً: تجاهل ابن حوقل ذكر قطر بين قرى البحرين مما يؤكد وجود قدر من التميز والخصوصية الطبيعية والتاريخية لقطر فهو يقول «وأما البحرين ومدنها وهى هجر والاحساء والقطيف والعقير وبيشة والخرج وأوال وهى جزيرة...»^(١٧).

ثانياً : رغم ما أورده ياقوت الحموى عند وصفه لقطر بأنها قرية فى أعراض البحرين كما سبق أن ذكرنا فإنه يعود فى نهاية تعليقه عن قطر ووصفه لموضعها فيقول «وما يصحح انها (أى قطر) بين عمان والبحرين قول عبدة بن الطيب:

تذكر ساداتنا أهلهم فخافوا عمان وخافوا قطر

وهذه العبارة صريحة تماما وتؤكد عدول الحموى عما سبق أن ذكره عن تبعية قطر للبحرين وتأكيده أن قطر كيان قائم بذاته يقع بين كل من عمان والبحرين كذلك نراه ينص أثناء تعريفه لمنطقة بيرين، وهى التى كانت بأعلى بلاد بنى سعد تعيش فيها طيور النعام على أنها من أصقاع البحرين^(١٨) بينما نجده فى موضع آخر من كتابه يؤكد على اصطيد الصيادين لبيضها من بيرين وقيامهم بنقله إلى قطر^(١٩) فلو أن قطر كانت جزءا من البحرين وقرية من قرأها لما نص الحموى على قيام الصيادين بنقل بيض النعام من بيرين فى البحرين إلى قطر باعتبار أن جميعها تتبع بلدا واحدا الا اذا كانت قطر بالفعل بلدا مختلفا عن البحرين.

كذلك ذكر ياقوت فى سياق تحديده لشقار أنها تقع بين أوال وقطر^(٢٠)، ولما كانت أوال هى أحد الأسماء التى اطلقت على البحرين^(٢١)، فان تفرقة ياقوت بين أوال وقطر تؤكد تأكيدا قاطعا على أن قطر لم تكن تابعة للبحرين (أوال) أو احدى قرأها.

ثالثا: تأكيد الادريسي فى احدى النصوص التى اوردها فى نزهة المشتاق بما يشير إلى عدم تبعية قطر للبحرين وإلى اختلاف قطر كبلد وقطر عنها تماما. فقد أورد نصا استعرض فيه أهم المدن والمناطق التابعة لقطر بقوله « ومن جلفار^(٢٢) وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مرسى السبخة وهو مرسى فيه عين نابعة عذبة ومنه إلى شقاب، وبار، وبحر عويص صعب السلوك وتسمى هذه الأمكنة ببحر قطر، وفى هذا البحر عدة جزائر خالية لا عامر بها يأوى إليها أجناس من الطير البحرى والبرى... وليس على بحر قطر ساكن ولا يأوى إليه أحد وهو مكان مخوف برا وبحرا ومنه يسار إلى مرسى المفقود وهو مرسى جليل مكن من رياح شتى وبه عين ماء عزيز عذب ومنه إلى ساحل هجر وهو أول بلاد البحرين....»^(٢٣).

وبما سبق عرضه، يتضح أن قطر تقع فى المنطقة الواقعة ما بين جلفار فى عمان

وهجر التي وصفها الادريسي وحدد موقعها بأنها أول بلاد البحرين، وبهذا تكون قطر وكل أسماء المواضع التي وردت في النص في بحر قطر مدنا ومناطق تابعة لقطر ومطلّة على بحرهما، خارج نطاق البحرين.

واعتبر هذا النص غاية في الأهمية لأنه يجزم بعدم تبعية قطر لا لعمان ولا للبحرين.

ولعل هذا يذكرنا بلفظة قطراى Cataraci التي أوردها بيلينيوس والتي فسرّها الكثيرون بأنها تعنى سكان اقليم قطر منذ اقدم العصور، كما أن الجغرافي الشهير بطليموس المتوفى سنة ١٦٧م قد وضع خريطة لبلاد العرب جاء بها اسم قطراى التي رجح بعض المؤرخين أنها ربما تكون تعبيرا عن أسم قطر (٢٤).

وإذا أعدنا استقراء بيت الشعر الذي أورده الشاعر عبدة بن الطيب*، فسوف يتأكد رأينا من أهمية قطر وتميزها طبيعيا وجغرافيا وتاريخيا، شأنها في ذلك شأن كل من البحرين وعمان فهو في قوله:

تذكر ساداتنا أهلهم
فخافوا عمان وخافوا قطر

وخافوا الرواطى اذا أعرضت
ملا مس أولادهن البقر (٢٥)

قد سارى في حقيقة الأمر بين عمان وقطر، وهذا يشير إلى مكانة قطر ووضعها الذي كانت عليه في العصور الوسطى، فلو كانت تابعة لعمان مثلما أشار ابن خلكان فيما بعد، أو مجرد قرية مغمورة من قرى البحرين مثلما أكد البكرى وياقوت، لما كان هذا الشاعر المخضرم قد سارى بين عمان كبلد معروف في التاريخ وبين قطر.

ولايعنى استخدام كبار المؤرخين أمثال الطبرى وابن الأثير مصطلح البحرين للدلالة على المنطقة الممتدة ما بين كل من البصرة وعمان، انكار وجود كيان مستقل لقطر، فهذا الاستخدام أشبه باستخدامنا لبعض المصطلحات السياسية والجغرافية في العصر الحديث، فعندما نقول «الخليج العربى» فقط دون تحديد، فأننا

* أو ابن الطيب كما ورد في عدة مصادر.

نعنى بهذا المصطلح فى واقع الأمر ستة دول خليجية هامة لكل منها كيان سياسى مستقل، وكذلك مصطلح «الشام» الذى يشمل ضمنا أربع كيانات سياسية قائمة بذاتها وأيضاً مصطلح «المغرب العربى» ومصطلح «الشرق الأقصى» و «الشرق الأوسط» و «القرن الافريقى» فكل مصطلح من هذه المصطلحات يتضمن عدة دول مستقلة وقائمة بذاتها.

أما كلمة «الروايطى» فقد فسر ياقوت معناها بقوله «الروايطى ناس من عبد القيس لصوص»^(٢٦) وهذا يؤكد أن قطر كانت مستقرا لقبائل عبد القيس شأنها فى ذلك شأن عمان، منذ فجر التاريخ العربى كما كانت مستقرا لتميم بن مازن الذى ينتمى اليهم قطرى بن الفجاءة. وكان المنذر بن ساوى ملكا على البحرين، وكان قد أعلن اسلامه بعد أن أرسل إليه النبى ﷺ، العلاء بن الحضرمى رسولا. وقد قضى المنذر بن ساوى نجه بعد وفاة الرسول ﷺ بقليل^(٢٧).

ونرجح أن قطر كانت خاضعة آنذاك للجارود بن عمرو بن حنش بن معلى فهو كما يذكر ابن الأثير ينتمى إلى عبد القيس^(٢٨) وهى نفس القبيلة التى سبق أن أشرنا إلى أنها استوطنت منطقة قطر بناء على ماورد فى شعر عبدة بن الطبيب^(٢٩) كما استوطنت مناطق من البحرين وعمان. وكان الجارود قد قدم على النبى ﷺ وتفقه على يديه ثم عاد إلى قومه عبد القيس فترأس فيهم^(٣٠). ولما مات الرسول ﷺ ومات المنذر بن ساوى ارتد أهل البحرين، ولم تحدد المصادر موقف قطر صراحة من الردة آنذاك. وفى تصورى أن قطر حافظت على اسلامها فقد اجمعت المصادر على ثبات عبد القيس وملكهم الجارود على مبادئ الاسلام وفى ذلك يقول الطبرى فقالت عبد القيس، لو كان محمد نبيا لما مات وارتدوا وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال يامعشر عبد القيس انى سائلكم عن أمر فأخبرونى به ان علمتمونى ولا تجيبونى ان لم تعلموا. قال سل عما بدا لك، قال تعلمون انه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم، قال تعلمونه أو ترونه قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوا، قالوا ماتوا، قال فان محمد ص ﷺ مات كما ماتوا وأنا

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإنك سيدنا وأفضلنا، وثبتوا على اسلامهم... (٣١). وكذلك أكد ابن الاثير على ثبات اسلام عبد القيس (٣٢) ونرجح أن تكون عبد القيس قد حافظت على اسلامها سواء من استوطن منهم فى قطر أو البحرين لأن المصادر لم تفرق بين عبد القيس فى كل منهما، فى حين ثارت قبائل عربية أخرى كان تنزل فى البحرين بخلاف عبد القيس مثل ربيعة وبكر بن وائل الذين توجهوا بعد تولى أبى بكر الخلافة إلى عاصمة فارس والتقوا بكسرى الفرس، وتم الاتفاق بين الطرفين على تنصيب المنذر بن النعمان بن المنذر أحد بقايا بيت المنذر ملكا على البحرين (٣٣).

وقد ابلت قطر بلاء حسنا عند هجوم الجيوش الاسلامية على فارس، وكان العلاء الحضرمى قد قام بمحاولة شخصية لفتح منطقة اصبطخر فخرج دون اذن من الخليفة عمر بن الخطاب، وجعل الجارود بن المعلى على إحدى الفرق، وسوار بن الهمام على فرقة ثانية، وخليد بن المنذر بن ساوى على فرقة ثالثة، ثم عبروا البحر مع باقى المقاتلين الذين كان جلهم من عبد القيس كبرى قبائل البحرين وقطر إلى بلاد فارس ونزلوا اصبطخر. واشتبك المسلمون مع الفرس، موقعة «الطاووس» التى أحرز فيها المسلمون نصرا كبيرا رغم استشهاد سوار والجارود وإن كان القائدان الفارسيان شهرى والهريذا قد نجحا فى تطويق الجيوش الاسلامية مما دفع كل من عتبة بن غزوان والاحنف بن قيس التميمي إلى التوجه للقاء خليد بن المنذر لانجاده على عجل (٣٤). وشهدت قطر زمن الأمويين نفس الاحداث التى شهدتها المنطقة فقد ولى معاوية بن ابى سفيان زياد بن ابية على البصرة وخراسان وسجستان وجمع له إلى جانب ذلك كل من الهند والبحرين وعمان (٣٥). ونرجح أن قطر تعرضت لما تعرضت له البحرين أثناء خروج أبى فديك الخارجى على الدولة الأموية سنة ٧٢هـ. وقد غلب أبو فديك على البحرين وما حولها وقتل نجدة بن عامر الحنفى، فى حين استولى قطرى بن الفجاءة على الأهواز، ثم أحرز أبو فديك عدة انتصارات على الجيوش الأموية فى بداية الأمر، ولكنه قتل سنة ٧٣هـ.

بعد موقعة المشقر التي خاضها سنة ٧٣ هـ مع القائد الاموى عمر بن عبيد الله بن معمر الذى أرسله الخليفة عبد الملك بن مروان لمواجهة^(٣٦).

وفى العصر العباسى خضعت قطر والبحرين والاحساء لدولة القرامطة وخلفهم آل مسلم^(٣٧) على حكم قطر بعد زوال دولتهم. وفى منتصف القرن السادس الهجرى قامت فى عمان دولة النبهانيين، التي نجحت فى الاستيلاء على قطر فى القرن الثامن الهجرى وبقيت شبه الجزيرة القطرية خاضعة لحكم النبهانيين حتى سنة ٩٢٢ هـ^(٣٨). ونلاحظ أن المصادر العربية استخدمت المصطلح العام «بلاد البحرين» أثناء سردها للأحداث التاريخية التي مرت بها المنطقة عبر مختلف العصور الإسلامية، من نفس المنطلق الذى أوضحناه فى الصفحات السابقة. ويصعب علينا فى هذه الدراسة التمهيدية القصيرة^{*}. تتعرض بتفصيل واف لتاريخ منطقة شرق الجزيرة العربية السياسى، فهذا يحتاج منا إلى اعداد دراسات تاريخية قائمة بذاتها كما أن موضوع هذا البحث لايتعلق بالتاريخ السياسى بقدر مايتعلق بموارد الثروة الاقتصادية لقطر فى العصر الاسلامى الوسيط.

موارد الثروة الاقتصادية فى قطر فى العصر الاسلامى:

وصفت المصادر العربية منطقة «البحرين» وماحولها بأنها منطقة خصبة وغنية بشتى أنواع الثمار، من ذلك ما ذكره ابن حوقل «وطريق مكة بعد اقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل لأتباعهم المعروفين كانوا بالمؤمنين»^(٣٩).

وقد أكد ناصر خسرو علوى على ثراء هذه المنطقة بالنخيل^(٤٠)، كما أشار إلى أن الأهالى فى البحرين والاحساء كانوا يسمنون به مواشيهم لكثرتهم. وكذلك الحميرى الذى وصف بلاد خارك من البحرين بأنه يتوفر بها الكثير من الزروع والأرز والكروم والنخيل وأنها كانت كثيرة الاعشاب والعيون المائية. وإذا كان كل من ناصر خسرو علوى وابن حوقل والحميرى قد تحدثوا عن أهم المزروعات

والمحاصيل الزراعية في بلاد البحرين ومنها الاحساء وخارك، ولم يذكروا قطر صراحة فإتينا رغم ذلك نعمم مذكروه على قطر أيضا حيث أنه من المسلم به أن المحاصيل الزراعية لا تنمو في مناطق محددة محصورة وإنما تنمو وتنبث في اقاليم واسعة وممتدة، لأن الزراعة تتبع اقاليمها مناخية معينة، لذا فإن ما ينبث في كل من الاحساء والقطيف مثلا وهى مدن قريبة من حيث الموقع الجغرافى من قطر، لابد بداهة أن ينبث وينمو فى قطر لاشتراكها جميعا فى المناخ ونوع التربة، خاصة فيما يتعلق بزراعة النخيل الذى يشكل عادة ما يشبه الغابات الممتدة فى أى منطقة ينبث بها.

ويؤكد رأينا هذا مذكره البكرى فى كتابه معجم ما استعجم عن شهرة قطر بصناعة الخمر فالخمر تصنع اما من التمر أو من الكروم والاعناب مما يرجح اشتهار قطر أيضا بزراعة الأعناب. وبهذا تكون قطر قد تميزت عن غيرها من أقطار المنطقة بهذه الصناعة التى ترتبت على زراعة التمر والكروم. كذلك يتبادر إلى الأذهان ضرورة قيام أهالى قطر بطحن الحبوب استنادا إلى أن ناصر خسرو علوى يشير إلى انتشار هذه الحرفة والصناعة فى منطقة الاحساء القريبة من قطر^(٤٣) كما يؤكد الحميرى على اهتمام أهالى خارك بطحن الغلال^(٤٤).

واشتهرت قطر وتميزت بين اقطار الخليج العربى بصناعة المنسوجات والثياب القطرية التى أشار إليها ياقوت الحموى فى معجم البلدان فى سياق تفسيره لاسم قطر ومعناه فهو يقول: «أما قطر بالتحريك وآخره راء وروى عن ابن سيرين أنه كان يكره القطر وهو أن يزن جلة من تمر أو عدلا من المتاع أو الحب ويأخذ مابقى من المتاع على حساب ذلك ولا يزن. وقال ابو معاذ القطر البيع نفسه.

قال أبو عبيد، القطر نوع من البرود وانشد:

كساك الحنظلى كساء صوف

وقطريا فأتت به تقييد

وقال البكرواي: البرود القطرية، حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة وقال خالد بن جنبه هي حال تعمل في مكان لا أدري أين هو (٤٥).

ونستنتج من نص ياقوت الحموي حقائق غاية في الأهمية منها:

أولاً: اشتهاً قطر بصناعة البرود أو الثياب الصوفية الخشنة حمراء اللون، مما يؤكد ضرورة اهتمام سكانها بتربية الأغنام والابل وتوفير المراعى الطبيعية اللازمة لتربية هذه القطعان. وبالعودة إلى نص الحميري الذي أكد فيه انتشار العيون العذبة والأعشاب في خارك من بلاد البحرين، فإن هذا يدفعنا إلى ترجيح انتشار نفس الظاهرة في قطر لقربها من خارك، ويؤكد رأينا هذا، النص الذي أورده ياقوت الحموي عندما تحدث عن الأعدان إحدى ضواحي قطر وهي المنطقة التي نشأ فيها قطري بن الفجاءة وترعرع، فالحموي أورد ما يشير إلى ذلك عندما استعرض ما ذكر به قطري أخاه الماحوز. وكان من أصحاب المهلب - من تدافعهما على ثدى أمهما بالأعدان. وقد عرف الحموي هذا الموضع بقوله «والأعدان: ماء لبنى مازن بن تميم» (٤٦) مما يجزم بتوفر مياه العيون اللازمة لسقاية العشب والكأ للزراعة لتربية الأغنام والابل في قطر.

ويؤكد استنتاجنا هذا ما أورده الإدريسي صراحة في نزهة المشتاق من انتشار العيون العذبة ببلاد بحر قطر وجزائره» (٤٧).

ثانياً: يؤكد نص ياقوت الحموي السابق، مدى الارتباط الوثيق بين قطر ككيان سياسى له خصوصيته وتميزه، وبين حرفة التجارة. فإذا كان الحموي قد فسر معنى اسم قطر بأنه البيع نفسه، سواء كان بيع التمر أو الحبوب أو المتاع، فإن هذا يعنى شهرة أهالي قطر في مجال التجارة منذ أقدم العصور إلى حد أن عملية البيع نفسها أطلقت على المنطقة للدلالة على المهنة التي كان يمتنها سكان هذه المنطقة.

ثالثاً: كذلك يأتي نص الحموي ليؤكد ترجيحنا السابق بتوفر محاصيل التمور

والحبوب فى قطر فكون الحموى يخص قطر عند تفسيره لاسمها بأنه يعنى البيع نفسه سواء كان بيع التمر أو الحب فان هذا يجزم بزراعة البلاد لهذا النوع من المحاصيل.

واذا كانت قطر قد ارتبطت بالتجارة منذ أقدم العصور، واهتم ابناؤها بتصدير التمور والحبوب والمنسوجات القطرية، وقامت بها الأسواق على حد وصف ياقوت الحموى، فان حدود تجارتهم لم تقف عند هذا الحد بل تعدتها إلى الاتجار فى موارد ثرواتهم الحيوانية وما ترتب عليها، فقد كانت الطيور من أهم الموارد الاقتصادية التى شكلت الذبول والفضلات المتبقية منها إحدى الدعامات التجارية لقطر فى العصور الوسطى الإسلامية. وقد ذكر الإدريسي فى سياق النص الذى سبق أن أوردناه والذى حدد فيه أسماء بعض المواضع والمراسى التابعة لقطر على وجه الخصوص، أن هذه المناطق قد كثر بها أنواع من الطيور البرية والبحرية التى شكلت فضلاتها جزءا من موارد قطر الاقتصادية وهو فى ذلك يقول «ومن جلفار وأنت نازل إلى البحرين تصير إلى مرسى السبخة وهو مرسى فيه عين نابعة عذبة ومنه إلى شقاب، وبوار وبحر عويص صعب السلوك وتسمى هذه الأمكنة ببهر قطر وفى هذا البحر عدة جزائر خالية لاعامر بها، يأوى إليها أجناس من الطير البحرى والبرى فيجتمع بها من ذبولها المقادير الكثيرة، فاذا طاب ماء هذا البحر للسفر قصدت اليها المراكب فتوسق تلك الزبول التى قد كومتها الطير فى تلك الجزائر وتصير بها إلى البصرة وغيرها فيبيعونها هناك بالثمن الكثير وتلك الزبول تصرف فى عمارات الكروم والنخل والجنان والبساتين...» (٤٨) ونفهم من النص السابق أن البصرة كانت من أكثر مدن العراق اهتماما باستيراد هذا النوع من الزبول التى استخدمت كسماد لتغذية أشجار الكروم والنخيل وسائر أنواع المزروعات. كذلك اشتهرت قطر بترية نوع خاص من الطيور البرية، وهو النعام، فقد أشار ياقوت الحموى إلى ذلك عندما قال «قال الراعى فجعل النعام قطرية:

الأوب أوب نعائم قطرية

والآل آل نحائص حقب

وأوضح الحموى فى نصه الوسائل التى اتبعها أهالى قطر لتربية هذا النوع من الطيور فقد كان النعام يكثر فى منطقة ييرين التابعة للبحرين، وكان الصيادون القطريون يقومون بصيد بيضه ونقلها لقطر نفسها وفى ذلك يقول «نسب النعام إلى قطر لاتصالها ببلد ورمال ييرين والنعام تبيض فيها فتصاد وتحمل إلى قطر» (٤٩).

كذلك اشتهرت قطر بمورد آخر هام من موارد الثروة الحيوانية وهو الجياد التى أشار إليها ياقوت الحموى فى المعجم من خلال وصف جرير:

لدى قطريات اذا ماتغولت

بها البيد غاولن الحزوم الفياfia (٥٠)

وقد نسبت هذه الجياد إلى قطر فسمت القطريات.

هذا وقد أورد ابن فضل الله العمرى نصا فى مسالك الأبصار فى سياق حديثه عن الخيول التى أوضح أنها نوعان، عراب وبرادين، وذكر فيه أن كان «يجلب إلى الهند من جميع ماجاورها من بلاد الترك، وتقاد إليها العراب من البحرين وبلاد اليمن والعراق.....» (٥١) ونرجح أن تكون هذه الخيول القادمة من البحرين قطرية. على أن اللؤلؤ يعد من أهم موارد قطر الاقتصادية، وقد أشارت المصادر العربية إلى ذبوع شهرة اللؤلؤ القطرى، من ذلك ما أورده ابن رسته فى الأعلاق النفيسة (٥٢)، وكذلك كل من المسعودى والحميرى اللذين حددوا أماكن الغوص على اللؤلؤ بقولهما أن مغاص اللؤلؤ تكثر فى بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب، وأضاف الحميرى انه لا يوجد اللؤلؤ فى غير ذلك (٥٣).

وترتب على ذلك بلا شك ظهور حرفة هامة فى قطر وهى حرفة الغوص على اللؤلؤ التى تخصص فيها أشخاص عرفوا باسم «الغاصة» (٥٤) وقد عرف العرب هذه

الحرفة منذ أقدم العصور فكان سكان الخليج العربى يغوصون فى مياهه لاستخراج اللؤلؤ، وقد أشار كل من ميمون ابن قيس (الاعشى الكبير) والمسيب بن عباس والمخبل السعدى من شعراء الجاهلية المعروفين فى اشعارهم^(٥٥) إلى هذه الحرفة.

وقد حدثتنا المصادر العربية عن هذه الحرفة، من ذلك ماأوردته المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» والادريسى فى كتابه «نزهة المشتاق» والحميرى فى «الروض المعطار» وكذلك ابن بطوطه فى رحلته والبيرونى فى كتابه «الجماهر فى معرفة الجواهر».

ويحدد المسعودى الشهور التى كان يتم فيها الغوص على اللؤلؤ ويذكر أنها تبدأ من «أول نيسان» «ابريل» إلى آخر ايلول (سبتمبر) وماعدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها^(٥٦) فى حين يحدد كل من الادريسى ومن بعده الحميرى أشهر الغوص بشهرى اغشت (أغسطس) وشتبر (سبتمبر)^(٥٧)، أما ابن بطوطه فذكر أن بداية الغوص على اللؤلؤ يكون فى شهرى ابريل^(٥٨) ومايو. وقد اختلف فى تكوين اللؤلؤ، ويرجح أغلب المؤرخين أنه يتكون من قطرات المطرحين تدخل فى الأصداف^(٥٩)، وأن اللحم الذى فى الصدف هو حيوان يفرغ على مافيه من اللؤلؤ والدر خوفا من الغاصة كخوف المرأة على ولدها. وكان الغاصة لايتناولون شيئا من اللحوم سوى الأسماك كما كانوا يتناولون التمور، ويذكر كل من المسعودى والحميرى أنهم كانوا يشقون أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلا من الأنف^(٦٠).

ويذكر الادريسى أن تجار اللؤلؤ كانوا يأتون فى سفنهم إلى جزيرة أوال (البحرين) حيث كان يتجمع الغاصة، وكانت أجورهم معلومة تتفاضل على قدر الغوص والأمانة وزمن الغوص وكان التجار يخرجون فى أكثر من مائتى سفينة وانه كان هناك سفنا مخصصة لهذه الحرفة سمى الادريسى الواحدة منها «بالدوڭ»^(٦١) ووصفها بأنها كانت أكبر من الزروق. وكان التاجر يقسم الدوڭ إلى خمسة أقسام أو ستة وكل قسم به غواص له صاحب يعاونه فى عمله نظير اجر معلوم يقل عن

أجر الغطاس، ويسمى «بالمعاون المصفى». كذلك استأجر التجار إلى جانب الغاصة ومعاونيهم، الأدلاء المهرة الذين كانت لهم خبرة بمواضع اللؤلؤ وأصدافه لأن اللؤلؤ كان له مراعى خاصة يكثر بها.

ويؤكد الادريسي أن الغاصة كانوا يتجردون من ثيابهم ويقومون بالغطس في الماء اذا ما اخبرهم الأدلاء بموضع الاصداف، فان وجدوا مايرضيهم خرجوا وأمروا بحط قلاع الدوغم والرسو. وكان الغواص يتجرد من كل ملابسه الا سترة عورته، ويقوم بوضع «الخلنجل» فى أنفه، وفسر الادريسي معنى الخلنجل بقوله «وهو شمع مذاب بدهن الشيرج يسد به أنفه» ويأخذ الغواص معه سكيناً ومشنة ليجمع فيها مايجده هناك من الصدف.

ويشير ابن بطوطة إلى الزمن الذى يستغرقه الغاصة لجمع الاصداف ويحدده ما بين الساعة والساعتين^(٦٢). وتجمع المصادر على أن الغواص كان يحيط جسده بجبل، فاذا ما شعر بصعوبة فى التنفس حرك الجبل. وقد انحصرت مهمة معاونه فى الامساك بهذا الجبل فاذا أحس بحركة الغواص قام بجذبه ورفع إلى الدوغم ثم يبادر بتلقف المخلاة منه ... أما الصدف فكان يفتح ويقطع جوفه اللحمى بحديدة، فاذا ما باشر الهواء تجمد وتحول إلى جواهر^(٦٣). وبخلاف حرفة الغوص على اللؤلؤ والجواهر فاننا نرجح أن حرفة صيد الاسماك كانت من أهم الأنشطة الاقتصادية التى مارسها سكان قطر، وهذا الترجيح امر بديهي بالنسبة للجماعات التى تعيش فى جزر تحيط بها المياه.

كذلك عرف أهل قطر بمهارتهم الملاحية والبحرية مما يؤكد احترافهم الملاحة. ولعل الاشارات المتناثرة التى وردت فى المصادر فى هذا الصدد تؤكد ذلك فالاصطخرى أورد كما سبق أن أشرنا مايفيد بأن القطرية من اتباع قطرى بن الفجاءة كانت لهم محارسهم فى عبادان، وقد وصف ابن حوقل^(٦٤) هؤلاء القطرية بأنهم من متلصصة البحر. ونرجح أن هؤلاء القطرية كانوا يهاجمون السفن التابعة للخلافة باعتبارهم اتباعاً لقطرى بن الفجاءة وكانوا يؤمنون بضرورة الكفاح لفرض

مذهبهم ونشره وهم بذلك يختلفون عن المتلصصة، ولذلك فاننا لانوافق ابن حوقل على وصفه للقطرية بالمتلصصة. كذلك اشار الادريسي إلى جزيرة سماها «القطرية» ونرجح انها «القطرية» بالياء وليست القطرية بالباء وكانت تقع بين البحرين والبصرة، وكان أهلها يدينون بالمسيحية ويتكلمون اللغة العربية ويقطعون بالمراكب الطرق البحرية^(٦٥). ونعلل اتجاه اهالى قطر إلى ممارسة حرفة الملاحة بحكم وعورة التضاريس فى المنطقة البرية التى امتدت ما بين عمان والبحرين ولتنازع القبائل العربية فى هذه المنطقة وتقاتلهم فيما بينهم واغاراتهم على بعضهم البعض^(٦٦).

الحواشي:

- ١- سيف مرزوق الشعلان، الغوص على اللؤلؤ في قطر، أحد البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، ١٩٧٦، ج٢، ص ٥٥٤ - يوسف بن عبد الرحمن الخليفي، قطر، ماضيه وحاضره، من بحوث ندوة قطر، الدوحة، ١٩٧٦، ج٢، ص ٥٣٩ - أحمد الشامي، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الاقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى، ندوة قطر، الدوحة، ١٩٧٦، ج٢، ص ٣٣٠ ومايلها.
- ٢- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨، ج١، ص ١١٠.
- ٣- الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص ١٦٢.
- ٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د/ احسان عباس، بيروت، ١٩٧١، مجلد ٤، ص ٩٣.
- ٥- الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٨٦ أما ياقوت الحموي فقد سمى أكبر جزر البحرين باسم أوّال، ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٧، ج١، ص ٢٧٤، سيف مرزوق الشعلان، المرجع السابق، ص ٥٥٤.
- ٦- ويأخذ بهذا الرأي كل من الدكتور عصام سخيبي والدكتور حسين عطوان (عصام سخيبي، الانتشار العربي في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية، البدايات وخصائص التطور، من أبحاث ندوة مكانة الخليج العربي، العين، ١٩٨٨، ص ٨٤ - حسين عطوان في بحثه، دراسة مقارنة بين وصف الاعشى ووصف الفرزدق لاستخراج اللؤلؤ، ندوة مكانة الخليج العربي، ١٩٨٨، العين، ص ٢٣٩).
- ٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٢. وهي بخلاف قطر بفتح القاف وسكون الطاء التي وصفها ياقوت بأنها موضع من جوانب البطائح بين البصرة وواسط (ياقوت، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧٢).
- ٨- البكري، معجم ما استعجم، الجزء الثاني، ص ٧٤١.

- ٩- عبد القادر البغدادي، شرح شواهد المغني، تحقيق عبد العزيز رياح وأحمد يوسف الدقاق، دمشق، ١٩٧٤، ج٣، ص ٣١٢. ولمزيد من التفاصيل عن نسب قطري بن الفجاءة -ارجع إلى وليد قصاب، قطري بن الفجاءة، دراسة في السيرة والشعر والعين، ١٩٨٨، ص ٢٩٧.
- ١٠- ابن خردادبة، المسالك والممالك، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ، ص ٦٠ وارجع كذلك إلى قدامه بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، طبعة مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر، بدون تاريخ، ص ١٩٣.
- ١١- ويأخذ بهذا الرأي الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في مقاله (البحرين وقطر، الأصول القديمة للمسميات الحديثة في المكتبة الجغرافية العربية، أحد بحوث ندوة قطر، الدوحة ١٩٧٦، ج١ ص ٥١.
- ١٢- لمزيد من التفاصيل راجع، سعد زغلول، المرجع السابق، ص ٥١ ومايليها.
- ١٣- عن ابن منظور ارجع إلى سيف مرزوق الشمالان، المرجع السابق، ص ٥٥٥.
- ١٤- الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ١٩٦١، ص ٣١. ارجع كذلك للادريسي، نزهة المشتاق ج١ ص ٦٥.
- ١٥- ابن رسته، العلاقات النفيسة، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ ص ٨٧، المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١٤٨.
- ١٦- الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٦٢، ص ٦٥. وقد ورد اسم هذه الجزيرة في نزهة المشتاق على أنها «القطرية» بالباء ولكننا نرجح أنها «القطرية» بالياء نسبة إلى قطر.
- ١٧- ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٣.
- ١٨- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٤٢٧.
- ١٩- المصدر السابق، ج٤، ص ٣٧٢.
- ٢٠- نفسه، ج٣، ص ٣٥٣.
- ٢١- الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٨٦، ٣٨٧، فهو يقول «وسميت البحرين بجزيرة أوال».

- ٢٢- إحدى مدن عمان.
- ٢٣- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٦٣.
- ٢٤- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٥٥ - سيف مزروق الشمال، المرجع السابق ص ٥٥٤.
- ٢٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٣.
- ٢٦- المصدر السابق، ص ٣٧٢، ٣٧٣.
- ٢٧- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار القاموس الحديث، بيروت، بدون تاريخ، ج٣، ص ٢٥٥. وارجع كذلك إلى ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، ج٢ ص ٣٦٨. وكان المنذر ابن ساوي ينتهي إلى قبيلة تميم. وينتمي إلى تميم كل من خباب بن الأرت التميمي، وهند بن أبي هالة ربيب رسول الله وابن السيدة خديجة رضي الله عنها، ومنهم أسلع بن شريك ورافع بن عمير وعياش بن أبي ربيعة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى يحيى الجبوري، تميم وتحررها وسياساتها في العراق والخليج العربي في صدر الاسلام، العين، ١٩٨٨، ص ٤٣ ومايليها).
- ٢٨- ابن الأثير، المصدر السابق، ص ٣٦٨.
- ٢٩- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ٣٧٢ - لمزيد من التفاصيل عن استقرار قبائل عبد القيس في اقطار الخليج العربي في المنطقة الواقعة من البصرة إلى عمان والتي عرفت بخط عبد قيس، وصراع عبد قيس مع قبائل اباد والأزد ارجع إلى (محمد أرشد العقيلي، دور الخليج العربي في الفتوحات الاسلامية، بحث من بحوث ندوة مكانة الخليج في التاريخ الاسلامي، العين، ١٩٨٨، ص ١٤٩ ومايليها).
- ٣٠- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ٢٥٤، ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٣٦٨.
- ٣١- الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥.
- ٣٢- ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ٣٦٨.
- ٣٣- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى الطبري، ج٣، ص ٢٥٥ - ابن الأثير، الكامل، ج٢ ص ٣٦٨-

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية، بدون تاريخ ص ١٦٩ - عصام سخيني، الانتشار العربي، ص ٩٣. وكان يقاسم المنذر بن ساوى فى حكم المنطقة الممتدة من البصرة إلى عمان عشية وفاة الرسول ﷺ زعيمان من عبد قيس هما الجارود بن المعلى والحطيم بين ضبعة العبدى. وعندما استفحلت الردة فى هذه المنطقة كانت رئاسة المسلمين بعد وفاة المنذر قد آلت إلى الجارود فى حين تزعم الحطيم حركة الردة وانضمت اليه بكر بن وائل وعناصر غير عربية كالفرس والوط والسيابجة. وتمكن المرتدون من احتلال هجر والقطيف ودارين وحوصر المسلمون فى بلدة جواتا ولكن قوات الجارود ومن انضم اليه من المدد الاسلامى بقيادة العلاء بن الحضرمي تمكنت بعد معارك ضارية من الانتصار على الحطيم والتغلب على قواته (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد ارشد العقيلي، المرجع السابق، ص ١٥٣).

٣٤- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٥٣٨ ومايلها. وعن دور تميم فى الفتوحات الاسلامية ارجع إلى (يحيى الجبوري، تميم تحركها وسياستها فى العراق والخليج العربى فى صدر الاسلام ومايلها، ص ٢٣٠ ومايلها) وكانت قبائل خليجية من الأزد وتميم وبكر بن وائل وعبد القيس قد شاركت فى معارك فتح العراق الأولى ومعارك الجسر والبرب والقادسية والمدائن وجولاء ونهاوند وبرز من بين هذه القبائل اسماء قيادات عظيمة مثل القعقاع بن عمرو التميمي (الطبرى، ج٣، ص ٨٦ ومايلها، ص ١٨١ - المسعودي، مروج الذهب، ج٢ ص ٢١٧ ومايلها - ابن الاثير الكامل ج٢، ص ٣٨٥ - ارشد العقيلي، دور الخليج العربى، ص ١٥٤).

٣٥- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ج٦، ص ١٢٤. ولمزيد من التفاصيل عن ولاية عمان والبحرين فى العصر الأموي والمناقشات التى درأت حول هذا الموضوع، ارجع إلى (حسين المسرى، البحرين وعمان فى العصر الاموي، العين، ١٩٨٨، ص ١١٢ ومايلها).

٣٦- الطبرى، ج٧، ص ١٧٥.

٣٧- يوسف بن عبد الرحمن الخليفى، قطر ماضيه وحاضره، الدوحة، ١٩ ص ٥٤٧.

٣٨- المرجع السابق ص ٥٤٧.

- ٣٩- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٣.
- ٤٠- ناصر خسرو علوى، سفرنامه، تحقيق وتعليق يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥، ص ٩٤.
- ٤١- الحميرى، الروض المعطار فى خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢١٢.
- ٤٢- البكرى، معجم ما استعجم ج٢ ص ٧٤١.
- ٤٣- ناصر خسرو علوى، سفرنامه، ص ٩٤.
- ٤٤- الحميرى، الروض المعطار، ص ٢١٢.
- ٤٥- ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٢.
- ٤٦- المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٠.
- ٤٧- الادريسى، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٦٢.
- ٤٨- المصدر السابق، ج١، ص ١٦٣. ويوار فى هذا النص هى بخلاف يوار التى ذكر ياقوت الحموى أنها بلد باليمن (ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج١، ص ٥٠٢).
- ٤٩- ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٢.
- ٥٠- المصدر السابق، ص ٣٧٢.
- ٥١- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار فى ممالك الامصار، الباب الأول فى مملكة الهند والسند، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفى، الرياض، ١٩٩٠، ص ١٢٢.
- ٥٢- ابن رسته، الأعلاق النفسية، ص ٨٧.
- ٥٣- المسعودى، مروج الذهب، ج١، ص ١٤٨ - الحميرى، الروض المعطار ص ٢١٢.
- ٥٤- المسعودى، مروج الذهب، ج١، ص ١٤٨ - الحميرى، الروض المعطار، ص ٢١٣.
- ٥٥- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى (عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، بدون تاريخ، ج٣، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ - حسين عطوان، دراسة مقارنة بين وصف الأعشى ووصف الفرزدق لاستخراج اللؤلؤ، من أبحاث

- ندوة الخليج العربي في التاريخ الاسلامى العين، ١٩٨٨، ص ٢٣٣ - ٢٤٨ - عبد الله أبو عزة،
ملاح الحياة الاقتصادية لدولة قرامطة البحرين، من أبحاث ندوة العين، ١٩٨٨، ص ٢٠٧
ومايلها، سيف مرزوق الشمال، الغوص على اللؤلؤ في قطر، ص ٥٦٠ ومايلها.
- ٥٦- المسعودى، مروج الذهب، ج١ ص ١٤٨.
- ٥٧- الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٨٨ - الحميري، روض المعطار، ص ٢١٣.
- ٥٨- ابن بطوطة، الرحلة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٧٩.
- ٥٩- المسعودى، مروج الذهب، ج١، ص ١٤٨ وعن البيروني، ارجع إلى سيف مرزوق الشمال،
المرجع السابق، ص ٥٦١.
- ٦٠- المسعودى، نفسه، ص ١٤٨ - الحميري، نفسه، ص ٢١٢.
- ٦١- الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٨٨.
- ٦٢- ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٧٩.
- ٦٣- لمزيد من التفاصيل ارجى إلى الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٨٨ - الحميري، الروض
المعطار ص ٢١٣ - ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٧٩. وراجع أوصاف الفرزدق والاعشى لعملية
الغوص على اللؤلؤ (لمزيد من التفاصيل عن ذلك ارجع إلى حسين عطوان، دراسة مقارنة بين
وصف الاعشى ووصف الفرزدق لاستخراج اللؤلؤ، ص ٢٣٤ ومايلها).
- ٦٤- ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥٣.
- ٦٥- الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٦٥.
- ٦٦- نفس المصدر، ص ١٥٩.

موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ
منتصف القرن الخامس الهجري وحتى سقوطها
في أيدي الصليبيين سنة ٥١٨ هـ

موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى أيدي الصليبيين عام ٥١٨ هـ

مقدمة:

تعتبر مدينة صور من أهم مدن الساحل الشامى بحكم موقعها المتميز ووضعتها الجغرافى كشبه جزيرة تحيط بها مياه البحر الأبيض المتوسط من كل الجهات ما عدا جهة واحدة، فضلا عن ارتباطها جغرافيا بدمشق ارتباطا وثيقا، حيث تصل جبال عامل بين الجوف الشامى من جهة، والساحل من جهة أخرى، كذلك من خلال التبادل والمنفعة الاقتصادية.

وكانت صور من بين مدن الشام التى أخلصت للفاطميين وحافظت على ولائها لهم فى معظم الفترات التى استقلت فيها غيرها من مدن الشام، وإن كان هذا الجنوح إلى الإستقلال امتد إليها فى بعض الأحيان، فقامت بها دويلة بنى عقيل، كما حاول بعض ولائها الفاطميين، الانتزاع بها.

ولكن يرجع السبب الحقيقى وراء اختياري لدراسة تاريخ مدينة صور على وجه الخصوص، إلى الدور العظيم والكبير والمشرف الذى قامت به هذه المدينة ضد العدو الصليبي بعد نجاحه فى التسلل إلى بلاد الشام منتهزا فرصة التفكك السياسى والخلافات المذهبية والسياسية بين القوى الاسلامية الكبرى فى ذلك الحين، فقد اعتبرت صور احدى قواعد المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين بحيث هددت وجودهم فاضطروا الى بناء القلاع والحصون لتساعدهم على اسقاطها، ومن هذه القلاع قلعة تبنين، وتل معشوقة وسكانداليون. وقد فشل الصليبيون فى اسقاط هذه المدينة الباسلة بعد أن حاصروها أكثر من مرة. وحتى فى حصارهم الأخير الذى انتهى بسقوطها، وقفت صور وحدها تواجه الحصار الصليبي المطبق، وصمدت لعدوانهم واعتداءاتهم المتواصلة، ولم تتلق أى عون فى الشام سوى من دمشق التى

برز أحد أبطالها وهو طغتكين أتابك، وحاول أن يترفع عن كل الصغائر، فتغاضى عن موقف الفاطميين من الأتراك السلاجقة وتصدى لحماية صور.

وفى هذه اللحظات الأخيرة، عندما أدرك أهالى صور أنه لا مفر من النهاية المحتومة حاولوا أن ينقذوا ما يمكن انقاذه، وقاتلوا قتال الشرفاء حتى النهاية بعزة وإباء وكبرياء، وسجل التاريخ بشهادة المؤرخين اللاتين بطولات أبناء صور. المدينة الباسلة، الذين عاهدوا أنفسهم على الموت فى سبيل رفعة الاسلام.

لقد كان لهذا الموقف المشرف فى تلك اللحظات الحاسمة أكبر الأثر فى اختيارى لهذا الموضوع، فإذا كان فى التاريخ عظات ودروس فلنتخذ من أحداث تاريخ بلاد الشام وصور قبيل مجئ الصليبيين، من تفكك المسلمين وصراعاتهم فيما بينهم سواء فى المشرق الاسلامى أو الاندلس درسا فى الحاضر والمستقبل.

موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى أيدي الصليبيين عام ٥١٨ هـ

(١) المسرح الجغرافى لصور: عرض لأهمية موقعها الاستراتيجى ودورها البحرى والتجارى الطليعى فى العصر الوسيط:

اشتهرت صور منذ أقدم حقب التاريخ بموقعها الجغرافى المتميز على صخرة ممتدة فى مياه البحر المتوسط^(١)، بحيث تشبه الكف على الساعد، فالبحر يطوقها من جميع جوانبها باستثناء جانب واحد^(٢)، وهو الجانب الذى ثبت فيه بابها، وهذا القطاع المتصل باليابس من قلعتها لا يزيد امتداده على حد قول ناصر خسرو علوى على مائة ذراع فى حين أن بقية القلعة كانت تحيط بها مياه البحر^(٣)، مما يجعل هذه المدينة الحصينة تبدو كما لو كانت جزيرة من الجزر^(٤) أو شبه جزيرة اذا تحرنا الدقة فى استخدام هذا المصطلح الجغرافى.

وتقع صور جنوبى مدينة صيدا، وتبعد عنها بنحو أربعين كيلو مترا، وكلتا المدينتان تقع فى سهل ساحلى شديد الخصوبة، وافر المياه، وإن كان ضيقا ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر حيث يصل اتساعه الى ميلين^(٥)، ورغم ضيق هذا السهل إلا أنه كان يمتد من صور نفسها، وإلى مسافات بعيدة مما أتاح الفرصة لأهالى صور فى العصور المختلفة أن يتزودوا بوفرة المحاصيل الزراعية^(٦)، وهو ما ميزهم عن غيرهم من أهالى المدن الأخرى بثرائهم العريض^(٧). وتزخر أرض صور بعيون ونباييع وصهاريج جوفية وآبار من أشهرها عين الماء الواقعة عند مدخل بابها البرى، وكان يتم النزول إليها من خلال ادراج، هذا بخلاف الآبار والجبال المنتشرة داخل نطاقها حيث كانت لا تخلو دار منها^(٨).

ويصف وليم الصورى هذه الينابيع والجداول بأنها كانت موجودة فى الأجزاء السهلية المنخفضة من المدينة ولكنها لا ترتفع الى قمم الجبال، ولذلك أقيمت بصور

أبنية حجرية أشبه ما تكون بجسور المياه الهدف منها رفع المياه حتى ارتفاع يصل إلى عشرة أقدام مما ساعد المزارعين على رى المناطق المرتفعة، كما أقيم خزان ضخمة تتجمع أمامه المياه، ثم توزع عن طريق قنوات إلى الحقول والبساتين المزروعة بأشجار الفاكهة وقصب السكر^(٩) تيسيرا لريها.

ويتضح لنا من وصف ولیم الصوری، وجود مناطق جبلية بصور أشهرها منطقة جبل عامل أو «بلاد بشارة الجبلية»^(١٠).

وفيما يتعلق بحدود جبل عامل فقد اتفق عليها فيما عدا الحد الجنوبي الذي أثار خلافا في الرأي بين المؤرخين فقد أجمع المؤرخون على تحديد جبل عامل شرقا بواحة الحولة إلى نهر الغجر ووادي التيم، وشمالا بنهر الأولى المعروف قديما بنهر الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعتي الشوف وجزین بالقرب من صيدا، وغربا بالبحر المتوسط.

أما فيما يتعلق بحدود جبل عامل الجنوبية فقد انقسم المؤرخون بشأنها إلى فريقين، الفريق الأول ويرأسه الشيخ على السبیتی مؤرخ جبل عامل في كتابه «الجوهر المجرد» يؤكد أن بلاد بشارة (أو جبل عامل) تقع إلى الجنوب الشرقي من صور وأن أكثر أهلها من المتأولة وقاعدتها تبين وأن بها قلعة بناها هيو صاحب طبرية سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) ليتخذ منها مركزا عسكريا أماميا لغزو صور وما يليها، لأن صور لم تكن آنذاك قد سقطت بعد في أيدي الصليبيين وذكر أن أهم القرى التابعة لبلاد بشارة هي بنت جبيل وحادثا والطيبة وقانا والزيرية، كما يؤكد أن مرج العيون كانت تتبع بلاد بشارة^(١١). وقد اعترض هذا الفريق من المؤرخين على الفريق الثاني الذي يتزعمه فاندیک الذي يخرج صور عن بلاد بشارة.

ويرى الشيخ على السبیتی أن اخراج صور عن حدود بشارة اجراء باطل بل أن هذا الفريق يأخذ بالروايات التي تعتبر أن قرية زبقين في قضاء صور كانت مركز اماره جبل عامل^(١٢). ويجمع عدد كبير من مؤرخي لبنان أن صور تدخل في نطاق

جبل عامل أما صيدا فمشكوك في دخولها منطقة هذا الجبل^(١٣).

وقد نتج عن اندماج صور بجبل عامل أو على الأقل قطاعات منها في منطقته، نتائج هامة منها ازدياد أهمية موقعها الاستراتيجي بالنسبة لكل من الفريقين الاسلامي والصليبي، لأن جبل عامل أصبح بمثابة همزة الوصل بين بلاد الشام الوسطى والشمالية، وبين المناطق الجنوبية منها^(١٤). وعلى هذا النحو يمكن تفسير اسباب اهتمام الصليبيين بفتح صور عقب استيلائهم على بيت المقدس، ومحاولاتهم المتكررة للاستيلاء عليها في عامي ٥٠١ هـ (١١٠٧م)، ٥٠٥ هـ (١١١١م) إلى أن نجحت محاولتهم الثالثة في عام ٥١٨ هـ (١١٢٤م)^(١٥)، كما يفسر في نفس الوقت مدى حرص القوى الاسلامية آنذاك سواء الفاطمية في مصر أو السلجوقية في دمشق، الحفاظ على صور من الوقوع في أيدي الصليبيين لأن صور باتصالها بجبل عامل تصبح منفذا على كل الشام، وهذا يفسر أيضا استماتة صلاح الدين في استرجاع صور عقب انتصاره في حطين واسترداده لبيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م).

كذلك أدى الارتباط بين صور وجبل عامل الى قيام صلة قوية ربطت بين دمشق من جهة ومدينة صور من جهة أخرى^(١٦)، فقد اعتبرت صور بمثابة المنفذ البحري الرئيسي لدمشق^(١٧) مما جعل المسلمين يبدلون قصارى جهودهم للحفاظ على صور أطول فترة ممكنة ولهذا السبب تأخر سقوطها عن بقية مدن السواحل الشامية فيما عدا عسقلان التي سقطت سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) ومن المعروف أن طغتكين أتابك دمشق شارك في الدفاع عن صور في أيامها الأخيرة رغم تبعيتها للفاطميين لاحساسه بمدى الخطر الذي يهدد دمشق إذا ما سقطت صور في أيدي الصليبيين من جهة ولحرصه على الجهاد المقدس من جهة ثانية، وهو ما ستوضحه في الصفحات التالية.

ويقودنا الحديث عن الصلة القوية التي ربطت بين دمشق وميناء صور عبر

الجبال عامل الى الحديث عن الكورة التي كانت تتبعها صور، فقد كان الوضع الادارى لصور الاسلامية موضع خلاف فى المصادر العربية. فابن الفقيه ينقل رأيان فى كتابه «مختصر كتاب البلدان» فهو يذكر نقلا عن المدائنى أن سواحل دمشق كان بها ستة مدن هى صيدا وبيروت وطرابلس وعرة وصور^(١٨). ولكنه يؤكد فى موضع آخر من كتابه أن صور من كورة الأردن^(١٩). كذلك يؤكد ابن خرداذبة فى المسالك والممالك هذا رأى الأخير القائل بتبعية صورة لكورة الأردن^(٢٠). ويذكر ابن حوقل مدينة صور فى سياق حديثه عن الأردن ومدنها^(٢١). ومن المصادر العربية التى تحدد بوضوح انتماء صور إلى كورة الأردن اليعقوبى^(٢٢) وابن شداد^(٢٣) وياقوت الحموى^(٢٤).

ويرى الدكتور نقولا زيادة أن صور كانت فى العصر البيزنطى فى تقسيم جستينان عاصمة القسم الادارى الثالث من بلاد الشام وهو قسم «فينيقيا الساحلية» وكانت أهم مدن هذا القسم الادارى طرابلس وبيروت وصيدا وبطوليماوس «عكا». ولكنها بعد الفتح العربى ضمت مع عكا إلى الأردن حتى تضمن له منفذا بحريا^(٢٥).

والى جانب اشتغال أهالى صور بالزراعة كما سبق أن أوضحنا، فإن نشاطهم الرئيسى كان يتركز فى التجارة، وهو ما اشتهروا به طوال العصور التاريخية مما ساعد على تكوين طبقة من الأعيان ذوى الثراء العريض فى هذه المدينة، وكان جلهم من التجار الذين حققوا أرباحا ومكاسبا لا حصر لها من خلال رحلاتهم التجارية الى معظم الأقاليم المطلة على حوض البحر المتوسط، وكان هؤلاء التجار يشتغلون فى العصر الاسلامى، وخاصة فى الفترة التى سبقت سقوطها فى أيدي الصليبيين مباشرة، بتجارة السكر الذى كانوا يستخلصونه من القصب الصورى أهم محاصيل صور الزراعية، وكذلك كان يصنع بصور نوع راق من الزجاج والفخار اشتهر وذاع صيته فى جميع أنحاء العالم^(٢٦). وذاعت شهرة صور بنوع من الثياب الكتانية

القمص الخاص بها والذي تاجر فيها أهلها وحملوه الى الآفاق، فكانت المراكب بها لا تكف عن الحط والاقلاع حاملة^(٢٧) هذه السلع النفيسة.

ومن الجدير بالذكر أن أهل صور ازداد نراؤهم واكتظت المدينة بمن انتجعها من التجار الأغنياء عقب وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام وما أعقبه من سقوط انطاكية وبيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ ومعظم موانئ الشام الجنوبية في أيدي الصليبيين، فكان تجار هذه المدن يلتحمسون الأمان في صور ولهذا كثر عدد سكانها في الفترة من عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) وحتى سقوطها عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م)^(٢٨)، ونفسر اقبالهم عليها بهذه الصورة باعتقادهم أنها من الحصانة بحيث يمكنها الصمود أمام أى عدوان صليبي، وهذا يفسر السبب في ازدهارها الاقتصادي خلال تلك الفترة^(٢٩).

وفيما يتعلق بتحسينات مدينة صور فقد وصفها لنا كل من المصادر العربية اللاتينية. ويتفق كل من الاصطخرى^(٣٠) والمقدسى^(٣١) وابن حوقل^(٣٢) والادريسي^(٣٣) وياقوت الحموى^(٣٤) والحميرى^(٣٥) على أن صور كانت من أمنع مدن الشام وأكثر ثغورها حصانة.

فقد أشار المقدسى وأسهب في وصف تحصينات مدينة صور، فيذكر أنها كانت مزودة بيايين أحدهما في البر والآخر في البحر الذى يحيط بها من ثلاث جهات والقادم إلى صور من جهة البحر يدخل بين برجين، إلى ميناء المدينة الذى لم يكن له على حد وصف الحميرى مثيل فى المدن البحرية. ويواصل الحميرى وصفه لصور فيذكر أن سور المدينة كان يحيط بها من ثلاثة جوانب فى حين يحدق بها من الجانب الرابع جدار معقود بالجص. وتحدث عن السلسلة المنصوبة على مينائها ما بين البرجين ويذكر أن الهدف من تثبيتها منع الداغل والخارج، فلا مجال لمرور السفن وقت شدها. وبالإضافة إلى السلسلة فقد كان يحرس أبواب

المدينة حراس أمناء يقفون دائما على الأبواب لمنع الداخل والخارج إلا بإذنهم. وتنفرد عكا من بين مدن الشام فى تشابهها بمدينة صور فى المنعة والحصانة وإن كانت مدينة صور تفوقها^(٣٧) مساحة واتساعا.

أما وليم الصورى فيفصل فى وصف هذه التحصينات، فيذكر أنها كانت محاطة عند الساحل بسور مزدوج وأبراج عظيمة الارتفاع منفصلة عن بعضها البعض بمسافات متساوية، وكانت مزودة من جهة الشرق بسور ثلاثى مزود بأبراج ضخمة شديدة الارتفاع ومتقاربة فيما بينها إلى حد أنها كانت تكاد تتلامس فى بعض الأحيان. كما كان يدور بها خندق واسع كان الأهالى يستطيعون الخروج منه الى البحر بسهولة من كلا الجانبين. أما مدخلها الشمالى فكان يدعمه برجان ويؤدى هذا المدخل إلى الميناء الداخلى الواقع داخل أسوار المدينة، وقد اكتسب هذا الموقع الجغرافى المتميز بين الجزيرة والبر ثوبا من الحماية من الرياح والحصانة من أى عدوان بحرى^(٣٨). وتشبه أنا كومتينا تحصينات صور التى تحيط بها بالسوار حول المعصم مما جعلها تصمد طويلا أمام الحصار الصليبي^(٣٩). وبالإضافة الى تلك التحصينات، كان لصور دار صناعة بحرية ذكر اليعقوبى أنه كان يخرج منها مراكب السلطان لغزو الروم^(٤٠). وقد أورد ذكرها كل من ابن خرداداذبة^(٤١) وابن شداد^(٤٢) والحميرى^(٤٣).

ويتضح لنا بعد عرض الأوضاع الجغرافية والاستراتيجية لمدينة صور مدى أهميتها كثغر من ثغور الاسلام فقد برزت أهميتها فى العصر الفاطمى كقاعدة بحرية هامة بالإضافة الى عكا، وستصبح من أعظم القواعد البحرية الفاطمية، وسنشهد فى الصفحات القادمة كيف كانت صور القاعدة البحرية التى تبحر منها السفن الفاطمية للدفاع عن مدن الشام^(٤٤) الساحلية التى تحاصرها أساطيل الفرنج، فكانت لذلك مصدر ازعاج للصليبيين بحيث أنهم أكثرها من انشاء الحصون الداخلية لمواجهة نشاط صور البحرى مثل حصن تبين Toron الذى شيد سنة

٤٩٩ هـ (١١٠٥م). كذلك أسس الصليبيون سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) حصنا على تل المعشوقة^(٤٥)، وقلعة سكانداليون Scandalion أو أسد الحقل، التي كانت تقع على بعد خمسة أميال من صور في الطريق الى عكا وفي الموضع الذي يأخذ فيه الطريق الساحلى الجانب الصخرى شديد الانحدار إلى الدرب المعروف بسلالم صور^(٤٦). وقد شيد بلدوين الأول هذا الحصن فى سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) وكان قد شيد قبل ذلك بنحو عامين حصن منتريال عبر الأردن للتحكم فى طرق القوافل^(٤٧). ولهذا أصبح لزاما علينا عند تعرضنا للموضع الاستراتيجى لمدينة صور فى الفترة ما بين انطلاق الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الأدنى الإسلامى واستيلائهم على انطاكية سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨م) وبيت المقدس فى نفس العام، وبين سقوط صور سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م)، الإشارة الى أن تلك القلاع أصبحت تشكل مراكز ارتكاز صليبية تنطلق منها الاعتداءات على هذه المدينة التى استمرت فى أيدي الفاطميين بعد سقوط بيت المقدس نحو ربع قرن من الزمان. ولولا حصانة صور ومناعتها الطبيعية لتمكنت الضربات الصليبية المتواصلة التى كانت توجه من تلك القلاع المؤسسة خصيصا لتطويق صور والحد من مقاومتها، لولا هذه الحصانة الطبيعية لكانت صور قد سقطت قبل عام ٥١٨ هـ بما يزيد على ١٥ عاما، فقد أصبحت هذه القلاع الصليبية بمثابة شوكة فى ظهر صور الإسلامية ونقطة الضعف الرئيسية فى استراتيجية هذه المدينة الحصينة.

وعلى هذا النحو يمكن القول بأن هذه القلاع الصليبية انما أقيمت واتخذت منطلقا لشن الهجمات على المدن الساحلية التى لم تخضع بعد للسيطرة الصليبية وظلت تواصل مقاومتها وتصديها للاعتداءات المتكررة على نحو ما حدث فى صور وعسقلان، كما كانت هذه القلاع الصليبية خطوطا دفاعية أمامية أمام هجمات المسلمين، ولم يكن ذلك الدافع الوحيد وراء تشييد الصليبيين لهذه القلاع، فقد أرادوا كذلك السيطرة على المضائق والمعابر الاستراتيجية التى تربط السواحل الشامية التى كانت فى حوزتهم بداخل البلاد، فأقاموا لذلك الغرض الحصون والقلاع على

المرتفعات وسفوح جبال الغربية المشرفة على السواحل^(٤٨). وأشهر هذه القلاع وأكثرها خطراً قلعة تبنين التي استهدف الصليبيون من انشائها تطوير صور والضغط عليها وشل مقاومة أهلها تماماً، وبوجه عام فإن تاريخ بناء معظم قلاع جبل عامل يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي بينما يرجع تاريخ بعضها إلى القرن الثالث عشر الميلادي (٦-٧هـ).

وقلعة تبنين Toron من انشاء النبيل الفرنسي هيو دي سان أوامر Hôgh de Saint Omer حاكم طبرية، أسسها في عام ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) على الطريق الذي يربط بين صور وبانياس^(٤٩) ودمشق، وعلى بعد ١٣ ميلاً شرقى صور، لتكون معقلاً يركز عليه في شن الهجمات على صور التي لم تكن قد سقطت بعد في أيدي الصليبيين وكذلك على نواحيها. واختار هيو دي سان أوامر لبنائها موقعاً مرتفعاً وبارزاً في جبل عامل أو الجليل، ليشرف على ما حوله من سهول وبطاح وآكام، وتتوسط الموقع بقعة زراعية تكثر فيها مزارع الكروم والغابات وقد ذاعت شهرة هذا الحصن وأصبح من أعظم المراكز الإدارية العسكرية الصليبية إلى حد أن أطلق اسمه على الأسرة التي حكمته ومنها «هنفري دي تورون» الذي أصبح في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) رئيساً لديوان الملك بلدوين الثالث. وكانت إمارة تبنين تضم إلى جانب أقطاعها الخاص أقطاع هونين ومارون وقلعة صيب وبانياس^(٥٠).

أما قلعة تل معشوقة فتقع قريباً من صور بظاهرها وقد وصفها الرحالة إدوارد روبنسن أثناء مروره في هذه المنطقة، وكانت مجرد أطلال وخرائب في القرن العاشر الهجري^(٥١). واختار بلدوين ملك بيت المقدس موقعها لبنى عليه القلعة وتم انشاؤه لها في سنة ٥٠١ هـ^(٥٢). ويذكر أحد الباحثين الحديثيين أن قلعة تل المعشوقة هي نفسها قلعة سكانداليون كما يذكر أن المصادر العربية أخطأت في تحديد تاريخ انشائها بسنة ٥٠١ هـ (١١٠٨م) لأن فوشيه دي شارتر حدد تاريخ بنائها بسنة ٥١١ هـ^(٥٣).

وفي تصوري أن قلعة تل المعشوقة هي قلعة أخرى غير قلعة سكانداليون التي

بنيت في فترة متأخرة عن تل المشوقة وفي المنطقة الواقعة ما بين صور وعكا.

(٢) الأوضاع السياسية للمخلافين الفاطمية والعباسية وبلاد الشام في مطلع القرن الخامس الهجري حتى مجي الحملة الصليبية الأولى:

شهد الشرق الأدنى الإسلامي منذ قيام الدولة الفاطمية بمصر خلافتين، الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الاسماعيلية في القاهرة^(٥٤). واقترن قيام الخلافة الفاطمية في المغربين الأدنى والأوسط سنة ٢٩٨ هـ بالصراع التقليدي بينها وبين الأندلس السنية ولكن هذا الصراع لم يلبث بعد أن انتقلت الخلافة الفاطمية إلى القاهرة أن تحول إلى صراع بين العباسيين والفاطميين واتسم بأنه كان صراعا مذهبيا، سياسيا واقتصاديا وعسكريا. فعلى الصعيدين العسكري والسياسي^(٥٥). 'نجد أن الخلافة الفاطمية قد نجحت في ضم جنوب بلاد الشام إلى مصر منذ عام ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) وحتى بداية خلافة الحاكم بأمر الله، ولكن الفاطميين فشلوا في بسط نفوذهم على شمالي الشام بسبب موالاة الحمدانيين في بداية العصر الفاطمي للبيزنطيين، ومناوأة البيزنطيين للدولة الفاطمية^(٥٦).

وكان تطلع الفاطميين بأنظارهم إلى جنوبي الشام أمرا طبيعيا ومنطقيا تماما لا سيما بعد أن وطد الفاطميون سلطانهم في مصر، وذلك لعدة اعتبارات منها أن الشام امتداد جغرافي طبيعي لمصر، ولذلك رأى الفاطميون أن ضمهم للشام تأمين لمصر في آن واحد من الخطرين البيزنطي والعباسي ثم أن سيطرة الفاطميين على سواحل الشام وموانيه، يحقق لهم السيادة البحرية على البحر المتوسط عسكريا واقتصاديا، كما أن الشام كانت تمثل بالنسبة للفاطميين القاعدة الأممية للوثوب على العباسيين.

ورغم نجاح الفاطميين في بسط نفوذهم على جنوبي الشام، إلا أن الشام ظل منذ الفتح الفاطمي له وحتى انفصاله عن تبعيته للفاطميين مصدر تحاللق واضطرابات وفتن^(٥٧) وثورات فأصبح يشكل مركز معارضة للفاطميين لأن معظم سكانه كانوا من السنة المعارضين لمذهب الدولة الفاطمية وكان ذلك من العوامل

التي أدت إلى ضعف سلطان الفاطميين عليه خاصة في مدينة دمشق. كما ساعدت المؤامرات التي كانت تحكيها الدولة البيزنطية للفاطميين على اضطراب وضعهم السياسي في الشام في أواخر القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الخامس، ومن أمثلة ذلك تورط الامبراطور البيزنطي بسيل الثاني^(٥٨) ٣٨٦ - ٤١٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٥ م) في تأييده للملاحح العلاقة الثائر في مدينة صور سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) على الحكم الفاطمي.

لقد كانت ثورة العلاقة في صور من أخطر الثورات التي واجهت الفاطميين وكانت دليلا دامغا على تواطؤ الدولة البيزنطية مع الثوار على الدولة الفاطمية مما يمثل عدوانا واضح المعالم عليها وتآمرا خطيرا يهدف إلى ازالتها. اشتعلت ثورة العلاقة في عصر الحاكم بأمر الله في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) عندما شق أهل صور عصا الطاعة على الحكم الفاطمي ونصبوا عليهم، ملاحا يدعى العلاقة. ثم وثبوا على ممثلي الدولة الفاطمية من المغاربة في صور وقتلوا عددا كبيرا منهم، واتفق في نفس الوقت أن نزلت الجيوش البيزنطية في اعداد كبيرة على حصن أقامية^(٥٩)، فاضطر جيش ابن الصمصامة، وإلى الشام من قبل الدولة الفاطمية إلى ارسال جيش كبير بقيادة ابي عبد الله الحسين بن ناصر الدولة، وياقوت الخادم، وانضم الى هذا الجيش عدد كبير من عبيد الشرا لمنازلة صور واخماد حركة العلاقة. وفي نفس الوقت كتب ابن الصمصامة إلى علي ابن حيدرة وإلى طرابلس يأمره بالتوجه في أسطوله إلى صور، وإلى ابن شيخ وإلى صيدا يأمره بالسير إلى صور. وعلى هذا النحو طوق الجيش الفاطمي صور من البر في حين أحاط الاسطول بصور من البحر، مما دفع العلاقة إلى الاستنجاد بالامبراطور بسيل الثاني، ولم يتردد هذا الأخير في انجاده إذ كان يعتقد أن نصرته له ستؤدي حتما إلى كسر شوكة الفاطميين في بلاد الشام، فأنفذ إلى العلاقة عدة مراكز في البحر مشحونة بالمقاتلة واشتبكت هذه المراكب مع سفن الاسطول الفاطمي في معركة بحرية عنيفة أسفرت عن هزيمة البيزنطيين، وانتهى الأمر بسقوط صور في أيدي الفاطميين، وامتنع العلاقة واتباعه

فى بعض الأبراج، ولكنهم لم يلبثوا أن استسلموا بالأمان فقبض عليهم وسيقوا جميعا إلى القاهرة حيث شبر بهم ثم قتلوا ومثل بالعلاقة ابشع تمثيل^(٦٠). وعقب هذه الأحداث قلد الحاكم بأمر الله أبا عبد الله الحسين بن حمدان^(٦١) على صور. وتبع هذا الانتصار الفاطمى على الاسطول البيزنطى فى مياه صور، انتصار آخر أحرزه الفاطميون عند أفامية، ومنى الجيش البيزنطى بقيادة دميانوس دالاسينوس Damianos Dalassenos الذى يسميه ابن القلانسى الدوقس، بهزيمة نكراء وضعت حدا لأطماع بيزنطية فى شمال الشام، وبادر بسيل الثانى الى السعى لعقد صلح مع الفاطميين يتيح له التقاط الأنفاس ويمكنه من مواجهة الخطر البلغارى الجاثم على حدود دولته^(٦٢). واتفق كل من الفاطميين والبيزنطيين على أن تكون مدة الهدنة عشرة سنوات. واستغل الفاطميون هذه الهدنة للقضاء على حركة بنى جراح الطائيين فى فلسطين، وعلى نفوذ الحمدانيين فى حلب، ولكن هذه السيطرة لم تستمر طويلا، فسرعان ما بدأ النفوذ الفاطمى فى التراجع منذ طليعة القرن الخامس الهجرى، وبالذات فى خلافة العزيز بالله الفاطمى (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ م - ١٠٣٥ م) فقد اتفق العرب على تقسيم الشام فيما بينهم فأصبحت الرملة من نصيب حسان بن مفرج بن الجراح، وطبرية من نصيب أخيه محمد، ودمشق من نصيب سنان بن عليان أمير الكلبيين، بينما تمكن بنو مرداس الكلابيين بزعامة أميرهم أسد الدولة ابنى على بن صالح بن مرداس الكلابى (٤١٤ - ٤٢٠ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٩ م) من تأسيس إمارة لهم فى حلب فى عام ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م)^(٦٣) مما تسبب فى انتشار الفوضى فى شمال الشام واضعاف النفوذ الفاطمى هناك الأمر الذى دفع الوزير الفاطمى الجرجرائى، إلى ارسال القائد منتخب الدولة أنوشتكين الدزيرى أعظم القادة الفاطميين بالشام^(٦٤)، بعد جعفر ابن فلاح الكتامى، لاستعادة النفوذ الفاطمى هناك، ونجح الدزيرى فى انزال هزيمة ساحقة بالتحالف العربى السابق ذكره فى موقعة الأقحوانة التى دارت على مقربة من طبرية سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) واسترد الفاطميون على أثرها دمشق من أميرها

سنان بن عليان الكلبي^(٦٥)، كما أوقعوا هزيمة أخرى بشبل الدولة أبي كامل نصر ابن صالح المرداسي (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) على نهر العاصمة قرب شيزر في عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) انتزعوا على أثرها حلب من يد هذا الأمير، وبذلك تمكن الفاطميون من إعادة سيادتهم على الشام كلها بما فيها حلب ودمشق^(٦٦).

ومنذ هذا التاريخ سنة ٤٢٩ هـ وحتى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) تناوب كل من الفاطميين والمرداسيين السيادة على حلب، إلى أن تم استقلال حلب تماما عن الدولة الفاطمية في ١٨ شوال سنة ٤٦٢ هـ، وذلك عندما أعلن عز الدولة تاج الملك محمود بن نصر بن صالح المرداسي (٤٥٧ - ٤٦٧ هـ / ١٠٦٤ - ١٠٧٤ م) الدعوة للخليفة القائم بالله العباسي وقطع الخطبة للفاطميين في عاصمته حلب^(٦٧).

وستتوقف قليلا عند هذه السنة ٤٦٢ هـ لتتابع ما كان يجرى من أحداث على المسرح السياسي في مصر آنذاك.

نعمت مصر في النصف الأول من عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله باستقرار سياسي ورخاء اقتصادي لم تشهده من قبل، وكان نفوذ الدولة الفاطمية في هذه الفترة، يظل وسط الشام وجنوبه والحجاز وصقلية والمغربين الأدنى والأوسط^(٦٨)، كما اعترف الصليحي الشيعي في اليمن بسلطان الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٥٥ هـ^(٦٩) (١٠٦٣ م). وبلغ من سطوة الخلافة الفاطمية وامتداد سلطانها أن أقام البساسيري القائد العباسي^(٧٠)، الخطبة للمستنصر على منابر بغداد، غير أن هذا الرخاء لم يدم طويلا إذا سرعان ما انقطع ماء النيل وأهملت الزراعة وانتشرت المجاعات والأوبئة، وعم القحط أنحاء البلاد، وتعرض المصريون لشدة فاقة كل تصور وهي ما عرفت في التاريخ باسم الشدة^(٧١) المستنصرية. وساعد على هذه الشدة اندلاع المعارك والحروب الداخلية بين العناصر المختلفة التي كان يتكون منها الجيش الفاطمي^(٧٢)، مما زاد من تأزم الحالة في مصر، وتعاقت الوزارات بعد مصرع الوزير أبي محمد اليازوري^(٧٣) الذي حاول عبثا إصلاح الأوضاع الاقتصادية في

مصر (٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م) حتى كثر عدد الوزراء الذين تولوا الوزارة في أمد قصير. ولم يستطع الخليفة أو الوزراء كبح جماح الجند الأتراك والمغاربة والسودان والعرب الذين قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب والعنف والشدة. وانقطعت الأقوات من أسواق القاهرة وانعزلت عن سائر البلاد، وازداد ضغط الجند على الخليفة المستنصر الذي أفلت الزمام من يده فتركهم ينهبون قصوره ويبددون ما تحتويه من ذخائر وكتب، وانفصل الصعيد عن القاهرة بعد أن سيطر عليه الجند السودانيون وقلت الأقوات وارتفع ثمن الكلاب وزاد الجوع بالناس حتى اضطروا إلى اختطاف بعضهم من الطرقات مما دفع كثيرا من أصحاب النفوذ والأعيان إلى الرحيل عن مصر إلى الشام والعراق^(٧٤)، وفرت أم المستنصر نفسها إلى بغداد هربا من الطاعون تجنبا لأعمال العنف التي يقوم به الجند والعامه^(٧٥)، وأمام هذه الظروف بدأت الأمبراطورية الكبيرة التي أسسها المعز لدين الله الفاطمي ووطد العزیز بالله أركانها تنهار، فسقطت صقلية في يد روجار النورمندی وأعلن المعز بن باديس في المغرب انفصاله سياسيا ومذهبيا عن الفاطميين كما خلعت الحجاز طاعته سنة ٤٦٢ هـ.

أما الخلافة العباسية السنية فكانت تعاني هي الأخرى من الضعف في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، مما مكن القائد أبا الحارث ارسلان البساسيري من خلع الخليفة العباسي القائم بأمر الله والدعوة على منابر العراق باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي كما سبقت الإشارة عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) واضطر الخليفة العباسي أمام ذلك إلى الاستنجاد بالسلاجقة السنيين^(٧٦) لانقاذ الخلافة العباسية. وتمكن زعيمهم طغرل بك من القضاء على حركة البساسيري. وكان ذلك من أهم الأسباب التي دفعت السلاجقة إلى السعي لانتزاع الشام من أيدي الفاطميين، وشجعتهم على ذلك الظروف السيئة التي كانت تعاني منها الخلافة الفاطمية، والضعف السياسي والاقتصادي الذي أصاب الكيان الفاطمي في الداخل والخارج، وبادر السلاجقة بالعمل على استرجاع هيبة الخلافة العباسية في العالم

الاسلامى، ونستطيع أن نقرر أنه بدخول طغرل بك بغداد أصبحت أملاك الفاطميين فى الشام مهددة بالخطر السلجوقى. ولما كان السلاجقة من أهل السنة المتعصبين لسنتهم، فقد وضعوا نصب أعينهم استئصال المذهب الشيعى والقضاء عليه، واعتبروا ذلك نوعاً من أنواع الجهاد المقدس، ولذلك فقد أعلن طغرل بك فى أول مناسبة عن استعداده للسير إلى الشام ومصر للقضاء على الخليفة المستنصر العلوى^(٧٧)، ولكن الموت المبكر لم يمهله لتحقيق ذلك فقد توفى فى عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وخلفه ابن أخيه الب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٦ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) الذى حدا حذو عمه فى سياسته المعادية للفاطميين التى تستهدف استرجاع النفوذ العباسى القديم، فبدأ خطته باخضاع الشام للنفوذ السلجوقى. ولم تكن تلك المهمة بالعسيرة على السلاجقة، إذ أن الشام كان يمزج بالفتن والاضرابات. وبدأ خطر السلاجقة على الشام^(٧٨) عندما أرسل ألب أرسلان سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) إلى أمير حلب محمود بن نصر بن صالح المرداسى المعروف بابن الروقلى يطلب منه إقامة الدعوة العباسية بدلا من الدعوة الفاطمية، فاستجاب لطلبه وقطع الخطبة للفاطميين كما سبق أن ذكرنا.

ولم يكتف ألب أرسلان بذلك فقد سار بقواته لحصار حلب^(٧٩) سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) ويرجح بعض المؤرخين أن سبب تلك الحملة السلجوقية أن ابن الروقلى أعاد الدعوة للفاطميين، فلما أدرك مدى خطأه خرج مع والدته معتذرا لألب أرسلان الذى أقره على ولاية الشام^(٨٠). ثم زحف ألب أرسلان بقواته إلى آسيا الصغرى واشتبكت هذه القوات مع قوات البيزنطيين فى موقعة ملازكرد الشهيرة^(٨١)، وأحرزت انتصارا ساحقا عليها. وكان من^(٨٢) أشهر قادته أئمز بن ابد الخوارزمى أو التركمانى المعروف بالأقسيس^(٨٣). ومنذ ذلك الحين بدأ نجم أئمز يتألق فى منطقة فلسطين، فقد قام باجتياح جنوب الشام ومدن الساحل الفاطمى. ففى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) افتتح مدينة الرملة، كما حاصر مدينة بيت المقدس، وتمكن من الاستيلاء عليها وطرد منها الحامية الفاطمية، كما

استولى على مدينة طبرية في نفس العام (٤٦٣ هـ) (٨٤).

وعلى الرغم من صحت المصادر العربية عن ذكر ما يشير إلى اجتياح أُنسز للسواحل الشامية إلا أننا لا نستبعد محاولته الاستيلاء على بعضها وفي مقدمتها يافا التي فشل في الاستيلاء عليها بسبب شدة مقاومة حاميتها الفاطمية^(٨٥) وصمودها القوى. ولم يتبق أمام أُنسز سوى دمشق التي أحكم عليها الحصار سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١م) وشن عليها سلسلة من الهجمات استمرت على مدى خمسة أعوام خرب خلالها الضياع وأحرق المحاصيل وأنسف المزارع مما أدى إلى ضعف أهلها ونشوب الصراع بين القوى الموجودة داخلها، فاضطر واليها الفاطمي المعلى بن حيدرة إلى الفرار منها، فنصب الأهالي عليهم رجلا يدعى انتصار بن يحيى المصمودي، زعيم المصامدة، وكان يعرف برزين الدولة، ولكن الصراع لم يلبث أن احتدم بين المصامدة وأحداث المدينة مما زاد من ضعف المدينة وساعد على ذلك نفاذ الأقوات وانتشار المجاعة، فاضطر أهل دمشق إلى الاستسلام، وتم تسليم دمشق لأُنسز في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦م) بعد حصار دام خمس سنوات^(٨٦). وباستيلاء أُنسز على دمشق فقدت الدولة الفاطمية في مصر أهم معاقلها في الشام، وتم اسقاط الدعوة الفاطمية من منابرها ودعى للخليفة العباسي المقتدى بأمر الله (٤٦٧ هـ - ٣٨٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٩٤م) وقد الفاطميون سيادتهم على دمشق للأبد.

وكان سقوط دمشق في أيدي السلاجقة بمثابة ضربة قاصمة للتنفيذ الفاطمي على جنوب الشام نظرا لأهمية موقعها بين الموصل وبيت المقدس من الوجهة الاستراتيجية العسكرية ولموقعها المتميز على الطريق التجاري المتجه من الفرات إلى مصر، ونتيجة لذلك أصبح السلاجقة يتحكمون في سياسة الشام، وعلى الأخص في القسم الجنوبي منها.

ولم يكن سقوط دمشق والمدن الداخلية في أيدي السلاجقة الكارثة الوحيدة التي تعرضت لها الدولة الفاطمية، فقد أخذ نفوذهم في التقلص والانحسار عن مدن الشام الساحلية أيضا، فقد بدأ ظهور أنماط من الكيانات السياسية التي يسميها

د. سهيل زكار بالجمهوريات^(٨٧) المستقلة في كل من طرابلس^(٨٨)، وصور^(٨٩)، ودانت هذه الدويلات أو الجمهوريات المستقلة بالطاعة للسلاجقة في الوقت الذي سعى فيه أنسز الى انتزاع بقية مدن الساحل الشامي ومن بينها عكا التي كانت تابعة لبدر الجمالي، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل. وظلت عكا خاضعة للفاطميين حتى سقوطها في ايدى الصليبيين سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م)^(٩٠).

وعلى هذا النحو لم تكن صور بمعزل عن الأحداث الجارية بالشام في القرن الخامس الهجري، وإذا كانت مدن الشام خرجت عن طاعة الفاطميين، فإن مدينة صور لم تكن استثناء فقد نبذت بدورها تبعيتها للدولة الفاطمية، وسندخل في تفاصيل أحداث صور السياسية في هذه الفترة الزمنية الهامة في النقطة التالية، عندما خضعت صور لبنى عقيل لفترة طويلة، ولم تتمكن مصر الفاطمية من استعادة نفوذها عليها إلا في عام ٤٨٢ هـ.

وخلال الفترة التي شغلت فيها صور بحوادثها الداخلية كانت الأحداث السياسية في بقية مدن الشام تتطور سريعا، فبالنسبة لدمشق نجد أن أمير الجيوش بدر الجمالي لم يتركها، غنيمة باردة لأنسز فلم يلبث أن توجه لحصارها، وعندئذ أرسل أنسز إلى تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان، يستنجد به فأجده وسار إليه بنفسه، فقد كان أخوه السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه في تلك النواحي سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ / ١٠٧٨م)، ولما سمع الفاطميون بقدوم تتش لانجاد أنسز التركماني في دمشق أنسحبوا بقواتهم، وخرج أنسز للقاء تتش وبيدوا أنه أبطأ في خروجه للقاءه بعض الوقت واعتبر تتش تأخيريه في لقاءه اهانة له، فعاتبه على ذلك، وعلى الرغم من اعتذار أنسز له بمبررات، فإن تتش لم يقبل منه اعتذاره وأمر بالقبض عليه في الحال وقتله، وهكذا آلت دمشق سنة ٤٧١ / ٤٧٢ هـ إلى تتش السلجوقي^(٩١) بعد أن تخلص من أنسز. ويرى بعض المؤرخين أن سبب مقتل أنسز كما أنه من بعض المصادر العربية كان حجة واهية وإن قتله كان متفقا عليه مسبقا بين كل من ملكشاه وتاج الدولة تتش خاصة بعد محاولة أنسز الفاشلة لفتح مصر

سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٣م) وما ترتب على ذلك من اندلاع نار الثورة داخل مناطق نفوذ السلاجقة، وخروجها عن طاعتهم وما يتبع ذلك من قسوة أئسز في اخماد تلك الثورات إلى حد تورطه في ارتكاب مذابح دموية بشعة خاصة في بيت المقدس (٩٢).

وعقب اغتيال أئسز خرج تتش بقواته الى بيت المقدس وحاصرها وتمكن من انتزاعها من ايدي نواب أئسز في عام ٤٧٤ هـ (١٠٨١م) وأقطعها للأمير أرتق بن أكسب التركمانى، الذى أسس بها إمارة الأرائقة الشامية منذ سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م) (٩٣).

أما مدن الساحل الشامى فقد بادرت بدفع اتاوة لتتش عند اقترابه منها (٩٤)، ولكن صور كانت لا تزال تحت سيادة بنى عقيل الخارجيين على الدولة الفاطمية، ثم تحرك تتش بعد أن، وطد سلطانه فى دمشق وأعمال فلسطين إلى بانياس (٩٥) فاستردها فى عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢م) ولم يستطع أمير الجيوش بدر الجمالى أن يفعل شيئا أمام نشاط تتش العسكرية، إذا كان مشغولا بالقضاء على ثورة ابنه الأكبر الأوحى فى الاسكندرية سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤م) بالإضافة الى الاضطرابات التى أثارها عرب قيس وسليم وفزاره على حدود برقة مما صرفه عن النظر فى شؤون الشام لاقرار الأوضاع السياسية فى مصر.

وقد شجعت تلك الظروف تاج الدولة تتش على أن يتوجه إلى الشام فى محاولة لاستعادة حلب ونجح فى ذلك فى عام ٤٧٨ هـ فى قول (٩٦) وفى سنة ٤٧٩ هـ (٩٧) فى قول آخر، ولكن السلطان ملكشاه الذى بدأ يخشى من نفوذ أخيه تتش، قرر اقطاعها الى قسيم الدولة (٩٨) أقى سنقر بعد أن هزم أخاه تتش فى معركة دارت بينهما.

ومن الواضح أن انتصارات تتش فى الشام أثارت مخاوف أخيه السلطان ملكشاه، وبدأ السلاجقة ينقسمون على أنفسهم، وتفتت قوتهم، مما جعل بدر الجمالى

الذى كان يراقب بحرص وحذر حوادث بلاد الشام، يفكر فى انتهاز فرصة اشتعال تلك الخلافات السلجوقية لاستعادة النفوذ الفاطمى عليها، وبدأت المحاولات الفاطمية بإرسال حملة برية بقيادة ناصر الدولة الجيوشى، يساندها أسطول فاطمى ضخّم لاستنزال بنى عقيل فى صور كما سنوضح بالتفصيل فيما بعد، ونجح بدر الجمالى فى استرجاع النفوذ الفاطمى عليها. كذلك تمكنت حملة ناصر الدولة الجيوشى من استرجاع صيدا وعكا وجبيل وبيروت واستولت على ذخائر تتش بتلك^(٩٩) المدن الساحلية كما استعادت الحملة الفاطمية مدينة حمص سنة ٤٨٣ هـ^(١٠٠)، وقضت على ثورة ابن معروف فى عسقلان، واستعادت المدينة. وكان لافتتار السلاجقة لأسطول بحرى أكبر الأثر فى نجاح الفاطميين فى استعادة السيطرة على مدن الساحل الشامى بفضل قوتهم البحرية، وإزاء تلك الانتصارات الفاطمية حاول السلاجقة توحيد جهودهم لمواجهة خصومهم، فتجمعت القوات السلجوقية، وتمكنت من استعادة مدينة عرقة، وكذلك استولت على أفامية سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١م)^(١٠١). ولكن الحلف السلجوقى لم يلبث أن انهيار عند اقدامهم على حصار طرابلس وفشل السلاجقة فى انتزاعها من يد صاحبها ابن عمار.

وفى عام ٤٨٦ هـ (١٠٩٣م) تجددت الثورة فى مدينة صور بتحريض من تتش بن ألب أرسلان ولكن بدر الجمالى يادر بإرسال جيوشه لاختمادها، وتمكن بالفعل من قمعها كما سنوضح بمزيد من التفصيل فى الصفحات التالية^(١٠٢).

وتوفى بدر الجمالى فى عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) وقد اقتصر النفوذ المصرى فى بلاد الشام على الشريط الساحلى الممتد من عسقلان جنوبا حتى طرابلس شمالا، فى الوقت الذى دب فيه الخلاف من جديد بين أمراء السلاجقة، فقد نشب نزاع بين تتش وابن أخيه بركيا روق بن ملكشاه (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٢ - ١١٠٤م) سنة ٤٨٦ هـ، وقد أدى هذا الخلاف إلى صراع مسلح

بينهما، واسفرت هذه الحرب التي اندلعت سنة ٤٨٨ هـ بين الأخوين، عن انكسار تش ومصرعه في المعركة، تاركاً ولدين هما فخر الملوك رضوان الذى استقل بمملكة حلب، وشمس الملوك أبو نصر دقاق الذى استقل بمملكة دمشق^(١٠٣). أما رضوان فقد توفى سنة ٥٠٧ هـ بينما توفى دقاق فى سنة ٤٩٧ هـ^(١٠٤)، وخلف دقاق على دمشق ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه^(١٠٥).

ولم تلبث الثورات أن تجددت ضد الفاطميين فى المدن الساحلية وعقب وفاة بدر الجمالى، فقد ثارت صور للمرة الثالثة بزعامة الكتيلة سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦م)^(١٠٦) الذى كان يتولاها من قبل الفاطميين، وكذلك اندلعت الثورة فى صيدا ولم يتردد الأفضل فى مواجهة تلك الثورات وتمكن من اعادة السيطرة الفاطمية عليهما. وفى خضم هذه الأحداث بدأت طلائع الحملة الصليبية الأولى تظهر فى الأفق وبدأت جحافلهم تصل الى مشارف بلاد الشام، وقد انتهز هذا العدو القادم من كل أقطار أوروبا، طمعا فى ثروات المشرق الاسلامى، اضطراب الأحوال والأوضاع السيئة التى كان يعيشها العالم الاسلامى الذى كانت تحكمه خلافتان متعاديتان فى بغداد والقاهرة، واستحكمت بينهما الصراعات الدموية وطحتهما الحروب والمعارك، واختلطت عليهما الأمور. ففقدنا البصيرة فى التضامن أمام الخطر المشترك والذب عن الاسلام واقتصر اهتمامهما على المصلحة الفردية فى سيطرة كل منهما^(١٠٧) على أراضى الآخر.

ونختتم هذه المرحلة بتعليق للمؤرخ هولت على الأحوال السياسية المتدهورة للعالم الاسلامى وقت وصول الحملة الصليبية الأولى بقوله «عندما تقدمت الحملة الصليبية الأولى نحو سوريا فى خريف سنة ١٠٩٧، كان المشاركون فيها يتقدمون نحو منطقة تمزقت أراضيتها إلى أجزاء صغيرة، وكان حكام هذه البلاد ضيقى الأفق، تعوزهم الخبرة السياسية، وكان يحرك هؤلاء الملوك المتفرقين (اسماهم ملوك

الطوائف (Petty Princes) قوتان رئيسيتان، الأتراك السلاجقة، والدولة الفاطمية، وكلاهما كان^(١٠٨) في مرحلة انهيار...».

(٣) الأحداث السياسية في مدينة صور منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى وصول الحملة الصليبية الأولى:

بعد هذا العرض السريع للوضع السياسي السبي الذي كانت عليه بلاد الشام منذ طليعة القرن الخامس الهجري وحتى وصول الصليبيين، من تنافس حقير بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر، وحركات استقلالية وانتزاعات في بعض المدن الساحلية الشامية مثل مدينة صور وطرابلس وعسقلان، ويجدرنا أن نصور بالتفصيل وضع مدينة صور السياسي، موضوع البحث منذ منتصف القرن الخامس الهجري حتى دخول الصليبيين مسرح الأحداث.

وقبل أن نشرع في هذه الدراسة التفصيلية علينا أن نشير إلى بعض الملامح السياسية لصور منذ أواخر القرن الرابع الهجري ومطلع القرن الخامس.

تميزت صور في هذه الفترة بأن معظم أهلها من الشيعة^(١٠٩)، وكانت منذ بواكير الفتح الفاطمي للشام، وأثناء الصراع بينهم وبين القرامطة، مركزا بحريا فاطميا وقاعدة تخرج منها الحملات الفاطمية الموجهة لبسط النفوذ الفاطمي على القواعد التي خرجت عن طاعة الدولة. ومن أمثلة ذلك الحملة البحرية الفاطمية التي تمكنت في أواخر سنة ٣٦١ هـ من استرداد يافا، ومنذ هذا التاريخ لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تنيس ودمياط والاسكندرية الى صور وطرابلس لحفظ حصون الشام والدفاع عنها^(١١٠). وظلت صور موالية للفاطميين إبان هذا الصراع، وكانت تمثل الملاذ الآمن للقوات الفاطمية في حالة انهزامها وتراجعها، وخط رجعة ونقطة ارتكاز عسكرية، فعندما هاجم افتكين التركي مدينة صيدا سنة ٣٦٥ هـ، وأنزل الهزيمة بقوات ابن الشيخ وفيهم ظالم بن موهوب

العقيلي^(١١١)، وأخذتهم سيوف الأتراك، فر ظالم بن موهوب إلى مدينة صور^(١١٢).

وفى سنة ٣٨١ هـ ولي الفاطميون بزعامة القائد منجوتكين، الأمير هارون الأرسلاي، على صور التي ظلت موالية للفاطميين^(١١٣). وفى عام ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) تولى صور من قبل الفاطميين أبو الحارث فحل بن اسماعيل بن تميم ابن فحل الكتامي^(١١٤).

وفى عام ٤٠٥ هـ (١٠١٤م) منح الحاكم بأمر الله مدينتي صور وصيدا أقطاعاً للفتح القلعي، مولى مرتضى الدولة أبي نصر منصور بن لؤلؤ صاحب حلب، عوضاً عن حلب، وفى العام التالي ٤٠٦ هـ (١٠١٥م) أسند الفتح القلعي الملقب بمبارك الدولة وسعدها، ولاية صيدا وصور وبيروت لمرتضى الدولة بعد أن أخرجه من حلب وسلمها لسديد الدولة أبي الحسن على وفى رجب سنة ٤٠٦ هـ - (١١٥) وفى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤م) أبحرت المراكب الحربية الفاطمية إلى صور وطرابلس واتخذت منها قاعدتين بحريتين بهدف التدخل السريع للحفاظ على النفوذ الفاطمي على بلاد الشام (١١٥ ب).

ومن الملاحظ أن صور كانت من بين مدن الشام القليلة التي حافظت على ولائها للفاطميين بل أنها أصبحت ملاذاً يلجأ إليه المهزومون من قادة الفاطميين أو معتقلاً لخصوم الدولة الفاطمية. ومن أمثلة ذلك اقدام والي دمشق الجديد، بهاء الدولة مظفر الخادم الصقلبي على اعتقال أميرها ناصر الدولة بن حمدان وحمله إلى صور^(١١٦) حيث أقام فترة ثم نقل إلى الرملة كذلك قبض مظفر الخادم بدمشق على راشد بن سنان بن عليان أمير بنى كلاب واعتقله بصور^(١١٧) كما اعتقل

معهما في صور أمير الغرب التنوخي «شجاع الدولة عمر بن عيسى» وصور كما نفى المستنصر بالله الفاطمي وزيره الجرجرائي إلى صور في سنة ٤٤١ هـ (١١٨)، ثم أفرج عنه سنة ٤٥٦ هـ، واستدعاه المستنصر بالله من صور إلى مصر فقدم إليها وولى الوزارة في رجب من نفس العام (١١٩).

كما أرسل إلى صور محمد الماسكي أحد وزراء المستنصر بالله سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م) معزولا من الوزارة وأقام بصور عدة سنين، ثم رجع إلى مصر حيث عمل مشارفا على أعمال متولى الديون بالاسكندرية (١٢٠). وفي سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥م) تولى بدر الجمالي صور والشام بأسره (١٢١). وكما لاذ ظالم بن موهوب العقيلي بصور سنة ٣٦٥ هـ بعد هزيمته مع والي صيدا من قبل الفاطميين على يد افتكين التركي، لاذ بها أيضا المعلى بن حيدرة والي دمشق من قبل الخليفة المستنصر بالله سنة ٣٦٨ هـ (١٠٧٥) (١٢٢)، وبعد استيلاء أئسر عليها كما سبق أن ذكرنا، ولكن صور كانت في هذه الفترة دويلة مستقلة عن الدولة الفاطمية يتولاها بنو عقيل، وسوف يحمل معلى بن حيدرة من صور إلى مصر حيث يسجن حتى نهاية عمره.

وأيا ما كان الأمر فإننا نرجح أن السبب في بقاء صور على ولائها للفاطميين منذ ظهور الفاطميين الأول مرة في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، واستمرارها في أداء دورها كقاعدة بحرية فاطمية وملاذ آمنة للقادة الفاطميين ومعتقلا سياسيا لخصوم الدولة الفاطمية، أنما يرجع إلى اشتراك أهل صور مع الفاطميين في المذهب الشيعي. وإذا كانت صور قد حافظت على ولائها للفاطميين في الفترة الواقعة ما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، فإننا نلاحظ أنها بدأت بعد هذا التاريخ تتأثر بالتيارات السياسية المحيطة بها، فقد جنح أهلها إلى الاستقلال اقتداء بغيرهم من أهالي المدن التي تمردت على السلطات الفاطمية في النصف الثاني من القرن

الخامس الهجرى، خاصة بعد تدهور الأوضاع الداخلية فى مصر الفاطمية كما سبق أن ذكرنا. ويذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩) كانت سنة مشثومة على الفاطميين فقد حلت بهم فى هذه السنة العديد من النكبات اذ اعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين استقلالها فى هذا التاريخ^(١٢٣). فقد ثار بصور قاضيتها عين الدولة أبو الحسن ابن ابى عقيل سنة ٤٦٢ هـ، واستمرت هذه الثورة عشرين عاما إلى أن تمكن بدر الجمالى من القضاء على هذه الأسرة واسترجاع صور من سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م).

وتتفق معظم المصادر العربية على أن ابن عقيل قد بدأ ثورته فى سنة ٤٦٢ هـ^(١٢٤). فى حين انفرد ابن شداد بذكر خبر مفاده أن ثورة عين الدولة ابن عقيل قاضى صور، على الخليفة المستنصر الفاطمى كانت فى سنة ٤٥٥ هـ^(١٢٥).

ولانفصح المصادر التاريخية عن الأصول القبلية التى انحدر منها بنو ابى عقيل كما أننا لا نعرف شيئاً عن «أبى عقيل» الجد الأعلى لهذه الأسرة، وإن كان كل ما وصلنا من خلال المصادر العربية يؤكد أن هذه الأسرة العريقة التى برز أفرادها فى مجال القضاء تعتبر من أشهر البيوتات الشامية.

وآخر من عرفنا أسماءهم من ولادة صور قبل أسرة بنى ابى عقيل هو «ابو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان» الذى برز اسمه من بين اسماء القادة الذين اخمدوا ثورة العلاقة سنة ٣٨٧ هـ هناك كما سبق أن أشرنا اذ يذكر ابن شداد أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ندبه إلى أهالى صور هو وياقوت الخادم وجماعة من عبيد الشرا لمنازلة العلاقة، وقد تولى الحسين بن ناصر الدولة أمر المدينة بعد مقتل هذا الثائر^(١٢٦)، ويبدو أن ولده ابو محمد الحسن بن الحسين الحمدانى قد تولى على صور بعد وفاته طبقاً لما ورد فى المقفى الكبير ثم انتقل الى دمشق سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م)^(١٢٧).

وأهم ما وصلنا من أخبار عن عين الدولة على بن عياض بن أبي عقيل قاضى صور، الخبر الذى أورده ناصر خسرو علوى عند زيارته للمدينة سنة ٢٣٨ هـ (١٠٤٧م) (١٢٨). كذلك الخبر الذى أشار اليه المقرئى فى حوادث سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥١م) ويذكر فيه أن قاضى صور هو «على بن عياض» وأنه هو الذى سعى فى الصلح بين الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وثمان بن صالح صاحب حلب ونظراً لاختلافه فى خدمة الدولة الفاطمية فقد منح لقب (١٢٩) «عين الدولة» وكرر المقرئى الإشارة اليه فى أخبار سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠م) عندما اختير على بن عياض للوساطة بين الوزير الفاطمى اليازورى وثمان بن صالح فى حلب ونجح القاضى على ابن عياض فى مهمته، فقد سلم ثمان بن صالح عقب هذه الوساطة حلب لمكين الدولة الحسن بن على الوالى الفاطمى (١٣٠).

كما أورد داعى الدعاء هبة الله الشيرازى فى حوادث سنة ٤٤٨ هـ (١٠٧٥م) ما يؤكد فيه أن صاحب صور هو القاضى على بن عياض (١٣١).

هذا إلى جانب نص أورده «ابن العديم الحلبى» يجمع فيه بين «على بن عياض» وابنه «عبد الله» وهذا النص يوضح منصب كل منهما إذ يصف علياً بأنه صاحب صور وقاضيهما، وعبد الله بأنه قاضى صور (١٣٢). وهذا النص يتماشى مع ما ذكره المقرئى عندما وصف على بن عياض بقوله «وندب لذلك رجلاً من أهل صور له بها رئاسة ووجاهة يقال له عين الدولة على بن عياض، قاضى صورفساس الأمر» (١٣٣) وأحكم التدبير.. ونستنتج من هذه النصوص أن كل من على وابنه عبد الله كان يحمل لقب القضاء وهى رتبة دينية مرموقة فى الدولة الفاطمية وأن علياً كان يجمع بين الرئاسة والقضاء فهو رئيس صور أو صاحبها وقاضيهما معاً، أما ابنه عبد الله فكان يعاونه فى حكم صور (١٣٤).

وفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٧٥م) شارك عين الدولة بن عقيل مشاركة فعالة فى أحداث بلاد الشام وذلك عندما تعرضت طرابلس لحملة الأسطول البيزنطى، فطلب

قاضيها أمين الدولة بن عمار المساعدة من عين الدولة فأججده بقوات كثيرة من البر والبحر مما يدل على حسن العلاقة بن بنى عمار وبنى ابى عقيل كما يدل على قدرة صور فى ذلك الوقت على أن ترسل قوات كبيرة فى البر والبحر لمساعدة طرابلس مع أن صيدا وبيروت أقرب إلى طرابلس منها^(١٣٥).

أما «أبو محمد عبد الله بن على بن عياض» فيتضح من سيرة أبيه أنه كان مساعداً له فى حكم صور وهو قاضيها^(١٣٦)، وكان يتلقب بعين الدولة شأنه فى ذلك شأن والده، وكان قد توجه مع والده على بن عياض إلى صيدا للصلاة على قاضيها ابى مسعود صالح بن أحمد المياخى الذى توفى فى ١٩ من شهر ربيع الأول سنة ٤٢٩ هـ^(١٣٧)، وقد وصفه ابن تغرى بردى بأنه كان رجلاً نبيلاً جليلاً، كما يذكر أنه تولى القضاء بصور، وسمع الكثير وقد خرج له أبو بكر الخطيب فرائد فى أربعة أجزاء وقرأها عليه بصور. وتوفى أبو محمد فجأة فى الزيب فى شوال من عام ٤٥٠ هـ، أى أنه توفى فى حياة أبيه على ابن عياض^(١٣٨).

وقد خلفه ابنه المكنى بأبى الحسن وهو الذى ثار على الفاطميين بصور. وفى حين تتفق المصادر العربية على كنيته فهى تختلف فيما بينها على اسمه فابن حجر العسقلانى يسميه «القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن ابن عقيل»^(١٣٩)، أما المقرئى فيسميه بأبى الحسن على الملقب بالناصر ذى الرئاستين فى أحد مواضع كتابه انعاظ الحنفى^(١٤٠) وبأبى الحسن محمد الملقب بصمصام الدولة القاضى الأعز، الأجل، سند الحكام جلال الدولة وعمادها ذا المعالى صفى أمير المؤمنين القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة فى موضع آخر من نفس الكتاب^(١٤١). ويبدو من خلال تعدد هذه الألقاب أبنا الحسن بن أبى عقيل. قد نال حظوة ومكانة كبيرة، لدى الخليفة المستنصر الفاطمى وذلك قبل أن يستقل بصور.

ويشير بعض المؤرخين إلى امتداد نفوذ أبى الحسن بن عقيل الى مدينة صيدا

فقد عيّن عليها قاضياً من أهل طرابلس هو محمد بن علي بن محمد ابني الحسن الجمعي الأطرابلس كان ينوب عنه في حكمها والقضاء بها وكان سني المذهب مثله، واستمر على ذلك الحال حتى وفاته سنة ٤٦٠ هـ ويمكن سرعان ما استعاد القائد الفاطمي مدينة صيدا^(١٤٢).

ولما أعلن القاضي عين الدولة أبو الحسن بن عقيل الثورة بصور على الحكم الفاطمي، بادر بدر الجمالي بالقضاء عليها، وكان المستنصر بالله قد فوض اليه في سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) ولاية الشام كلها مثل (عكا وصيدا وصور). وهذا يفسر مبادرة بدر الجمالي بمحاصرة صور فور سماعه بخبر هذه الثورة. وقد أحكم بدر الجمالي حصاره حول المدينة، وراغم صاحبها ابن عقيل على الاستنجاد بالأمير قرلو مقدم الأتراك الواردين من العراق والمقيمين في بعض نواحي الشام، فأجابه قرلو إلى طلبه وأسعفه وسار بعسكره منجداً له، ووصل إلى صيدا ونزل عليها في ستة آلاف فارس في رأي^(١٤٣) وفي اثني عشر ألف فارس في رأي آخر^(١٤٤).

وحاصرها حصاراً شديداً ليرغم بدر الجمالي على فك حصاره عن صور خشية أن تقع صيدا التي كانت حتى ذلك الحين من بين المدن القليلة التي لا تزال تحت قبضة الفاطميين، في يد الأتراك المواليين للعباسيين. ومن الجدير بالذكر أن قرلو نجح في خطته، فقد بادر بدر الجمالي برفع الحصار عن صور فور علمه وصول الأتراك إلى صيدا، وشروعهم في حصارها، وعلى هذا النحو ارغم بدر الجمالي على رفع الحصار عن صور مؤقتاً وهو ينوي أن يعود إليها بعد أن يرحل قرلو عن صيدا^(١٤٥).

ويذكر بعض المؤرخين أن بدر الجمالي تمكن أثناء حصاره لصور من استمالة بعض أهلها إلى جانبه^(١٤٦).

وقبل أن نستطرد في سرد بقية أحداث ثورة القاضي ابن عقيل، يجدر بنا أن نعمق النظر إلى الأوضاع الداخلية في صور، فهذه الثورة التي قام بها عين الدولة لم

تنبثق عن ميول استقلالية بقدر ما عبرت عن ميل هذا القاضى السننى إلى الأتراك السلاجقة وولائه للخلافة العباسية، مستنداً فى ثورته على محبة أهل صور له ولاسوته وتعلقه بهم لحسن سيرتهم وعلو مكانتهم. وقد سهل ذلك من التفافهم حوله وتأييده فى نبذ الطاعة للفاطميين، والانضواء تحت لواء السلاجقة والعباسيين. ولكن على الرغم من هذا التأييد وهذه المساندة التى تلقاها القاضى ابن عقيل من أهل صور فقد انحازت جماهير من اهالى صور الشيعة إلى جانب الفاطميين وعليهم اعتمد بدر الجمالى اثناء حصاره الفاضل لصور. ومع ذلك فلم يشأ بدر الجمالى أن يخوض معركة يعلم انها خاسرة فقرر رفع الحصار عنها لفترة موقوته ثم عاد لحصارها فى نفس، وضيق عليها الحصار هذه المرة برأ وبحراً، واستمر يحاصرها حوالى عام كامل حصاراً شديداً أدى إلى انقطاع الوارد والصادر فعلت الأسعار لنفاذ الأقوات، ووصل ثمن رطل الخبز نصف دينار ولكن المدينة رغم قسوة الحصار وطول امده واصلت الصمود مما أدى إلى احساس الجمالى باليأس، فقرر رفع الحصار والرحيل عنها دون أن يحقق أمله فى الاستيلاء عليها.

واستمرت دولة بنى عقيل فى صور مدة عشرين عاماً، تولاها خلالها ابناء القاضى ابنى الحسن بن عبد الله بن على بن عياض بعد وفاته سنة ٤٦٥ هـ وعلى رأسهم ولده نفيس وأخواه الحسن وأبو البركات عبد الرحمن المعروف بالقاضى (١٤٧).

وفى عهد نفيس تعرضت صور لحمله قام بها «أنسى بن أوق الخوارزمى التركمانى» الذى كان قد ملك الرملة والقدس وحاصر يافا فهرب صاحبها رزين الدولة ومن كان فيها من أهلها إلى مدينة صور، فهدم أسوارها، ثم جاسر دمشق سنة ٤٦٣ هـ ودخلها فى أواخر سنة ٤٦٨ (١٠٧٦م) وقطع الخطبة للمستنصر. وبعد أن استقر له الأمر بدمشق خرج منها فى جمع عظيم قاصداً الساحل، فنازل طرابلس فى أوائل سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٧م) ولكن صاحبها جلال الملك ابن

عمار نجح فى الدفاع عن المدينة فتحول أنسز إلى صور ونازلها ولما لم يتمكن من دخولها عقد مع صاحبها نفيس هدنة مشروطة بأن لا يسمح للغز بدخول صور فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها^(١٤٨).

ويبدو أن أبناء القاضى أبى الحسن بن عقيل لم يكن يتوفر لديهم من الصبر على المكاره والجلد الذى عرف به والدهم، ما يمكنهم من الصمود أمام الحصار الفاطمى، فعندما أحسوا بشدة الحصار ووطاته عليهم أعلنوا استسلامهم وتمكن بدر الجمالى من استرداد مدينة صور بعد نحو عشرين عاما من استقلال بنى عقيل بها.

ولم تضع عودة صور إلى دائرة النفوذ الفاطمى حدا لمشاكلها، إذ سرعان ما تجددت الثورة فى صور بعد استرجاع بدر الجمالى لها نحو أربع سنوات، ففى عام ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) استقل بمدينة صور واليها منير الدولة الجيوشى، وهو الذى كان المستنصر بالله الفاطمى قد ولاه عليها^(١٤٩)، فيما يقال فور استرجاعه لها سنة ٤٨٢هـ^(١٥٠).

وعاودت الدولة الفاطمية مرة أخرى توجيه قواتها للقضاء على ثورة منير الدولة. وفى هذه المرة بادر أهلها بتسليم المدينة فور سماعهم بوصول القوات الفاطمية وتخلوا عن مساندة منير الدولة. وتختلف تفسيرات مؤرخى العرب حول موقف أهل صور السلبى من ثورة منير الدولة فكل من ابن ميسر والمقرىزى يعلل ذلك الموقف بأن أهالى صور كانوا يخشون إذا ما قاتلوا مع منير الدولة الجيوشى أن ينتقم منهم الفاطميون فيبطشون بهم وأن تسليم مدينتهم^(١٥١) إنما كان نابعا من مخاوفهم من تنكيل الفاطميين بهم وليس عن حب وميل للدولة الفاطمية.

أما ابن القلانسى فينص صراحة على أن أهالى صور منذ البداية كانوا كارهين مخالفة منير الدولة لسلطانه أمير الجيوش، وبادروا بعصيانه وإعلان شعار المستنصر بالله وفيما يلى نص رواية ابن القلانسى «وكان أهل صور أنكروا عصيانه وكرهوا خلفه

لسلطانه أمير الجيوش بدر، عرف ذلك من نياتهم فحين اشتد القتال عليها نادوا بشعار المستنصر أمير الجيوش (١٥٢).

وقد نقل عنه ابن الأثير ما يشير الى رفض أهل صور منذ البداية ثورة منير الدولة على الفاطميين وأنكروا عليه خروجه عن الطاعة ميلا منهم إلى الفاطميين، ويعبر عن ذلك بقوله «فعصى على المستنصر وأمير الجيوش، وامتنع بصور، فسيرت العساكر من مصر اليه، وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه، فلما وصل العسكر المصرى إلى صور وحصروها وقتلوها، ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد (١٥٣).

ونميل إلى الأخذ برواية كل من ابن القلانسي وابن الأثير استنادا إلى أن معظم أهل صور كانوا من الشيعة، وكان ذلك هو السبب في موالة صور الفاطميين وأنه إذا كانت قد وقعت بعض المحاولات الفردية للاستقلال عن الخلافة الفاطمية، فإن ذلك يرجع إلى ما كان يتمتع به بنو عقيل من علو المكانة في مدينة صور علميا وسياسيا الأمر الذى جعل أهل صور الشيعة يتغاضون عن الاختلاف المذهبي ويدنون للسلاجقة السنة بالطاعة.

واقترحت القوات الفاطمية المدينة فانتهبتها وقبضوا على منير الدولة وجماعة من اتباعه، وأرسلوا إلى أمير الجيوش بدر الجمالى، فقتلهم جميعا، كذلك أمر بدر الجمالى بفرض غرامة مالية ثقيلة قدرها ستون ألف دينار على أهل صور (١٥٤).

وفى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) أعلن الكتيلة والى صور من قبل الفاطميين، نائب الأفضل شاهنشاه فيها، عصيانه للخليفة الفاطمى المستعلى بالله والخروج عن طاعته، فسير إليه الخليفة الفاطمى قوة من عساكر الفاطميين، حاصرت مدينة صور، وضيق على أهلها ونجحت فى النهاية فى فتح المدينة عنوة بالسيف وقتلت

بها أعدادا كبيرة من الناس، ونهبت أموالهم وسبق الوالى أسيرا بغير أمان إلى مصر حيث قتل (١٥٥).

ويذكر بعض مؤرخى العصور الوسطى أمثال رينيه جروسيه والدكتور سعيد عاشور أن الأفضل شاهنشاه استرجع صور فى عام ٤٩٠ / ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) من ايدى الأرائقة (١٥٦). ويرجع الدكتور سعيد عاشور ذلك الخبر إلى ابن ميسر فى كتابه أخبار مصر، ويدرجه فى أحداث سنة ٤٩٠ هـ. وبالرجوع إلى ابن ميسر لم نجد أى ذكر لسقوط صور فى أيدي الأرائقة فابن ميسر يذكر فى أخبار ذلك العام «وفى شهر ربيع الأول ندب أمير الجيوش الأفضل عسكرا له عدة وافرة إلى ثغر صور، فمضى إليها وحاصرها حصارا عنيفا حتى أخذها بالسيف ودخلها العسكر فقتل منها خلقا كثيرا وقبض على نائبها وحمل إلى الأفضل فقتله وسبب ذلك أنه كان نائبا عن الأفضل فعصى عليه» (١٥٧).

ومن المعروف أن الأرائقة لم يحكموا من مدن جنوبى الشام سوى بيت المقدس التى تولاها أرتق بن اكسك من قبل السلاجقة، وعندما وفاته خلفه ولداه ايلغارى وسكمان، وظلا ببيت المقدس حتى سنة ٤٩١ هـ، عند استردها الأفضل قبيل سقوطها فى أيدي الصليبيين مباشرة، فرحلا إلى الشام ومنها إلى ديار بكر حيث أسسا دولة الأرائقة، كما سبق أن ذكرنا وبخلاف ذلك لم يستول الأرائقة على أى من مدن الشام الساحلية وبخاصة صور (١٥٨).

وفى تلك الأثناء كانت طلائع الصليبيين فى حملتهم الأولى على وشك الوصول إلى بلاد الشام لتغير تماما من مجرى الأمور وهذا ما سوف نتعرض له فى الصفحات التالية.

(٤) موقف صور من الصليبيين منذ وصول الحملة الصليبية الأولى وحتى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م):

استغل الصليبيون أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى فى طريقهم إلى الشام، الخلافات

القائمة بين سلاجقة الروم، فأنزلوا بهم الهزائم المتتالية التي أسفرت في النهاية عن انتزاعهم لأنطاكية من يد أميرها ياغى سيان^(١٥٩) سنة ٤٩١ هـ. (١٠٩٨ م) وفي هذه الأثناء انتهز الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة الفاطمي المستعلى بالله (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) تلك الفرصة ليعيد من جديد النفوذ الفاطمي على جنوبى الشام ووسطه خاصة وأن سلاجقة الروم لم يظهروا كثيرا من التعاون مع أبناء عمومتهم من سلاجقة الشام، فخرج الأفضل شاهنشاه بنفسه إلى إقليم فلسطين وجنوبى الشام الذى كان لا يزال فى أيدى سكمان وايلغازى ولدى ارتق، اللذين كانا يعترفان بسيادة دقاق بن تتش أمير دمشق عليهما^(١٦٠).

وفى شعبان سنة ٤٩١ هـ (يوليو ١٠٩٨) خرج الأفضل لحصار بيت المقدس، واستمر يحاصرها مدة أربعين يوما، ضرب خلالها أسوار المدينة بالمنجنيقات مما أجبر حاكميها الأرتقيين وأهلها على تسليمها^(١٦١) فى أواخر رمضان أو شوال سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م)^(١٦٢) وفى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)^(١٦٣) فى قول آخر. وقد أكرم الأفضل وفادة الأخوين، ابنى أرتق وخلع عليهما وأخلى سبيلهما، وتركهما يرحلان فانسجبا برجالهما إلى دمشق ومنها توجهها إلى أبناء عمومتهما فى ديار بكر حيث كونا دولة الأرتقة.

ولم يتوقف الأفضل منذ تلك الحين عن بسط النفوذ الفاطمي على مدن الساحل الشامى، ويؤكد ذلك العملات الفاطمية التى عثر عليها فى معظم مدن الساحل وتحمل اسم الخليفة^(١٦٤) المستعلى بالله وفى تلك الأثناء التى كانت فيها بلاد الشام جمره تحتدم بالصراعات بين مختلف القوى الاسلامية^(١٦٥)، كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى التى دعا إليها البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م / ٤٨١ - ٤٩٢ هـ) فى خطبته الشهيرة بكليمر مونت تخترق آسيا الصغرى وتنزل الهزائم المتلاحقة بجيوش السلاجقة الروم فى نيقية^(١٦٦) ودور بليوم^(١٦٧)، وهى الانتصارات التى فتحت الطريق أمامهم إلى انطاكية وبوابة سوريا

الشمالية، وضربوا الحصار حولها تمهيدا لاسقاطها.

وعلى الرغم من وصول الصليبيين إلى دار الإسلام، ورغم ما فى هذا الحدث الجلل من خطورة على المسلمين وعلى الدين الاسلامى نفسه، إلا أن حكام المسلمين لم يتفهموا فى بداية الأمر الأهداف الحقيقية من الحملة الصليبية، وتصوروا أنها شبيهة بالحمولات البيزنطية على ديار الاسلام، واعتقدوا أن الصليبيين انما قدموا بناء على استتصراخ الكسيس كومنين بهم لضرب السلاجقة^(١٦٨) فحسب، وساعدهم على تلك التصور محاولات زعماء الصليبيين لطمأنة حكام المسلمين وايهامهم عن طريق الشائعات بأن هدفهم الوحيد هو استعادة الاراضى البيزنطية المفقودة فى آسيا الصغرى. وكان أكثر حكام المسلمين استهانة بهذا الخطر الصليبي، الأفضل شاهنشاه الذى بادر بإرسال سفارة فاطمية إلى الصليبيون أثناء حصارهم لانطاكية^(١٦٩) مستهدفا من ورائها اقناع الصليبيين بأن يقتسموا معه بلاد الشام فيقنع الصليبيون بشمال الشام بما فى ذلك انطاكية فى حين تكون بيت المقدس وجنوب الشام من نصيب مصر.

ورد الصليبيون على هذه السفارة الفاطمية بسفارة صليبية يرأسها يوحنا الخادم الذى كان أحد رجال الدين الجنوبيين باعتبار أن الجنوبيين كانت تربطهم بمصر علاقات اقتصادية وثيقة^(١٧٠). ومن الجدير بالذكر أن السفارة الفاطمية تلقت أثناء لقاءها بالصليبيين هدية من الفرنجة عبارة عن ثلاثمائة رأس من رءوس القتلى الشهداء من الأتراك هدية للخليفة الفاطمى فأبدى أفراد السفارة الفاطمية سرورهم البالغ مما يعبر عن التعصب الأعمى الذى أبداه ممثلوا الأفضل تجاه السلاجقة وعن اسفاف وجهل وحمق اتسم به حكام المسلمين آنذاك وعن طبيعة العلاقات المتردية بين^(١٧١) هؤلاء الحكام.

لم ير الفاطميون اذن فى الانتصارات الصليبية على سلاجقة الروم أية خطورة، ولم يستشعروا مدى الكارثة التى حلت ببلاد الشام التى ستحل بهم فيما بعد، ولم

يدركوا أن دورهم قد حان، بل أن الأفضل كان يتصور أن مجيء الصليبيين إلى الشام كان بمثابة حركة انقاذ للدولة الفاطمية لتخليص الشرق الأدنى كله من سيطرة الأتراك الذين سادوا قرابة نصف قرن من الزمان، وتصوروا أن ساعة الانتقام من الأتراك قد حانت (١٧٢).

ويعلق أحد المؤرخون الحديثين على تلك بأن السفارة الفاطمية إلى الصليبيين في انطاكية كانت خطأ كبيرا إذ أنها اكتسبت أولئك المعتدين وضعاً سياسياً معترفاً به. وكان هذا الموقف الفاطمي من الحملة الصليبية الأولى، دافعا وراء اتهام المصادر الإسلامية السنية للفاطميين بالخيانة، وبأنهم هم الذين كاتبوا الفرنج ودعواهم إلى الشام لتخليصهم من السلاجقة (١٧٣).

وفي ٢٥ ذى الحجة سنة ٤٩١ هـ (٥ نوفمبر ١٠٩٨م) وعقب سقوط انطاكية لتحديد خط سير الحملة وتقرير مصير المدينة، عقد قائد الفرنج اجتماعاً في كاتدرائية القديس بطرس بأنطاكية لتحديد خطر سير الحملة وتقرير مصير المدينة، وفيه عزم الصليبيون على مواصلة السير نحو بيت المقدس للاستيلاء عليها، ولكن سحب الخلاف في الرأي والانقسام بين صفوف الصليبيين بدأت تتجمع، حول الطريق الذي كان عليهم أن يسلكوه إلى القدس، وكان الفريق الأعظم يؤيد فكرة السير بحذاء الساحل حتى يتمكنوا من الحصون على كل ما يحتاجونه من مؤن وأقوات وما يطلبونه من امدادات من جزيرة قبرص ومن أراضي الدولة البيزنطية بفضل الأساطيل الأوروبية التي اتخذت من السويدية واللاذقية قواعد لها.

ولكن اتخاذ هذا الطريق الساحلي كان يستلزم الاستيلاء على مدن الشام الساحلية التي كانت لا تزال في أيدي الفاطميين مثل صيدا وصور وعكا بالإضافة إلى جبلة وطرابلس وبيروت ولاشك أن تحقيق هذا الاجراء سيكون باهظ

الثلث وسيفكفهم تضحيات وأموال كثيرة مما يعوق وصولهم سريعا إلى بيت المقدس، ويرى أصحاب الرأي الآخر سلوك، الطريق الداخلى مباشرة للوصول الى بيت المقدس تجنباً للمشاكل السابقة فإذا ما تحققت لهم السيطرة على بيت المقدس تيسر لهم الطريق إلى الساحل محاصرة مدنه والاستيلاء عليها^(١٧٤). أما الرأي المتفق عليه فيقضى بالمبادرة بالزحف والاستيلاء على كل ما يقابلهم من مدن ومراكز عمرانية ولذلك قرروا عدم الابطاء أثناء مرورهم أمام المدن الساحلية^(١٧٥)، والعبور عليها سريعا والاستيلاء على كل ما يتمكنون الاستيلاء عليه منها ضمانا لتوفير امدادتهم لأطول فترة ممكنة.

وهكذا تحرك الصليبيون فى رجب سنة ٤٩٢ هـ (مايو ١٠٩٩م) بحذاء ساحل البحر المتوسط واقتربوا من بيروت وعسكروا أمامها، فذب الذعر فى نفوس أهلها، وخرج اليهم واليها والتقى الصليبيون وقدم لهم بعض الهدايا والأموال والمساعدات فى مقابل وعدهم له بعدم اضرارهم بالمدينة وساتينها المحيطة بها، كما تطوع بارشاد الجيش الصليبي إلى الطريق الموصل إلى صيدا^(١٧٦). ولكن أهالى صيدا ورجال حاميتها رفضوا التعاون مع الصليبيين مما دفع الصليبيين إلى احراق الحدائق والمزارع المحيطة بصيدا قبل رحيلهم عنها إلى بيت المقدس^(١٧٧).

ويذكر ستيفن رانسمان أن الصليبيين عندما تعرضوا لهجوم حامية صيدا كانوا يعسكرون على شاطئ نهر الأولى، فقاموا برد هذا الهجوم، وتحركوا بكل ما لديهم من عدد وآلات إلى المناطق القريبة من مدينة صور على صور حيث أقاموا يومين، ليلحق بهم بلدوين وجماعة من الفرسان من انطاكية والرها التى كان قد تم سقوطها. وفى تلك الأثناء التزمت حامية صور الصمت، وتحصنت وراء أسوار المدينة ولم تنجز الصليبيين العداء ثم رحل الصليبيون فى ٢٣ مايو، فاجتاز الجيش دون مشقة الممر المعروف بمرتقى صور، ومرتفعات الناعورة حتى بلغ ظاهر عكا فى ٢٤ مايو من نفس العام، فحذا واليها حذو والى بيروت وهادى الفرنج بنفيس الهدايا وفى مقابل ذلك تلقى وعدا بعدم تعرضهم للضياع الخصيبة الواقعة حول المدينة^(١٧٨)،

ثم تابع الصليبيون مسيرتهم نحو بيت المقدس مروراً بحيفا وقيصرية ثم اتجهوا إلى الرملة ومن هناك توجهوا نحو بيت المقدس فاستولوا عليها في رمضان سنة ٤٩٢ هـ (يوليو ١٠٩٩ م).

ويذكر بعض المؤرخين الغربيين أن صور وعكا بادرت بمدد العون إلى القوات الصليبية استمالة لهم واتقاء لشركهم بعكس مدينة صيدا التي قاومت الصليبيين عند مرورهم بأرضها لأول مرة (١٧٩). واعتقد أن ما ذكره بشأن صور يستلزم منا مناقشته إذ أن ما ورد في المصادر العربية يؤكد تماماً أن مدينة صور كانت تمثل أهم مراكز المقاومة ضد الصليبيين، فكانت السفن تبحر من قاعدتها لتساهم في مساعدة المدن الساحلية الشامية التي يحاصرها الصليبيون، ومنها كانت تشن الحملات وتوجه الغارات ضد الصليبيين إلى حد أن نفس المصادر الغربية تؤكد هذا الدور القتالي والدفاعي بدليل أن الصليبيين أقاموا حصوناً أمامية لتكون نقاط ارتكاز هجومية ضد صور التي أقضت بغارات حاميتها، مضاجع الصليبيين وأزعجتهم بصمودها البطولي طويل الأمد، وكان إنشاء هذه القلاع والحصون ضرورة عسكرية لضعاف مقاومة صور، ومع ذلك فقد استمات أهل صور في الدفاع عن مدينتهم وتفاؤوا في مدافعة القرع، ووقفوا أكثر من مرة في رد عدوانهم المتواصل، وأرغموهم على رفع الحصار عنها إلى أن سقطت في النهاية سنة ٥١٨ هـ بعد مقاومة رائعة، أبدى أهلها خلالها الكثير من البطولات التي سجلها لهم التاريخ.

صور أهم مراكز المقاومة والتصدي للعدوان الصليبي:

بعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين وبعد المذبحة المروعة التي راح ضحيتها آلاف المسلمين داخل المدينة، تكشفنا حقيقة نوايا الصليبيين وأدرك أنه كان مخططاً عندما فكر في التحالف معهم، وأحس بمدى تخلفه السياسي وسوء تدبيره، فبدأ يغير من سياسته تجاه القرع، وفي هذه الفترة تمكن تنكريد من الاستيلاء على إقليم الجليل، أو إقليم السهول الوسطى بفلسطين (الذي كان موضع صراع وتنافس بين دقاق أمير دمشق والفاطمييين قبل وصول الصليبيين).

وكان هذا الأقليم أعز لا بمعنى أنه كان يخلو من القلاع أو الأبراج العسكرية التي توفر له الحماية مما جعله فريسة سهلة المنال فقد تمكن تنكريد النورمندی من اجتياحه بجيشه الصغير، ثم احتل طبرية عاصمة الاقليم بكل يسر بعد فرار أهلها إلى دمشق. وبذلك تمكن تنكريد من اضافة اماره جديدة لمملكة بيت المقدس هي اماره الجليل أو أماره ما وراء نهر الأردن وأصبحت هذه الامارة الصليبية الجديدة بمثابة دولة حاجزة بين مدن الساحل التابعة للفاطميين، والمناطق الداخلية لاقليم ما وراء نهر الأردن مما جعلها تحول دون قيام التعاون الكامل بين سلاجقة دمشق، وفواطم القاهرة^(١٨٠). وتبين للأفضل حقيقة الأوضاع المتردية في جنوبى الشام، ولم يتردد فى المبادرة ببذل العون للمدن التى لم تكن قد سقطت بعد فى أيدي الصليبيين، والاستجابة الى نداءات أهلها فكان يبعث أساطيل مصر مزودة بالمؤن والعدد والأقوات تقوية لهم ودعمًا لمقاومتهم ومساندة لضمودهم البطولى^(١٨١).

وقد لعبت مدينة صور دورا هاما لحماية مدن سواحل الشام من السقوط فى يد الصليبيين من ذلك ما حدث فى سنة ٤٩٥ هـ (شتاء ١١٠٢م) عندما وصلت ٤٠ سفينة تحمل حجاجا من الفرنج إلى السواحل الشامية، قذفت بهم العواصف فى مواضع مختلفة بعضها بالقرب من عسقلان والبعض الآخر ما بين صور وصيدا، فوقعوا أسرى فى أيدي سكان هذه المدن، وقتلوا أو بيعوا فى اسواق النخاسة^(١٨٢). وما حدث فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٥ هـ (ربيع سنة ١١٠٢م) عندما عزم بلدوين على فتح عكا ومدن الساحل مستغلا وجود اسطول انجليزى عدته ستة عشر قطعة بحرية، فزحف على عكا وضرب حولها حصارا شديدا، ونصب المنجنيقات. وكادت عكا تسقط فى يد - الصليبيين لولا المساعدات التى كانت تصلها من صيدا وصور، فقد أرسلت هاتان المدينتان اثنى عشر غرابا، وحمالة ضخمة تحمل خمسمائة من خيرة مقاتلة المسلمين، وآلات قذف النار اليونانية ونجح المسلمون فى ارغام بلدوين على فك الحصار والرحيل عن عكا بعد أن اخرقوا منجنيقاته وأبراجه وسفنه^(١٨٣).

ويذكر كل من ابن القلانسي والمقرئزي أنه في سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦/ ١١٠٧م) خرج الأمير عز الملك متولى صور، فأوقع بالفرنج على تبنين وهو الحصن الذى كان الصليبيون قد ابتنوه سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥م) تمهيدا للاستيلاء على صور التى كانت لا تكف عن شن غاراتها على الصليبيين، ولعل هذه الغارة الناجحة التى قام بها عز الملك، خير دليل على نشاط صور وكفاحها ضد الصليبيين. فقد تمكن متولى صور من قتل عدد كبير من قوات الفرنج وأسر جماعة منهم ثم عاد مظفرا إلى صور^(١٨٤).

وفى صفر من نفس هذا العام (أكتوبر ١١٠٦م) فاجأت حامية صور مع الجيش الاسلامى الكبير الذى كان يتألف من حاميات عسقلان وبيروت وصور، بالاغارة على معسكر الحجاج الفرنج فيما بين يافا وأرسوف، مستغلين فرصة انشغال بلدوين الأول ببعض المشاكل فى الجليل، وتمكن المسلمون من تدمير المعسكر وإبادة حاميته. وكان هذا الجيش المشترك يتكون من سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية، وعلى أثر هذه الغارة واصل المسلمون طريقهم حتى الرملة حيث قتلوا قوة استطلاعية مكونة من بعض الفرسان الصليبيين ثم امتد نشاطهم حتى وصلوا الى المنطقة الواقعة ما بين يافا وبيت المقدس وقتلوا أربعين من الصليبيين خارج أبواب يافا، كما هاجموا قلعة أقامها الصليبيون على مقربة من بيت المقدس، كان الملك بلدوين لم يفرغ من بنائها بعد هى قلعة Chastel Arnaud وكان بلدوين يهدف من تشييدها حماية الطريق المؤدى إلى بيت المقدس. ثم تراجعت القوات الاسلامية المشتركة إلى قواعدها عندما بلغتها الأخبار بخروج بلدوين على رأس قوة عسكرية لمقاتلتهم^(١٨٥).

وعندما توفى هيو دى سانت أوامر Hugh de Saint Omer صاحب طبرية فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) متأثرا بجراحه عقب عودته من إحدى الغارات التى تعرض فيها رجاله لهجوم مضاد قام به عسكر من دمشق، وساد الاضطراب سائر

أنحاء المملكة اللاتينية، انتهرز أهالي عسقلان التي كانت لا تزال تحت الحكم الفاطمي هذه الفرصة، وأرسلوا وفودا من قبلهم، إلى المدن الساحلية الاسلامية ومن بينها صيدا وصور وبيروت لاستنقار أهلها بهدف تكوين قوة اسلامية مشتركة تستطيع أن تهاجم الفرنج بالأراضى المقدسة، وقد لقت هذه الدعوة التي وجهها أهل عسقلان استجابة كبيرة من مسلمى هذه المدن الساحلية، فشاركوا جميعا فى حملة تكونت من سبعة آلاف محارب مسلم اشتبكت فى ربيع الأول سنة ٥٠١ هـ (أكتوبر ١١٠٧م) مع الصليبيين فى معركة كبيرة دارت بالقرب من دمشق، أحرز فيها المسلمون انتصارا ساحقا، وتكبد الصليبيون خسائر جسيمة وقتل عدد كبير من خيرة فرسانهم، فى حين لم يفقد المسلمون سوى خمسمائة مقاتل فقط (١٨٦).

وكان لمساهمة صور بحاميتها واسطولها فى تلك الغارات والهجمات أسوا الأثر فى نفوس الصليبيين فى بلاد الشام الذين أدركوا مدى ما تمثله لهم من خطورة باعتبارها من أهم القواعد البحرية الفاطمية، فقد كانت السفن المصرية تخرج اليها من تنيس أو الاسكندرية لتكون على أهبة الاستعداد لمهاجمة الصليبيين أو لمدافعتهم. وأصبحت صور بذلك مركز مقاومة اسلامية، ونقطة انطلاق الجيوش البرية والأساطيل البحرية الاسلامية (١٨٧) على السواء. ويزودنا فوشيه دى شارتر بنصوص تتضمن ما يشير إلى استشعار الصليبيين بالخطر القادم من مدينة صور التي كانت منطلقا للغارات المتواصلة الموجهة ضد الصليبيين والتي يسميها فوشيه دى شارتر بأعمال القرصنة ضد الحجاج المسيحيين الوافدين لبيت المقدس والساحل (١٨٨).

وكانت صور قد اكتظت بمن لجأ إليها من مدن الساحل التي سقطت فى أيدي الفرنج. وكان هؤلاء اللاجئين إليها إما من الفرسان المقاتلين والشباب المجاهد، أو من كبار التجار والأعيان، أما المقاتلون فقد جعلوا من صور مقرهم الجديد، منطلقا للجهاد ضد الصليبيين، وقد أزعجت غاراتهم الصليبيين وأفضت مضاجعهم، وأما الأعيان وكبار التجار والموسرين فقد ازدادوا فى مقامهم الجديد بصور ثراء على

ثرائهم ونمت مكاسبهم وازدهرت تجارتهم، وكان طبيعيا أن تتحول صور بفضل هؤلاء المجاهدين وكبار التجار إلى مدينة عظمى لها أهميتها الاقتصادية والعسكرية، واستشارت لذلك مطامع الصليبيين فى الاستيلاء عليها وحركت شهية بلدوين فى ضمها إلى مملكته ليحقق باستيلائه عليها أكثر من هدف، فاستحواذه عليها سيؤدى حتما إلى حرمان الفاطميين من ثرواتها الطائلة كما أنها بحكم قربها من إمارة طغتكين فى دمشق ستمكنه جغرافيا واستراتيجيا من غلق منفذ هذه الإمارة البحرى. وعلى الصعيد العسكرى فإن سيطرته عليها ستخلصه من أعظم قاعدة بحرية فاطمية تناوئه وتهدد الكيانات الصليبية فى بلاد الشام، كما أنه بذلك سيتمكن من تحجيم القوى الفاطمية واصابتها بالشلل.

ولهذه الأسباب، بادر بلدوين بمهاجمة مدينة صور فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) وأحكم عليها الحصار، واستمر يحاصرها مدة شهر، أنشأ خلاله حصنا على تل المعشوقة، ليكون بمثابة نقطة ارتكاز عسكرية^(١٨٩) صليبية لتوجه مزيدا من الضربات إلى مدينة صور.

ولكن سعد الدولة كمشتكين الأفضلى، والى صور، استمات فى الدفاع عنها، وتصدى للحصار الصليبي بكل طاقة يملكها، كذلك استبسل أهالى المدينة فى الدفاع عن مدينتهم مما أرغم بلدوين أمام هذه المقاومة، وأمام افتقاره الدعم البحرى إلى رفع الحصار بعد أن قبل عرض والى صور بدفع اتاوة قدرها سبعة آلاف دينار^(١٩٠). وعندئذ رحلت قوات بلدوين عنها واتجهت إلى صيدا فى نفس العام ٥٠١ هـ (١١٠٨م) حيث نزلت عليها، وحاصرها بلدوين برا وبحرا مستغلا وصول ملاحين مغارين قدموا من مدن ايطالية مختلفة من بيزة وجنوه والبندقية وأمالفى، وأمام هذا الخطر الجاثم استنجد والى صيدا بطغتكين أتابك دمشق، فى نفس الوقت الذى بادرت الأساطيل المصرية بالابحار إلى صيدا والدفاع عنها فقد وصل

إلى مياهاها اسطول يتجاوز عدد سفنه خمسين سفينة، واشتبكت هذه السفن مع سفن الجنوية والصليبيين فى موقعة دارت فى مياه صيدا أسفرت عن هزيمة نكراء منى بها الفرنج، وفى الوقت نفسه بلغ بلدوين أن ظهير الدين طغتكين أتابك، صاحب دمشق قد سير عسكره التركمان إلى صيدا للدفاع عنها فرأى السلامة فى الانسحاب واضطر إلى رفع الحصار عنها (١٩١).

ونلاحظ هنا أن المصادر العربية باستثناء المقرئى، لم تحدد الجهة التى قدمت منها الأساطيل المصرية، ونعتقد أن تكون بعض تلك السفن قد قدمت من قاعدة عسقلان البحرية استنادا إلى رواية (١٩٢) المقرئى وأن بعضها الآخر أقبل إما من طرابلس (١٩٣) أو من صور أو من القاعدتين فى آن واحد. ونميل إلى ترجيح قدمها من صور، فالمصادر العربية واللاتينية نصت على أن الأساطيل المصرية رست فى صور عند حصار (١٩٤) الصليبيين الأخير لصيدا وهو الحصار الذى أسفر عن سقوطها سنة ٥٠٤ هـ، وحدث نفس الشئ عند حصارهم لطرابلس فقد أبحرت السفن الفاطمية من مصر إلى صور لتقيم بها بعد سقوط المدينة (١٩٥) سنة ٥٠٢ هـ، وكذلك رابط الأسطول الفاطمى فى صور بعد حصار الصليبيين لبيروت (١٩٦) سنة ٥٠٣ هـ.

وفيما يتعلق بحصار الفرنج الأخير لمدينة طرابلس وهو الحصار الذى انتهى بسقوطها فى أيديهم، والذى شغل الفترة ما بين أول شعبان سنة ٥٠٢ هـ، و ١١ ذى الحجة من نفس السنة (١١٠٩ م) فإننا نلاحظ أن صور لم تؤد خلالها دورها المعهود فلم تبادر سفنها بالابحار إلى طرابلس ومساعدة أهلها، وفى تصورى أن أسطول صور ظل راسيا بمينائها ينتظر وصول السفن المصرية القادمة من مصر محملة بالامدادات والمؤن والغلال لامداد صور ببعضها قبل أن تتجه إلى طرابلس التى شدد عليها الفرنج الحصار، وكان أهلها قد بعثوا إلى الوزير الأفضل شاهنشاه يسألون أن يمدهم بالأقوات والمؤن والسلاح والرجال.

وظلوا ينتظرون هم وأهالى بقية المدن الساحلية مثل صور وبيروت وصيدا،

وصول الأسطول المصري، ولكن الشهور مضت دون أن تصل أية امدادات إلى طرابلس، ضعفت خلالها مقاومة الأهالي، والحامية بسبب انعدام الأقوات، فلما يئس والى طرابلس من وصول النجدة المصرية، عزم على التسليم، وتم استيلاء الفرنج على المدينة في ١١ من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١٢ يوليو ١١٠٩م)، وللأسف وصلت السفن الفاطمية بعد سقوط طرابلس بشمانية أيام، وكانت مشحونة بالرجال والأموال والمؤن والغلال التي كانت تكفى لامداد أهالي طرابلس مدة سنة كاملة، فرست في صور بعد أن تبين لقادتها عدم جدوى توجههم إلى طرابلس.

وفي صور تم توزيع الغلال والذخائر على أهالي المدينة، وكذلك على أهالي صيدا وبيروت. وقد تمسك الأهالي في كل من صور وبيروت وصيدا بهذا الأسطول وألحوا في استبقائه معهم حماية لهم، وشكوا إلى القادة الفاطميين ضعفهم وسوء أحوالهم ولكن القادة الفاطميين لم يبالوا بذلك وأقلعوا عائدين إلى مصر عند استقامة الريح (١٩٧).

ويعلق الدكتور السيد عبد العزيز سالم على هذا التصرف الشائن من قبل قادة البحر الفاطميين بأنه كان في إمكان هذا الأسطول انقاذ بيروت وصيدا من الحصار الصليبي الوشيك ويعودته دون أداء هذه المهمة تكون السلطات الفاطمية في مصر قد ساهمت في ضياع مدن الساحل السوري كله (١٩٨) فبعد سقوط طرابلس انتهز بلدون فرصة قضاء بعض السفن الجنوبية البيزية فصل الشتاء بالشام في رجب سنة ٥٠٣ هـ (فبراير ١١١٠م) وقرر حصار بيروت والاستيلاء عليها، وساعده في ذلك جوسلين كورتنای صاحب تل باشر، وتقدم الفرنج واحكموا الحصار عليها برا وبحرا، وساعدتهم في ذلك السفن البيزية والجنوية وكان عددها أربعون سفينة، إلا أن حامية المدينة وأهلها، استبسلوا في الدفاع عنها ونجحوا في تدمير البرج الذي أقامه الصليبيون على أسوار المدينة (١٩٩).

بادر الأفضل هذه المرة بإرسال تسعة عشر مركبا حربية قادمة من صيدا وصور

زودوها بالميرة والسلاح والرجال لانجاد بيروت حتى لا يتكرر ما حدث فى طرابلس بسبب تقاعسه وابطائه فى إنجادهها.

وتمكنت هذه السفن الفاطمية من اقتحام الحصار الفرنجى البحرى، والسفن البروفنسية والجنوية والبيزية، وألحقت هزيمة منكرة بالسفن الصليبية واستولت على بعضها ورغم استبسال السفن الفاطمية فى الدفاع عن بيروت إلا أن تقدم السفن الجنوية واستخدامهم الأبراج الخشبية المتحركة التى صنعوها من أخشاب الغابات الصنوبرية المجاورة للمدينة قد حال بين السفن الاسلامية وبين الوصول إلى بيروت المحاصرة كما أسفر ذلك عن اشتباك جديد استشهد فيه مقدم الأسطول الفاطمى، ورغم ضراوة القتال وصمود السفن الفاطمية التى شاركت معها السفن القادمة من صور، فقد اضطر والى بيروت إلى الاستسلام للصليبيين بعد أن حصل منهم على الأمان (٢٠١).

وفى عام ٥٠٣ هـ (١١١٠م) تكررت محاولة بلدوين انتزاع مدينة صيدا، فتوجه عليها وضرب الحصار حولها، ولكن افتقار بلدوين للعون البحرى، بالإضافة إلى ما بلغه من اخبار باقلاع أسطول مصرى نحو صور، القاعدة الرئيسية للفاطميين، من أجل الدفاع عن صيدا، واستبسال حامية المدينة فى المقاومة، اضطره إلى فك الحصار عن صيدا خاصة بعد أن تلقى بلدوين نحو ستة آلاف دينار، مقابل انسحابه، فرحل عن صيدا إلى بيت المقدس، وفشلت محاولته هذه للاستيلاء على المدينة (٢٠٢).

ولم يمض عام على ذلك حتى أعاد الفرنج الكرة، وكرروا محاولتهم لاسقاط مدينة صيدا والاستيلاء عليها، فقد انتهز الصليبيون فرصة وصول أسطول صليبي من الحجاج النرويجيين إلى ميناء عكا بقيادة الملك النرويجى Sigurd Jeroslafror of Nor Ways الذى كان يشترك مع أخويه فى حكم النرويج، تخميه حوالى ستين سفينة حربية مشحونة بالرجال والذخائر (٢٠٣)، فى صيف عام ٥٠٣ هـ (١١١٠م) وشاركوهم فى مهاجمة مدينة صيدا برا وبحرا فى ربيع الآخر فى عام

٥٠٤ هـ (أكتوبر ١١١١م) وقد اشترك معهما فى هذا الهجوم برتران كونت طرابلس. ولم يتردد الأسطول الفاطمى الراسى فى صور فى الدفاع عن صيدا، واشتبكت وحداته مع السفن النرويجية فى قتال عنيف وكادت السفن النرويجية أن تلقى هزيمة ساحقة على أيدي المسلمين، واتفق فى هذه الفترة وصول أسطول بندقى كبير يقوده دوق البندقية نفسه Ordelafno Valerii Doge of Venice، فانضم إلى أسطول الفرنج لاحتكام الحصار عليها بحرا وتسبب فى إشاعة الذعر فى نفوس المقاتلين المسلمين^(٢٠٤)، وعندئذ رأى مقدم الأسطول الفاطمى أنه لا سبيل أمامه إلا الانسحاب بأسطوله الصغير إلى صور والبقاء فيها تجنباً للهزيمة أمام الفرنج وحقنا الدماء المسلمين خاصة بعد أن تبين استحالة اختراق الحصار الصليبي المحكم حول صيدا لتوصيل بعض المؤن والامدادات التى قد تعين أهل صيدا على الصمود.

وأدى انسحاب الأسطول المصرى إلى صور مرة أخرى، إلى تسرب روح اليأس فى نفوس أهل صيدا^(٢٠٥)، فبادروا بارسال قاضيهم وكبار شيوخهم إلى بلدوين طالبين الأمان، واستسلمت صيدا بعد حصار استمر ما يقرب من سبعة وأربعين يوما فى ١٩ جمادى الأولى عام ٥٠٤ هـ ورأى قادة الصليبيين بعد استيلائهم على صيدا ان استمرار بقاء صور تابعة للفاطميين يمثل خطرا جسيما على كيانهم واستقرارهم السياسى، ولذلك كانت الخطوة التالية الأكثر أهمية بالنسبة لهم هى الاستيلاء على صور أهم قاعدة بحرية فاطمية وقاعدة النضال الاسلامى ضد قوى الصليبيين.

وهكذا تقرر فتحها وأعد بلدوين العدة للاستيلاء عليها، فجهز الجيوش والأساطيل، وتوجه لحصارها برا وبحرا فى جمادى الآخرة من عام ٥٠٥ هـ^(٢٠٦) (فبراير ١١١١م) وقد شارك يوستاش جارنييه بارون صيدا Eustach Garnier فى حصاره لصور. وتؤكد أناكرومينيا فى الالكسياد أن أسطولا بيزنطيا مكونا من اثني عشر سفينة بيزنطية بقيادة القائد البيزنطى بوتو ميتس Boto metes شارك فى الحصار البحرى الصليبي لصور، طمعا فى الحصول على مساعدة عسكرية صليبية لاستعادة

أملاك بيزنطة في شمال الشام والتي كان أمراء انطاكية النورمانديون قد استولوا عليها. ولكن بلدوين تردد في الالتزام بذلك مما جعل البيزنطيين يكتفون بامداد الصليبيين بالموثوق والعتاد فقط دون المشاركة في الحصار البحري^(٢٠٧).

ويرجح أحد المؤرخين الحديثين أن الأسطول الذي قام بحصار صور بحرا، كان أسطولا جنوبيا وبنديقا وبيزنطيا مشتركا^(٢٠٨).

وكان الصليبيون يدركون تماما مدى حصانة صور اذ سبق لهم محاصرتها سنة ٥٠١ هـ ، وأيقنوا آنذاك بمناعتها وحصانتها، وكان عليهم أن يقتحموا حصونها الخارجية التي كانت تحيط بها للوصول إلى أسوار المدينة، ولكنهم فشلوا في تحقيق هذا الهدف، ولم يكن أمامهم عندئذ سوى صنع المزيد من الأبراج وسلالم التسلق واستخدام الآلات المخصصة لتلك الأسوار^(٢٠٩).

وكان عز الدين انوشكين الأفضل والى صور قد أبدى الكثير من ضروب الشجاعة والاستبسال في الدفاع عن مدينته كما استماتت حاميتها في مواجهة الهجوم الصليبي، ولما استشعر انوشكين واهالى صور بالحركة والجلبة في المعسكر الصليبي، أدرك ببعده نظره أن الفرنج يعدون العدة لجولة جديدة، ويعملون على تشييد مزيد من الأبراج لاقتحام تحصينات المدينة. فبادر بمخاطبة الأفضل شاهنشاه يستمده ويستنصر به، ولكن مصر كانت تعاني آنذاك من وباء، راح ضحيته ستين ألف شخص^(٢١٠)، شغل الأفضل عن انجاذ صور، بالاضافة إلى تباطئه الذي عرف به في انجاذ السواحل الشامية واستهانته بتقدير حجم الخطر الصليبي حق قدره، فلما طال انتظار أهالى صور وواليتها وحاميتها للنجدة المصرية وادركوا عدم جدوى الانتظار، فلم يجدوا أمامهم سوى أن يستصرخوا بطغتكين^(٢١١) أتاك دمشق، الذي عرف بشهامته ونجدته، واستبساله في قتال الصليبيين وكانت له أياد بيضاء في مجال الجهاد المقدس ضد الفرنج، فاستجاب لندائهم وبادر بانفاذ قوة كبيرة من الأتراك زودهم بالعدد الكاملة، وكان يتجاوز عددهم مائتي فارس^(٢١٢).

ومن الجدير بالذكر أن القوة التي أرسلها طغتكين لمساندة حامية صور وانجادهما كانت تتألف من جماعة من مقاتلة جبل عاملة أو الجليل وأحواز صور مع رجال من دمشق^(٢١٣)، ولم تكن هذه الفرقة التي أرسلها هي الفرقة الوحيدة إذ اتبع ذلك بفرقة أخرى^(٢١٤).

ولما بلغ بلدوين اتفاق أنوشتكين وظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، وبادر بقطع الأشجار المحيطة بصور والنخيل، وبنى بيوتا للاقامة عليها^(٢١٥). وحاول طغتكين ارغام بلدوين على فك حصاره لصور وذلك بشن سلسلة من الغارات على قلاع وحصونه القريبة من صور، وتذكر المصادر العربية أنه خيم ببانياس وثبت سراياه «ورجاله الحرامية» في أعمال الافرنج، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والتخريب والحرق ازعاجا لهم ورغبة في ارغامهم على الانسحاب عنها، وحاول ادخال العدة الثانية في هذه الأثناء الى صور، ولكنه لم يتمكن من ادخالها^(٢١٦)، فاستمر في سياسته الرامية الى ترويع الفرنج وارغامهم على الرحيل عن صور فاقتحم حصن الحبس^(٢١٧)، أحد الحصون العامة القريبة من دمشق^(٢١٨)، واستولى عليه عنوة وقتل كل من فيه، غير أن الفرنج الذين أدركوا هدف الأتابك طغتكين لم يحفلوا بما يفعل، وواصلوا تنفيذ مخططاتهم لبناء أبراج اضافية لتسهيل عليهم اقتحام أسوار المدينة.

وكان الصليبيون في تلك الأثناء قد تمكنوا من بناء برجين على حد قول بعض المؤرخين^(٢١٩) العرب واللاتين^(٢٢٠)، في حين يذكر عدد آخر من المؤرخين أن تلك الأبراج التي بناها الفرنج كانت ثلاثة^(٢٢١). وحاول طغتكين الاشتباك في قتال مع الفرنج لينشغلوا به، فيخرج عسكر صور في هذه الأثناء لاحتراق الأبراج، ولكن الفرنج تنبهوا إلى الهدف الذي يرمى إليه، فخذقوا على الأبراج من جميع الجهات، ورتبوا عليها المقاتلة لحمايتها، ولم يهتموا بغارات طغتكين ولا بحلول فصل الشتاء، إذ أنهم كانوا ينزلون في أرض رملية صلبة بعكس الأتراك، وعندئذ عمد طغتكين وأصحابه إلى قطع الجسر الذي كان يصل بين صيدا وصور ليمنع

عليهم الأمدادات^(٢٢٢)، وعندما علم بوصولها الامدادات إليهم من صيدا^(٢٢٣)، لم يتردد في مهاجمة مدينة صيدا والاغارة على أحواضها واغراق مراكب الفرغج الراسية على سواحلها كما قام بارسال الكتب إلى أهل صور يحثهم فيها على الصمود الاستبسال في المصابرة على الفرغج^(٢٢٤).

وعلى الرغم من كل ذلك فإن الفرغج شرعوا في تحريك الأبراج والكباش المثبتة فيها وأسند بلدوين مهمة تسلق الأسوار إلى يوستاس جارنييه^(٢٢٥)، وزحفوا بها في العاشر من شعبان وقربوها من أسوار المدينة، واشتد القتال عليها حتى أول رمضان.

وتختلف المصادر في ذكر ما تلا ذلك من أحداث فانا كومنينا تنفرد بذكر خبر مفاده أن الصليبيين تمكنوا خلال هذا الهجوم بالأبراج والكباش على أسوار المدينة من الاستيلاء على قطاعين من هذه الأسوار، ولم يتبق أمامهم سوى قطاع ثالث، لاسقاط صور، فلما تبين لأهل صور أنها على وشك السقوط لجأوا إلى الحيلة كسبا للوقت، فقام والى المدينة بارسال سفارة إلى بلدوين طالبا منه الاستسلام بشروط معينة، وكان يهدف من ذلك كسب مزيد من الوقت يتمكن خلاله من احراق الأبراج الصليبية وتمكين الدفاع عن مدينته^(٢٢٦).

ويرى بعض المؤرخين أن رواية آنا كومنينا يحيطها الشك فهي لا تستند على نص عربي أو لاتيني يؤيدها خاصة وإن آنا كومنينا لم تكن شاهدة عيان، رغم معاصرتها للأحداث وإنما استقت رواياتها من البحارة البيزنطيين الذين ساهموا في مساعدة الفرغج أمام صور^(٢٢٧).

أما وليم الصوري فقد امتدح جهود المسلمين في صور للدفاع عن مدينتهم^(٢٢٨)، وقد أسهبت بعض المصادر الاسلامية في وصف دفاع أهل صور المستحمت، فيشير كل من ابن القلانسي وأبو المحاسن بن تغري بردى إلى أن أهالي صور خرجوا في أول شهر رمضان بالنفط والحطب والقطران وآلات الحرق لتدمير

الأبراج الفرنجية، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى شيء فألقوا النار قريبا من البرج الصغير بحيث لم يتمكن الفرنج من دفعها، فهبت ريح وألقت النار على هذا البرج فاحترق بعد محاولات جادة لانقاذه، واستولى المسلمون منه على زرديات كثيرة وطوارق وغير ذلك، واتسع نطاق النيران فامتدت ألسنتها إلى البرج الكبير مما أثار مخاوف الفرنج فأندفعت أعداد كبيرة منهم نحو الأبراج لاطفاء النيران، تاركين حرسه المدينة، وبذل الفرنج جهودا كبيرة لاطفاء الحرائق ونجحوا في ذلك، ثم عادوا لمواصلة الزحف فقبروا الأبراج من جديد إلى سور المدينة، ولكن أهالي صور أطلقوا نيرانهم إلى التعليقات التي بأبراج الفرنج، فاحترق التعليق وسقط وجه الحائط في وجه البرج، فمنع من تقديمه إلى السور، فجره الفرنج إلى برج آخر وأتوا بغيره وقربوه من سور المدينة الذي هدموه بالكباش، فتزعزع سور المدينة وتساقطت بعض حجارتها وأشرف أهالي المدينة على الهلاك^(٢٢٩).

أما المقرئ فيؤكد على أن المسلمين استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم ويسوق وصفا تفصيليا لهذه الأبراج، فيذكر أنها كانت موضوعة على ما يسمى اسقلوس وهو فخذان ملقيان على الأرض، وفي كل برج من أسفله عشرون افرنجيا، كما يصف ستائر كل برج ومناجيقه بأنها كانت تبدو كأنها بلد يزحف، وقد خرج إليها من أهل صور ألف رجل لاحتراقها^(٢٣٠).

وعلى الرغم من مقاومة أهل صور المستميتة فإن نجاح الصليبيين في اطفاء نيران الأبراج وتقدمهم من جديد إلى الأسوار، جعل اليأس يتسرب إلى نفوسهم. ويجمع معظم المصادر العربية على أن شيئا كبيرا من أهل طرابلس قد جاوز الثمانين من عمره^(٢٣١)، كان من مقدمى البحرية^(٢٣٢) العارفين بالصناعة تعهد باحراق تلك الأبراج، فجمع اليه طائفة من أهل صور بلغ عددهم ألف رجل، بأسلحتهم، ومع كل رجل قطعة خشب كبيرة، وقيل حزمة حطب، وخرجوا، وقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة وأمرهم الشيخ أن يلقوا الخشب قريبا من البرج من سائر جهاته، وطرح النار فيها طرحا، فاحترقت الأخشاب، وعلقت النار

بالبرج ويذكر ابن الفرات أن هذا الشيخ الطرابلسي خاف أن يبادر الفرنج الذين بداخل البرج باطفاء النار، فيتخلصوا منها، فعمد إلى قذفهم بجرار كان قد اعدّها مملوءة بالعذرة^(٢٣٣) على حد قول المقرئزي^(٢٣٤) وبالزيت والقيير والسراقة والقلفونية وقشر القصب على حد قول كل من ابن القلانسي^(٢٣٥) وابن الأثير ليشغل الفرنج برائحة هذه المواد الكريهة عن اطفاء النار المشتعلة بالأبراج.

فلما سقطت تلك المواد الملوثة ذات الرائحة الكريهة على الصليبيين، شغلهم عن اطفاء النيران التي تمكنت من البرج واتت عليه، فهلك كل من كان فيه، إلا عدد قليل تمكن من الفرار، فتناول المسلمون من رأس البرج بالكلاليب من قدروا عليه من سلاحهم ودروعهم فغنموا ثلاثمائة درع^(٢٣٦) وكان يوجد في هذا البرج كبش من الحديد يبلغ طوله مائة وخمسون ذراعاً، وكان وزن رأسه وحدها مائة وخمسين رطلاً فظفر به المسلمون أيضاً، ثم أخذ الشيخ الطرابلسي سلال العنب، وجعل ساقه الكتان مع الزيت والكبريت وألقاها جميعاً على رأس البرج، وكان يتولاه رجلان فقتل أحدهما وانهزم الآخر، ونزل منه، فعلقت النار برأس البرج^(٢٣٧). وتمكنت من الطبقة الثانية من رأسه ثم تبادت إلى الوسطى، واشتعلت في المواد الخشبية، وقهرت من كان حوله في الطبقات وعجزا عن اطفائها، وهرب كل من فيه ومن حوله من الأفرنج ويذكر ابن الفرات أن الشيخ الطرابلسي لم يكتف بحرق هذا البرج فاشعل النار في باقى الأبراج وعندئذ خرج أهل صور ونهبوا ما فيه وغنموا أعداداً هائلة من السلاح والعدد والآلات^(٢٣٨).

ويذكر ابن الأثير أن أهالى صور حفروا سراديباً تحت الأرض ليسقط فيها الفرنج إذا ما زحفوا إليه ويتهاوى فيها أى برج، يقومون بتشبيده^(٢٣٩)، ويذكر ابن الفرات أن الفرنج علموا بأمر هذه السراديب فاحترزوا منها وساروا بعد ذلك وهم يحسبون ما بين أيديهم وأقدامهم بالمجاس، فإذا كانت أرضاً صلبة اجتازوها وإن كانت رخوة صلبوها، كما عملوا على طمى الخندق الذى كان أمام المدينة للزحف عليها من جديد^(٢٤٠).

وفى أثناء ذلك أرسل طغتكين نجدات جديدة إلى صور، وبخاصة^(٢٤١) من رماة السهام وقد نجحت إحدى هذه النجدات الدمشقية فى دخول المدينة مما أوقع الذعر فى قلوب الفرنج الذين اعتقدوا أن هذه النجدات ليست سوى مقدمة لجيوش كثيفة العدد فى طريقها^(٢٤٢) إلى صور، وعاد أنوشتكين الأفضلى والى المدينة، طلب المساعدة من طغتكين بعد أن أستاذن من القصر الخلافى بالقاهرة مبررا الأسباب التى تدفعه إلى الاستنجاد بطغتكين.

وحدث أن سقطت الحمامة التى كانت تحمل رسالته الى طغتكين فى يد أحد البدو من المتواطئين مع الفرنج، فأنفذ بلدوين على أثر ذلك، رجلا متخفين تمكنوا من اسر رسل دمشق، وصدر الأمر باعدامهم، ومع ذلك فقد بلغت الأخبار طغتكين، فاستجاب لطلب والى صور ورحل إليها. وفى أثناء ذلك باغت الجماعة من الفرنج كانوا يسعون للحصول على العلف وحاصر الفرنج^(٢٤٣) فى معسكرهم، وهكذا أدرك الصليبيون فى نهاية الأمر أنه لا جدوى من حصار صور بعد احتراق أبراجهم وآلات حصارهم، ففكوا الحصار عنها ورحلوا. وهكذا أثبت أهل صور بتصديهم للصليبيين وصمودهم المشرف أنهم أبطالاً يشهد لهم بذلك اللاتين والبيزنطيون^(٢٤٤).

وتذكر المصادر الاسلامية أن أهل صور قد أوفوا بعهدهم لطغتكين فى مقابل مساعدته الكبيرة لهم^(٢٤٥)، وعبروا عن شكرهم له لنصرته لهم وأبدى طغتكين من جانبه استعدادة للدفاع عنهم دون مقابل وعدهم ببذل العون والمساندة متى أرادوها ثم عاد إلى بلده^(٢٤٦) دمشق. لقد كانت صور على شفا الضياع بل أنها أوشكت على الاستسلام للفرنج ولكنها قاومت بكل ما لدى أهلها من قوة وعزم وساعد على إخفاق الصليبيين فى الاستيلاء عليها انجاد الأتابك التركى طغتكين لها وتزويده اياها بالعدد والرجال والأقوات، وقد تناسى الأفضل وطغتكين الخلاف المذهبى القائم بين الفاطميين والسلاجقة ولم يتردد الأفضل فى السماح لوالى صور طلب النجدة من طغتكين الذى بادر على الفور ببذل كل إمكاناته لنصرة الإسلام

فى صور، ويجدر بنا أن نقدر بسالة أهل المدينة وصبرهم على حصار طويل الأمد، وإذا كان التاريخ عظة وعبرة فإن صمود صور أمام العدوان الصليبي، وتعاون السنة والشيعية نموذج للتعاون والتضامن بين عناصر اسلامية مختلفة من حيث المذهب، ومثل حى لما تحققه الوحدة بين هذه العناصر المتنافرة من قوة وبأس أزهت الصليبيين. ولم يكن هدف طغتكين أتابك دمشق بدفاعه المشرف عن صور، تحقيق كسب مادي أو أدبي أو زعامة ورئاسة، وإنما كان يبتغى نصرة الإسلام والجهاد فى سبيل الله، ويجدر بنا ألا نغفل الدور البطولى الذى قام به عز الملك أنوشتكين الأفضلى، والى صور، فى الدفاع عن مدينته، وكذلك أهالى المدينة أنفسهم ومن أنضم إليهم من سكان المدن التى كانت قد سقطت فى أيدي الفرنج، شأن الشيخ الطرابلسى الطاعن فى السن الذى تصدى للفرنج غير مبال بنيرانهم، ولم يدخر كل تجاربه لاحتراق أبراج الصليبيين. كذلك كان من عوامل فشل الفرنج أمام صور افتقارهم إلى أسطول صليبي قوى يتمكنوا بفضلهم من تطويق المدينة، من البحر على نحو ما حدث فى بيروت وصيدا، فالسفن البيزنطية والاطالية القليلة التى كانت راسية فى مياه صور لم تكن تقوى على أداء دورها لاحكام هذا الحصار بحرا.

لقد كان دفاع أهالى صور عن مدينتهم رائعا، واستماته أتابك طغتكين فى حمايتها من السقوط ملحمة اسطورية ومثل أعلى للصمود.

وعندما تحقق الصليبيون من فشلهم فى حصار صور فى هذا (٢٤٧) العام سنة ٥٠٥ هـ، شرعوا فى الرحيل عنها وأقدموا على حرق الدور الذى كانوا قد عمروها لسكناهم، كما أحرقوا الكثير من سفنهم الراسية فى مياه صور لأنهم كانوا قد انتزعوا منها صواريخها وأرجلها وآلاتها للأبراج، وكان عددها يقرب من مائتى مركب كبار وصغار منها ثلاثون مركبا حربية شحنا بعضها بما خف حملة من أثقالهم وأبحروا قاصدين عكا.

وبلغ عدد من استشهد من أهالي صور أربعمائة رجل في حين خسر الصليبيون ألفى نفس^(٢٤٨). ورغم هذه الهزيمة النكراء التي منى بها الفرنج أمام أسوار صور، إلا أنهم عاودوا التفكير في الاستيلاء عليها بعد رحيلهم عنها بنحو عام. ففي عام ٥٠٦ هـ (١١١٣م) عزم بلدوين على منازلة صور مرة أخرى^(٢٤٩). فلما وصلت تلك الأنباء إلى مسامع أهالي صور تجددت مخاوفهم من وصول الفرنج إليهم، فأجمعوا بالاتفاق مع واليهم عز الملك الأفضلي أنوشكين على مراسلة ظهير الدين طغتكين أتاك دمشق ودعوته لتسلم المدينة وتولى الدفاع عنها، فلم يكونوا قد نسوا بعد ما بذلوه من جهود في العام السابق لاستنفاد صور من السقوط في أيدي الصليبيين، ثم أن صور كانت شديدة الارتباط بدمشق باعتبارها المنفذ البحري لإتاكية دمشق ولهذا ارتبطت مصالحهما الاقتصادية والأمنية معا ارتباطا وثيقا.

ولم يتردد ظهير الدين طغتكين أتاك دمشق في قبول طلب والي صور وأهلها، فأمر سيف الدين مسعود بن سلا، واليه على بانياس وابنه (أى ابن طغتكين) تاج الملك بورى نائبه في دمشق بأن يتسلما^(٢٥٠) صور نيابة عنه، لأنه كان قد رحل إلى حماة لاقرار الأوضاع فيما بينه وبين فخر الملك رضوان صاحب حلب، وذلك كسبا للوقت، واشفاقا على أهالي مدينة صور من التعرض لخطر سقوط مدينتهم قبل أن يعود طغتكين من حماة لو بادر الفرنج بمهاجمة المدينة مرة^(٢٥١) أخرى في فترة انتظار وصول النجيدات في صحبة طغتكين. كما اصدر طغتكين أوامره بإرسال فرقة من الأتراك لتدعيم الدفاع عن صور، ووصلت الفرقة بالفعل إلى المدينة واستقرت بها، كما بعث طغتكين إلى أهلها من يحمل إليهم الأقوات والمؤن من دمشق مما طيب نفوس أهل المدينة^(٢٥٢).

وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين يعتقدون أن طغتكين بتصرفه المذكور^(٢٥٣) قد انتزع مدينة صور من أيدي الفاطميين، فاننا نرد على هذا الزعم بأن طغتكين كان متعففا عن بسط نفوذه عليها، فرغم مذهبه السني استمر مبقيا على الخطبة

على منابر صور باسم الخليفة الفاطمي، كما ظلت السكة تحمل اسم الخليفة الفاطمي فهو لم يغير شيئاً من رسوم الفاطميين^(٢٥٤)، وهذا ينهض دليلاً على أن طغتكين كان زاهداً في السيطرة وأنه لم يخطر بذهنه في تلك الظروف الحرجة من تاريخ الإسلام أن يحرز مكاسب ذاتية بل كان يهدف إلى انقاذ ما يمكن انقاذه من أراضى المسلمين، بدليل أنه بادر بإرسال مبعوث من قبله إلى مصر الفاطمية، حاملاً رسالة، يفسر فيها طغتكين للأفضل شاهنشاه سبب تصرفه، موضحاً له أن هدفه الوحيد هو الأبقاء على صور، إسلامية عن طريق تقويتها بالرجال وبلغه فيها أن بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأنه أي طغتكين على أتم استعداد لاجلاء قواته عنها وإخراج نوابه منها، حتى وصول من يتولى أمرها من مصر، والدفاع عنها وحمايتها، ثم أوصى في نهاية رسالته ألا يحمل أمرها، وأن يرسل الأسطول بالغلة إليها والتقوية لها^(٢٥٥).

وقد أقام مبعوث طغتكين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر حتى ذى الحجة من سنة ٥٠٦ هـ، وخلال فترة إقامته بالقاهرة، استطاع أن يصور للأفضل حقيقة الأوضاع في صور موضحاً له ما يتهددها من أخطار من قبل الفريخ، ودور طغتكين في الدفاع عنها، فحمد الأفضل لطغتكين ما قدمه لصور من معونات ورد عليه بكتاب عبر فيه عن شكره العميق له على ما فعله واستصوب رأيه فيما اعتمده^(٢٥٦).

ويذكر ابن القلانسي أن بلدوين حين علم بدخول الأمير مسعود والأتراك إلى صور من قبل الأتابك طغتكين، رحل من بيت المقدس إلى عكا ليعترض طريقهم ولكنه لم يحقق بغيته إذ سبقه الأتراك في دخول صور، فأقام بعكا، وأخذ يغير على القوافل بقية هذا العام^(٢٥٧). أما الأفضل شاهنشاه فقد شرع في تجهيز الأسطول المصري وحمله بالغلة والميرة ومال النفقة في الأجناد والعسكرية وما يباع على الرعية من الغلات^(٢٥٨).

وأقلع الأسطول الفاطمي من مصر في أوائل سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣م) بالغلات والرجال متجهاً إلى صور، وأسند الأفضل قيادة هذا الأسطول إلى الأمير

شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي، وإلى طرابلس السابق زمن سقوطها في أيدي الصليبيين.

وقد وصل الأسطول إلى صور في صفر سنة ٥٠٧ هـ، وبوصوله صور وانزاله الشحنتان رخصت الأسعار في المدينة، فتحسن حالها وانتعشت ظروف أهلها.

وهكذا أفسد، تعاون طغتكين مع الأفضل شاهنشاه خطط الفرنج وأبعد خطرهم وكان الأفضل قد عهد إلى شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي مقدم الأسطول المصري بتقديم هدية إلى ظهير الدولة طغتكين، وكانت عبارة عن بعض الخلع الفاطمية الفاخرة برسمه ورسم ولده تاج الملوك بوري وخواصهما، وكذلك برسم سيف الدولة مسعود نائب ظهير الدين في صور، فقدمت إليهم بين مظاهر البهجة التي عمت نفوس المسلمين بسبب هذا التقارب بين الأفضل وطغتكين، وبقي الأسطول المصري في صور فترة لحمايتها من جهة وحتى تعتدل الرياح من جهة أخرى، ثم رحل منها في العشر الأخير من شهر ربيع الأول من سنة ٥٠٧ هـ. وفي نفس الوقت، لجأ بلدوين إلى عقد هدنة مع الأمير مسعود وإلى صور فأجابه الأمير مسعود وإلى المدينة، وأعددت الهدنة بينهما واستقامت أحوال صور وأمنت الوافدين عليها من التجار والمسافرين من جميع الأقطار^(٢٥٩).

ويذكر وليم الصوري أن صور كانت منذ دخول الأمير مسعود نائب طغتكين إليها خاضعة لحاكمين، فقد احتفظ خليفة مصر لنفسه بقسمين فيها، كحاكم أعلى لها، ومنح الجزء الثالث إلى صاحب دمشق، لأنه كان قريباً منها، وكان قد وثق ثقة تامة بطغتكين أتاك دمشق. ونواياه الصداقة في حماية صور والدفاع عنها دون أن يطمع في السيطرة عليها بل كان متأكداً من مساندته^(٢٦٠) لسكان صور إذا ما تعرضوا لأي عدوان.

وقد كان لرواية وليم الصوري أثر كبير لدى بعض المؤرخين الحديثين، دفعهم إلى ترجيح قيام نوع من الإدارة الثانية أو حكم فاطمي / دمشقى مشترك بمدينة صور

وهو ما يعرف باسم Condominium^(٢٦١).

ورغم الهدنة المعقودة بين الفرنج والأمير مسعود في صور إلا أن العظمى يؤكد على أن بلدوين خرج في قواته لمنازلة صور في عام ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وأنه حاصرها برا وبحرا ونجح في أسقاطها. ولكن المصريين على حد قوله تمكنوا من استعادتها بعد الحصار الشديد لها من البر والبحر، ويذكر أيضا أنه في عام ٥١١ هـ (١١١٧ م) عاود بلدوين حصار صور، من البر، بعد غارته على منطقة قريبة من البحر الأحمر^(٢٦٢).

ويورد المقرئ في اتعاضا الحنفاء خبرا مشابها لما أورده العظمى مفاده أنه في عام ٥١١ هـ ملك الفرنج حوران وملكو من أعمال حلب بزاعة وخربت وملكو مدينة صور^(٢٦٣) هذا وكان قد ورد في كتاب الألكسياد ما يشير إلى أن صور سقطت في أيدي الصليبيين عام ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ) ثم استردها المسلمون بعد ذلك^(٢٦٤).

وعلى أى حال فإن هذه الروايات التي تشير إلى سقوط صور سواء في سنة ٤٩١ هـ كما ورد في كتاب الألكسياد أو سنة ٥٠٨ هـ كما ذكر العظمى أو سنة ٥١١ هـ كما ذكر المقرئ، لا تتفق تاريخيا مع واقع الأحداث، إذ أن نفس المقرئ قد عاد ليذكر لنا في أحداث سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) وهي السنة التي تلت وفاة الأفضل شاهنشاه^(٢٦٥)، أنه في هذه السنة من عهد الأمر بأحكام الله، كانت العملة تضرب باسمه في ست مواضع هي القاهرة^(٢٦٦) ومصر وقوص وعسقلان وصور والاسكندرية^(٢٦٧) مما يتعارض مع النص السابق الذي أورده والذي يشير إلى سقوط صور في أيدي الفرنج في سنة ٥١١ هـ.

كذلك تؤكد الأحداث التالية عدم صحة ما ورد من روايات بشأن سقوط صور في السنوات سالفة الذكر.

ولما قتل الأفضل، خلفه على الوزارة المأمون البطائحي الذي لم يكن رغم

شجاعته على مستوى الأفضل من حيث الحنكة السياسية والقدرة على التصرف، فما كاد يتولى الوزارة، ويستبد بأمر البلاد حتى عزم على إزالة نفوذ طغتكين من صور، كما قرر عزل الأمير مسعود الذى كان يتولى المدينة من قبل طغتكين.

وفى بداية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢م) أرسل المأمون الأسطول المصرى إلى ثغر صور بقيادة وحشى ابن طلائع مشحونا بالرحالة البحرية والجنود، ومحملا بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف أردب وأقوات كثيرة. ولما وصل الأسطول المصرى إلى صور، خرج الأمير مسعود لاستقبال وحشى بن طلائع مقدم الأسطول، فطلب منه قائد الأسطول ان ينزل بسفينته فاستجاب مسعود لرغبته، ولكن ما كاد مسعود ينزل الى سفينة مقدم الأسطول حتى اعتقله وألقه الأسطول عائدا إلى مصر بعد أن أنزل الجند على البر وأمرهم باحتلال صور. ولما وصل الأسطول الى مصر بالغت السلطات الفاطمية فى أكرام مسعود وأنزل ضيفا على مصر فى احدى الدور وزود بكل ما يحتاج إليه (٢٦٨).

ويعلل كل من ابن القلانسى وابن الأثير هذا التصرف بأن الأمير مسعود قد أساء إلى أهالى صور واضر بهم فكثرت شكاياتهم منه وتتابعت الى الأمر بأحكام الله ووزيره المأمون فأصدر المأمون قراراً باعتقاله.

ولما علم الصليبيون بأمر هذا الانقلاب الذى تم فى صور على يد المأمون البطائحي، تحركت أطماعهم من جديد فانتهزوا فرصة الخلافات التى أشعلها المأمون البطائحي مع نواب طغتكين فى صور، وبدأوا يعدون العدة لحصارها حصارا محكما من البر والبحر ومنع نفاذ أى عدد وأقوات تصل إليها تمهيدا لفتحها وأسقاطها هذه المرة.

٥- سقوط صور فى أيدي الصليبيين سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م)

عندما تنبه والى صور الجديد من قبل المأمون البطائحي بالتحركات الصليبية المريبة أخذ يعيد حساباته ويدرس وضع صور السياسى فأدرك مدى عجزه عن رفع

الخطر الصليبي الداهم، لقلّة ما لديه من عدد وأقوات، فبادر بإرسال تقرير مفصل عن الأوضاع الاقتصادية والعسكرية في حصر إلى الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله ليطلع على حقيقة الأمور بها.

وعندما بحث الخليفة ذلك مع كبار رجال الدولة قرر رد ولايتها إلى ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، ليتولى حمايتها والذب عنها وعلى هذا النحو أصدر الخليفة الفاطمي منشور الولاية باسم طغتكين أتابك دمشق، مع حق مصر في الإشراف على المدينة وفرض سلطانها عليها وتم ذلك في جمادى الآخرة من سنة ٥١٧ هـ (يوليو / أغسطس ١١٢٣ م) (٢٦٩).

ويذكر المقرئ أن الخليفة الأمر بالغ في تعظيم قدر طغتكين في المرسوم الخلفي الذي أصدره وأرسله إليه، وقد لقيه فيه «سيف أمير المؤمنين» وكانت الخلعة التي أرسلها إليه مصحبة المرسوم تتألف من بدلة طميم عندلها طوله مائة ذراع شرب فيها ثمانية وعشرون ذراعاً مرقومة بذهب عراقي، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي، وثوب ديبقى وثوب سقلاطون داري، وثوب عتابي وشاسيه ديبقى ولفافة وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه (٢٧٠).

ولم يتردد طغتكين في قبول هذه المسئولية الجسيمة ما دام ذلك يحقق له سعيه الجهادي، ولكنه نذب لتوليها، جماعة لم يكن لهم في مجال الحرب كفاية أو مهارة ففسد أمرها، مما زاد في طمع الصليبيين فيها (٢٧١).

ويذكر غوشيه دي شارتر أن الصليبيين اجتمعوا في عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) في بيت لحم وبيت المقدس للاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح، وفقاً للتقاليد المرعية في تلك المناسبات الدينية، وحضر هذا الاحتفال دوج البندقية ورجاله، واحتفلوا مع الفرنج في خشوع ثم حلف الأعيان على حصار إمارة مدينة صور أو مدينة عسقلان بعد عيد الغطاس (٢٧٢). وكان الفرنج يفتقرون إلى الأموال، فقاموا بهجم مبالغ كبيرة من الناس، فردا فردا ليدفعوا للفرسان والمشاة والمأجورين، كما

اضطروا إلى رهن أنفس زخارف كنيسة القدس لدفع المال للرجال. ويؤكد فوشيه دى شارتر أن الفرنج والبنادقة وصلوا الى عكا، وهناك أعدوا خططهم فى التوجه إلى صور ومحاصرتها، وكان ذلك يوم الخامس عشر من شهر مارس من ذلك العام (٢٧٣) ثم توجه الأسطول (٢٧٤) البندقى إلى داخل الميناء ورسا فى مكان آمن فى حين بدأت الجيوش الصليبية فى السيطرة على البساتين الواقعة بالقرب من صور، حيث أقاموا معسكرهم على شكل دائرة تطوق المدينة بحيث أغلقوا المنافذ أمام أهل المدينة للدخول إليها أو الخروج منها (٢٧٥).

وتكامل وصول القوات الصليبية إلى ظاهر مدينة صور فى شهر ربيع الأول (٢٧٦) من سنة ٥١٨ هـ، وفور وصولهم شرعوا فى سحب أسطولهم إلى اليابسة بالقرب من الميناء غير أنهم أبقوا سفينة واحدة فى عرض البحر لمنع أى سفينة للدخول للميناء، ثم حفروا خندقا حول المدينة، وبدأوا فى إعداد المواد اللازمة لانشاء الآلات الحربية (٢٧٧) والأبراج وقسموا أنفسهم إلى فريقين، وقد تولى قيادة الفريق الأول البطريك ونبلاء المملكة وقد تمكن هذا الفريق من نصب برج كبير على سور المدينة، واشتبك عسكر هذا الفريق فى قتال عنيف مع المسلمين المدافعين على شرفات الأسوار، فى نفس الوقت الذى كانت منجنيقاتهم تدك الأسوار والأبراج مما أشاع الذعر والهلع فى نفوس أهالى صور.

وتولى قيادة الفريق الثانى، دوق البندقية وسريته، وبدأ ببناء آلات حربية مماثلة لآلات الفريق الأول، ونصبوها فى مواضع استراتيجية غاية فى الأهمية ثم توالى هجماتهم وغاراتهم. أما أهالى صور المدافعون عن مدينتهم فأدركوا عجزهم عن مواجهة هذا الهجوم العاتى ولم يعودوا قادرين على تحمل ما سببه من أضرار سواء من قبل الفريق الأول أو الثانى، وما أدى إليه من تخریب وتدمير، ومع ذلك فقد واصلوا صمودهم ولم يستسلموا أو يأسوا بل قاوموا باستماتة وشرف وتمكنوا من بناء آلات حربية داخل صور، وبدأوا يقذفون صخورا ضخمة من مناجيقهم المنصوبة وراء أسوار المدينة، فتساقطت حجارتها على الأبراج الصليبية، مما أشاع الفوضى

والارتباك فى هذا القطاع .

ويذكر وليم الصورى أن هذا الجانب خضع لسيادة المسلمين بعد أن جبن الصليبيون عن البقاء فى هذه المنطقة، وفر الجنود الذين كان عليهم حراسة الآلات الحربية بعد أن تعرضوا لوابل من السهام، قذفهم بها عسكر المسلمين، فضلا عن سيل من الصخور الضخمة التى كانوا يقذفوها من داخل المدينة، وحالت بينهم وبين الأقتراب من الأبراج (٢٧٨).

غير أن الصليبيين سرعان ما استعادوا توازنهم وبدأوا يردون الضربة بضربة أشد ضراوة منها، كما شرعوا فى قذف كتل ضخمة من الحجر، مما أدى إلى تخطيط جانب كبير من أبراج المدينة وأسوارها، وأدى ذلك إلى اثاره كميات من الغبار الناتج من تفتيت الحجارة وتحلل الملاط الذى يربط بينها مما شكل ستار بين المقاتلين، حال بين المسلمين وبين رؤية أعدائهم، كما ارتطمت جميع القذائف المتطايرة والتى تجاوزت الأسوار والأبراج فى سور المدينة بالمنازل والأبنية فحالتها الى شظايا صغيرة.

وفى نفس الوقت اشتبكت جماعات من أهالى صور المسلمين خارج الأسوار مع مشاة وفرسان الفرنج فى معارك دامية، استبسلوا فيها واستماتوا خلالها للدفاع عن مدينتهم (٢٧٩).

ويعترف وليم الصورى بأن المعارك بين الجانبين كانت متعادلة، ولم ترجح كفة طرف على الآخر إلا بعد وصول بونز كونت طرابلس الذى كان من أمراء المملكة، فعندئذ فقط، تضاعفت قوة الصليبيين (٢٨٠)، وازدادت ضراوة هجومهم.

وتجمع المصادر الصليبية على أنه كان بداخل صور نحو سبعمائة من عسكر الدمشقيين لعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن صور وحمايتها. كما تجتمع على أن أهالى عسقلان قد خرجوا لمهاجمة بيت المقدس مع حاميتهم الفاطمية كنوع من ممارسة الضغط على الفرنج لارغامهم على فك الحصار عن صور والتوجه لحماية

ملكتهم فى القدس (٢٨١).

غير أن بعض الصليبيين الذى كانوا فى بيت المقدس، انتظروا حتى بدأ أهالى عسقلان فى الرجوع إلى مدينتهم، فتتبعوهم بحذر مسافة قصيرة ونجحوا فى قتل اثنين وأربعين رجلا مسلما كما أسروا أربعة فرسان واستولوا على سبعة عشر جوادا ثم عادوا إلى القدس (٢٨٢).

وفى تلك الأثناء، كان الأعياء قد ظهر بوضوح على أهالى صور، وبدأوا يعانون من نقص فى المؤن والأقوات فتداول الصوريون الأمر وقرروا ان يرسلوا الى كل من الخليفة الفاطمى الأمر باحكام الله وطغتكين أتابك دمشق، لكى يسرعا إلى نجدهم ووصفوا لهم مدى الضعف الذى آلوا إليه وتفوق عدوهم عليهم، ويذكر وليم الصورى أن تلك المكاتبات التى أرسلوها قد شدت من أزرهم وشجعتهم على مواصلة الصمود (٢٨٣).

وتجمع المصادر الاسلامية والصليبية على أن هذه النداءات استنهضت حمية طغتكين وحماسه الجهادى فبادر بمغادرة دمشق فى قوة كبيرة من الأتراك، وعدد كبير من الفرسان للدفاع عن صور. وبينما تتفق المصادر العربية على أنه اتجه إلى بانياس (٢٨٤)، يذكر وليم الصورى أن طغتكين استقر فى منطقة مجاورة لصور تقع على ضفاف نهر يبعد عنها بنحو أربعة اميال (٢٨٥)، كما يذكر أن أسطولا كبيرا ومجهزا بالعدد والأقوات والرجال كان قادما من مصر قدر وصوله إلى صور فى غضون ثلاثة أيام، وأن خبر هذا الاسطول شاع فى صور وأثار مخاوف قادة الفرنج فاجتمعوا للتشاور فى اتخاذ الخطوات التالية ورأوا ضرورة تقسيم الجيش الصليبي إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول منها يقوده، وليم دى برى كونت طرابلس، وكافل المملكة الذى عينه الملك واقتصرت مهمته على مواجهة جيش طغتكين أتابك دمشق. والقسم الثانى بقيادة دوج البندقية، وقد عهدوا إليه مهمة الابحار مع قواته فى الشوانى لقتال المصريين عند وصولهم.

أما القسم الثالث فكان يتألف من طوائف مختلفة تجمعت من كافة الامارات الصليبية ومعظمهم من البنادقة، للمشاركة فى عمليات الحصار، وحراسة الآلات الحربية والأبراج المتحركة كما أسندت إليهم مهمة متابعة المهاجمين بالمجانيق والآلات والعدد (٢٨٦).

ويجدر بنا أن نأخذ رواية وليم الصورى بشأن وصول اسطول مصرى إلى صور بشئ من الحذر إذ أن المصادر الاسلامية لا تذكر أى خبر عن وصول أى نجدة من مصر إلى طغتكين فابن القلانسى يذكر أن ظهير الدين طغتكين توجه «فى العسكر إلى بانياس للذب عن صور ونفذت المكاتبات الي مصر باستدعاء المعونة لها، وتمادت الأيام بذلك إلى أن ضعفت النفوس وأشرف أهلها على الهلاك، وعرف أتابك جليلة الأمر وتعذر تلافئها ووقع اليأس من المعونة لها فراسل الأفرنج بالملاطفة والمداينة....» (٢٨٧). وكذلك ابن ميسر الذى يذكر أنه «تقاصر المأمون عن نجدهم فأغاثهم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس...» (٢٨٨). كما يذكر ابن الاثير أن طغتكين أرسل «إلى مصر يستنجدهم، فلم ينجدوه وتمادت الأيام وأشرف أهلها على الهلاك...» (٢٨٩). ويذكر ابن شداد أن طغتكين «كتب إلى مصر يسأل من أميرها معونة بمراكب فى البحر فلم يجبه إلى ذلك...» (٢٩٠).

أما المقرئى فقد أخذ بمقولة ابن ميسر فيقول «وتقاصر المأمون عن نجدهم وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس...» (٢٩١). فى حين يذكر ابن تغرى بردى أنه «ما أبقي أهل صور رحمهم الله تعالى ممكنا فى قتالهم مع الفرنج وثباتهم فى هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر...» وفى موضع آخر يقول «ولم تأت نجدة المصريين، ودام الأمر بين أهل صور والفرنج تارة بالقتال وتارة المهادنة الى أن طال على أهل صور الأمر ويثسوا من نصرة مصر...» (٢٩٢). ويات استسلام صور وشيكا ومع ذلك فإن أهل صور آثروا القتال حتى الموت ولم تعدم هذه المدينة من بطولات فردية سجلت بسطور من نور فى تلك اللحظات الأخيرة، وقد استقيننا معلوماتنا عن هذه البطولات من نفس وليم الصورى الذى وصف لنا

كيف تعاهد شباب مدينة صور على الاستشهاد وأقسموا الايمان مع بعضهم البعض وصمموا على التسلل إلى داخل المعسكر الصليبي بهدف احراق الآلات الحربية والأبراج المتنقلة. ويعبر ولیم الصوری عن هذا العمل الانتحاری الذی قام به هؤلاء الشباب بقوله «وأملوا أن يحصلوا بهذه الطريقة على تقدير أبناء مدينتهم وأن يحققوا شهرة أبدية في عيون الأجيال القادمة...» (٢٩٣).

وقد تسللوا بالفعل إلى المعسكر وأضرموا النيران في إحدى الآلات الحربية وأحرقوها ولكنهم قتلوا على أيدي الصليبيين، واستشهدوا تحت مرأى من أصدقائهم.

واستمرت المقاومة الإسلامية، داخل المدينة، فقد نصب الأهالي في صور منجنيقا وبدأوا يصوبون قذائفهم على المعسكر الصليبي، ولكن الصليبيين اسكنوا هذا المنجنيق بفضل مقاتل أرمني من انطاكية صوب قذائفه الحجرية الضخمة على المنجنيق فدمره.

وفي هذه اللحظات الحرجة التي كانت النفوس تتأرجح خلالها بين اليأس والرجاء التمس أهل صور النجدة من قائد مسلم شهير، وكان له نصيب كبير من جهاد العدو، وأعنى به بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب، الذي ذاعت شهرته منذ أن تمكن من أسر بلدوين ملك القدس وجوسلين صاحب الرها، وما أن وصلت صرخات أهل صور له حتى تجهز لنجدتهم وعزم بصدق على مساعدتهم بعد أن يفرغ من حصاره لمنبج، ولكن القدر لم يمهل له إذ استشهد في منبج، سنة ٥١٨ هـ مما اضاع الأمل الوحيد المتبقى لأهالي صور في التغلب على عددهم (٢٩٤).

ومع ذلك فلم يفقد أهل صور الأمل في استنقاذ مدينتهم، فقد أقدم جماعة من السباحين المهرة من أهل صور على السباحة إلى الميناء الخارجي ونجحوا في الوصول الى السفينة التي كان الصليبيون قد تركوها لحماية الساحل من أى هجوم

قد تقوم به السفن الاسلامية الفاطمية، وقتلوا أحد حراسها بعد أن سحبوها إلى الميناء الداخلى (٢٩٥).

كذلك تكرر هجوم أهالى عسقلان وحاميتهم الفاطمية على المناطق التابعة للصليبيين محاولين بذلك أن يصرفوا نظر الفرنج عن صور، وهذه المرة هاجم أهالى عسقلان ريف منطقة بيت المقدس وأحرقوا قرية يسميها فوشيه دى شارتر (٢٩٦) البيره فى حين يسميها وليم الصورى بيلين (٢٩٧).

ولم تؤد هذه الغارة العسقلانية إلى تخفيف الضغط عن صور التى أنهكها الحصار واستفحلت فيها المجاعة. وحاول طغتكين أن يهادن الصليبيين، ولكن جهوده ضاعت عبثا ولم يتزحزح الفرنج عن مواقعهم إلى أن يستسلم لهم، وهذا ما حدث بالفعل فلم يعد امام أهلها سوى التسليم بعد أن طحنتهم المجاعة، وفتك الفرنج بقواتهم وأغلقت أمامهم أبواب النجاة (٢٩٨).

ونجح طغتكين بعد مفاوضات أجراها مع قادة الفرنج فى انتزاع الأمان لكل أهالى صور واشترط لتسليمها أن يخرج منها كل من أراد الخروج من العسكر والرعية آمنا بما يستطيع حمله فى حين يبقى من يريد الإقامة بمدينته (٢٩٩). وقبل القادة الفرنج والبنادقة شروط طغتكين، على الرغم من اشتداد ثائرة الجند والبحريين الذين كانوا يأملون فى نهب صور وهددوا بالتمرد والثورة، ولكن الشروط التى التزم بها قادتهم نفذت، ومنح أهالى المدينة الأمان (٣٠٠). فخرجت منها حشود هائلة من أهلها أنفت المقام فى ظل الحكم الصليبي، ولم يبق بصور إلا كل ضعيف عاجز عن الرحيل.

وتم سقوط صور فى أيدي الصليبيين فى ٢٣ جمادى الأولى من سنة ٥١٨ هـ الموافق ٧ يوليو ١١٢٤ م (٣٠١).

المصادر والحواشي:

(١) الاصطخرى، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٥ - ناصر خسرو علوى، سفرنامه، نقله إلى العربية د. يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥، ص ١٥ - غالب الترك، جنوب لبنان، بحث في ندوة لبنان في محافظات، بيروت، ١٩٦١، ص ٨٩.

(٢) الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص ٣٦٥ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧، المجلد الثالث، ص ٤٣٣ - الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق. احسان عباس، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٦٩ - وارجع كذلك إلى ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق ونشر سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢، ص ١٦٣.

(٣) ناصر خسرو علوى، سفرنامه، ص ١٥.

(٤) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، طبعة مؤسسة دار الفكر، ١٩٩٠، ج٢، ص ٦١٣. ويعلق وليم الصوري على وضع صور الجغرافي بقوله أن صور التي كانت محاطة بالماء من جميع الجهات باستثناء شريط برى طويل وضيق، كانت فيما مضى جزيرة منفصلة تماما عن البر الرئيسي مما جعل الملك الآشوري نبوخذ نصر يحاول توصيلها بالبر ليحكم حصارها إلا أنه لم يكمل هذا العمل ويذكر الاستاذ غالب الترك أن صور كانت مكونة في العصر القديم من عدة جزر تفصل فيما بينها أقنية بحرية مثل مدينة البندقية، جمع فيما بينها الملك حيرام (ارجع الى غالب الترك، جنوب لبنان، ص ٩٠)، أما الاسكندر فقد ربطها بالبر ثم استولى عليها بقوة السلاح (ارجع إلى وليم الصوري، المصدر السابق، ص ٦١٥) وارجع كذلك إلى

(Terence Wise, The wars of the Crusades, Ospery, 1978, P. 206.

(٥) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩، منير الخورى، صيدا عقب حقب التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٨ -

Frederick Carl Eislen, a study in Oriental history, New york, 1907, Pl-Dictionnaire de la Bible, Pub, Vigouroux T.V, Paris, 1928, P. 1704.

ومدينة صيدا مدينة ساحلية تقع شمالى صور، وتشغل بقعة من الأرض على شكل مثلث قاعدته إلى الداخل، ورأسه شبه جزيرة أو نتوء بارز فى البحر، يتقدمها عدد من الجزر الصخرية تحمى الخليج الصغير فى الشمال الشرقى من العواصف البحرية. وقد ازدهرت صيدا كميناء تجارى هام فى حقب التاريخ المختلفة. ويختلف المؤرخون فى تفسير اسم صيدا، فبعضهم ينسبها إلى «صيدون» الابن البكر لكنعان بن حام بن نوح، وبعضهم يرى أن اسمها مشتق من الجذر السامى «صيد» بمعنى صيد الأسماك، وهناك من يرى أن صيدون سميت باسم إله يحمل هذا الاسم، وقد ارتبطت صيدا بصور فى كثير من حقب التاريخ المختلفة، فقد ورثت صور عظمة صيدا وزعامتها منذ بداية القرن العاشر قبل الميلاد، وظلت صور تحتفظ لنفسها بالزعامة على سائر المدن الفينيقية حتى تعرضت سواحل فينيقيا لغزوات الآشوريين منذ أواخر القرن الثامن ق. م. فكان ذلك إيذانا بزوال نجم صور وأفوله وعودة صيدا لاسترجاع مكانتها (لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى محمد غلاب، الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٥٩ - وعن اسم صيدا والآراء المختلفة ارجع الى للكتاب المقدس، العهد العتيق، بيروت، ١٩٦٠: سفر التكوين ١٠: ١٥، سفر اخبار الأيام الأول ١: ١٣، السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى، بيروت

١٩٧٠، ص ١٥ وما يليها - أسامة زيد زكى، صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٨١، ص ١٣ - ١٥).

(٦) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ - وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦١٣.

(٧) ناصر خسرو علوى، سفر نامه، ص ١٥ - وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦١٧.

(٨) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ - وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦١٢. وفيما يتعلق بعين المياه الذى كان يقع على مدخل باب المدينة البرى والذى ذكره الحميرى، فنرجح أنه هو نفسه ينبوع الذى وصفه وليم الصورى بأنه ينبوع الذى تحدث عنه النبى سليمان فى أغنيته فى نشيد الانشا «ينبوع جنات بشر مياه حية وسيول من لبنان». ويبدو أن هذه الآبار لم تكن صالحة للشرب أو جاهزة للاستخدام الآدمى وقت الحصار الصليبي الأخير سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤م) للمدينة، إذ أن ستيفن رانسمان يؤكد على أن مياه الشرب كانت تأتى إلى صور فى هذه الآونة عن طريق سقاية ممتدة من البر، ولم يكن يشبه جزيرة صور، بشر تستمد منه الماء، فلما جاء الفرخ وضربوا الحصار الأخير حول المدينة سدوا هذه السقاية، غير أن مياه الأمطار ملأت الجباب والصهاريج، فلم يحس الأهالى بوطأة العطش إلا بعد فترة طويلة (ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٦٨، ج٢، ص ٢٧٠).

(٩) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦١٤، فى حين يذكر ناصر خسرو علوى أن المياه كانت تأتى إلى صور من الجبال (ناصر خسرو علوى، سفرنامه، ص ١٥).

(١٠) يرجع اسم جبل عامل إلى عاملة القضاعية وهى أم الحارث بن عدى الذى تنسب قبيلته إليها، وقد نزلوا بلاد الشام مع قبيلة جذام ولخم والأزد والغساسنة

فى رأى، وقيل أن عاملة هو ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهى قبيلة هاجرت من اليمن على أطراف الشام قبل الميلاد بـ ٣٠٠ سنة بعد حادثة سيل العرم وانهيار سد مأرب فى رأى آخر، وقد تحرف الاسم وأصبح يسمى بجبل عامل بدلا من عاملة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد جابر آل ضفا، تاريخ جبل عامل، بيروت، ص ١٩٦٣، ص ٢٥ - رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، بيروت، ص ١٩٨٧، ص ١٥، ١٦). ويعرف جبل عامل فى العصر الحديث بجبل بشار، وكان يعرف فى المصادر العربية بجبل الخليل وجبل الجليل. أما شخصية بشار الذى نسبت إليه هذه البلاد أو هذا الجبل، فقد كانت مثار مناقشات عديدة، فمن المؤرخين من يرى أنه حسام الدين بن بشار بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان من سلامة العاملى من رهط عاملة بن سبأ، الذى شارك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى فتح هونين فأقطعه بانياس، ومنهم من يرى أن المنطقة سميت كذلك نسبة إلى بشار بن مقبل القحطاني (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، ص ١٦). هذا وقد ذكر ابن عساكر فى كتابه تاريخ دمشق الكبير، جبل الخليل فى باب «فضل مواضع بظاهر دمشق وأصاحيها وفضل جبال تضاف إليها ونواحيها» باعتبار أن جبال بشار أو الخليل كانت بمثابة همزة الوصل بين دمشق والمناطق الداخلية من جهة، والسواحل الشامية من جهة أخرى (ارجع الى ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، بيروت، ١٩٧٩، ج ١، ص ٢٣٨). ويتفق معه فى ذلك ابن شداد الذى اعتبر أن جبل الجليل وأهله قوم من عاملة من كور دمشق (ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ٣٧).

- (١١) رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم فى جبل عامل، ص ١٨، ١٩، ٢٠.
- (١٢) لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى المرجع السابق، ص ١٧، ٢٠، ٢١.
- (١٣) ارجع الى محسن الأمين، خطط جبل عامل، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٩ -

٥١ - رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص ٢١.

(١٤) رضا السيد حسن، نفسه، ص ٢٩.

(١٥) سنقوم بشرح تفاصيل هذه الأحداث على الصفحات التالية.

(١٦) رضا السيد حسن، نفسه، ص ٢٩، ٣٠.

(١٧) فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلى، عمان، ١٩٩٠، ص ٢١٢ (ارجع إلى تعليق د. زياد العسلى) وارجع كذلك إلى.

Jean Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, Pub by North Holland company, Amsterdam, New York, Oxford, 1979, V.I, P. 30.

(١٨) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢، ص ١٠٥.

(١٩) المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢٠) ابن خردادبة، المسالك والممالك، ص ٣٥٥.

(٢١) ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ص ١٦٠.

(٢٢) اليعقوبى، كتاب البلدان، ١٨٩٢، ص ٣٢٧.

(٢٣) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٢٣.

(٢٤) ياقوت الحموى معجم البلدان، ص ٤٣٢ (مجلد ٣).

(٢٥) نقولا زيادة، التطور الإدارى لبلاد الشام بين بيزنطية والعرب، أحد أبحاث الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٦، ص ١١٨، ١٢٥، ويذكر أن الشام كان ينقسم فى العهد البيزنطى فى أواسط القرن السادس للميلاد إلى ثمانية أقسام هى:

١- سورية الأولى وهى تشمل شمال سورية من الساحل إلى الولاية الفراتية شرقاً

- ومن أهم مدنها انطاكية واللاذقية وبيورية (حلب) وخلقيس (قنسرين).
- ٢- سورية الثانية وكانت تمتد من الساحل (جنوبى سورية الأولى عبر أواسط بلاد الشام إلى الصحراء تقريبا) وكانت أفامية مركزها الإدارى وتضم لاريسا (شيزر) وأيفامية (حماة) وارتوزا (الرستن).
- ٣- فينيقية الساحلية وعاصمتها صور وكانت تضم طرابلس وبيروت وصيدا وعكا.
- ٤- فينيقية اللبنانية أو الداخلية وكانت أكبر مدنها أميزا (حمص) ودمشق وهى العاصمة وبعلمك وتدمر.
- ٥- فلسطين الأولى وكانت تشمل السهل الساحلى من جنوبى جبل الكرمل حتى جنوبى رافيا (رفح) وأهم مدنها يافا وعسقلان وغزا وأريحا وإيليا (القدس) ونابلس، وكانت عاصمتها قيسارية.
- ٦- فلسطين الثانية وكانت تتكون من مرتفعات الجليل ومنابع الأردن والجولان وعاصمتها بيسان وتضم بعض حلف المدن العشر مثل طبرية وصفورية واللاجون.
- ٧- فلسطين الثالثة، وعاصمتها بصرى وكانت تشمل البلاد التى كانت تقع تحت حكم البتراء أى كانت جزءا من دولة الأنباط. وكانت أيلة (العقبة) مقر حاكمها ومن مدنها البتراء، وبئر السبع.
- ٨- العربية وتشمل المنطقة الواقعة إلى الشرق من فلسطين الأولى والثانية. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ١٢٠).
- (٢٦) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٦٣ وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ص ٦١٤، ٦١٧ - (ارجع إلى كذلك إلى فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلى ص ٢٠٨).
- (٢٧) الادريسي، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، طبعة القاهرة، مكتبة الثقافة

الدينية، بدون تاريخ، ج ١، ص ٣٦٥ - الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ وارجع كذلك إلى نعيم فرح، ثلاثة مصادر تلقى بعض الأضواء على جوانب من الحياة الاقتصادية، من أبحاث الندوة الأولى من اعمال المؤتمر الداولى الرابع لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٦، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

وقد شغلت صور مركزا تجاريا هاما فى العصور القديمة، وإن كانت صيدا قد تفوقت عليها حتى مجئ قبائل البلست P.L.S.T من كريت منذ سنة ١٢٠٠ ق.م واحتلالهم لأراضيها عنوة، هنا بدأت صيدا تفقد عظمتها وزعامتها التجارية، وبدأت صور تحل محلها وذلك منذ بداية القرن العاشر قبل الميلاد (أمين خليفة، تاريخ سوريا قبل الفتح الاسلامى، بيروت، ١٩٣٠، ص ١٠٧ - محمد غلاب، الساحل الفينيقي، ص ٣٠٠). وكانت صور تتجر فى أخشاب الأرز وتبيعها لليهود لبناء الهيكل الذى شيده والى يهودا فى زمن كورش ملك فارس (السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٣٠) كذلك عرفت صور فى العصور القديمة الصباغة القرمزية والحمراء والبنفسجية التى عرفت بالأراجوانية، وكان أهالى صور القدامى، يستخرجون هذه الصبغة من محارات الموريكس والباكسينيوم المشهورة التى كانت تكثر على السواحل فى مدينتهم صور، وكذلك صيدا. وقد وصل تجار صور إلى بلاد غالة وإيطاليا ولباناسيا، وعثر على كتابات يونانية ولاتينية، تؤكد وجود تجار صوريين وصيدونيين وبيروتيين فى تلك المناطق فى العصر الرومانى (فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٢٠٨ - يوسف مزهر، تاريخ لبنان العام، طبعة بيروت، ج ١، ص ١٤٦).

(٢٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦١٧.

(٢٩) ناصر خسرو علوى، سفرنامه، ص ١٥ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي على العالم الاسلامى (٤٩٠ - ٥١٥ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١ م، الاسكندرية، ١٩٩٣، ص ٢٩٧).

- (٣٠) الاصطخرى، المسالك والممالك، ص ٤٥.
- (٣١) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص ١٦٤.
- (٣٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠.
- (٣٣) الأدريسى، نزهة المشتاق، ص ٣٦٥.
- (٣٤) ياقوت الحميرى، معجم البلدان، ص ٤٣٣ (مجلد ٣).
- (٣٥) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩.
- (٣٦) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤.
- (٣٧) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩. وعن وصف تحصينات عكا فى العصر الاسلامى ارجع إلى المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٦٣ - ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٥٠ - أحمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، وبيروت، ١٩٧٢، القسم الأول الخاص بالدمكتور السيد عبد العزيز سالم، ص ٥٠.
- (٣٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٦١٧.
- (٣٩) The Alexiad of Anna Comenena, London, 1979, P. 442.
- (٤٠) اليعقوبى، كتاب البلدان، ص ٣٢٧.
- (٤١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٣٥٥.
- (٤٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٧٣. وهو يذكر أن دار الصناعة التى أنشأها معاوية فى الشام كانت فى عكا ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك نقلها إلى صور.
- (٤٣) الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٦٩ وارجع كذلك إلى السيد عبد العزيز

سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٥١.

(٤٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨، ص ١٦٤، ١٧١،
٢٠٧ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ج ١٠، ص
٣٤٥، ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٧٩ - المقرئ، اعطاء الحنفيا بذكر الأئمة
الفاطميين الخلفاء طبعة القاهرة، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد،
ج ٣، ص ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٥ - ابن خلدون، العبر، ج ٩، القسم
الخامس، ص ٤٠٨، ٤٠٩ - فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس ص
١٤٨، ١٥٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى،
القاهرة، بدون تاريخ، ج ١، ص ٣٠١، ٣٠٢ -

Jean Richard, The Latin Kingdom, of Jerusalem, V.I, p22-25.

ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز
العريني، بيروت، ١٩٦٨، ج ٢، ص ١٦١، ١٥٥.

(٤٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - رضا السيد حسن - الصليبيون
وأثارهم في جيل عامل، ص ٤٩.

(٤٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤ - وليم الصوري،
ج ٢، ص ٦٢٧

Jean Richard, the Latin Kingdom, p24, 15، ستيفن رانسمان، تاريخ
الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٨، ج ٢، ص
١٦١، ١٥٥.

(٤٧) عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص
٨٩ في حين يذكر جان رشارد أن قلعة سكانداليون قد تم بناؤها عام ٥١٠
هـ (١١١٦م) (Op. Cit., P. 26) ويتفق معه في هذا الرأي كل من روبن
فيلدين وجون طومسون (ارجع Fedden and John Thomson,

.Crusader Robin Castles, London, 1957, P. 24)

وان كانا يذكران أن بناء قلعة تبنين كان قد تم في عام ٤٩٧هـ (١١٠٣ م)
. (Op. Cit., P. 24)

(٤٨) رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، ص ٩٧، ٨٩.

(٤٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٢، ص ١٤ وان كان ابن شداد قد ذكر في كتابه العلاقات الخطيرة أن حصن هونين وتبنين قد بناهما الفرنج بعد الخمسمائة ويقعا بين جبل عوف وبين بانياس وصور (ص ١٥٢).
ولكن سير الأحداث التاريخية يثبت أن حصن تبنين بنى قبل عام ٥٠٠ هـ إذ أن أهالي صور سيقومون بمهاجمته سنة ٥٠٠ هـ لأنه كان مركز انطلاق الغارات الصليبية على مدينتهم كما سنوضح بالتفصيل في حينه.

وارجع كذلك إلى ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ١٥٥. وهو يذكر أن هيو سانت أوامر قد شيد قلعة أخرى على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية أطلق عليها العرب اسم علعال. ويؤكد ستيفن رانسمان أن بناء الحصنين تبنين وعلعال قد اكتمل في خريف سنة ١١٠٥ م (٤٩٩ هـ) ويوافقه في الرأي جان رشارد. (Jean Richard, The Latin Kingdom, P. 25). في حين يؤكد الدكتور رضا السيد حسن بناء على ما أورده وليم الصوري أن حصن تبنين بنى في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) (أنظر رضا السيد حسن، الصليبيون في جبل عامل، ص ١٠١).
وعلى أي الأحوال فإن حصن علعال لم يطل تبعيته للصليبيين إذ أن قوات طغتكين اتابك دمشق تمكنت من الإيقاع بهيو أثناء عودته إلى علعال بغنيمة ثقيلة بعد غارة موفقة، وقتل متأثراً بجراحه مما سهل المهمة لطلغتكين للاستيلاء على علعال (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى اسامة زيد زكي، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي نقلا عن المؤرخ اللاتيني البرت دكس Albert d'Aix وارجع كذلك إلى:.

Jean, Richard, Op. Cit., P. 31.

(٥٠) لمزيد من التفاصيل. عن حصن تبين وآثاره ومحاولات صلاح الدين يوسف بن أيوب الاستيلاء عليه ارجع إلى رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، ص ١٠٦ وما يليها،

Robin Fedden and John Thomson, Crusader Castles, P. 24.

Terene Wise, The Wars of the Crusades, 1096-1291, Ospery, 1978, P 200.

ويذكر تيرينس وايس أن تحصينات مشابهة لتبني أقيمت فيما بين عامي (٥٣١، ٥٤٤ هـ) (١١٣٦ - ١١٤٩ م) لاسقاط عسقلان ومنع الامدادات الفاطمية عنها.

(٥١) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٥٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٥.

(٥٣) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩.

(٥٤) وإلى جانب هاتين الخلافتين، وجدت خلافة ثالثة في الأندلس، بعد أن تلقب عبد الرحمن بن محمد الأموي في قرطبة بالناصر لدين الله، ولكننا لن نتعرض لها في دراستنا وستتناول فقط خلافتي المشرق الاسلامي.

(٥٥) على الصعيد الاقتصادي، حاولت الدولة الفاطمية ضرب طريق الخليج العربي لتجارة التوابل للسيطرة على تلك التجارة، وتدعيم اقتصادها على حساب الدولة العباسية. وشجعت ذلك عن طريق نشر المذهب الاسماعيلي في اليمن وعمان والهند ونجحت في ذلك في كل من اليمن والهند أما عمان فظلت تتمسك بمذهبها الإباضي. وقد أشارت السجلات المستنصرية إلى

وجود دعاة اسماعيلية فاطميين في تلك البلاد، وقد سمي الدعاة الفاطميون الذين ذهبوا إلى الهند على هيئة تجار باسم «البوهر» نسبة لتجارهم في التوابل أو البهار، ولذلك أطلق فيما بعد على طائفة الشيعة الهند اسم طائفة البهرة. وكانت نتيجة هذه المحاولات الفاطمية نجاحهم في تعطيل نشاط الخليج العربي كطريق رئيسي لتجارة التوابل، وأحيائهم وإبرازهم طريق البحر الأحمر كمنافس خطير للخليج العربي وإن لم يقضوا تماما عليه كما يذكر بعض المؤرخين (لمزيد من التفاصيل عن التنافس الاقتصادي بين الخلافتين العباسية والفاطمية ارجع إلى جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها - عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن في ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٤٥ - ١٨٠ السجلات المستنصرية، تحقيق د. عبد المنعم ماجد، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٣٨ - ٤٢، ص ١٦٧، ١٦٩، ص ١٧٦ - ١٧٩، ص ١٩٠ - ١٩٣، ص ٢٠٣ - ٢٠٦ - عبد المنعم ماجد، سياسة الفاطميين في الخليج مستعدة من السجلات المستنصرية، بحث مقدم إلى ندوة قطر ١٩٧٦ عن تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج١، ص ٢٦٧ وما يليها ولمزيد من التفاصيل عن هذا التنافس الاقتصادي فيما بين بغداد والقاهرة وآثاره على نشاط طريق الخليج العربي ارجع إلى سحر السيد عبد العزيز سالم، تجارة عمان في الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طليعة القرن السابع الهجري، مجلة كلية الآداب، الاسكندرية ١٩٩١ - ١٩٩٢، العدد ٢٤ - وارجع كذلك Sahar Abdel Aziz Salem, Head Light om the commercial

Relation between India and Egypt during the Islamic period, Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria Egypt, 1991- 1992 - JJ. Saunders, A History of Medieval Islam, U.S.A.. 1972, P. 136.

(٥٦) صلاح الدين محمد عبد القادر نوار، تاريخ الشام السياسي خلال القرن

الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، رسالة دكتوراه، أشرف د. السيد عبد العزيز سالم، د. جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١١٨. وفيما يتعلق بتعاون الحمدانيين مع البيزنطيين، فاننا نجد أن الحمدانيين فى حلب لم يجدوا حرجا فى التعاون مع البيزنطيين فاشتركوا معهم فى التصدى للفاطميين إلى حد أن سعد الدولة الحمدانى وابنه سعيد الدولة أبا الفضائل لم يترددا فى قبول حماية البيزنطيين عليهم، وهذا يفسر كيف تطور الصراع فى شمالى الشام بين الحمدانيين والفاطميين إلى صراع بين الفاطميين والبيزنطيين (جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق خلال القرنين الرابع والخامس الهجرى - طبعة القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤٩ - ٥٦ - صلاح الدين نوار، تاريخ الشام والسياسى، ص ١١٨).

(٥٧) بوجه عام، فإن وجود أنماط اجتماعية مختلفة وتيارات بشرية متباينة مع ما تحمله من طبيعة الماضى، لم يفسح المجال لكى تتسم بلاد الشام فى كثير من الأحيان، بالاستقرار السياسى وجعلته يروج بالاضطرابات (ارجع إلى سهيل زكار فى مقدمته لترجمة كتاب تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصورى، ج١، ص ٢٥).

(٥٨) عن نشاط بسيل الثانى ضد الدولة الفاطمية ارجع إلى الفارقى (أحمد بن يوسف بن على الأزرق، تاريخ الفارقى، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٠٩.

(٥٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠، ٥١، تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، بيروت، ١٩٠٩، ص ١٨١.

(٦٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠، ٥١ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٤ - ابن الأثير، الكامل ج ٩، ص ١٢٠ - المقرئى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. محمد حلمى محمد

أحمد، القاهرة، ١٩٧١، ج٢، ص ١٨ .

وكان العلاقة قد سلك في صور نقودا نقش عليها «عزا بعد فاقة وشطارة بلباقة
للأمير العلاقة» - وارجع كذلك إلى (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية
الإسلامية في مصر والشام، ص ٩٩ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة
الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٣٨
- محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام
وسياستهم الخارجية مع دولتي الفواطم والروم (٤١٥٠ - ٤٧٢ هـ / ١٠٢٦ -
١٠٨٠ م) الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٦، ١٧ -

G. Wiet, Histoire de la nation Egyptienne, t. I V: L'Egypte
Arabe, Paris, 1937, P. 198 - 199).

وقد عصى في نفس الوقت المفرج بن دغفل بن الجراح ونزل على الرملة
وعاث في البلاد فسادا (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠ - ابن
الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٢٠).

JJ. Saunders, A History of Medieval Islam, U.S.A, 1972, P.
136).

(٦١) ابن شداد الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٥ .

Grousset (R), L'Emire du levant, Paris, 1946, P. 125. (٦٢)

(٦٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٢، ٧٣ - ابن الأثير، الكامل،
ج٩ ص ٢٣٠ - ولمزيد من التفاصيل عن حلف العرب وقيام الامارة
المرادسية الكلابية بحلب (ارجع إلى تاريخ يحيى بن سعيد الانطلاكي، ص
٢٥٣ - محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون، ص ٢٤ وما يليها
- وارجع كذلك إلى محمد محمد مرسى الشيخ، الامارات العربية في بلاد
الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الاسكندرية، ١٩٨٠،

ص ٦٥ - ١٨٩).

(٦٤) يسميه ابن القلانسي أمير الجيوش التبري الجبلي (ذيل تاريخ دمشق، ص ٧١. وارجع كذلك إلى المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٥١).

(٦٥) تعتبر موقعة الأقحوانة من المواقع الحاسمة في تاريخ الفاطميين السياسي، إذ تحققت للفاطميين بعدها مكاسب خطيرة فقد مكنتهم هذا الانتصار من القضاء نهائيا على نفوذ بني الجراح الطائيين في جنوب الشام. وفلسطين، ولم يرد لهم ذكر بعد ذلك في المصادر العربية باستثناء خبر أورده ابن القلانسي في الذيل ص ٩٣ ضمن احداث عام ٤٥٩ هـ في زمن الخليفة المستنصر بالله عندما سأله ناصر الدولة بن حمدان اطلاق سراح حميد بن محمود بن الجراح وحازم بن علي بن الجراح فأطلق سراحهما. كذلك ترتب على هذا الانتصار الفاطمي في الأقحوانة سيطرة الفاطميين على البقاع الوسطى للشام وأصبح أنوشتكين واليا على دمشق (ولمزيد من التفاصيل عن موقعة الأقحوانة ونتائجها ارجع إلى الانطاكي، ص ٢٥٣ - عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٩ - صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسي، ص ٢٤٨ - محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس الكلايين، ص ٦٤ وما يليها). هذا وقد أثارت انتصارات الفاطميين مخاوف البيزنطيين فأرسلوا حملة بقيادة دوقس انطاكية ميخائيل سبوندريل على حصن قيبار سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م). كما أشار الامبراطور أرمانوس الثالث نفسه على تبل سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) (ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس، ص ٦٥ وما يليها).

(٦٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٥.

(٦٧) المصدر السابق، ص ٩٨ - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، وبيروت، ١٩٥٦، ج ٣، ص ١٠٤ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية في

الشام، ص ٢٦٦. وإن كان د. محمد أحمد عبد المولى يعتبر أن خضوع المرادسيين في سنة ٢٦٣ هـ للسلاجقة قد أضعف من كيائها وساعد على ذلك اندلاع الحرب الأهلية بين بنى كلاب مما أسفر في النهاية عن الاحتلال العقيلي لحلب في ظل السيادة السلجوقية (٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م) مما أدى الى انقراض دولة بنى مرداس بحلب وشمال الشام. وفي سنة ٤٧٥ هـ (١٨٠٢ م) انقطع ذكر المرادسيين تماما من اعمال حلب، فقد اعتقل شرف الدولة مسلم ٣٠٠ فارسا تركمانيا بقايا من كان يخدم بنى الروقية (بنى مرداس) وفرقهم في القلاع وكان ذلك آخر العهد بهم (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد أحمد عبد المولى، بنو مرداس، ص ١٧٣ - ١٨٦ - خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل في الموصل، بغداد، ١٩٨٠ ص ١٠٧.

C.E. Bos worth, Islamic Surveys. The Islamic dynasties, Chicago, P. 55.58.

(٦٨) عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٦٨.
(٦٩) عن سياسة الفاطميين في اليمن والدعوة الاسماعيلية هناك وعلاقة التبعية والولاء التى ربطت الصليحيين بالخلافة الفاطمية ارجع إلى حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣٩ - محمد عبد العال أحمد، الأيوبيين في اليمن، الاسكندرية بدون تاريخ، ص ٢٧ - ٦٧ - جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٤ وما يليها. ومؤسس الدولة الصليحية باليمن هو على بن محمد الصليحي ابن القاضى محمد الصليحي، وكان شافعى المذهب فى بادئ الأمر، ثم نبذ هذا المذهب وأخذ بالمذهب الاسماعيلى الشيعى، الذى لقنه له الداعى الاسماعيلى باليمن سليمان ابن عبد الله الزواحى الذى خلف على الزواحى فى أمور الداعى الاسماعيلية هناك. وقد اتخذ الصليحي من صنعاء عاصمة له.

وعرف هذا الملك بالعدل والتسامح والقدره السياسية الفائده فقد تمكن من توحيد بلاد اليمن تحت قيادته، ولكن الأمور عادت إلى الاضطراب عقب وفاته سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ - ١٠٦٨). وحاول ولده وخليفته المكرم أحمد بسط نفوذه على البلاد والقضاء على العقبات ولكن سرعان ما أصيب بالفالج مما أعجزه عن مباشرة أمور الحكم ففوض زوجته الملكة أروى فى إدارة شؤون البلاد. وقد أوصى المكرم قبيل وفاته بأن يتولى بعده أبو حمير سبأ بن أحمد ابن المظفر بن على الصليحي. ويبدو أن الملكة أروى كانت تسعى لجعل الملك فى ابنها على فتكتمت نبأ وفاة زوجها، وأرسلت إلى الخليفة المستنصر تطلب تقليدا لولدها فأجابها المستنصر وأصدر المرسوم لولدها الذى تلقب بعبد المستنصر ولكن ولدها سرعان ما توفى فأصدر المستنصر بالله الفاطمى أمره بأن تتزوج السيدة أروى من أبى حمير سبأ لاقرار الأوضاع فى اليمن (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن فى ظل الاسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥ - ١٨٠).

(٧٠) هو أبو الحارث ارسلان البساسيرى، مقدم الأتراك أيام الخليفة القائم بأمر الله العباسى، وبساسير بلد من بلاد فارس. وكان لنفوذه واستقلالته ودعمه للطوائف الشيعية فى بغداد أن أثار استياء الخليفة والوزير الأول رئيس الرؤساء أبى القاسم على بن مسلمة فأرسل هؤلاء إلى طغرل بك السلجوقى يطلبون منه التوجه إلى بغداد فى قوة من عساكره لتحريرها من سيطرة البساسيرى. واشتبك طغرل بك بالبساسيرى وهزمه وقتله وأعاد الدعوة للقائم بعد أن انقطعت مدة عام (ارجع إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧ - ٩٠ - محمد بن على بن يوسف المعروف بابن ميسر، أخبار مصر تصحيح هنرى مآرسيه، القاهرة، ١٩١٩، ص ١١ - المقرئى، اتعاظ الخنفا ج٣، ص ٢٣٢ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبعة وزارة الثقافة

والارشاد القومى، القاهرة، بدون تاريخ، جـ ٥، ص ٢ وأرجع كذلك إلى صدر الدين على بن ناصر الحسينى، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٩ - وابن الصيرفى، الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، طبعة القاهرة المعهد العلمى الفرنسى، ١٩٣٤، ص ٤٤، ٤٥ - محمد أحمد عبد المولى، استبداد البساسيرى مقدم الأتراك بالسلطة فى العراق وسقوط بنى بويه، الاسكندرية، ١٩٨٦ ص ٦ وما يليها - عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٩٠ وما يليها.

Lane Poole, S, History of Egypt in the Middle Ages, London, 1914, P 138 - JJ Saunders, A History of Medieval Islam, P. 146.

هذا وكان الحاكم بأمر الله قد نجح فى استمالة قرواش ابن المقلد أمير بنى عقيل فخطب له بالموصل سنة ٤٠١ هـ وكذلك فى الأنبار والكوفة والمدائن (ابن الأثير، الكامل، جـ ٩، احداث سنة ٤٠١ هـ - خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، ص ٨٥) غير أن قرواش ما لبث أن اعاد الخطبة للعباسيين وقطع الدعوة للفاطميين فى بلاده، فجازاه الخليفة العباسى على ذلك بثلاثين ألف دينار (ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن، ١٦٢٥، ص ٢٥٧) أما فيما يتعلق بخطبة البساسيرى للفاطميين فقد استمرت فى بغداد للفاطميين سنة كاملة (بدأت فى سنة ٤٥٠ هـ وانتهت سنة ٤٥١ هـ) أنظر (خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل، ص ٨٩).

(٧١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٦ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٧ - ابن الأثير، الكامل، جـ ٩، صور ٦١٤ - ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، طبعة بيروت، جـ ٣ ص ٢٧٧ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٦ - عبد المنعم ماجد الأمام، المستنصر بالله، ص ١٥٦ وما

يليهما - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٦١ وما يليها.

(٧٢) كان الجيش الفاطمي يتكون من عدة طوائف أولها المغاربة وكان أغلبهم من الكتاميين وهم عصب الدولة الفاطمية وأساس قوتها. ومن أشهر زعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار زمن الحاكم بأمر الله، وكذلك شكل السودانيون، فريقا كبيرا في الجيش الفاطمي، وبدأ ظهورهم في جيوش مصر الإسلامية منذ أيام كافور، وقد كثر عددهم في عهد الخليفة الحاكم الذي استعان بهم ضد المصريين السنة. وفي أيام الخليفة الظاهر الذي جلب منهم عددا كبيرا أرضاء لزوجته السودانية. أما العنصر الثالث في الجيش الفاطمي فكان من الأتراك برعامة الدؤكز. JJ. Saunders, A history of Medieval Islam, P. 150 P. H. Holt, The age of the Crusaders the near east from the eleventh 1517, London and New York, 1986, P 11, 12.

(٧٣) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ١٤.

(٧٤) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٧٥) نفسه، ص ٢١. ويشك الدكتور صلاح الدين نوار في صحة قصة فرار أم المستنصر إلى بغداد، ويرى أنها قصة مختلقة ومدسوسة روجها مؤرخو السنة. ويدلل على رأيه بأن العلاقات المذهبية والسياسية بين بغداد والقاهرة، كانت قد ساءت إلى درجة كبيرة لا سيما بعد حركة البساسيري، كما أن الفرار إلى الشام كان مغامرة محفوفة بالأخطار لأن معظم بلاد الشام كان قد خرج عن طاعة الفاطميين (صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية في الشام في عهد الوزير بدر الجمالي وابنه الأفضل (٤٦٦ - ٥١٥ هـ / ١٠٧٥ - ١١٢١م) رسالة ماجستير، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ١١٨).

(٧٦) السلاجقة فرع من القبائل الغزية التي خرجت من سهوب التركستان واتجهوا إلى الأراضي الإسلامية في الغرب، حيث سيطروا على الوادي الأدنى لسيحون واعتنقوا الدين الإسلامي على المذهب السني وأصبحوا قوة رهيبة. وقد نزح الأتراك ومعهم زعيمهم سلجوق بن تغلق (دقاق) من سهول قرغيز إلى بلاد ما وراء النهر حيث استقروا على مقربة من بخارى. ويرجع الفضل إلى سلجوق في توحيد تلك القبائل، ولكن قوتهم ازدادت في عهد زعيمهم طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل السلجوقي فبدأوا في عام ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) في الاغارة على حدود فارس الشمالية والشرقية وتمكنوا من انتزاع فارس وخراسان من أيدي الغزنويين (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، ١٩٨٠ - الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، القاهرة، ١٩٦٠ - البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة، ١٩٠٠ - المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦، ج١، ق ١، ص ٣٠ - فامبري، تاريخ بخارى، ترجمة د. السادات، القاهرة ١٩٦٥ - عبد النعيم حسنين، سلاجقة ايران والعراق، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩ وما يليها - زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٨ - ٥٣.

J.J Saunders, A history of Medieval Islam, P. 146.

(٧٧) ابن الأثير الكامل، ج ٩، ص ٦١٢، ٦١٤.

(٧٨) صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية في الشام، ص ٢٢٠.

(٧٩) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٩ - الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٩ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٣ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٠ - زبيدة عطا، الترك في العصور الوسطى، ص ٥٠.

(٨٠) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، جـ ٣، ص ٩٤

P.M Holt. The Ages of the Crusades, P11. Christopher (٨١) Brooke. Europe in the Central Middle Ages 262- 1154, Longman, London and New York, second edition, P. 298 · JJ. Saunders, A history of Medieval History, P. 148, 149.

(٨٢) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٠

(٨٣) يسميه ابن خلكان أئسز بن أوق بن الخوارزمي التركي (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، بدون تاريخ، جـ ١ ص ٢٩٥)

في حين يذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون أن الشاميين يطلقون عليه اسم اقسيس ولكن الصحيح أنه أئسز ابن أوق وهو اسم تركي (ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٨، ص ١٠٣ - ابن خلدون، العبر، طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣، جـ ٩، م ٥، ص ٨). أما ابن ميسر فيسميه أئسز التركماني ويصفه بأنه أسد دمشق (ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٤) ولكن المقرئ في اتعاظ الحنفا يسميه باتسز بن أرتق المعروف بالأقسيس (راجع المقرئ، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٣١٥). وهذا خطأ لأن أئسز لم يكن ابنا لأرتق، فقد كان لأرتق مؤسس الأراقة، ولدان هما سكرمان وإيلغازي. وكان أرتق رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس من بلاد الشام ولم يملك دمشق وقد حكم القدس من قبل تتش رجلا من التركمان تغلب على بيت المقدس من بلاد الشام، ولم يملك دمشق وقد حكم القدس من قبل تتش السلجوقي، ولما توفي أرتق تولى بعده ولداه سكرمان وإيلغازي في القدس حتى استولى عليها الأفضل شاهنشاه وانتزعا منها سنة ٤٩٠

هـ كما سنوضح في المتن، فتوجهها إلى بلاد الجزيرة الفراتية، وملكا ديار بكر وماردين (ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ١٩١ ترجمة ٨٠). وأطلق عليه أبو الفدا اسم يوسف بن ابق الخوارزمي (أبو الفدا، المختصر، جـ ٣، ص ٩٥) أما ابن القلانسي فقد ذكر أنه أتسز ابن أوق (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨) ونرجح أن يكون المقریزی قد نقل الاسم محرفا من أوق أو أبق فجعله أرتق.

(٨٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٨ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٦٣، جـ ١، ص ١٠١، ١٠٢ وما يليها -

Setton K, A, History of the Crusades, Philadelphia, 1958, Vol. I. P. 94 - P.M Holt, The ages of the Crusades, P. 14 - J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, P. 150.

(٨٥) صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٣.

(٨٦) لمزيد من التفاصيل عن سقوط دمشق في يد أتسز التركمانی ارجع إلى: (ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨، ١٠٨، ١٠٩ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٤ - ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠، ص ٣٦٠، ٣٦١ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٤، ٩٩ - ويذكر المقریزی أن حصار اتسز لدمشق دام ثلاث سنوات (المقریزی، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٣١٥ - وارجع كذلك إلى ابن تغري بردی، النجوم، جـ ٥، ص ١٠١، صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٢٤ - محمد حلمي محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦٠ وما يليها - مصطفى حسن محمد الكنانی، العلاقات بين جنوة والفاطميين

في الشرق الأدنى، ٤٨٨ - ٥٦٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١٧١ م، الاسكندرية،
١٩٨١ ج١، ص ٥٥ - ٥٩.

Lane Poole, Op. Cit., Vol. VI, P. 161.

(٨٧) أنظر إلى تعليق د. سهيل زكار في ترجمته لكتاب وليم الصوري، تاريخ
الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٣، ٢٩.

(٨٨) قامت بطرابلس اماره عربية مستقلة في ظل أسرة بني عمار، استمرت منذ
عام ٤٦٢ هـ وحتى عام ٥٠١ هـ. ومؤسس هذه الامارة هو قاضي طرابلس
أبو طالب الحسن بن عمار الذي انتهز فرصة الاضطرابات التي كانت تسود
بلاد الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجري والضعف الذي كانت تمر به
الدولة الفاطمية آنذاك، فأخذ يعمل من جهته على الافادة من هذه الظروف
ليستقل بطرابلس ويحميها من الاضطرابات والفتن التي تموج بها البلاد. ولم
يكن القاضي ابن عمار من الشخصيات البارزة في طرابلس فحسب بل في
بلاد الشام كلها بدليل أنه قام في عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ / ١٠٦٧ م)
بالتوسط بين محمود بن نصر المرادسي بحلب المعروف بابن الروقولة وبين
الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص
٧٩). وفي هذا التاريخ لم يكن القاضي ابن عمار قد أعلن ثورته اذان الكثير
من المؤرخين يحددون عام ٤٦٢ هـ لاستقلاله بطرابلس (ابن القلانسي، ذيل
تاريخ) دمشق ص ٩٧ وارجع إلى رأى د. عبد الكريم غراية الذي يحدد بداية
استقلال طرابلس بسنة ٤٥٩ هـ، (العرب والأتراك، دمشق، ١٩٦١، ص
٢٤٠) في حين يذكر جاستون فييت أنه لم يحدد تاريخ استقلال الحسن بن
عمار، ويعقد سوبر نهايم بأن ذلك تم في منتصف القرن الخامس الهجري
وان كان الذهبي قد أكد على أن سنة ٤٦٢ هـ هي السنة التي انتزت فيها
طرابلس وكذلك أعلنت كل من دمشق وصور وفلسطين استقلالها ارجع إلى
Gaston Wiet, Une inscription d'un prince de Triopoli de la dy-

nastie des Banu Ammar dans Memorial Henri Basset, Puble. Par
1 Institut des Hautes Etudes Marocaines, tXVIII, Paris, 1928,
P 280).

وقد توفي أبو طالب بن عمار سنة ٤٦٤ هـ.

(المقريزي، أتعاض الحنفاء، ج٢، ص ٣٠٧) وخلفه ابن اخيه جلال الملك
أبو الحسن علي بن عمار على الإطلاق واستمر بحكم وطرابلس من سنة
٤٦٤ - ٤٩٢ هـ (١٠٧١ - ١٠٩٨ ك). كذلك برز من أفراد هذه الأسرة
فخر الملك أبو علي بن محمد بن عمار الذي خلف اخاه جلال الملك،
وتولى من سنة ٤٩٢ هـ - ٤٩٥ هـ (١٠٩٨ - ١١٠١ م) لمزيد من
التفاصيل عن بني عمار في طرابلس ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم،
طرابلس الشام في العصر الاسلامي، الاسكندرية بدون تاريخ، ص ٩٣ - ٩٧
- محمد محمد مرسى الشيخ، الامارات العربية في بلاد الشام في القرن
الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، الاسكندرية، ١٩٨٠، ص ١٨٩ -
٢٠٩ وارجع كذلك إلى.

Claude Cahen, la Syrie du Nord Al'Epoques des Croisades et la prin-
cipaute Franque D'antioche, Paris, 1940, P 180.

(٨٩) ثار القاضي عين الدولة ابن عقيل بصور، واستقل بها عن الدولة الفاطمية،
وسنقوم بشرح أحداثها بمزيد من التفاصيل على الصفحات التالية.

(٩٠) استطاع أحد القادة الأتراك التابعين، لاتسز وهو شكلى التركمانى، من فتح
عكا عنوة ولكن الخلاف سرعان ما دب بين أتسز وشكلى وانتهى بقتل اتسز
لشكلى، ففر والد شكلى بأولاده وحريمه إلى مصر، وسلم لبدر الجمالى
مدينة عكا، وظلت عكا فى يد الفاطميين حتى سقوطها فى أيدي الصليبيين
سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) (ارجع إلى مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين

المماليك نشر زترشتين، ليدن، ١٩١٩، ص ٣٣١ وارجع كذلك إلى ابن
ميسر، أخبار مصر، ص ٢٣).

(٩١) ارجع إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٢ - ابن خلكان،
وفيات الاعيان، ج١، ص ٢٩٥ - ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٣١
- ابن الأثير، الكامل ج١٠، ص ١١١ - أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص
١٠٣ - ابن خلدون، العبر، ج٩، م ٥، ص ٧١. وانظر كذلك إلى صدر
الدين بن علي ناصر الحسيني، زبدة التواريخ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقيين،
تحقيق د. محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٤٨ - محمد حلمي
محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون، ص ٦٠ وما يليها - سعيد عبد
الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١٠٢ وما يليها - عبد المنعم
ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ٣٩٦، صلاح الدين نوار،
سياسة الدولة الفاطمية، ص ٣٦ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ
مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٤.

J.J.Saunders, A History- of Medieval Islam, P. 150.

(٩٢) راجع تحليل الدكتور صلاح الدين نوار في المرجع السابق، ص ٢٣٦.
(٩٣) هو أرتق بن اكسب أو أكسك، وكان يلقب بظهير الدين، وينتمي إلى قبيلة
الدقر Dogar التركمانية وهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتمي إلى الغز،
وكانت زعامتها قد انتهت إلى أرتق (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص
١٩١) وبينما يرى ابن خلكان أن أبا أرتق هو اكسب، وأنه كان يدعى أحيانا
اكسك، يؤكد ابن خلدون أن اكسك هو الأرجح (ابن خلدون، العبر،
ج٥، ص ٤٦١، ٣١٥). وقبيلة الدقر من القبائل التركمانية التي انتظمت
في صفوف القوات السلجوقية التي عمل الأتراك السلجوقية على استمالة

زعمائها بمنحهم الاقطاعات والاستقلال الذاتى داخل نطاقها. وتعتبر قبيلة الدقر من القبائل التركمانية العديدة التى ساعدت على بناء الكيان السلجوقى. أما أرتق فكان من ممالك ملكشاه بن ألب أرسلان، وقد بدأ حياته السياسية بتقديم خدمات عسكرية جلية للسلاجقة، فحارب فى آسيا الصغرى ضد البيزنطيين سنة ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) كما توجه سنة ٤٧٠هـ على رأس حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين (ابن ثغرى بردى، النجوم، ج٥، ص ١٠٦).

واستولى على منطقتى حلوان والجبل التى تقع جنوبى كردستان على الحدود الواقعة بين العراق وفارس وضمها إلى السلاجقة سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) (ابن خلكان، وفيات الأعيان ج١، ص ١٩١) فولاه السلاجقة عليها مكافأة له هى وما إليها من اعمال العراق. كما ساهم أرتق فى حملة عسكرية أسفرت عن سقوط الموصل فى أيدي السلاجقة (ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٣٦ - أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى) الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية، نشر وتحقيق محمد حلمى، محمد أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ق ١، ص ٥٩ - وقد توترت العلاقات بين أرتق وملكشاه، ولهذا عمد أرتق إلى تحسين علاقاته مع الفاطميين وأرسل بدر الجمالى وفدا مصرى اجتمع به فى قرقيسيا على نهر الخابور قرب الرجة، مما دفع ملكشاه إلى محاولة استرضاء أرتق عندما علم باتصالاته السرية مع الفاطميين، وكان همزة الصلة بين الفاطميين وأرتق، مسلم العقيلى شرف الدولة، وقد انقطعت هذه الاتصالات بوفاة مسلم العقيلى (مزيد من التفاصيل ارجع إلى عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية فى الجزيرة والشام «٤٦٥ - ٨١٢ هـ / ١٠٧٢ - ١٤٠٩» أضواء جديدة

على المقاومة الاسلامية للصليبيين والتتر، بيروت، ص ١٥٧ وما يليها). وقد قام تتش بتولييه أرتق على القدس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٦٨ م) واستمر أرتق يتولى القدس وحتى وفاته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٥، ص ١١٥). ويعتبر أرتق صاحب الفضل فى تأسيس الكيان السياسى للأرتقة. ولم تبق القدس بأيدي ابنائه فترة طويلة بعد وفاته فقد استردها الأفضل شاهنشاه سنة ٤٩١ هـ، فانتقلوا إلى ديار بكر وأسسوا امارتهم هناك (ارجع إلى عماد الدين خليل الامارات الأرتقية، ص ٦٩).

C.E. Bos Worth, Islamic surveys, the Islamic Dynasties, P. 119.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ١٠٥ وما يليها -

Holt, The ages of the Crusades, P28

(٩٤) صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٣٧.

(٩٥) مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص ٢٤٤.

(٩٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٩٥.

(٩٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٩.

(٩٨) المصدر السابق، ص ١١٩ - أما أق سنقر قسيم الدولة فهو: جد ملوك الموصل ووالد عماد الدين زنكى وهو الذى أقطعه ملكشاه حلب (ابن الأثير الكامل، جـ ١٠، ص ١٣٦) واسمه أبو سعيد أق سنقر بن عبد الله الملقب بقسيم الدولة المعروف بالحاجب وهو بخلاف أق سنقر البرسقى قسيم الدلة (ارجع ترجمة كل منهما فى ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٢٤١، ٢٤٢). وكان أق سنقر هو مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، ولما ملك تاج الدولة تتش اماره حلب سنة ٤٧٨ هـ استناب فيها أق سنقر ولكنه

شق عليه عصا الطاعة، فقصده تاج الدولة، وكان صاحب دمشق يومئذ فخرج لقتاله وجرت بينهما معارك ضارية انتهت بمصرع آق سنقر سنة ٤٨٧ هـ ودفن بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب (لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٢٤١، ج١).

(٩٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٨ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٧٦ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٨ وإن كان ابن شيداد يحدد تاريخ استرجاع بدر الجمالي لصيدا في سنة ٤٧٢ هـ (ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٩٩).
(١٠٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٠٢ - وإن كان ابن الأثير يذكر أن استيلاء تتش على حمص حدث في عام ٤٨٥ هـ.

(١٠١) وقد أورد ابن الأثير هذا الخبر في أحداث سنة ٤٨٥ هـ ج ١٠، ص ٢٠٣، وارجع كذلك إلى صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ٢٤٥، ٢٤٧.

(١٠٢) هي ثورة واليها منير الدولة الجيوشي (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٤ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٩ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٥).

(١٠٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٥. وقد دار صراع بين الأخوين رضوان ودقاق فقد كان رضوان يطمع في انتزاع دمشق مع أخيه دقاق (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص

١٣٠، ١٣١ وقد التقيا في قنسرين حيث دارت معركة انتهت بهزيمة دقاق (ابن خلدون، العبر، ج٩، مجلد ٥، ص ٣١٥) واتفق الأخوان بعدها عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) على أن تقام الخطبة باسميهما على منابر دمشق، (ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٤٦، ٢٤٧ - أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص ١٢٠)

P.M. Holt, The ages of the crusades, p 14, 15- J.J Saunders, A history of Medieval Islam, p 141.

(١٠٤) ابن خلدون، العبر، ج٩، م ٥، ص ٣١٥.

(١٠٥) هو ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وقيل فيه طغركين، وطغديكين، أتابك دقاق وزوج والدته. وكان أتابك دقاق بن تتش ملك دمشق، وقد خرج معه لحصار الرحبة واستوليا عليها ورجعا إلى دمشق، ولما توفي دقاق صاحب دمشق سنة ٤٩٧ هـ، استقل أتابك طغتكين الذي يذكره ابن خلدون باسم طغركين، بالملك وخطب لنفسه سنة ثم قطع خطبته وخطب لتلتاش أخي دقاق الذي كان لا يزال صبيا، وخوفته أمه من طغتكين لزوجاه أم دقاق، وأنه يميل إلى ابن دقاق من أجل جدته، فاستوحش وفارق دمشق إلى بعلبك في صفر سنة ٤٩٨ هـ، أما طغتكين فقد نصب الطفل ابن دقاق وخطب له ثم عزله، وكان طغتكين معروفا بعدالته وحسن سيرته (ابن خلدون، العبر ج٩، م ٥، ص ٣١٥، ٣١٧ وقد ملك طغتكين بصرى أيضا سنة ٤٩٩ هـ Holt The ages of the Crusades, P 26). وعن زواج طغتكين من أم دقاق ارجع إلى ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٩٦ وتوفي طغتكين سنة ٥٢٢ هـ، فتولى بعده بوري الملقب بتاج الدولة وكان أكبر أولاده (ابن خلدون، العبر، ج٩، م ٥، ص ٣٢٨، ٣٢٩ - وارجع كذلك إلى

الحسيني، زبدة التواريخ، ص ٣١٩). وكان طغتكين مجاهداً ضد الصليبيين، حكم مدينة صور ودافع عنها مراراً من الوقوع في أيدي الصليبيين كما سنوضح على الصفحات التالية.

(١٠٦) يرى ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٣، ١٣٤ وابن ميسر في أخبار مصر، ص ٣٨ وابن الأثير، جـ ١٠، ص ٢٦٤ أن ثورة الكتيلة سنة ٤٩٠ هـ واسترداد الأفضل لصور كان في سنة ٤٩٠. أما ابن تغري بردي فيرى في النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٥٩ أن استرداد الأفضل لصور وقضائه على الكتيلة تم في عام ٤٨٩ هـ. أما ابن خلدون فيؤخره إلى سنة ٤٩١ هـ (ابن خلدون، العبر، جـ ٤ ص ٦٦) ويأخذ كل من الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور صلاح نوّار بالتاريخ الأول سنة ٤٩٠ هـ (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٥، صلاح نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ٢٩٢).

(١٠٧) سهيل زكار في تعليقه على ترجمة كتاب وليم الصوري، ص ٣١. وقد صور الدكتور سهيل زكار الوضع السياسي المفكك الذي كان عليه العالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (١١م) عشية وصول الصليبيين إلى بلاد الشام كما يلي:

أ- في الجزيرة:

- (١) دولة عربية مستقلة في الموصل عرفت باسم العقيلية.
- (٢) دولة كردية مستقلة في ميافارقين عرفت باسم الدولة المروانية.
- (٣) دويلات عربية لنمير وقشير في حران وقلعة جعبر.

ب- فى بلاد الشام

- (١) دولة مستقلة فى حلب تدعى الامارة المرداسية.
 - (٢) أجزاء من شمال الشام وسواحلها تحت الادارة البيزنطية مركزها انطاكية.
 - (٣) دولة شبه مستقلة فى طرابلس تحكمها أسرة آل عمار.
 - (٤) دولة شبه مستقلة فى شيزر وكفر طاب - قرب حماة - تدعى باسم الامارة المنقذية مع محاولات لتأسيس حكومات مستقلة فى حمص وحماة وأفامية.
 - (٦) عدد من الاقطاعات والادارات شبه لمستقلة فى مناطق الساحل خاصة فى جبلة ومنطقتها الجبلية.
 - (٧) دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية المتأرجح (وقد قطعه التركمان وارجع كذلك إلى Claude Cahen, La Syrie du Nord p 187.
- (١٠٨) Holt, The Ages of the Crusades, p 15.
- (١٠٩) ناصر خسرو علوى، سفرنامه، ص ١٥.
- (١١٠) المقرئى، اتعاظ الخنفا، ج١، ص ١٣١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ٩٦.
- (١١١) كان ظالم بن موهوب العقيلي واليا على دمشق وصرف عنها بعد انهزامه على أيدي القرامطة سنة ٢٦٢ هـ (٩٧٣ - ٩٧٤م) فتوجه للاقامة فى صيدا (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص ٧٣).

- (١١٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٥٧ - المقرئزي، الخطط المقرئزية، طبعة لبنان، ج ٢، ص ٤١٣.
- (١١٣) الشدياق (طنوس بن يوسف) أخبار الاعيان في جبل لبنان، بيروت، ١٩٥٤، ج ٢، ص ٢٨٨ - ابراهيم الأسود، ذخائر لبنان، بعبدا، ١٨٩٦، ص ١٧٣.
- (١١٤) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٧.
- (١١٥) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٠٢ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٧٨.
- (١١٥ب) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٥٥.
- (١١٦) المقرئزي، اتعاظ الخطط، ج ٢، ص ١٦٣ - اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٠١.
- (١١٧) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٠١. وكان راشد بن سنان بن عليان أحد الخارجين على الدولة الفاطمية، وقد فر من سجنه بصور، ونزل على دمشق واستولى على أكثر اعمالها، فلما وصل إلى حماة نهبت عساكره اعمال شيزر كما وصل إلى جبل جوشن ظاهر حلب (لمزيد من التفاصيل عنه ارجع إلى المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢١٠).
- وارجع إلى عمر عبد السلام التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، طرابلس، ١٩٩٤م.
- (١١٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١٠.
- (١١٩) نفسه، ج ٢، ص ٢٧٠.
- (١٢٠) نفسه، ج ٣، ص ١٣. ويسميه ابن الصيرفي بالوزير الكامل الأوحده أبو عبد الله الحسن ابن سديد الدولة ذو الكفايتين (ارجع الى ابن مسجب

الشهير بابن الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة، تحقيق عبد الرحمن مخلص، طبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٤٩) ويسميه ابن ميسر، سديد الدولة أبو عبد الله الحسين بن أبي الحسن على ابن محمد بن الحسن بن عيسى الماشلي (ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٣).

(١٢١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ١٤ - صلاح الدين نوار، سياسة الخلافة الفاطمية، ص ١٥٣ - عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٣٩٢.

(١٢٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٩٩ - وعن معلى بن حيدرة بن منزو، والى دمشق، وسوء سيرته وظلمه وجوره مع الجند والرعية في هذه المدينة ارجع إلى (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٥ وما يليها). وكانت صور في تلك الأثناء تحت حكم بنى عقيل، وكان معلى بن حيدرة صهرا لجلال الملك بن عمار صاحب طرابلس.

(١٢٣) استقل بطرابلس القاضي أبو طالب الحسين بن عمار كما سبق أن ذكرنا في حين استولى ابن حمدان على الرملة والساحل، ولم يبق لمصر الفاطمية سوى عكا وصيدا (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٧ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٤).

(١٢٤) ناصر خسرو علوي، سفرنامه ص ١٥ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٠ ابن القلانسي، ص ٩٦ - ابن الأثير الكامل، ج ١٠، ص ٦٠.

(١٢٥) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ص ١٦٥، وقد أخذ بهذا الرأي الدكتور عمر التدمري. (عمر التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١١٩).

(١٢٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٢، ص ١٦٥.

- (١٢٧) عمر التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٠٩ .
- (١٢٨) أورد ناصر خسرو علوى اسمه على أنه «ابن ابى عقيل قاضى صور» ولم يحدد اسمه الأول (ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٥).
- (١٢٩) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٢١٣ .
- (١٣٠) المصدر السابق، ص ٢٥٩، ٢٦٠ .
- (١٣١) عنه ارجع الى عمر التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٠٨ .
- (١٣٢) ابن العديم «زبدة الحلب فى تاريخ حلب» تحقيق د. سامى الدهان، طبعة المعهد الفرنسى دمشق، ١٩٤٥، ١٩٥١، ج١، ص ٢٧٣، ٢٧٤ .
- (١٣٣) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٢٥٩ .
- (١٣٤) راجع تحدا الدكتور عمر التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية ص ١٠٢ .
- (١٣٥) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى المرجع السابق، ص ١١٣ .
- (١٣٦) ويذكر الدكتور عمر التدمري نقلاً عن مخطوطة تاريخ دمشق أن أبا محمد عطية الله بن الحسين الصوري كان يخلفه فى مهمة القضاء بصور حتى توفي سنة ٤٤٥ هـ (عمر التدمري، المرجع السابق، ص ١١٦) .
- (١٣٧) نفسه، ص ١٠٧، ١١٦ . ولمزيد من التفاصيل عن حياته العلمية ارجع إلى نفس المرجع، ص ١١٦ وما يليها .
- (١٣٨) الزيب قرية بين عكا وصور (ارجع الى ابن تغرى بردى، النجوم، ج٥، ص ١٣ .
- (١٣٩) ابن حجر العسقلانى، رفع الأصبر عن قضاة مصر، دار الكتب المصرية رقم ١٠٥، ١١٥، ورقة ٥٦ (ج) ويأخذ بهذا الاسم كل من الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ٨١ والدكتور صلاح الدين نوار، سياسة

الخلافة الفاطمية، ص ١٥٨ والدكتور عمر التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١١٩ وما يليها.

(١٤٠) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ص ٣٠٣.

(١٤١) هذا المكان بالأصل طيارة جاء فيها ذلك وأضافها المحقق إلى الحاشية رقم (١) ص ٤٧ من الجزء الثانى من اتعاظ الحنفا.

(١٤٢) لمزيد من التفاصيل راجع (عمر التدمري، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٢٠).

(١٤٣) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨.

(١٤٤) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٠.

(١٤٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٥٠ - ابن الأثير الكامل، جـ ١٠، ص ٦٠ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٢، ص ٣٠٣. ويذكر ابن حجر العسقلانى خطأ أن بدر الجمالى نجح فى اخراج ابن عقيل من صور (رفع الاصر، ورقة ٥٦ - السيد عبد العزيز سالم، فى تاريخ صيدا، ص ٨٢، وتاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٤، ١٠٥ - صلاح الدين نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ١٥٨ وما عليها - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الاسلامى الصليبي ص ٧٤).

(١٤٦) صلاح الدين نوار، سياسة الدولة الفاطمية، ص ١٥٨. ويذكر الدكتور عمر عبد السلام تدمري أن هارون بن خنات التركمانى الذى كان قد دخل مدينة طرابلس سنة ٤٥٦ هـ مع الأمير محمد بن نصر المرداسى صاحب حلب، كان مقيماً فى صور فى ذلك الوقت فى كنف صاحبها القاضى الناصح محمد بن أبى عقيل الذى أحسن الله ووصله واعطاه هو واصحابه الأتراك الغز بعد أن تخلى عنه الأمير محمود المرداسى ولكن

عندما جاء بدر الجمالى لحصار مدينة صور، انحاز «ابن خان» اليه وتخلّى عن قاضى صور، ناكراً جميله وصنيعه مما دفع القاضى ابن ابى عقيل إلى التآمر عليه فأعزى اثنين من الغز بالمال لقتله فقتلاه وحمل رأسه اليه وطيف به فى اسواق صور فى تلك السنة (٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) ونتيجة لهذا الموقف المضطرب المشحون بالخطر، فارق جماعة من الغز مدينة صور ولحقوا ببدر الجمالى فى حين بقى بعضهم مع القاضى صاحب صور (المزيد من التفاصيل ارجع الى عمر عبد السلام تدمرى، لبنان، ص ١٢١ وما يليها).

(١٤٧) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٥. وارجع كذلك إلى ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٠ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ١٧٦ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ٨٤ - عبد المنعم ماجد، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٣٩٧ - عمر عبد السلام تدمرى، لبنان، ص ١٢٢.

(١٤٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٩، ١٠٨ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٨، ٩٩ وعن تعرض صور لحملة أئسن بن أوق ارجع إلى مخطوط مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان لسبط ابن الجوزى، مصور بدار الكتب المصرية عن عمر التدمرى، لبنان، ص ١٢٨ وما يليها. ويرجع الدكتور التدمرى عهد دخول الأتراك الغز صور إلى سنة ٤٥٠ هـ فقد التقى المؤيد هبة الله الشيرازى بكتيبة منهم عند المدينة قادمة من بغداد مقاطعة للبساسيرى وهى بقصد التوجه إلى مصر وكانت فى عدة تشتعل على ١٣٠ غلاما وكان بصحبة المؤيد رجل محتشم من الأتراك أرسله البساسيرى رسولا إلى الخليفة الفاطمى، فبذل المؤيد جهده مع أفراد الكتيبة حتى أقنعهم بالعودة إلى حلب حتى لا يكونوا كلاً على الخلافة فى مصر. وكان على قضاة صور وطرابلس أن يتقربوا من الأتراك

السلاجقة بعد استفحال خطرهم في بلاد الشام، فعمدوا إلى مصانعتهم بالهدايا والملاطفات (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٢) وقد أثمرت هذه السياسة إذ نجح قاضيا صور وطرابلس في حماية استقلال بلادهما. (ولزيد من التفاصيل ارجع إلى عمر عبد السلام تدمري، لبنان من السيادة الفاطمية، ص ١٢٩).

(١٤٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٤ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٦ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٤، ٨٥.

(١٥٠) ارجع إلى الحاشية رقم (٢) في ص ٣١٥ من تعليق د. محمد حلمي محمد أحمد على اتعاظ الحنفا للمقرزي، الجزء الثاني.

(١٥١) ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٢٤ - المقرزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٣١٥.

(١٥٢) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٢٤.

(١٥٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٢٣.

(١٥٤) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٢٤ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٢٤ - ابن الأثير، الكامل ج١٠، ص ٢٢٣ - المقرزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٣١٥.

(١٥٥) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٣٣ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٨ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٦ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٦٤ - ابن تغري بردي، النجوم، ج٥، ص ١٥٩ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٦. Conder, The latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897, P 488

(١٥٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٣٧.

(١٥٧) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٨.

Holt, The Ages of the Crusades, P 28. (١٥٨)

(١٥٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٨ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٧٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٦١ - ولمزيد من التفاصيل عن سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين ارجع إلى وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٨٢ وما يليها - بتيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٣٢٧ وما يليها -

Holt, The ages of the Crusades, p 21- 22- Jean Richard, The LATIN Kingdom, V. A, P 11.

(١٦٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٩١ - المؤرخ المجهول، سلاطين المماليك، ص ٢٢٩ - صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسي، ص ٥٥١.

(١٦١) رفض ولدا أرتق تسليم بيت المقدس في بداية الأمر، وكانا يأملان في أن استحکامات وتحصينات المدينة تمكنها من مقاومة الأفضل، كما كانا ينتظران معونة عسكرية من دقاق ووصولهما لنجدتهما، ولما لم يحدث ذلك اضطرا إلى تسليم المدينة أمام ضربات الفاطميين لأسوارها بالمنجنيقات (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسي، ص ٥٥١ وما يليها).

(١٦٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٨ - ابن خلكان، الوفيات، ج٢، ص ١٩١.

(١٦٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مجلد ٢، ص ٤٥١.

(١٦٤) صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥٣، ويذكر أنه لم يحل خريف سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) إلا وكان الأفضل قد أمن حدود الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام حتى مجرى نهر الكلب على الساحل شمالى مدينة بيروت وحتى أرباض اللاذقية بالإضافة إلى سيطرته الاسمية على مدينة طرابلس.

(١٦٥) زاد من حدة انقسام بلاد الشام اختلاف عناصر السكان بها، فكان الأتراك السلاجقة هناك بمثابة الطبقة الاقطاعية الراقية، أما سائر الأمراء الصغار بها فكانوا من العرب مما أتاح الفرصة لظهور العديد من الامارات الصغيرة التى استقل بها امراؤها سواء من السلاجقة أو العرب الذين انسلخوا عن الحكم السلجوقى أو الفاطمى هناك أمثال بنى منقذ فى شيرز عام ٤٧٤ هـ (١٠٨٠ م) وبنى عمار فى طرابلس، والأراتقة فى بيت المقدس وفلسطين وبنو صليحة فى جبلة وبنو محرز فى المرقب القدموس (صلاح الدين نوار، تاريخ الشام السياسى، ص ٥٥٤ - Claude Cahen, La Syrie du Nord, P 180

(١٦٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٦ - عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ٤٧ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ١٠٩٧ - ١١٤٤، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٨٧ - جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، فى الحملة الصليبية الأولى، الاسكندرية، ١٩٦٣، ص ١٩٨ وما يليها - وارجع كذلك إلى ريمونداجيل؛ تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، نقله من الانجليزية إلى العربية د. حسين محمد عطية، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٧٧ وما يليها. وارجع كذلك إلى The Alexiad of Anna Comnena p 333 - 338, Wise, The Crusades.

London, 1978. p 18.

(١٦٧) لمزيد من التفاصيل عن هذه الواقعة ارجع إلى عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٤٨ - جوزيف نسيم يوسف، العرب، والروم واللاتين، ص ٢٠٣ - صلاح الدين نوار، التاريخ السياسي، ص ٥٥٥ ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٦٠.

Mayer H.E. The Crusads Oxford, 1972, p 51.

(١٦٨) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٢٦ وما يليها - مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميّين، ج١، ص ١٢٤ - Cam-bell, G., The Crusades, London 1935, p 119-Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1934- 1935, Vol I, p 85.

(١٦٩) ويذكر المؤرخين أن الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة نيقية وجهوا سفارة من معسكرهم الذى أقاموه أمام المدينة إلى القاهرة، ومن أهدافها إقامة تحالف مع الفاطميّين، وذلك بناء على نصيحة الكسيس كومنين أثناء وجودهم بالقسطنطينية، وقد أرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية ٤٩٠ هـ (١٢ يونيو ١٠٩٧م) (صاحب هذا الرأى هو المؤرخ Pierre Tudebodus فى كتابه الحروب المقدسة Historia belli Sacri، ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة المزعومة ورأى ستيفن رانسمان فيها ارجع إلى كتابه تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٢٦ - وعن سفارة الفاطميّين إلى الفرنج عند أسوار انطاكية ارجع إلى سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١٩٧ - ١٩٩ - مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميّين، ص ١٢٤ - محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ص ٩٠ -

Lane Poo;e, A History of Egypt, p. 164).

ويذكر د. صلاح نوار أن الفاطميين قد أرسلوا سفارة أخرى للصليبيين أثناء حصارهم لمدينة عرقة (ولمزيد من التفاصيل عن هذه السفارات والمفاوضات ارجع إلى صلاح الدين نوار، الذي استعرض كل الآراء التاريخية بشأنها في كتابه العدوان الصليبي على العالم الاسلامي (٤٩٠ - ٥١٥ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢١ م) أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الاسكندرية، ١٩٩٣، ص ٥٢ - ٨٣).

(١٧٠) مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين، ج١، ص ١٢٤.

(١٧١) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(١٧٢) يذكر الدكتور محمد مرسى الشيخ أن الجهل بمقاصد الحملة الصليبية الأولى، كان السمة الهامة التي اتسم بها كل حكام المسلمين في ذلك الوقت، فكل من دقاق ورضوان لم يتحمسا لمقاومة الغزو الصليبي تحمسا كافيا نظرا لعدم تفهمهما لحقيقة الموقف في شمال الشام وطبيعة الخطر الصليبي، وإذا كانا قد أرسلوا جيوشا أو أن دقاق قد خرج بنفسه لانقاذ انطاكية، فإن ذلك كان بناء على الحاح شمس الدولة ابن ياغى سيان، مبعوث والده في هذه المهمة. وليس أدل على جهل الحكام المسلمين وغفلتهم من مبادرة بعضهم بإقامة تحالف مع الصليبيين ضد بعضهم البعض، كما سارعت بعض الوحدات الصغيرة إلى طرح طاعة المسلمين ورفع راية العصيان وطلب المعونة من الصليبيين مثل ما فعله أهل تل منسى القريب من معرة النعمان الذين كاتبوا الصليبيين يطعمونهم في الشام (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨٩). ويعبر ذلك عن مدى الضعف الذي أصاب نفوس المسلمين في الشرق الاسلامي، على أن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه المسلمون، يتمثل بحق في موقف الفاطميين في مصر الذين عبروا عن ترحيبهم وسعادتهم بمجى الصليبيين، واعتبروهم حلفاء أقوياء لهم يمكن

أن يشقوا في صداقتهم ومحالفتهم ضد عدوهم التقليدي، الأتراك السلاجقة.

(Lane Poole, A History of Egypt, p 164).

(١٧٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ١٩٩ - وارجع كذلك إلى رأى د. محمد محمد مرسى الشيخ المعارض لموقف الفاطميين (محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٨٩، ٩٠ وارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى، ص ٨٤). فى حين تصدى الدكتور صلاح الدين نوار للرد هذه الاتهامات عن الأفضل بن بدر الجمالى وهو يعتبر أن هذه الآراء تتحامل كثيرا على الأفضل والفواطم، ويرى أن الأفضل عندما عرض على الفرنج الاعتراف بفتوحاتهم فى شمال الشام وآسيا الصغرى كان يأمل من وراء استقرار الصليبيين فى هذه المناطق... ثلوا نوعا من التوازن السياسى مع السلاجقة أو يكونوا بمثابة قوة حاجزة أو مانعة بينه وبين السلاجقة (لمزيد من التفاصيل عن رأى د. صلاح الدين نوار ودفاعه عن سياسة الأفضل واستعراضه للآراء المختلفة، ارجع إلى كتابة العدوان الصليبي، ص ٨٢، ٨٣، ٦٨). وارجع إلى رأى ابن الأثير فى الكامل جـ ١٠، ص ٢٧٣ واتهامه للفاطميين باستدعاء الفرنج والتواطؤ معهم وارجع كذلك إلى ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٤٩).

(١٧٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢٢٨ - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها فى الصراع الصليبي الاسلامى، ص ٧٦، ٧٧ - Holt, Op. Cit, P 31-32.

(١٧٥) يذكر ريمونداجيل أن أنصار الرأى القائل بالتوجه إلى بيت المقدس أولا، كانوا يتصورون أنه بعد استيلائهم على بيت المقدس، سيعمد سكان المدن

الأخرى التى تقع فى طريقهم مثل طرابلس وصور وعكا إلى الجلاء عنها خوفاً من موجة الصليبيين القادمة من العالم المسيحى (ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص ١٨٢).

Louise and Jonathan Riley - Dmth, The Crusades, Idea and Reality, 1095 - 1274, London, 1981, p 13.

(١٧٦) أسامة زيد زكى، صيدا ودورها، ص ٧٧ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية ج١، ص ٣٨٨ - Amin Maalouf, The Crusades - thought Arabeyes, Cairo, 1990, p 47. ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين استولوا على عدة مدن داخلية فى طريقهم من أنطاكية إلى بيت المقدس قبل وصولهم بيروت من ذلك استيلائهم على معرة النعمان التى كانت بمثابة الحد الشمالى الشرقى لأنطاكية وارتكبوا بها مذبحه مروعة راح ضحيتها عدد كبير من سكانها (ارجع ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦، ١٣٧ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٧٨ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٦١ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٧٢ - ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة، ص ١٦٣ وما يليها - وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٣٧٩ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية ج١، ص ٣٦٨ وما يليها - Amin Maalouf, The Crusades, p 37-55. وبعد استيلاء الفرنج على المعرة، توجهوا إلى كفر طاب التى تقع على مسافة ١٢ ميلا إلى الجنوب منها، وانتظروا بها مدة يسيرة، حتى يتاح لهم جمع المؤن اللازمة لعساكرهم، وفى هذا المكان لحق بهم سفراء من قبل أمير شيزر، عز الدين أبو العساكر سلطان ابن منقذ (٤٩١ - ٥٤٨ هـ / ١٠٩٨ - ١١٥٤ م) يعد الفرنج بعدم اعتراض طريقهم وتقديم المساعدات والامدادات والأدلاء لهم لارشادهم فى عبورهم اقليم نهر العاصى (الأورنت) (ابن

الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٨ أحداث سنة ٤٩١ هـ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٧٧). ويعلق د. محمد محمد مرسى الشيخ بأن الامارات العربية الصغيرة فى شيزر وحمص (راجع موقف صاحب حمص فى الكامل لابن الأثير، جـ ١٠، ص ٢٧٨) وطرابلس (كان أميرها إذ ذاك جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار) كان مسلكها تجاه الصليبيين يتسم بالمرونة والمسالمة مع الصليبيين لشك هذه البيوت العربية فى جدوى التصدى للصليبيين بالاضافة إلى جهلهم بطبيعة الغزو الصليبي وأهدافه (لمزيد من التفاصيل راجع محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس؛ ص ٩٦، ٩٧). وكان الأمير (تنكريد) هو صاحب الرأى فى استخدام الطريق الداخلى للوصول إلى بيت المقدس، وأثناء سيرهم مہروا بمصيف، وهناك تلقاهم أميرها العربى، وعقد اتفاقية مع ريمون دى سان جيل، ثم تابعوا السير إلى حصن الأكراد حيث عزم الصليبيون على الاستيلاء عليه (ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٧٩). وأثناء اقامة الفرنج فى حصن الأكراد، قدمت اليهم رسل صاحبى حماة وطرابلس يبدون الترحيب بالفرنج، ثم حاصر الصليبيون عرقة الحصينة كما حاصروا جبلة، وكانت تابعة لبنى عمار فى طرابلس واستقل بها القاضى أبو محمد عبد الله بن منصور عن بنى عمار (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٧٦ وما يليها). وأمام حصار الصليبيين لعرقة وصلت سفارة الأفضل الثانية إلى الفرنج. وعندما وصل الفرنج إلى طرابلس قابلوا ترحيماً من صاحبها.

(١٧٧) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٩٨ - اسامة زكى زيد، صيدا ودورها ص ٧٧ -

Amin Maalouf, The Crusades, p 47.

- (١٧٨) ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٣٨٩.
- (١٧٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٨٥ - ستيفن رانسمان، المرجع السابق، ج١، ص ٣٨٩، ج٢، ص ١١٩. ويؤكد كاهين أن حكام عسقلان وصور وحماة وشيزر قدموا اتاوات ضخمة للفرنج. Ca-hen, Op. Cit., P 260
- وراجع كذلك ما أورده د. أسامة زكى زيد بشأن هذا الموضوع، في كتابه صيدا ودورها، ص ٧٩ وكذلك د. السيد عبد العزيز سالم في كتابه دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٢.
- (١٨٠) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ١٦١، ١٦٢.
- (١٨١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١٠٩.
- (١٨٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا ص ٩٤ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٤٢ -
- Grousset, Histoire des Croisades, t, I, p 239.
- (١٨٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٣٤٥ - مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك - ص ٢٣٠ - ٢٣٢ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٤ - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٢ - صلاح الدين نور نقلا عن البرت دكس Albert of Aix، العدوان الصليبي، ص ٢٥٠ - أسامة زكى زيد نقلا عن البرت دكس، صيدا ودورها، ص ٨١ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٤٢. غير أن بلدوين نجح في شعبان سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٥ م) في فتح عكا بمساعدة عدد كبير من السفن الجنوبية من جنوة يتجاوز التسعين سفينة مشحونة بالتجار والأجناد والحجاج.

(١٨٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥١ - المقرئزي، اتعاظ الحنفا،
ج٣، ص ٣٧ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا
الاسلامية، ص ٩٥ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٨ .
(١٨٥) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣٠٦ - اسامة زكي زيد،
صيدا ودورها ص ٨٣ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢،
ص ١٤٧ -

The Latin Kingdom of Jerusalem, V.A p 23. Jean Richard

(١٨٦) اسامة زكي زيد، نقلاً عن البرت دكس، صيدا ودورها، ص ٨٦ .
(١٨٧) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٤، ١٧١ - ابن الأثير،
Jean Richard, The Latin Kingdom - ٤٧٦، ص ١٠، ج١ -
V.I, p 24 -26

(١٨٨) فوشيه دي شارتر، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٥٨ .
(١٨٩) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٦١٤، ٦١٧ - صلاح الدين
Amin Maalouf, The Crusades, p ٣٩٧، ص ١٠، ج١ -
767, 86

(١٩٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٩ - ابن ميسر، أخبار مصر،
ص ٤٣ - وارجع كذلك إلى ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٥٦ -
المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ١٠، ص ٤٥٦ - المقرئزي، اتعاظ الحنفا،
ج٣، ص ٣٨ - السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة صيدا،
ص ٩٥ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٩ - اسامة زكي
زيد، صيدا ودورها في الصراع الاسلامي الصليبي، ص ٨٧ .

(١٩١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢ - ابن الأثير، الكامل،

جـ ١٠، ص ٤٥٦ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٦، اسامة زكي زيد، صيدا ودورها ص ٨٨ - Grousset, Op. cit., t. I, p 253.

(١٩٢) المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٤٣ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ١٤٩.

(١٩٣) كانت طرابلس قد خضعت للفاطميين سنة ٥٠١ هـ قبيل سقوطها فى يد الصليبيين سنة ٥٠٢ هـ، وكان صاحبها فخر الملك بن عمار قد تركها متوجها إلى بغداد لاستنفاار الخليفة العباسى المستظهر وطلب امدادات عسكرية، تساعده فى مواجهة الصليبيين، فانتهاز ابن عمه أبو المناقب فرصة غيابه وأعلن الثورة عليه وخلفه ونادى بشعار الأفضل شاهنشاه (ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦١ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٤٣ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٤٥٢) وان كان ابن الفرات يشير إلى عدم مناداة أبا المناقب بشعار الأفضل، وان نادى به هو أهالى طرابلس (ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، جـ ٨، ص ٧٨ - ولمزيد من التفاصيل ارجع الى السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلام، ص ١٠٩ - ١١٣).

(١٩٤) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١ - ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٤٧٩، فوشيه دى شارتر، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٤٨.

(١٩٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

(١٩٦) المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٤٥.

(١٩٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٤ - ابن الأثير، الكامل،

جـ ١٠، ص ٤٧٦، ٤٧٧ المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٤٤ -
 ابن خلدون، العبر، ق ٥، ص ٤٠٨، ٤٠٩. وعن أسباب تأخر الأسطول
 المصرى ارجع إلى المصادر السابقة، وكذلك إلى أبو الفداء، المختصر،
 جـ ٤، ص ١٤٣ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٥، ص ١٧٩ -
 صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٧٥ - ستيفن رانسمان، تاريخ
 الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ١١٣ وما يليها. ويندد ابن تغرى بردى
 بعدم اكتراث مصر للفرنج، ويصور استهانة الفاطميين بأداء واجبهم نحو
 طرابلس بأنه ناتج عن ثلاثة أمور أولها تقاعسهم عن السير مدة طويلة وثانيها
 ضعف العسكر الذى أرسلوه مع الأسطول، وثالثها عدم خروج الأفضل
 بنفسه للدفاع عن طرابلس. ويورد ابن الفرات رواية تتضمن سخرة لاذعة
 على الفاطميين وهى أن أهل طرابلس لما طال بهم الحصار وهم ينتظرون
 نجدة من المصريين، رأوا سفينة مصرية قادمة، فلما وصلت كان بها رسول
 من الخليفة الفاطمى يخبر أهل طرابلس المحاصرة أنه سمع أن بمديتهم
 جارية حسناء الصورة، فأمرهم بارسالها إليه (ابن الفرات، جـ ٨، ص
 ١٨٩) وقد تصدى الدكتور صلاح الدين نوار للدفاع عن الفاطميين
 راجع كتابه، العدوان الصليبي، ص ٢٨٠ وما يليها وارجع كذلك إلى

J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, p 161.

(١٩٨) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ٩٧ - تاريخ البحرية، ص
 ١١٣، ١١٤.

(١٩٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٨ - المقرئى، اتعاظ الحنفا،
 جـ ٣، ص ٤٥.

(٢٠٠) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ٩٨ - سعيد عاشور، الحركة
 الصليبية، جـ ١، ص ٣٠٩ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص

٢٨٥ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٤٩.

Stevenson (W.B), The Crusades in the East, Cambridge, 1907, p 59.

(٢٠١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٧ - فوشيه دي شارتر، ص ١٤٥ - وليم الصوري، ج١، ص ٣٥٨ وما يليها. ويرى د. صلاح نوار أن هذه السفن الفاطمية هي جزء من الأسطول الفاطمي الذي كان عليه انجاد طرابلس ولكنه قد وصل متأخرا بعد سقوطها، فرسى في مدينة صور. أما الدكتور محمد حلمي محمد أحمد فيقول أن السفن السابقة القادمة من مصر قد وزعت على المدن الساحلية الشامية فكان نصيب بيروت هذه المراكب التسعة عشر (اتعاظ حنفا، ج٣، ص ٤٥). وعن مقاومة المدينة (بيروت) ارجع كذلك إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٨ - المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٤٥. ولمزيد من التفاصيل عن استسلامها ارجع إلى صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٨٦ وما يليها - السيد عبد العزيز سالم، صيدا، ص ٩٨ وارجع كذلك إلى الشدياق (طنوس بن يوسف)، أخبار الأعيان في جبل لبنان، بيروت، ١٩٥٤، ج٢، ص ٢٩٥.

Stevenson, p 59, Grosset, t. I, p 254.

ولمزيد من التفاصيل عن تلك الظروف ارجع إلى

Lammens La Syrie, Precis historique, Beyrouth, 1921, p 215.

(٢٠٢) عن محاولة الفرنج فتح صيدا سنة ٥٠٣ هـ ارجع إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٠ وعن تقدم الأسطول الفاطمي إلى صور ودور صور في اطلاق السفن للدفاع عن صيدا ارجع إلى صلاح الدين نوار

نقلا عن البرت دكس Albert of Aix ، العدوان الصليبي، ص ٢٩١ .
ويذكر ابن القلانسي أن بلدوين اضطر لفك الحصار عن صيدا بعد أن
وصلته استغاثة أمير الرها الصليبي، لأن الجيش السلجوقي المتحد بقيادة
شرف الدين مودود أتابك الموصل، ونجم الدين ايلغازي بن ارتق قام بحصار
الرها لاستقاطها مما دفع بلدوين على رفع الحصار عن صيدا لانقاذ الرها
(ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٩، ١٧١).

(٢٠٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١ - وليم الصوري، تاريخ
الحروب الصليبية، ج١، ص ٥٤٠ - وأرجع إلى أسامة زكي زيد نقلا
عن البرت دكس، صيدا ودورها ص ٩٢ - ستيفن رانسمان، الحروب
الصليبية، ج٢، ص ١٥٠ - ويذكر د. عبد العزيز سالم أنه بذلك أصبح
أول ملك متوج يقدم في أسطول كبير لزيادة مملكة بيت المقدس وقد
وصل هذا الأسطول النرويجي الى يافا عقب استيلاء بلدوين على بيروت
مباشرة (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ١٠٠) وأرجع
كذلك إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩١.

(٢٠٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣١٠، ٣١١ - السيد عبد
العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، ص ١٠١ - ستيفن رانسمان، ج٢، ص
١٥٠، ١٥١ - Stevenson, the Crusades 60- Grousset, t. I, p -
256 - Deschamps (Paul), La Defense du Royaume de Jerusa-
lem, Paris, 1939, p 224.

ويؤكد هايد استنادا على ما ورد

في المدونات الصليبية أن البنادقة اسهموا في حصار صيدا بدليل تنازل
بلدوين لكنيسة سان ماركو بالبندقية، وللدوق أورد يلافو عن بعض الحقوق
في عكا W. Heyd, Histoire du Commerce du levant, t. I, Leip-

zig, 1946, p 142- 143.

(٢٠٥) لمزيد من التفاصيل عن حصار صيدا وسقوطها في أيدي الصليبيين واستخدام الصليبيين الأبراج المتطورة لاسقاط المدينة، وارجع إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧١ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٠٩، ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٥١ - Grousset, t.I, p 257 السيد عبد العزيز سالم، تاريخ صيدا، ص ١٠٢، ١٠٣، البحرية الاسلامية، ص ١١٦ - 60 Stevenson - سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٣١١ - اسامة زيد، صيدا ودورها، ص ٩٣ صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٩٢.

(٢٠٦) وليم الصوري، ص ٥٤٥ - اسامة زيد نقلا عن البرت دكس، ص ١٧١.

(٢٠٧) Anna Comnena, The Alexiad, p 440 - Cahen, op. cit., p 255.

صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٠٠ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٥٢.

(٢٠٨) يذكر الدكتور صلاح نوار أن بلدوين كان قد اتفق مع الجنويين في عام ٥٠٢ هـ (١١٠٩م) على أن يساعده في حصار طرابلس، الاستيلاء عليها وإلى جانب مساعدته في اسقاط بيروت وصيدا وصور وعسقلان مقابل بعض الامتيازات (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى كتابه العدوان الصليبي، ص ٢٧٣). ويذكر أنه لا يملك دليلا قويا يؤكد اشتراك الجنوية في حصار صور، إلا أن الأبراج وآلات الحصار التي استخدمت في حصارها كانت تشبه إلى حد كبير الأبراج والآلات التي اشتهر الجنويون بصنعها لاسقاط من الساحل الفاطمي.

Anna Comnena, The Alexiad, p 442.

(٢٠٩) وارجع كذلك إلى وليم الصوري، ج١، ص ٥٤٦.

(٢١٠) ابن القنطاري، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٨ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٨٨، ٤٨٩ - المقرئ، انعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٤٨ - ابن خلدون، العبر، م ٥، ص ٤١٣ - ٤١٤ - ابن تغري بردي، النجوم، ج ٥، ص ١٨٠.

(٢١١) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ص ١٦٧. ويعتبر طغتكين أتاك، صاحب دمشق من أعظم قادة المسلمين الذين تصدوا للصليبيين ونذروا حياتهم للجهاد ضدهم في بلاد الشام. ومن أمثلة بطولاته ضد الفرنج الحرب التي جرت بينه وبين الفرنج سنة ٥٠٢ هـ. وسببها أن طغتكين سار إلى طبرية، وقد وصل إليها ابن أخت بلدوين ملك القدس، فتحاربوا وتقاتلا، وكان طغتكين على رأس جيشه الذي كان يتكون من ألفي فارس وحشد كبير من الرجال، أما ابن أخت بلدوين، فكان جيشه يتكون من ألفين من المشاة وأربعمائة فارس، ولما اشتد القتال انهزم المسلمون، فترجل طغتكين ونادى بالمسلمين وشجعهم فعاودوا الحرب وكسروا الفرنج وأسروا ابن أخت الملك بلدوين، ولما حمل إلى طغتكين عرض عليه الاسلام فامتنع وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار واطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الاسلام فلما رفض قتله طغتكين بيده، وأرسل الأسرى إلى الخليفة والسلطان السلجوقي (ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٤٦٧ - ابن خلدون، العبر، ج ٩، م ٥، ص ٤٠٧، ٣٢٢ كما أورد ابن خلدون في العبر، نفس الجزء ص ٣١٨ مثالا آخر يعبر عن بطولاته، عندما استولى على حصن أحد القمامصة الفرنج الواقع على بعد مرحلتين من دمشق، ردا على غارات صاحبه المتكررة على مدينة دمشق، ثم سار بعد حيازته لهذا الحصن إلى حصن رمة من حصون الشام وكان قد ملكه الفرنج فحاصره حتى ملكه وقتل أهله من الفرنج وكذلك دفاعه عن دمشق سنة ٥٢٠ هـ عندما هاجمها الفرنج (لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن

خلدون، نفس المصدر، ص ٣٢٨، وكذلك أمثلة أخرى في نفس المصدر، ص ٤٩٨، وارجع كذلك إلى ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٠، ٢٠١ لتوضيح أمثلة من بطولات طغتكين).

(٢١٢) ابن خلدون، العبر، ج٩، م٥، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٢١٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٨ - ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٨٠ - رضا السيد حسن، الصليبيون وآثارهم، ص ٥١ - صلاح نوار، العدوان الصليبي ص ٣٠١.

(٢١٤) ابن القلانسي، الدليل، ص ١٧٨.

(٢١٥) ابن شداد، الأغلاق الخطيرة، ص ١٦٧.

(٢١٦) ابن القلانسي، الدليل، ص ١٧٨ - ابن تغري بردى، النجوم، ج٥، ص ١٨١.

(٢١٧) ابن القلانسي، الدليل، ص ١٧٨ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٩٠ - ابن خلدون العبر، ج٩، م٥، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٢١٨) ابن تغري بردى، النجوم، ج٥، ص ٧٨.

(٢١٩) ابن القلانسي، الدليل، ص ١٧٨ - ابن شداد، الأغلاق الخطيرة، ص ١٦٧ - ابن تغري بردى، النجوم، ج٥، ص ١٨١.

(٢٢٠) فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٥٠ - وليم الصوري، ج١، ص ٥٤٦ وقد وصف لنا كل من ابن القلانسي وابن تغري بردى هذين البرجين، فذكر أن طول الأكبر منهما يزيد على خمسين ذراعا، وطول الأصغر يتجاوز الأربعين ذراعا (ابن القلانسي، الدليل، ص ١٧٩ - ابن تغري بردى، النجوم، ج٥، ص ١٨١).

(٢٢١) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٨٨ حيث ذكر أن طول البرج كان

يبلغ سبعين ذراعا وفي كل برج ألف رجل (ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، مخطوط دار الكتب المصرية، جـ ١، م ١، لوحة رقم ٥٦) في حين لم يحدد المقرئى عدد تلك الأبراج وإنما وصفها بأنها «أبرجة خشبية، طول البرج سبعون ذراعا، يسع كل برج ألف رجل (المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٤٨، وكذلك ابن خلدون الذى ذكر فى العبر، جـ ٩، م ٥، ص ٤١٣، ٤١٤ أن الفرنج نصبوا الأبراج والمجانيق على صور. ولزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٠٢ - اسامة زيد، صيدا ودورها ص ١٧١.

(٢٢٢) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٧٨ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٥، ص ١٨١.

(٢٢٣) ابن خلدون، العبر، جـ ٩، م ٥، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٢٢٤) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٧٨ - ابن الأثير الكامل، جـ ١٠، ص ٤٩٠ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٥، ص ١٨١.

(٢٢٥) اسامة زيد نقلا عن البرت دكس، ص ١٧١.

(٢٢٦) Anna Comnena, The Alexiad, p 442.

(٢٢٧) صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٢٠٣.

(٢٢٨) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٥٤٦، ٥٤٧.

(٢٢٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٩ - ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٥، ص ١٨١.

(٢٣٠) المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٤٨.

(٢٣١) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ ١، م ١، لوحة ٥٦.

(٢٣٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٩.

(٢٣٣) يوجد بياض بعد كلمة مملوءة في أصل النص وأكملناه بما ورد في المصادر الأخرى من معلومات (ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج١، م١، لوحة ٥٦).

(٢٣٤) المقرئى، اتعاط الحنفا، ج٣، ص ٤٨.

(٢٣٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٠ (وقد اسهب ابن القلانسى في وصف جهود هذا الشيخ الطرابلسى لاحراق الأبراج، راجع ما ورد في كتابه من تفاصيل) - وان الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٨٨.

(٢٣٦) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك لوحة ٥٠ ب - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٨، وارجع كذلك إلى ما ورد في المقرئى بشأن الغنائم التى غنمها المسلمون، فى اتعاط الحنفا، ج٣، ص ٤٨.

(٢٣٧) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٠ ب.

(٢٣٨) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٨١ - ابن تقزى بردى، النجوم، ح٥، ص ١٨١، ١٨٢.

(٢٣٩) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٨٩ ارجع إلى أقوال المؤرخين اللاتين والبيزنطيين فى أسلوب مقاومة المسلمون للأبراج الصليبية، ولیم الصورى ج١، ص ٥٤٦ - Anna Comnena, The Alexiad, p 442- 443.

(٢٤٠) ابن الفرات تاريخ الدول والملوك، م١ لوحة ٥٦ (ب)، لوحة ٥٧ (أ).

(٢٤١) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٧ (أ).

(٢٤٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٨٩ - ابن الفرات، المصدر السابق، لوحة ٥٧ (أ) ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى صلاح الدين نوار، أعدوان الصليبي، ص ٣٠٤.

(٢٤٤) فوشيه الشارتري، ص ١٤٩ ولیم الصورى، ج١، ص ٥٤٥ وما يليها -

Anna Comnena, The Alexiad, p 442 - 442.

(٢٤٥) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٨٩، ٤٩٠ - ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٧.

(٢٤٦) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٨١.

(٢٤٧) استمر حصار الصليبيون لصور أربعة أشهر ونصف (ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٠ - ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، لوحة ٥٧ (أ) - فوشيه الشارترى ص ١٥٠.

(٢٤٨) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨١.

(٢٤٩) المصدر السابق، ص ١٨٢ - ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ١٦٨ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥١.

(٢٥٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٨ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٢٠ - المقرئى اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥٠، ٥١، ٩٦ - ابن خلدون، العبر، ج٩، م ٥، ص ٤٢٣، ٤٢٤ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية، ص ١١٧ - صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢٥١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢.

(٢٥٢) المصدر السابق، ص ١٨٢ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥١.

(٢٥٣) أشهر من نادى بهذا الرأي السير هاملون جب Gibb (وليزيد من التفاصيل عن آرائه ارجع إلى كتاب العدوان الصليبي للدكتور صلاح نوار، ص ٣٠٨).

(٢٥٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٠٢ - ابن شداد، الاعلاق

الخطيرة، ص ١٦٨ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥١ - ابن خلدون، العبر، ج٩، م٥، ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(٢٥٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٢ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٨، ١٦٩ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية ص ١١٧ - صلاح الدين نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢٥٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٨.

(٢٥٧) المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٢٥٨) نفسه، ص ١٨٨ - المقرئى اتعاظ الحنفا ج٣، ص ٥١ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية، ص ١١٨ - صلاح الدين نوار، العدوان السياسى، ص ٣٠٨.

(٢٥٩) ابن القلانسى، الذيل، ص ١٨٨ - ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٦٩ - المقرئى اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥٢ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية، ص ١١٨.

(٢٦٠) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦١٧.

(٢٦١) صلاح نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٠٨. حيث يذكر أنه يرجح استمرار وجود عز الملك أنوشتكين الأفضلى على سدة الحكم فى صور، بناء على صحت المصادر الاسلامية عن الحديث عنه وعدم ذكرها ما يشير إلى خروجه من طرابلس عند وصول طغتكين اليها.

(٢٦٢) ارجع إلى صلاح نوار، الذى نقل هذا الخبر عن العظيمى فى كتابه العدوان الصليبي، ص ٣٠٩.

(٢٦٣) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٥٦.

(٢٦٤) ارجع الى حاشية رقم (٥) فى كتاب الالكسياد ص ٤٤٢ .

Anna Comnena, The Alexiad, p 442.

(٢٦٥) اغتيل الأفضل فى ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) بعد أن كان قد أمعن فى الحجر على الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله، كما أظهر ميلا للمذهب السنى وأبطل العمل بالأعياد الفاطمية فانفق الخليفة الأمر مع المأمون البطائحي على اغتيال الأفضل، وبعد التخلص منه، وعد المأمون بتولى الوزارة.

(٢٦٦) بعد بناء القاهرة اصطلاح على تسمية القسطنطينية والعسكر وبقايا القطائع اسم مدينة «مصر».

(٢٦٧) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٩٤ .

(٢٦٨) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٧ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٩٦ - ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٧ .

(٢٦٩) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٢١ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠١، ١٠٢ .

(٢٧٠) المقرئى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠١، ١٠٢ .

(٢٧١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ٦٢١ .

(٢٧٢) يذكر ستيفن رانسمان أن بعض سادة اليهود أيدوا شن الهجوم على عسقلان فى حين أصر سادة الجليل على مهاجمة صور، وأيدهم فى ذلك البنادقة لأن ميناء صور يعتبر من أهم الموانئ الواقعة على البحر المتوسط كما كان الميناء الذى ترد إليه خيرات دمشق (ارجع إلى تاريخ الحروب

الصليبية، جـ٢، ص ٢٦٧).

(٢٧٣) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٢٠٦ - ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٦٧.

(٢٧٤) لمزيد من التفاصيل عن الاتفاقية التي عقدت في عكا، بين البنادقة والبطريك جورمون لتحديد المقابل لمعاونة البنادقة، الفرنج في فتح صور وعسقلان والتي تبلغ ثلث كل منهما ارجع إلى ستيفن رانسمان، الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢٦٨ -

Holt, the Ages of the Crusades, p 25.

(٢٧٥) وليم الصوري، جـ٢، ص ٦١٧.

(٢٧٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، جـ١٠، ص ٦٢١.

(٢٧٧) وليم الصوري، جـ٢، ص ٦١٨ - ستيفن رانسمان جـ٢، ص ٢٧٠ وكانوا قد سدوا السقاية التي توصل الماء من البر إلى صور.

(٢٧٨) وليم الصوري، جـ٢، ص ٦١٨.

(٢٧٩) فوشيه الشارتري، ص ٢١٣ - وليم الصوري، جـ٢، ص ٦١٨.

(٢٨٠) وليم الصوري، جـ٢، ص ٦١٨.

(٢٨١) فوشية الشارتري، ص ٢١٤ - وليم الصوري، جـ٢، ص ٦٢٠ - ستيفن رانسمان، جـ٢ ص ٢٧١.

(٢٨٢) وليم الصوري، جـ٢، ص ٦٢٠.

(٢٨٣) نفس المصدر، ص ٦٢١.

(٢٨٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل،

- جـ ١٠، ص ٦٢١ - المقرئى، اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ١٠٧.
- (٢٨٥) وليم الصورى، جـ ٢، ص ٦٢١.
- (٢٨٦) المصدر السابق، ص ٦٢١، ٦٢٢.
- (٢٨٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١.
- (٢٨٨) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦٤.
- (٢٨٩) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢١.
- (٢٩٠) ابن شداد، الأعلاق، الخطيرة، ص ١٧٠.
- (٢٩١) وأن المقرئى نفسه قد ذكر فى الخطط المقرئية جـ ٢، ص ٣٧٦ أن أسطولا خرج لانتجاد صور ولكنه تعرض لهجوم من بعض السفن البندقية أدت إلى هزيمته (ارجع إلى الدكتور السيد عبد العزيز سالم، دور الاسطول الفاطمى فى مصر والشام فى دعم المقاومة الاسلامية للحصار الصليبي على الثغور الشامية، بحث مقدم لندوة تاريخ بلاد الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجرى فى القرن السابع) وعن الاشتباك بين الاسطولين المصرى والبندقى ارجع إلى ابن القلانسى، الذيل، ص ٢٠٩ - ابن الأثير، الكامل جـ ٨، ص ٣١٤.
- (٢٩٢) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ ٥، ص ١٨٢ - وارجع كذلك إلى ستيفن رانسمان، جـ ٢، ص ٢٧١.
- (٢٩٣) وليم الصورى، جـ ٢، ص ٦٢٣.
- (٢٩٤) ابن الأثير، الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩ - وليم الصورى، جـ ٢، ص ٦٢٣ - ستيفن رانسمان، جـ ٢، ص ٢٧٢.
- (٢٩٥) وليم الصورى، جـ ٢، ص ٦٢٥.

(٢٩٦) فوشيه الشارترى، ص ٢١٤، ٢٠٧.

(٢٩٧) وليم الصوري، ج٢، ص ٦٢٥ - ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٧١. ويذكر ستيفن رانسمان أنها تسمى كذلك المسجد La Mahomeric وهي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال من بيت المقدس.

(٢٩٨) وليم الصوري، ج٢، ص ٦٢٥.

(٢٩٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٢١ - ابن تغري بردى، النجوم، ج٥، ص ١٨٢ - المقرئ، اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ١٠٦.

(٣٠٠) ستيفن رانسمان، ج٢، ص ٢٧٢.

(٣٠١) عن سقوط صور في أيدي الصليبيين ارجع إلى:

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١ - ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦٤ - ابن شداد، الاغلاق الخطيرة، ص ١٧٠ - ١٧١ - ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٦٢٠، ٦٢١ - ابن تغري بردى، النجوم، ج٥، ص ١٨٢ - المقرئ، اتعاظ الحنفاء، ج٣، ص ١٠٦ - فوشيه الشارترى، ص ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤ - وليم الصوري، ج٢، ص ٦١٦ - ٦٢٦ وما يليها.

J.J. Saunders, A history of Medieval Islam, p 161, Holt, the Ages of the Crusades, p 25- Jean Richard, the Latin Kingdom, p 22-23.

**Aspectos Objetivos Y negativos
en el Matrimonio mixto en el Al-Andalus
(Un estudio politico, literario, social)***

Aspectos Objetivos Y negativos

en el Matrimonio mixto en el Al-Andalus

(Un estudio politico, literario, social)*

Al Hablar de la mujer andalusi es logico empezar a hablar sobre el matrimonio mixto en la sociedad hispanomusulmana. Desde la conquista musulmana del al - Andalus, se divulgó el matrimonio mixto, quiero decir el casamiento de los elementos arabes y beréberes con señoras espanolas de religion cristiana recien convertidas al Islam.

Abdel Aziz hijo de Musa fué el primero que realizó el matrimonio mixto, se casó con Egilona, viuda del último rey godo Don Rodrigo. ⁽¹⁾. Le imitarón los caudillos militares árabes y beréberes, tal Como Ziyad hijo del Nabigha al-Tamimi ⁽²⁾, Ziyad hijo de Udhra al Balawi y , Habib hijo de Abi Abda, Menosa el bereber, y más tarde Abd al - Gabar hijo de Nazir ⁽³⁾ quien se casó con la hija de Teodemiro, gobernador de la curia de Teodemiro llamada en el periodo del Emirato la cora murciana e 'Isa hijo de Muzahem quien se casó con Sara

* شاركت المؤلفة بهذا البحث وألقته في المعهد المصري للدراسات الاسلامية في اطار اعمال المؤتمر الدولي عن المرأة في حوض البحر المتوسط الذي عقد في مدريد ١٩٩٥ .

La Goda, nieta de Witiza. ⁽⁴⁾. Esta clase de matrimonio mixto fué desde entonces un hábito muy divulgado en al Andalus tanto entre el súbdito como entre los dirigentes del país. Las madres de la mayoría de los emires y califas omeyas eran espanolas.⁽⁵⁾. Lo que me importa más es saber la respuesta de lo siguiente :

- Es que el matrimonio mixto fué la única manera de casarse?? Como los conquistadores árabes y beréberes entraron Espana, solos y fueron obligados más tarde a casarse localmente para establecerse ó acompañados con sus esposas y descendientes y Formaron familias de su raza??

Para contestar podemos dividir los investigadores en dos grupos: el primero dirigido por Don Julian Ribera y el prof. Hussein Monis ⁽⁶⁾ , creen que los musulmanes conquistaron Espana solos como individuos, y esto les dió el derecho de casarse localmente. Su casamiento con mujeres espanolas tuvo como consecuencia la creación de una clase social descendiente de padres musulmanes y madres cristianas de origen espanol que suelen llamarse Muladies. Este grupo de investigadores se apoyan en un texto sacado del libro "Al Gamhara" de Ibn Hazm en el que menciona que entre las mujeres árabes establecidas en al-Andalus, las de la tribu Baley بلية son las únicas que no hablan el Romance اللطينية , es decir que la mayoría de mujeres árabes saben hablar el

Romance. ⁽⁷⁾ Apoyando a este texto, afirman que la mayor parte de las mujeres árabes en España hablaban el romance y preguntan : Cómo estas mujeres pūden hablar perfectamente el romance mientras que solían quedarse en sus casas según las costumbres árabes, y salían raramente?? Esto conduce a la respuesta lógica de que eran españolas.

El segundo grupo de investigadores dirigido por Pièrre Guichard, ⁽⁸⁾ cree que los conquistadores árabes y bereberes entraron en España en grupos familiares, es decir acompañados con sus mujeres y hijos. En su opinión el decir que ellos entraron como individuos aislados no es correcto. Guichard sostiene demostrando su hipótesis sobre múltiples textos árabes que confirman que los vencedores entraron con sus familias y establecieron así en las regiones territoriales que en ellas favorecieron establecerse, en donde conservaban sus ordenaciones de tribus. Algunos tribus que, pertenecían a la misma genealogía se agruparon y se aliaron entre sí para afrontar el poder central ó el de las otras agrupaciones de tribus enemigas. Es imposible según dice Prof. Guichard , para cualquier organización tribal apoyarse sobre un solo sexo masculino. Para sostener, su tesis. Prof. Guichard da unos ejemplos de casas amplias edificadas en Basra para albergar a las mujeres y hijos quienes acompañaron los combatientes durante la conquista del Iraq. Los árabes que participaban en la

conquista de Ifriquia ⁽⁹⁾ **قبروان** hicieron lo mismo en Kairawan **الفرقية**. Cuando el califa Osman llamó a los arabes para participar en la expedición militar dirigida por al Harith hijo de al - Hakam para Conquistar Ifriquia en el año 27 de Hégira, se incorporaron en ella una multitud de combatientes formando así un ejercito , el califa consagró para la expedición mil camellos para llevar los pobres **ضعفاء المسلمين** ⁽¹⁰⁾. Guichard cree que el sentido de Duafá **ضعفاء** no se refiere ni a los enfermos, ni a los débiles ó los hombres viejos para combatir, en un ejercito porque no es lógico dejar a enfermos o viejos combatir, sino se refiere a las mujeres, niños quienes acompañaron el ejercito. Guichard se refiere a un texto sacado del Kamel de Ibn Al Athīr, en el que alude que 'Oqba hijo de Nāfi' **عقبة بن نافع** quiso fundar una ciudad en la cual los árabes se establecen con sus familias. Refiere a un otro texto al Athir informando que Abu Al sacado igualmente de Ibn Aswad al Fihri **ابو الاسود الفهري** hijo de Yusof gobernador de al-Andalus combatió contra el Emir Abdel Rahman ⁽¹¹⁾. Se refiere tambien a un texto de **Al-Jbar** Magmaa, que afirma que al-Sumeil acompaño con él su mujer y sus dos hijas ⁽¹²⁾. Ocurió lo mismo con Musa hijo de Nusayr cuando traspasó el estrecho de Gíbraltar en su expedición militar contra los Godos. ⁽¹³⁾ Tenemos en nuestros manos un texto que alude a los habitantes de Aquitania **اquitانية** y Provincia tuvieron el temor al ver los

musulmanes invadiendo su país acompañados con sus mujeres y niños la trasera del ejército ⁽¹⁴⁾

He participado de mi parte, en el debate afin de resolver el problema definitivamente. Creo que este fenómeno matrimonial que ocurría en al-Andalus entre Musulmanes y españolas fué adoptado íntimamente con el otro fenómeno que favorece el casamiento con mujeres musulmanas árabes o bereberes. Uno de los factores que favorecían la divulgación de estos dos especies de matrimonio fué el consentimiento por los musulmanes del principio de la poligamia según permite el Islam, aunque dentro de un marco restrictivo. En este caso creo que los vencedores musulmanes pasaron en al-Andalus a la vez como individuos y con sus familias : los unos combatieron individualmente y los otros llevaron sus mujeres y hijos con ellos para establecerse de modo que el ejército musulmán parecía como si fué compuesto de grupos de tribus ó de tribus enteras o parciales movibles. En los casos de las expediciones militares del Invierno y del verano contra los reinos cristianos, los combatientes musulmanes solían dejar sus familias en los centros urbanos en donde se habían establecidos . Como ejemplos, menciono los Fihriés establecidos en varias zonas del Al-Andalus occidental tal como Mérida, Badajoz, Evora, Medellin y también en Toledo. Estos Fihriés se casaban en la mayoría de los casos entre sí, quizás para ⁽¹⁵⁾ poder conservar a

un cierto limite la pureza de sangre. Esto afirma que ellos entraron en al-Andalus con sus familias o sea como tribus. Hay otros ejemplos tal como Sara la Goda, quien se casó con Isá hijo de Muzahim y despues de la muerte del ultimo se casó por segunda vez con Umayr hijo de Said. ⁽¹⁶⁾ Sara no era la única entre las mujeres godas de España que se casó con un árabe puesto la siguieron una multitud de mujeres. En cuanto a los Bereberes, es bien sabido que ellos establecieron desde la conquista musulmana de al-Andalus en forma de grupos de tribus, según manifiestan los topónimos en donde establecieron los elementos bereberes y según llevando los nombres de sus tribus. Generalmente la tribu se compone de hombres, mujeres y hijos. De estos nombres citamos los topónimos siguientes: Nepza: (citada en el chronicon Albeldense) derivado del nombre Nefza. نفزة

Mestanza: esta derivado del nombre Mestase مسطاسة

Azuaga : un núcleo urbano situado muy cerca de Badajoz derivado del nombre bereber de Zuagha. زواغة

Gineta : derivado del nombre bereber Zinata زينة

Maguila : derivado del nombre bereber de Maguila مغيلة

Un historiador iraquí, Dr. Zenoun Taha publicó hace unos años un estudio muy valioso sobre los centros urbanos de tribus bereberes en al-Andalus⁽¹⁷⁾ El eminente arqueólogo

Juan Zozaya ha publicado también una investigación que trata de la divulgación de algunas especies de cerámica popular de tipo bereber descubiertos en el oeste y el noroeste de al-Andalus, lo cual confirma que unos grupos de tribus considerables de Bereberes establecieron en estos lugares con sus familias ⁽¹⁸⁾ Es bien sabido que el hallazgo de piezas de cerámica ayuda mucho en conocer el elemento residente en el sitio y lo consideran como fuente esencial para distinguir entre los elementos de la población en las zonas en que los descubren, puesto que son considerados de los utensilios de la vida diaria de los individuos.

A base de estos datos, deducimos que el fenómeno del matrimonio mixto seguía una línea paralela en el mismo tiempo con el matrimonio con musulmanas: árabe ó bereber, es decir con mujeres de la misma raza y religión.

Entre las conclusiones que podemos sacar de lo que hemos mencionado, los siguientes datos :

I - La aparición de la clase de población conocida bajo el nombre de Muladíes المولدين tuvo unos efectos tanto objetivos como negativos. De los primeros atribuimos la rapidez con que el Islam se divulgó, y la participación muladí en la vida intelectual y económica en al-Andalus, y sobre todo en la literatura. En este campo destacamos los Banu al

Captuno, una familia de literatos quien alcanzaron el rango de ministros en el reino de Badajoz bajo los Aftasiés ⁽¹⁹⁾ , y los Banu Jatab de Murcia quienes desempeñaron un papel muy importante en la vida política y científica. Entre los pensadores muladíes citamos el nombre de Abu Bakr Mohamad hijo de la Goda que fué un historiador y literato muy célebre. Era un nieto de Sara la Goda de su marido 'Isa hijo de Muzahim'. Citamos también el nombre de Ibn Pascual el autor del libro del Sila, Arib hijo de Sáad, uno de los bótanicos muy conocidos en al-Andalus, el médico Yehya hijo de Ishaq que fué ministro del califa al Nasir, Ahmad hijo de Qasi قسى quien se alzó contra los almorávides con algunos caudillos Muladíes, Ibn Mardenish cuyo nombre se deriva de Martinez y otros más. Anadimos a los objetivos la mixtura de las tradiciones locales con las orientales y la formación de una cultura preeminente. De los efectos negativos de los Muladíes, atribuimos su alineación hacia los reinos cristianos y por consiguiente su partidismo contra los Arabes y Bereberes que podemos traducir con el sentimiento shubiya. Bajo el emirato de Abdallah hijo de Abdel Rahman II los Muladíes se levantaron contra el poder central y se apoderaron de la mayor parte de al-Andalus creando así unos estados pequeños independientes de los cuales destacamos los Banu Hafsun en Bobastro, los Banu Meruan el Gallego en Badajoz y Merida, Daysam hijo de Ishaq en Murcia y otros más.

Notamos que algunos pensadores contemporaneos tal como Claudio Sanchez Albornos ⁽²⁰⁾, Henri Pérès ⁽²¹⁾ y Charles Obron ⁽²²⁾ al tratar la civilización andalusí atribuyen la libertad y el respeto de que gozaba la mujer musulmana a las tradiciones españolas locales preeminentes.

Al lado de esta valiosa opinión, las tradiciones Magrebiés traídas con los Beréberes ayudaron mucho a destacar el papel desempeñado por la mujer andalusí. No debemos olvidar que la mayor parte de los primeros conquistadores del al Andalus que establecieron en diferentes regiones de la Península y especialmente en Extramadura y en la parte meridional de la Península eran Bereberes. Es bien sabido que la mujer berber gozaba de mucha libertad al compararla con otras mujeres musulmanas orientales. La sociedad medieval en el Maghreb respetaba la madre y la maternidad hasta el punto de adorarla . La mujer allí ocupaba un lugar eminente sobre todo en el periodo de los Almorávides solía salir descubierta de cara mientras que el hombre tapaba su cara con un velo.

Muchos caudillos almoravides se llaman con nombres de sus madres tal como el hijo de Aysha ابن عائشة , de Fátima ابن فاطمه de Gania ابن غانية ó de al Sahrawiya ابن الصحراوي (23). Esta mezcla de tradiciones occidentales con las orientales se manifiestan claramente en la sociedad andalusí en la

celebración de las fiestas islámicas tales como la del fin de Ramadan, la del sacrificio o del nacimiento del profeta ⁽²⁴⁾ así como en las fiestas cristianas como la de San Juan y de las navidades. Las crónicas árabes nos dan una descripción detallada de los festivales celebrados por los Andalusíes en estas días. Entre los aspectos de las costumbres mixtas el considerar el Domingo como vacación semanal oficial en el que se cierran las tiendas mercantiles, las escuelas y los círculos públicos⁽²⁵⁾. El estudio de las Fiestas en al- Andalus lleva una importancia como aspecto de la historia social y confirmación de la convivencia mutua entre tradiciones locales y orientales, consecuencia del matrimonio mixto. En muchas ocasiones la mujer andalusí salía en las calles sin velo ⁽²⁶⁾ y dejando muchas veces su largo mono. La mujer musulmana andalusí trabajaba en varias profesiones : en la jurisprudencia, enseñanza, literatura y en algunas industrias. La madre del poeta Abu Bakr de Denia preparaba y vendía productos lácteos y uno de sus hijos poeta muy célebre, se llama el hijo de la lechera ⁽²⁷⁾ ابن اللبانة

Al Maqqari nos relata que cuando murió Bakar el Marwani que fué un combatiente por la fé su mujer fué obligada a trabajar para mantener su familia ⁽²⁸⁾ . Como consecuencia del matrimonio mixto, se divulgó en al-Andalus entre los Andalusíes un lenguaje cotidiano conocido bajo el nombre de

la lengua romance اللاتينية (29), mientras que el arabe clásico continuó siendo la lengua oficial empleada en la prosa, la poesía clásica y en la enseñanza. El latino se redujó a los rezos en iglesias (30). Apareció, gracias a la cultura mixta, y como consecuencia del matriomonio mixto una poesia popular llamada (31) Muwaššaha en la cual usaban palabras del romance.

Nos queda por decir que la convivencia mutua entre musulmanes y españolas debida al Matrimoni mixto entre ambos elementos étnicos creó en realidad una fusión de tradiciones y pensamientos, una cultura muy elevada y una civilización preeminente.

(1) El Sayed Abdel 'Aziz Salem, Tarīkh Al Muslimin Wa Atharehem Fī Al Andalus, Beirut, 1981, p.128.

(2) Ajbar Magmua' Fi Fath Al Andalus, Madrid, 1968, p 20.

(3) Al "Udri, Nosus 'An Al Andalus, Madrid, 1965, p 10 - Ibn Al Abbar, Al Takmila li Kitāb Al sila, Madrid, 1886, T.I, p 279 - Sahar "Abdel Aziz Sálem, Banú Jattab Ibn Abdel Gabbar Al Todmiri, Osra Min Al Mowalladin bi Murcia Fi Al "Asr Al Islāmi, Alejandria, 1989, p 12..

(4) Ibn Alqutia, Tārīj Iftitāh Al Andalus, Madrid, 1926, p 6.

Ch. E. Dufourq, La vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous la domination arabe, collection Hachette, Paris, 1978, p 202 - 211 - Sanchez Albornoz, La España Musulmana, T.I, p 63 - Guichard (Pierre), Al Andalus, Estructura antropologica de una sociedad islamica en Occidente, Barcelona, 1976, p 108.

(5) Hussein Monis, Fagr Al Andalus, El Cairo, 1959, p 376.

Ribera y Tarrago (Julian), El Cancionero de Aben Cuzman en Dīsertaciones y oposculos, Madrid 1928, p10.

(6) Mo'nis, Fagr Al Andalus, p 376 - 377, Ribera, El Cancionero, p 34.

(7) Ibn Hazm, Gamharat Ansāb Al Arab, ed. Abdel Salām Haroun, p 443.

(8) Guichard, op. cit. p 197 - 198.

(9) Ibn Al Atir, Al Kāmel Fi Al Tārīj, Beirūt, 1965, T. 4, P.105.

(10) Ibn Idhari , Al Bayán Al Moghreb Fi Ajbār Al Andalus wal Maghrib, T.I. p. 9.

(11) Ibn Al Atir , Al Kāmel , t. 6, p 79. Ibn Idhārī, Al Bayan t. II, p 57.

(12) Ajbar Magmúa , p 77.

(13) Ibn Al qutia , op. cit, p 16.

(14) Ajbār Magmúa, p 167 - Guichard, op. cit, p 200 - 201.

(15) Ibid, p 72, 96 - Guichard, op. cit, p 216, Ibn Idharī, AlBayán, t. II, p 50.

(16) Ibn Al qutia, op. cit., p 6 - Dufourq, La vie quotidienne, p 202 - 211.

(17) "Abdel Wáhid Zenoun Táha, Esteqrar Al qabael Al Barbariya Fi Al Andalus, Awraq, vol 4, 1981, p 43 - 44 - Albarran (Manuel Torron) , El solar de los Aftasies, Badajoz, 1953, p 48.

(18) Juan Zozaya , "Red painted and glazed pottery in western Europe from the VIII to the XIIth century, ed. by j.G Hurst S in Medieval Archaeology, T. III, 1969, p 134, 134 - Guichard, op. cit, p 306.

(19) Por mas detalles, Al Fath Ibn Jāqān, Kalaed Al "Iqyān ed. Mohammed Al Inabí, Tunis, p 169 - Ibn Bassām, Al Dhajira Fi Mahāsen Ahl Al Gazira, Beirut, 1979, Vol. Ii, p. Ii, p 756 - 754.

Ibn Said, Ráyát Al Mobrizin wā Ghāyāt Al Momayazin, El Cairo, 1975, p 59, P 59 - Sahar Salem, Hadárat Batalyaws wa Gharb Al Andalus, Tesis Doctoral, T.I, p 528.

(20) Sanchez Albornoz, La España Musulmana, T.I, p 63.

(21) Henri Pérès, La poésie Andalousse en arabe classique au XI^e siecle, Paris, 1937, p 8 - 15.

(22) Charles Aubrun, La femme an moyen âge en Espagne, T. II, p 185 - 186.

(23) Sobre estas opiniones, Charles E. Dufourq, La Berberie et Iberie medievals, un problème de rupture. Revue Historique, 1968, p 317, 318.

(24) E. Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, T. III, p 235 , Fernando De la Granja, Fiestas cristianas en al

Andalus , Materiales para un estudio, Al Durr Al Munazzam de Al "Azafi, Al Andalus, Vol XXXIV, 1969 , Fasc, A., p 1 - Ahmed Mojtar Al Abbádí, Al Islam Fi Ard Al Andalus, Alám Al Fikr, 1979, p 390.(25) Ibn Simák Al "Ameli, Al Zahrát Al Manthura Fi Nakt Al ajbar Al Mathūra, ed. Mahmoud Ali Mekki, Madrid, 1984, p 73 - Ibn Hayán, Al Moqutabas, ed Mahmoud Ali Mekki, p 138, 519.

(26) Henri Pérès, La poesie, p 390, 405.

(27) Ibn Bassám, Al Dhajira, Vol III, P II, p 667.

(28) Al Maqqari, Nafh Al Tib Fi Ghosn Al Andalus Al Ratīb, ed. Mohye Al Din "Abdel Hamid , Vol 4, p 314 - 315.

(29) Ibn Hazm, Gomharat Ansáb Al "Arab, p 443 .

(30) Lévi Provençal, Histoire, Vol III, p 231.

(31) Sayed Gházi, Fi Usul Al Tawshih, Alejandria, 1976, p 10 - Meqdad Rahim, Na thariat Nashat Al Mowashahat Al Andalusia Bayna Al Arab wa Al Mostashriqin , Bagdad, 1986, p 7.

ترجمة مقال

**(الدكتورة راشيل أرييه «رحالة من
المغرب إلى المشرق» أحد مقالات كتاب
«الأندلس والبحر المتوسط»، غرناطة،
١٩٩٥م).**

ترجمة مقال:

Rachel Arie "Viajeros De Occidente a Oriente" Al-Andalus Y El Mediterraneo, Granada, 1995

من كتاب

Al-Andalus Y El Mediterraneo, Espana, 1996, P 169-185.

ترجمة مقال:

الدكتورة راشيل آرييه "رحلة من المغرب إلى المشرق" أحد مقالات كتاب "الأندلس والبحر المتوسط" غرناطة، ١٩٩٥م.

تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمي الأندلس ومعاصريهم من المشرق في ظل الخلافة العباسية. وأكثر تلك الصلات الروحية عمقا تتمثل في الحج للأراضي الإسلامية المقدسة، مما حمل الكثير من الأندلسيين إلى المشرق.

وكان الفقهاء الأندلسيون ينتقلون من بلادهم طلبا للمعرفة، مدفوعين بدافع الرغبة في المشاركة والحضور في مجالس شيوخ المشرق المشهورين للحصول على اجازاتهم وطمعا في الثراء مكانتهم العلمية بين أقرانهم ومواطنيهم.

وكان طلاب العلم والحجاج الأندلسيون يبدأون رحلة طويلة كانت تنتهي بهم إلى بلاد العرب (الحجاز) ليعودوا بعد ذلك في النهاية إلى موطنهم الأم.

وكانوا يتغربون طوال أشهر وأحيانا سنوات عديدة مجتازين البحر المتوسط مواجهين مخاطر الملاحة كما كانوا يجتازون برا طريقا لانهاية له متموجا بسبب تعرجات سواحل افريقية ثم بعد ذلك خلال صحارى ليبيا حتى يصلوا إلى ضفاف النيل الخضراء. وابتداء من القرن الثاني عشر شهد الغرب الاسلامي ظهور نوع أدبي

أصيل يتمثل في أدب الرحلة. وكانت روايات الرحالة تخضع للتقاليد المشرقية وعلى الأخص إلى الرصيد الثقافي القديم الذى كان يسود فى الساحل الشرقى من حوض البحر المتوسط وكانت كتابات البحريين بوجه خاص لها أثر عميق على تطور الأدب الجغرافى خلال القرن العاشر. ومع ذلك فعلى تراب الأندلس نشأت الرحلة وبصفة خاصة عندما تحققت وحدة الغرب الإسلامى بفضل المرابطين والموحدين وكانت مادة الرحلة تقوم على طلاب العلم الذين يتوجهون للأراضى الإسلامية المقدسة للحج ولطلب العلم والاستزادة على يد علماء فى الحواضر المشرقية الكبرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق مسجلين انطباعاتهم فى الرحلة يوما بعد يوم وأحيانا ساعة بعد أخرى على هيئة يوميات حيث يصفون المفاجآت والصعوبات التى حدثت لهم أثناء رحلتهم. ويمثل أبو حامد الغرناطى (١٠٨٠ - ١١٦٩م) النموذج الأول للرحلة المغاربة وقد ترك موطنه وهو فى حوالى الثلاثين من عمره ولم يعد إلى بلاده أبدا^(١). وعاش فى القاهرة ودمشق وبغداد لسنوات طوال ودفعه حب المغامرة للوصول إلى الحدود القصوى لأراضى الإسلام وفى عام ١١٣٠م وجدناه فى ايران وبعد ذلك وصل إلى مصب نهر الفولجا. وسيزور بعد ذلك بقليل المجر حيث أقام لمدة ثلاث سنوات حتى عام ١١٤٣م، ثم اجتاز بلاد الصقالبة ولحق بخوارزم ومن هناك توجه إلى بخارى، مرو، نيسابور، الرى، اصفهان والبصرة، حتى ادرك بلاد العرب لأداء الحج ثم تابع رحلته وأقام فى بغداد والموصل، وختم حياته فى دمشق بسوريا. وفى بغداد وبعدها فى الموصل ألف أبو حامد كتابين آخرين تلبية لرغبة صناعته ومريديه العراقيين، هما كتاب (المعرب عن بعض عجائب المغرب) وكتاب تحفة الألباب (أو الأحباب) ونجعة (*) (الاعجاب) اللذين يحتويان على كثير من الحقائق الهامة والارشادات القيمة الدقيقة عن مواضع وشخصيات قابلها فى جولاته^(٢).

ويغلب على رواياته فى الرحلة الطابع الخيالى وبعض العجائب مما جعل الاستاذ سيزار دوبلر يقدر من جانبه فى أبى حامد تشبعه بالعاطفة الانسانية وابتعاده عن

(*) صحتها نخبه.

الغطرسية الشخصية التي تحولها إلى «عالم غريب للاجناس والفنون الشعبية في عصره» وهو يصفه بقوله: «أبو حامد رحالة متجول، انصف بالبساطة، كما كان واعظا في بعض الأحيان على قدر من الثقافة وليس عالما متبحراً، كان يبدو بشوشا مع الآخرين له مكانة عالية بين الناس وكان على علاقة طيبة بالجميع سواء كانوا من الشخصيات الرفيعة أو أفراد الشعب البسطاء وكان يوجه محبة صادقة نحو الشعوب والاشخاص الاسيو/ افريقيين الذين كان يطوف بهم، تعمقت خلال مايقرب من عشرين سنة عن طريق علاقات عديدة أسرية وعاطفية. وكانت تقديراته تتسم بالاضافة إلى الرؤية الواضحة للموصوف في حد ذاته بالفهم الانساني الذي تبحث عنه عبثا في شخص آخر لا يملك القوة الفعالة لمؤلفنا. لقد كانت كتاباته الوصفية سهلة ذات طابع متحرر ورائع وكانت تهتم بوجه خاص بكل غريب وعجيب، ولا تجعلنا نراه يمثل عالما متعمقا بعلمه وانما رجلا متفهما ذو رؤية واسعة. وفي نفس الوقت متعمقة في التفاصيل غنية بالمعرفة الانسانية»^(٣).

أما رواية الرحلة عند ابن جبير فقد ارتبطت بأستاذه الأول (١١٤٥ - ١٢١٧)^(٤) وهذا الأديب البننسي تلقى علومه في شاطبة حيث كان والده يعمل كاتباً لدى الموحدين. وتلقى التعليم التقليدي شأنه شأن مثقفي وعلماء الأندلس. كما اطلع على مبادئ العلوم الدينية والآداب واكتسب الوسائل لاستخدام ملكته الشعرية. وقد اختاره الامير الموحدي أبو سعيد عثمان ابن الخليفة عبد المؤمن حاكم سبتة كاتباً خاصاً له، وبعد ذلك رافقه في منصبه التالي عندما اسندت إليه ولاية غرناطة. ثم التحق ابن جبير في خدمة أمير موحدي آخر وهو الذي حثه على شرب الخمر وقد أقسم كاتبنا ان يذهب للحج في نفس هذا العام تكفيراً عن خطئه هذا. وحاز شهرته بفضل رواياته الشيقة عن رحلته إلى مكة المكرمة.

وغادر ابن جبير غرناطة في ١٩ شوال سنة ٥٧٨هـ (١٥ فبراير ١١٨٣م) ووصل إلى سبتة عن طريق طريف، وركب سفينة جنوبية في طريقه إلى الاسكندرية مرت بجزيرة سردينيا وصقلية، وأقريطش، ولذا فقد تأخر لمدة شهر في الوصول إلى الميناء الذي يهدف إليه. وروى لنا ابن جبير بكل مصداقية المضايقات التي تعرض لها في الديوان الجمركي المصري.

وقد زار القاهرة أثناء توجهه إلى البحر الأحمر للوصول إلى جدة، وبقي في مكة مايزيد عن تسعة أشهر بعد أدائه فروض الحج ثم انتقل بعد ذلك إلى المدينة وتابع رحلته عبر الصحراء حتى الكوفة، واستكمالا للرحلة سار حتى بغداد والموصل وحلب، Alepo وحماة وحمص ودمشق حيث أقام شهرين ونصف ثم تابع رحلته إلى صور ومن هناك إلى عكا وبعدها ركب في رجب ٥٨٠هـ (أكتوبر ١١٨٥م) في سفينة جنوبية متجهة إلى صقلية بنية العودة إلى الأندلس. وعندما أدرك مسينا بعد اجتياز صعب انتهى الامر بغرق السفينة وبقي في صقلية لمدة ثلاثة أشهر ونصف حتى ركب سفينة من جديد في تراباني ووصل إلى قرطاجنة في سنة ١١٨٥م في شرق الأندلس.

وعند عودته إلى غرناطة، نعم بسلطة روحية كبيرة فقد أصبح استاذا للحديث والعلوم الدينية التقليدية وأيضا للصوفية. واستمر بعيدا عن العامة ولكنه قام بدور المفتي والحكم. وعن رحلته الثانية إلى المشرق التي استمرت من ١١٨٩ - ١١٩١ / ١١٩٢م لم يترك أى شاهد أو اثبات اطلاقا. وقد رحل من جديد في سنة ١٢١٧م. واستقر بالاسكندرية حيث انكب على التعليم. وبعد شهور رحلته، توفي هناك في ٢٧ شعبان ٦١٤هـ / ٢٩ نوفمبر ١٢١٧م. وكانت رحلة ابن جبير نموذجا احتذاه حجاج آخرون ومؤلفون كثيرون متأخرون. ولقد عرف كيف يسجل ملاحظاته اليومية ويصف البلدان التي كان يجتازها ويعدد الآثار التي كان يزورها، وكان حبه للرحلات البحرية المثيرة يقدم لنا مدى احترامه للبحر مصدر الهامه. وهكذا يذكر في مذكراته رحلته البحرية الأولى والتي بدأت «على متن البحر بمقابلة جبل شلير في ٢٥ مارس سنة ١١٨٣م. وبعد أربعة أيام من الركوب في طريق تجاه قصر مصمودة (القصر الصغير) وبعد اجتياز بحرى يسره الله تيسيرا عجيبا والحمد لله، استكملوا الرحلة إلى سبتة حيث القوا بها مركبا للروم الجنوبيين مقلعين إلى الإسكندرية بحول الله عز وجل فسهل الله علينا في الركوب فيه» ويمضى في روايته قائلا من سبتة (٥) :-

«وكان طريقنا في البحر محاذيا لبر الأندلس وفارقناه يوم الخميس ٣٠ مارس عندما حاذينا دانيه. وفي صبيحة يوم الجمعة (٤ مارس) قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا بر جزيرة ميورقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة... وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة، وقام معنا بر جزيرة سردانيا أول ليلة الثلاثاء.... (وهو الثامن من مارس دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل.... فكان قطعاً مستغرباً في السرعة وطراً علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه والحمد لله على ذلك. وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور وبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية إلى يوم الأربعاء بعده فاطلع علينا في حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء فلما نميز شرقاً من غرب، مركبا للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فمثل عن مقصده، فأخبر انه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنة عمل مرسية. وقد كنا استقبلنا طريقه التي جاء منها من غير علم فأخذنا عند ذلك في اتباع أثره والله الميسر لارب سواء.... إلى أن وصلنا طرفاً من البر المذكور يعرف بقوسمركة..... وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء والحطب والزاد، وفي الثلاثاء الخامس عشر من مارس فارقنا بر سردانية المذكورة، ويسر الله علينا في التخلص من بحرها لأنه أصعب مافى الطريق والخروج منه يتعذر في أكثر الأحيان والحمد لله على ذلك. وفي ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح ويضيف ابن جبير: «وترسله الرياح بقوة كأنه شاييب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاء بالموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة بما هو أشد هولاً وأعظم كرباً وزاد البحر احتياجاً وارتدت الآفات سواداً واستشرت الرياح والمطر عصفوا حتى لم يثبت معها شراع فلجىء إلى استعمال الشرع الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها وهي المعروفة عندهم بالقرية.....»

واقمنا على تلك الحال النهار كلة فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور
وسرنا فى هذه الحال كلها بريح الصوارى سيرا سريعا وفى ذلك اليوم حاذينا بر
جزيرة صقلية.

وفى صبيحة يوم السبت ٢٥ مارس اطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور
منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا وبالإضافة إلى خبرته بالبحر، كان ابن
جبير كما وصفه موريس جودفروى ديمومبينس^(٦) عارفا بخطط المدن ولديه حس
بالعمران. وقد امتدح الموصل وحدائقها واعجب ينواحي نصيبين التى كانت
تعارض مع بدوية المدينة. أما اوصافه لحلب ودمشق فلم تكن بالتفاهات الأدبية،
كذلك لم يكن غير مكترث أمام عظمة الطبيعة والالهواء الحيوى لنجد بعد خروجه
من جحيم الحجاز، ويبدو أن ذلك ايقظ فيه الرغبة التى كان يحس بها أسلافه عند
اجتيازهم أراضى الاستبس الفسيحة.

وعن السكان الذين عاش بينهم ابن جبير فانه يقدم لنا معلومات فى رحلته
اعتبرت من المصادر الرئيسية عن تاريخ الحروب الصليبية وعن الأوضاع السياسية
والاجتماعية فى المناطق التى اجتازها وعن الحج فى مكة والاختطار الملاحية التى
تمر بهم أثناء عبورهم فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى.

وقد تميز ابن جبير باحساسه القوى وروحه المتزنة للغاية والمنطلقة للمعرفة. أما
حساسيته الدينية فقد لمعت فى فقرات معينة، ظهر خلالها مدى انزعاج المستشار
السابق للحاكم الموحدى لغرناطة من تقدم المسيحيين فى سورية وصقلية وهو الذى
كان لديه ثقة مطلقة فى الرسالة العالمية لأسرة الموحدين.

ولم يكن اهتمامه بأحوال الشعوب والمزارعين فى المشرق الإسلامى عميقا،
ومع ذلك فان أسلوبه كان سلسا ومركزا ومهتزا فى الفقرات التى صور فيها
الأحداث على النحو الذى يمثلها الجواله المحدثون. ويعتقد ريجيسى بلاشير أن ابن
جبير «كلما حدد ملامح حشد حركى أو جمع حيوى، كان يعرف كيف يصفه
على نحو صادق وشخصى للغاية وثابت كما رأته عيناه الثاقبة والمדقة»^(٧).

وكان أسلوب ابن جبير زاخرا بالمحسنات فقد لجأ إلى استعمال النثر المقفى في وصفه للمدن والظواهر العامة لكل بلد. أما شعره فكان يميل إلى طابع الحكم والأمثال وهو تقليدى وبرهن على بساطة فى الاحساس والتجربة.

وقد اتخذت يوميات والرحلة إلى الأراضى المقدسة الإسلامية شكلا جديدا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بفضل محمد العبدري أحد الأدباء المغاربة^(٨). ونجمل تاريخ مولده ووفاته ولكننا نعلم أن يرجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وانه كان ينتمى إلى قبيلة حاحا التى كانت تنزل بالقرب من المدينة المغربية الحالية الصويرة التى كانت تسمى من قبل بموجادور، ونشأ فى بيئة أسرية. ولعله عاش فى مراكش. وقد ترك أرضه فى ذى القعدة سنة ٦٨٨هـ (١٠ ديسمبر ١٢٨٩م)، وقرر الانتقال عبر الطريق البرى، وزار تلمسان Tremecen حيث عقد روابط روحية مع فقهاء وعلمائها المحليين وذلك قبل انتقاله إلى مليانة Miliana، وبجاية Bugia وقسنطينة وبونة وباجة وتونس حيث أجرى مناقشات طويلة مع علماء افرريقية. ورحل إلى القيروان حيث اجتذب مسجدها الجامع اعجابه، ومن هناك انتقل إلى قابس وطرابلس. وتابع رحلته مجتازا الصحراء إلى أن وصل إلى الإسكندرية حيث أتاح له منار الإسكندرية الفرصة ليصفه، ومن هناك لحق بالقاهرة ومن العقبة دخل الحجاز حيث أتم الحج فى مكة والمدينة، وفى العودة تخير طريق فلسطين ليزور حبرون والقدس عائدا بعد ذلك عبر القاهرة والإسكندرية. وقد غير قليلا فى طريقه بعد أن اجتاز اقليم طرابلس، فقد سار من قابس إلى سوسة، وبعد ذلك تابع طريقه بمحاذاة الساحل حتى تونس. ووصل إلى بجاية عبر مليانة ووهران وتلمسان وفى المغرب وطنه كانت فاس ومكناس وازمور هى آخر محطاته. وتنتهى رحلته بقصيدة طويلة. وفى رحلة العبدري نجد أن الاوصاف الفخمة للمدن الشهيرة ليست سوى أسلوب أدبى معتنى به وأسلوبه فى ذلك يكاد يكون دائما مفتعل، فان سرده للرحلة كان مملوا بايات انشدها جماعة من المتصلين بالمؤلف.

(٩)

ان الاهتمام بدراسة فكر الفقهاء يركد على الغايات الصوفية للعبدري فهو يقدم حقائق كثيرة عن الحالة التى كان عليها الفكر الإسلامى.

أن مؤلفي المقال الذي كتب عنه في دائرة المعارف الإسلامية رقم ٩ يرون أن نيته الاخلاقية كانت «تهدف إلى إبراز مدى الفقر المادي والروحي لأفريقيا والمغرب الأوسط في عصره» ولهذا السبب فإن رحلته تعتبر اسهاماً رئيسياً في التاريخ الثقافي لشمال افريقيا.

وعلى نفس نسق الطابع الأدبي الذي شرع فيه العبدري ينتمى كتاب، لفقيه اندلسي مغربي لا يمكن فصل حياته ولا كتابه عن تاريخ الأدب في مملكة غرناطة واعتنى به ابن رشيد الذي ولد في سبته سنة ١٢٥٩ م حيث درس العلوم النقلية والنحو^(١٠).

وفي عام ١٢٨٤م قرر الرحيل إلى المشرق للبحث والتوسع في علومه. وركب سفينة في المرية حيث اجتمع معه ابن الحكيم الرندي وزير البلاط النصري فيما بعد^(١١).

وخلال ثلاثة أعوام طاف كلاهما بأفريقية، مصر، سورية، والحجاز متابعين دروسهما على يد أشهر شيوخ العلم في المشرق وشمال أفريقيا. وعند العودة إلى سبته امضى ابن رشيد عدة سنوات لانعرف فيها شيء عنه، ورحل بعد ذلك إلى مملكة بنى نصر في سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢ / ١٢٩٣م) معتمداً على العون الذي قدمه إليه رفيق رحلته القديم المدعو ابن الحكيم. ومن بين وظائف أخرى عديدة تولى منصب إمام وخطيب بغرناطة. وبعد اغتيال حامييه في مارس ١٣٠٩م عاد ابن رشيد إلى المغرب حيث عهد اليه عثمان بن أبي يوسف السلطان المريني بإدارة خطبة الجامع القديم بمراكش. وتوفي في ٢٣ محرم سنة ٧٢١ / ٧٢٢هـ (فبراير ١٣٢١م) في فاس مقدراً من الجميع...

وتحتفظ مكتبة دير الاسكوريال بالجزء الأكبر من روايته لرحلته على هيئة قطع مخطوطة بعنوان «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» حيث يحكى عن اقامته في تونس ودمشق والقاهرة. وتحتوى هذه الرحلة على معلومات جغرافية نادرة وبعد فإن المصادر اجمعت على الثناء عليه وعلى اتساع معرفته فقد تخصص في تسجيل القضايا التي عالجها وناقشها مع المثقفين الذين التقاهم في طريقه.

أما خالد البلوى فهو من بين الحجاج الاندلسيين الذين رحلوا في القرن ١٤ في قوافل إلى مكة، وقد كتب يوميات رحلته إلى الأراضى المقدسة «تاج المفرج في تحلية علماء المشرق» وقد نشر في الرباط منذ عدة سنوات^(١٢) وينحدر البلوى من أسرة من الأدباء ترتقى إلى أصول عربية يمنية وولد في قنطورية (المرية). وتلقى البلوى في غرناطة ثقافة أدبية وفقهية راسخة.

وفي أكتوبر ١٣٣٥م عندما بلغ الثالثة والعشرين، ركب سفينة في المرية ووصل حتى هينن Hunayn وبعدها رحل إلى تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة حتى وصل إلى تونس حيث بقى أكثر من ثمانية أشهر ثم أبحر إلى الإسكندرية. وفي هذه المرحلة التقى بحاج اندلسى آخر هو الشاعر ابن حاج نميرى ابن رجل غرناطى سامى المقام^(١٣)، وبعد شهر وصل البلوى إلى القاهرة حيث بقى خمسة عشر يوما خصصها للدراسة.

وكان يحكم هناك آنذاك محمد بن القلاوون السلطان المملوكى الذى كانت له بعد ذلك بقليل مراسلات رسمية مع غرناطة النصرية. وقد جاز كاتبنا بعد ذلك كل من غزة وحبرون حتى وصل إلى بيت المقدس حيث قضى شهرين. كما مر بالكرك والعلا ووادى القرى حيث وصل إلى المدينة ومن هناك وصل إلى مكة فى ذى الحجة سنة ٧٣٧هـ (يوليو ١٣٣٧م). أما رحلة العودة فقد أدت به إلى القدس والرملة وعسقلان حتى وصل إلى القاهرة والاسكندرية ومن هناك رجع إلى تونس جاعلا من طبرق محطة له فى برقة.

وبعد أن طاف بالمغرب الأدنى والأوسط وصل إلى هينن Hunayn حيث أبحر أخيراً فى اتجاه المرية. ومن جديد وطئت أقدامه أرض الأندلس، وكان ذلك فى يونيو من عام ١٣٤٠م بعد غيبة خمسة أعوام وتولى قضاء قنطورية وبعدها برشانة. وعلى نهر المنصورة أكمل محطات رحلته حتى أنجز كتابه فى ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ (نوفمبر / ديسمبر ١٣٦٦م)

أما لسان الدين بن الخطيب الوزير والمؤلف النصرى، فقد ترك لنا صورة طريفة للبلوى. وقد صاحب ابن الخطيب السلطان يوسف الأول فى زيارته التفتيشية على الأراضى الشرقية لغرناطة سنة ١٣٤٧م، وقد صور لنا قاضى برشانة فى صورة طريفة وذلك عندما خرج لاستقبال الركب الملكى فوصفه لنا كرجل لطيف فى ترحابه، مختال ومزهو بثقافته الأدبية مقلد فى تكلف شديد وجدية تامة للهجات المشاركة. وبدأ ابن الخطيب فى هجائه، اذ كان مخدوعا بمظهره كحاج بين رجال ادارته. وكان يضع طيلسانا ايضا على عادة أهل الحجاز كما ترك طرفا من عمامته ينسدل على جبهته تماما مثل الجمل بلجامه على انفه على حد وصف ابن الخطيب^(١٤).

وقد جاء أكثر هجاء وذم ابن الخطيب على قاضى برشانة على هيئة نثر مقفى مأخوذ من كتاب البرق الشامى^(١٥) للكاتب المشرقى عماد الدين الاصفهاني موهما بأنها أبياته. وفى القرن ١٧ كرر المقرئ التلمسانى اتهام ابن الخطيب بانتحال الأبيات كما علق على هجائه للبلوى بأنه كان عنيفا^(١٦)، ولم يكن يهدف البلوى فى كتابه عن رحلاته معالجة جادة تاريخية أو جغرافية، وكذلك لا يتسم وصفه لكل من الاسكندرية والقاهرة بالمصادقية والأصالة وملاحظاته عن ديوان الاسكندرية والمضايقات التى تعرض لها كثير من الرحالة المغاربة المسلمين أوردها كل من ابن جببر وابن رشيد.

وكذلك نجد أن وصفه لمارستان القاهرة والاهرام يذكرنا بما أورده ابن جببر. أما فى الفقرات الكبيرة التى خصصها البلوى لوصف القرافة والمساجد القاهرة فهى تنم عن تعصبه الدينى وعن مشاعره الحية التى أظهرها فى مناسبات عديدة، مثلما كتب عن النصوص الجنائزية وشواهد القبور فى تلك الأماكن والتى طالما أثارت اعجابه، ولم يأت بروايات غريبة فى سياق حديثه عن الرحلة لاسيما عند عرضه لأخطار الطريق. واستدعائه للأحداث والخطوب التى ألمت به فى طريقه الطويل.

وقد أفاد البلوى من اقامته فى كل من المغرب والمشرق لمتابعة الدروس التى تلقاها على يد أكبر العلماء فى عصره وللحصول على اجازاتهم. كذلك قدم لنا

بأسلوب فخيم، مختصرات للمناقشات التي درات بينه وبين علماء المشرق والمغرب الاسلامي، ونقل لمواطنيه الأندلسيين بعض النصوص الشعرية والنثرية التي لاتزال مفقودة وغير معروفة حتى الآن.

وتندرج روايته للرحلة ضمن حلقات سلسلة العلاقات، والروابط الثقافية بين الأندلس وباقي أراضى العالم الاسلامي.

وفي القرن الرابع عشر أيضا يظهر رحالة اخر، ليعطينا بعداً جديداً في نسيج أدب الرحلة ذلك هو ابن بطوطة الذي ولد في طنجة في سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) حيث تلقى علوماً فقهية قوية^(١٧).

وفي سنة ١٣٢٥م عندما بلغ احدى وعشرين عاما رحل إلى المشرق عبر تونس ومصر والشام لأداء فريضة الحج في مكة لأول مرة، ثم رحل بعد ذلك إلى شرق افريقيا ومصر والشام وآسيا الصغرى وأدرك الهند وقد أقام بعض السنوات في دلهي على نهر الجانج حيث أسند إليه قضاء المذهب المالكي. وقد كلفه محمد بن تغلق سلطان دلهي بالقيام بسفارة إلى الصين فرحل ابن بطوطة إلى قندهار على ساحل الدكن الغربي وابتحر حتى قاليقوت والمالديف حيث عمل كقاضى لمدة ثمانية عشر شهرا، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصين.

وفي سنة ١٣٤٧م رجع عبر سومطرة إلى الهند ومنها إلى جنوبي شبه جزيرة العرب ثم صعد مرة أخرى ساعيا إلى عبور الخليج الفارسي ليزور فارس والعراق والشام ومصر، ومن جديد اتجه إلى مكة واتم حجته الأخيرة.

وفي ابريل من عام ١٣٤٩م اتخذ القرار بالعودة إلى المغرب فأبحر من الاسكندرية حتى أدرك تونس وتابع بحرا حتى وصل تنس ومن هناك ركب برا حتى تلمسان ومنها تابع إلى فاس وكان ذلك زمن السلطان أبو عنان المريني (أوآخر شعبان سنة ٧٥٠هـ / أكتوبر ١٣٤٩م). وبعد اقامة قصيرة في فاس قام بزيارة مملكة غرناطة زمن السلطان يوسف الأول، وطاف بين أهم مدنها مثل رندة ومالقة وغرناطة

حيث ترك لنا انطباعات وإشارات قيمة - وجاز من جبل طارق بحرا إلى سبته، وعقب رحلته الجديدة عبر بلاد المغرب، قرر التجول في «بلاد الزنج» ووصل إلى سجلماسة حيث أمضى أربعة أشهر، وهناك اقتنى جمالا والتحق بقافلة من التجار الذين رحلوا في محرم من سنة ٧٥٣هـ (فبراير ١٣٥٢م). وقد عاد إلى فاس بعد أن أقام مدة عامين في مالي وتمبكتو، ويبدو أنه لم يترك المغرب حتى وفاته سنة ١٣٧٢ وتسمى رحلة ابن بطوطة بتحفة النظر في عجائب الأمصار وهي ليست مكتوبة بقلمه. وقد كلف ابن جزى القائم بالكتابة في ديوان غرناطة والذي كان قد عمل ليوسف الأول المريني ومن بعده أبا عنان بكتابة رحلة ابن بطوطة في بلاط فاس الذي أملاه نصها بنفسه وتحت توجيهاته. (١٨) وقبل أن نتصدى لمناقشة محتوى رحلة ابن بطوطة فائنا نتفق على تقرير أنها أثارت نوعا من الحساسية لدى كتاب غرناطة. فابن الخطيب الذي لم ير الرحالة الشهير مطلقا قد خصه في موسوعته الخاصة بتراجم الرجال «الاحاطة عن تاريخ غرناطة» بملاحظات ليست كلها مديح متشهدا بشيخه أبي البركات قائلاً: «هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة (١٤ يونيو ١٣٢٥م). فدخل بلاد مصر والشام والعراق وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين، وصين الصين وبلاد اليمن. وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦م) ولقى من الملوك والمشايخ عالما وجاور بمكة. واستقر عند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء، وأفاده مالا جسيما وكانت رحلته على رسم الصوفية زيا وسجية. ثم قفل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق فكذب وقال: لقيته بغرناطة...

وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد الشرقية وغيرها. فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وهي على قدر مدينة مسقفة كلها، وفيها اثني عشر ألف اسقف. ويضيف ابن الخطيب نفسه معلومات خاصة بملاحظته الشخصية معلقا على أوصاف ابن بطوطة فيما يتعلق بالقسطنطينية

(٢٠)

«واحاديثه في الغرابة أبعد من هذا». ولم يكن ابن خلدون أكثر مديحا له من معاصريه فهو قد اتهم الرحالة المغربي في مقدمته بأنه شوه الحقيقة «أن رجال الحاشية المرينيين فسروا هذه الروايات الغريبة وعللوا ذلك بأن الرحالة روى أكاذيب».

ونصنف رحلة ابن بطوطة تحت نوعية الكتابات غير متصلة العناصر. وقد عرفنا من ابن جزى كاتب النص أن ابن بطوطة اقتصر في املائه على وصف البلدان التي زارها والطرف والحوادث التاريخية التي استطاع أن يتذكرها بالاضافة إلى أن الرحالة نفسه (ابن بطوطة) أخبرنا عند حديثه عن بخارى أنه تعرض في البحر للقراصنة الهنود، وفقد عندئذ كل الملاحظات التي أخذها عن رحلاته السابقة، وهذا يفسر عدم وجود اشارات أو دليل المسافر في كتابه. أن أدلة المسافرين وعلم تسلسل التواريخ تطرح أشكاليات مثلما ذكر السير هاملتون جب بوضوح الذي وضع مصداقية تأكيدات ابن بطوطة موضع شك متخذاً مشكلة رحلة ابن بطوطة إلى المراكز التجارية ببلاد البلغار في الفولجا الوسطى كمثال وفي بعض فقرات كتابه المتعلقة بجنوب شرق فارس، خلط بين مارآه في الرحلة وبين ماحدث خلال رحلة أخرى في مناسبة أخرى. ولكن بلاشك فانه توجد في هذا العمل مادة تاريخية وتراجم وفيرة عن مصر وسوريا والحجاز، تسهل للباحثين المتميزين تنسيق ذلك بالمادة العلمية المستقاة من مصادر أخرى، كذلك توجد روايات اسطورية أخرى تنسجم مع ما هو خارج عن المؤلف بالاضافة إلى توصيفات متكررة إلا أن الملاحظات الشخصية للمؤلف حول المراحل والأحوال الطبيعية (طبيعة الأراضي والمزروعات والمناخ) والمحاصيل ومايتعلق بالأفراد، وكل ذلك يثير الاهتمام. ويؤكد ابن جزى أنه كان يسجل كل ماكان يقصه الرحالة (ابن بطوطة) دون اضافة شيء أو اغفال شيء، وأنه كان يروى قصصا ونوادير دون أن يتحقق عن مصداقيتها مما يفسر التناقضات التي لايفغل عنها أى ناقد، ويتتبع ابن جزى الكاتب في كتابته القواعد الخاصة باللغة العربية الفصحى ولكن في بعض المواضع يستخدم الدقة الضرورية في كتابة أسماء الأعلام مما يجعل من المتعذر قراءتها بالعربية واليه أيضا يمكن نسبة الاقتباسات الكثيرة لابن جبير التي تتداخل في نص كتاب الرحلة.

وقد نظم الصياغة النثرية لابن بطوطة وفقا للذوق الأدبي آنذاك وكان يقطع
خط الرواية بأبيات شعرية وباختصار فان رحلة ابن بطوطة تعتبر واحدة من المصنفات
الممثلة لأدب المشاهدة والمعاينة. ويتخلل الكتاب لون من ألوان الاثارة، وذلك عندما
يبدأ المصنف روايته بالنسبة للغات الأجنبية لاسيما بالنسبة للشعوب غير العربية في
العالم الإسلامي، فوصفه لآسيا الوسطى مرصع بكلمات وتعبيرات تركية فارسية. أن
ابن بطوطة يتجاوز ابن جبير بكثير في أصالة أخباره حول البلاد البعيدة فيما يتعلق
بمجال المؤسسات والتقنيات الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فان ما أورده
يعتبر مادة هامة. ومن العجيب أنه رغم عدم تكوين ابن بطوطة العلمي فقد وجه
نظراته إلى آفاق أكثر بعدا مما سبقوه وكما يعبر اندري ميكل فان بطوطة استطاع في
النهاية الارتفاع بالرحلة إلى لوحة تصويرية صادقة للعالم.

الحواشي.

- ١ - حوله انظر مقال بدائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية لليفي برونسال، ج١، ص ١٢٥، ١٢٦
- ٢ - نظر فراند التحفة في الجريدة الآسيوية سنة ١٩٢٥-١٩٤٨، ٤٩٥-٣٠٣ وقام دبلر بنشر وترجمة جزء من المغرب: أبو حامد الغرناطي وروايته للرحلة في البلاد الأوربية الآسيوية، مدريد، ١٩٥٣ وكذلك الأبحاث الحديثة: أبو حامد الغرناطي (ت٥٦٥هـ) (١١٦٩م) تحفة الألباب تقديم وترجمة أراموس، مدريد، ١٩٩٠، المغرب عن بعض عجائب المغرب، تقديم ونشر وترجمة بيبخارانو مدريد، ١٩٩١.
- ٣ - دبلر، المرجع السابق، ص ١٧٤، ١٧٥
- ٤ - مقال شارل بلا في دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة الثانية، مجلد ٣، ص ٧٧٧، ٧٧٨.
- ٥ - أشير الآن إلى الترجمة التي قام بها مايو سالجاد وعنوانها «ابن جبير عبر المشرق» برشلونة، ١٩٨٨، ٤٨-٥٠.
- ٦ - في مقدمة ترجمته الفرنسية: ابن جبير - الرحلات، ج١، باريس - ١٩٤٩، ص ٥٩.
- ٧ - رينيه بلاشير ودار مون: الجغرافيون العرب في العصور الوسطى، نصوص مختارة مع التعليق عليها، باريس، ١٩٥٧، ص ٣٤٠.
- ٨ - حول مقال محمد بن شنب ووليم هونرباخ في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية، مجلد ١، ص ٩٨، ٩٩، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد القاسي الرباط، ١٩٦٨.
- ٩ - ابن شنب، نفس المرجع، ص ٩٩.
- ١٠ - انظر مقال راشيل آرييه في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني - الطبعة الثانية، المجلد الثالث، ص ٩٣٣، ٩٣٤. قطع من رحلته المخطوطة رقم ١٧٣٦ بمكتبة الاسكوريال، نشرها بلخوجة في تونس
- ١١ - حوله انظر ماريا خيسوس روبيرا «ذو الوزرائين» ابن حكيم الرندي، الأندلس، مجلد ٣٤، ١٩٦٩، ص ١٠٥-١٢١

١٢- لا يوجد مقال في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، مخصص للبلوى. طبعة الرباط بدون تاريخ عنوانها «تاج المفرق لحسن السائح».

١٣- ج. س. فادت، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، م، ص ٨٠٣؛ كانت شخصية ابن الحاج النميري الذي ولد في غرناطة في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) موضع دراسة قام بها ج. ف. ب. هويكنز بعنوان «ابن الحاج، شاعر أندلسي من القرن ١٤» في مجلة مدرسة اللغات الشرقية (Bulletin) مجلد ١٤، ١٩٦١، ص ٥٧ - ٦٤. أن الرحلة التي قام بها ابن الحاج في صحبة السلطان المريني أبو الحسن سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) عبر شمال المغرب كانت موضع تحليل قام به أ. ل. دي بريمار بعنوان «ملاحظات عن رحلة أبي اسحاق إبراهيم بن الحاج النميري الأندلسي في عام ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م» مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزء التاسع، ١٩٧٠، ص ٣١-٣٧، والمغرب والأندلس في القرن ١٤، ملاحظات عن رحلة أندلسي للمغرب، في ١٣٤٤ - ١٣٤٥، ليون، ١٩٨١.

١٤- هذا مسجل في كتاب «خطرات الطيف في رحلة الشتاء والصيف» من كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، الاسكندرية، ١٩٥٨، ص ٣٦، ٣٧.

١٥- حول هذا المصنف للأصفهاني (ت ٥٩٧ / ١٢٠١م): ن. إيليسيف، نور الدين أمير مسلم عظيم، دمشق، ١٩٦٧، ج ١، ص ٢٩، ٣٠.

١٦- نفع الطيب، طبعة القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م، ج ٣، ص ٢٨٥، ٢٨٧.

١٧- أ. ميكل، نفس المرجع، ص ٧٧٩. ونشرت رحلة ابن بطوطة وحقق وترجمت إلى الفرنسية على يد دفرمرى، وب. ر. سانجينييتي بعنوان «رحلات ابن بطوطة» باريس ١٨٥٣، ١٨٥٩، الطبعة الرابعة، باريس، ١٩٦٨ مع مقدمة وتعليقات لمونتيل ويستحسن الرجوع إلى الترجمة الإنجليزية مع تصحيحاتها اللازمة لجيب بعنوان رحلات ابن بطوطة، كامبردج، ١٩٥٨، ١٩٧١، وتوجد ترجمة بالاسبانية بعنوان ابن بطوطة عبر الإسلام لسيرافين فنخول، وفيدريكو أربوس، مدريد، ١٩٨١، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.

- ١٩- وفقاً لترجمة ليفى بروفنسال، انظر «رحلة ابن بطوطة فى مملكة غرناطة سنة ١٣٥٠»، وذلك فى كتاب «دراسات لتكريم وليم مارسيه «باريس»، ١٩٥٠، ص ٢١٣، ٢١٤
- ٢٠- المقدمة، ترجمة دى سلان، ج١، ص ٣٧٠، ٣٧١، فقرة نقلها ليفى بروفنسال فى الهامش رقم ١٩، ص ٢١٤ من مقاله الأخير.
- ٢١- ملاحظات حول رحلات ابن بطوطة فى آسيا الصغرى وروسيا، مقال نشر فى الدراسات المشرقية المخصصة فى ذكرى ليفى بروفنسال، باريس، ١٩٦٢، ج١، ص ١٢٥ - ١٣٣.

تعليق المترجمة:

تحدثت المؤرخة راشيل آرييه عن تميز العصر الوسيط بوجود تبادلات ثقافية بين مسلمى الأندلس ومعاصريهم من المشرق فى ظل الخلافة العباسية وأشارت إلى أن الدافع الدينى كان الدافع الرئيسى وراء رحلة هؤلاء الأندلسيين إلى المشرق كما ألححت إلى دافع آخر وهو شغف الأندلسيين بطلب العلم وأصول المعرفة على شيوخ المشرق المعروفين.

واهتمت الباحثة آرييه بالرحلة البحرية وأشارت فى عجلة إلى الطريق الذى اعتاد المسافرون الأندلسيون سلوكه بحرا، كما أبكدت على أثر كتابات هؤلاء البحريين فى تطور الأدب الجغرافى، ثم انتقلت مباشرة إلى الحديث عن أشهر الرحالة الأندلسيين.

ومن الملاحظ أن المقدمة التى مهدت بها المؤرخة آرييه لبحثها جاءت مختصرة للغاية ومبتسرة، فالرحلة كانت لها آثار أخرى أكثر عمقا وفعالية فى الحضارة الإسلامية، فقد كانت من أهم عوامل الربط والتواصل بين أنحاء العالم الإسلامى فى عصور القوة، فضلا عن أنها كانت من أبرز خصائص المجتمع العربى الإسلامى فى عصور الازدهار الحضارى^(١)، فأزالت الحواجز والموانع بين أقطار العالم الإسلامى رغم الخلافات السياسية أو المذهبية القائمة بينها فكان تجار الأندلس يرحلون إلى الهند والسند كما كان بعض التجار المشاركة يرحلون إلى الصين أو يقصدون المغرب والأندلس^(٢). مما ساعد على انتشار الإسلام فى الشرق والغرب عن

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٢١١.

(٢) ارجع إلى ما أشار اليه المقرئ نقلا عن ابن حيان من أن تجارا من الشرق من عدن كانوا يقدون إلى قرطبة زمن المنصور بن أبى عامر (المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، ١٩٤٩، ج١، ص ٣٨٨ كما نستدل من شواهد القبور التى كشف عنها البحث الأثرى فى المربة على أن تجارا من مصر والشام وفدوا وكانوا يشتغلون بالتجارة فى المربة (لمزيد من التفاصيل راجع عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢١٢) كما اشتهرت أسرات عراقية كاملة عملت بالتجارة فى مصر (لمزيد من التفاصيل عن بنى الكويك التكريتيين راجع سحر سالم، العراقيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٦٠ ومايلها.

طريق الاحتكاك السلمى، فضلاً عن شيوع وحدة ثقافية وفكرية إسلامية سادت من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه مما زاد من توثق عرى الوحدة الإسلامية.

وقد تعددت دوافع الرحلة فقد رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية المختلفة فى المشرق والمغرب أو للتجسس مثل الجغرافى والرحالة الشهير ابن حوقل، أو للقيام بمهمة أو للسفارة^(١) أو للحج وطلب العلم مثلما أشارت الباحثة آرييه.

ولا يعتبر هذا الموضوع جديداً، فقد سبق آرييه عدد كبير من مؤرخينا قاموا بالتصدي لدراسته بمزيد من الاهتمام والتفصيل ولعل أهم هذه الكتابات العربية المصنف القيم الذى ألفه الدكتور حسين مؤنس بعنوان «تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس» والذى تناول فيه تطور علم الجغرافية فى الأندلس وأهم الجغرافيين والرحالة المغاربة والأندلسيين وكتبهم ورحلاتهم إلى المشرق الإسلامى ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطى وابن جبير وابن سعيد والعبدى وابن الخطيب، كما عالج تطور أدب الرحلة فى الأندلس، وقد فات المؤرخة آرييه أن ترجع إلى هذا المصنف الهام الذى يعد من أقيم ماكتب فى هذا المجال خاصة وأنها قد رجعت فى هذا المقال إلى بعض المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية، كما فاتها الرجوع إلى عدد من البحوث الهامة التى تناولت علم التأريخ ومنها على سبيل المثال الدراسة الجادة التى أصدرها الدكتور شاكر مصطفى عن علم التأريخ وكتاب «التأريخ والمؤرخون العرب» للدكتور السيد عبد العزيز سالم. وقد فرق الدكتور سالم فى كتابه هذا بين الرحالة والجغرافى فهو يرى أن الرحالة لا يتجاوز فى كتاباته وصف مشاهداته أثناء الرحلة أما الجغرافى فيعمل على تغطية كل الأقليم الذى يتناوله بالبحث فيسأل ويتقصى ويجمع المعلومات من الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين وليس من الضروري فى رأيه أن يكون الجغرافى رحالة^(٢).

(١) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ٢١١

(٢) المرجع السابق ص ٢١٤

وإذا كانت الدكتور آريه اهتمت أبا حامد الغرناطى نموذجاً ممثلاً للرحالة المغاربة فإن الدكتور حسين مؤنس يرى أن كتاب «ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة» الذى كتبه ابن العربى والذى يتضمن رحلته المشرقية وما درسه فيها وما أفاده من هذا الدرس ومن لقي من العلماء والأعيان، هو النموذج الأول للرحلة الأندلسية وأول وصف لرحلة يكتبها أندلسى كما أكد فى كتابه «تاريخ الجغرافية والجغرافيين» على أن أبا بكر بن العربى هو مبتكر هذا الفن فى الأندلس، ويرى أن أبا حامد الغرناطى كتب شيئاً قريباً من «ترتيب الرحلة» ولكنه لم يصف رحلته ولم يعين مراحلها أو «مراتبها» بحسب مصطلح ابن العربى فى كتابه. ويختتم الدكتور مؤنس رأيه فى رحلة ابن العربى بقوله «نعم انه لم يصل فى ذلك إلى شأو ابن جبير ولكنه دون شك، السابقة التى سيحتذيها أمثال ابن رشيد والعبدى»^(١).

وفيما يتعلق بما أورده المؤرخة آريه عن أبى حامد الغرناطى يتضح انها اعتمدت كثيراً على ما أورده سيزار دوبلر فى مقدمة مانشر من «المغرب من عجائب المغرب» فهى لم تأت بكثير عند حديثها عنه فلم يتجاوز ما ذكرته عن سير رحلته الذى تناولته باختصار شديد سوى مقتطفات من آراء وأوصاف سيزار دوبلر لأبى حامد الغرناطى كما وردت فى مقدمة المغرب. وقد أخطأت آريه عندما أوردت اسم أحد كتابى أبى حامد الغرناطى الذى ألفهما فى الموصل وهو «تحفة الألباب ونجدة الاعجاب» فقد أورده على أنه «تحفة الألباب أو (الأحباب) ونجمة الاعجاب» كما لم تشر إلى سبب عدم عودته من رحلته المشرقية إلى الأندلس مرة أخرى رغم أن سيزار دوبلر قد علل ذلك بسقوط بلده أقليش فى أيدي النصارى^(٢). كذلك لم تشر راشيل آريه إلى زيارة أبى حامد الغرناطى إلى الإسكندرية وزيارته لمنازلها ودقة وصفه لها رغم أهمية ذلك للمهتمين بدراسة هذا المنار والتعرف على التطورات التى تعرض لها كذلك لم تشر إلى وصف معبد السرابيوم بالإسكندرية.

(١) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد، ١٩٦٧، ص ٤١١ - ٤١٢.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٠٦، حاشية رقم ١.

وقد ألف أبو حامد الغرناطى كتابه الأول «المعرب عن بعض عجائب المغرب» فى بغداد سنة ٥٥٦هـ وذلك عندما زارها للمرة الثانية، تلبية لطلب صديقه الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الذى استضافه وأحسن إليه. وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس حيزا كبيرا من كتابه للحديث عن هذا المصدر الهام، أشار خلاله إلى أهم محتوياته وحللها تحليلًا علميًا دقيقًا^(١).

ويعتبر المعرب أول مؤلفات أبى حامد الغرناطى، أما تحفة الألباب فقد دونه أبو حامد فى الموصل استجابة لرجاء الشيخ معين الدين أبى حفص عمر بن محمد بن خضر الاردبيلي مؤلف كتاب «وسيلة المتعبدين»^(٢).

أما فيما يتعلق بابن جبير فلم توضح آريه صراحة فى سياق حديثها عن رحلته أنه قام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامى، فقد تحدثت عن انطباعاته ومشاهداته اجمالًا وذكرت ضمنا ما يشير إلى رحلتيه البحريتين الأولى والثانية. والواقع أنه رحل إلى المشرق ثلاث مرات وأن كتابه «تذكرة الأخبار» تسجيل لرحلته الأولى التى بدأها فى شوال سنة ٥٧٨هـ وانتهى منها بعودته إلى الأندلس فى ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ. ويعتقد د/ عبد العزيز سالم أنه كتب أخبار هذه الرحلة فيما يقرب من عام ٥٨٣هـ عندما شاعت فى الآفاق أخبار انتصارات صلاح الدين يوسف بن أيوب واسترداده لبيت المقدس ثم دفعه الحنين للمشرق إلى رحلته الثانية إلى هناك سنة ٥٨٥هـ عاد بعدها إلى غرناطة فى سنة ٥٨٧هـ ثم استقر فى سبته وتزوج بها. وعندما توفيت زوجته عاتكة أم المجد بنت أبى جعفر الوقشى، رحل إلى المشرق الإسلامى للمرة الثالثة فى سنة ٦١٤هـ ونزل بالإسكندرية وظل مقيما بها حتى وافته المنية ودفن بها، ومن المرجح أنه دفن فى الموضع المعروف اليوم بسيدي جابر^(٣).

(١) نفس المرجع، ص ٣٢٦ ومايليها.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٣٢٣ وراجع السيد

عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣١.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٢١. وارجع إلى ماورد فى ابن الخطيب،

الاحاطة فى أخبار غرناطة، القاهرة، ١٣١٩هـ، ج ٢، ص ١٦٩.

وقد اعتمدت آرييه فى وصفها لرحلة ابن جبير الثانية فى البحر على ما أورده هو نفسه من وصف الأخطار التى تعرض لها أثناء رحلته فنقلت نصوصا على لسانه فى مقالها بعد أن ترجمتها إلى اللغة الأسبانية ووضعتها بين قوسين. وقد تصرف راشيل آرييه فى النصوص باستبدالها بالتواريخ الهجرية الواردة فى النص الأصيل بالتواريخ الميلادية واختصارها لبعض الأحداث، وقد قمنا عند ترجمتنا لمقال آرييه إلى العربية بالرجوع إلى نص رحلة ابن جبير الأصيل، ونقلنا ماورد فيه حرفيا حرصا على الأمانة والدقة العلمية طالما وضعته راشيل آرييه بين قوسين.

واعتقد أن ما أورده ابن جبير من صور حية عن التعايش السلمى بين الصليبيين والوطنيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية رغم الحروب التى كانت قائمة بينهما، شهادة حية على التسامح والاستنارة اللذين اتسم بهما الفكر الإسلامى.

وإذا كانت آرييه قد وصفت ابن جبير بالاحساس القوى والتدين الذى تمثلت مظاهره فى فقرات معينة من كتابه فقد وصفه الدكتور حسين مؤنس بأنه كان ذا احساس عميق بوحدة الوطن الإسلامى فهو يقوم برحلته الثانية إلى المشرق احتفالا باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس وهو يوضح فى رأى مدى عمق الروابط الفكرية والمعنوية ومدى توحد المشاعر الإسلامية بين أطراف العالم الإسلامى رغم المسافات الطويلة والخلافات السياسية والمذهبية، كذلك وصفه الدكتور مؤنس بأن كان رجلا ذا قلب انسانى كبير فقد هاجر فى أواخر أيامه إلى المشرق ليتعزى عن مصابه فى زوجته عاتكة للتأسى والنسيان وزيارة البيت الحرام^(١).

ولم تشر راشيل آرييه إلى قيمة ما أورده ابن جبير من اشارات هامة عن البحر والسفن وأحوال الملاحة فى البحرين المتوسط والاحمر فى القرن السادس الهجرى ولا عن ملاحظاته الجغرافية التى كانت غاية فى الدقة والصدق.

(١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٣٨.

أما العبدري فقد ذكرت آرييه أنه رجع بالنسب إلى أصول عربية بعيدة وأنه كان ينتمى إلى قبيلة حاحة التى كانت تنزل (الصويرة حاليا) بموجادور. وقد يبدو ماذكرته راشيل آرييه متناقضا فى بداية الامر اذ كيف يرجع العبدري إلى أصول عربية وينتمى إلى قبيلة حاحة البربرية فى ذات الوقت؟؟.

وفى حقيقة الامر فان العبدري عربى الاصل، قرشى يرجع إلى بنى عبد الدار ابن قصي^(١) وكان أصل بيته من بلنسية ثم هاجر به أهله وهو صغير إلى المغرب حيث استقروا فى الاقليم الذى ينسب إلى قبيلة حاحة المصمودية التى كانت تضرب حول مدينة الصويرة الحالية^(٢).

وقد تحامل العبدري على مصر والمصريين وسب أهلها، لاسيما عند وصفه لما لاقاه على ايدى مفتشى المكوس، فى حين نراه يمدح تونس وأهلها مدحا شديدا. ولم يكن هذا هو شأن العبدري وحده، فابن سعيد صور مدينة الفسطاط تصويرا سيما وتهكم على أهلها^(٣) مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار أن ذم أهل مصر أصبح موضوعا تقليديا لدى الرحالة المغاربة^(٤).

(١) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخين العرب، ص ٢٢٤.
(٢) لم يكن اسم الصويرة واردا فى العصر الوسيط وانما استعمل زمن السلطان محمد بن عبد الله الذى بادر ببنائها واتخاذها كميناء أول لمبادلات المغرب التجارية مع الخارج وذلك ابتداء من عام ١٧٧٣م، وفتحها للأجانب وخصها بامتيازات جمركية مما جعلها تتفوق على غيرها من الموانئ المغربية (محمد زينبير، اطلاله على منطقة الصويرة فى العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، اكادير، ١٩٩٠، ص ٧٧) وقد اختلف المؤرخون فى أصل الصويرة، ويجمع بعض المؤرخين على أن موقع الصويرة هو أمكدول مرسى حاحة وسوس (زينبير، المرجع السابق، ص ٨٠) فى حين يرى البعض الآخر أن الصويرة الحالية بخلاف الصويرة القديمة وأن الصويرة الحالية هى مرسى أكوز أو قوز الذى ذكره البكرى (عبد القادر زمامة، الصويرة واقليمها فى ذاكرة التاريخ مجلة كلية الآداب، اكادير، ١٩٩٠ ص ٩٥ ومايلها).

(٣) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق زكى محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣، ج١، ص ٦٥٢.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين السادس والسابع الهجرى مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٨، ١٩٥٤، ص ١٠٨.

وأفضل مافي بحث راشيل آرييه حديثها عن البلوى وابن بطوطه فقد تناولت رحلتيهما بشيء من النقد والتحليل بخلاف دراستها السابقة لأبي حامد الغرناطى وابن جبير والعبدرى وابن رشيد التى اقتصرت على مقدمة كتبهم المنشورة. وكنت أتمنى لو ختمت دراستها بالاشارة إلى رحلة أبى الحسن على بن محمد القلصادى القرشى البسطى المتوفى سنة ٨٩١هـ. وقد ولد القلصادى فى مدينة بسطة الواقعة شمال شرقى غرناطة والتابعة لكورة جيان، وبها نشأ وتلقى علومه الأولى على أيدي شيوخها أبى بكر البياز، وأبى عبد الله محمد بن محمد البيانى وأبى أحمد جعفر ابن أبى يحيى، وأبى الحسن على اللخمى القرىاتى. وكان خلال اقامته ببسطة يتردد على غرناطة عاصمة المملكة. وقد بدأ القلصادى رحلته الحجازية سنة ٨٤٠هـ. فزار تلمسان وتلقى العلم على اعلامها وقضى نحو ثمان سنوات أثناء ذهابه يضاف إليها ثمانية أشهر فى طريق عودته للأندلس. أما تونس فكانت المركز العلمى التالى الذى حل به وأقام بها مدة سنة كاملة، وعمل أثناء اقامته بها بالتأليف فقد صنف آنذاك كتابه «كشف الجلباب عن علم الحساب» وكتابه «القانون فى الحساب» وكتابه «الكليات فى الفرائض» ثم مضى فى طريقه إلى القاهرة عبر جربة فطرابلس الغرب فالإسكندرية وكانت اقامته بالقاهرة قصيرة نسبيا اذ لم تتجاوز الستة أشهر الا بقليل، ثم رحل إلى الأراضى المقدسة وهناك صنف كتابا فى الفرائض وهو «شرح فرائض ابن الحاجب المراغى» الذى أجاز القلصادى فى أسانيده على كتب الأحداث. وقد شغلت هذه الرحلة خمس عشرة سنة رحل بعدها القلصادى إلى غرناطة حيث استقر، وتواصل عطاءه العلمى، واشتغل بالتأليف والتدريس رغم الاضطراب السياسى الذى كان يحتاج مملكة غرناطة فى هذه الفترة الحرجة. وعندما أحس القلصادى بالاختار تحيط ببلاده، رحل إلى باجة أفريقية حيث واصل نشاطه العلمى، وكانت باجة من أكثر المراكز العلمية بتونس ازدهارا وكانت بها جالية أندلسية ومغربية.

بنو سراج وزراء بني نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية

بنو سراج وزراء بنى نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية

أولاً- بنو سراج فى المصادر التاريخية:
بنو سراج، أصلهم وبداية ظهورهم:

يقترن اسم بنى سراج بحوادث مملكة غرناطة فى أيامها الأخيرة، فقد كانوا من اشرف بيوتاتها، وتولى بعضهم الوزارة لسلطين بنى الأحمر ولعل أبرزهم، «يوسف بن سراج» الذى تولى الوزارة للسلطان أبى عبد الله محمد بن نصر المعروف بالأيسر^(١). وفى عهد هذا السلطان قام بدور كبير فى توجيه سياسة السلطنة، فقد كان هذا الوزير النابه، واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبار رجال دولته، ومنذ ذلك التاريخ ظهر بنو سراج بغرناطة كأنداد للسلطين، والمحركين لخيوط الأحداث على المسرح السياسى. وكان بأيديهم النخل والربط فى جميع مناحى الحياة الأدبية والمادية. وبنو سراج من أعرق الأسرات الأندلسية العربية التى نزلت الأندلس فى تاريخ غير معروف على وجه الدقة، ولكن اسمهم ورد أول مرة مرتبطا ببجانة، فقد ذكر الحميرى فى الروض المعطار فى سياق وصفه لهذه المدينة أنها «مدينة بالأندلس كانت فى قديم الدهر من أشرف قرى أرش اليمن، وأنما سمى الإقليم أرش اليمن لأن بنى أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بنى سراج القضاعيين فى هذا الإقليم وجعلوا إليها حراسة مايليهم من البحر حفظ الساحل...»^(٢).

ويذكر المؤرخون أن بنى سراج القضاعيين استمروا يقومون بحماية الساحل فتمتعوا فى مقابل ذلك باستقلال جزئى، كما أصبح لهم الحق فى استغلال وادى أندرش الذى كان يعرف فى العصر الإسلامى باسم وادى بجانة، وظلوا على ذلك الحال فأقاموا لهذا الغرض برجاً للحراسة بالقرب من مصب وادى بجانة فوق المرتفع الذى تقوم عليه قصبة المرية فى الوقت الحاضر باعتبار أن هذا المرتفع كان أصلح المواقع لهذا الغرض، وسموا هذا المحرس باسم «مرية بجانة»، واتخذها العرب رباطاً وابتنت فيها محارس للرباط^(٣).

ويتضح لنا من ذلك النص أن الحميرى يرجع أصل بنى سراج الى قبيلة قضاة

اليمنية، ويتفق معه فى ذلك المقرئ الذى ذكر نقلا عن ابن غالب ان بنى سراج كانوا من أعيان أهل قرطبة، وأرجعهم بدوره الى أصول يمنية، وان كان قد نسبهم الى مذحج وطى^(٤)، بينما يرجعهم ابن بسام فى الذخيرة الى كلاب بن ربيعة، ويذكر انه أصاب سلفهم سباء قديم صيرهم أولا فى ولاء بنى أمية بالمشرق فكانوا فى مقدمة الموالى المروانيين وصدرا فى عظمائهم، ثم اتصلت نباهتهم بالأندلس، كما ذكر ان جدهم الأول الذى ينتمون اليه هو سراج بن قرة الكلابى صاحب الرسول ﷺ، مما اكسبهم شرفا ومجدا وسؤددا عبر التاريخ الإسلامى كله^(٥). ويتفق ابن حزم مع ابن بسام فى هذا النسب فقد أورد ما يشير الى ان سراج بن قرة ينتمى الى بنى عبد الله بن كلاب^(٦). وعلى هذا النحو نجد أنفسنا امام فريقين يختلفان فى نسب بنى سراج أما الأول فيرجعه الى أصول يمنية إما الى قبيلة قضاعة على حد قول الحميرى او الى مذحج وطى كما يذكر المقرئ. واما الثانى فينسبهم الى بنى كلاب بن ربيعة الذى يرجعون أساسا الى مضر ويدخلهم فى ولاء بنى أمية بالشام وهو ما ذكره كل من ابن حزم وابن بسام. ونميل الى الأخذ برأى الفريق الثانى الذى يرجع اصل بنى سراج الى كلاب للأسباب التالية:

١- ان رأى الحميرى الذى ينسب بنى سراج الى أصول يمنية من قضاعة لا يستند على أسس قوية لأن نفس نسبة قضاعة الى اليمنية مشكوك فيها، فقضاعة هم قضاعة بن عدنان فى قول، وقضاعة بن حمير فى قول آخر^(٧)، وقد أشار ابن حزم الى هذه الحقيقة فى أكثر من موضع من كتابه «جمهرة أنساب العرب» فهو يذكر ان قضاعة بن معد بن عدنان أو قضاعة بن مالك بن حمير، وينهى حديثه بعبارة «والله أعلم»^(٨). وفى موضع آخر يقول ابن حزم «ولد مضر الياس بن مضر، وقيس عيلان مضر، أمهما أسماء بنت سود بن أسلم بن الحارث بن قضاعة»^(٩).

٢- يتفق الخبر الذى أورده كل من ابن حزم وابن بسام من ان بنى سراج ينتسبون الى سراج بن قرة الكلابى صاحب رسول الله ﷺ وأنهم دخلوا فى ولاء

بنى أمية فأصبحوا من الموالي الروانين، مع الأحداث التاريخية والأدلة المنطقية، فكون بنى سراج قد دخلوا فى ولاء بنى أمية بالشام يفسر قول الحميرى ان الأمويين أنزلوا بنى سراج القضاعيين على السواحل لحمايتها، فالأمويون فى هذه الحالة، كانوا يثقون فى بنى سراج اولا لمقدرتهم البحرية بعد دخولهم فى ولاء بنى أمية بالشام منذ فترات طويلة، تمرسوا خلالها على حياة البحر وثانيا لثقتهم فى اخلاصهم. وربما اختارهم بنو أمية لحراسة السواحل الأندلسية مع بنى الأسود اليمنيين لإيجاد نوع من التوازن القبلى فى هذه السواحل.

٣- من الثابت تاريخيا فى المصادر ان بنى سراج سيظهرون فى قرطبة زمن الخلافة وسيبرزون هناك فى كافة المجالات وخاصة فى الحياة الأدبية كما سنوضح على الصفحات التالية وهذا ما يذكره المقرئ نفسه^(١٠)، ثم نجدهم ينتقلون الى غرناطة عند سقوط قرطبة فى ايدي القشتاليين^(١١). ونسأل لماذا أثر بنو سراج التوطن فى غرناطة بالذات بعد رحيلهم من قرطبة، دون اى مدينة اخرى من مدن الأندلس التى كانت لاتزال فى حوزة المسلمين؟؟ ونستند فى الأجابة على هذا التساؤل الى نص أورده المقرئ نطالع فيه «ان كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بغرناطة كثير^(١٢)». وهذا الخبر يتفق تماما مع رأينا فى نسبة بنى سراج الى كلاب، فهم قد اختاروا الموضع الذى كانت تنزل فيه كلاب التى ينتسبون اليها بدافع من الإعتزاء بعصبية الإلتواء الى هذه القبيلة. كذلك أورد المقرئ فى موضع آخر من كتابه خبرا نقله عن الشقندى مفاده ان غرناطة كان يطلق عليها اسم «دمشق الأندلس» لتشابه طبيعتها الجغرافية مع دمشق ولنزول جند دمشق بها فسموها باسمهم لتشابهها مع بلدهم فى القصر والنهر والزهر والغوطة وغزارة الأمطار وكثرة الأشجار^(١٣). وهذا الخبر يتفق مع ما أورده ابن بسام من نسبة بنى سراج الى كلاب المواليين لبنى أمية فى الشام فبطبيعة الحال مال بنو سراج الذين كانوا موال للأمويين فى بلاد الشام الى غرناطة أو دمشق الأندلس.

وعلى هذا الأساس تصبح نسبة بنى سراج الى كلاب بن ربيعة على حد قول ابن بسام، وابن حزم اكثر قبولا من نسبتهم الى أصول يمنية من مذحج وطى وهو ما ذكره المقرئ، ونعتبر فى هذه الحالة ان قضاة التى ينسبهم اليها الحميرى عدنانية. ومن الجدير بالذكر ان رجالا يتسمون باسم «السراج» أو ينتمون الى أشخاص يحملون الاسم قد جاء ذكرهم فى حوادث الأندلس فى العصر الأموى، فابن حيان يورد خبرا يقع فى احداث عام ٢٧٨هـ (٨٩١م) يذكر فيه انه فى عهد الأمير عبد الله، دخلت جيوشه الأميرية الى جيان وأخذوا منها الثائر المعروف «بالسراج» من أصحاب عمر بن حفصون وحملوه الى قرطبة حيث صلب^(١٤)، ثم تكرر ذكر ثائر آخر يحمل هذا النسب ثار سنة ٢٨٥هـ (٨٩٨م) على الأمير، هو «أبو على السراج» المعروف بالزاهد^(١٥). واستفحل خطره فيما بعد فقد انضم الى ابن القط الثائر القرشى بغرب الأندلس فى سنة ٢٨٨هـ (٩٠٠م). وكان ابو على السراج الزاهد هو الذى يدعو لابن القط ويحرضه على الثورة ضد الحكومة المركزية بقرطبة^(١٦)، وكان ابو على السراج يتردد على مناطق الثوار ثم يعود الى قرطبة مرة أخرى^(١٧).

واذا توقفنا قليلا امام حركة ابن القط القرشى، نجد ان هذا الثائر هو «ابو القاسم احمد بن معاوية بن محمد المعروف بالقط الذى يرتفع نسبه الى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، وكان من المهتمين بالعالم وخاصة علم الفلك والنجوم، وقد خرج على الأمير عبد الله داعيا بالمعروف ناهيا عن المنكر ومطالبيا بالجهاد فى سبيل الله^(١٨)، ونفسر انضمام «ابى على السراج» الى حركته الى رابطة الولاء القديم التى كانت تربط بين بنى سراج او سراج وبين الأسرة الأموية؛ ولعل هذا التحالف بين ابن القط والسراج يساعد على ترجيح نسبة بنى سراج الى كلاب ودخولهم من ولاء بنى أمية. ويذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ان اخليفة هشام المؤيد ولى على قضاء الجماعة سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) القاضى «سراج بن عبد الله بن سراج» أحد أفراد هذه الأسرة البارزة^(١٩).

ونستنتج مما ذكره ابن بسام في الذخيرة ان بنى سراج واصلوا الإحتفاظ زمن الفتنة بمكانتهم السامية، يقول ابن بسام «بل اقتصروا على مكاسبهم الطبية، وترقيح رفيع معاشهم من فاشى ضياعهم المنتشرة المغلة، مقتعدين غارب الوقار والتجلة ايام الصلاح وزمان الجماعة ثم استمروا على طريقتهم تلك فى مدة الفتنة وأمد المحنة عند تقلص الأموال وذهاب الأحوال وفشوا الإحتلال، لم يفارقوا مع تنزل الأقدام وتقلب الأيام وذهاب السلطان، وتضعض الأركان مركزهم من الصيانة، ولاأخلوا بكريم عادتهم من التحلى بها والتزين بياهر رونقها...»^(٢٠). وقد برز عدد من ابناء هذه الأسرة فى مجالات السياسة والأدب نذكر من أبرزهم الإمام الفقيه «سراج بن عبد الله بن سراج» الذى ظلت رواياته وعلومه تدرس فى المغرب والأندلس حتى ان الشيخ القاضى أبا الفضل بن عياض أخذ عنه وعن رواياته. أما ولده الوزير الفقيه «ابو مروان عبد الملك بن سراج» فكان من الملع وأشهر أفراد هذه الأسرة.

وقد ولد هذا الفقيه فى ربيع الأول لاثنتى عشر ليلة خلت منه سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وتوفى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م)^(٢١). وقد وصفه ابن بسام بأروع الصفات من ذلك أنه «فد العصر وعلم الفخر، وبقية حسنات الدهر، ونخبة أهل التقدم فى شرف النصاب وكرم الأحساب...»^(٢٢). وقد أحيا ابو مروان عبد الملك بن سراج كثيرا من الدواوين الشهيرة الخطيرة التى أحالتها الرواة الذين لم تكمل لهم الأداة ولا استجمعت لديهم تلك المعارف والالات، واستدرك فيها أشياء. مما نسيها مؤلفوهم ككتاب «البارع» لأبى على البغدادى، وشرح «غريب الحديث» للخطابى وقاسم بن ثابت السرقسطى، وكتاب «أبيات المعانى» للقتبى، وكتاب «النبات» لأبى حنيفة، وكتاب «الأمثل» للأصبهاني وغير ذلك^(٢٣). ووصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بأنه كان ثقة صدوقا، وأنه كان من أساتذة الوزير أحمد بن خلف بن عبد الملك الفسائى القليعى، وزير ابن بلقين صاحب غرناطة^(٢٤). كما درس للفقيه أبى جعفر محمد بن حكم بن محمد بن احمد بن باقى الجذامى من أهل سرقسطة الذى استوطى غرناطة زمنا ثم تركها الى فاس^(٢٥)، وكان من تلاميذه

المقرئ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن دري الخطيب بجامع غرناطة والمتوفى فيها في رمضان سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) وكان قد أخذ عنه وعن ولده سراج من بعده (٢٦).

وعندما توفي الوزير «ابو مروان بن سراج» صلى عليه ولده الوزير الفقيه «ابو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج» الذي وصفه ابن بسام بأنه «تاليه في الفضل وكرم الخلال مع سرى الخصال وجائز ميراث مفاخره الجمّة...» (٢٧). وأثارت وفاة عبد الملك بن سراج الحزن في اوساط العامة والخاصة على السواء، وورثاه عدد كبير من كبار الشعراء في الأندلس أمثال الشيخ فقيه أبو بكر بن خازم، والوزير الفقيه ابو عبد الله جعفر بن محمد بن مكى بن ابى طالب القيسى، ومما جاء في قصيدة نظمها الأخير في رثائه:

أودى سراج المجد وابن سراجـه فلنور شمس المكرمات أفول
لو كان علم الدين يبكى ميتا لبكى الحديث عليه والتنزيل
كم من حديث للنبي أبانه فبدت له غرر ترى حبول (٢٨)

كما ابنه الوزير الكاتب «ابو محمد عبد المجيد بن عبدون»، والوزير «ابو بكر محمد بن ذى الوزارتين، الكاتب ابى مروان بن عبد العزيز» والكاتب أبو الوليد احمد بن عبد الله بن طريف» وورثاه الأديب «ابو العباس احمد بن محمد الكنانى» احد تلامذته الآخرين عنه بقصيدة اولها:

رزد تطلبت فيه الصبر فامتنعا ورمت دمعى على التسكين فاندفعا
وقال فيها:

حديث صدقي نعى الناعى الي ضحى فزعت فيه الى التكذيب حين نعى
صبرا سراج فما يبقى الردى احدا كل سيجرعه من كأسه جرعا (٢٩)
أما ابنه سراج فقد ورد اسمه في كثير من المصادر العربية على انه من بين الشيوخ الذين درسوا للقاضى عياض بن موسى بن عياض السبتي (٣٠). ولكننا

نلاحظ ان المصادر العربية تختلف في ذكر كنيته فهو في قول ابن الخطيب «ابو الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج» كما ورد في اكثر من موضع من كتابه الإحاطة^(٣١)، بينما كناه كل من ابن خاقان وابن بسام والمقرى «بأبي الحسين»^(٣٢). ونميل من جانبنا الى ترجيح كنيته بأبي الحسين لأن ابن خاقان كان صديقا له ولوالده وروى عنه كثيرا من الحكايات. وكان ابن خاقان يلتقى مع والده ابي مروان في منزل الوزير ابي عامر بن شهيد^(٣٣). ويروى ابن خاقان كثيرا من الأخبار عن ابي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج فيذكر منها انه كثيرا ما كان يلقاه مع الوزير ابن شهيد ويقصد بعض اخباره فيقول كنا «نحضر مجلس شرايه ولا نغيب عن بابه، وكان له بباب الصومعة من الجامع لا يفارقه أكثر نهاره ولا يخليه من نثر درره وازهاره...» وروى عنه حكاية طريفة فقال «فقد منه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه وأئمة سلوانه وقد حفوا به ليقطفوا نخب أدبه وهو يخلط لهم الجذ بهزل ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جزل، وإذا بجارية من اعيان أهل قرطبة معها من جواربها من يسترها ويواربها، وهي خائفة ممن يرقبها مترقبة وأمامها طفل لها كأنه غصن أس أو ظبي يمرح في كناس، فلما وقعت عينها على ابي عامر ولت سريعة وتولت مروعة، خيفة ان يشبب بها او يشهرها باسمها فلما نظرها قال قولا فضحها به، وشهرها» وقد أورد ابن خاقان بعض ابيات من الشعر في ذلك^(٣٤). وتوفي ابو الحسين^(٣٥)، سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وهو في التاسعة والستين من العمر. كذلك يورد ابن خاقان خبرا عن ابي الحسين سراج عند ترجمته للأديب ابي بكر عبد المعطى بن محمد بن المعين، فيذكر ان ابا الحسين سراج كان يأتي لأبي بكر بكل ما يبغي «خيفة من لسانه ومحافظة على احسانه، ولما خرج الى اقلنس خرج معه وجعل يساير من شيعه فلما حصلوا بفحص سراق وهو موضع توديع المفارق للمفارق قرب منه ابو الحسين بن سراج لوداعه وأنشده في تفرق الشمل:

هم رحلوا عنا لأمر لهم عنا فما احد منهم على احد هنا
وما رحلوا حتى استقادوا نفوسنا كأنهم كانوا احق بها منا
فيا ساكن نجد لتبعد داركم ظننا بكم ظنا فأخلفتم ظنا^(٣٦)

ويصفه ابن بسام بأنه اسم «وافق سماه ولفظ طابق معناه فانه سراج علم وأدب
ويحر علم لغة لسان العرب واليه في وقتنا هذا بحضرة قرطبة شد الاقتاب وانضاء
الركاب في الاقتباس منه، ثم انه في هذا الفن الذى نحى فى اقامة اوده زمامه
وخطامه فى يده ولنظمه ونثره ديباجة رائعة وهو القائل:

لما تمكن من فـؤادى منزلا وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسمرحما من عبـرة أفضت بأسرار الضمير اليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله يا من يخرب بيته يديه^(٣٧)

ومن قرأ على أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج، محمد بن ابراهيم
بن محمد بن ابراهيم البلفيقى ابن الحاج^(٣٨)، وروى عنه الفقيه النحوى الأديب،
ابو الحسن محمد بن احمد بن محمد بن أبى خيثمة الجبائي بعد ان صاحبه
صحبة مؤاخاة^(٣٩)، وأبو جعفر احمد بن عبد النور بن احمد بن راشد^(٤٠). وأبو
القاسم احمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبد الله بن ورد المعروف بابن
ورد^(٤١)، وعبد الرحمن بن عبد الله بن احمد بن فتوح الخثعمى المقرئ المجرد
المحقق المتوفى بمراكش سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م)^(٤٢). ومن روى الحديث عنه
الفقيه الكبير محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الجد الفهرى
الذى وصفه ابن الخطيب بأنه «جليل اشيلية وزعيم وقته زمن الموحدين»^(٤٣). ويورد
المقرئ نماذج من أشعار احد بنى سراج النابهين وهو الشاعر «ابو عبد الله بن
السراج» الذى كانت بينه وبين الشاعر ابى الحسن بن الغليظ المالقي اجازة، وفى
ذلك يقول المقرئ «قال ابو الحسن بن الغليظ المالقي، قلت يوما للأديب ابى عبد

الله بن السراج الملقب^(٤٤). ونحن على خير ماء أجز: شربنا على خير ماء كأنه
خبره فقال مبادرا: بكاء محب بان عنه حبيب...^(٤٥). كما كتب ابو على الحسن
بن الغليظ الى صاحبه ابي عبد الله بن السراج وقد قدم من سفر:

يامن أقلب طرفي في محاسنه فلا ارى مثله في الناس انسانا
لو كانت تعلم ما لقيت بعدك ما شربت كأسا ولا استحسنت ريحا
فرد عليه من حينه وقال:

أردت مجاوبتك فخفت ان أبطى وصنعت الجواب في الطريق^(٤٦). وفي القرن
الثامن الهجري برز من بنى سراج الشيخ الفقيه «ابو زكرياء يحيى ابن السراج» الذي
كتب فهرسة تضمنت تراجم أهم علماء عصره، ومن بينهم القاضي على بن
محمد بن عبد الله النباهي الملقب. وقد وصف ابن سراج النباهي في فهرسته بأنه
«الشيخ الفقيه، الراوية، قاضي الجماعة بالأندلس وخطيبها»^(٤٧). كما ذكر اساتذته
ومن أخذ عنهم وانه قدم رسولا لفاس عامي ٧٦٧هـ، ٧٨٨هـ (١٣٦٥م).
١٣٨٦م).

وقد كتب الإمام يحيى بن السراج، نسخة من كتاب «الشفاء» بخطه وتلقى
علومه على الشيخ العارف محمد بن عباد^(٤٨). ووصلنا من أبناء هذه الأسرة اسم
طبيب شهير هو الطبيب «عبد الله بن سراج» من اعلام القرن الثامن الهجري وقد
تتلمذ على يديه ابو عبد الله محمد بن على بن فرج القربلياني المعروف^(٤٩)
بالشفرة. وفي القرن التاسع الهجري برز الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن
يحيى السراج، حفيد الفقيه ابي زكرياء يحيى بن سراج. ومن أبرز ما رواه ابو عبد الله
محمد بن سراج، حديثا للرسول ﷺ بشأن مدينة سبتة رواه عن ابن عمر ومفاده
«مدينة بالمغرب سمعت رسول الله ﷺ يقول انها على مجمع بحرى المغرب،
وهي مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام، واشتق لها اسما من
اسمه، فهي سبتة، ودعا لها بالبركة والنصر فلا يريد احد بها سوءا إلا رد الله دائره

السوء عليه»^(٥٠). ومن برز من بنى سراج فى هذا القرن الفقيه «أبو القاسم بن سراج الغرناطى» ويذكر المقرئ ان ابا عبد الله بن مرزوق المعروف بالحفيد، الذى أدرك القلصادى فى رحلته، كتب عدة تأليف من بينها كتابه «المعراج الى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج» فى كراسة ونصف، وأجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطى على مسائل نحوية ومنطقية^(٥١).

وما دمنّا قد تقصينا اصل بنى سراج، وأبرز من تسمى او تنسب باسمهم، فعلينا ان نتوقف قليلا لمعرفة حقيقة نسبهم، هل ينتسبون الى السراج بفتح السين وتشديد الراء ام الى سراج بتشديد الراء او سراج بفتح الراء. والواقع ان المصادر العربية استخدمت هذه الصور الأربعة للإسم فالمقرئ مثلا يذكر ابو الحسين سراج ابن عبد الملك فى ازهار الرياض على انه «ابن سراج»^(٥٢). دون اضافة (أل) تعريف او تشديد الراء ولكنه فى مواضع اخرى من كتابه يذكر اسم ابى زكرياء يحيى احد افراد هذه الأسرة على انه «ابن السراج»^(٥٣). كما ذكر منهم الشاعر «ابا عبد الله بن السراج»^(٥٤). بالتشديد واطافة أل التعريف؛ فى حين انه ذكر «ابا القاسم بن سراج» دون التعريف او تشديد الراء^(٥٥). ويذكر ابن الخطيب اسم ابى مروان عبد الملك بن سراج فى اكثر من موضع من الإحاطة دون حرفى الألف واللام للتعريف، ودون تشديد الراء^(٥٦). ولكنه عندما يتحدث عن ولده أبى الحسين يذكره فى بعض الأحيان على انه «سراج بن سراج»^(٥٧). وفى أحيان اخرى على انه «ابن السراج»^(٥٨). وكان ابن حيان كما سبق ان ذكرنا قد أورد أسماء الثوار من هذه الأسرة، على الأمير عبد الله على أنهم من بنى «السراج» باضافة أداة التعريف مع التشديد على حرف الراء^(٥٩). أما ابن بسام وابن خاقان فيذكر ان الإسم مجرداً من «ال» للتعريف ومن الشدة فوق الراء^(٦٠).

هذا وقد عثر على شاهدى قبر لفارسين من بنى سراج سنتحدث عنهما بالتفصيل فى الصفحات التالية، نقش عليهما اسم السراج بتشديد الراء مع اضافة التعريف^(٦١). كما ان المصادر الإسبانية تذكر الإسم على انه "Abencerraje"

كترجمة للإسم العربى «سراج» بتشديد الراء وذلك وفقا لما ورد فى قصة ابن سراج التى دونت فى غرناطة بعد سقوطها فى أيدي الملكين الكاثوليكيين بسبعين عاما، وكما ورد فى كتاب Guerras Civiles De Ginez Perez De Hita الموسوم ب Granada. ويذكر كل من لويس سيكودى لوثينا وراشيل أرييه بنى سراج مضافا اليه حرفى «أ» و «ل» للتعريف مع ازدواج حرف "R"، وفسرا المعنى بأنهم أبناء صانعى السروج^(٦٢). ومنه اشتق الإسم الإشباني Abencerrajes. ونميل من جانبنا الى الأخذ بالصورة التى أوردها كل من ابن بسام وابن خاقان للإسم وهو «بنو سراج» دون التعريف والتشديد دون التعريف والتشديد، إذ أخذنا فى الاعتبار ان ابن خاقان كان معاصرا لإثنين من أبناء هذه الأسرة كما سبق ان ذكرنا، هما ابو مروان عبد الملك ابن سراج، وابنه سراج بن عبد الملك فهما أقرب الى هذه الأسرة من أى مصدر آخر، وتضيف الى ذلك ان الجد الأول لهذه الأسرة هو «سراج بن قرة»، وعلى هذا الأساس يصبح اسم الأسرة المرجح فى تصورنا هو «بنو سراج» وليس السراج بن قرة، وعلى هذا الأساس يصبح اسم الأسرة المرجح فى تصورنا هو «بنو سراج» وليس «السراج» وربما يكون حرفا «ال» للتعريف والتشديد على الراء قد أضيفا تسهيلا على عامة الناس فى النطق.

بنو سراج وزراء سلاطين غرناطة:

مرت مملكة غرناطة الإسلامية فى الفترة ما بين عامى ٧٦٠ - ٧٦٣ هـ (١٣٥٤-١٣٦٢م) بأزمات سياسية واقتصادية عنيفة جعلتها عرضة لانقلابات متعددة، ومن أشهر هذه الانقلابات ثلاثة متتابة راح ضحيتها عدد من الملوك والقادة والأمراء. وقد حدث الانقلاب الأول فى ٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ (٢١ اغسطس ١٣٥٩م) وانتهى بخلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله (ابى عبد الله محمد بن ابى الحجاج يوسف بن نصر) ونفيه الى المغرب، وتولية اخيه ابى الوليد اسماعيل الثانى. اما الانقلاب الثانى فقد وقع فى ٨ شعبان سنة ٧٦١ هـ (٢٤ يونيو ١٣٦٠م) وانتهى بمقتل السلطان ابى الوليد اسماعيل الثانى، واعتلاء قاتله

الرئيس ابي عبد الله محمد الغالب بالله عرش السلطنة^(٦٣) أما الإنقلاب الثالث فينتهى بعودة السلطان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله بعد مقتل السلطان الغالب بالله المعتصب، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٦٣هـ (١٦ مارس ١٣٦٢م)

وقد رفضت كبار الشخصيات الغرناطية التعاون مع السلطان المعتصب ابي عبد الله محمد، الغالب بالله، ففرت اعداد كبيرة من تلك الشخصيات البارزة من غرناطة هربا من بطشه نذكر منهم الأمير أبا الوليد اسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس وصهره، الذى فر الى بلاد المغرب، والشيخ المغربى يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الحق شيخ الغزاة المغاربة بغرناطة الذى فر الى البلاط المرينى بفاس كذلك يشير ابن الخطيب الى فرار زعيم غرناطى شهير يدعى «ابراهيم السراج» الى بلاط ملك قشتالة^(٦٤) ويعلق الدكتور احمد مختار العبادى على ذلك بأنه لايعرف عن هذا الزعيم شيئا، ويفترض ان يكون من أسرة بيس سراج Abencerrajes المعروفة فى الأندلس^(٦٥) ونلاحظ ان اسم بنى سراج سيرتبط بدءا من هذا التاريخ ارتباطا وثيقا بحوادث مملكة غرناطة خاصة بعد وفاة السلطان محمد الخامس عام ٧٩٣هـ (١٣٩١م) عندما تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف، فقااست المملكة كثيرا من جراء الدسائس والفتن والمؤامرات حول العرش^(٦٦) وفى عام ٨٢٠هـ (١٤١٧م) توفى السلطان يوسف الثالث بعد حكم دام نحو تسعة اعوام فتوالى على عرش غرناطة بعده عدد من السلاطين الضعاف أولهم ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر، الذى كان صارما قاسيا بعيدا عن الإهتمام برعيته ومصالحهم^(٦٧). وعندئذ بدأ نجم بنى سراج السياسى يتألق على المسرح السياسى فى غرناطة، فالسلطان الأيسر قد اتخذ من بين ابناء هذه الأسرة وزيرا له هو «يوسف بن سراج» وكان بنو سراج قد ساعدوا الأيسر منذ البداية فى الظفر بالسلطنة^(٦٨) وقام يوسف بن سراج بدور كبير هام فقد كان يعتبر الوسيط الوحيد بين السلطان الأيسر وشعبه وكبار رجال دولته، فكان يعمل ببراعة تامة ورقة على تلطيف حدة السخط العام على سلطانه الأيسر

ولهذا السبب يبدأ دور بنى سراج منذ ان اعتلى الأيسر دست السلطنة فى الظهور والتقدم على القادة والزعماء الذين يحركون الأحداث السياسية بأعظم نصيب ورغم محاولات الوزير الشهير «يوسف بن سراج» المتواصلة لتهدئة الأمور، إلا انها لم تثمر فى تخفيف سخط الأهالى على الأيسر بل على الضد من ذلك فقد احترمت نيران الثورة عليه ولم يلبث ان خلع من السلطنة ثم استرجعها اكثر من مرة، من ذلك ما حدث سنة ٨٣١هـ (١٤٢٨م) عندما انتهز أهالى غرناطة فرصة غزو القشتاليين لبسائط وادى آش، فقاموا بثورة عارمة انتهت بخلع الأيسر ومبايعة الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث الملقب بالزغير^(٦٩). مما اضطر الأيسر الى الرحيل مع اهله الى تونس فنزل ضيفاً على السلطان أبى فارس الحفصى^(٧٠).

وفشل الأمير محمد الزغير فى القضاء على الدسائس والفتن المستمرة رغم فروسيته وقدراته العالية، وكان السبب وراء فشله هذا يرجع الى «بنى سراج» ألد خصومه واكثر الموالين من بيوتات غرناطة للسلطان المخلوع، الأيسر، لذلك قام الزغير بمطاردة هذه الأسرة العريقة وعمل على سحقهم واستئصال نفوذهم القوى المستشرى فى جميع أنحاء المملكة مما دفع الوزير يوسف بن سراج الى مغادرة غرناطة مع عدد كبير من أفراد أسرته هرباً من بطش «الزغير». رحل بنو سراج بادئ ذى بدء الى ولاية مرسية ومن هناك انتقلوا الى اشبيلية وكان يتقدمهم يوسف بن سراج الذى لاذ بحماية خوان الثانى ملك قشتالة. وانتهاز خوان الثانى هذه الصراعات ليتدخل فى شؤون السلطنة، ويحرز مكاسب جديدة، فأبدى ترحيبه ببنى سراج وأكرم وفادتهم، واتفق مع يوسف بن سراج على العمل لرد السلطان الأيسر الى عرشه. وبالفعل استدعى بنو سراج، الأيسر فى تونس فاستجاب لدعوتهم، وعاد الى الأندلس مزوداً بفرقة من الفرسان الحفصيين، وتوجه الى المرية ومنها تمكن بمساعدة بنى سراج من استعادة عرشه، وقبض على الزغير وتخلص منه^(٧١).

وهكذا سيطر الأيسر على غرناطة من جديد سنة ٨٣٣هـ (١٤٣٠م) واهتم
 باعادة تنظيم مملكته. وكانت اولى الخطوات التى اتخذها من اجل ذلك، اعادة
 «يوسف بن سراج» الى الوزارة، ويلى ذلك تجديد الهدنة مع قشتالة، ولكن الملك
 القشتالى اشترط على الأيسر دفع اتاوة باهظة، والاعتراف بطاعة قشتالة فرفض
 الأيسر تلك الشروط المجحفة مما أدى الى هجوم القشتاليين على الثغور الغرناطية فى
 غارات مدمرة مما أوقع البلاد فى محنة جديدة، وأفسح المجال لانقسام المملكة الى
 شيعة وأحزاب متنافسة ووجد النصارى فى ذلك فرصة مواتية لاذكاء نيران الفتن
 وبسط سلطانهم على مملكة غرناطة. وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمى
 الى بيت الملك عن طريق أمه هو الأمير ابو الحجاج يوسف بن المول الذى تسميه
 المصادر الإسبانية (Abenalmao) (٧٢). وكان ابن المول يتمتع بتأييد الملك القشتالى
 خوان الثانى لأنه تعهد ان يحكم غرناطة باسمه وان يدخل فى طاعته كما تعهد
 بحضور مجلس الكورتس (الأعيان) معترفا بولائه للملك قشتالة، وان يحارب معه ضد
 اعدائه وان يؤدى له إتاوة سنوية لو ساعده فى الإرتقاء الى دست السلطنة، وعلى
 أساس تلك الشروط عقدت معاهدة بين الجانبين (٧٣). ولم يتردد يوسف بن المول
 فى السير الى غرناطة تسانده قوات قشتالة وتمكن من الإستيلاء على عدة قواعد
 دانت له بالطاعة ومنها رندة ولوشة وحصن اللوز وغيرها، وأعلن خوان الثانى انحيازه
 الى يوسف ونودى به ملكا، وتوجه ابن المول الى غرناطة نفسها فتصدى له جنود
 الأيسر بقيادة وزيره «يوسف بن سراج» الذى انهزم فى تلك المعركة ولقى مصرعه،
 وعلى إثر ذلك دخلت قوات ابن المول غرناطة، فهرب الأيسر مع أسرته الى مالقة
 التى ظلت موالية له، فى حين تربع ابن المول على عرش السلطنة فى سنة ٨٣٦هـ
 (١٤٣٢م) وبعد أقل من سنة توفى ابن المول فاتفقت الأحزاب فى غرناطة على رد
 السلطان الأيسر مرة اخرى (٧٤).

وفور عودة السلطان الأيسر الى عرش غرناطة للمرة الثالثة بادر بعقد معاهدة
 صلح مع ملك قشتالة فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة عام، ورغم ذلك أغار

القشتاليون على أراضي غرناطة الشرقية فردهم المسلمون بقيادة ابن عبد البر زعيم بنى سراج والوزير الجديد للأيسر الذى خلف يوسف بن سراج ثم أوقعوا بهم هزيمة ثانية^(٧٥). عند مدينة أرشدونة وقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م). وفى العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين فى أحواز غرناطة ووادى آش وانتصر عليهم أكثر من مرة، ولكن القشتاليين عاودوا الإغارة على بعض الحصون المجاورة وزحفت قوة كبيرة منهم بقيادة حاكم لبلة على ثغر جبل طارق، ولكن أهالى الثغر تصدوا لهم، فجدد القشتاليون غاراتهم على مقربة من كازورلا والتقى المسلمون بقيادة ابن الوزير (ابن عبد البر) مع القشتاليين فى معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين. ورغم انتصار المسلمين فى موقعة كازورلا إلا ان قائدهم ابن سراج سقط شهيدا فى هذه المعركة فحزنت غرناطة لفقده، لحسن بلائه ولما اتصف به من فروسية وشجاعة^(٧٦). وعلى الرغم من تصدى الأيسر للقشتاليين وانتصاره عليهم عدة مرات إلا انه لم يسلم من مؤامرات خصومه له، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلوذون بحماية ملك قشتالة وعلى رأسهم الأمير يوسف بن احمد حفيد السلطان يوسف الثانى وابن عم الأيسر وهو المعروف فى المصادر القشتالية بابن اسماعيل، فى حين ناصر فريق آخر من زعماء المرية الأمير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله المعروف بالأحنف. ونجح الأحنف فى دخول غرناطة فى سنة ٤٨٥ هـ / ٨٤٦ هـ (١٤٤١ - ١٤٤٢ م) ونادى بنفسه ملكا^(٧٧). ولكن بنى سراج وعلى رأسهم الوزير ابن عبد البر، لم يكفوا عن معارضة الأحنف، وكان ابن عبد البر بن سراج يقيم فى ذلك الوقت فى حصن مونتى فريو الواقع شمال غربى غرناطة، وكان يؤيد الأمير يوسف (بن اسماعيل) المقيم فى بلاط قشتالة.

وتعتبر هذه الفترة من تاريخ غرناطة أكثر الفترات غموضا واضطرابا وتعقيدا فقد اختلف فى سرد تفاصيلها كل من تصدى للكتابة عنها وأهمهم الأستاذ محمد عبد الله عنان والأستاذ الدكتور احمد الطوخى، والأستاذ يوسف شكرى فرحات، ولايهمنا من كل ذلك سوى تتبع دور بنى سراج، فهذا كله يخرج عن دائرة

موضوعنا. ويتفق المؤرخون على ان الصراع الذى دار بين «ابن اسماعيل»^(٧٨)، و «الأحنف» اللذين تبادلوا الجلوس على عرش غرناطة عدة مرات قد انهك قوى الأهالى وأضعف من قوة المسلمين فى الأندلس، وانتهى ذلك الصراع بتولى السلطان سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثانى خلفا للسلطان الأحنف الذى استمر فى الحكم حتى سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) فى قول^(٧٩)، فى حين يرى فريق آخر من المؤرخين ان الأمير سعد هو ابن اسماعيل، ابن شقيق السلطان الأيسر وانه تولى عرش غرناطة بعد الأحنف مباشرة^(٨٠).

وتولى السلطان سعد عرش غرناطة ازدادت الإضطرابات فى البلاد لأنه حاول ان يتخلص من «بنى سراج» الذين كانوا يناصبونه العداء، فعمد الى قتل بعض زعمائهم ومن بينهم وزيره مفرج (٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م) فهرب ولداه محمد وعلى من بنى سراج الى مالقة وبايعا اميرها يوسف النصرى الذى أعلن استقلاله فى مالقة، وزحف الى غرناطة^(٨١)، ثم مات يوسف النصرى سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٤ م) فتنفس سعد لوفاته الصعداء ولكن الى حين، ذلك ان بنى سراج اتصلوا بآبائه أبى الحسن وحرضوه على الثورة على أبيه. ونحن نستقى هذه الأخبار من رواية المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل الحنفى الذى زار المغرب والأندلس فى هذه الفترة المضطربة، وقد روى لنا كل مشاهداته فى مؤلفه المسمى «كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم»^(٨٢). ويذكر عبد الباسط بن خليل ان سلطان الأندلس فى سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ - ١٤٦٣ م)، كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر، وأنه ما كاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده ابو الحسن بتحريض بنى سراج، وأخرجه من غرناطة وامتلكها، فسار سعد الى مالقة وحكم ابو الحسن مكانه. ولما اشتد ضغط النصارى على الأندلس، عاد أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه وأطلق سراحه، واختار سعد الإقامة فى المرية فلم يعترض ولده، ولم يلبث ان توفى الأب فى أواخر هذا العام وعندئذ خلع العرش لأبى الحسن^(٨٣). وقد عانت مملكة غرناطة الى جانب الصراع الدموى العنيف بين أفراد

البيت النصرى من اجل الوصول الى العرش والحفاظ عليه، صراعا آخر اضطرم واشتعل بسبب التنافس بين الأسرات النبيلة القوية، وعلى رأسها «بنى سراج» وبنى الثغرى (Zigris) وبنى أضحى^(٨٤). للظفر بالوزارة. وكان عهد أبى الحسن على بن سعد مثلاً حياً للفوضى الضاربة أطنابها فى أنحاء سلطنة غرناطة، التى نتجت عن الصراعات التى نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة. فأبو الحسن بن سعد نجح فى الظفر بعرش غرناطة بعد صراع مرير ضد والده السلطان سعد ابن الأحمر كما سبق ان ذكرنا، ورغم انتهاء هذه المعركة لصالحه إلا ان الصراعات ظلت متواصلة لم تتوقف، ذلك أنه كان لأبى الحسن اخوان ينافسانه على السلطنة هما ابو عبد الله المدعو بالزغل (El Zagal) اى الشجاع، وابو الحجّاج يوسف الذى توفى فى سنة ٨٧١/٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) بسبب الطاعون وأدى تطلب الزغل الى السلطنة الى نشوب صراع دموى عنيف بين أبى الحسن وبين أخيه الزغل. ولم يكن ذلك الصراع بين الأخوين هو الصراع السياسى الوحيد للظفر بدست السلطنة، فقد امتد الصراع واتسع نطاقه فى البيت الحاكم بحيث أدرك أبناء السلطان أبى الحسن. وقصة هذا الصراع الأخير تتلخص فى ان أبا الحسن على كان قد تزوج من ابنة عمه الأميرة عائشة ابنة السلطان محمد الأيسر^(٨٥). وقد أثمر هذا الزواج عن ثلاثة أبناء هم على التوالى، ابو عبد الله محمد الذى حرقت المصادر الإسبانية كنيته فجعلتها (Boabdil) وأبو الحجّاج يوسف، وعائشة. واتفق ان أغار المسلمون فى احدى معاركهم ضد الإسبان على أرض قريبة من قرطبة وعادوا مثقلين بالغنائم والسبي، وكان بين السبي فتاة بارعة الجمال بيعت فى غرناطة بيع الرقيق، هذه الفتاة هى ايزابيل دى سوليس (Isabel de Solis)، كانت ابنة القائد الفارس دون سانشو خيمينث دى سوليس (Don Sancho Ximenez De Solis) الذى لقي مصرعه فى احدى المعارك التى خاضها ضد المسلمين^(٨٦)، وألحقت ايزابيل وصيفة بقصر الحمراء، واعتنقت الإسلام وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ولم تلبث أن وقعت موقعا حسنا عند السلطان أبى الحسن على فتسرى بها وتزوجها وآثرها

على زوجته عائشة التي تلقت منذ ذلك الحين «بالحرة» تمييزاً لها عن ثريا الإسبانية، وقد أثمر هذا الزواج الأخير عن ثلاثة أبناء أكبرهم كان يسمى سعد والثاني نصر أما الثالث فقد توفي في أحد الأوبئة (٨٧).

ويلق المؤرخ المجهول صاحب نبذة العصر على تلك الأحداث بقوله «فمن جملة انهماك أنه اصطفى على زوجته رومية اسمها ثريا وهجر ابنة عمه وأولادها منه فأدرك ابنة عمه من غيره ما يدرك النساء على أزواجهن ووقع بينهما نزاع كثير وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما وغلظت العداوة بينهما» (٨٨). «... ومن هذا النص يتضح لنا أن حرباً خفية غير معلنة بدأت تشتعل بين الزوجتين الحرة، وأم الولد ثريا، وأصبحت كل منهما تنافس الأخرى من أجل اسناد ولاية العهد إلى ولدها دون الأخرى، وأدى ذلك إلى اضطراب الأوضاع في قصر الحمراء، وهز كيان البيت الحاكم وعجل بالتحلل مملكة غرناطة ومهد لسقوطها. وقد نجحت ثريا الإسبانية في السيطرة على زوجها السلطان أبي الحسن تماماً فأقنعتة باقصاء السيدة عائشة الحرة وولديها عن كل عطف ورعاية، ونجحت في اقناع زوجها باعتقال زوجته الأولى فزج بها مع ولديها في برج قمارش لمنع أبراج قصر الحمراء، وعاملهم جميعاً بمنتهى القسوة والعنف. وقد أثار تصرف السلطان أبي الحسن هذا غضب البيوتات الأندلسية الكبيرة التي كانت تؤثر السلطنة الشرعية وولديها بالعطف والتأييد. وتصف المصادر العربية «السيدة عائشة الحرة» بأنها شجاعة وصلبة كالرجال، فلم تستسلم إلى مصيرها التعس بل عملت على الإنصال بأنصارها وعلى رأسهم «بنى سراج» أقوى أسر غرناطة لتخليصها من الأسر، ودبروا لها وسيلة للفرار من القصر، وتشير المصادر العربية إلى نجاح الأميرين في الفرار من القصر دون أمهما إلى وادي آش، في حين تؤكد الرواية القشتالية فرارهم جميعاً بمساعدة بنى سراج» (٨٩). ولم يغفر السلطان أبو الحسن هذا الموقف لبنى سراج أبداً، وكان ذلك الموقف المساند لولديه من السيدة عائشة الحرة، الدافع الأساسي وراء نكبة رؤساء هذه الأسرة الذين انتهى أمرهم بالقتل في إحدى قاعات

قصر الحمراء. وكانت هذه النكبة من البشاعة والقسوة بحيث أصبحت مجالا خصبا لروايات وأقاصيص شعبية سنتحدث عنها فى الصفحات التالية. بدأ بنو سراج، ومنذ فرار الأميرين من قصر الحمراء، يتخذون موقفا جديدا فى سياسة غرناطة، يتمثل فى تأييد الأمير أبى عبد الله محمد المعروف فى المصادر الإسبانية باسم (Muley Baudili أو Beaudili-Baudili أو Boabdil) ضد والده السلطان أبى الحسن على. ولسنا هنا فى مجال شرح تفاصيل الصراع الذى نشب بين أبى الحسن على، وأخيه الزغل، ولاتفاصيل الصراع بينه وبين ولده أبى عبد الله محمد، وما يهمنا توضيحه هو أنه فى هذا الوقت الذى كان أفراد البيت الحاكم فى غرناطة يتقاتلون ويتناحرون كانت إيزابيلا ملكة قشتالة قد تزوجت من فرديناند الرابع ملك أراجون فتوحدت اسبانيا المسيحية^(٩٠). وازدادت قوتها وبدأت تخطط لتصفية الإسلام نهائيا من الأندلس، أما حكم غرناطة فبدلا من ان يتداركوا الموقف الخطير، ويلوذوا بالوحدة فقد اقبلوا على التحالف مع ملوك المسيحية الواحد ضد الآخر.

وتمكن الأخير ابو عبد الله محمد بن مولاى أبى الحسن من انتزاع عرش غرناطة سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) بمساعدة بنى سراج^(٩١). ولأذ ابوه ابو الحسن على الى أخيه الزغل بمالققة الذى كان قد عقد هدنة معه بعد صراع طويل. وحدث ان انهزم الأمير ابو عبد الله محمد أمام الجيوش القشتالية فى ظاهر قلعة اللسانة Lucena سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ووقع اسيرا فى يد الإسبان ولكن الملكيين الكاثوليكين وافقا على اطلاق سراحه بشرط ان يبذل لهما الطاعة ويدفع جزية سنوية ويتعهد بالإفراج عن أربعمائة من الرهائن النصارى فى غرناطة. وكانت هذه المعاهدة بمثابة حجر الأساس فى القضاء على مملكة غرناطة، وزاد من تعقيد الأمور، احتدام الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة، فقد تولى الزغل حكم غرناطة خلال فترة اسر ابن أخيه أبى عبد الله محمد، واشتد الصراع بينه وبين الأمير يوسف أبى الحجاج بن أبى الحسن شقيق أبى عبد الله محمد، فلما اطلق المكان الكاثوليكين

سراح ابي عبد الله، تجدد الصراع بينه وبين عمه الزغل، وكان رضى البيازين فى الشمال الشرقى من غرناطة مسرحا لهذا الصراع، واستغل العدو هذه الفرصة، وازداد تكالبه على التهام ما بقى من دولة الإسلام فى الأندلس^(٩٢). فتساقطت فى يده معاقل غرناطة الواحد بعد الآخر بدءا بالحامة سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) وحصنا قرطبة وذكويون وعدة حصون أخرى فى الشمال الغربى من مالقة سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م)، وتمكن العدو من عزل مدينة رندة لم تلبث ان سقطت بدورها فى جمادى الأولى من نفس العام ٨٩٠هـ، وسقوطها انهارت المقاومة فى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة ففى سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) استولى العدو على لوشة كما انتهب فرناندو الرابع احتدام الصراع بين الزغل وابن أخيه ابي عبد الله سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٦م) فهاجم مدينة بلش مالقة (Velez Malage) واستولى عليها. ولما كان الملكان الكاثوليكيان قد عقدا معاهدة مع ابي عبد الله محمد، تكفل بمقتضاها لهما ببدل الطاعة والتبعية فقد آثرا عندئذ مهاجمة القواعد الشرقية والجنوبية التى كان يحكمها الزغل الذى كان مسيطرا على وادى آش وعمالها، ولم تلبث المدن الخاضعة له ان تساقطت فى ايدى العدو الواحدة بعد الأخرى الى ان سقطت وادى آش آخر معاقله فى أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ (١٤٨٩م) بعد ان أدرك الزغل عدم جدوى^(٩٣). المقاومة. وهكذا لم يتبق أمام الملكين الكاثوليكين سوى غرناطة، الصفحة الأخيرة التى كان عليهما ان يطوياها طى الكتاب ليختتما بذلك ثمانية قرون استغرقتها حركة الإسترداد المسيحى التى بدأت منذ الفتح الإسلامى للأندلس. وفى سنة ٨٩٥هـ أرسل الملكان الكاثوليكيان الى السلطان ابي عبد الله محمد يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء وقصور صاحبت مقر السلطان والحكم، وسمحوا له بأن يقيم فى غرناطة تحت طاعتها وحمايتها. وأبدى السلطان الغرناطى رفضه لهذا الطلب واضطر الى القتال، ولكن انتصاراته الهزيلة فى أندرش وشلويانية لم تفت فى عضد الملكين الكاثوليكين اللذين حطوا بقواتهما بكل عدتها وعتادها على مدينة غرناطة، واضطر سلطان غرناطة فى نهاية الأمر الى

التسليم بعد ان عقد مع الملكين الكاثوليكين معاهدة أقسما باحترامها دون أى تغيير فى بنودها، ولكنهما لم يحترما هذا القسم كما أثبتت الأيام وأكد التاريخ (٩٤).

وقبل ان نختتم هذه الفترة التاريخية نود ان نشير الى فارسين من أشهر قادة فرسان بنى سراج، بخلاف يوسف بن سراج وابن عبد البر بن سراج. هذان الفارسان تعرفنا عليهما من خلال النقوش المحفورة على شاهدى قبريهما. أما النقش الأول فهو محفور على شاهد قبر للفارس «ابى اسحق ابن الشيخ الوزير الجليل المعظم أبى عبد الله بن السراج» المتوفى فى ١٣ محرم سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٤م)، وكان قائدا من أفضل القواد بمدينة رندة. ويذكر أميليو غرثية جومث أن هذا الشاهد، عثر عليه ليثى بروفنسال، وكان لا يعدو مجموعة من القطع الرخامية المفتتة، لم تتح لليثى بروفنسال ان يتمكن من قراءة النقش الجنائزى لتناثر القطع، ثم آلت هذه القطع الى دون بيدرودى اليا فأرسلها بدوره الى احد قادة الجيش بالجزائر الذى اعطاها لسكربتيره العربى فقرأها له ونص النقش المحفور على الشاهد كل يلى:

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله. هذا قبر الشيخ القائد الوزير الجليل، المجاهد، الأمضى، الأسعد، الأصعد، الأحفل الأفضل، الأكمل، المعظم، الموقر، ذى الهمم الأبية والشيم الزكية المترقى بمكارمه وحسن مذهب به الى الرتب السنية، المقدس المرحوم أبى اسحق بن الشيخ الوزير، الجليل، المعظم، الماجد، الحسيب، الأصيل، الأحفل الأفضل، المبرور، المرحوم ابى عبد اله بن السراج (قدس الله روحه وبرد ضريحه). كان رحمه الله صدرا من صدور القواد، مستعدا للجهاد بارتباط الجياد. لم يزل على ذلك ان قبضه الله اليه، واختار له مالدیه بمدينة رندة (حرسها الله) قائدا على قصبتها مشاغرا لحوزتها بتاريخ الثالث عشر محرم، من عام ستة وستين وسبعماية. ونقل الى الحضرة العلية غرناطة، يحرسها الله تعالى منشأ قراره وأصل داره فدفن بهذه الجبانة من خارجها (تلقاه الله

بالتحية والرضوان وجدد عليه الرحمة بتجدد الأحيان، وكل من عليها فان فسبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا^(٩٥).

ونستنتج من هذا النقش بعض الحقائق، منها ان بنى سراج لم يتولوا الوزارة للملك بنى الأحمر بداية من عهد الأيسر فحسب، بل ان منهم من كان يتولى منصب الوزارة قبل عهد الأيسر، فمن هذا النقش نكتشف وجود وزيرين أولهما الأب ابى عبد الله بن السراج، وثانيهما الابن ابى اسحق بن ابى عبد الله بن السراج، واذا كان الابن أبو اسحق قد توفي سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤م) فنفترض انه تولى الوزارة في عهد احد ثلاثة سلاطين من بنى الأحمر، إما السلطان أبو عبد الله محمد بن ابى الوليد اسماعيل الذى تولى (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) او أخوه السلطان ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد اسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) او السلطان محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ) او اسماعيل الثانى سنة ٧٦٠ هـ او فى الإمارة الثانية لمحمد الخامس (٧٦٢ - ٧٤٩ هـ). أما والده الوزير ابو عبد الله بن السراج فنرجح انه كان وزيرا لأحد سلاطين بنى الأحمر فى الفترة من ٦٥٠ هـ - ٧٠٠ هـ، ونرجح ان يكون ذلك فى عهد محمد الفقيه الثانى (٦٧٢ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠١م) وان لم تكن المصادر قد اوردت اى اشارة لبنى سراج كوزراء فى هذه الفترة. أما النقش الثانى الذى درسه ليثى بروفنسال فى مجموعته تحت رقم ١٨٠ فيتعلق بقائد من بنى سراج هو ابو جعفر احمد بن عبد الله بن السراج المتوفى فى سقطه لجواد فى ٢ شوال سنة ٨٠٦ هـ (١٤ افريل ١٤٠٤م). وقد ظهر هذا النقش فى مجموعة دون ماريانو الونسو فى غرناطة، وبفضل وثيقة محفوظة من مكتبة فرانسكر كوديرة التى تحتويها اليوم مكتبة ميغيل آسين استطاع اميليو غرثية جومث اعطاء مقاسات شاهد القبر كما تتبع اللوحة الجنزية^(٩٦).

بنو سراج بعد سقوط غرناطة:

بعد رحيل السلطان ابي عبد الله محمد من غرناطة الى بلاد المغرب، رحل معه عدد كبير من المسلمين في حين أثر السواد الأعظم عدم مبارحة غرناطة مصدقين الوعود الزائفة التي سجلها المكان الكاثوليكيان في بنود المعاهدة التي وقعها مع السلطان المخلوع ابي عبد الله واثقين بأنهما لن ينكثا بقسمهما وتعهدهما بتنفيذه، الا ان التعصب الأعمى والكراهية الشديدة للإسلام دفعتهما الى النكث بعهودهما والعمل على القضاء على الإسلام في اسبانيا قضاء مبرما وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف اضطنع الإسبان سياسة التنكيل بالعناصر المسلمة واضطهادها ودفعها الى التنصر^(٩٧)، بحيث عرفوا بالموريسكيين أو متنصرة المسلمين.

وما دنا بصدد الحديث عن فترة ما بعد سقوط غرناطة، فمن الواضح ان تاريخ الموريسكيين في اسبانيا قد م بثلاثة مراحل أساسية:

أ- مرحلة الملوك الكاثوليكين، وهي التي حاول الأندلسيون خلالها مواجهة الإضطهاد الذي تعرضوا له وتمسكوا بتنفيذ معاهدة التسليم التي تحفظ لهم حقوقهم، وكان معظم الإضطهاد موجهاً اليهم من قبل رئيس الكنيسة الإسبانية الكاردينال خيمينث دي سيسنيروس (Jimenez De Cisneros Francisco) الذي أرغم أكثر من خمسين ألفاً من المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤ هـ / ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م) كما أمر بالقبض على كبار فقهاء المسلمين والزج بهم في غياهب السجون. وفي سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩م) أصدر أمره بأن يسلم الموريسكيون كل ما لديهم من مخطوطات عربية ومصاحف واحرقها في ساحة المدينة العامة عند باب الرملة، ويقدر بعض المؤرخين هذه المؤلفات التي أحرقت بثمانين ألفاً في حين يبالغ البعض في عددها فيقدرونها بمليون وخمسة آلاف كتاب، كما أجبر الرجال من سكان ريف البيازين الذي تحول مسجدهم الجامع الى كنيسة سان سلفادور على الزواج من مسيحيات كما أجبرت الفتيات المسلمات على الزواج من اسبان

مسيحيين بهدف القضاء النهائي على الإسلام، وكانت هذه الإجراءات السبب الرئيسي وراء انتفاضة أهالي البيازين سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٩ م) ثم ثورة سكان البشرات Alpujarras الأولى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١/١٥٠٠ م) وقد انتهت كلتا الثورتين بالفشل أمام سياسة القمع والإرهاب التي اتبعتها^(٩٨) الإسبان.

ب- مرحلة الملكين شارل الخامس وفيليب الثاني: وتتميز باستمرار إصدار القرارات التي تستهدف ادماج الموريسكيين في المجتمع الإسباني عن طريق ارغامهم على التنصر بكل الوسائل الوحشية.

ج- مرحلة الملك فيليب الثالث: وهي المرحلة الأخيرة من تاريخ الموريسكيين التي انتهت بإصدار قرار الطرد النهائي لباقي الموريسكيين من الأندلس^(٩٩). وفي هذه المراحل الثلاثة قامت البقية الباقية من بنى سراج في الأندلس ممن أثروا البقاء في بلدتهم ولم ينزحوا في جملة من نزح منهم إلى تونس أو المغرب بدور كبير، لاسيما في المرحلة الثانية التي تواكب عصر الملك فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨ م) وهو العصر الذي تجدد فيه سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٧ م) القانون القديم الصادر في عهد الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٦ م) ضد الموريسكيين ويقضى بتحريم اللغة والثياب الإسلامية، وكان ذلك القانون بمثابة الضربة الأخيرة التي وجهت للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية، إذ كان يعطى للموريسكيين الفرصة لتعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات، لايسمح بعدها لأحد ان يتكلم او يكتب او يخاطب أحدا باللغة العربية كما منع هذا القانون النساء الموريسكيات من التحجب، وأرغمهن على ارتداء المعاطف والقبعات كما حرم انشاد الأعاني القومية او اقامة حفلات الزمر (الرقص العربي) أو الطرب بآلات عربية او استخدام العادات والتقاليد الموريسكية وتحريم الخضاب بالحناء واستخدام الحمامات للاستحمام واستعمال الأسماء والألقاب^(١٠٠). العربية. وللأسف لم تسعفنا المصادر العربية المعاصرة لتلك الأحداث بأي تفاصيل عن ذلك، وكل ما وصلنا عن هذه الإجراءات القهرية يعتمد على ما زدتنا به الروايات الإسبانية

«المسيحية» التي اوردت مايشير الى انه بخلاف موريسكى بلنسية الذى كان يتزعمهم كوزمى بن عامر المقرب من البلاط، لم يتمكن احد من الموريسكيين من الإفلات من تنفيذ هذا القانون^(١٠١). وفي غرناطة بلغ اليأس بالموريسكيين أشده فانفقوا فيما بينهم على الثورة دفاعا عن الذات قبل ان تنقطع بينهم وبين ماضيهم كل الصلات.

ولتصوير هذه الأوضاع اعتمد الاستاذ محمد عبد الله عنان على مارمول Marmol فى كتابه Historia de la reblión y castigo de los moriscos en el reino de Granada كما اعتمد الدكتور محمد عبده حتاملة على أهم المصادر الإسبانية المعاصرة كما اعتمد على كتاب المؤلف موريسكى مجهول بالإسبانية، حول الثورة الموريسكية وتهجير الموريسكيين وآثار ذلك التهجير فى جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية Historia del Alzamiento de los Moriscos. Su Espulsión de España y sus consecuencias en todas las provisiones del Reino فزودنا بمادة علمية وفيرة عن رد فعل الموريسكيين فى عام ١٥٦٧م أمام هذا القانون الجائر. أما الدكتور عبد الله جمال الدين فقد اعتمد عند تأريحه لهذه الحقبة على بيريث دى هيتا وروايته الحروب الأهلية فى غرناطة.

ويذكر الدكتور محمد عبده حتاملة انه قبيل نهاية شهر ديسمبر من عام ١٥٦٧م (٩٧٥هـ) وهو الموعد المحدد لكى تتخلى فيه الموريسكيات عن ألبستهن الحرة^(١٠٢)، وإزيائهن الإسلامية وبالزمام الأطفال الموريسكيين بتعليم اللغة الإسبانية والدين المسيحى بدلا من اللغة العربية والإسلام، وبمنع المسلمين من استخدام الحمامات، هرعت وفود موريسكية الى الرئيس ديسا^(١٠٣)، يتقدمهم اسباني كان يتمتع بنوع من التقدير فى الأوساط الموريسكية هو خوان انريكث، وبصحبه اثنان من كبار الموريسكيين هما خوان فرنانث من اعيان غرناطة، وفرناندو الحبقى من أعيان وادى آش، محاولين تعطيل تطبيق القانون الجديد، ولكن كل جهودهم باءت بالفشل أمام مقابلة ديسا المهينة لهم، بل ان ديسا كتب تقريرا

مفصلاً يوحى فيه بتطبيق القانون الجديد بكل عنف وقسوة. فلما استبد اليأس بالموريسكيين ظهر من بينهم شاب كان يعمل صباجاً يدعى فرج بن فرج من أسرة بنى سراج، أشرف بيوتات غرناطة، ساءه ان يعامل الموريسكيون بمثل هذه القسوة، وعز عليه ان يرغم قومه على التخلي عن تقاليدهم الموروثة بكل وسائل القهر فاتصل بمن استطاع من الموريسكيين فى غرناطة عام ١٥٦٨ م (٩٧٦ هـ) (١٠٤). وكان فرج بن فرج بحكم تردده فى معظم الأحيان على أنحاء البشرات وثيق الصلة بأهلها فاتفق معهم على ان تقوم قوة كبيرة منهم بالزحف الى غرناطة لمفاجأة الحامية الإسبانية وسحقها.

ولما كانت الحرب خدعة فقد رأى ابن فرج ان يرسل ثلاثة من اكثر الموريسكيين أمانة وثقة ليبلغوا اخوانهم خارج غرناطة بنيتهم، كما تقدموا بطلب الى الحكومة الإسبانية يذكرون فيه ان غايتهم جمع الأموال لبناء مستشفى خارج غرناطة للمرضى الفقراء واللقطاء المسيحيين تمويهاً على الإسبان، وبهذه الحجة تمكن الموريسكيون الثلاثة من الحصول على ترخيص الحكومة الإسبانية، فخرجوا والتقوا باخوانهم وأبلغوهم ان يتخذوا مراكز لهم على السواحل التى يمكن ان تنزل اليها التعزيزات الإسلامية، لاسيما من المغاربة والعثمانيين الأتراك، ثم عادوا لغرناطة لتنظيم صفوفهم والإعداد لتنفيذ مخططهم واتفقوا فيما بينهم على تحديد يوم الخميس المقدس الموافق ليوم ١٤ افريل ١٥٦٨ م وهو احد اعياد المسيحيين الذى يتواجدون فيه فى الكنيسة موعدا لاشعال نار الثورة. ولكن الخيانة لعبت دوراً كبيراً عندما أقدم بعض عملاء الحكومة الإسبانية ببيع مصلحة دينهم ووطنهم فأبلغوا السلطات بتفاصيل الخطة، وانتهى الأمر بالقبض على عدد من وجهاء الموريسكيين مما ترتب عليه التوقف عن تنفيذها وتأجيل ذلك الى فرصة أخرى موالية، وتوجه فريق منهم الى المحقق دون بيدرو ديسا يعلنون ولاءهم فى الظاهر، وهم فى داخلهم ينتظرون اليوم الذى ينتقمون فيه لأنفسهم وكرامتهم وعرضهم.

واتفق بعض رؤسائهم على الاجتماع فى بيت بائع شمع مسلم يدعى عدل (Adelet) وقرروا ان تبدأ الثورة فى اليوم الأول من شهر جانفى عام ١٥٦٩م (٩٧٧هـ) وابلغوا الموريسكيين فى بقية أنحاء غرناطة بالاستعداد لحمل السلاح، فتجند مايقرب من ثمانية آلاف شخص، وتم الإتفاق على ان تقوم الثورة فى ثلاثة مواقع فى البيازين فى وقت واحد، يحمل الموريسكيون فيها اعلاما يفترض ان يقوم كل حاملى علم بمهمة محددة. فحاملو العلم الاصفر يحتلون ساحة باب البنود، وحاملو العلم الأحمر يحتلون باب فجالونا، ويعدو يتجهون من باب سرى فى اتجاه المستشفى الملكى ثم يسيطرون على محكمة التفتيش ليخلصوا المسلمين المعتقلين هناك، أما حاملو العلم الأزرق فكانت مهمتهم تقتضى البحث عن الرئيس ديسا لقتله على ان تلتقى الفرق الثلاثة فى ساحة باب الرملة حيث يمكنهم بمساعدة المتطوعين الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف الدفاع عن المدينة (١٠٥).

وفى هذه الأثناء خرج جماعة من حراس غرناطة الى قرية بغيرة ومعهم خمسون جنديا اسبانيا، لقضاء عيد الميلاد، فهاجمتهم جماعات الموريسكيين الثوار؛ وفى اليوم المحدد بعث على باشا والى الجزائر العثمانى امتدادات الى الموريسكيين نزلت على سواحل المرية ومريلة ثم توجهت الى الأماكن المحددة لها. ولكن هذه الثورة لم يتح لها ان تنفذ كما خطط لها اذ هطلت ثلوج غزيرة على جبل شلير (Sierra Nevada) فانسدت الطرق الى غرناطة ولم يتمكن ثوار البشرات والمتطوعون من الوصول فى الموعد المحدد. ويرجع سبب ذلك الى ان فرج بن فرج بن سراج لم يحسب حسابا للبرد والثلج بل انه توجه على رأس مائتى مقاتل من الموريسكيين من بينوس (pinos) وثنيس (Cenes) الى اسوار غرناطة وأخبر أهالى البشرات ان اهل البيازين سينضمون الى الثورة، واعلن اهل البيازين ان ثمانية آلاف مسلم من لكرين (Lecrin) سينضمون اليهم، وتقدم فرج بن فرج بمن معه الى أسوار غرناطة وهم يكبرون ويهتفون بعبارة «لاإله إلاالله، الله أكبر، الله أكبر» ولكن اهل البيازين لما رأوا قلة المهاجمين اغلقوا عليهم أبوابهم مما أغضب الثوار، كما ان

الأهالي والمتطوعين القادمين من المغرب لم يلحقوا بهم فباءت خطتهم بالفشل، واضطروا الى الإعتصام بالجبال المغطاة بالثلوج حماية لأنفسهم من بطش السلطات الإسبانية بهم، وبهذا تراجع فرج بن فرج حتى وصل الى البشرات^(١٠٦). ومع ذلك فإن اليأس لم يتسرب الى قلوب الموريسكيين الذين عادوا للاجتماع من جديد لمتابعة الجهاد، فى معركة الحياة او الموت، معركة المصير، وعلنوا استقلالهم وبدأوا يفكرون فى اختيار زعيم لهم بخلاف فرج بن سراج، فقد كانوا يسعون الى اختيار زعيم يكون رمزا لملكهم القديم تتوفر فيه روح الشجاعة والاقدام ويتسبب فى ذات الوقت الى احدى البيوتات الحاكمة للأندلس فى العصور الماضية، فوقع اختيارهم على شاب من اهل البيازين يدعى دون فرناندودى فالور وفى بعض الأحيان دى سمردوبا او قرطبة، وكان هذا الاسم الإسباني المسيحى يخفى وراءه حقيقة هذا الزعيم الجديد، فدى فالور كان يرجع بجذوره الى بنى أمية، اى كان سليل خلفاء قرطبة، وكان اسمه الحقيقى الذى أعلنه عندما قام بالثورة هو محمد ابن أمية^(١٠٧).

وكان لابن أمية مهابة كبيرة فى نفوس الموريسكيين والإسبان على السواء، فقد كان قد اختير المستشار الرابع والعشرين لبلدية غرناطة، ولكن بالرغم من ذلك كان موضع شك وريبة من قبل السلطات الاسبانية لاسيما فى الفترة التى سبقت الثورة حتى أنهم اودعوه السجن. وظل ابن أمية فى السجن حتى قام فرج بن فرج بن سراج بثورته المعروفة فى ليلة ٢٤ ديسمبر ١٥٦٨م، فتمكن من تخليصه مع خادمه من سجنه، فانطلق ابن أمية الى أقاربه فى برذنان (وادی لكرين) (Béznar) حيث أجمعوا على مبايعته ونادوا به ملكا فى ٢٧ ديسمبر ١٥٦٨، وأقرته مناطق عديدة حدها الدكتور محمد عبده حتمالة فى كتابه^(١٠٨)، ويذكر مارمول (Marmol) ان محمد بن أمية كان فى العشرين من عمره يمتاز بوسامته ونبيل طلعته، واحتفل الموريسكيون بتنصيبه وتتويجه فى ٢٩ ديسمبر ١٥٦٨م احتفالا متواضعا حيث فرشوا الأرض بالأعلام الإسلامية ذات الأهلة فصلى عليها ابن أمية متجها صوب

مكة وقبّل اتباعه الأرض امامه رمزا للخضوع والطاعة، وأقسم الأمير ابن أمية ان يموت فى سبيل دينه وأمته^(١٠٩).

ويذكر د. حتاملة نقلا عن المؤلف الموريسكى المجهول ان اختيار الموريسكيين لمحمد ابن امية وتنصيبهم له اميرا عليهم أصاب فرج بن فرج بن سراج بالإستياء لأنه كان يعتبر نفسه أكثر خبرة فى مجال الحرب والقتال، فضلا عن أنه كان أول من دعا الموريسكيين لمحاربة الإسبان، وأنه من أسرة بنى سراج العريقة، ولكن ابن أمية رأى ان يكسبه ويأثله ويتخذه حليفا فاختره كبيرا للوزراء (Alguacil Mayor) وهى أعلى رتبة عرفها الموريسكيون^(١١٠).

وفى ٣١ ديسمبر ١٥٦٨ سار فرج بن فرج على رأس خمسمائة فارس موريسكى فى محاولة لايقاظ زوح الثورة فى جميع أنحاء مملكة غرناطة من سواحل ييرة (Vera جنوب قرطاجنة) الى جبل طارق وانضم اليه العديد من الموريسكيين وهم يهتفون بالعبارات الاسلامية ويكبرون فأحرقوا الكثير من الكنائس التى كانت يوما مامساجد لهم ونكلوا بالعديد من القساوسة الذين طالما ذبحوا المسلمين وعذبوهم. وأساء ابن فرج التصرف فقد أقدم على الفتك بعدد كبير من النساء والأطفال والشيوخ مما أثار استياء ابن أمية وغضبه فعزله عن قيادة الجيش^(١١١). وعين بدلا منه عمه ابن جوهر. وأثارت هجمات ابن فرج الشرسة وانضمام الموريسكيين فى ثورتهم تحت راية ابن أمية الرعب فى نفوس سكان غرناطة ونواحيها. ويذكر د. عبد الله جمال الدين أن الثورة الموريسكية قد تميزت بملاحمين أساسيين أولهما الرئيسى وهو الطابع الدينى الذى سبق ان ذكرناه من قبل ثم طابع الرغبة فى احياء كل مظاهر الثقافة الإسلامية ومن مظاهر احياء الطابع الدينى، قتل وتعذيب المسيحيين الذين كانوا فى الأصل من المسلمين ثم تنصروا قسرا، وتحطيم الكنائس وما فيها من صور وتمائيل مرتبطة بالعبادة المسيحية أما عن مظاهر احياء الثقافة والهوية الإسلامية فتمثلت فى احياء رسالة المسجد واقامة الشعائر الإسلامية بكل فخر واعتزاز لاسيما فى منطقة أو جيخى والعودة الى استخدام الزى والعادات الإسلامية^(١١٢).

ولكن بعزل ابن أمية لفرج بن سراج يختفى ذكره عن مسرح الأحداث، وتنتهى بذلك سيرة بنى سراج فى تاريخ الأندلس بينما تمضى ثورة ابن أمية ما بين الجهاد والخيانة الى ان انتهت كل جهود الموريسكيين بالفشل. واذا كانت ثورات الموريسكيين قد انتهت فى القرن السادس عشر إلا انهم استمروا يمارسون الاسلام فى اسبانيا خلال القرن ١٧، بل والثامن عشر كله، ويؤكد ذلك تاريخ محاكم التفتيش التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بسياسة تعذيب المسلمين والتمثيل بهم^(١١٣). ولم تكن حياة الموريسكيين الدينية رغم ماكانوا يتعرضون له من تعذيب تختلف فى جوهرها عن الحياة الدينية للشعوب الإسلامية او لغيرهم من الشعوب التى كانت او مازالت تدين بالاسلام^(١١٤). فقد استمر الموريسكيون يعتزون بالهوية الإسلامية، ولدينا قصيدة رومائية عنوانها «العربية المخدوعة» حيث تقول الفتاة الموريسكية:

أنا عربية عرب
عربية من نسل ابن قطر
مسيحي جاء لبابى
جاء يبنى لى الخطر
حدثت بلغتى الحبيبة
كأنه من أهل طيبة
افتحى الباب يا عربية...^(١١٥).

وقبل ان نختتم حديثنا عن تاريخ بنى سراج نتجدر الإشارة الى ان كثيرا من المؤرخين تشككوا أصلا فى وجود بنى سراج لكثرة الأساطير التى احيطت بهم وقلة الآثار الدالة عليهم فى نفس الوقت^(١١٦). فاعتبروهم ضربا من الوهم والخيال. غير ان النصوص التاريخية التى اعتمدنا عليها فى دراستنا تؤكد الدور الكبير الذى قاموا به بالاضافة الى الشواهد الأثرية وتمثل فى النقوش الجنائزية التى تسجل وفاة بعضهم وآثار قصر منسوب إليهم: ففى حدود عام ١٩٦٥م، وقع زلزال بجنوب اسبانيا، اثر على المناطق الواقعة بجوار السور الرئيسى لقصر الحمراء بين باب

العجلات وبرج الرؤوس (Las Cabezas)، وقد كشف هذا الزلزال عن وجود آثار عديدة لقصر بنى سراج حيث انه حتى نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن ظاهرا منه الا بضعة جدران غير كاملة، وهذه الآثار رغم قلتها تؤكد في حد ذاتها وجود هذه الأسرة كحقيقة تاريخية^(١١٧). وقد أشار مانويل جومث مورينو (Manuel Gomez Moreno) الى هبة قدمها الملكان الكاثوليكيان الى دون خوان شاكون Juan Don Chacón سيد قرطاجنة، تتمثل في دار لبنى سراج^(١١٨).

ويؤكد كل من الأثريين Maria Olmeda و Jesus Pareja على ان هذا ينهض دليلا قاطعا على ان بعض بنى سراج كانوا يعيشون في قصور الحمراء، وأنهم كانوا يؤدون وظائف سامية ويمارسون أعباء إدارية هامة في السنوات الأخيرة من حكم السلطان ابي عبد الله محمد. وربما يكون قصر سراج قد انتقل الى ملكية احد القضاة في غرناطة في العصور التالية لسقوط غرناطة فالأب (Juan De Echeverria) يشير الى نقش كان مسجلا في القرن الثامن عشر على الباب الخارجى للبناء، يؤكد ان هذا القصر الذى كان يملكه بنو سراج هو قصر القاضى كما أنه وجد اشارة بين الوثائق تؤكد ذلك^(١١٩).

ونستنتج من وجود آثار لهذا القصر أنه كان لا يختلف في بنيانه وفي زخارفه عن قصور بنى نصر، وأنه كان مزودا بصحن داخلى وواجهة حافلة بالزخارف، ولا نستبعد انه يتوسط فناءه بركة صناعية وانه كان يشتمل على مرافق متعددة تضمن اسطبلات ومخازن. وهناك وثيقة مؤرخة بتاريخ مارس سنة ١٥٠٢م، تصف قصر دون خوان شاكون أو قصر بنى سراج، ورد فيها ذكر عدد من البرك، ومطبخ وبيوت صغير ممايعبر عن ان قصر بنى سراج كان كبير المساحة وأنه كان يشتمل على ملحقات كثيرة. أما الواجهة فكانت تزدان من أعلى بنقش يمثل كفا مبسوطا ومفتاحا على غرار نظيره على باب الشريعة فى مدخل قصر الحمراء، ويبدو ان الثراء الزاخر فى البوابة يجعل من هذا القصر صورة مصغرة من قصور الحمراء^(١٢٠).

اما وثائق الحمراء فى القرن ١٦م فتسمى قصر بنى سراج (بيت الحاسب) وهذا يدل على ان هذا القصر تحول الى شخص آخر بمعنى انه لم يعد يعيش فيه دون خوان شاكون وانما دون ردرىجو دافالوس (Don Rodrigo Davalos) الحاسب الخاص لكونت دى تنديللا (Conde de Tendilla) (١٢١). وفى سنة ١٥٤٥م طالب ميغيل دى شاكون بحقه فى ملكية هذا القصر باعتباره وريثا لدون خلوان شاكون (١٢٢). وسنورد فى البحث وثيقة تتضمن قضية آثارها دون ميغيل دى شاكون ضد الحاسب، المالك الجديد للقصر وآخرين حول قصر بنى سراج.

ثانياً- بنو سراج فى الأسطورة والقصص الشعبى:

نكبة بنى سراج والأساطير التى دارت حولها:

تعرضنا فى سياق حديثنا عن «بنى سراج» فى المصادر التاريخية عن علاقتهم بسلطين غرناطة وأوضحنا كيف انهم كانوا يحركون خيوط الأحداث السياسية خاصة منذ عصر السلطان الأيسر. وقد تعرضنا فى دراستنا لشرح موقف بنى سراج من السلطان أبى عبد الله (الصغير) او الزغير الذى اغتصب العرش من السلطان الأيسر مما تسبب فى هرب هذا الأخير الى تونس فى حين أثر بنو سراج البقاء فى الأندلس للسعى فى تقويض دعائم حكم السلطان الزغير، وإعادة الأيسر الى عرشه المغتصب، وقد شرحنا كيف هرب الوزير يوسف بن سراج الى ملك قشتالة واستنصر به لإعادة الأيسر، وكيف تكلفت جهوده فى نهاية الأمر بالنجاح، فاسترد الأيسر العرش السلطاني بعد ان تخلص من الزغير. ولانشك فى ان الزغير، كان طوال فترة حكمه يستشعر الخطر من قبل بنى سراج فكان يطاردهم. وتمكن من النيل من بعض أفرادهم ففر بقية أفراد الأسرة الى اشبيلية التماسا للنجاة من مكائد الزغير. ويذكر الأمير شكيب أرسلان بأن هذه الأحداث السياسية التى عاشتها أسرة بنى سراج زمن الأيسر وابى عبد الله الزغير، كانت مجالا خصبا لبعض الأغاني الشعبية، فقد أشارت بعض الأغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة (١٢٣). الى واقعة مقتل افراد من

بنى سراج زمن الزغير^(١٢٤). فى حين تذكر راشيل آرييه ان قصيدة «آه من حامتى» الرومانسية الخاصة بموضوع بنى سراج قد ألفت بمناسبة سقوط الحامة فى أيدى القوات القشتالية بقيادة مركزيز قادس وهى القوات التى انضمت اليها أجناد اشبيلية ونجحت فى النهاية فى الإستيلاء على مدينة الحامة الصغيرة الواقعة على جانب من الحادة التى تربط غرناطة بمالقة، واستؤنفت بعدها حركة الريبكونيكستا وهى الحرب التى انتهت بسقوط غرناطة خلال عشرة سنوات. وتبدأ القصيدة الرومانسية باعلان نكبة الحامة التى استشعرها أهل غرناطة بعمق، وذلك بذكر الدور الأول منها فى المقطع الذى تندب فيه سقوط الحامة «آه من حامتى» والتى تتردد مرات، وهو مقطع يلوم فيه عالم غرناطى ملتجئ بلحية شبياء سلطان غرناطة بعنف لأخطائه، وينسب اليه تبعة سقوط الحامة بسبب اصداره الأمر بقتل أفراد من أسرة بنى سراج الذين كانوا الزهرة اليانعة فى طبقة المحاربين النبلاء بمملكة غرناطة^(١٢٥). ويذكر لويس سيكودى لوئينا ان هذه القصيدة من حيث تكوينها الموزون ومن حيث الموضوع الذى تدور حوله لا يمكن ان تكون سوى من أداء مسلم أندلسى، وربما صيغت فى نهاية القرن الخامس عشر او الثلث الأولى من القرن السادس عشر، وان السلطان الذى تدور حوله هو السلطان ابو الحسن على، ونحن نتفق مع دى لوئينا وآرييه فى هذا رأى لأنه يتفق مع المنطق والتاريخ فالحامة قد سقطت فى زمن ابى الحسن على ولا يعقل ان تؤلف قصيدة «آه من حامتى» التى ورد فيها ذكر بنى سراج تخليدا لذكراهم بعد مقتلهم زمن الزغير، كما يذكر الأمير شكيب ارسلان، وانما الأقرب الى المنطق ان تكون القصيدة المعاصرة لأبى الحسن على تشير الى نكبة بى سراج فى عصره، خاصة وان الأحداث التاريخية تؤكد ذلك، وكنا قد ذكرنا فى الصفحات السابقة ما يؤكد ذلك وأوضحنا كيف ان بنى سراج ساعدوا الأميرة عائشة الحرة على الفرار من ولديها من اضطهاد زوجها السلطان أبى الحسن على لهم، بتحريض من زوجته الجديدة «ثريا» أو ايزابيل دى سوليس، وقد أوضحت آنذاك ان السلطان أبا الحسن على لم يغفر لبنى سراج أبدا

مساعدتهم لعائشة الحرة، وتأييدهم لولده الأكبر إبنى عبد الله محمد فى معركة ضده، فانتقم منهم شر انتقام. ويؤكد رأينا هذا العبارات التى وردت فى القصيدة، فنحن نطالع هذه العبارة عدة مرات «قتلت بنى سراج الذين كانوا زهرة غرناطة (Mataste los Bencerrajes que eran la flor de Granada). كما توجد اشارات على وفاء بنى سراج للسلطانة عائشة ولوالدها الراحل لذلك فقد نكبهم السلطان أبو الحسن وقتل عددا كبيرا منهم أما من نجا منهم فقد لجأوا الى قشتالة ونزلوا بأسرة دوق مدينة شذونة (Medina Sidonia) ببعض المدن القشتالية المجاورة للحدود^(١٢٦). وكانت هذه الأحداث موضوعا للروايات والأساطير الشعبية التى لحقت الحقيقة التاريخية فخلطت بين السبب الحقيقى الذى دفع أبا الحسن على الى الانتقال من بنى سراج وهو سبب سياسى كما ذكرنا فجعلت وراء هذه النكبة التى حلت بهذه الأسرة العريقة قصة عاطفية رقيقة. تقول الاسطورة او الرواية التى وردت فى الأغاني الإسبانية والتى أشار اليها الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب الى ملك اسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر فى رحلته نقلا عن التواريخ^(١٢٧). الإسبانية، ان عميد هذه الأسرة، محمد بن سراج الذى كان من أبرز الفرسان وأشهرهم فى غرناطة فى زمنه، هام بحب اميرة من الأسرة المالكة اسمها «الفاهمة» مما أثار عليه غضب السلطان فى ذلك الوقت، فقرر سحق الأسرة كلها، فدبر مؤامرة لقتلهم. وكانت خطته تقضى بأن يدعو أكابرهم لحضور حفل فى القاعة المواجهة لبهو السباع بقصر الحمراء، وكلما يدخل واحد من أفراد اسرة بنى سراج بادره حراس السلطان بالقتل ذبحا على حافة الحوض الرخامى الذى يتوسط هذه القاعة حتى قتل جلة فرسان هذه الأسرة التى فقدت من جراء هذه المؤامرة خيرة أنجادهما وسميت هذه القاعة منذ ذلك الحين باسم «قاعة بنى سراج» وتقول الأسطورة أنه مازال توجد آثار بقع دائمة داكنة فى قاع الحوض الذى سالت فيه دماء بنى سراج وأنها لن تمحى قط، وتضيف الأسطورة على ذلك بأنه لا تزال تسمع فى تلك القاعة فى بعض الليالى أنات وقرقرة سلاح، وان كثيرا من حراس

قصر الحمراء لحوا جنودا مسلمين فى ألبستهم العربية يقطعون بهو السباع جيئة وذهابا^(١٢٨). ويرفض الأمير شكيب ارسلان هذه الروايات الاسطورية ويربط بين هذه الأسطورة وبين قصة العباسة مع جعفر البرمكى وما أدت اليه من نكبة هارون الرشيد للبرامكة^(١٢٩). أما واشنطن ايرفينج فقد ذكر فيما يتعلق بهذه الأسطورة ان السلطان أبى عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة، كان السلطان المقصود من أسطورة مصرع بنى سراج، وقد ناقش هذه الرواية الشعبية وذكر أنها مجرد حكاية خرافية وأنه اذا كان علينا أن نتقبل بعض جوانب من هذه الروايات، فإن الأقرب الى الحقيقة التاريخية ان يكون السلطان أبو الحسن على هو المشار اليه وليس ولده ابو عبد الله لأن بنى سراج كانوا يناصرون الإبن على. أيه كما أشار الى لدور بنى بنيغش فى نكبة بنى سراج^(١٣٠)

رواية «ابن سراج» :

كتبت رواية «ابن سراج» بعد سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاما أى بعد ان كانت قضية الصراع الدينى قد حسمت لصالح المسيحيين^(١٣١). وهى ترجمة أرغونية مجهولة المؤلف لأقصوصة عنوانها «جزء من تاريخ ولى العهد الشهير دون فرناندو (١٥٥٠ - ١٥٦٠م)» ومهداه الى بارون باربولس خيرونيمو أمبون (Barboles Jeronimo Jiménez Embun) وهو اقطاعى عرف بدفاعه المتواصل عن الموريسكيين أمام سلطة محاكم التفتيش، وقد ظهرت هذه الرواية قبل انتفاضة البشراة الأخيرة التى قادها فرج بن فرج ابن سراج فى البداية ثم تبعه فى ذلك محمد بن أمية، أى قبل تلك الفترة القاسية التى عاشها الموريسكيون فى اسبانيا^(١٣٢). ويذهب لوبث استرادا فى طبعته النقدية لهذه الرواية الى القول بأنه بعد سقوط غرناطة اشتد الصراع بين المطالبين بطرد الموريسكيين من اسبانيا، والراغبين فى بقائهم. ويبدو أن الفريق الثانى الداعى الى بقائهم^(١٣٣). أوحى الى الأدباء بإظهار الموريسكيين فى صورة مثالية. وكان من المنطق ان يؤثر هذا الموقف على الفريق المتشدد ليخفف من تعصبه ولكنه تسبب فى مزيد من التشدد وفى تشويه صورة الموريسكى الذى اعتبره عدوا لدودا^(١٣٤).

وأبرز عملين أدبيين فى المرحلة المعاصرة لسقوط غرناطة هما رواية «ابن سراج» التى تمثل التيار المعتدل تجاه الإسلام، والثانية رواية بيريث دى هيتا «الحروب الأهلية فى غرناطة Guerras civiles De Grananda» وهذه الرواية الأخيرة تجمع بين الاعتدال والتعصب ضد الإسلام، وستناولها بالتحليل فى الصفحات التالية.

أما رواية «ابن سراج» التى تحمل بين طياتها تعاطفا مع بطلها الشريف المسلم ابن درايت Abin darraéz وهو آخر ذرارى هذه الأسرة الباقين فى اسبانيا، فتروى ان هذا الشريف من بنى سراج، بينما كان يمضى فى طريقه للقاء محبوبته شريفة الجميلة (١٣٥)، اعترض طريقه فرسان مسيحيون مسلحون فاشتبك معهم ابن سراج، وقتل ثلاثة منهم بينما فر الرابع طالبا النجدة من القائد، الذى لم يتردد فى نصرته، وتقدم لمطاردة ابن سراج ومبارزته وينجح فى التغلب عليه اذ كان قد أصيب بجراح أثناء المعركة، فتوجه ابن سراج للقائد المسيحى قائلا له انه لم ينتصر عليه لتفوقه فى القتال والفروسية وانما لأن الله أراد ان يحول بينه وبين محبوبته، ثم أخذ ابن سراج يقص على القائد المسيحى قصة حبه لشريفة، وانه كان فى الطريق اليها وتذكر الرواية ان القائد الإشباني تعاطف مع ابن سراج فأطلق سراحه لمدة ثلاثة أيام يعود بعدها اليه، وينصرف ابن سراج ليلتقى بمحبوبته ويتزوجها ويعود بعد ثلاثة أيام ومعه زوجته الى ذل الأسر، ويدهش القائد من وفاء الشريف المسلم بوعده، فيطلق سراحه بلا فدية، ويتوجه الزوجان الى بلدهما ويرسلان الى القائد الإشباني هدية عبارة عن مجموعة أسلحة وجياد وعمليات ذهبية، وتشير الرواية الى ان القائد المسيحى قبل الجياد والسلاح بينما رد اليهما العملات الذهبية شاكرا، معلنا قيام صداقة بينه وبين ابن سراج المسلم دامت مدى الحياة، كما أرسل القائد المسيحى رسالة الى سلطان غرناطة يعبر فيها عن حسن ظنه بابن سراج. ومن الجدير بالذكر ان المؤلف المجهول لرواية ابن درايت من بنى سراج يتحدث بلسان بطله مادحا أسرة بنى سراج المشهورة فيقول (انا من بنى سراج الغرناطين الذين سمعت كثيرا عنهم. لقد كان

بغرناطة أسرة من الفرسان يسمونهم بنو سراج كانوا زهرة هذه المملكة لأنهم بلطف أشخاصهم ومظهرهم وقوتهم كانوا يعلمون الآخرين هذه المزايا ولم يكن بينهم ابدا اى خائن أو جبان».

وابن درايت بن سراج بذلك يرسم صورة بنى سراج باعتبارهم فرسانا ببلاط غرناطة، ثم يروى بعد ذلك ان سلطان غرناطة كان يظن بسبب الدسائس والوشايات ان بنى سراج كانوا يرغبون فى القضاء عليه وتقسيم ملكه وعندئذ امر بقتل اثنين منهم ثم اتبعهم بعشرة فى ليلة واحدة كذلك نلاحظ ان تمجيد بنى سراج فى هذه الرواية يتمثل فى عبارة «بنو سراج الذين كانوا زهرة غرناطة» وهى نفس العبارة التى وردت فى القصيدة الرومانسية «آه يا حامتى»^(١٣٦). والرواية كما نرى فيها اشادة بكرم المسيحى وسمو أخلاقه، وفيها أيضا مدح لوفاء المسلم لعهدده ورده الجميل لمن أحسن اليه^(١٣٧).

وتطرح الدكتورة لوثى لوباث بارالت سؤالا يعبر عن مدى تعجبها من وجود أدب مناصر للعرب فى اسبانيا فى هذه المرحلة التاريخية العصبية بالنسبة للموريسكيين والتى أسمتها بعصر «محاكم التفتيش» وتذكر ان الموقف المعتدل للمسلمين من خلال رواية «ابن سراج» والتعاطف المسيحى نحوه لحبه الصادق لشريفة المسلمة يعد لغزا من الألغاز المطروحة فى الأدب الإسباني، اذ انه من التناقض ان يمجّد الأدب الإسباني صورة المسلم ويبرزه فى أحسن مظهر واعمق جوهر فى الوقت الذى كان فيه الموريسكى يمنع المسلم من هويته الثقافية وينكل ويمثل به ويحرق حيا^(١٣٨). وقد ساهم عدد من المتخصصين فى الرد على هذا التساؤل ومن أبرز هذه الآراء رأى الناقد الإسباني مرثيلينو منندث اى بلايو (Marcelino M. Pelayo) الذى فسر هذا التناقض بأنه صورة من الصور التى تبرز الصراع التقليدى بين الأدب والتاريخ^(١٣٩)، فى حين اكتفى الناقد الفرنسى جورج سيرو (Georges Cirot) بابداء الدهشة تجاه الهوة التى تفصل بين الأدب المناصر للعرب والتاريخ المعاصر له^(١٤٠). أما كلاوديو جيين (Claudio Guillen) فقد كان أكثر دقة فيما

سجله من آراء في مقاله الشهير «الأدب كتناقض تاريخي - ابن سراج رواية موريسكية» فقد اعتبر هذا الأدب أقرب الى الواقع منه الى الخيال اذ هو وصف ضمنى لمدى البؤس الذى كان شائعا فى ذلك العصر، ويعتقد ان رواية «ابن سراج» هذه ماهى إلا تعبير عن الرغبة من التعايش السلمى والإبتعاد عن الحروب الدينية والنزاعات العرقية^(١٤١)، وتوافق فى هذا رأى الباحثة ماريا سوليداد كراسكو^(١٤٢).

وقبل ان نختتم الحديث عن هذه الرواية أود أن أذكر بدورى رأيا فيما يتعلق بهذه القصة «قصة ابن سراج» التى كتبت عقب سقوط غرناطة بحوالى سبعين عاما عندما كان الموريسكيون وهم فى صميم محنتهم يتعرضون لأقصى انواع التعذيب والبطش والتنكيل ، وفى تصورى ان الصورة الطيبة للمسلم التى عبر عنها كاتب هذه الرواية ربما كانت نوعا من الإسقاط النفسى، وكأن الإشباني المسيحى يريد ان يرى نفسه بعيدا عن كراهيته وتعصبه، يريد ان يشعر ذاته بأنه أولا وأخيرا انسان، يسعى الى دفع الظلم واقامة العدل حتى ولو كان هذا السلوك الإنسانى العادل على الورق فحسب وفى الروايات والقصص بمعنى ان هذا الموقف المعتدل تجاه الإسلام ربما كان رد فعل لضمير الإنسان الإشباني ازاء المسلم المضطهد أو مجرد صراحة للضمير المسيحى الدينى فى نفسه فالمسيحية دين السلام، تكره العنف وترفض سفك الدماء. وقد يكون نوعا من التعمية لايهام الأجيال المقبلة بالحرص على التسامح وتطبيق العدالة وهو فى الواقع قناع زائف يخفى الوجه القبيح للحكم الإشباني فى ذلك العصر، ورغبة من الكاتب فى تحميل صورة الواقع المسخ أمام التاريخ، وفى نفس الوقت لأتفق مع كلاوديو جيين وماريا كراسكو فى ان الغرض من التعاطف مع المسلم فى هذه الرواية تم بدافع الرغبة فى التعايش السلمى، واستشهد بما ذكره كل من المؤرخ الإشباني انطوينو دومينغيز هورتز والفرنسى برنارد بنشت فى كتابهما «الموريسكيون حياة ومأساة أقلية تحت عنوان نهاية زمن التعايش السلمى» كان المسلم والنصراني يتعايشان منذ زمن طويل فى اسبانيا، وكان كل واحد منهما سيدا على ارضه ويتعامل مع الآخر المثل بالمثل. ولكن منذ الثانى

من جانفى عام ١٤٩٢م، وهو تاريخ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة، أصبح المسلم فى أى مكان من اسبانيا مهزوما، وان كان الظاهر من الناحية القانونية مازال يتمتع بنفس حقوق المواطنة، لكنه فى الحياة الواقعية العامة بدأ ضغط وقهر المنتصرين يشتد يوما بعد يوم حتى وصل الى التفكير بانتهاء وجود الأقلية. أما النصوص القانونية التى عكست بتسامحها ميراث المعاشة السلمية والإحترام المتبادل فقد انتهكت يوما بعد يوم...» (١٤٣).

لقد عبر هذان المؤرخان برأيهما فى قصة «ابن سراج والحساء شريفة» ونظرة التعاطف التى وردت فى ثناياه تجاه المسلمين بقولهما «ان التفاهم والتعاطف نحو العالم الموريكى كان ميراثا لأقلية مثقفة جدا ومحدودة العدد... يجب ان نتوقف عن استخراج نتائج مبالغ فيها من هذه الظاهرة الأدبية، فبين المسلمين المقدمين بصورة مثالية فى العصور الوسطى وبين الموريكيين المطاردين فى القرن السادس عشر يوجد تلك الهوة التى تفصل بين المثالية الخالصة وبين الحقيقة الصماء (الوضع الإجتماعى) السىء، ان فرى لويس دى ليون احد كبار الرهبان له انتاج أدبى هام كما يعتبر من أهم رجال التصوف المسيحى الذى مدح المسلم، كان يحس بعداوة ليس لها حدود نحو الموريكيين كما أوضح ذلك أزورين... ان محاولات الدفاع التى اظهرتها بعض المدن فى صالح الموريكيين ولتجنب طردهم كان سببها الخوف من الأضرار الإقتصادية التى سيعانون منها أكثر من كونه مدفوعا بمشاعر من الخير... واذا استثنينا بعض الحالات الخاصة جدا فان مشاعر الكراهية والمقت كانت عامة، وفى القرى مختلطة السكان فإن الوشاية والإستهزاء والنكات السخيفة كانت جزءا من الحياة اليومية...» (١٤٤). ولسنا بصدد التعمق فى دراسات أدبية، وكل ما نريد استخلاصه من رواية ابن سراج تاريخيا هو الحقائق التاريخية التالية:

١- تدلنا الرواية بالدليل القاطع على اخلاص بنى سراج لدينهم وتمسكهم بعقيدتهم بعد سقوط غرناطة بدليل ما ورد فى هذه القصة الشعبية عن الفارس

المسلم «ابن سراج» مما يؤكد عظمة هذه الأسرة واحتفاظها بهويتها الإسلامية بعكس أسرة بينغش مثلاً Los Venegas التي ارتدت عن الاسلام بعد سقوط غرناطة وتأتى الأحداث التاريخية التالية مؤيدة لما ورد فى هذه الرواية الشعبية ففى عام ١٥٦٧/١٥٦٨ م هب الموريكيون فى غرناطة والبشرات فى ثورج عارمة تزعمها احد أبناء هذه الأسرة الشريفة وهو فرج بن سراج كما سبق ان ذكرنا، غيرة على دينه ووطنه وهويته.

٢- تؤكد الرواية على حقيقة تاريخية أخرى وهى بقاء جزء كبير من أسرة بنى سراج فى الأندلس بعد سقوط غرناطة بدليل اقامة ابن سراج بطل هذه الرواية بالقرب من غرناطة وزواجه من شريفة الفتاة المسلمة وعودته معها الى بلدهما بعد ان عفا عنهما القائد المسيحى، وهذه الرواية تنفى بذلك فكرة رحيل بنى سراج بأجمعهم الى تونس او المغرب وهذا يتناقض مع مذكرته راشيل آرييه (*). ويؤكد رأى هذا قيام فرج من بنى سراج بثورته فى القرن ١٦ م.

٣- يؤكد اختيار كاتب هذه الرواية لأحد أفراد بنى سراج بطلا لروايته ورمزا للوفاء بالعهد والحفاظ على شرف الكلمة ورد الإحسان لصاحبه، دون أى شاب آخر من الأسرات الموريكية التى تبعث فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة على علو مكانة بنى سراج ورفعة شأنهم واحترامهم بين الناس مسلمين كانوا أم مسيحيين.

كتاب «الحروب الأهلية فى غرناطة»: Guerras Civiles De Granada :

ومؤلف هذا الكتاب هو خينيث بيريث دى هيتا (Gines Perez De Hita)، صدر كتابه فى القرن السادس عشر الميلادى. وبيريث دى هيتا اسباني. وتذكر (Paula Balnchard-Demouge) (١٤٥)، انها لاتعرف على وجه التحديد مكان مولده الحقيقى ولكنها ترجح أنه ولد فى مرسية لوجود وثائق تعميد باسم شخص يدعى (Ginez Perez) فى نفس الفترة الزمنية التى عاش فيها مؤلفنا فى كنيسة

سان ميغيل دى مولا، ولم تحدد الوثيقة يوم مولده أو أسماء الآباء الذين قاموا بتعميده ولا اسم والديه. وبعد سلسلة من التساؤلات، ترجح باولا بلانشار أن خينيث بيريس دى هيتا ولد فى مرسية سنة ١٥٤٤م (١٤٦).

وكانت تربط دى هيتا صلات شخصية ببعض ذرارى أسرات موريسكية كانت تقيم فى ذلك الحين فى منازل أجدادهم، روى له التاريخ الإسلامى وعرفوه على تقاليدهم مع الإهتمام بذكر النتائج السيئة لهزيمة بنى نصر (١٤٧). ويزعم دى هيتا أنه عثر على كتاب لمؤلف عربى يدعى ابن أمين، فيه مزيج من الوقائع التاريخية المحرفة وكثير من القصص الخرافية، وأنه قام بترجمته الى اللغة الإسبانية (١٤٨). وتعلق باولا بلانشار (Paula Blanchard) فى معرض حديثها عن أهم المصادر التى استقى منها دى هيتا De Hita مادة كتابه بأنه لم يرجع الى المؤرخ المسلم ابن أمين وحده وإنما رجع الى شخص آخر اسمه ابن آحطين (Aben Ahatin)، وهى ترجح أنه هو نفسه ابن الخطيب (١٤٩). ويعلق البعض على هذا الزعم بأن دى هيتا يهدف بذلك اضعاف الواقعية على كتابته، وإن هذا الإدعاء ليس سوى حيلة طالما استخدمها الكتاب الإسبان حتى يكتبوا ما يريدونه عن الإسلام والمسلمين دون حرج بحجة ان المصدر الذى استقى منه مادته مسلماً (١٥٠). وكتاب بيريث دى هيتا أو روايته عن حروب غرناطة يتضمن موضوعات شتى عن تأسيس مدينة غرناطة وعن ملوكها المسلمين كما يفصل فى ذكر حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية وبلاطها، وما كان يقع فيه من دسائس ومؤامرات. وفى نطاق ذلك يرد ذكر بنى سراج كثيراً خاصة عند حديثه عن الإحتفالات التى كانت تقام بغرناطة فى عصر بنى نصر، فقد كان فرسان غرناطة وعلى رأسهم بنو سراج يلتمسون اعجاب السيدات فكانوا يخرجون كأبطال اسطوريين مزينين ليحظوا باعجاب النساء وتصفيقهن لهم. وكانت تلك الإحتفالات تعقد عند باب الرملة من أبواب غرناطة (١٥١). كذلك ورد ذكرهم عند حديثه عن اضطراب الظروف السياسية فى المملكة وعن صراعاتهم مع بنى الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة.

ويذكر دى هيتا ان الثغريين (Zegris) هو اسم محرف من ثغرى أى المقيم على الحدود للجهاد^(١٥٢). وتعلق (Rachel Arié) على ما أورده دى هيتا فى هذا الصدد بقولها «يتصور بيريث ديب هيتا قيام خصومة حقيقة بين بنى سراج الذى وصفهم وصفا رائعا كفرسان خيرين وبين الثغريين، الإسم المحرف من ثغرى اى المقيم على الحدود للجهاد. ومعنى ذلك ان الأجناد الثغرية الإفريقية التى كانت فى خدمة سلاطين غرناطة قد توقفوا عن أداء دور سياسى فى غرناطة فى الثلث الأخير من القرن ١٤م، ولم تستطع على الإطلاق الدخول فى نزاع مع أسرة بنى سراج التى ظهر نفوذها منذ عام ١٤١٩...»^(١٥٣). وقد اهتم دى هيتا بإبراز أهم مراحل وأدوار هذا الصراع المرير، وكان الجزء الأول من روايته قد ظهر فى سرقسطة سنة ١٥٩٥م بعنوان «تاريخ الثغريين وبنى سراج فرسان غرناطة المسلمين» Historia de los vados de Zegriés y Aben cerrajes Caballeros moros de Granada ثم طبع القسم الثانى سنة ١٦١٩م ولم يكن لهذا القسم علاقة كبيرة بالقسم الأول^(١٥٤). ومن مظاهر هذا الصراع كما ورد فى كتاب دى هيتا ما أشار اليه من قيام قتال بين الثغريين (الذين وصفهم دى هيتا بأنهم فرسان شجعان ولكنهم يتسمون بالغيرة والحقد) وبين بنى سراج، ويقول دى هيتا فى هذا الإطار:

«ونجح أحد فرسان بنى سراج من طعن أحد الثغريين وحضر عشرون من بنى الثغرى الذين أمسكوا بالأسلحة فهب بنو سراج للدفاع عن أنفسهم، وانضم الى الثغريين بعض الفرسان من حلفائهم وكان عددهم نحو عشرين رجلا، وكانت حصيلة المعركة ان مات خمسة من الثغريين وخمسة من حلفائهم أما بنو سراج فلم يقتل منهم أحد فى حين جرح حوالى عشرة وقد قطع ذراع أحدهم...»^(١٥٥).

ويروى بيريث دى هيتا فى كتابه أن السلطان أبا عبد الله محمد (بوعابدل) هو الذى نكب بنى سراج بعد ان صوّر له الثغريون اعداء بنى سراج بأنهم يدبرون مؤامرة للإطاحة بعرشه، لذلك انتقم ابو عبد الله من أقوى وأبرز شخصية من هذه

الأسرة، وهى شخصية ابن حامد (Aben Hamet). ويستطرد دى هيتا ذاكرنا ان ابا عبد الله تحايل على استقدام بنى سراج فى كمين نصبه لهم فى بهو السباع، وكان أول ضحايا هذا الكمين هو ابن حامد، قتل فى بيعة ضخمة من الرخام en un ataza alabastro muy grande واعقب ذلك مقتل ستة وثلاثين من بنى سراج فى نفس البهو، قتلهم رجال كلفهم السلطان بذلك. ويؤكد بيرث دى هيتا ان السلطان ابا عبد الله أصدر بعد ذلك مرسوما بنفى بنى سراج الذين نبذوا الإسلام واعتنقوا المسيحية فور التجائهم الى قشتالة^(١٥٦). ونلاحظ هنا تأثير بيرث دى هيتا الى حد كبير بما ورد فى قصيدة «آه يا حامتى» نجاسة عندما وردت عبارة «بنى سراج هم زهرة غرناطة» كذلك نلاحظ ان بيرث دى هيتا قد جانبه الصواب عندما اعتبر ان قاتل بنى سراج هو ابو عبد الله محمد، فقد خلط بين هذا السلطان وبين أبيه مولاى أبى الحسن^(١٥٧)، ولاشك ان واشنطن ايرفينج قد اعتمد على رواية دى هيتا الخاطئة كما سبق أن ذكرنا فقد اعتبر مثله ان أبا عبد الله هو المتسبب فى نكبة بنى سراج وعلى هذا الأساس فنحن لانوافق دى هيتا فيما يتعلق بتنصر بنى سراج وقد أوضحنا فى النقطة السابقة رأينا مفصلا فيما يتعلق بهذا الموضوع.

وتساءل راشيل آرييه عن السبب الذى دعا بيرث دى هيتا الى اختيار قاعة تحمل اسم بنى سراج حتى اليوم لتكون مسرحا لمذبحة بنى سراج المشهورة؟؟ وتجييب قائلة «مما لاشك فيه انه كان على دراية بما كان يجرى فى هذه القاعة الرائعة من وقائع مأساوية مشابهة لنكبة بنى سراج طوال عصر بنى الأحمر»^(١٥٨). وهى فى نفس الوقت تتشكك فى واقعية ما أورده دى هيتا بشأن الصراع الدامى بين الثغريين وبنى سراج وتقول «لو ان بنى سراج كان لهم خصوم فانهم على الأقل سيتركزون فيمن عرفوا باسم (Les Venegas) وهى أسرة من البلاط النصرى وتساءل لماذا اختار بيرث دى هيتا الثغريين ليكونوا خصوما لبنى سراج مع أنهم (أى الثغريين) لم يرد ذكرهم كثيرا فى المصادر العربية والقشتالية...»^(١٥٩).

وعلى أية حال فإن ما رواه دى هيتا يعبر عن مدى ما كان لبنى سراج من عظمة ومكانة بحيث انهم سيطروا وتفوقوا على كل الأسرات الغرناطية الكبيرة في ذلك العصر. ويختلف الباحثون حول تقييم رواية بيرث دى هيتا وانقسموا الى فريقين، أما الفريق الأول فيرى أن رواية «الحروب الأهلية في غرناطة» ليست سوى نموذجاً يعبر عن روح التعصب الإسبانية ضد الموريسكيين، فدى هيتا عندما أوجز تاريخ ملوك غرناطة المسلمين ذكر أنهم كلهم ماتوا على أيدي مسلمين مثلهم، أما بالسم أو بالقتل أو بالخيانة، المسلم كما صوره دى هيتا في بعض المواضع من روايته انسان يحب المال وطبيعته الغدر^(١٦٠)، كذلك أبرز بعض الصفات السلبية عند المسلمين فهو يصور المسلمات في أبشع صورة، فلم يكن يشغلنهن في رأيه سوى الحب والخيانة، فإذا كانت فاطمة على حد قول دى هيتا تحب موسى فإن موسى دراجة، ودراجة تحب ابن عمار^(١٦١)... الخ. كما ان المسلمين قد عرفوا بالجبين فإذا تعرض فارس مسلم يسير مع اخته لهجوم بعض المسيحيين بقصد التهجم عليها فإنه يتركها لهم ويفر هارباً^(١٦٢). ويرى دى هيتا ان المسلمين اذا كانوا قد وصلوا الى هذا المستوى الأخلاقي المتدنى، فإن دينهم هو وحده المسؤول عن ذلك.

ويعلق أنصار هذا الفريق بأن بيرث دى هيتا بذلك التعصب ضد المسلمين قد مهد الطريق لتحويل روايته الى أدب تبشيري فهو عندما يشير الى مثالب المسلمين ويعدد من محاسن المسيحيين يؤكد على أن هذا انما هو رأى المؤرخ المسلم ابن أمين نفسه. ويؤكد د. جمال عبد الرحمن ان دى هيتا عندما تعرض لذكر ثورة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة في ايدي الملكيين الكاثوليكين، قد أشار الى أن الأحداث قد رواها له قائد مسيحي، ويعترف بأنه شاهد بعض هذه الوقائع بنفسه ثم يزداد تهجمه على المسلمين لدرجة انه يتعد عن لغة الأدب الرفيع، كما أنه حاول ان يفرق بين العقيدة الاسلامية والهوية الإسبانية، فالإسباني في رأى دى هيتا يجب ان يكون مسيحياً ويذكر في روايته ان مسلماً تحدى اسبانيا وكأن المسلم ليس

اسبانيا(١٦٣)، ويذكر مثالا آخر اورده دى هيتا عن شاعر مسلم من جاليرا يناجى بلده فى قصيدة شعرية قائلا: حماك الله من الاسبان الذين يريدون ان يغزوك، ويشير دى هيتا الى ان الشاعر قد ذكر فى القصيدة ان أجداده غرباء عن اسبانيا التى حكموها قرابة ألف عام(١٦٤)، وفى نهاية روايته يصف دى هيتا المسلمين بأنهم يتصفون بالغدر والخيانة(١٦٥).

أما الفريق الثانى ويضم الدكتورة لوثى لويث بارالت والدكتورة راشيل آرييه والباحثة الشهيرة ماريا سوليداد كراسكو، فيرون أن بيريث دى هيتا قد نحى التعصب والتحيز لبنى جلدته جانبا فأخذ يناصر بنى سراج ويمجد صورتهم وهم من المسلمين، فأبرزهم فى أحسن مظهر وأفخم لباس وأجمل سلاح كما فصل فى وصف اخلاقياتهم وفروسياتهم النبيلة(١٦٦).

واختتم دراستى لرواية «دى هيتا» بتعليق شخصى على تلك الرواية وعلى مؤلفها فالمؤلف يخلط فى دراسته مجموعة من القصص الخرافية التى تتداخل فيها أسماء عربية أعتقد ان جزءا كبيرا منها مختلفا مع بعض الوقائع التاريخية المحرفة، أما دى هيتا نفسه فقد صور الفرسان المسلمين فى غرناطة بأنهم لاهم لهم إلا الحب والمنافسة على المحبوبات الى حد الصراع الدامى وحتى نكبة بنى سراج التى ذكر أنها حدثت فى عهد السلطان الأخير ابى عبد الله محمد، فقد اختلق لها دى هيتا سببا عاطفيا وهو حب السلطانة غير الشرعى لإبن حامد من بنى سراج(١٦٧).

لقد حاول دى هيتا تصوير المجتمع الإسلامى فى غرناطة بأنه كان مجتمعا خاويا زائفا يعيش أفراده فى حب وسعادة ومتعة وهو بذلك قد جرد هذا المجتمع من مقوماته الحقيقية، وحتى عندما أسرف فى وصف محاسن بنى سراج ونسبهم نسبا طيبا، فقد ذكر فيما بين سطور كتابه كما سبق أن ذكرت، ان بنى سراج قد ارتدوا عن الإسلام وتنصروا بعد نكبتهم، وهذا رأى سبق لى أن ناقشته فى الصفحات الماضية وأثبت عدم صحته وقد أورد دى هيتا فيما بعد أمثلة عديدة تشير الى تنصر

بنى سراج وميلهم للنصارى فقد ذكر ان بنى سراج كانوا يعطون الصدقات للمسيحيين فلما تعرضوا للمساءلة من أقرانهم المسلمين رد فارس من بنى سراج قائلا «نعم نفعل فى حب الله ونعطى الصدقة للمحتاج سواء كان مسلما او مسيحيا...» ثم أعقب دى هيتا هذا الرد بعبارة يقول ان ابن سراج ذكرها «لأن المسيحيين أيضا يعطون الصدقات لفقراء المسلمين...» (١٦٨). فدى هيتا عندما حاول اظهار موضوعيته وحياديته وتعاطفه مع بعض الفرسان المسلمين، اختار بنى سراج، وهو بذلك يكون قد ربط بين مثاليته وبين تنصرهم وارتدادهم عن الإسلام، وذلك بلاشك يحمل التعصب الشديد المقنع ضد الإسلام والمسلمين، لذلك فنحن نميل الى الأخذ برأى الفريق الأول فيما يتعلق بنقد تلك الرواية الإسبانية.

قصة «آخر بنى سراج» للفيكونت دوشاتوبريان:

تحول بنو سراج فرسان غرناطة وأشهر انجادهما بفضل الروايتين السابقتين «ابن سراج» و «حروب أهلية» الى ما يشبه الأسطورة، وأصبحوا مصدر إلهام ووحى لكثير من الكتابات الغربية الأوروبية منذ القرن السادس عشر الى حد أننا نجد تاريخ ابن درايث من بنى سراج مسجلا فى أشعار الرومانسيرو الموريكى دى تيمونيدا (De Timoneda) وكذلك لوكاس رودريجث (Lucas Rodrigues) ثم اصطنعه لوبى دى ييجا (Lope De Vega) فى قصيدته El Remedio en la desdicha. لقد حظيت رواية بيريث دى هيتا على وجه الخصوص بنجاح عظيم فى اسبانيا فكان لها ما يقرب من تسع وثلاثين طبعة جديدة حتى نهاية القرن السابع عشر حتى بعد ان أثارت رواية «دون كيشوت» التى ألفها ثرفانتس (Cervantes) السخرية من روايات الفروسية. وفى منتصف القرن الثامن عشر مثلت على المسرح الإسباني قصة غير معروفة المؤلف عنوانها «موت بنى سراج والشريفة المفجوعة». كما تابع الإيطالى جيرو لامو جراتزيانى عن قرب رواية بيريث دى هيتا المتعلقة بمصرع بنى سراج فنظم قصيدة ملحمية عنوانها فتح غرناطة (il conquisto di Granada) وفى

فرنسا ايضا انتشرت اسطورة بنى سراج واشتهرت كذلك قصة ابن درايث وشريفة المسلمة بين رجال الأدب منذ طليعة القرن ١٧م بفضل الترجمة الفرنسية لديانا دى منتميور (Diana De Montemayor). وفى سنة ١٦٨٣م ترجمت رواية بيريث دى هيتا للمرة الثانية على يد الأنسة (De la Roche Guilhen)، كما اتخذ الأدب الفرنسى فى صالون مدام دى رمبويه (Madame De Rambouillet) من التقاليد الرفيعة التى عالجها دى هيتا بغرناطة الإسلامية انموذجا. وتسمى فانسان فواتير (Vincent Voiture) الذى كان شديد الإعجاب بالرومانثيرو المرسى باسم الملك الصغير (el Rey chiquito) كما زعم الشاعر اسحق دى سراد أنه احد أبناء اسرة بنى سراج.

وصدرت فى عام ١٦٦٠م أول رواية مستوحاة من الأندلس فى فرنسا. وفى سنة ١٦٧٠م صدرت رواية أخرى على نُسق رواية دى هيتا اسمها «فتوح الإسبان لغرناطة» لجون ديدن (John Dyden)، وطبعت سنة ١٦٧٢م وفيها نشهد الصراع طويل الأمد بين بنى سراج والثغريين. وفى ختام هذه الجولة الطويلة نشهد فى بداية القرن ١٩ رواية عن مأساة بنى سراج سجلها الكاتب الفرنسى الشهير الفيكوت شاتو بريان، وقد ظهرت روايته هذه فى سنة ١٨٢٦م ونجد ان وقائعها تدور بعد سقوط غرناطة بثلاثين سنة تقريبا (١٦٩٠). وبطل قصة شاتو بريان هو الفارس «ابن حامد» من بنى السراج وهو ابن الفارس السراجى «ابن حامد» (على حد قول شاتو بريان) الذى اتهمه بنو الثغرى بعشق السلطانة وهو ماتسبب فى نكبة بنى سراج كما ورد فى رواية دى هيتا. وكان البطل ابن حامد يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما عندما قرر الرحيل من تونس (حيث يشير شاتو بريان أن بنى سراج قد استقروا بها) الى اسبانيا لزيارة بلاد اجداده فأبحر من تونس حتى وصل قرطاجنة الأندلس، ومن هناك توجه الى غرناطة وهناك فى غرناطة التقى ابن حامد، بفتاة اسبانية حسناء، اسمها آدماء، هام بها حبا وسمعها ذات يوم تغنى زجلا قشتاليا فى تاريخ

بنى سراج وبنى الثغرى^(١٧٠). ويذكر شاتوبريان فى قصته أن ابن حامد قد اكتشف ان حبيته الإسبانية هى من سلالة آل بيغار الذين ينحدر منهم السيد القنبيطور بطل رواية الشاعر كورنابل فاتح بلنسية^(١٧١).

وقد تنزه الحبيبان فى قصر الحمراء، وكان ذلك مجالا لأن يصف شاتو بريان هذا القصر ويذكر شاتو بريان أن ابن حامد بن سراج قد عزم على التزوج بحبيته ادماء ولكنها اشترطت عليه ترك الاسلام فرفض، وهنا نؤكد مرة أخرى أن الروايات والقصص الشعبية اثبتت الى جانب الوقائع التاريخية تمسك بنى سراج باسلامهم بخلاف ما أورده دى هيتا عن تنصرهم. واذا عدنا الى أحداث رواية شاتوبريان نجد ان كتابا يصل الى ابن حامد من تونس يعلمه بأن والدته على شفا الموت، فودع ابن حامد محبوبته وعاد لرؤية والدته. وبعد فترة يرجع ابن حامد للأندلس وفى ذلك الوقت كان الفارس الإسباني الدون كارلوس شقيق ادماء محبوبة ابن سراج، يصر على تزويجها من الفارس الفرنسى الشهير لوترك، ولكن أدماء صممت على الارتباط بحبيبها ابن حامد شرط ان يتنصر. ولما عرف ابن حامد ان أدماء هى من سلالة السيد عدو اجداده، وعرف دون كارلوس أن ابن سراج هو آخر بنى سراج، عدل ابن حامد عن فكرة زواج أدماء، ورحل عائدا الى افريقية وانقطع خبره فى حين بقيت أدماء بدون زواج متيمة بحبيبها العربى هائمة فى أكثر الأحيان فى جبال مالقة تنظر الى البحر الذى كان يأتى منه.

وينهى شاتوبريان قصته بتصوير مقبرة آخر فارس من بنى سراج فى تونس بقوله «عند خروجك من تونس من الباب المؤدى الى أطلال قرطاجنة تجد مقبرة وتجد فى زاوية تلك المقبرة شجرة نخل تحتها ضريح قد أرشدت اليه يقال له هناك قبر آخر بنى سراج، ليس فيه شئ يستحق الوصف سوى ان فى وسط حجر الضريح الأملس نقرة صغيرة محفورة حسب عادة مدافن المسلمين...»

وقد أورد بعض أبيات شعرية منها:

اقصر سراج لاعزاء لمغرم	ولا قصر عن دمع وان كان مر دم
امن كل عام لاتزال مروعا	بفد نعي تارة او بتسوأم
مضى أهلك الأخيار إلا أقلهم	وبادوا كما بادت أوائل جرهم

ومنها:

فكل له قبر غريب ببلدة	فمن منجد نائي الضريح وقتهم
قبور بأطراف البلاد كأنما	مواقبها منها مواقع أنجم
بتونس الخضراء قبر ابن حامد	بعيدا عن الباكين في كل مأتم (١٧٢)

الحواشي

(١) الأمير محمد الأيسر: هو محمد بن الأمير يوسف الثالث بن الأمير يوسف الثاني. وقد تولى الأيسر حكم مملكة غرناطة عدة مرات، وتخللت فترة حكمه ثورات وفتن أما المرة الأولى فتمتد من عام ٨٢٠هـ (١٤١٧م) عندما ثار عليه محمد الزغير أو الصغير، فاضطر الأمير الى الفرار الى تونس. واحتفى بسلطانها الحفصى ابي فارس. وما لبث الأيسر أن استرد ملكه مرة أخرى، وتمكن من هزيمة الزغير، واستعاد عرشه بمؤازرة خوان الثاني ملك قشتالة سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٠م). وحكم الأيسر ثانية من آخر عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) الى عام ٨٣٥هـ وفى هذه السنة ثار عليه الأمير يوسف بن المول الذى نجح بمعاونة القشتاليين من انتزاع عرش غرناطة فانتهى الأيسر الى مالقة التى ظلت على ولائها له، ولم يلبث يوسف بن المول أن توفى وعندئذ استعاد الأيسر سلطنة غرناطة مرة ثانية واستمر سلطانا منذ سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) الى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) التى خلع فيها وتولى بعده محمد الاحنف بن نصر بن محمد الخامس. وفى عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) عاد محمد الأيسر الى الحكم للمرة الرابعة. (لمزيد من التفاصيل ارجع الى نبذة العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمؤلف مجهول، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دمشق، ١٩٨٤، ص ٤٦ حاشية ٦ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٥٥ وما يليها - أحمد محمد محمود الطوخى، مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة، رسالة دكتوراة، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ١٦ - يوسف شكرى فرحات، غرناطة فى ظل بنى الأحمر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٥٣، ٥٤ - وانظر عبد العزيز الأهوانى، «سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٤٤هـ»، فى مجلة كلية الاداب، المجلد السادس عشر، الجزء الأول، مايو، ١٩٥٤، القاهرة

Luis Seco De Lucena, Las campanas de: وما يليها: ص ١١٣، ١٩٥٤
. Castilla contra Granada en el ano 1431, pp. 79-120)

(٢) الحميرى، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. احسان عباس، بيروت
١٩٧٤، ص ٧٩- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة
أسطول الأندلس؛ الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٢١- أحمد الطوخى، مظاهر
الحضارة فى مملكة غرناطة، ص ١٦.

(٣) العذرى، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق د. عبد العزيز الأهوانى، مدريد،
١٩٦٥، ص ١٦- السيد عبد العزيز سالم تاريخ مدينة المرية، ص ٢٢
CionGonzalez Palencia, Miscelanea de textos, Apendice a la edi-
Provençal, Codera de la Takmila, Madrid, 1915, p. 432 - Ibn al
Zuhayr, Silat as-Sila ed- Levi, Rebát, 1938, p. 24.

(٤) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة القاهرة، ج أ، ص
١٤٠. ويأخذ بهذا النسب الأستاذ محمد عبد الله عنان، نفس المرجع، ص
١٥٥، الأستاذ شكيب ارسلان، ارجع الى شاتو بريان. آخر بنى سراج، ترجمة
وتعليق الأمير شكيب ارسلان، القاهرة ١٩٢٥، ص ٦٦.

(٥) ابن بسم، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثانى، تحقيق
د. احسان عباس، بيروت، ١٩٧٨، ص ٨٠٨ ومايليها.

(٦) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون،
القاهرة. ١٩٧١، ص ٢٨٨.

(٧) المصدر نفسه. ص ٤٤٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ٨.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٠.

- (١٠) المقرئ، نفح الطيب، الطبعة الأولى. ج ١، ص ١٤٠.
- (١١) شكيب أرسلان، آخر بني سراج، ص ٦٦.
- (١٢) المقرئ، نفح الطيب، الطبعة الأولى، ج ١، ص ١٣٨.
- (١٣) المصدر نفسه، طبعة محي الدين عبد الحميد، ج ١، سنة ١٦٤، ج ٤ ص ٢٠٤.
- (١٤) ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق انطونية، باريس ١٩٣٧، ص ١٠٢.
- (١٥) المصدر نفسه، ص ١٢٧.
- (١٦) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
- (١٧) المصدر نفسه، ص ١٣٨.
- (١٨) عن ابن القط وحركته، نفس المصدر، ص ١٣٧ ومايليها، وعن جمال ابن القط وحسن صورته والأشعار التي قيلت فيه ارجع الى ابن الأبار، الحلة السراء، تحقيق حسين مؤنس، ١٩٦٣، ج ٢، ص ٣٦٨ - ولزيد من التفاصيل عن ابي على السراج ارجع الى Lévi Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, P. 382. وعن حركة ابن القط ارجع الى سحر السيد عبد العزيز سالم، التاريخ السياسي لبطلينوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٨٩، ج ١، ص ٢٩٨ ومايليها.
- (١٩) ابن الخطيب. اعمال الاعلام فيمن يبيع قبل الإحتلام من ملك الإسلام، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤٩.
- (٢٠) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م ٢، ص ٨١٠.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٨٠٨. ٨١٢.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٨٠٨.

- (٢٣) المصدر نفسه، ص ٨١٢.
- (٢٤) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة. ١٩٧٤، ج ١، ص ١٤٧.
- (٢٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٢.
- (٢٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٠١.
- (٢٧) ابن بسم، الذخيرة، ق أ، م ٢، ص ٨١٢.
- (٢٨) المصدر نفسه، ص ٨١٢ ومايليها.
- (٢٩) المصدر نفسه.
- (٣٠) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٤٤٤ - وارجع كذلك الى المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق سعيد أحمد اعراب، محمد بن تاريت، المحمدية، ١٩٧٨، ج ٥، ص ٨٠، حاشية ١٧٣.
- (٣١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١٦٩، ١٧٠، ١٩٦، ج ٢، ص ٣١٥، ج ٣، ص ٨٩، ص ٤٧٧، ص ٢٤٨، ج ٤، ص ٢٤٤، ٢٥٠.
- (٣٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التانس في ملح أهل الاندلس دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٩١ - ٣٨٠ - ابن بسم، الذخيرة، ق ١ م ٢، ص ٨١٢، ٨٢١ - المقرئ، أزهار الرياض، ج ٥، ص ٩٩.
- (٣٣) ابن خاقان، مطمح الأنفس ص ١٩١ - المقرئ، أزهار الرياض، ج ٥، ص ٩٩ - شكيب أرسلان آخر بنى سراج، ص ٦٦. وقد قام الأستاذ محمد علي شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس بتصحيح كنية سراج بن عبد الملك بن سراج على أنها «أبي الحسن» بدلا من أبي الحسين، ولكن جانبه الصواب في ذلك.

(٣٤) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ١٩١ ومايليها.

(٣٥) يذكر الأستاذ محمد على شوابكة محقق كتاب مطمح الأنفس أن سراج بن عبد الملك بن سراج ولد سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٧م). وهو بذلك لم يعاصر ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٤م) ويفسر هذه الرواية التي رواها ابن خاقان بأنه ربما قصد بهذه الرواية أباه أبا مروان عبد الملك بن سراج وليس سراج نفسه. أما شارل بيلا جامع ديوان ابن شهيد فيعتقد ان الكاتب (ابن خاقان) أتى بخبر كاذب انتحله انتحالا وافتعله افتعالا. أما الشعر فصحيح النسبة مشهور (مطمح الأنفس، ص ١٩٢ ومايليها) وأعلق بدورى على هذه القصة مفترضة الصدق في ابن خاقان وأفسر ذلك اللبس بأنه ربما كان ابن خاقان وابى الحسين سراج قد التقيا بالفعل في دار ابن شهيد كما ذكر، ولكن بعد وفاته كنوع من اللقاء الأدبي في منزله احياء لذكراه مثلا في جلسته أدبية. وتذكر راشيل آرييه ان أبا الحسين بن سراج كان يعيش في القرن ١٣م وقد أخطأت بذلك لأنه كان من أهالي القرن ١٢م فقد توفى في بداية القرن السادس الهجزي في سنة ٥٠٨هـ الموافقة ١١١٤م (Rachel Arié, Le Royaume Nasride de Granade réalité de légende, dans Awraq, N.

.4, 1981. P 156)

(٣٦) المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٣٧) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م ٢، ص ٨٢١.

(٣٨) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، ص ٢٤٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦. ص ٢٠١.

(٤١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٩. ١٧٠.

- (٤٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٧.
- (٤٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٩ وكان مولد ابن الجد الفهرى سنة ٤٩٦ هـ ووفاته باشبيلية فى شوال سنة ٥٨٦.
- (٤٤) مما يؤكد ان ابا عبد الله بن السراج هذا كان يعيش فى مدينة مالقة.
- (٤٥) المقرئ. نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٥٢، (طبعة محيى الدين عبد الحميد).
- (٤٦) نفس المصدر، ص ٣٦٨.
- (٤٧) المقرئ، ازهار الرياض، ج ٢، ص ٦.
- (٤٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٠.
- (٤٩) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، ص ١٧٩، وتسميه راشيل آرييه، بأبى عبد الله محمد ابن ابراهيم بن السراج وتذكر أنه عاش فى بداية القرن ١٤ م (Rachel Arié, Le Royaume, P. 156).
- (٥٠) المقرئ، أزهار الرياض، ج ٢، ص ٢٥٦.
- (٥١) المقرئ، نفح الطيب، ج ٧، ص ٣٤٨ - شكيب ارسلان، آخر بنى سراج، ص ٦٨.
- (٥٢) المقرئ، أزهار الرياض، ج ٣، ص ١٦٠.
- (٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٦.
- (٥٤) المقرئ، نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٥٢.
- (٥٥) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٤٨.
- (٥٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١٤٧، ج ٣، ص ٧٢، ج ٤، ص ١٠١.
- (٥٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦، ١٧٠، ج ٤، ص ٢٢٤، ج ٢، ص ٣١٥.

(٥٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٧، ص ٨٩.

(٥٩) ابن حيان، تحقيق انطونية، ص ١٣٣، ١٢٧، ١٠٢.

(٦٠) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م ٢، ص ٨٢١ - ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ١٩١.

(61) Emilio Garcia Gómez, Sobre los Epitafios de Dos Caballeros Abencerrajes, Al Andalus, 1942, Madrid, pp.284 - 289.

(62) Rachel Arié, Le Royaume, p. 156.

(٦٣) أحمد مختار العبادي، فترة مضطربة في تاريخ غرناطة، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ١٩٦٥، مدريد، ص ٤٣ - أما الرئيس أبو عبد الله محمد السادس الغالب بالله فهو أحد أبناء عمومة محمد الخامس وزوج شقيقته، وتسميه المصادر الإسبانية بابي سعيد البرميخو Bermcjo أى صاحب اللون البرتقالي الضارب للحمرة نسبة للون شعره ولحيته (ابن الخطيب، اعمال الإعلام، ص ٣٠٨).

(٦٤) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، تحقيق د. احمد مختار العبادي، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص ١١٨. ١٨.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة المضطربة ارجع الى احمد مختار العبادي. فترة مضطربة، ص ٥٠-٥١.

(٦٦) احمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٦.

(٦٧) محمد عبد الله عنان، نهاية... نفس المرجع، ص ١٥٤ - يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٥٣.

(٦٨) احمد الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ١٦.

(٦٩) هي كلمة عامية أصلها الصغير، وهو ابن أخى الأيسر فى رواية وولده فى رواية ثانية وأحد أبناء عمه فى رواية ثالثة (لمزيد من التفاصيل ارجع الى عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٥، يوسف شكرى فرحات، ص ٥٣).

(70) Luis Seco De Luccna Paredeo, Más Rectificaciones a la historia de los últimos Nasries, un sultan llamado "El chiquito", Al Andalus, vol XXIV, Madrid, 1959, P. 284- José Francisco de Luque, Historia de Granda y sus contornos, Granada, 1858, P. 125.

(٧١) يذكر المؤرخ الإشباني خوسيه فرنثيسكو دى لوكى José Francisco De Luque تفاصيل هذه الأحداث فى كتابه Historia de Granada y sus contornos فيقول أن يوسف بن سراج خرج مع اربعين من رجاله الى لورقه فاستقبله بعض أصحابه واستضافوه، ثم انتقل الى مرسية، ومن هناك توجه للقاء الملك القشتالى وتوسل اليه ان يساعده فى اعادة الأيسر الى السلطنة، ويذكر De Luque أن يوسف بن سراج ذهب بنفسه الى تونس حاملا رسائل من الملك القشتالى الى الأيسر، وهناك استقبله سلطانها الحفصى بكل ترحاب ووافق على عودة الأيسر الى بلاده (لمزيد من التفاصيل ارجع الى José Francisco De Luque, op. cit., p. 125) أما واشنطن ايرفينج فقد أورد فى كتابه عن قصر الحمراء ما يشير الى أن الملك خوان الثانى ملك قشتالة أرسل رسولا من قبله ليرافق يوسف بن سراج، وليحمل رسالة الملك القشتالى بنفسه الى سلطان تونس يدعوه الى ارسال الأيسر للأندلس مرة اخرى (واشنطن ايرفينج، قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ، ترجمة اسماعيل العربى، بيروت ١٩٨٤، ص ١٤٧ - وارج كذلك الى Rachel Arié, Op. cit., p. 156) وتذكر الروايات ان الأيسر قد قبض على الزغير عند دخوله غرناطة وقطع رأسه، وفى رواية اخرى أنه اعتقله مع أخيه ابى الحسن على بن يوسف فى قلعة

شلوبانية. (محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٥٦ وارجع الى بحث Luis Seco De Lucena, Las campanas de Castilla contra Granada el ano 1431 المنشور فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الرابع، ص ٨٠).

(٧٢) احمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص ١٧، ١٨.

(٧٣) محمد عبد الله عنان، «وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى»، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد العددان ١ - ٢، ١٩٥٤، ص ٣٨ - ٤٥ - أحمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص ١٧ ومايليها - يوسف شكرى فرحات، غرناطة Juan II y la Frontera de Granada, Valladolid, 1954, pp. - 54, 39-42.

(٧٤) يوسف شكرى فرحات غرناطة، ص ٥٥.

(٧٥) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس. نفس المرجع ص ١٦١.

(٧٦) عن La Fuente Alcantara ارجع الى محمد الله عنان، نفس المرجع، ص ١٦١ ويذكر الاستاذ اسماعيل العربى مترجم كتاب واشنطن ايرفينغ ان الوزير الجديد للأيسر من بنى سراج هو «عبد البر بن سراج» وأنه ابن الوزير السابق يوسف بن سراج، وأنه أبلى بلاء حسنا فى المعارك التى خاضها الأيسر مع القشتاليين عقب مهاجمة هؤلاء لأراضى غرناطة الشرقية وقد هزمهم بقيادة عبد البر، ثم هزمهم عند مدينة ارشدونة وقتل وأسر منهم عددا كبيرا (٨٣٨هـ/١٤٣٤م). وفى السنة التالية سار الأيسر لقتال النصارى عند وادى آش وهزمهم فى عدة معارك. وفى سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) نشبت معركة بين المسلمين والقشتاليين على مقربة من كازورلا أصيب فيها الطرفان بخسائر جسيمة وانتهت بانتصار المسلمين، وهنا يذكر الاستاذ اسماعيل العربى أن المسلمين رغم انتصارهم فقدوا وزيرهم عبد البر ورجع الى La Fuente

Alcantara، ولكن بالرجوع الى الاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه، نهاية الأندلس، نجده يستقى معلوماته من نفس المصدر الإسباني لافونتي القنطرة، فيذكر أن الذى توفى هو ابن الوزير «ابن عبد البر» وليس هو شخصيا بدليل أنه سيظهر فى الأحداث التاريخية فيما بعد هذه المعركة (ارجع الى كتاب قصر الحمراء فى الأدب والتاريخ. ص ١٥١ حاشية (١)، والى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٣).

(٧٧) تدل على ذلك وثيقة عربية تتمثل فى خطاب موجه منه الى ملك قشتالة فى ذى القعدة سنة ٨٤٦هـ (مارس ١٤٤٣م) يشير فيه الى بعض المشاكل القائمة بين البلدين وقد نشر هذا الخطاب مع صورته الفوتوغرافية فى كتاب نبذة العصر، المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان، ص ٧٦ - ٧٨.

(٧٨) يذكر واشنطن ايرفينج أن خلافاً نشب بين الأيسر وبين بنى سراج، فتخلوا عن مساندته واعتبروه غير صالح للحكم، ولجأوا الى مونت فريو، ومن هناك بدأ بنو سراج يساندون «ابن اسماعيل» وكاتب ابن عبد البر، ابن اسماعيل الذى كان فى ذلك الوقت ملتجئاً عند ملك قشتالة يدعوه للإلتحاق بمعسكره ويعرض عليه مساندته ولم يتردد ابن اسماعيل فى الإستجابة السريعة، فرحل من قشتالة ووصل الى مونت فريو حيث بايعه ابن عبد البر بن سراج، وانصاره، وكان معظمهم من بنى سراج ملكا على غرناطة. كما أشار ايرفينج الى صراع شديد دار بين بنى سراج وأسرة بنى بنيغش Los Veneges وهى أسرة نصرانية الأصل دخلت الإسلام، وعاد بعض أفرادها الى النصرانية عقب سقوط غرناطة. ومن أشهرهم الوزير «ابو القاسم بن رضوان بينيغش» الذى كان أبوه على خلاف مع الوزير ابن عبد البر بن سراج، أما ابو القاسم فقد تنصر هو ومعظم أفراد أسرته عند دخول الإسبان غرناطة، وقد اشتهرت هذه الأسرة فى تاريخ اسبانيا وأنجبت عددا من القادة والأخبار (ايرفينج قصر الحمراء، ص ١٥٠ ومايليها - نبذة العصر. ص ٦٤ حاشية (١) - عنان، ص ١٩٥).

(٧٩) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٤٦. Seco De Lucena.
 "RectificaciÓn a la historia de los ultimos Nasries". in, Al
 Andalus, vol XVII, Fasc 1.

(٨٠) يوسف شكرى فرحات، غرناطة، ص ٥٥، فى حين يذكر أ. د. أحمد الطوخى أنه فى بداية عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) عاد الأيسر الى الحكم خلفا للسلطان الأحنف للمرة الرابعة، كذلك أن اضطراب الأوضاع الداخلية فى غرناطة بلغ درجة كبيرة الى حد أنه قد تعاقب على عرشها خلال القرن التاسع الهجرى (١٥م) اثنى عشر سلطانا كان بعضهم يتولى العرش اكثر من مرة (احمد الطوخى، مظاهر الحضارة، ص ١٨) أما أ. د. محمد عبده حتاملة فيذكر أن السلطان محمد الأيسر تولى الحكم فى غرناطة فى فترات مختلفة حددها بالفترة مابين عامى ٨٢٢ - ٨٣١هـ (١٤١٩ - ١٤٢٧م) والفترة من عام ٨٣٣ - ٨٣٥هـ (١٤٢٩ - ١٤٣١م) والفترة من عام ٨٣٥ - ٨٤٨هـ (١٤٣١ - ١٤٤٤م) كما يذكر أنه خلفه على العرش السلطان سعد بن على الذى تشير اليه المراجع الإسبانية بلقب Ciriza واحيانا أخرى بلقب «ابن اسماعيل» والمراد به هو الملك اسماعيل الأول ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر (ارجع الى محمد عبده حتاملة، محنة مسلمى الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان، ١٩٧٧، ص ٩).

(81) Rachal Arié, Op. cit, p. 158.

(٨٢) توجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الفاتيكان الرسولية برقمى ٧٢٨ ، ٧٢٩ فى مجلدين وقد نقل العلامة المستشرق (C). Della Vida ما ورد فى كتاب هذا الرحالة المصرى من اخبار الأندلس، ونشره مجتمعا فى مقال عنوانه: "Il Regno De Granata nel 1463-66 nei recordi un viaggio ttero egiziano" in, Al Andalus, vol- I, 1933, Fasc 11.

(٨٣) عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٧. ويذكر الأستاذ يوسف شكرى فرحات أن السلطان سعد توفى فى سجنه سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٤م) (ارجع الى غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ٥٦) أما د محمد عبده حاملة فقد أورد فى كتابه «محنة مسلمى الأندلس» رواية المؤرخ الرحالة المصرى عبد الباسط ابن خليل كما أورد رواية أخرى هى ماوردت لدى Hernando De Baeza المؤرخ الإسباني المعاصر للأحداث ويذكر د. حاملة أن الرواية الإسبانية تذهب الى أن أيا الحسن المعروف لديهم باسم مولاى الحسن Muley Hacen أقدم على خلع أبيه سعد عن عرش غرناطة فى سنة ٨٦٦هـ (١٤٦١م) ليحل محله، وأنه نفى والده الى شلوبيانية Salobreña حيث توفى بعد قليل فنقل جثمانه الى غرناطة ودفن فى المقبرة الملكية (محمد عبده حاملة، نفس المرجع، ص ٧).

(٨٤) يرى الأستاذ محمد عبد الله عنان أن آل الثغرى كانوا من البربر من قبيلة غمارة (عنان، نهاية الأندلس، ص ١٦٦)، كما نقل لنا رأى المستشرق الإشباني جايينجوس الذى يرى فى ترجمته لنفح الطيب أن الثغريين هم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) الى غرناطة بعد سقوطها فى أيدي الإشبان. أما الأمير شكيب أرسلان فيعتقد أن اسم «الثغرى» ماهو إلا تحريف من بنى الزغبى نسبة الى قبيلة زغبة. أما بنو «أضحى» أو ضحى فهم من سادة غرناطة، وكانوا قد لعبوا دورا هاما فى التاريخ الأندلسى ومن أشهرهم «ابو الحسن على بن عمر بن ضحى» أحد ثوار الأندلس البارزين فى أواخر العصر المرابطى وكان قد ثار بغرناطة فى سنة ٥٣٩هـ ولكنه لم يستطع الصمود ضدهم فاعتصم بالقصبة وتوفى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م). وكان الشاعر محمد بن عيسى بن عبد الملك الزهرى قد امتدحه عندما دخل غرناطة (ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٤٩٤، ٥٠٤) وكذلك الشاعر ابو بكر المخزومى الأعمى المورورى (المدورى) الذى التقاه بغرناطة عندما كان ابن

أضحى يتولى قضاءها (المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢٧). أما الفقيه عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي فقد امتدحه عندما دخل غرناطة ووصفه ابن الخطيب عند دخول هذا الفقيه الى غرناطة بأنه كان قاضيها ورئيسها (المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٩). كما عرف ابو الحسن بن أضحى بتفوقه في مجال الفقه، ومن تلاميذه الذين أخذوا عنه الفقيه محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبي زمنين المرى (المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٢). وربما انتسبوا الى محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني زعيم العصبة العربية في غرناطة بعد مصرع سعيد بن سليمان بن جودي في ذى القعدة سنة ٢٨٤هـ (ابن حيان، تحقيق انطونية، ص ٦١).

(٨٥) نبذة العصر، ص ٤٦. أما الأميرة عائشة زوجة السلطان أبي الحسن على، فقد تشكك المستشرق الإسباني لويس سيكودي لوثينا Luis Seco De Lucena في بحثه القيم الذي نشره في مجلة الأندلس "La Sultana Madre de Bo Abdil" in, Al- Andalus, vol XII, 1947 ص ٣٥٩-٣٩٠ في حقيقة اسمها وافترض أنها فاطمة بنت محمد الأحنف مستندا في ذلك الى رسوم بيع ملكية نشر نصوصها بالمجلة المذكورة. وقد وافقته على هذا الرأي المؤرخة راشيل آرييه التي استخدمت اسم «فاطمة» عند حديثها عن أم السلطان ابي عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة، وذلك في بحثها عن بني سراج بين الواقع التاريخي والأسطورة الشعبية (ارجع الى Rachel Arié, op. cit., p. 158). ولكن الأستاذين محمد عبد الله عنان والدكتور محمد عبده حتاملة رفضا هذا الاحتمال بعد ان ناقشاه ومالا الى ترجيح ان اسمها هو الاسم المعروف والشهير «عاشة» (لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١٩٧ - محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص ٨) ولعل بقاء الاسم في الوقت الحاضر على منظره بقصر قمارش وهي منظر دار عايشة Daraja ينهض دليلا على ذلك.

(٨٦) يرى البعض أن والدها كان يشغل منصب قائد صخرة مرتش Alcaide de la Peña وعن تفاصيل المعارك بين المسلمين والقشتاليين في ذلك الوقت ارجع الى J. Condé, Historia de la Dominacion de los Arabes En España, T.III,

(٨٧) نبذة العصر، ص ٤٩ - محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص ١٤، وقد أشارت راشيل آرييه اشارة بسيطة الى أن سعد ونصرا ولدى أبي الحسن على من ثريا قد بقيا في اسبانيا بعد سقوط غرناطة وارتدا الى المسيحية وعرفا بدون فرناندو، ودون خوان أميرى غرناطة (Rachel Arié, Le Royaume, P. 158) في حين ان د. محمد عبده حتاملة أفرد لهما جزءاً من كتابه «محنة مسلمي الأندلس» للحديث عن مصيرهما وأهم المناطق التي انعم الملكان الكاثوليكيان بها عليهما وأهم عقاراتهما كما يتحدث عن السيدات الإسبانيات اللاتي تزوج منهن كل من سعد ونصر وأنسابهن (المزيد من التفاصيل، ارجع الى محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص ٧٧-٩٠) وقد اعتمد في دراسته القيمة على وثائق ومصادر اسبانية معاصرة لتلك الأحداث .

(٨٨) نبذة العصر، ص ٤٩، وارجع كذلك الى Julio Caro Baroja, Los Moriscos del Reino de Granada, Madrid, 1991, p. 39.

(٨٩) نبذة العصر، ص ٦٠ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٠١ - احمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر المتوسط، ج ٢، الاسكندرية بدون تاريخ، ص ٣٦٦.

(٩٠) فرديناند الكاثوليكي أو فرناندو الرابع، هو ابن خوان الأول ملك نبرة، الذى عرف فيما بعد بالملك خوان الثانى ملك أرغون. وقد ولد فرديناند سنة ٨٥٦هـ (١٤٥٢م) من زوجة خوان الثانية، خوانا انريكيث ابنة امير بحر

قشتالة تولى فرديناند عرش مملكة أرغون منذ عام ٨٤٤ - ٩٢٢ هـ (١٤٧٩ - ١٥١٦ م) كما إعتلى عرش مملكة نابلى منذ عام ٩١٠ - ٩٢٢ هـ (١٥٠٤ - ١٥١٦ م) وصقلية (٨٧٣ - ٩٢٢ هـ) (١٤٦٨ - ١٥١٦ م) وقشتالة من ٨٧٩ - ٩١٠ هـ (١٤٧٤ - ١٥٠٤ م)، ثم تزوج من زوجته ايزابيلا الأولى ملكة قشتالة سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م). وقاد الحرب ضد المسلمين فى مملكة غرناطة حتى سقوطها سنة ١٤٩٢ م. وعند وفاة زوجته ايزابيلا الكاثوليكية عام ١٥٠٦ م تزوج من الفرنسية خيرمانا دى فوا ولزيد من التفاصيل عن حياته واعماله ارجع الى (محمد عبده حتملة، التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين، عمّان، ١٩٨٠، ص ١٤. (Luis Suarez Fernandez, Historia de España, Madrid, 1970, capt XL VIII, pp. 681-682).

أما ايزابيلا فقد ولدت فى مدريغال دى التاس تورس عام ١٤٥١ م. وكانت ابنة خوان الثانى ملك قشتالة، وامها هى ايزابيلا البرتغالية، ابنة حفيد خوان ملك البرتغال. تزوجت من فرديناند أمير ارغون وصقلية سنة ١٤٦٩ م. وعرفنا عندئذ بأمرى قشتالة. وعندما تولى شقيقها الملك انريكى الرابع عام ١٤٧٤ م. عرفت هى وزوجها بملكى قشتالة وارغون (لزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتملة. التنصير القسرى، ص ١٦، T. De Azcona, Isabel la Catolica, Madrid, 1946.

(91) Rachel Arié, Le Royaume, p. 158.

(٩٢) لزيد من التفاصيل عن تلك الأحداث الأخيرة فى عهد مملكة بنى الأحمر، والحروب الأهلية التى تخللتها ارجع الى المقرئ، نفح الطيب ج ٦، ص ٢٥٨ ومايلها - نبذة العصر، ص ١٥، ٣١، ٩٤ - ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٣، ج ٣، ص ١٩٩،

٢١٨، ٢٣٠، وقد اتهم مؤلف نبذة العصر الزعل وشك في ولائه للإسلام (ص٣٣) ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان دافع عنه مشيراً الى انه لم يكن باستطاعته ان يضع حد لأسباب ضعف السنين التي سبقتة (نهاية الأندلس، ص٢٨٨)، كما دافع عن ابي عبد الله الصغير ووصف بطولاته الأخيرة (ص٢٨٤ ومايليها).

(٩٣) عن هذه الأحداث الأخيرة لغرناطة قبيل السقوط ارجع الى عنان، ص ١٨٨-٢٧١، فون شاك، الفن العربى فى اسبانيا وصقلية، ترجمة د، الطاهر احمد مكى، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٢٠ ومايليها، يوسف شكرى فرحات، غرناطة، ص ٥٦ ومايليها، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٨-٩ Julio Caro Bafoja, Los Moriscos, pp. 40-41.

(٩٤) عن معاهدة التسليم وأهم بنودها ارجع الى نبذة العصر، ص ١٢٠ ومايليها - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٤٥ ومايليها - محمد عبده حتملة، محنة مسلمى الأندلس، ص ٥٣-٥٦ - عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٠٥. وعن سقوط غرناطة ودخول الملكين الكاثوليكين فيها ارجع على Josep Lozana, "Els moriscos un mon a descobrir", Awraq, N.1, Madrid, 1993, p.88 وعن عدم وفاء الملكين الكاثوليكين بالتزاماتهما وعهودهما ونقضهما لمعاهدة التسليم ارجع الى نور الدين الصغير، «مأساة غرناطة وأثرها فى الوعي التاريخى العربى والإسلامى»، من اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، سيرمدى، زغوان، ١٩٩٣، ص ١٤١، عادل سعيد بشتاوى، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(95) Emilio García Gomez, Sobre los epitafios de dos Abencerrajes, Al-Andalus, 1942, p. 287-288.

(٩٦) عن شاهد القبر الثاني ارجع الى. Emilio García Gomez, Epitafios, p.

289- Rachel Arié, le Royaume, p. 156.

(٩٧) المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ص ٦٧، ٦٨ - نفع الطيب، ج ٦، ص ٢٨٠ ومايليها - نبذة العصر، ص ١٢٨ - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية، ص ١٣-١٨.

(٩٨) عن هذه الأحداث ارجع الى محمد عبده حتملة، التنصير القسري، ص ٦٢ ومايليها - عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة، ص ١٧-١٨ - على مظهر، محاكم التفتيش، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٧٥ ومايليها - جمال عبد الكريم، «الموريسكيون: تاريخهم وأديهم»، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، العددان ٥-٦ يناير ويوليو ١٩٩٠، ص ١٤ ومايليها - عادل بشتاوى الأندلسيون المواركة، ص ١٩٨٩، ص ٥٣، وارجع الى بحثي: «علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها»، في اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، زغوان، ١٩٩٣، ص ١١٣ ومايليها. وارجع كذلك الى بلقاسم درارجة، الأندلسيون المسلمون ومحاكم التفتيش، بحث من اعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية، ج ٢، زغوان، ١٩٩٣ ص ٧٣ ومايليها. ويذكر لوى كاردياك أن المسيحيين بعد فشل ثورة البشرا كانوا يعيشون تحت خوف تجدد الثورة الموريسكية وقد تناقل الناس انهم لا ينتظرون لهذا الأمر إلا وقته المناسب وأنهم ساعون لجمع الأسلحة (لوى كاردياك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية ١٤٩٢-١٦٤٠م تعريب د. عبد الجليل التميمي، زغوان، ١٩٨٩، ص ٢٩).

(٩٩) محمد رزوق، الأندلسيون، ص ٥٠ وارجع كذلك الى انطونيو دومينغير هورتر وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، قطر، ١٩٨٨، ص ١٩ ومايليها.

(١٠٠) لمزيد من التفاصيل على هذا القانون ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٦، ويذكر د. محمد عبده حتملة أنه سبق هذا القانون سلسلة من الإجراءات والقوانين الجائرة أصدرها الملك فيليب الثاني منذ عام ١٥٦٠م وحتى عام ١٥٦٦م (لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتملة، التهجير القسرى، ص ١٨-٢٧).

(١٠١) يذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن موريسكى بلنسية أنفسهم لم يتميزوا عن غيرهم من الموريسكيين إلا بتخفيف العقوبة في حالة عدم تنفيذهم لهذا القانون (عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٦١).

(١٠٢) يعتبر تغيير الملابس والبلغة أولى خطوات تغيير الهوية المميزة لأى شعب من الشعوب وقد أثر ذلك فى هوية المسلمين فى الأندلس، ارجع الى Rachel Arié, "Acerca del Traje musulmán en España desde la Caída de Granada hasta expulsion de los Moriscos" مقال فى مجلة المعهد المصرى بمدريد، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ص ١١٥. وقد أشارت الى ارتداء الثوار المسلمين وعلى رأسهم محمد بن أمية ملابس اسلامية كرمز لتبذ طاعة الإسبان.

(١٠٣) هو المحقق دون بيدرو ديسا Pedro Deza أحد اعضاء المجلس الذى شكله الملك فيليب الثانى لدراسة أوضاع الموريسكيين (حتملة، التهجير القسرى، ص ٣١).

(١٠٤) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتملة، التهجير، ص ٣٣) وقد أشار الدكتور عبد الله جمال الدين الى ثورة فرج بن فرج اشارة سريعة دون الدخول فى تفاصيل (عبد الله جمال الدين، المسلمون المنتصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، القاهرة، ١٩٩١، ص ٨٥، ٨٨) وعن ثورة فرج بن فرج بن سراج ارجع كذلك الى Julio Caro Baroja, los moriscos del Reino de Granada, p.174.

(١٠٥) عن المؤلف الموريسكى المجهول ارجع الى (حتاملة، التهجير القسرى، ص٣٥).

(١٠٦) المصدر نفسه، ٣٨.

(١٠٧) عن مارمول ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٦٥، وعن تفاصيل الثورة ارجع كذلك الى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص ١٥٠ ومايليها. ويذكر د. عبد الله جمال الدين ان احد ابناء بنى أمية وهو «ابراهيم بن أمية» قاد ثورة الموريسكيين سنة ١٥٠٠م وقد تمكنوا بفضله من السيطرة على عدة حصون ساحلية فى البشترات قبل ان يتغلب عليهم الإسبان (عبد الله جمال الدين المسلمون المنصرون، ص٣٦. كما يؤكد د. عبد الله جمال الدين أن محمد بن أمية يرجع بأصله الى عبد الرحمن الداخلى نفسه (المراجع نفسه، ص٨٧) ولمزيد من التفاصيل عن ثورة ابن أمية ارجع (الى Baroja, Los Moriscos, pp. 173-185).

(١٠٨) لمزيد من التفاصيل ارجع الى محمد عبده حتاملة، التهجير القسرى، ص٤٠، ٤١.

(١٠٩) عنان، نهاية الأندلس، ص٣٦٥- انطونيو دومينغير هورتز، برنارد بنشنت، تاريخ مسلمى الأندلس، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ص٤١.

(١١٠) حتاملة، التهجير القسرى، ص٤١.

(١١١) المرجع نفسه، ص٤٢، فى حين يذكر كل من الأستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور عبد الله جمال الدين نقلا عن مارمول أن ابن امية كان قد اختار عمه ابن جوهر (فرناندو الصغير) قائدا للجيش منذ البداية (نهاية الأندلس، ص٣٦٥ - المسلمون المنصرون، ص٨٨) ولكننا نرجح رواية د. حتاملة لأن مصدره فى ذلك مؤرخ مسلم موريسكى فى حين ان الاستاذ عنان يعتمد على رواية قشتالية لمارمول فى حين يعتمد د. عبد الله جمال الدين

على كل من Vincent (Bernard), Historia de los moriscos ، كذلك
على كتاب Baroja, los moriscos del Reino de Granada .

(١١٢) عبد الله جمال الدين، المسلمون المنصرون، ص ٩٤.

(١١٣) سري محمد عبد اللطيف، «الهوية الإسلامية للموريسكيين من خلال
أدب الاخميادو»، في اعمال الملتقى العالمى الخامس للدراسات الموريسكية،
ج ٢، زغوان، ١٩٩٣، ص ١٥١.

(١١٤) المرجع نفسه، ص ١٥٢.

(١١٥) صلاح فضل، ملحمة المغازى الموريسكية، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٢٨.

(116) Jesús Bermúdez Pereja, Mariá Angustias Moreno
Olmedo, "El palacio de los Abencerrajes", cuadernos de la
Alhambra, n.5, Granada, 1969, p.55.

(١١٧) تعتبر الدراسة القيمة التى قام بها لويس سيكودى لوثينا من أهم الدراسات
التي سلطت الضوء على بنى سراج وميزت بين ماهو حقيقى وماهو وهمى
(ارجع الى Luis Seco De Lucena, Los Abencerrajes, Leyenda,
Historia, 1960)- Granada,

Jesús Bermudez Pareja, María Angustias Moreno, El palacio, p.
55, Rachel Arié, Le Royaume, pp. 150-170.

(118) Manuel Gomez Moreno, Guía da Granada, Granada, 1892,
pp. 151-152.

(119) Padre Juan de Echeverría, Paseos por Granada, por los
años de 1764 y ahora nuevamente impresos, Granada, 1814,
T. I, pp. 333-335- Jesus Bermudez, op. cit., p. 56.

(120) Jesus Bermudez, op. cit., p. 56-57

(121) Ibid., p. 57.

وكونت دى تنديللا De Tendilla هو القائد لوث دى مندوسا الذى عينه فرناندو الكاثوليكي حاكما عسكريا لغرناطة (عن مارمول ارجع الى عنان. نهاية الأندلس، ص ٢٦٦).

(١٢٢) اورد دون خيسوس باريدا قائمة عبارة عن اسماء كل أفراد أسرة دون خوان شاكون (Ibid., pp. 58-59).

(١٢٣) الحامة أو الحمة Alhama، تقع على بعد أربعين كيلومترا جنوب غربى غرناطة وسميت بهذا الاسم لتفجر العيون الحارة بها وقد اورد صاحب نبذة العصر أخبارا عن سقوطها فى ايدى النصارى سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) (نبذة العصر، ص ٥٠، ٥١) ولمزيد من التفاصيل عن سقوطها وجهود السلطان ابى الحسن على للدفاع عنها (ارجع الى محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٢٠١، ٢٠٢).

(١٢٤) شكيب أرسلان، آخر بنى سراج، ص ٦٤.

(125) Rachal Arié, Le Royaume, pp. 154) 156.

(126) Ibid., p. 158.

(١٢٧) رحلة الوزير فى افتكاك الأسير، للوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني، العرائش، ١٩٤٠، ص ٣٤ ومايلها.

(١٢٨) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٠٢، Bachel Arié, Le Royaume, p. 155.

(١٢٩) شكيب أرسلان، آخر بنى سراج، ص ٦٤.

(١٣٠) واشنطن ايرفينج، قصر الحمراء، ص ١٥٨، ١٥٩.

(١٣١) جمال عبد الرحمن، «صدى سقوط غرناطة الإسلامية في الأدب الإسباني» من أعمال المؤتمر العالمي الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية، زغوان، ١٩٩٣، ج ٢، ص ١٩٥ ومايلها

(١٣٢) لوئى لوبات بارالت، أثر الإسلام في الأدب الإسباني من العصور الوسطى الى الوقت الحاضر، تعريب د. محمد نجيب بن جميع، تقديم ومراجعة د. عبد الجليل التميمي، زغوان، ١٩٩٠، ص ٤٩ ومايلها.

(١٣٣) لم يكن انصار هذا المبدأ يرغبون في ابقاء الموريسكيين حبا فيهم أو بدافع الإشفاق عليهم وانما رغبة في تسيير الأمور في بلادهم اذ كان الموريسكيون هم الذين يشتغلون بالزراعة والأعمال الحرفية (ارجع الى انطونيو دومينغيز هورتز، برنادر بنشت، نفس المرجع، ص ١٩٣). ولمزيد من التفاصيل عن آثار طرد الموريسكيين الطرد لنهائي على اقتصاد اسبانيا (ارجع الى المرجع السابق، ص ٢٥٦ ومايلها). وعن المهن التي كان يعمل بها الموريسكيون وعن ابعادهم عن شغل الوظائف الحكومية ارجع (الى عادل سعيد بشتاوى، الأندلسيون المواركة، ص ١٤٤ ومايلها).

(134) Anónimo: El Abencerraje, Edición de Lopez Estrada, Madrid, 1982, pp. 84, 85.

(135) Rachel Arié, Le Royaume, p. 157.

(136) Ibid., p. 157.

وقد أوردت المؤرخة الكبيرة راشيل آرييه كل الروايات والقصائد الشعبية التي تعرضت لبنى سراج، وذكرت كل ماجاء فيها من أخبار مختلطة مع بعضها البعض، دون تدخل منها أو تعليق أو تنفيذ لها فجاءت المعلومات كلها مختلطة ومضطربة ونلاحظ أن مؤلف رواية «ابن سراج» قد تأثر الى حد كبير بما عرف في العصور العربية القديمة عن المنذر بن امرئ القيس المعروف بابن ماء

السماء (٥١٨-٥٥٤م) فقد عرف عنه أنه كان قد حدد أياما عرفت باسم «أيام البؤس» يقتل فيها من يقابله المنذر ليطلق بدماء القتل برجين كان يملكهما... ابن ماء السماء. وتذكر الروايات التي وردت في المصادر العربية ان ابن ماء السماء قد التقى في احد أيام البؤس الشاعر حنظلة بن عفرأ فأمر بقتله، ولكن حنظلة استسمحه ان يمهلها عاما يرجع فيه الى أهله يؤدي مهمته ثم يرجع اليه لتنفيذ حكم القتل فيه. ووافق المنذر بن ماء السماء على هذه المهلة، ولما انتهى الأجل المحدد، عاد حنظلة، محافظا على وعده الى المنذر ليطبق فيه حد القتل، فعجب المنذر من وفاء حنظلة بعهده وسأله عن دينه، فأجابه حنظلة بأنه النصرانية فكان ذلك سببا من أسباب تنصر المنذر وكل أهل الحيرة.

ونحن نميل الى الاعتقاد بتأثر رواية ابن سراج بقصة حنظلة مع المنذر بن ماء السماء (لمزيد من التفاصيل عن قصة حنظلة بن عفرأ ارجع الى ياقوت الحموى، معجم البلدان، مادة غريان - ابن قتيبة، كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠هـ، ص ٢١٩ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الاسلام، الإسكندرية، ١٩٧٣، ص ١٦٤-١٦٥).

(١٣٧) جمال عبد الرحمن، نفس المرجع، ص ١٩٦.

(١٣٨) لوئى لويث بارالت، أثر الإسلام، نفس المرجع، ص ٤٩.

(139) Marcelino M. Pelayo, "Orígenes de la novela" t.I, CSIS,

Santander, 1943, pccc LXXXVI.

(١٤٠) لوئى لويث بارالت، نفس المرجع، ص ٥٠.

(١٤١) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(١٤٢) María Soledad Carrasco, The Moorish ٥١ المرجع نفسه، ص

Novel "Abencerraje" and Pérez de Hita, Twayne publishers,

Boston, 1976.

(١٤٣) انطوينو دومينغير هورتز، برنارد بنشت، الموريسكيون، ص ٢٠، ٢١.

(١٤٤) المصدر نفسه، ١٩٣.

(*) تذكر راشيل آرييه أن بني سراج قد باعوا للسلطان ابي عبد الله محمد آخر سلاطين غرناطة أملاكه التي كان يملكها في غرناطة ثم لحقوا به فقد كرهوا أن يعيشوا في اسبانيا فهاجروا جميعا الى المغرب سنة ١٤٩٣ م (Rachel Arié, Le Royaume, p.159).

(١٤٥) هي التي قامت بنشر الرواية وقدمت لها سنة ١٩١٣، وقد طبعت هذه الرواية عدة طبعات وقد رجعنا في هذا البحث الى طبعتين احدهما طبعة سنة ١٩١٣ والأخرى حديثة وهي طبعة مدريد ١٩٧٥.

(146) Ginés Pérez De Hita, Guerras Civiles De Granada, P. I, pub. Paula Blanchard-Demaugé, Madrid, 1913, pp. 8-30.

(147) Rachel Arié, Le Royaume, p. 159.

(١٤٨) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٠٣ - جمال عبد الرحمن، صدى سقوط غرناطة، ص ١٩٧ Ginés Pérez De Hita, Guerras Civiles De Granada, Madrid, 1913, P. 30- Rachel Arié, Le Royaume, p. 159.

(149) De Hita, op. cit., p. 30 - 31.

ولكننا لانميل الى الأخذ بهذا الرأي لأن ابن الخطيب لم يكن معاصر للفترة الأخيرة من مملكة غرناطة زمن السلطان الأخير أبي عبد الله محمد اللهم إلا اذا كان قد اعتمد عليه كمصدر فيما يتعلق بالفترة الأولى من تاريخ مملكة غرناطة التي عاصرها ابن الخطيب.

(١٥٠) جمال عبد الرحمن، صدى سقوط... نفس المرجع، ص ١٩٧.

(151) De Hita, Guerras Civiles, Madrid, 1913, p. 78 - Rachel Arié, Le Royaume, pp. 159- 160.

(152) De Hita, Guerras Civiles, Madrid, 1913, p. 135.

(153) Rachel Arié, Le Royaume, p; 159.

(154) Ibidem.

(155) De Hita, Guerras Civiles, Madrid, 1913, p. 153.

(156) Ibid., p. 170.

(157) Rachel Arié, Le royaume, p. 160.

(158) Ibid., p. 160.

(159) Ibid., p. 160.

(160) Pérez De Hita, Guerras Civiles De Granada, Madrid., 1975, pp. 22-23.

(161) Ibid., p. 73.

وفى طبعة مدريد ١٩١٣ فى ص٧٦.

(162) Pérez De Hita, Guerras Civiles, Madrid 1975, p.58.

(163) Ibid., p. 160.

(164) Ibid., p. 199.

(١٦٥) جمال عبد الرحمن، صدى سقوط.. نفس المرجع، ص٢٠٠.

(١٦٦) لوئى لوبات بارالت، أثر الإسلام، ص ٥٠ - ٥١ Rachel Arié, Le Royaume, pp. 159-160.

وتذكر ماريّا سوليداد كراسكو أن ظاهرة تمجيد العرب في الأدب الإسباني في كل من رواية «ابن سراج» وفي «الحروب الأهلية بغرناطة» لدى هيتا، كانت ترمى الى الرفع من شأن الفئة المسلمة المضطهدة وبعث روح الوفاق والتصالح بين المسلمين والإسبان، وتدلل ماريّا سوليداد كراسكو على رأيها بأن ييريث دي هيتا قد أهدى الجزء الثاني من كتابه «الحروب الأهلية الى أحد النبلاء الموريّسكيين» «دون الافانتادو» Duque De Infantado الذي ناضل من أجل حماية المدجنين في مرسية (ارجع الى María Soledad Carrasco, The Moorish Novel El Abenverraje and Perez De Hita, Boston, 1976 - لوثي لويث بارالت، المصدر نفسه، ص ٥٠).

(167) Rachel Arié, Le Royaume, p. 160.

(١٦٨) جمال عبد الرحمن، ص ١٩٨. De Hita, Guerras, Madrid 1975, p. 62.

(169) Rachel Arié Le Royaume, pp. 161-163.

(١٧٠) شاتو بريان، آخر بني سراج، ص ١٦.

(١٧١) المرجع نفسه، ص ١٧.

(١٧٢) يذكر الأمير شكيب أرسلان أن الأبيات للبحترى وأن فيها بعض الفاظ توافق المقام (نفس المرجع، ص ٥٨).

26. 25 noviembre 1544, Dueñas.
Juramento de testigos e información de los mismos. (Fol. 76 v.º al 78 r.)
27. 4 diciembre 1544, Dueñas.
Fecha en que fueron sacados los traslados de las escrituras originales. (Fol. 75 r. y v.º)
28. 8 diciembre 1544, Calabazanos.
Probanzas hechas en Calabazanos a petición de don Miguel Chacón. (Fol. 79 al 80 r.)
29. 14 enero 1545, Dueñas.
Carta de poder de don Miguel Chacón a Diego Sánchez de Sevilla y Baltasar Ramírez, padre e hijo, vecinos de Granada. (Fol. 82 r. y v.º y 83 r.)
30. 2 julio 1545, Alhambra.
Presentación de la demanda hecha por don Miguel Chacón al contador Maldonado y a otros vecinos que vivían en su casa de los Abencerrajes. (Fol. 84 r.)
31. 4 agosto 1545, Alhambra.
Vista la petición de don Miguel Chacón y las escrituras presentadas por éste, el conde de Tendilla mandó que se notifique a las personas que viven en la casa de los Abencerrajes. (Fol. 84 v.º)
32. 8 agosto 1545, Alhambra.
Notificación a Charles de Ripa y a Barrionuevo, los cuales pidieron traslado (Fol. 84 v.º)
33. 9 setiembre 1545, Alhambra.
Notificación de la demanda al contador Rodrigo Maldonado, el que pidió traslado. (Fol. 84 v.º)
34. 10 octubre 1545, Alhambra.
Vista la petición de don Miguel Chacón del 5 del mismo mes y año en Granada, en el pleito que trata con Charles de Ripa y consortes, mandó se le notifique a las otras partes. (Hoja complementaria del cuaderno que constituye el L-3-7.)
35. 2 noviembre 1545, Alhambra.
Notificación a Francisco de Barrionuevo. (En el mismo folio anterior.)
36. 7 noviembre 1545. En la cuesta del Alhambra.
Notificación al contador Maldonado. (Igual.)

CASA DE LOS ABENCERRAJES

Don Miguel Chacón contra el contador Maldonado e Barrionuevo y otros, año de 1545.

En la villa de Dueñas a veynte e quatro dias del mes de nobiembre, año del nascimiento de nuestro Salvador Ihesus Christo de mill e quinientos e quarenta e quatro años. Ant'el muy noble señor licenciado Leal, alcalde mayor en la dicha villa y en presencia de mi Andrés Rodríguez, escribano de sus Magestades e del número de la dicha villa e de los testigos de yuso escritos, pareció presente el muy magnifico señor don Miguel Chacón, vezingo de la villa de Calabazanos, hijo legitimo del señor don Juam Chacón, Adelan-

صورة من الوثيقة التي قام خيوس بيرمودز باريجا بنشرها في بحثه عن: قصر بني سراج
de los Aben Cerrajes, Cuadernos de la Alhambra, N.º 5, Granada, 1969)

tado de ~~Murcia~~ y capitán mayor, y de la señora doña Ynés Manrique, su legitima mujer, que aya santa gloria. E dixo qu'él tennia la neçesidad y le conbenia enbiar así fuera d'estos Reinos como a otras partes lejos d'esta tierra, ciertas escrituras signadas d'escribanos públicos, de las quales ant'el dicho señor alcalde hizo presentación y por ser como son escrituras escritas escritas (sic) en papel e son las mesmas originales y por ventura yendo camino con ellas a donde tenia neçesidad de las enbiar se podrian rasgar o perecer, así por agua o fuego o robo o por otro caso y ocasión y no podrian despues sacar las dichas escrituras a causa que los que las otorgaron e hicieron e signaron son fallecidos d'esta presente vida y d'ello se le podria seguir mucho daño e mucha perdida: Por tanto que pidia al dicho señor Alcalde Mayor que biese las dichas escrituras e vistas no estar rotas, ni viçiosas, ni lugar d'ellas sospechosas, ni en parte d'ellas chançilladas, salbo tales quales de derecho debian estar, mandase a mi el dicho escribano que las saque letra por letra de berbo a berbo sin anadir ni menuyr letra alguna d'ellas, todas en linpio e se las mande dar signadas en publica forma en manera que agan fee, a las quales dichas escrituras, que así fueren sacadas, mande poner (fol. 1 v.) en ellas su autoridad e decreto judicial por tal manera que, agan fee y prueba y así sacadas las dichas escrituras le mende bolber los memos (sic) originales para lo qual imploró su noble ofiçio y pidió cumplimiento de justiçia, estando presentes por testigos, Juan Gutierrez e Juan de Palencia y Fernando de Castro Mocho, vecinos de la dicha villa de Dueñas.

Yten la carta de pago de las duçientas mill maravedís que otorgó el dicho convento y el testamento de la señora doña Ynés, que aya gloria. (fol. 2 v.) Cuyo tenor de las dichas escrituras una en pos de otra de berbo ad berbun es este que se sigue:

En el Alhanbra de Granada, de la grnde e nonbrada çibdad de Granada, tres dias del mes de março año del nascimiento de nuestro Salbador Ihesu Christo de mill e quientos e dos años, ant'el muy magnifico señor don Iñigo Lopez de Mendoza, conde de Tendilla, señor de la villa de Monderes, Alcalde e Capitán General de la dicha çibdad e su alanbra, e Fortalezas por el Rey e la Reyna, nuestros señores, e del su cosejo y en presençia de mi Alfonso Hernandez de Sevilla, escrivano del Rey y de la Reyna, nuestros señores e escrivano de la dicha Alanbra y de los testigos de yuso escritos, pareció Rodrigo Dávalos, contador de la capitania del dicho señor conde, a nonbre del/ muy magnifico señor don Juan Chacón, adelantado de Murcia o por virtud de su poder bastante, que para ello presentó e leer fiço por mi, el dicho escrivano, al dicho señor conde, una çécula del Rey e de la Reyna, nuestros señores e firmada de sus reales nonbres e refrendada de Gaspar de Guicio, su secretario, su tenor de la qual todo es este que se sigue:

Yo don Juan Chacón, adelantado y capitán mayor del Reyno de Murcia, señor de la ciudad de Carta Agena (sic), contador mayor del consejo del Rey e de la Reyna, nuestros señores, do y otorgo todo mi poder conplido, libre, llenero, bastante, sigund que lo yo e y tengo e de derecho se requiere e mejor e mas e conplidamente lo puedo e dobo dar e otorgar de derecho, a Rodrigo Dávalos, contador de la gente de la capitania del muy magnifico señor conde de Tendilla, qu'es ausente como si fuese presente para que por mi y en mi nonbre (fol. 3) e para mi podades tomar e apreender e continuar la tenençia e posesión real, corpora, actual bel casi, de unas casas con sus corrales e alberca de agua que son en el Alanbra de la çibdad de Granada, sobre el adarbe de la dicha Alanbra,

con sus entradas y salidas de que me fué fecha merced por el Rey e Reyna, nuestros señores, e fuerón de los Avençerraxas, según e como, en la dicha merced, que d'ellas me hiçieron, se contiene, con todas sus entradas e salidas, e derechos, e pertenencias, e para que tomando e aprehendiendo la dicha posesión podades lanzar e sacar d'ellas a qualquier o qualesquier, que en ellas estén e morén e poner a ellos a otros e la usar corporal e autualmente *servatis servanda la*, la dicha posesión e quan grande e cumplido poder yo e y tengo para todo lo que dicho es e para cada cosa e parte d'ello otro tal e a tan cumplido, ese mesmo lo otorgo e doy a vos el dicho Rodrigo Dávalos, con todas sus incidencias e dependencias, emarrencias, ancridades e conexidades, rebelando vos si nescenario es? de toda carga de sastidación e de toda caución e fiaduría, so aquella clausula dicha en lotín, *judicibus istí judicatum solbí*, con todas sus clausulas acostumbradas, e prometo e otorgo de todo ello lo aver por firme e no yr ny venir contra ello so obligación, que fago de mi persona e bienes muebles e rayces presentes e futuros, e por firmeza de la qual firmé esta de mi nombre e otorguela ante escribano e testigos yusos escritos. Fecha e otorgada en la cibdad de Sevilla a veynte siete dias del mes de diciembre, año del nascimiento de nuestro Salvador Ihesu Christo de mill e quinientos e dos años. Testigos que fuerón presentes e vierón firmar aquí su nonbre al dicho señor (fol. 3 v.º). Adelantado, el camarero Fernando de Gamarra e Velastigui, camarero del dicho señor Adelantado, e Fernando de Varçe, su secretario, e Cristobal Enebro, escribano de Cámara del Rey y de la Reyna, nuestros señores, presente fui quando el dicho señor Adelantado otorgó el dicho poder e lo firmó de nonbre e lo escribí e fize aquí este mi signio a tal en testimonio de verdad, Christobal Enebro, el adelantado don Juan Chacón.

EL REY E LA REINA

Por haçer bien e merced a vos don Juan Chacón, Adelantado de Murcia, contador mayor e del nuestro consejo, acatando los señalados sevicios que nos aveys fecho e faceys de cada en alguna emienda e renume-ración d'ellos por la presente hos agetios merced gran e donación pura e perfeta e no rebocable qu'es dicha entre bibos, de unas casas nuestras que solian ser de los Avençerrages que son en esta Alhanbra ençima del adarve d'ella que an por linderos, de la una parte, las casas de don Alvaro de Luna, nuestro capitán e de la otra la calle Mayor con su portada e corral e albercas y con la casa donde agora está vuestra despensa e con los establos que en ellas ay, açebto de la torre que sale fuera del muro que a de quedar para haçer d'ella lo que nuestro serbicio fuere, para que las dichas casas sean vuestras y de vuestros subycesores y de aquel o aquellos que de vos o d'ellos obiere titulo causa o razón con todas sus entradas e salidas e pertenencias usos e costumbres quantas an e aver debe e perteneçen e perteneçer deve. pueden e deben en cualquier manera o por ra (fol. 4) zón qualquier que sea para que las podades e pueda vender, dar, donar, trocar y canbiar y enagenar e haçer d'ellas y en ellas lo que quisieredes e por vien tobiereades como de cosa vuestra propia, libre, quieta e desenbargada, avida e adquirida por justo e derecho titulo. E mandamos a los alcaides e alguaziles e a otras justicias que qualesquier d'esta dicha Alhanbra, que agora son o serán d'aquí adelante e a cada uno d'ellos que luego que con esta nuestra Césula fueren requeridos por vos o por quien vuestro poder oviere vos dén y entreguen la posesión de las dichas casas e vos anparen e defiendan en ella e no consientan ni den lugar que

d'ellas seades quitado ni molestado en tiempo alguno ni por alguna manera fasta tanto que seades sobre ello llamado a juycio e oydo e vencido por derecho. E los unos ni los otros no fagades ni fagáu ende al. Fecha en la çibdad de Granada a veynte dias del mes de octubre de mill e quinientos e un años. Yo el Rey, yo la Reyna. Por mandado del Rey e de la Reyna, Gaspar de Griçio.

E la dicha Cédula de sus Altezas ansi presentada e leyda por mi el dicho escribano, el dicho señor conde tomó la dicha Cédula de sus Altezas en sus manos en la besó e puso ençima de su caveza e dixo que la vedaçia (sic) e obedeció con la reberençia devida ansi como a carta e mandado de sus Rey e Reyna e señores naturales a quien Dios nuestro señor depe bibr e reynar por muchos e largos tiempos a su santo servijio como por sus altezas es deseado e que en quanto al cumplimiento d'ella que mandava e mandó al houra do Pedro Oro, su alcaide mayor de la dicha Alanbra que diere y entregase al dicho Rodrigo de Avalos e nonbre del dicho señor Adelantado, la posesion actual, corporal, real vel casi d'ellas dichas casas e de todo lo dentro contenido (fol. 4 v.º) en la dicha Cédula segùn e de la forma e manera que sus Altezas por la dicha Cédula lo mandan, para lo qual le dió poder cumplido con todas sus ynçidencias e dependencias e luego el dicho alcaide poniendo en efeto el mandamiento del dicho señor conde fué a las casas principales contenidas en la dicha Cédula de sus Altezas e fiso salir fuera d'ellas a todos los vezinos que en ellas estavan e posavan e tomó por la mano al dicho Rodrigo de Avalos e dixo que le ponía e puso e nonbre del dicho señor Adelantado en la posesión de las dichas casas actual, corporal, real vel casi e el dicho Rodrigo de Avalos luego echó fuera al dicho alcaide e a otras personas que end'estavan e se quedó dentro d'ellas y en señal de posesión cerró las puertas principales de las dichas casas por de dentro e luego yncontinentemente así de la mano lo trajo el dicho alcaide ablando e paseando por el dicho corral dende el arco e las dichas albercas e establos e despensa e coçina e por todo lo otro contenido en la dicha Cédula, e le dió la posesión de todo ello segùn e de la forma e manera que en la dicha Cédula de sus Altezas se contiene e deslinda a el dicho Rodrigo de Avalos entró en todos los dichos establos e coçina e otras casillas que están en el dicho corral, echó de todas ellas a los moradores que en ellas avia e cerró las puertas de todo ello por dentro en señal de posesion de todo lo qu'el dicho Rodrigo de Avalos enonbre (sic) del dicho señor Adelantado de Murcia se dió e otorgó por contento, entregado a toda su voluntad... e mandó ser dado el dicho testimonio de la dicha posesión firmado e signado en manera que faga fee e firmado de su nonbre al dicho Rodrigo de Avalos en el dicho nonbre segùn que le hera pedido, a lo qual todo e a dar y entregar de la dicha posesion fueron presentes por testigos Xorge de Avalos e Gomez Muños Salar, escuderos estantes en esta Alanbra e Juan Vazquez, zapatero, e yo el dicho Alfonso Fernandez de Sevilla, escrivano del Rey e de la Reyna, nuestros señores e su escrivano e notario público en la su corte y en todos los sus reynos e señorios e escribano de la dicha Alanbra en uno con el dicho alcaide e parte e testigos presente fui a dar y entregar la dicha posesion e doy fee qu'el dicho alcaide aquí firmó su nonbre e lo escrebí e fiçe aquí este mio signo en testimonio de verdnd, Alonso Fernandez, notario público, Pedro de Oro.

Demanda

Muy Ilustre señor

En nonbre de mi Miguel Chacón vezino de la villa de Calabazanos digo que tienen en posesion de don Juan Chacón padre de mi parte unas casas que son en esta Alhambra que eran de los Abencerrajes en que an bivido e biben el contador Rodrigo Maldonado y su muger y hijos y otra casa que solia ser despensa del dicho don Juan Chacón en que bibe al presente Charles de Ripa por arrendamiento que d'ella le hizo su hermana la de Sazedo, boticario difunto, que son enfrente las otras, por merced de los señores Reyes Católicos don Hernando y doña Ysabel, el dicho don Juan Chacón falleció y pasó d'esta presente vida, y perteneciendo las dichas dos pares de casas a mi parte, como a hijo y heredero del dicho don Juan Chacón, su padre y de doña Ynés Manrique, su madre cuyas heran las herencias de los quales mi parte tiene azeptadas y si es necesario de nuevo las azepto con beneficio de ynventario, nuevamente a venido a noticia de mi parte que los dichos contador Maldonado y su muger y hijos y Charles de Ripa y la dicha su hermana y Francisco de Barrionuevo, se an entrado en ellas y al presente las habitan y morán, aunque algunos d'ellos con licencia y por mandado de vuestra señoría y del señor marques de Mondejar, y por que de derecho pertenecen a mi parte, por los dichos títulos y son suyas a vuestra señoría pido e suplico por aque remedio que mejor de derecho lugar aya y a la justicia de mi parte convenga, le mande remedio la posesion de de las dichas dos pares de casas con todo lo a ellas anexo y perteneciente y anpararle en ella, condenando y compeliendo a las personas suso dichas las dexen y entreguen a my parte, libres y desenbaraçadas va que le den y paguen los alquileres que justamente an merecido de todo el tiempo que en ellas an bivido y bibieren hasta que realmente las entreguen a my parte, para lo qual su muy illustre oficio ynploro y pido justicia y costas y juro a Dios y a esta cruz † en anima de mi parte que no lo pido de malicia.

Otro si digo, que para en prueba de su yntinción de mi parte, hago presentacion de todas estas escrituras, que van ynsertas en este quaderno, y asi mismo d'estas dos ynformaciones y provanças, todas las quales presento en quanto por mi parte hazen y no en más ny allende. El dotor Sanchez.

Presentación.

En la Alhambra a dos dias del mes de julio de mill e quinientos e quarenta e çin años presentó esta petición e çiertos testigos Baltasar Ramirez en nonbre del dicho don Miguel e pidió (roto)

Traslado.

En la Alhambra a quatro dias del mes de agosto de mill e quinientos y quarenta y çinco años, vista esta petición e las dichas escrituras, por el muy illustre señor don Yñigo Lopez de (sic) Mendoça, conde de Tendilla señor de la villa del Prado, capitán general del Reyno de Granada, ecetera, mi señor, mandó que se notifique a las personas que biben en las dichas casas y que respondan a ella si tienen que dentro de çehis dias. Notificación a Charles.

En la Alhambra a ocho dias del mes de agosto de mill e quinientos e quarenta e çin años y a dicho escr çano que a el dicho Charles de Ripa

qual pidió traslado, testigos Martín de la Serna, escudero en la compañía de Gil Gonzales de Quesada.

A Barrinuevo.

Este dicho día lo notifiqué a el dicho Francisco de Barrionuevo, testigo Pedro de la Parra e el dicho Martín de la Serna.

Al contador Maldonado.

En la Alhanbra a nueve días del mes de setiembre del dicho año de mill e quinientos e quarenta e cinco años y del dicho escribano notifiqué la dicha demanda a el dicho contador don Rodrigo Maldonado, el qual pidió traslado, testigos Antonio (o Alonso) de Valdés, alcalde mayor de esa Alhanbra e Cristobal de Arze, alguacil mayor d'ella.

Don Miguel Chacón.

Que se notifique e que responda dentro de once días.

En Granada a cinco de octubre de 1545 años la presentó Baltasar Ramirez, en nombre de su parte.

Muy illustre señor

Baltasar Ramirez, en nombre de don Miguel Chacón, en el pleito que trata con Charles de Ripa y los otros su consortes, respondiendo a la petición por parte de dicho Charles de Ripa presentada, digo que sin embargo de todo lo por ella dicho y alegado, Vuestra Señoria debe mandar hazer lo por mi parte pedido, por lo dicho e alegado y por que la prescripción en que la parte contraria se funda, no a corrido ny podido correr contra mi parte, porque a estado absente y a sido menor de veynte y cinco años y las partes contrarias no an tenido titulo ny buena fe, antes sabiendo las dichas casas pertenecian a mi parte, se entrarón en ellas, por lo qual e por otras causas que en la persecución d'esta causa protestó dezir y alegar la dicha prescripción no a corrido contra mi parte, por que pido y suplico a V. S.^a mande hazer en todo se provea? que tengo pedido, para lo qual su muy illustre oficio inploro y pido justicia y costas y concluyo sin embargo. El doctor Sanchez.

En la Alhanbraa diez días del dicho mes de octubre del dicho año. Vista la dicha petición por su señoria mandó que se notifique a las otras partes e que respondan a ellas.

En la Alhanbra a dos días del mes de noviembre de mill e quinientos e quarenta e cinco años, notifiqué lo suso dicho al dicho Francisco de Barrionuevo e pidió traslado, testigos Cristobal de Arze, alguacil mayor d'esta Alhanbra e Bartolomé...

En la questa del Alhanbra a cyete días del dicho mes de novienbre, notifiqué lo suso dicho al dicho contador Maldonado, el qual dixo que él ni posee las dichas casas que le demandan ni ay por que se le pidan a él, que las demanden a quien vieren que les conviene, testigos Antonio de Vergara, vedriero, vecino del Alhanbra.

دور الطراز في الأندلس في عصر دولة بني أمية

دور الطراز فى الأندلس فى عصر دولة بنى أمية

يرجع الفضل الأعظم فى تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شئون الإدارة والحكم فى الأندلس الى الأمير عبد الرحمن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ - ١٧٢هـ) ، فهو الذى دون بها الدواوين "ورفع الأراوين وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آتته ، وأخذ للسلطان عدته (١) "فشهد له ألد خصومه ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته ولقبه أبو جعفر المنصور بصقر قریش (٢) : فقد عمل عبد الرحمن على احاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء وحاول أن يجدد ما طمس لبنى أمية فى المشرق من معالم الخلافة ويسترجع ما انقرض من آثارها (٣) . ويذكر ابن حيان أنه أول من أنشأ دار البرد بالأندلس (٤) ، ونعتقد أن دار البرد المذكورة كانت تختص بمحاكاة البرود ، ثم أضيفت إليها دار الطراز فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فاستعت بذلك مرافقها (٥) ، وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) رجلا على مستوى عال من الثقافة والعلم، عالما متبحرا فى علوم الشريعة والفلسفة ، وكان من أعظم أمراء بنى أمية فى الأندلس الذين وضعوا الأسس الأولى لحضارة الأندلس التى بلغت ذروة تقدمها فى عصر الخلافة ، فقد خص أهل العلم والأدب والفن برعايته وكان مكرما لأهل الادب والفن والصناعات ممن ضاق المشرق بمواهبهم ، فأدناهم اليه ورفع منازلهم ، كما كان مولعا بالتمصير والانشاء والتعمير ، فهو الذى أضاف الى جامع قرطبة زيادتين متتابعتين ، وأقام القصور والمنزهات ، وأسس مدينة مرسية ، ورتب رسوم الملكة وأول من

فختم السلطنة بالأندلس وأحدث الطرز ، واستنبط عملها (٦) ، كما أحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب النقود باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ أن اقتحمها المسلمون . واليه يرجع الفضل الأعظم في فتح أبواب الأندلس على المشرق بعد أن كانت موصدة في وجهه ، وأهم ما أنجزه فيما يتعلق بالصناعات قيامه بإنشاء دار الطراز الخاصة بقرطبة ، وكانت الأندلس قبله تعتمد في ذلك على ما كان يجلب إليها من المنسوجات المشرقية من مصر والعراق والشام . والغريب أن إبراهيم بن حجاج الذي استقل باشبيلية وقرونة وما والاها في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) اتخذ طرازا باشبيلية "يطرز فيها على اسمه كفعل السلطان إذ ذاك" (٧) . وظلت دار الطراز باشبيلية تنافس دار قرطبة إلى أن سقطت دولة بني حجاج على يد عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٠١هـ .

كان يتولى دار الطراز زمن الأمير عبد الله ريان الفتى (٨) وفي سنة ٣١٣هـ ولى خلف الفتى الكبير الطراز (٩) ثم تولى بدر مولى عبد الرحمن الناصر خطة البرد بالإضافة إلى الحجابة والوزارة وخطة الخيل منذ اليوم الذي يبيع فيه عبد الرحمن بالامارة في سنة ٣٠٠هـ (٩) . وأسند الناصر ولاية الطراز سنة ٣١٣ إلى خلف الفتى الكبير (١٠) . ويسدو أن تسميته دار الطراز مرة بالطراز ومرة بدار البرد أو خطة البرد ظل قائما إلى أن ضمت التسميتان معا بعد أن تعرضت دار البرد الملاصقة لقصر الخلافة بقرطبة لحريق حدث في ٢٠ شعبان سنة ٣٢٤هـ ، فأنت النيران عليها ، وعندئذ بادر الخليفة عبد الرحمن الناصر بتجديد عمارتها فأمر بإعادة دار البرد على رسم رسمه ، دل على فضل معرفته ، ومغاص حكمته ، فسا بناؤها ، ونصبت أبوابها على ما حد ، ورفعت فوقها عليه توفى عليها ، ويؤمن معها الاضرار بها" (١١) ونستدل من رواية ابن الخطيب في أعمال الأعلام أن دار الطراز والبرد اتسعت اتساعا كبيرا وشملت العديد من المرافق وأصبحت تشبه بما أضيف إليها من منشآت المدينة . يقول ابن الخطيب "ومن آثاره التي ضربت به الأمثال ، وقضيت منها العجائب ، حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكسي وملابس الحرم وغير ذلك . فقد كان (أى دار الطراز) على عهده مدينة تشتمل على آلاف من الخلق . فد

اتخذت فيها المرافق والمساجد والحمام والسوق ، ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جرياراتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب (١٢) .

واستمرت هذه الدار على هذا النحو من الاتساع حتى ضاقت بها السوق الكبرى المجاورة للقصر الخلافي الى أن كانت أيام الحكم المستنصر بالله بن الناصر ، الذي أمر بنقلها في المحرم سنة ٣٦١هـ من موضعها الى دار الزوامل بالمصاراة بالطرف الغربي من قرطبة ، وأقام في المرقع الذي كانت تشغله دار الطراز أو دار البرد حوانيت للجزازين ليتسع بها سوقهم ، في حين نقلت دار الزوامل من موضعها الذي احتلته دار الطراز الى الدار الواقعة على مقربة من المحبس عند قصر الناعورة (١٣) وأصبحت دار البرد والطراز القديمة بذلك قيسارية للتجار توسعت بها السوق (١٤) .

وهكذا أصبحت لدار الطراز ودار البرد خطة بهذا الاسم أسند الحكم المستنصر بالله ولايتها الى فائق النظامي الفتى الكبير الصقلي (١٥) الذي ارتفعت مكانته لدى الحكم ، فنقله من داره الى دار الحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلي الذي توفي في سنة ٣٦٠هـ (١٦) ، وكانت تعرف آنذاك بمخطة الطراز والبرد ، وظل فائق النظامي يتولاها في حياة الحكم الى أن توفي الحكم في ٤ صفر سنة ٣٦٦هـ ، وكان فائق وقت وفاة الخليفة على رأس جميع الصقالبة ، وكان يليه في المرتبة صاحبه جرؤدر صاحب الصاغة واليازرة (١٧) .

ومن المعروف أن دار البرد والطراز هذه هي الدار الخاصة بالخليفة الأموي ، أي أن انتاجها قاصر على استخدام الخليفة ومن يخلع عليهم من كبار رجال الدولة أو عظماء الوافدين على الحضرة القرطبية من أمراء المغرب المواليين له ، ويتميز انتاج هذه الدار بأنها تحمل في نسيجها نقوشا كتابية تشتمل على أدعية للخليفة أو تحمل اسم من أهديت اليه في بعض الأحيان اذا كان من الشخصيات الهامة من ذلك الملابس السنية والكسي الفاخرة التي هادى بها عبد الرحمن الناصر محمد بن خزر في سنة ٣١٧هـ ، فقد سح عليها اسم

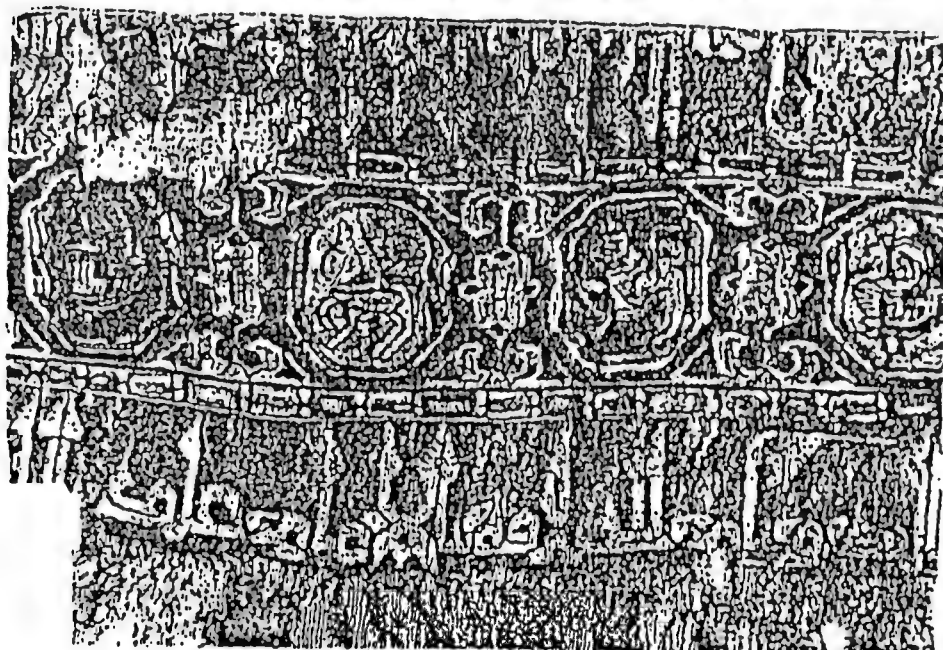
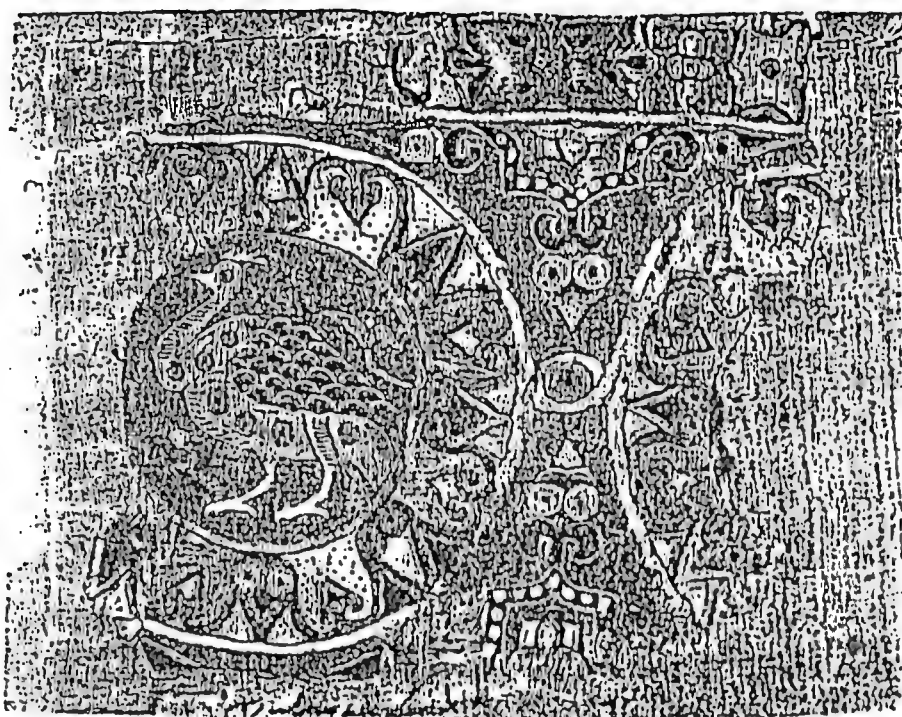
محمد بن حنر تقدير لشخصه ويعلن اس حيان على ذلك بقوله "وكان الديو احتصه به
فى تطريه لما اصطنعه من حاص هديته هذه من الملابس فى طرازه الخاص باسم محمد بن
حرر اعظم قدرا من ذلك اذ كان شيئا لم يتقدم للملك قبله الى ولى من اوليائه ، قد اعتد
به عليه الناصر لدين الله إنافة قدر المنزلة فى الجواب النافذ اليه اذ قال فى فصل منه جرده
آخر الكتاب

ولما حللت من حسن رأى أمير المؤمنين اخل الذى حلته ، ونزلت من نفسه المكان
الذى نزلته ، ذهب ألا يهاديك من لبوسك الا بما استعمله لنفسه فى طرازه الخاص على
اسمك ، وهذا أمر لم يفعله من تقدم من الاعاظم بالشرق والمغرب بأخذ قرب وعظم محله ،
فخصك من ذلك بعشر قطع مختلفة الأجناس مما استعمل لكسوته الخاصة من عتيق الخنز
العبيدى وغريه وبديعة فى التأليف والصنعة مطرزة باسمك ، لم يعمل قط مثلها فى طرز بنى
العباس وهذا ما يبقى لك فخره ويثلد لك ولعقبك سناؤه وذكره ، ما بقيت لكم باقية ،
وثواب الله خير عقبى" (١٨)

وهكذا كانت دار الطراز الخاصة بالخليفة مخصصة لاهداء الخلع الى المقربين اليه ،
ومن بين الهدايا التى أنعم بها الناصر على الوافدين اليه من زعماء المغرب هديته الى موسى
بن أبى العافية سنة ٣١٩هـ وكانت تشتمل على الكسى الرقيقة من الخنز مختلف الأجناس ما
بين شقة وعمامة وبرنس ما يقدر عدده بخمس وعشرين قطعة ومن اللبود الطرازيه
الأرجوانية عشر قطائع (١٩) وكان الحكم المستنصر بـالله يهادى أمراء البربر بالعدوة
كثيرا من فاخر الكسوة (٢٠) كما كان المنصور محمد بن أبى عامر يهادى ملوك أسبانيا
المسيحية والقوامس المعاهدين وكذلك من حسن بلاؤه من المسلمين فى الحروب والغزوات
بفاخر المنسوجات والكسى من انتاج دار الطراز بقرطبة ، ويذكر ابن عذارى أنه وزع فى
غزوته الثامنة والأربعين الى شنت ياقب سنة ٣٨٧ "ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من
صنوف الخنز الطرازى ، وواحد وعشرين من صوف البحر (٢١) ، وكسائين عنبرين ،
وأحد عشر سقلاطونية (٢٢) ، وخمس عشرة مريشات ، وسبعة أغطا ديباج . وثوبى ديباج
رومى وفروفاك" (٢٣) ويعلن ابن الخطيب على هذه الهدية النفيسة بقوله "وبلغت كسى

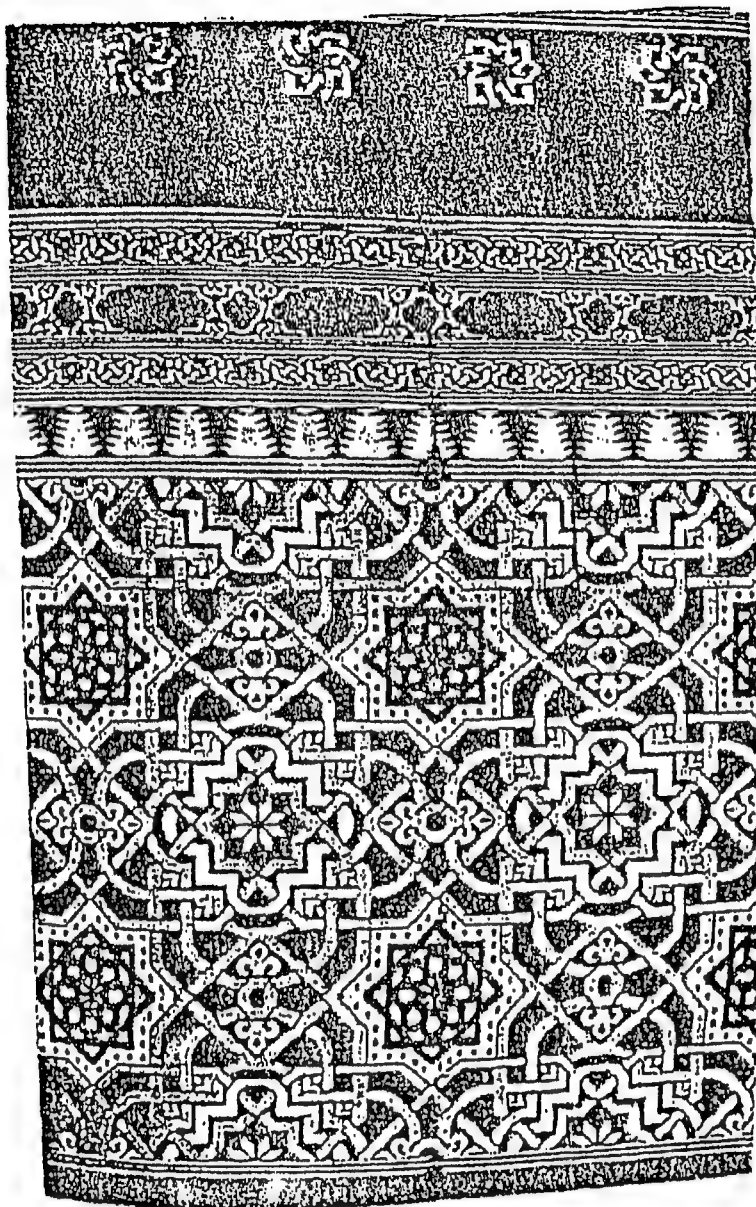
المنصور في هذه الغزاة الى ألفى كسوه وهذا شئ يصيغ عنه ساحه الملوك الدس دوس ملوك بنى مرين أعزهم الله بنصره فقد كانت الكسى لأول هذه الدولة التى رفع البربر المعظم معتمدنا بهذا الكتاب لواء الوفاء لها والكذب عنها مذكورة بهذه العهود ومحدده لشأنها بحيث تتهم الحكاية ويقصر الوصف" (٢٤) وكان المنصور من أبى عامر بسندعى أجناد البربر الى الأندلس ، فيخلع على الرجل منهم لباس الخمر الطرازي بدلًا من لباسه الخلق (٢٥) .

ولم يتبق من انتاج الطراز بقروطية سوى قطعة من النسيج الرقيق تعرف بطراز هشام المؤيد بالله عشر عليها فى سانت استيبان دى جورمات (غرماج) . وتحتفظ بها اليوم الأكاديمية التاريخية بمدريد ، وهى غشاء أصفر اللون من الكتان الرقيق يزدان شريط عريض أبيض اللون يميل الى الاصفرار ، ينقسم الى ثلاثة مناطق ، الوسطى منها تشغلها ١٣ حامة مثمثة الشكل على أرضية مذهبية ، تتصل فيما بينها بأشكال جسمية ، وبداخل الجوامت صور أشخاص مرتبطين فى جلستهم يمسك أحدهم بقنينة ، أو صور حيوانات تعورها الرشاقة أحدها يمثل أسداً مجنحاً ، أما المنطقتان العليا والسفلى فيشغلها نص كتابى منسوح بالخط الكوفى ، تميل رؤوس السيقان فى حروفها من أعلى الى الداخل . ونطالع فيه ما يلى (بسم الله الرحمن الرحيم البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين) (٢٦) وتشبه الرسوم المنسوجة على هذه القطعة نقوشاً تزدان بها بعض العلب والصناديق العاجية من صناعة مدينة الزهراء فى عصر الخلافة ومن الجدير بالملاحظة أن بقية أجزاء القطعة منسوجة من الخز وتزدان بألوان بيضاء وورقراء وحضراء وصفراء ووردية بين خطوط سوداء (٢٧) ويتجلى فى هذه القطعة بوضوح أثر التقاليد الفنية العراقية ، ومن المعروف أن التأثيرات العراقية بدأت تتدفق على الأندلس منذ عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى لم يكن يتحرج من اتخاذ الثياب العراقية رغم العداء السياسى القديم بين بغداد وقروطية منذ قيام دولة بنى أمية فى الأندلس وسدر على ميل هذا الأمير لارتداء الثياب العراقية المخلوبة من بغداد من نص أورده من القبطه سيرة ان الشاعر عبد الرحمن بن التمر دخل على الأمير عند زحف يوم ، عليه ، - ع فى عصبه



لُطْمَةُ سِنِ النَّسِيجِ طِرَازُ هِشَامِ الْمُرِيدِ ضَاعَةُ دَارِ الطَّرَازِ بِقَرْمَطَةِ

مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمَجْرِيِّ



قطعة من النسيج طراز غرناطة
(القرن التاسع الهجرى)

عراقية (٢٨) . ويؤكد هذه الحقيقة قطعة من النسيج المعروف بنسيج القبلة محفوظة بكنيسة سان ايسيدرو بليون تزدان بدوائر بداخل كل منها صورة فيلين متقابلين بينهما شجرة الحياة، ويعلو ظهر كل من الفيلين أسد يفترس القيل ، وعلى ظهر الأسد صفران رأساهما متدبران . ونسج حول كل دائرة طراز من الكتابة الكوفية نصها : (البركة من الله واليمن... لصاحبه أبى بكر مما عمل فى بغداد) نسجت طردا وعكسا (٢٩) . لقد كانت للمنسوجات العراقية سوق رابحه فى الأندلس ، اذ كانت الموصلية والعنابية البغدادية والجرجانية من النسيج المستطرف عند أهل الأندلس تعبر عن الأناقة والفخامة فى آن واحد، ولهذا اتخذت نموذجاً احتذاه الطرازون فى مدينة المرية فى عصر المرابطين كما سنوضح فيما بعد . وكانت هذه المنسوجات العراقية المجلوبة من العراق وخراسان فى عصر الخلافة من بين الهدايا التى قدمها الوزير أحمد بن شهيد الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ومن بينها سبعة أفريضة من نفيس الفلك خراسانية ، وستة مطارف عراقية خاصة له ، و٨٤ من الملاحف البغدادية لزينة الخيل مصنوعة من الحرير المذهب، وستة من السراقات العراقية (٣٠) .

وبالإضافة الى دار الطراز الخاصة بقرطبة ودار الطراز الخاصة التى اتخذها ابراهيم ابن حجاج باشبيلية تعددت دور الطراز العامة التى خصصت لأهل الأندلس ، وكانت موزعة على معظم مدن الأندلس بالإضافة الى بعض التجمعات العمرانية القروية التى كانت لديها أنوال لنسج المنسوجات الكتانية أو القطنية أو الحريرية . فكانت بالمرية وبجاجة ومالقة ومرسية وغرناطة واشبيلية وقرطبة وبطليوس وشنترين ولشبونة وغيرها من مدن الأندلس دور طراز عامة. واختصت بعض هذه المدن بنوع معين من المنسوجات ، فقد ذاعت شهرة بجاجة فى صناعة الحرير ، الى أن ظهرت المرية لثانقلت اليها هذه الصناعة (٣١) ، كما ورثت المرية أيضا شهرة قرطبة فى صناعة الوشى والديباج (٣٢) وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية وقيام الفتنة البربرية ، فقد ذكر ياقوت أنه كان يعمل بقرطبة "الوشى والديباج فيجاء عمله، وكانت أولا تعمل بقرطبة ، ثم غلبت عليها المرية ، فلم يثقف فى الأندلس من يجيد عمل الديباج احادة أهل المرية" (٣٣) واشتهرت اشبيلية بصناعة نوع من النسيج لا يتأثر بماء

المطر (٣٤) ، كما عرفت بنسج القطن الذى ينبت فى أرضها ويحسن ويزكو فى بقعتها (٣٥). واشتهرت بجانة بصناعة الحرير (٣٦) ، ويذكر ابن حوقل أن أردية أهل الأندلس المصنوعة فى بجانة كانت تحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها (٣٧) واحتفظت بجانة بهذه الشهرة حتى فاقتها المرية فى هذه الصناعة ، فانتقلت اليها صناعة الخز والحرير والحلل الموشية والديباج اليها . ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن فرج قوله : "حدث فيها (أى المرية) من صناعة الوشى والديباج على اختلاف أنواعه ومن صنعة الخز وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يصير مثله فى الشرق ولا فى بلاد النصارى" (٣٨) ، وهو ما أكدته الرازى فى قوله : "المرية مفتاح الرزق والكسب ، وموطن الخذاق من أصحاب الصناعات وفيها يصنع أيضا الحلل الموشية النفيسة" (٣٩) . وذاعت شهرة مرسية فى عصر الدولة الأموية "وبالطراز العجيبة والصناعة الغريبة للوطاء والبسط" (٤٠) ، كما اختصت سرقسطة بصناعة السمور وفى ذلك يقول العذرى : "ولأهلها فضل الحكمة فى صنعة السمور والبراعة فيه بلطيف التدبير ، يقوم فى طرزها بكدها منفردة بالنسج ، وهى الثياب المعروفة بالسرقسطية، لا تدانى تلك الصنعة ولا تحكى فى أفق من الآفاق" (٤١) . وتقدمت بسطة واشتهرت بصناعة الحرير وكان يتوفر فيها من شجر التوت مالا يحصى (٤٢) . وكان بسطة الطرز الشريفة (٤٣) .

واستمرت دار الطراز الخاصة بقرطبة تبأشر عملها فى عصر الفتنة ، فقد ذكر ابن بسام أن المستظهر بالله أقر على مراتب الخدمة طوائف منهم خدمة الطراز (٤٤) .

هوامش البحث

- (١) المقرئ ، نفع الطيب ، تحقيق يحيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٣١٠ - محمد محمد مرسى الكحلأوى ، مراكز صناعة الحرير فى الأندلس من خلال النصوص التاريخية مع تطبيقات على بعض من منسوجاتها الحريرية ، مجلة كلية الآثار ، العدد الرابع ١٩٩٠ ، القاهرة ص ٢٠٢ .
- (٢) أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، مؤلف مجهول ، نشره دون لافونسي القنطرة ، مدريد ، ١٨٦٧ ، ص ١١٩ ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشره ليفى بروفنسال وكولان ، لندن ، ج ٢ ، ١٩٤٨ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .
- (٣) المقرئ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .
- (٤) يقول ابن حيان فى المقتبس : "كانت هذه الدار البردية (يقصد دار الجرد أو دار الطراز كما شاعت تسميتها فيما بعد) من بنيان الأمير الداخل عبد الرحمن بن معاوية رحمة الله عليه" ، "المقتبس، تحقيق د. عبد الرحمن الحجي ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٦٦) كما يذكر أنها كانت تقع بغربى قصر قرطبة وفى صدر سوقها العظمى .
- (٥) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ١ ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٢١٥ .
- (٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩١ .
- (٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .
- (٨) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٤٨ وقد توفى ريان الفتى صاحب الطراز فى سنة ٢٩٨ هـ .
- (٩) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩١ .
- (١٠) ابن عذارى ، نفسه ، ج ٢ ص ١٩١ .
- (١١) نفس المصدر ، ص ١٩١ .
- (١٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق د. شاليتا ، وكورنطى وصبح ، مدريد ، ١٩٧٩ ، ص ٣٨٣ .
- (١٣) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠ .
- (١٤) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الخاص بالحكم المستنصر ، تحقيق د. الحجي ، ص ٦٦ .
- (١٥) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الخاص بعد الرحمن الناصر ، تحقيق شاليتا ص ٣٨٣ .
- (١٦) ابن حيان ، تحقيق الحجي . ص ٣ .
- (١٧) ابن حيان ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٦ .

- ٢٦٨ (١) ابن حيان ، تحقيق شاميتا ، ص ٢٦٨
- (١٩) نفس المصدر ، ص ٣٠٨ .
- (٢٠) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٧
- (٢١) هو نوع من الوبير الصوفى يجمع بين لين الخبز وريق الذهب بنساقط من حيوانات نحرية على ساحل شتوبين وفى ذلك يقول الاصطخرى 'ونقع بسسزين فى ومث من السنة من البحر ذابة نحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وري لين الخبز ، ولونه لون الذهب لا يعادى منه شيئا ، وهو عزيز قليل ، فيجمع وينسج منه ثياب ، فتتلون فى اليوم ألوانا ، ويعر عليها ملوك سوامية ، ولا ينتقل الا سرا ، وتزيد قيمة الثوب عن ألف دينار لغرته وحسه' (الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال احيني ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٥ - المقدسى ، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، تحقيق دى عوييه ، ليدن ، ١٦٠٦ ، ص ٢٤٠)
- وكان هذا الحيوان البحرى يعرف بأبى قلمون (المقدسى ، ص ٢٤٠)
- (٢٢) سقلاطونية صفة من كلمة سقلاطون ، وهو مصطلح من أصول يونانية Cyclation أطلق فى الغرب الأوروبي وكان يعرف فى اللغة الفرنسية القديمة باسم Siglaton
- Extrait des principaux geographes arabes du Moyen age , Paris - Beyrouth , 1932 , pp. 197 - 198)
- وقد أطلق هذا الاسم فى الغرب الأوروبى على سبيج من الحرير مطرز بالذهب ، اختصت بعداد بصناعته ، وأعتقد أنه سمي بذلك الاسم بسبب رسومات الدوائر التى تحملها المنسوجات البيضية والساسية والاسلامية
- (Marques de Lozo'ya, Historia del arte Hispanico, t. I. Barcelona , 193 , p. 268)
- (٢٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ . هنا وقد عرفت قرطبة بصناعة الفنك من وراء السمور (المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ص ١٨٤)
- (٢٤) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، ص ٦٨ .
- (٢٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .
- (26) Levi - Provençal , Inscriptions arabes d'Espagne , Paris , 1931 , p. 127 .
- (٢٧) جومث موريو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة د. أحمد لطفى عبد الدبيع ، والدكتور السبد عبد العزيز سالم ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٤١١ - محمد عبد العزيز مبرور ، الفنون الاسلامية فى المغرب : الاندلس ، بيروت ص ١٢٧
- (٢٨) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، نشر حليان ريبيرا ، مدريد ٩٢٠ ص

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم ، فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٨ - محمد الكحلأوى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٣٠) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، شره ليفى برونستال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٣٨ - لمزيد من التفاصيل عن صناعة الحرير فى الأندلس ارجع الى محمد الكحلأوى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما يليها .

(٣٢) كانت دار الطراز الخاصة تنتج ثياب الخلفاء من الحرير المختص المرقوم بالهذب المختلف الألوان (ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتلى والخير ، ج ٤ طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ ، ص ١٣٨ - المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ص ٢٣٤) . وذكر الرازى ان من بين المنسوجات التى تنتجها قرطبة فى عصر الدولة الأموية بالأندلس الأقمشة الناعمة والمنسوجات الحريرية السمكية وغير ذلك

(Levi - Provençal , La Description d'Al - Andalus de Razi, al- Andalus , vol. XVIII, 1953 , p. 65 .

(٣٣) باقوت ، معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١١٩ .

(٣٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، تحقيق كرامرز ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ص ١١٤ .

(٣٥) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، تحقيق د. عبد العزيز الأهرانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ٩٦ وأنظر ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، ص ٢٩٢ .

(٣٦) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٨ - محمد الكحلأوى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣٧) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٣٨) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٩٣ وما يليها .

(39) Levi - Provençal . La Description d' Al-Andalus , Op cit , p. 67 .

(٤٠) العذرى المصدر السابق ، ص ٩ . وذكر الحميرى أن لأهل مرسية حذق بصناعة البسط الرفيعة الشريفة

وتجديدها لا يبلغه غيرهم (الحميرى ، ص ١٨٢) ويطلق المقرئ على هذه البسط اسم التتالية

نسبة الى تتاله من عمل مرسية (المقرئ ، ج ١ ص ١٨٧) ولعلها حاله الواقعة شكالى

مرسية (الحميرى ، ص ٦٧) .

(٤١) نفس المصدر ، ص ٢٢ والسمور حسب ما ذكره المقرئ عن الحجارى حيوان يعمل من وبره الفراء

الربيع (المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٤) ، وقارن ما ذكره محمد الكحلأوى المرجع

للس

- (١٢) مجهول ، ذكر بلاد الاندلس ، تحقيق لويس مولينا ، ص ٧٦ .
- (١٣) ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، تحقيق د. أحمد لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٨٤ - محمد الكحلوى ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
- (١٤) ابن هشام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د. احسان عباس ، ج ١ قسم ١ ، ص ٥١ .

من جديد حول برغواطه هراطقة المغرب في العصر الاسلامي

من جديد حول برغواطة هراطقة المخرب ففي العصر الإسلامي

يعتبر قيام برغواطة في اقليم تامسنا ^(١) من المغرب الأقصى ، في القرن الثاني للهجرة ، حادثة خطيرة ، وسجل مرحلة حاسمة في تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، فقد ارتبط قيامها في تلك البقعة النائية من المغرب الاسلامي بمعتقد غريبة ومتطرفة ، أثارت اهتمام الباحثين وجعلت برغواطة مثار مناقشات عديدة ، دارت حول أصول الفكر العقائدي عند البرغواطيين بل وتجاوزت ذلك إلى الخوض في أصل برغواطة ، وتعريف كيانتها . ويرى الجمهور الاعظم من الباحثين القدامى منهم والمعاصرين ، أن برغواطة دولة خارجة عن تعاليم الإسلام الى حد أن الكثيرين منهم وصموها بالهرطقة والوثنية ^(٢) ، بينما تصدت فئة قليلة منهم للدفاع عنها وعن عقيدتها وعن نسبتها للإسلام ^(٣) .

وفي تصوري أن الفكر العقائدي لبرغواطة كان يجمع بين أفكار ومذاهب وأديان متعددة ، بدءاً من الفكر السني الى الخارجية المتطرفة ، والتشيع ^(٤) ، وكذلك جانباً من الدونائية ^(٥) وبعض الأفكار اليهودية ، بل يمكننا أن نلمح في فكرهم العقائدي بعض التقاليد البربرية المحلية والوثنية الامر الذي يجعل من البرغواطية فكراً خارجاً عن الدين الاسلامي الحنيف .

وسنوضح في بحثنا استناداً على النصوص والادلة التاريخية كيف كان هذا الكيان البرغواطي يشكل خطورة شديدة على الاسلام في المغرب طوال العصور الوسطى ، خاصة وأن دولة برغواطة امتدت جغرافياً في بقعة متسعة وغنية اقتصادياً من المغرب الاقصى ، كما امتدت زمنياً فترة طويلة استمرت حتى بداية عصر الموحدين .

١- أصل برغواطة ، ومنازلها في المغرب الاسلامي :

قبل أن نتعرض لأصل برغواطة يجدر بنا أن نوضح من البداية أننا نهدف، الى الفصل بين الاصل الاجتماعي لبرغواطة كقبيلة بربرية وبين أصل «بنى طريف» حكامها الذين أسسوا كياناتها السياسية . ويكتنف الحديث عن برغواطة باعتبارها قبيلة بربرية غموض يتعذر معه التوصل الى حقيقة أصل هذه القبيلة بسبب الاختلاف الشديد فيما أوردته المصادر والمراجع بشأن هذه القبيلة .

فإذا رجعنا الى المؤلف المجهول صاحب كتاب مفاخر البربر نجد انه ينسب برغواطة إلى زناتة ويعبر عن ذلك بقوله "وكان ظهور برغواطة في سنة ١٢٧ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان ، واستقر ملكهم آخرأ بتامسنا . وهم في الاصل من زناتة .." (٦) . وقد أخذ بتلك الرواية ابن الخطيب في موضع من كتابه أعمال الاعلام (٧) ، وتابعه في ذلك عدد من الباحثين المعاصرين على رأسهم الدكتور حسين مؤنس (٨) والدكتور الطالبي (٩) .

أما ابن خلدون فقد كذب الرأي القائل بنسبة برغواطة الى زناتة بقوله "وقد يغلط بعض الناس في نسب برغواطة هؤلاء فيعدهم في قبائل زناتة وليس القوم من زناتة ، ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لاخوانهم المصامدة . " (١٠) ويؤكد ابن خلدون في أكثر من موضع من كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» نسبة برغواطة الى مصمودة ، ففي أحد المواضع يقول "وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بن بربر فهم أكثر قبائل وأوفرهم ، من بطونهم ، برغواطة ، وغمارة ، واهل جبل درن . ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الاحقاب المتطاولة . وكان المتقدم فيهم قبيل الاسلام وصدره برغواطة . ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن الى هذا العهد .." (١١) .

وفي موضع آخر يؤكد ابن خلدون نسبة برغواطة لمصمودة في سياق حديثه عن غمارة المصمودية وصلتها ببرغواطة (١٢) .

وقد أخذ برواية ابن خلدون كل من الدكتور حسن محمود (١٣) ، ود . محمد الفاسي والمستشرق هريك (١٤) ، ود . محمد ولد داداه (١٥) ، والدكتور ابراهيم حركات ، والاستاذ ميلود عشاق (١٦) ، والاستاذ تراس (١٧) .

وفى نفس الوقت يري، بعض مؤرخى العرب أن برغواطية لم تكن قبيلة واحدة وإنما كانت أخلاطاً بربرية لقبائل كثيرة لا يجمعها اصل واحد ، ولا تنتمى إلى أب واحد ولا الى أم واحدة ، ومن هؤلاء ابن أبى زرع (١٨) ، وابن الحطيب (١٩) والسلاوى الناصرى . (٢٠) وقد قام بعرض هذا الرأى كل من الاستاذين محمد عبد الله عنان (٢١) والڤكتور احمد مختار العبادى (٢٢) .

والارجح فى تصورى أن برغواطية تنتمى إلى مصمودة استناداً الى رواية ابن خلدون الجديدة بالثقة ، ولأن عصبية برغواطية زادت فى عصر دولة الموحدين المصامدة .

وكانت برغواطية تقيم فى اقليم تامسنا الذى يمتد ما بين وادى نهر أبى الرقراق ووادى ام الربيع (٢٣) . وهذه المنطقة كانت تخضع قبل الفتح الاسلامى لنفوذ يليان حاكم سبتة (٢٤) .

وكان أول احتكاك مباشر لبرغواطية بالاسلام عندما اغار عقبة بن نافع على بلاد تامسنا بالسوس الادنى فى ولايته الثانية على المغرب وانتهت غارته السريعة بوقوفه على ساحل البحر المحيط عند ايفيران يطوف ودخوله بقمرسه فى مياه المحيط حتى بلغ الماء بطن الفرس (٢٥) . ولكن حملة عقبة كانت سريعة ولم تسفر عن انتشار الاسلام فى هذه النواحي التى قدر لها أن تتعرض لحملة موسى بن نصير فيما يقرب من عام ٨٧ هـ ، وفيها خرج موسى على رأس جيش كثيف يتألف من وجوه العرب ، وبعض البربر ، لفتح منطقة السوس الاقصى والادنى ، وقد انتهت هذه الحملة بالنجاح ، وأسفرت عن فتح بلاد درعة القريبة من منازل برغواطية . ومن هناك اتجه موسى بجيشه الى طنجة فافتتحها وترك عليها طارق بن زياد ، وعهد اليه بتعليم بربر برغواطية بغمارة الإسلام ، فترك لهم من العرب سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الاسلامى (٢٦) .

وليس من السهل أن نحدد بكل دقة منازل برغواطية على خريطة المغرب ونرصد خطوط حدودها الجغرافية على وجه التحديد (٢٧) ، فقد كانت حدودها تتذبذب انكماشاً واتساعاً تبعاً لازدياد نفوذ الدولة على المناطق المجاورة أو

انحسار ذلك النفوذ .

ويذكر الحسن بن الوزان ، المعروف بليون الافريقى الحدود التقريبية لتامسنا فيقول "تامسنا اقليم تابع لمملكة فاس ، يبتدى غرباً عند ام الربيع ، وينتهى الى ابى رقراق شرقاً ، والأطلس جنوباً ، وشواطىء البحر والمحيط شمالاً" (٢٨٠) بحيث يبلغ طول إقليم تامسنا من الغرب الى الشرق ثمانين ميلاً ، ومن الجنوب الى الشمال نحو ستين ميلاً .

وكان اقليم تامسنا يضم نحو اربعين مدينة تشتمل على نحو ثلاثمائة قصر (٢٩) أهمها مدينة شالة *Cella* التى يرجع إنشاؤها إلى الفينيقيين فى رأى (٣٠) ، والرومان فى رأى آخر (٣١) ، وتقع بالقرب من نهر ابى الرقراق على بعد نحو ميلين من البحر وميل واحد من مدينة الرباط . وكانت شالة مركزاً تجارياً هاماً فى زمن الرومان كما كانت آخر القواعد العسكرية الرومانية الممتدة شمالاً على سواحل المحيط الاطلسى حتى العاصمة طنجة *Tingis* ، التى كانت تربطها بشالة طريق رومانية قديمة (٣٢) . ومن الجدير بالذكر ان دولة برغواطة اتخذت من شالة حاضرة لها فى كثير من الاحيان (٣٣) ، غير انها تأثرت عمراً بالهروب المتتالية التى دارت بين برغواطة ، والقوى الاسلامية المعاصرة لها فى المغرب ، كدولة الأدارسة ودولة المرابطين ، ويرجع الفضل الاعظم الى المنصور الموحدى فى إعادة بنيان اسوارها كما زودها بزاوية عظيمة ، وقصر لجنوده ، ومسجد جامع أضيفت إليه قاعة بلغت الغاية فى الروعة والجمال ، وأوصى المنصور بأن يدفن فيها ، فنقل جسده بعد وفاته من مراكش اليها ، ودفن فيها ، واحتفظ خلفاء الموحدين من بعده بهذا التقليد ، وتابعهم فى ذلك من بعدهم سلاطين بنى مرين . وتقع شالة قبالة مدينة سلا التى لا يفصلها عنها سوى نهر ابى الرقراق ، ولذلك عرفت شالة بشالة سلا . (٣٤) ويلى شالة فى الاهمية مدينة تكيث التى تقع على ضفة وادى ام الربيع فى مجاز الطريق المؤدية من تادلا الى فاس ، وكانت مركزاً تجارياً عامراً ، وسوقاً لبيع القمح ، غير انها دثرت فى اعقاب الحروب الطويلة ضد برغواطة (٣٥) ، اما ادندون فكانت بلدة صغيرة فى نطاق اقليم تامسنا اسست مبانيتها بين التلال ، وتقع على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من ساحل المحيط الاطلسى ، ولم يتبق للاسف

من آثار هذه المدينة إلا القليل يتمثل فى اسس جدارية وبعض السوريات المتكسرة . وقد حل الخراب بهذه المدينة من جراء حروب برغواطة مع غيرها من القوى الاسلامية فى المغرب (٣٦) . ومن بين مدن تامسنا كذلك زرقة التى كانت تقع فى منطقة سهلة تتفجر فيها العيون وتجرى فيها الجداول ، وقد تخربت هذه المدينة ودثرت تماماً ولم يبق لها أى أثر (٣٧) ، ومنها أيضاً مدينة انفا ، التى يرجع الفضل فى تأسيسها الى الرومان . وتطل هذه المدينة على المحيط الاطلسى ، وتبعد عن أزموور بنحو ستين ميلاً (٣٨) . ومدينة تاغية الواقعة أيضاً على المحيط الاطلسى (٣٩) .

اما أزموور فمدينة تقع على مصب نهر ام الربيع (٤٠) على حدود تامسنا ولكن الحسن بن الوزان يدخلها فى نطاق اقليم دكالة (٤١) . ومن الملاحظ أن حدود دولة برغواطة اتسعت فى كثير من الاحيان لاسيما فى بداية القرن الخامس الى ماوراء حدود تامسنا ، فقد امتدت حدودها الجنوبية جنوبى شالة على طول سواحل المحيط الاطلسى حتى شملت دكالة وعبدية وبلاد الخوز (٤٢) جنوبى أسفى ونواحي مراكش ، مما ترتب عليه خضوع السكان المسلمين المقيمين فى هذه المناطق للملك برغواطة والتدين بدينهم . أما حدود برغواطة الشمالية فقد امتدت الى شمال الرباط ، وتمكن ملوكها من انتزاع مدينة المعمورة من ايدي بنى يفرن الزناتيين اصحاب سلا ، الذين طالما ناوأوا ملوك برغواطة ، ويعتبر الحسن بن الوزان مدينة المعمورة من بين مدن اقليم تامسنا (٤٣) .

وبلغ سلطان دولة برغواطة حتى سبتة وطنجة زمن أسرة سقوت البرغواطى كما سنوضح فيما بعد . وكانت لبرغواطة قوة بحرية قاعدتها ثغر فضالة (٤٤) .

٢- الكيان السياسى لبرغواطة :

يختلف المؤرخون فى تحديد طبيعة كيان برغواطة فى العصر الاسلامى ، وتوضيح ما إذا كانت مجرد قبيلة عظمى من قبائل البربر ام دولة تحتفظ بكل خصائص الدول المستقلة . فإذا سلطنا الاضواء على كل الظروف المحيطة ببرغواطة ، فإننا نجد ان برغواطة قبيلة اتاحت لها الظروف ان تصبح دولة قوية مستقلة ، حافظ أبناؤها على استقلالها بفضل ثرواتها الاقتصادية الهائلة .

وامكاناتها العسكرية الوفيرة ، وقدرات اهلها العالية بل ان برغواطة فى تصويرى لم تكن مجرد دولة عادية بل كانت دولة قوية منذ قيامها ، خطيرة فى تطلعاتها واهدافها ، خرجت عن تعاليم الاسلام ، وتمكنت من البقاء حتى العصر الموحدى رغم محاولات القوى الاسلامية المتعاقبة فى بلاد المغرب ، التخلص منها لخروجها عن الاسلام ومروقها .

لقد بلغت برغواطة من القوة والبأس الى الحد الذى وصفتها به المصادر العربية بأنها مملكة (٤٥) ، فهى على هذا النحو لم تكن مجرد قبيلة أو حتى إمارة صغيرة بل كانت دولة مستقلة ، يتولاها ملوك اقوياء الامر الذى يدعونا الى مقارنتها بدولة الادارسة أو دولة الرستميين ، فى مجال التاريخ السياسى للمغرب الاسلامى ، فقد أدت دوراً سياسياً هاماً على مسرح أحداث المغرب لفتترات طويلة من التاريخ الاسلامى . وإذا كان الغموض يكتنف تاريخها ، وإذا كانت معظم المصادر العربية قد اغفلت الحديث عنها (باستثناء البكرى وابن خلدون وابن ابي زرع وابن الخطيب) ، فإننى أعزى ذلك التجاهل لمروقها وخروج ملوكها عن تعاليم الاسلام .

لقد بلغت برغواطة درجة كبيرة من الاهمية والسطوة والسلطان الى حد أن بعض المستشرقين يبالغ فى وصفها بأنها "امبراطورية كاملة" (٤٦) . ولقد هيات الظروف الطبيعية والثروات الاقتصادية لبرغواطة الفرصة لكى تصبح دولة تتوفر لها عوامل الاكتفاء الذاتى والحماية الطبيعية (٤٧) : فالجبال المحيطة بتامسنا كفلت لها الحماية الطبيعية ، وذلك أن سهول تامسنا كانت تقع بين جبال الاطلس وبين سلسلة اخرى من الجبال ، اما جبل مسطاسة فيمتد من الشرق الى الغرب ويتأخم غرباً سهل ادخسان المصائب لتامسنا (٤٨) ، هذا بخلاف مجموعة من التلال تخترق ارض تامسنا .

وكانت قمم هذه الجبال تتوج فى فصل الشتاء بالثلوج ، وكان هذا من حسن طالع برغواطة ، إذ اتاح لهذه الثلوج ان تذوب فى فصل الصيف وتتحول الى مجارى مائية تتدفق لتغذى الجداول والرواقد التى امتلأ بها بسبط تامسنا ، والتى كانت تنحدر من جبال الاطلس لتصب فى المحيط الاطلسى . لقد بلغ

عدد هذه الروافد نحو المائة من أهمها وادى ماسنات ، ووادى وانسيفين الذى كان يلتقى مع نهر سلا (ابى الرقراق) جنوبى الرباط (٤٩) . وقد كان لهذه النهريرات والروافد اثرها فى ازدهار الزراعة فى سهول تامسنا ذات التربة الزراعية الخصبة (٥٠) . وكان ذلك من اهم العوامل التى جعلت برغواطة ، دولة زراعية من الطراز الاول ، فكانت تنتج الحبوب ولاسيما القمح الذى اشتهرت به مدينة تكييت على وجه الخصوص ، فكان جميع سكان المناطق المتاخمة لبرغواطة يقدون الى هذه المدينة لشراؤه (٥١) ، كما اشتهرت بزراعتها مدينة النخيلة التى كانت تقع فى وسط تامسنا وفى قلب سهلها . وتذكر كتب التاريخ ان قمحها كان من الكثرة بحيث ان الناس كانوا يستبدلون احياناً بقلين ، بحمل جمل كبير من القمح (٥٢) ، وكانت مركزاً من اهم مراكز بيعه . كذلك كانت تنتج الشعير الذى كان يشكل الغذاء الرئيسى لسكان تامسنا فى معظم اوقات العام . كما اشتهرت برغواطة بزراعة الفواكه بأنواعها المختلفة ، كالتين والكرز والنبق ، فى مدينة زرفة (٥٣) ، والكروم بالنخيلة (٥٤) ، وأنفا التى اشتهرت بزراعتها وزراعة الخيار والبطيخ كذلك (٥٥) . أما القطن فكان يزرع فى سلا . هذا بالإضافة الى الثروة الخشبية التى تميزت بها برغواطة بفضل الغابات (٥٦) التى كانت تغطى أزموذ وزعير والنخيلة وكرفلة . وبالإضافة الى هذه الثروات الزراعية لم تكن برغواطة تخلو من الثروات المعدنية ، فقد كانت غنية بمناجم الحديد (٥٧) ، كذلك اشتهر اقليم تامسنا بالثروة الحيوانية وإنتاج العسل (٥٨) .

ولقد اتاحت هذه الثروات الاقتصادية المتنوعة لبرغواطة ان تقيم علاقات تجارية مع بعض الدول الاخرى . ويؤكد المستشرق J. Devisse أن برغواطة ارتبطت تجارياً مع الاتدلس بروابط غاية فى الوثاقة والقوة (٥٩) ، ونافست بذلك سجلماسة ، ومن ثم اقدم البرغواطيون على مناورة سجلماسة واعتراض قوافلها التجارية الامر الذى دفع سجلماسة الى تغيير طرقها التجارية كلية تجنباً للخطر البرغواطى على تجارتها .

ويشير ابن حوقل إلى النشاط الاقتصادى واسع النطاق الذى شهدته برغواطة بحيث كانت منتجماً لاقوام من اهل سجلماسة وأغمات والسوس الذين كانوا يقدون اليها بالتجارة (٦٠) مما ترتب عليه استقلال برغواطة بمقوماتها الاقتصادية

الذاتية فكانت على حد قوله بلداً مستقلاً عن الحاجة إلى ما في سره « (٦١) .

وخير دليل يعبر عن ازدهار الاحوال الاقتصادية في تامسنا وبلاد برغواطة ما ذكره ابن خلدون في سياق حديثه عن سكان جبل درن من المصامدة من برغواطة وغمارة وعوالم من صنهاجة ومطفرة وأوربة بقوله "يسير الراكب فيها معترضاً من تامسنا وسواحل مراكش الى بلاد السوس ودرعه من القبلة ثمانى مراحل وأزيد تفجرت فيها الانهار ، وجلل الارض خمر الشعراء ، وتكاثفت بينها ظلال الادواح ، وزكت فيها مواد الزرع والضرع ، وانفسخت مسارج الحيوان ومراتع الصيد ، وطابت منابت الشجر ، ودرت افاريق الجباية ، يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم ، قد اتخذوا المعقل والحصون ، وشيدوا المباني والقصور ، واستغنوا بقطرهم منها عن اقطار العالم فرحل إليهم التجر من الآفاق . واختلفت إليهم النواحي والامصار ، ولم يزالوا منذ أول الإسلام وما قبله معتمري بتلك الجبال قد اوطنوا منها أقطاراً بل اقاليم تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم ، واقتربت اسماؤها باقتراق أحيائهم . « (٦٢) . وما ساهم في دعم الكيان البرغواطي ارتباط برغواطة بأحلاف مع مجموعة من القبائل البربرية ، نجحت برغواطة في تحويلها عن الاسلام الصحيح ، ودفعتها الى اعتناق عقائدها الخارجة عن الاسلام ، وتستند في ذلك على رواية للبكرى الذي يزودنا بأسماء القبائل التي تحالفت مع برغواطة ودانت بمعقيدتها الخارجة عن الاسلام . يقول البكرى «وان قبائل برغواطة الذين يدينون لهم ، وهم على ملتهم جراوة ، وزواغة ، والبرانس ، وبنو أبى ناصر ، ومنجصة ، وبنو أبى نوح ، وبنو وأغمر ، ومطفرة ، وبنو بورغ ، وبنو دمر ، ومطماطة ، وبنو وزكسينت ، وعددهم ينتهى ازيد من عشرة الاف فارس.. « (٦٣) .

ويضيف البكرى الى هذه القبائل التي تبعت هراطقة برغواطة أسماء عدد كبير من القبائل البربرية التي حافظت على اسلامها الصحيح رغم تبعيتها لبرغواطة وخضوعها لها ، فيقول "ومن يدين لهم من المسلمين وينضاف الى ملكتهم : زناتة الجبل ، وبنو بليت ، وغالته ، وبنو واوسينت ، وبنو يفرن ،

وينو ناغيت ، وينو النعمان ، وينو افلوسة ، وينو كونة ، وينو يسكر ،
وأصاده ، وركانة ، وايزمين ، ومنادة ، وماسينة ، ووصانة ، وترارثة ، ومبلغ
عدهم نحو إثني عشر ألف فارس .^(٦٤) .

وفى كثير من الأحيان كانت برغواطة ترتبط فى حلف مع غمارة المسمودية
التي كانت تنزل على مقربة من تامسنا ، ويتصل قبيلها بسكان برغواطة
المستقرين بريف المحيط الأطلسي^(٦٥) ولم يكن ارتباط برغواطة بغمارة أمراً
غريباً ، فمن المعروف أن حلف مصمودة الذي كان يضم قبائل وفيرة العدد كان
من أهم التحالف القبليّة فى المغرب الأقصى ، ولهذا لا نعجب إذا تشابهت مظاهر
الحياة عند المصامدة بنظائرها عند البرغواطيين ، فقد كانوا زراعاً مستقرين
ينزلون بالمدن والقرى ويلتصقون بالأرض ، كذلك التقت غمارة مع برغواطة^(٦٦)
فى كثير من الأمور الدينية الخارجة على الإسلام كما سنوضح على الصفحات
التالية .

وتعتبر دكالة من القبائل التي ألقت مصمودة السهول وارتبطت ببرغواطة ،
وكانت منازل دكالة فى جنوب وادى أم الربيع ، وكذلك ارتبطت بها رجراجة التي
توطنت المناطق المطلة على وادى تنسيفت^(٦٧) .

٣- قيام دولة برغواطة :

قلد الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عاملاً من قبله
على المغرب كله لما عرف عن حزمه وكفايته فى ادارة شئون مصر من قبل
وامتثل ابن الحبحاب لأمر الخليفة ورحل إلى المغرب بعد أن ترك ولده القاسم
على مصر . وفى المغرب ، أسند ابن الحبحاب ولاية السوس بما فى ذلك منطقة
تامسنا الى ولده اسماعيل ، فى حين ولى عمر بن عبد الله المرادى على طنجة
وما يليها من المغرب الأقصى ، وعرف عمر بشدة تعصبه للعرب على البربر
^(٦٨) . وأساء السيرة مستثيراً بذلك مشاعر الإهالى الامر الذى دفع هؤلاء الى
الخروج عليه ، فسير اليهم ابن الحبحاب حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع
سنة ١١٦ هـ ، على رأس جيش كبير لتأديبهم وردهم الى الطاعة . ونجح هذا
الجيش العربى فى اداء مهمته ، فقد اكتسح السوس الأقصى والادنى كله بما فى^١

ذلك تامسنا حتى وصل الى ارض السودان (٦٩) . ويرى بعض المؤرخين أن السبب في إنفاذ هذه الحملة الى تلك المناطق النائية من بلاد المغرب الاقصى ، ربما يرجع إلى ارتداد القبائل القاطنة هناك عن الاسلام (٧٠) . ولكننا نعتقد أن هذه القبائل ظلت محافظة على إسلامها حتى هذه اللحظة بسبب تقبلها للمذهب الصفرى الخارجى ، كما ستوضح الاحداث التاريخية ذلك فيما بعد ، وإن كان ذلك لا يعنى أن تفهم هؤلاء البربر للإسلام وأصوله كان صحيحاً ، أو أن إسلامهم كان صادقاً ، فخروج برغواطة على الدين الاسلامى وتعاليمه بعد فترة وجيزة من تلك الاحداث ، وشرع ملوكها لمقائد جديدة هى مزيج من اديان ومذاهب مختلفة يؤكد فقر الفكر الاسلامى الصحيح عند سكان تلك المناطق وسطحية ما كانوا يعرفونه عنه ، وعدم تعمقهم فى فهم الشريعة الاسلامية ، بسبب حداثة عهدهم بالاسلام ومحاولة ما تعلموه على فقهاء المسلمين فى اصوله وقواعده . وفى ذلك الوقت ، كان الخوارج قد شرعوا فى التسلل الى عمق بلاد المغرب لبعدها عن دائرة نفوذ الخلافة الاموية فى المشرق الاسلامى (٧١) ، وبدأوا يشنون تعاليمهم التى تدعو إلى المساواة بين جميع الاجناس وبين العناء البربرية المضطهدة ، مستغلين فى ذلك العداء القائم بين العرب والبربر المغرب ، والتزاعات العصبية بين العرب القيسية والعرب اليمينية .

وهكذا وجد الخوارج فى ارض المغرب تربة صالحة لغرس مبادئهم المنادية بالمساواة فى المجتمع الإسلامى بين سائر افراده فى نفوس بربر المغرب ، فانتشر المذهب الإباضى المعتدل فى المغرب الاوسط والقسم الشمالى من المغرب الاقصى . أما المذهب الصفرى ، وهو مذهب معتدل فى المشرق الاسلامى ، متطرف فى المغرب الاقصى ، فقد لقي قبولاً واسع النطاق عند بربر القسم الجنوبى من بلاد المغرب (٧٢) ، أى فى المناطق الممتدة من السوس الادنى الى جبال درن حيث قبائل برغواطة ، وغمارة ، ومكناسة ، وزناتة كما تسلل إلى قلوب الافارقة والسودان (٧٣) .

وبرز من بين الشخصيات البربرية التى انضوت الى الخوارج وتقبلت الفكر الخارجى ، رجل من مطفرة هو ميسرة المطفرى (٧٤) ، أحد طلاب العلم الخارجى ، وكان قد خرج مع بعض اصحابه الى دمشق ليفضى الى الخليفة

الاموى هشام بن عبد الملك بشكوى قومه من بغى عماله على المغرب ، وما بلبقاء البربر من ظلم صارخ على أيديهم ، ولكن الإبرش الكلبي حاجب الخليفة لم ييسر لهم مهمتهم ، فلما يتسوا من مقابلة الخليفة تركوا رقاعاً بأسمائهم وقفلوا عائدين الى بلادهم ، وقد اعتزموا شق عصا الطاعة على الدولة الاموية ، والقيام بشورة عارمة فى المغرب للتخلص من الحكم الاموى المسد ، وتحرير البربر من الظلم والعسف الذى كانوا يعانونه على أيدي عمال الدولة الاموية فى المغرب ، ومن الواضح ان ميسرة خرج من اعتداله وتحول الى الصفرية المتطرفة ، وقاد جماهير البربر الصفرية فى ثورة عاتية ضد العرب انضم إليه فيها بربر برغواطة بزعامة رجل يدعى طريف ، وولده صالح (٧٤) ، وكانوا على المذهب الصفري كما سبق أن أوضحنا ، كما انضم إليه بربر مكناسة وطانفة من سكان طنجة بزعامة عبد الأعلى ابن جريج ، ودان له المغرب الاقصى كله مما شجعه على الثوب بعمر بن عبد الله المرادى (٧٦) والى طنجة وقتله ، وإسناد ولايتها الى حليفه عبد الأعلى بن جريج ، ثم سار ميسرة الى السوس فى حشود ضخمة من برغواطة وغيرها من القبائل ، وأوقع بقوات اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب وقتله ، مما وضع العرب فى موقف لا يحسدون عليه .

وقعت هذه الاحداث بسرعة خاطفة دفعت عبيد الله بن الحبحاب المقيم فى القيروان الى أن يبعث فى طلب حبيب بن أبى عبدة من صقلية ، ودارت المعركة بين العرب والبربر على مقربة من طنجة ، وانتهت بهزيمة مخزية منى بها العرب ، قتل فيها أشرافهم وكما تهم وعرفت الواقعة لذلك بوقعة الاشراف . ويبدو أن ميسرة كان يسعى قبل أن يشتبك العرب مع البربر فى القتال إلى طلب السلم حقناً للدماء أو أنه تراجع عند بداية الاشتباك ، فأقدم قومه على قتله ونصبوا مكانه خالد بن حميد الزناتى المعروف بتطرفه وإن كان هناك من المؤرخين من ينكر ذلك ويعزون اقدام قومه على قتله بأنه أساء الى اتباعه بعد الانتصار الذى احرزه البربر على العرب وأنه ادعى الخلافة وتسمى بها (٧٧) ، فثاروا عليه وقتلوه وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى (١٢٢ هـ) الذى قدر له أن يتغلب على جيوش العرب الشامية والبلدية فى بقدرية ، ويبدو ان طريف صاحب ميسرة المطغرى وحليفه أبدى استياءه لمقتل صاحبه وانتلاب اتباعه عليه .

فاعتزل الثورة وتراجع الى اقليم تامسنا ، وبدأ في غمرة غضبه يرسى قواعد دولة مستقلة في هذا الاقليم من المغرب الاقصى متناسياً المبادئ السابقة التي كان قد اعتنقها ، ودوره الثوري الذي قام به ، وركز اهتمامه على تأسيس ملك قوى له ولائته ، من بعده ، لاسيما انه كان يتولى الرئاسة من قبل ميسرة على زناتة وزواغة كما ان ميسرة كان قد أوصى به اهل تامسنا (٧٨) . وربما كان هذا الموقف من طريف في اعقاب مصرع ميسرة ، وحرصه على تأسيس دولة له في تامسنا ينهض دليلاً على صحة رأى فريق من الباحثين يرون أن الدافع الرئيسى لثورة البربر في المغرب الاقصى ، سياسى ، خاصة وان هذه الثورة البربرية كانت من العنف وصحبها من السلوكيات ما يتنافى مع مبادئ المذهب الاباضى السمحة وهو مذهب معتدل يتفق في كثير من اصوله وفروعه مع مذهب اهل السنة ، كما ان المذهب الصفري من المذاهب الخارجية المعتدلة (٧٩) . وفي نفس الوقت يناقض قيام طريف بتأسيس دولة برغواطة الرأى القائل بأن برغواطة كانت تستهدف الإبقاء على مذهبها الصفري (٨٠) طوال العصر الاسلامى والاتصوا . بذلك في فلك الدول الاسلامية الخارجية ، فخرج طريف إلى تامسنا عقب مقتل ميسرة حليفه السابق ، لم يدفعه الى اعتزال الثورة الصفرية فحسب ، بل إلى الشروع في نبذ تعاليم الاسلام كلها ، من خلال الاعلان بقيام دولته التي سيصبح لها في عهد ولده صالح مبادئ غريبة هدامة للاسلام ، واعتقد ان اعتزال طريف الثورة ضد العرب حدث نتيجة لمقتل حليفه ميسرة ، وبدافع من حرصه على تحقيق امل كان يحذره بصرف النظر عن أى اعتبارات دينية أو مذهبية .

وسيتأكد رأى هذا عند حديثنا على الصفحات المقبلة عن تفاصيل عقيدة برغواطة التي تجمع بين العديد من الافكار والمبادئ الدينية .

ونصل بذلك الى نقطة البداية لدولة برغواطة ككيان سياسى مستقل له حكام ارتفعوا الى مصاف الملوك ، واولهم طريف الذى اثار قضايا عديدة حول اصله . فلهذا اختلفت آراء المؤرخين وتعددت بشأن أصله ، وسنقدم فيما يلى عرضاً لاهم هذه الآراء ثم ندلى برأينا مستنديين على النصوص المستقاة من المصادر التاريخية لتتوصل الى حقيقة هذه الشخصية التي احدثت بأفكارها ومبادئها

انقلاباً في المغرب الاقصى ، وشغلت المسرح السياسي في المغرب لفترات طويلة .

يرى الفريق الاول من الباحثين أن طريف حليف ميسرة ، ومؤسس دولة برغواطة هو نفسه طريف الذي عبر الى الاندلس في سنة ٩١ هـ على رأس حملة استطلاعية سبقت عبور جيش طارق بن زياد . وانه هو نفس طريف الذي تسمت جزيرة طريف باسمه . ويتمثل هذا الفريق في جملة من كبار الباحثين في تاريخ الاندلس هم ، الدكتور محمود اسماعيل (٨١) ، والدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٨٢) ، والدكتور حسين مؤنيس (٨٣) ، والدكتور احمد مختار العبادي والدكتور رجب محمد عبد الحليم (٨٤) . وعلى الرغم من إجماعهم على هذا الرأي إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم حول تحديد اصل طريف هذا ، فبينما يرى أ. د. محمود اسماعيل أن طريف واسمه طريف بن شمعون كان بربرياً يرى د. رجب محمد عبد الحليم أن طريف مؤسس دولة برغواطة الذي هو نفسه طريف بن مالك ، كان بربرياً الاصل مغربي المولد ، في حين يرى كل من أ. د. سعد زغلول و أ. د. حسين مؤنس و أ. د. أحمد العبادي أن طريف كان يدعى طريف بن مالك أو ملوك ، وأنه عربي الاصل .

أما الفريق الثاني فيرى أن طريف ، قائد الحملة الاستطلاعية على جنوب الاندلس عربي الاصل من معافر أو النخع اليمنية ، وأن جزيرة طريف نسبت اليه . ولم يجد انصار هذا الرأي ما يدفعهم الى الربط بين طريف صاحب الحملة الاستطلاعية الى الاندلس ، وبين طريف مؤسس دولة برغواطة .

وأنصار هذا الرأي أ. د. السيد عبد العزيز سالم (٨٥) ، ود. محمد عبد الحميد عيسى (٨٦) .

أما الفريق الثالث من الباحثين فيرى أن طريف حليف ميسرة ومؤسس الدولة البرغواطية اسمه طريف بن شمعون بن اسحق بن يعقوب ، وانه كان يهودياً من مدينة برباط التابعة لكورة شذونة بالاندلس ، وأنه اعتنق الاسلام .

ويأخذ بهذا الرأي الاستاذ محمد عبد الله عثان (٨٧) ، والدكتور حمدي عبد المنعم حسين (٨٨) . وباستطلاع آراء هؤلاء الباحثين وبالرجوع الى المصادر

العربية التي استندوا عليها نجد أنها تتناقض جميعاً فيما بينها بحيث يصبح من المتعذر التوصل الى حقيقة شخصية طريف مؤسس دولة برغواطية .

وأميل إلى الاعتقاد بأن طريف مؤسس دولة برغواطية شخص آخر غير طريف الذي قاد الحملة الاستطلاعية الى جزيرة لاس بالوماس لعدة اسباب (*) منها :

أولاً : من الطبيعي أن يكون قائد هذه السرية التي سيرها موسى بن نصير للاستيثاق من صدق نوايا يليان صاحب سبتة ، عربى الاصل وموضع ثقة موسى بن نصير لكى يعتمد عليه فى هذه المهمة ويقدم تقريراً صادقاً الى موسى بن نصير عن احوال الاندلس السياسية والعسكرية قبل ان يقامر موسى بجيش المسلمين فى بلاد يفصلها عن بلاد المغرب بحر شديد الاهوال (٨٩) .

ثانياً : ان معظم المصادر العربية تؤكد أن طريف قائد الحملة الاستطلاعية الى الاندلس فى سنة ٩١ هـ هو طريف بن مالك أو ملوك المعافرى أو النخعى (وهو فى كل من النسبين عربى الاصل) وأنه يكنى بأبى زرعة ، وكان من موالى موسى بن نصير .

ومن بين الروايات التي تنص على أن طريف عربى الاصل رواية للرازى ذكر فيها أن صاحب الحملة الاستطلاعية الى الاندلس هو ابو زرعة طريف بن مالك المعافرى (٩٠) .

ومنها رواية وردت فى كتاب "اخبار مجموعة" تطالع فيها «فيث (موسى) رجلاً من مواليد ، يقال له طريف ، ويكنى بأبى زرعة فى أربع مائة ومعهم مائة فرس فى أربعة مراكب حتى نزل بمراكبه جزيرة يقال لها جزيرة الاندلس التي هى معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، يقال لها : جزيرة طريف ، سميت به لنزوله فيها» (٩١) .

ورواية اخرى لابن الكردبوس تنسب طريف الى قبيلة معافر اليمانية ، والنص الذى اوردته ابن الكردبوس كما يلى : «ثم اجتمع ناس من البربر نحو ثلاثة آلاف راجل وقدموا عليهم أبا زرعة طريف بن مالك المعافرى ، وجاز بهم ، فحل فى جزيرة سميت طريفاً فثبت لها هذا الاسم الى اليوم ... » (٩٢) .

أما الحميري فقد اورد الخبر على النحو التالي « قبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البربر إسمه طريف بن مالك المعافري ، يُكنى أبا زرعة فى أربعمائة رجل يغير بهم ، ونزل فى الجزيرة المنسوبة إليه ، ثم اغار على الجزيرة الخضراء» (٩٣) .

ونلاحظ ان الحميرى بينما يذكر فى الشطر الاول من روايته أن طريف كان بربرياً فإنه فى الشطر الثانى ينسبه إلى قبيلة معافر اليمنية ، وفى ذلك ما يشير إلى أنه قد يكون عربياً أو أنه كان مولى من موالى قبيلة معافر فتنسب إليها وألحق بها .

ومن الروايات التى تنسب طريف الى النخع رواية لابن خلدون يسميه فيها طريف بن مالك النخعى (٩٤) .

ثالثاً : وما يؤكد رأى السابق كذلك ويرجعه ما اوردته كل من ابن خلدون والسلاوى الناصرى فيما يتعلق بكنية طريف مؤسس دولة برغواطة ، فهينما يذكر ابن خلدون ان طريف أول ملوك برغواطة كان يدعى ابو صالح (٩٥) ، يذكر السلاوى انه كان يكنى بأبى صبيح (٩٦) .

ونحيل من ناحيتنا الى ترجيح كنية أبى صبيح التى كناه بها السلاوى ، إذ ان إسم ابا صالح الذى ذكره ابن خلدون لا يشير الى كنية ، ذلك لان طريف كان له بالفعل ولد إسمه صالح ، شارك معه فى ثورة ميسرة المطفرى ، وسيخلف هذا الابن والده فى حكم برغواطة ، وسيكون له الدور الاعظم فى إرساء دعائم عقيدة برغواطة الخارجة عن الدين الاسلامى ، ولذلك فمن الطبيعى أن يقال أن طريف هو ابو صالح .

ويتضح لنا مما سبق عرضه أن طريف صاحب الحملة الاستطلاعية الى الاندلس سنة ٩١ هـ ، ويكنى بأبى زرعة كان شخصاً اخر غير طريف مؤسس دولة برغواطة الذى كان يكنى بأبى صبيح .

رابعاً : أن المصادر التاريخية التى تضمنت نصوصاً تشير الى ان طريف صاحب الحملة الاستطلاعية على جزيرة طريف هو نفس طريف اول ملوك برغواطة ، وتتمثل فى كل من روايتى البكرى ، وابن عذارى ، تناقض نفسها

وتخالف بذلك المنطق .

فالبكرى يورد رواية على لسان زمور البرغواطى رسول برغواطة الى الخليفة
اللاحق الحكم المستنصر بالاندلس أثناء زيارته له سنة ٣٥٢ هـ يذكر فيها «أن
طريفاً أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحق ، وأنه كان من اصحاب
ميسرة المطغرى المعروف بالحقيير ، ومغرور بن طالت ، والى طريف نسبت
جزيرة طريف ، فلما قتل ميسرة واقترب اصحابه ، احتل طريف بلد تامسين ،
وكان إذ ذاك ملكاً لزنانة وزواغة ، فقدمه البربر على انفسهم وولى امرهم ،
وكان على ديانة الاسلام ..» (٩٧) . ونخرج من هذه الرواية ان طريفاً المذكور هو
نفس طريف صاحب ميسرة وأنه هو نفسه طريف صاحب الحملة الاستطلاعية
على جزيرة طريف ، وأنه من ولد شمعون بن يعقوب (أى أنه يهودى الاصل)
وأنه كان على ديانة الاسلام .

ثم يسوق فى موضع آخر رواية تتضمن ما يفيد بأن أصل هذه الأسرة «من
شذونة من وادى برباط» بالاندلس (٩٨) .

وأتساءل كيف يكون طريف من برباط بالاندلس ، وملكاً على بربر زناتة
وزواغة ، وفى نفس الوقت من ولد شمعون بن يعقوب (وهو اسم ليهودى) ،
وعلى ديانة الاسلام ؟ ومن الممكن أن نخرج من النصين سالفى الذكر بأن يكون
طريف من أصل يهودى ، ولكنه اعتنق الإسلام بعد الفتح الإسلامى للاندلس
مثلاً ، وفى هذه الحالة لا يمكن أن يكون طريف هذا هو نفس طريف بن مالك
صاحب الحملة الاستطلاعية على جزيرة لاس بالوماس التى سميت باسمه ، فمن
المنطقى ألا يثق موسى بن نصير على الإطلاق فى مصداقية رجل يهودى
الأصل ، أندلسى الوطن ، يعهد إليه بقيادة الحملة الاستطلاعية إلى الأندلس .

وهناك ملاحظة ثانية تتمثل فى أن ما أورده البكرى من أخبار عن طريف
إنما أوردها على لسان زمور البرغواطى . ومن الطبيعى أن يحاول زمور
البرغواطى أن ينسب للملك برغواطة ، أصولاً تاريخية عريقة ، ويطولات
مجيدة ، عندما يسأله الحكم المستنصر عن أحوال بلاده وماضيها ، فيربط بين
طريف أول ملوك برغواطة ، وبين البطل الإسلامى الشهير الذى سبق أن أثبتنا
أنه عربى الأصل ، وليس من أصول يهودية أندلسية ، ولا بربرية .

أما ابن عذارى فيذكر في الجزء الثاني من كتابه «البيان المغرب» أن موسى بن نصير أرسل «رجلاً من البربر يسمى طريفاً ويكنى أبا زروعة في مائة فارس وأربعمئة رجل» على رأس حملة إستطلاعية إلى الأندلس ، وأن اسم طريف قائد هذه الحملة أطلق على الجزيرة التي نزل بها (١٩١) .

ثم يذكر في الجزء الأول من نفس الكتاب أن طريف مؤسس برغواطة «من ولد شمعون بن إسحق عليه السلام ...» (١٠٠) . وفي موضع آخر من نفس الجزء الأول يورد الرواية التي سبق أن أوردتها البكري على لسان زموذ «أن طريفاً كان أبا ملوكهم ، وهو من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق - عليهم السلام - قال : وكان طريف من أصحاب ميسرة ملك المغرب الذي تقدم ذكره ، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه ، احتل طريف بهلاد تامستا ، فقدمه البربر على أنفسهم فولى أمرهم . وكان على دين الإسلام ، وإليه تنسب جزيرة طريف ...» (١٠١) .

ونخرج من الرواية التي ساقها ابن عذارى بأنه خلط بين جميع الروايات التي أوردتها من سبقه من المؤرخين ، فقد اقتبس تفتاً من رواية البكري ، على لسان زموذ ، باستثناء ما يتعلق بأصل طريف الذي يجعله ابن عذارى بربرياً وليس أندلسياً كما أشار البكري ، وربما اعتمد في ذلك على ابن حوقل . وأباً ما كان الأمر فإن طريف حتى لو كان بربرياً من أصول يهودية ، ودان بالإسلام ، فإن موسى بن نصير ، لم يكن ليرضى أن يستند إليه قيادة الحملة الإستطلاعية للأندلس ، وواضح كما سبق أن أشرت أن زموذ كان يحاول تفخيم أصل ملوك برغواطة .

خامساً : يذكر د. محمود إسماعيل أحد الباحثين من الفريق الأول أن طريف ، هو طريف بن ملوك ، وكنيته أبو صالح وأنه كان يتمتع بشهرة طيبة بين بربر المغرب الأقصى لبلاته في افتتاح الأندلس ، إذ تولى قيادة البرغواطيين في الحملة التي أنفذها موسى بن نصير بقيادة طارق بن زياد ، وأن إطلاق اسم طريف على إحدى جزر الأندلس قد خلد هذه الشهرة (١٠٢) .

ويستند دكتور محمود إسماعيل في ذلك على ما أوردته كل من ابن عذارى

وابن خلدون ، فبالنسبة إلى ابن عذارى فقد سبق أن ناقشنا روايته في هذا الموضوع . أما فيما يتعلق بابن خلدون فإنه لم يشر إطلاقاً إلى وجود ثمة صلة بين طريف صاحب الحملة الإستطلاعية إلى الأندلس ، وبين طريف ملك برغواطية بل أن ابن خلدون ذكر صراحة في الجزء الرابع من كتابه «العبر» أن طريف الذي عبر إلى الأندلس هو طريف بن مالك النخعي أى أنه عربى كما سبق أن أوضحنا وهذا لا يتفق مع ما وصف به طريف حاكم برغواطية ، ففي الجزء السادس من كتاب العبر يصف ابن خلدون طريف حاكم برغواطية بأنه بربرى من مطفرة «وكان كبيرهم لأول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صالح ، وكان من قواد ميسرة الحقيير ، طريف المطفرى القائم بدعوة الصفرية ، ومعهما معزز بن طالوت ثم انقرض أمر ميسرة والصفرية ، وبقي طريف قائماً بأمرهم بتماسنا (١٠٣) ...» وفى موضع آخر من نفس الجزء يصف ابن خلدون طريف ملك برغواطية بأنه بربرى من برغواطية المصمودية . يقول ابن خلدون «وإنما نسب الرجل في برغواطية وهم من شعوب المصامدة معروف ... (١٠٤)» . وإذا كان ابن خلدون ينسبه في النص الأول إلى مطفرة ، رغم تأكيديه فيما بعد فى أكثر من موضع على نسبته لمصمودية ، فإن سبب ذلك يرجع فيما يبدو إلى الحلف القري الذى كان يربط بين مطفرة وبرغواطية منذ اشتعال ثورة ميسرة المطفرى الصفرى على العرب ، واستمر هذا الحلف قائماً طوال العصر الإسلامى (١٠٥) .

ولم يذكر ابن خلدون مطلقاً أن طريف قاد البرغواطيين فى الحملة الإستطلاعية التى قادها إلى الأندلس ، وإنما ذكر فى سياق حديثه عن غمارة من بطون المصامدة : «وللمسلمين فيهم أزمان الفتح ، وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير ، وهو الذى حملهم على الإسلام ، واسترهن أبناءهم ، وأنزل منهم عسكرياً مع طارق بطنجة ، وكان أميرهم لذلك العهد يليان ، وهو الذى وقد عليه موسى بن نصير ورغبه فى غزو الأندلس . وكان منزله سبتة كما نذكره ، وذلك قبل استحداث نكور ...» (١٠٦) .

سادساً : ليس من المنطقى أن نربط بين طريف صاحب الحملة الإستطلاعية إلى الأندلس سنة ٩١ هـ ، وبين طريف مؤسس دولة برغواطية الذى ظهر كحاكم سياسى فيما يقرب من عام ١٢٧ هـ لمجرد اشتراكهما فى نفس الاسم ، فقد يتفق

أكثر من شخص فى حمل اسم طريف فى فترة زمنية متعاصرة أو متقاربة ، وليس بالضرورة أن يتفرد شخص واحد بحمل اسم طريف خلال فترة زمنية تبلغ نحو ثلث القرن .

ويتضح لنا من ذلك كله أن طريف إسم لشخصين مختلفين .

أما طريف مؤسس دولة برغواطية فأعتقد أنه كان أندلسياً من أصل يهودى ومن برباط بالذات وأنه اعتنق الإسلام منذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس ثم تحول نسبته البرباطى على لسان البربر إلى النسب البرغواطى ، وذلك استناداً إلى بعض النصوص التى استقيتها من المصادر العربية وعلى كثير من الأدلة التاريخية والمنطقية ، من ذلك الرواية التى أوردها الجغرافى البكرى المعاصر لدولة برغواطية على لسان زموور والتى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة والرواية التى وردت فى موضع آخر من كتابه وذكر فيها أن أصل أسرة طريف من شذونة من وادى برباط (١٠٧) بالأندلس .

وقد يتساءل البعض لماذا نأخذ فقط بهذا النص الذى ساقه البكرى على لسان زموور البرغواطى دون بقية النص الذى يدعى فيه أن طريف ملك برغواطية هو نفسه صاحب الحملة الاستطلاعية إلى الأندلس ؟؟

ونرد على هذا التساؤل بأنه ليست هناك أى مبالغة فيما ذكره زموور البرغواطى عن النسب اليهودى لطريف ، بل أنه كان من الأفضل لزموور أن يتجاهل هذا الأصل اليهودى لطريف فى سياق حديثه مع خليفة الأندلس عن نسب ملوكه . وربما أحس زموور ببعض الحرج فى ذكره للأصل اليهودى لبنى طريف وأن ذلك قد يشير مشاعر خلفاء الأندلس عليه فتدارك الأمر وبادر بنسج هالة تاريخية وبطولة زائفة حول شخصية طريف ، أول ملك برغواطية ، ليزيل الشكوك والشبهات التى قد تكرر قد تولدت عند المستنصر ، فادعى أن طريف البرغواطى هو نفسه طريف القائد الإسلامى الشهير (١٠٨) .

كذلك يذكر ابن أبى زرع أن أصل طريف ملك برغواطية «لعنه الله من برنات (يقصد برباط) حصن عمل شذونة من بلاد الأندلس ، فكان يقال من تبعه ودخل فى ديانته برناتى ، فعريته العرب ، وقالوا برغواطى ، فسموا برغواطية ،

وكان صالح بن طريف الذى ادعى فيهم النبوة رجلاً خبيثاً يهودى الأصل من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام ، نشأ ببرباط من بلاد الأندلس ثم رحل إلى المشرق ...» (١٠٨) .

وجاء فى كتاب نبد من مفاخر البربر ما يؤكد ذلك ويتمثل فى رواية نطالع فيها ما يلى « وأصل أمامهم الذى شرع لهم ديانتهم وهو صالح بن طريف من وادى برباط من الأندلس ، فقبل لكل من دخل فى ديانتهم برباطى ، فأحاطته العرب بالسنتها فقالت برغواطى ، وكان ظهور برغواطى فى سنة ١٢٧ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان واستقر ملكهم آخرأ بتامسنا وهم فى الأصل من زناتة» (١٠٩) .

ويورد السلاوى نصاً يتفق مع ما أوردته المصادر السابقة فيذكر أن صالح ابن طريف « يهودى الأصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام ، نشأ ببرباط ، حصن من عمل شلوثة من بلاد الأندلس ...» (١١٠) .

ولكن ابن الخطيب يقف من ذلك موقفاً حيادياً ، فقد أورد كل الآراء التى جاءت فى نسب طريف دون أن يبدى رأيه . فيذكر أن صالح بن طريف « هذا كان مصمودى الأصل ثم يضيف بقوله « وقيل إسرائيلى الأصل ، نشأ بقرية برباط من الأندلس ...» (١١١) .

أما المصادر التى اعتبرت طريف أول ملوك برغواطى من البربر ، فأهمهم : ابن حوقل ، وابن عذارى ، وابن خلدون .

أما ابن حوقل فيذكر أن صالح كان ابناً لرجل اسمه عبد الله ، وليس لطريف ، وأنه كان « بربرى الأصل ، مغربى المولد ، مضطلعاً بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم ، فدعاهم إلى الإيمان به ...» (١١٢) .

ومن الواضح أن ابن حوقل غير دقيق فيما أوردته عن نسب صالح بن طريف ، فقد أخطأ فى اسم طريف ، ربما لأن ابن حوقل جغرافى قبل أن يكون مؤرخاً ثم أنه مشرقى لا يعتد بما يسوقه من أخبار تاريخية عن المغرب والأندلس ، ولهذا السبب فإننا لا نثق كثيراً برواياته التاريخية .

أما ابن عذارى فقد أورد اسم طريف كما سبق أن ذكرنا على أنه من نسل يعقوب عليه السلام أى أنه يزعم أنه يهودى الأصل ، وفى نفس الوقت يذكر أن طريف بربرى ، وقد سبق أن ناقشنا رأيه وأثبتنا أن روايته تتضمن بعض التناقض الواضح .

وأما ابن خلدون فقد رفض رأى القائل بنسبة طريف صاحب برغواطية إلى الأندلس وأرجعه إلى برغواطية نفسها أى أنه من مسمودة ، وكانت حجته فى ذلك أنه لا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل فى المغرب للذليل أو غريب (١١٣) .

ونحن نرى أن ابن خلدون قد جانيه التوفيق فى هذا الحكم إذ أن وقائع التاريخ تثبت لنا أن كثيراً من الغرباء من العرب والفرس قد وفدوا إلى المغرب من مناطق نائية من المشرق ، وأنهم بدأوا يجتذبون حولهم الأتباع من البربر ويؤسسون دولاً فى بلاد المغرب ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك دول قامت على أكتاف قادة من العرب أو ديماء من المشرق ومنها دولة الأغالبة فى تونس ، ودولة الأدارسة فى فاس ، والدولة الفاطمية فى رقادة والمهدية ، ودولة الرستميين فى تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى (١١٤) .

وما يؤكد رأى فى أن طريف يرجع إلى أصول يهودية قبل أن يقدم على اعتناق الإسلام أنه استوطن المغرب الأقصى فى تامسنا من إقليم فاس الذى كان معروفاً بكثرة العناصر اليهودية والمجوسية والمسيحية التى تعيش فيه ، أكثر من غيره من بلاد المغرب ، يؤكد ذلك النص الذى أورده ابن أبى زرع عند حديثه عن بناء مدينة فاس ، فهو يقول « قيل كان يسكن مدينة فاس قبيلتان من زناتة وزواغة ، وبنو يرغش ، وكانوا أهل أهواء مختلفة منهم على الإسلام ، ومنهم على النصرانية ومنهم على اليهودية ، ومنهم على المجوسية ، وهم بنو يرغش ، وكانوا يسكنون بخيامهم بحومة عدوة الأندلس ... » (١١٥) .

ويؤكد ابن أبى زرع فى موضع آخر من كتابه عند وصفه لفاس بعد تأسيسها فيقول « فاجتمع بها (فاس) خلق كثير من اليهود ممن رغب فى العافية ، فأنزلهم بناحية أغلان إلى باب حصن سعدون ... » (١١٦) . وكان

عدد اليهود بإقليم فاس يقدر بالآلاف ، وقد استنتجنا ذلك من خلال ما أورده ابن أبي زرع فى معرض حديثه عن هجوم الأمير أبى الكامل تميم بن زمور الزناتى اليفرنى ، أمير بنى يفرن ، على فاس سنة ١٢٤ هـ فيقول « فأوقع فيها باليهود وسبى تساعهم فقتل منهم خلقاً كثيراً يزيدون على الستة آلاف يهودى ، وأخذ أموالهم وسبى تساعهم » (١١٧) . وكذلك قوله فى سياق سرده لفتح إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فى إقليم السوس الأدنى « ثم فتح بعدها سير بلاد تامسنا ثم سار الى تادلا ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية » (١١٨) .

ويتفق ابن خلدون مع ابن أبى زرع فى توفر العناصر اليهودية والمجوسية والمسيحية فى تلك المناطق فيذكر أنه « لما استوثق أمر إدريس وقت دعوته زحف إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل فندلاوة وبهلوانه ومديونه ومازار ، وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا وكان أكثرهم على دين اليهودية والنصرانية ، فأسلموا على يديه طوعاً وكرهاً ، وهدم معاقلهم وحصونهم » (١١٩) .

ومن المعروف أن تحول المغرب كله الى الإسلام ، لم يتم إلا فى القرن الرابع الهجرى إذ ظلت بعض المناطق والمدن تحتفظ بأعداد كبيرة من التجمعات المسيحية واليهودية ، كما كانت لا تزال توجد أعداد قليلة من التجمعات البربرية فى المناطق الجبلية المتطرفة على عقائدها البربرية القديمة (١٢٠) . وكان هؤلاء جميعاً يعيشون فى عزلة عن المجتمع المغربى ، وساعدهم على ذلك وبصفة خاصة اليهود فى السوس الأقصى والأدنى والطبيعة الجغرافية ، حيث أن جبال أطلس كانت تحيط بسهول تلك المنطقة مما جعلهم يعيشون فى مناطق معزولة ومحمية طبيعياً (١٢١) . وقد عملت أقلية من هؤلاء اليهود بالتجارة .

ويبدو أن مؤسس هذه الدولة ، وهو طريف بن شمعون انتقل من الأندلس إلى المغرب قبل الفتح الإسلامى مباشرة لأمر ما لا نعرفه ، ربما (١٢٢) لاضطهاد القوط لليهود فى الأندلس ، أو بعد الفتح الإسلامى مباشرة ، ونزل فى المغرب الأقصى فى منطقة تامسنا مقر المصامدة ، ثم اعتنق الإسلام فى ولاية موسى

ابن نصير على المغرب ، وعندما احتدمت نيران ثورة البربر على العرب فى المغرب الأقصى اعتنق المذهب الصفرى شأن غيره من خوارج المغرب طلاب العلم أمثال ميسرة المطفرى وعبد الرحمن بن رستم الابهاضى ، وشارك فى الثورة ، والظاهر أن ميسرة الحقيير المطفرى استوزر ابنه صالح فى المغرب الأقصى كما يذكر ابن الخطيب (١١٢٣) . لما عهدوه من ذكائه الحارق وقدراته العالية فى السيطرة على عقول البربر وما أثبتته من مهارة فى السحر والحيل (١١٢٤) .

ذلك هو فى تصورى السبب فى أن أهل المغرب لم يترددوا فى أن ينسبوه إليهم أو ينتسبوا هم إليه ، بعد أن أثبت أنه أهل لرتاستهم ، فشاع عنه منذ ذلك الحين أنه مصمودى فى نفس الوقت الذى عرفوا فيه بأنهم «برغواطيين» تحريفاً من «برباطيين» (١١٢٥) .

والظاهر أن جماعة من البرغواطيين المصامدة أتباع بنى طريف بن شمعون انتقلوا فى بداية عصر الدولة الأموية إلى أشونة (١١٢٦) إحدى مدن جنوب الأندلس وتقع على مقربة من شذونة وبرباط ، وهى البلدة التى أشارت بعض الروايات التاريخية أنها مسقط رأس طريف مؤسس دولتهم ، وقدر لهم أن يصبحوا أمراء أشونة ، وهم الذين أسسوا مدينة سالم (١١٢٧) *Medinaceli* ، فى الأندلس ، هذا وقد ارتبطت دولة برغواطية فى المغرب بعلاقات طيبة مع دولة بنى أمية فى الأندلس فى عصر الإمارة ، بدليل أن صالح بن طريف أوصى ولده الياس بموالاة صاحب الأندلس من بنى أمية (١١٢٨) . كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد بالأصل الأندلسى لبنى طريف ملوك برغواطية .

٤ - ملوك برغواطية : سياستهم الخارجية وملامح من فكرهم العقائدى

قبل أن نبدأ باستعراض أهم ملامح الفكر العقائدى لبرغواطية علينا أن نوضح أن هذا الفكر قد مر بمراحل مختلفة منذ أن تأسست الدولة على يد طريف ابن شمعون الى أن سقطت ككيان سياسى مستقل على أيدي المرابطين . وعلى الرغم من إزالة المرابطين لهذه الدولة إلا أن وميضاً من نارها ظل باقياً تحت الرماد ، وأوشك هذا الوميض أن يضطرم فى عصر الموحدين ، وذلك عندما تمردت طائفة من بقايا برغواطية على دولة الموحدين ، وشاركوا فى ثورة الماسى

والصحراوي ، غير أن تلك الحركة لم تكن سوى صهوة الموت فقد تمكنت السلطات الموحدية من إخمادها سريعاً . لذلك رأيت أن أتبع عهود أشهر ملوك برغواطة وحكامها حتى بداية عصر دولة المرابطين ثم أنتقل بعد ذلك إلى دراسة أهم مناحي الفكر الديني لبرغواطة وتطوره حتى خمود حركتهم .

١- أهم ملوك برغواطة حتى بداية العصر المرابطي :

(١) طريف بن شمعون

انسحب طريف بن شمعون من طنجة بعد مصرع صاحبه ميسرة المطغرى على أيدى المتطرفين من ثوار البربر سنة ١٢٢ هـ ، وربما تم ذلك قبل وقوع موقعة الأشراف احتجاجاً على غدر أصحاب ميسرة بزعيم من كبار زعمائهم الخوارج ، ولهذا نرجح أنه أثر الإنزواء والإعتزال بعيداً عن الأنظار ، ربما لتنفيذ خاطر خطر له أو خطة أعداها ، وغيل إلى الإعتقاد بأنه لم يشترك مع خالد بن حميد الزناتى فى موقعة الأشراف أو حتى فى موقعة بقدرورة التى دارت بعد ذلك وانتهت بهزيمة تكراء للعرب الشاميين والبلديين (*) ، واختار طريف لإقامته إقليم تامسنا الذى كان يتولاه صالح بن طريف من قبل ميسرة ، فقد كان ميسرة قد استوزر صالح ولد طريف فى هذا الإقليم «وكتب له كتاباً إلى أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر يوصيهم به ويصف فضله وعلمه ...» (١٢١) .

وجد طريف أن مهمته فى تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده فى هذا الإقليم مهمة سهلة ، فقد كان أهل تامسنا قد ارتبطوا نفسياً وروحياً به وبولده صالح . ويكتنف هذه المرحلة التأسيسية الأولية لدولة برغواطة ستار من الغموض ، إذ أن المصادر العربية تضطرب فى سرد أحداثها وتخلط بين دور طريف بن شمعون فى تأسيس هذه الدولة وتشريع عقائدها ، وبين دور ولده صالح .

ويذكر كل من البكرى وابن عذارى (١٢٠) ، وابن خلدون (١٢١) أن طريف بن شمعون ، أبو صالح انسحب إلى تامسنا عقب مقتل ميسرة وكان ذلك فى سنة ١٢٢ هـ ، حيث كانت قبائل البربر تعاني من الجهل الشديد ، فقام فيهم ، ودعا الى نفسه ملكاً ، فبايعه أبناء تلك المنطقة وقدموه على أنفسهم ، فأنتهز ثقتهم به ، وبدأ يشرع لهم الشرائع الجديدة .

ولم يحدد المؤرخان المغربيان العام الذي توفي فيه طريف ، وإن كان ابن عذارى يذكر أنه « مات بعد مدة ، وخلف من الولد أربعة » (١٢٢) .

(٢) صالح بن طريف

ولا نستطيع أن نقرر على وجه الدقة ، العام الذي توفي فيه طريف ، ويخلفه فيه ابنه صالح على حكم برغواطة ، إذ أن ابن الخطيب يرى أن صالح تولى حكم برغواطة سنة ١٢٢ هـ ، وأنه استمر في ملكه نحواً من ست سنين إلى أن توفي في عام ١٢٨ (١٢٣) هـ . ويذكر ابن الخطيب أن صالح بن طريف هو الذي شرع الشرائع لدولة برغواطة وأنه خرج بها عن تعاليم الإسلام ، وكانت بداية ظهور هذه التشريعات في عام ١٢٥ هـ (١٢٤) ويتفق معه ابن أبي نديج في ذلك (١٢٥) .

في حين يذكر ابن خلدون أن عام ١٢٧ هـ يسجل بداية ظهور صالح في خلافة هشام بن عبد الملك (١٢٦) . ويتفق معه في ذلك صاحب نهد من مفاخر البربر (١٢٧) . ويؤكد ابن خلدون (١٢٨) أن صالح استمر يحكم برغواطة ٤٧ عاماً ، فتكون نهاية حكمه بذلك عام ١٧٤ هـ .

وفي نفس الوقت يتسبب كل من البكري (١٢٩) وابن الخطيب (١٤٠) وابن أبي نديج (١٤١) ، وصاحب نهد من كتاب مفاخر البربر (١٤٢) إلى صالح بن طريف بن شمعون الفضل الأول في اعلان قيام دولة برغواطة وفي تشريع شرائعها المتطرفة . ويؤكد أقدمهم وهو البكري أن طريف بن شمعون ، أبا ملوكهم وأول من ولي أمرهم ، كان يدين بالاسلام (١٤٣) .

ويتبين لنا مما سبق اختلاف الآراء حول « مؤسس دولة برغواطة هراطقة المغرب الاسلامي » هل هو طريف بن شمعون أم ابنه وخليفته صالح ؟ وللتوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة نرجح أن يكون طريف بن شمعون هو المؤسس الحقيقي لدولة برغواطة وواضع حجر الأساس في عقائد هذه الدولة وتشريعاتها وفقاً لما ذكره ابن خلدون وابن عذارى ، والمعروف عنه أنه كان مسلماً وأنه اعتنق الفكر الخارجي الصفرى . فلم يذكر أى من المصادر باستثناء ابن خلدون (١٤٤) أنه تنبأ أما ببقية المصادر فتجمع على أن ولده صالح هو الذي تنبأ ، وقياساً على ذلك

يكون طريف هو المؤسس الأول لهذه الدولة الذى أرسى دعائمها وشرع قوانينها .
ويبدو أن العمر لم يطل به، فخلفه ولده صالح الذى كان الساعد الايمن لأبيه منذ
أن اشتركاً معاً فى ثورة ميسرة المطغرى ضد العرب لما اتسم به من ذكاء وعلم،
وأصبح صالح بذلك ثانى ملوك هذه الدولة، وأميل الى اعتباره المشرع الحقيقى
لشرائعها، والمخطط لفكرها العقائدى، كما أن من الثابت ادعاء النبوة كما
سنوضح بالتفصيل عند تعرضنا للذكر عقيدة برغواطة فى الصفحات التالية .

ومما يؤكد دور طريف بن شمعون فى ارساء دعائم دولة برغواطة أن ملوك
برغواطة نسبوا اليه هو ، ولم ينسبوا الى ابنه صالح فعرقوا ببنى طريف (١٤٥)
وخلف صالح على حكم برغواطة ولده الياس .

وقبل أن نسدل الستار على عهد صالح بن طريف نجد لازماً علينا معالجة
قضية هامة تتلخص فيما يلى :

تذكر معظم المصادر العربية، واهمها البكرى (١٤٦) ، وابن عذارى (١٤٧) ،
وابن خلدون (١٤٨) ، وابن الخطيب (١٤٩) أن حكم صالح لبرغواطة ينتهى نهاية
غامضة، فقد رحل إلى المشرق فى أواخر عهده بعد أن أوصى ولده الياس بمولاية
حاكم الأندلس من بنى أمية، وبأن يحافظ على عقيدة برغواطة، ولا يظهرها إلا
إذا أحس بقوته ، ووعد صالح ولده الياس بأنه سوف يرجع من غيبته فى دولة
السابع من ملوكهم، وزعم لولده الياس أنه المهدي الذى يكون فى آخر الزمان
لقتال الدجال ، وأن عيسى عليه السلام، سيكون من رجاله يصلى خلفه. ومنذ
ذلك الحين اختفى صالح ولم يعد أحد يعرف عنه شيئاً. وتبين لنا من خلال
النصوص التى أوردها هذه المصادر، وضوح التأثيرات الشيعية والدرزية فى
فكر برغواطة العقائدى فى هذه المرحلة .

ويشير د. محمود اسماعيل فى بحثه «حقيقة المسألة البرغواطية» قضية
هامة للمناقشة ، فهو يرفض تماماً ما جاء فى هذه المصادر، خاصاً باختفاء صالح
برحيله إلى المشرق فى أواخر عهده ، ويرى أن رحلته إلى المشرق حدثت فى
عهد أبيه طريف، ويستند د. محمود اسماعيل فى ذلك على نص أورده ابن
حوقل (١٥٠) ، وعلى رواية لأبى العباس فضل بن مفضل بن عمرو المذحجى

أوردها البكرى ^(١٥١) عن رحيل يونس حفيد صالح بن طريف من ملوك برغواطة الى المشرق، غير أنه استشهد بهذه الرواية بعد أن عدل فيها، فذكر أن المذحجي التبس عليه الأمر ، وخلط بين يونس وجده صالح، وأن المذحجي كان يقصد صالحاً وليس يونس في الرحلة إلى المشرق، وحجته في ذلك أن المذحجي أورد ما يدل على أن يونس أخذ على غيلان الدمشقي في المشرق، وأن غيلان لم يكن على قيد الحياة في عهد يونس ، ومن ذلك يستنتج الدكتور محمود اسماعيل أن رحلة صالح الى المشرق حدثت قبل أن يتولى حكم تامسنا، فذهب الى الشام، وسمع من غيلان الدمشقي ثم رحل الى العراق ، وفقاً لما ذكره ابن حوقل، وتبحر في علوم الخوارج، ثم عاد إلى تامسنا ليحكمها على المذهب الخارجي الصفرى، وأنه ظل يحتفظ بهذا المذهب الصفرى، ولم يرتد عن الاسلام ^(١٥٢).

وأعتقد أن ما ذكرته المصادر بشأن خروج صالح الى المشرق الاسلامى واختفائه في أواخر عهده صحيح، لاجتماع معظم المصادر عليه، ولأن هذه المصادر ذكرت أن السابع من ملوك هذه الأسرة الحاكمة وهو أبو منصور عيسى، ظل ينتظر عودة صالح . وفي نفس الوقت لا ترفض رأى الدكتور محمود اسماعيل فيما يتعلق برحيل صالح الى المشرق في بداية حياته للدراسة والعلم اى قبل أن يتولى حكم برغواطة ، فيكون صالح بذلك قد رحل الى المشرق مرتين، مرة في بداية حياته، ومرة في أواخر عهده. وتوصلنا لهذا الرأى لانهى مايلي :

(١) صحة رواية المذحجي التي أوردها البكرى بشأن سفر يونس حفيد صالح إلى المشرق حيث أنها وردت في معظم المصادر العربية الأخرى مثل البيان لابن عذارى ^(١٥٣) والعبر لابن خلدون ^(١٥٤) . وإذا كان غيلان الدمشقي قد توفي قبل أن يتولى يونس أمر برغواطة فإن هذا لا يتعارض مع ما ذكره المذحجي من أن يونس « طلب علم النجوم والكهانة والجان، ونظر في الكلام والجداول وأخذ ذلك عن غيلان » ، فمن المحتمل أن يكون يونس قد أخذ العلم عن غيلان من كتاباته أو عن طريق تلاميذه وليس بالضرورة عنه شخصياً، فالمذحجي لم ينص على لقاء يونس لغيلان شخصياً .

(٢) يذكر د. محمود اسماعيل أن رحيل صالح الى المشرق تم فى حياة أبيه وإبان توليه برغواطه ، ويذكر «أنه درس شيئاً من النجوم وعمل التقاويم والمواليد وأصاب فى أكثر أحكامه ثم عاد الى تامسنا ليتقلد الحكم بعد والده الذى يمتد به العمر طويلاً» ويرى بناء على ما ذكره ابن الخطيب (١٥٥) أن طريف توفى فى عام ١٢٢هـ، وهو نفس العام الذى أسس فيه دولة برغواطه على حد قول ابن حوقل .

وأعتقد أن رحيل صالح إلى المشرق فى المرة الأولى، حدث قبل أن يؤسس والده طريف دولة برغواطه سنة ١٢٢ هـ بمرحلة طويلة، بل قبل أن يشرع ميسرة فى ثورته، إذ ينص كل من البكرى وابن عذارى وابن خلدون وابن الخطيب على أن صالح اشترك فى الثورة الصفرية مع والده طريف وحليفه ميسرة (١٥٦) .

وإذا كان طريف بن شمعون قد توفى فى نفس العام الذى أسس فيه دولته (١٢٢هـ) كما يذكر د. محمود اسماعيل ، فمتى رحل صالح اذن الى المشرق ؟ وهو الذى شارك فى كل مراحل ثورة ميسرة الذى لقي مصرعه فى سنة ١٢٢هـ ؟ وأرجح أن يكون صالح قد رحل الى المشرق طلباً للعلم بعد انتقال أبيه من الأندلس واستقراره فى المغرب ، واستند فى ذلك على رواية لكل من ابن أبى زرع، وابن الخطيب أرجحها على رواية ابن حوقل الجغرافى المشرقى ، فابن أبى زرع يقول «وكان صالح بن طريف الذى ادعى فيهم النبوة رجلاً خبيثاً، يهودى الأصل، من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام، نشأ برباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق فقرأ على عبيد الله المعتزلى القدرى ، واشتغل بالسحر، فجمع منه فتوناً كثيرة، وقدم المغرب، فنزل تامسنا، فوجد بها قبائل من البربر جهالاً، فأظهر لهم الاسلام، والزهد والورع، فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه، وأراهم من نوارصه وتميهاته، فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته» (١٥٧) .

وتتفق هذه الرواية مع النصوص التى أوردها ابن عذارى وابن خلدون وابن الخطيب التى تفيد بأن قبائل تامسنا البربرية كانت من السذاجة بحيث تيسر صالح القادم من بلاد المشرق، بعد تعلمه فنون التأثير على البسطاء من الناس،

السيطرة على عقولهم، واستهوانهم بمسول القول .

أما ابن الخطيب فيقول « وكان صالح هذا مصمودى الأصل، وقيل كان اسرائيلي، نشأ بقرية برباط من الأندلس، ورحل إلى المشرق، فقرأ على عبيد القديري المعتزلي، واشتغل بالسحر، فمهر فيه، وقدم المغرب، فاستمال من لقيه بما أظهر من الاسلام والزهد والورع، فاستهواهم بالنيرجات والحيل والسحر، فأقروا بفضله، واعترفوا بولايته، فولوه على أنفسهم » (١٥٨) .

(٣) أعتقد أن صالح بن طريف بتعاليمه التي شرعها لبرغواطة، لم يعد مسلماً، فقد تنبأ كما ستوضح في الصفحات القادمة، وبذلك تكون برغواطة قد خرجت من بين صفوف الدول الصفرية في المغرب عن الاسلام، بل، اعتبر البرغواطيون ابتداء من عهده من هراطة المغرب في ذلك العصر .

(٣) الياس بن صالح البرغواطي

خلف الياس والده صالح بن طريف بن شمعون في حكم دولة برغواطة، وكان من أفضل ملوكهم وأزهدهم وأكثرهم عدلاً. وفي عهده دخل في طاعته عدد كبير من أبناء زناته (١٥٩) . وطالت مدة حكمه الى خمسين عاماً (١٦٠) . وخلف بعد وفاته عدداً كبيراً من الأبناء، وكانت وفاته وفقاً لما أورده ابن الخطيب (١٦١) سنة ١٧٦ هـ ووفقاً لما أورده ابن عذارى سنة ١٧٣ هـ (١٦٢) .

(٤) يونس بن الياس البرغواطي

خلف الياس على دولة برغواطة ولده يونس، وتشير المصادر إلى أنه رحل كما سبق أن ذكرنا إلى المشرق، وأنه أدى هناك فريضة الحج، وكان بذلك أول وآخر ملوك برغواطة، يؤدي هذه الفريضة (١٦٣) .

والظاهر أنه أدى فريضة الحج تظاهراً بالاسلام، وتستراً على نواياه الخبيثة، فقد طاف في بلاد المشرق متردداً على مشاهير العلماء في علم التنجيم والكهانة والجان والجندل والكلام. وكان يصحبه في هذه الرحلة إلى المشرق، جماعة من أصحابه بعضهم من الخارجين على الاسلام، وهم كما يقول البكري نقلاً عن المذحجي « عباس بن ناصح، وزيد بن سنان الزناتى صاحب الواصلية، وبرغوث

ابن سعيد الترابى، وجد بنى عبد الرزاق، ويعرفون ببني وكيل الصفرية، ومناد صاحب المنادية المنسوب اليه القلبعه المعروفه بالمنادية، قريباً من سجلماسة، وآخر ذهب عنى اسمه (كما يذكر المذحجى) فاربعة منهم فقهوا فى الدين، وادعى ثلاثة منهم النبوة، منهم يونس صاحب برغواطية ... » . (١٦٤) ثم عاد يونس الى قومه فى المغرب، وتظاهر بادئ ذى بدء بالتقى والورع، بعد أن أدى قريضة الحج، ولكن سرعان ما كشف النقاب عن وجهه الحقيقى، وبدت نواياه التى تمثلت فى تلك الفترة أولاً فى توسيع رقعة دولة برغواطية سياسياً عن طريق بسط نفوذه على المناطق المجاورة ، وثانياً الاعلان عن ميوله الحقيقية فى الخروج عن تعاليم الدين الحنيف. وفى ذلك يقول ابن عذارى « فولى ابنه يونس بن الياس، وذلك بعدما وصل من المشرق، وحج، ولم يحج أحد من أهل بيته ، فأظهر ديانة جده ودعا اليها ... » (١٦٥) وربط هذين الهدفين بعضهما ببعض فأعلن النبوة (١٦٦) ، ونجح فى السيطرة على زناته الذين كانوا قد دخلوا فى فلك الدولة البرغواطية زمن والده الياس، ويبدو أن يونس كان يسعى الى استغلال العلاقة الطيبة التى كانت تربط بين أمراء الأندلس الأمويين وبين ملوك برغواطية منذ عهد صالح بن طريف بأن ينشر أفكاره الهدامة هناك، وأغلب الظن أنه لم يوفق فيما ذهب إليه ، لأن الأندلس كانت تخضع آنذاك للأمير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠ هـ) ابن عبد الرحمن الداخل الذى كان معروفاً بورعته وتقواه ، كما أن الفقهاء المالكية شغلوا مكانه كبيرة فى عهده (١٦٧) .

لذلك صرف يونس جهوده فى نشر عقائده الهدامة فى زناته وبربر برغواطية . بتامسنا، وفى ذلك يقول البكرى « وكان يونس شرب دواء الحفظ فلقن كل ماسع وحفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجان ، ونظر فى الكلام والجدال، وأخذ ذلك عن غيلان ، ثم انصرف يريد الأندلس ، فنزل بين هؤلاء القوم من زناته ، فلما رأى جهلهم استوطن بلدهم ، وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريباً منه ، فعظم عندهم ، فلما رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم ، أظهر ديانته ودعا الى نبوته ... » (١٦٨) .

ويبدو أن يونس البرغواطى أحكم سيطرته على أهالى تامسنا ، وأثر فى

نفوسهم تأثيراً عميقاً بحيث أصبح يطلق على كل من تبعه «برباطى» وهو نفس لقب أسرة طريف ثم تحرفت الكلمة كما سبق أن ذكرنا الى برغواطى فأطلق اسم الأسرة على القبيلة كلها (١٦٩) .

واتسم عهد يونس بن الياس بالاستبداد والعنف الشديد ، فكان يونس بعد أن تنبأ وأظهر دينه الجديد ، يقدم على قتل من لا يقبل اعتناقه حتى أنه «أخلى ثلاث مائة مدينة ، وسبعا وثمانين مدينة حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه ، وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكاب، وهو حجر نابت على فى وسط السوق سبعة الاف وسبع مائة وسبعين قتيلاً ، وقتل من صنهاجة خاصة فى وقعة واحدة ألف وغد ، والوغد عندهم ، المنفرد الوحيد الذى لا أخ له ولا ابن عم ، وذلك فى البربر قليل ، وإنما أحصوا الأقل ليستدل به على الاعظم الأكثر ... » (١٧٠) ومع أن الأرقام الواردة فى النص مبالغ فيها إلا أنها تعبر الى حد كبير عن جبروته وتسلطه . وقد توفى يونس بن الياس فى أواخر القرن الثانى وطلبيعة الثالث على وجه التقريب ، بعد أن حكم أربع وأربعين سنة فى قول البكرى ، وأربعين سنة فى قول ابن عذارى ، وتسعة عشرة سنة فى قول ابن الخطيب ، الذى يذكر أنه توفى سنة ١٩٥ هـ .

ونستطيع أن نتبين من هذا العرض بداية اتساع رقعة دولة برغواطية منذ أن تولاها الياس ، وبلغت فى عهد يونس أقصى اتساع لها لتشمل المناطق والمدن المجاورة لها ، وكان يونس يتخذ من ديوانته الجديدة ستاراً لوسط نفوذه على ماكان يجاوره من أقاليم . وكانت شاله على وادى الغبط من أسمير ، قاعدة ملك يونس (١٧١) .

واتفق فى هذه المرحلة من تاريخ برغواطية أن لمحج ادريس بن عبد الله بن الحسن فى الاقلاط من أيدى العباسيين والنجاة بنفسه فى أقصى بلاد المغرب ، ونزل فى ولى سنة ١٧٢ هـ عند اسحق بن عبد الله الأوربى أمير أوربه وكبيرهم فى ذلك الوقت ، والتف حوله جموع كبيره من البربر لقرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واجتمعت عليه قبائل أوربه ومغيلة وصدينة وتبعته زناته وزواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة ، وبايعته

بالإمامة (١٧٢) ، ويبدو أن تنافساً على السيادة فى المناطق الممتدة ما بين تامسنا والسوس الأدنى حدث بين الياس بن صالح ملك برغواطية ، وربما ولده يونس ، وبين ادريس الأول الحسنى ، خاصة بعد أن نجح الياس فى بسط نفوذ برغواطية على خلق كثير من زناتة على حد قول ابن الخطيب ، استكملة ابنه يونس كما سبق أن أوضحنا ، الأمر الذى دفع ادريس الى الاغارة على أراضى تامسنا وحصولها ، فافتتح شاله وامتد نفوذه حتى شمل تادلا ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ولما استوثق أمر ادريس وتمت دعوته ، زحف الى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية مثل قندلاوة ، وبهلوانة ومديونة ، ومازار ، وفتح تامسنا ، ومدينة شالا وتادلا ... » (١٧٣) .

ويذكر ابن أبى زرع أن ادريس خرج غازياً « الى بلاد تامسنا ، فنزل أولاً بمدينة شالة ففتحها ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا ، ثم سار الى بلاد تادلا ... » (١٧٤) .

ولانعرف على وجه التحديد اسم ملك برغواطية فى هذه الفترة ، بسبب اختلاف المصادر فى تحديد سنى حكم كل من ملوكهم : فابن الخطيب يذكر أن وفاة الياس حدثت سنة ١٧٦ هـ بينما يجعلها ابن عذارى فى سنة ١٧٣ هـ . وفى نفس الوقت لانعرف على وجه الدقة تاريخ سنة وفاة ادريس الأول ، فبينما يذكر ان ابى زرع أنه توفى فى سنة ١٧٧ هـ (١٧٥) ، يحدد البكرى وفاته سنة ١٧٥ هـ (١٧٦) . وأياً ما كان تاريخ وفاته ، فليس من شك فى أن ادريس الأول هاجم برغواطية فى عهد الياس أو ابنه يونس بهدف وضع حد لنفوذ حكام برغواطية الذى بدأ يتسع فى بلاد السوس الأدنى من جهة ، وللقضاء على هرطقتهم من جهة أخرى ، فالأدارة أسرة حسنية يرتفع نسبهم إلى على بن أبى طالب وبالتالى إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ومحاربتهم لهراطقة برغواطية يعد من قبيل الجهاد الذى التزموا به ، وللحد من سيطرة المارقين عن الدين الاسلامى وتوسعهم فى التراب المغربى .

ولقد نجح الإدارة فى بسط نفوذهم على تامسنا فترة من الزمن خاصة فى عهد محمد بن ادريس الثانى كما سنوضح فى سياق حديثنا عن العلاقات الخارجية لبرغواطية . ونرجح أن هذه الفترة التى ساد فيها نفوذ الإدارة على

تامسنا هي نفس فترة الانتقال بين حكم يونس البرغواطي ، وحكم خليفته على ملك برغواطة أبى غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار استناداً على ما أورده البكرى ، وابن عذارى ، وابن خلدون أن نسل يونس بن الياس انقطع بوفاته ، وأن حكم برغواطة انتقل الى فرع آخر لابن ثان لطريف ، غير صالح ، هو اليسع (١٧٧) .

(٥) أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع

وعلى الرغم مما عاناه البرغواطيون فى التصدى للأداسة فقد نجح أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع فى تخليص بلده من سيطره الأداسة وأعاد عقيدة أجداده وأسرته ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب « ولما ولى أبو غفير أظهر ديانته ، وقاتل الأداسة ملوك المغرب من الفاطميين ، واشتدت شوكته ، فكانت بينه وبين ادريس بن ادريس الحسنى حرب عظيمة ومواقف جهادية شهيرة .. » (١٧٨)

ولم يلبث أبو غفير أن اتوفى فى سنة ٢٣٠ هـ على حد قول ابن الخطيب الذى يحدد فترة حكمه بخمس وثلاثين سنة (١٧٩) . وإن كان كل من البكرى وابن عذارى وابن خلدون يذكرون أنه حكم ٢٩ سنة ، وتوفى فى اخريات المائة الثالثة .

ويكون أبو غفير بذلك قد عاصر ثلاثة من ملوك الأداسة هم ادريس ابن ادريس المتوفى فى سنة ٢١٣ هـ ، ومحمد ابن ادريس الثانى المتوفى سنة ٢٢١ هـ والذى تمكن من بسط نفوذه على تامسنا إلى أن وضع أبو غفير حداً لهذا النفوذ ، كما عاصر على بن حيدرة بن محمد بن ادريس الذى توفى سنة ٢٣٤ هـ .

واهتم أبو غفير بعد تخليص برغواطة من نفوذ الأداسة أن يعيد لها أهميتها بين بربر السوس الأدنى ، فانطلق يبعث فساداً فى المناطق المجاورة له ، وكانت له مع البربر وقائع مشهودة ، ومعارك مشهورة ، من أهمها معركة تيمغسن « وكانت مدينة عظيمة ، أقام القتل فى أهلها ثمانية أيام من الخميس الى الخميس حتى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم بدمائهم ... » (١٨٠) .

ومن أشهر هذه المواقع موقعة بهت التى عجز الاحصاء عن عد ضحاياها ،

وقد نظم سعيد بن هشام المصمودي ، في هذه المرقعة ، قصيدة طويلة منها :

ألم تسمع ولم تر يوم بهت على آثار خيلهم رنيناً
رينن الباكيات بهم ثكالي وعاروة ومسقطه جنيئاً
هنالك يونس وبئر أبيه يوالون البوار معظميناً
فليس اليوم ردتكم ولاكن ليالي كنتم مستيسريناً (١٨١)

(٦) أبو الانتصار عبد الله بن أبي غنير

يذكر كل من البكري ، وابن عذاري ، وابن خلدون أن أبا الانتصار عبد الله خلف أباه أبا غنير بن معاذ على حكم برغواطة في ختام المائة الثالثة للهجرة . ومن الملاحظ أن رواية ابن الخطيب عن دولة برغواطة بدأت تضطرب منذ عهد أبي غنير ، فهو يذكر أبا غنير معاذ على أنه من نسل يونس بن الياس بن صالح ، وواضح أن هذه النسبة غير صحيحة ، لأن يونس بن الياس لم يعقب كما سبق أن أوضحنا أو لأن الحكم انتقل إلى فرع آخر نتيجة خضوع برغواطة في هذه الفترة للأدارسة . كذلك لم يذكر ابن الخطيب أن أبا الانتصار عبد الله خلف أباه أبا غنير على حكم برغواطة (١٨٢) .

ونستنتج من النصوص التاريخية المتعلقة بأبي الانتصار عبد الله أنه كان شخصية قوية ، هابه ملوك عصره وسعوا إلى خطب وده وصادقته ، فإنه كان سخياً ينفى بالعهد ويحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها (١٨٣) . وفي عهده استقرت الأوضاع السياسية للدولة برغواطة نتيجة لحملاته العسكرية التي كان يسيرها من آن لآخر إذ أنه « كان يجمع جنده وحشمه في كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله ، فتواديه القبائل وتستألفه ، فإذا استوعب هداياهم وألطفهم فرق أصحابه (*) » .

وحكم أبو الانتصار عبد الله نحواً من ٤٢ سنة ، وتوفي في أواخر سنة ٣٤١ هـ أو بداية سنة ٣٤٢ هـ ، ودفن في مدينة بامسلاخت .

(٧) أبو منصور عيسى بن أبي الانتصار عبد الله

وخلف أبا الانتصار في ملك برغواطة ، ولده أبو منصور عيسى . وكان شاعراً

يافعاً يبلغ من العمر نحو ٢٢ عاماً^(١٨٤) . وكان أبو الأتصار قد أوصى ولده أبا منصور عيسى قبل وفاته بموالة صاحب الأندلس (الخليفة عبد الرحمن الناصر) ويبدو أن الصلات الودية بين أبي منصور عيسى وبين خلفاء بني أمية في الأندلس توثقت إلى حد كبير زمن الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) فقد أرسل أبو منصور عيسى سفارة رسمية يرأسها أبو صالح زموهر البرغواطى إلى الخليفة المستنصر في شوال من ٣٥٢ هـ ، وكان يصاحب هذه السفارة البرغواطية ، عيسى بن داود المسطاسى الذى كان يتولى نقل أفكار السفير البرغواطى إلى الخليفة^(١٨٥) . وتسجل تلك السفارة المكانة السياسية العالية التى بلفتها دولة برغواطية بحيث أصبحت بين الدول المغربية الكبرى التى تتعامل معها الحكومة المركزية بقرطبة دبلوماسياً وتتبادل السفارات السياسية مع دولة الإسلام فى الأندلس ، ونستدل على هذه المكانة السامية من رواية للبكرى تؤكد اشتداد شوكة أبي منصور عيسى ، وعظم سلطانه إلى حد أنه انتهج سيرة آبائه وادعى النبوة^(١٨٦) ، فيكون بذلك ثالث ملوك برغواطية ، يدعى النبوة بعد صالح ، ويونس .

وكان قد شاع بين هراطقة برغواطية أن صالح بن طريف سيعود الى الظهور فى عهد سابغ ملوكهم ، واتفق أن أبا منصور عيسى كان السابغ بين هؤلاء الملوك ، ولهذا فقد ساد الاعتقاد فى برغواطية أن صالح بن طريف سيظهر فى عهده .

ويبدو أن الظروف السياسية السيئة التى أحاطت ببرغواطية منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، بلغت درجة كبيرة من الإضطراب والتعقيد ، وانعكست هذه الظروف السياسية على كتابات مؤرخى برغواطية بحيث خلطوا بين أسماء الملوك فقدموا بعضهم على بعض ، واختلفوا فى تحديد مدد حكمهم ، ومن مظاهر ذلك على سبيل المثال أن ابن خلدون يذكر أنه لم يقف على من ملك أمر برغواطية بعد أبي منصور عيسى^(١٨٧) بينما توقف ابن عذارى عن متابعة الحديث عن برغواطية عند أحداث سنة ٣٥٢ هـ^(١٨٨) .

أما ابن الخطيب فلم يكن أقل منهما اضطراباً بشأن ملوك برغواطية ، فقد

أورد اسم أبي حفص عمر بعد أبي غفير ، ثم ذكر أن اليسع بن إسماعيل خلف أبا حفص عمر ، وأن اليسع كان سابع ملوك برغواطة ، وأنه استمر يحكمها حتى سنة ٤٥٢ هـ ، وقت ظهور المرابطين ، كما ذكر أن آخر ملوكهم هو عيسى بن أبي الأنصار (١٨٩) .

ب- الصلات السياسية لبرغواطة مع الدول المغربية المجاورة

لم تكن برغواطة بمعزل عن التيارات السياسية التي كانت تجري في بلاد المغرب الاسلامي ، فقد كان لزاماً على أولى الأمر فيها الإرتباط بعلاقات سياسية مع الدول المجاورة لهم سواء رضوا أم كرهوا ، وتتمثل هذه الدول في الأدارسة والفاطميين والأمويين في الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، ثم في دولة المرابطين ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري على وجه التقريب .

(١) سياسة الأدارسة مع برغواطة

أشرنا في الصفحات السابقة إلى جانب من العلاقات بين دولة برغواطة والأدارسة في عهد إدريس بن عبد الله الحسني وعهد ولده إدريس الثاني .

واستمر خضوع تامسنا للأدارسة في عهد محمد بن إدريس الثاني الذي قسم دولة الأدارسة إلى أعمال يتولاها أخوته بإسمه تنفيذاً لوصية جدته كنزة . فكانت شالة وسلا وآزمور وتامسنا وبرغواطة من نصيب أخيه عيسى (١٩٠) . واتفق أن ثار عيسى بشالة على أخيه محمد ، وأراد الإستقلال ببرغواطة ، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة وسبته يأمره بالتوجه إلى تامسنا لقتال أخيهما عيسى وإعادته إلى الطاعة ، فرفض القاسم ، فاضطر محمد بن إدريس إلى توجيه أخيه عمر المتولى أعمال صنهاجة وغمارة لمحاربة عيسى في تامسنا . ولحق عمر في التغلب على أخيه عيسى وتمكن من ضم شالة وتامسنا وما يتبعهما من مناطق نفوذ برغواطة إلى ملكه ، كما يادر بقتال أخيه القاسم ، وانتصر عليه وضم أملاكه بدورها إليه . وظل عمر يتولى عمل شالة بالإضافة إلى ما اقتطعه من أعمال أخيه عيسى والقاسم حتى توفي في سنة ٢٢٠ هـ . ولم يطل العمر بأخيه محمد ، فلحقه في ٢٢١ هـ بعد سبعة أشهر من وفاة

أخيه (١٩١) .

وانتهز أبو غفير البرغواطى فرصة وفاة محمد بن إدريس فى استرداد ما كان قد انتزعه الأدارسة من أملاكه ، فقاتل الأدارسة وحرر أراضيهم من سيطرتهم ، واستعاد لملوك برغواطية من بنى طريف ، السيادة على تامسنا وما يجاورها وأمكنه بالتالى استرجاع المكانة السامية التى كانت تشغلها برغواطية .

(٢) موقف برغواطية من الصراع الفاطمى الأموى

لم تستطع برغواطية أن تقف مكتوفة اليدين من الصراع الفاطمى / الأموى للسيطرة على المغرب الأقصى ، باعتبارها إحدى دول هذا الصقع من بلاد المغرب ، فالدولة الفاطمية التى قضت على دولتى الأغلبية والرستميين كانت تتطلع إلى ضم المغرب الأقصى بما فى ذلك دولة الأدارسة ، ولكن زعيماً بربرياً هو موسى بن أبى العافية سبق الفاطميين فى التحرك ، وتمكن سنة ٣١٣ هـ من الإستيلاء على بعض مناطق المغرب الأقصى ، وأجلا «جميع الأدارسة عن بلادهم وأخرجهم عن ديارهم ، وملك مدينة أصيلا ومدينة شالة وغيرها من بلادهم ...» (١٩٢) ونخرج من هذا الحادث باحتمالين :

الأول : أن يكون موسى بن أبى العافية قد انتزع شالة من البلاد التابعة لدولة برغواطية وذلك بعد فترة زمنية من قيام أبى غفير بتحرير بلاده من السيطرة الأدرسية .

والإحتمال الثانى : أن يكون الأدارسة ما يزالوا يسيطرون على شالة ، وأن أباً غفير لم ينجح فى استردادها فى جملة ما استرده من أملاكه .

وأياً ما كان الأمر فإننا نلاحظ أن برغواطية التزمت الوقوف مع الجانب الأموى الأندلسى ، من ذلك الصراع الفاطمى الأموى على سيادة المغرب الأقصى ، وهى نفس السياسة التى انتهجها موسى بن أبى العافية الذى أعلن تبعيته للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر فى الأندلس سنة ٣١٩ هـ ، ولهذا السبب كانت العلاقات القائمة بين ملوك برغواطية حتى زمن أبى منصور عيسى ، وبين بنى أمية فى الأندلس حتى خلافة الحكم المستنصر ودية . ولم يكن ذلك غريباً فقد أوصى صالح ولده الياس قبل رحيله الثانى إلى المشرق واختفائه ، بموالاة أمير

الأندلس ، كما أوصى أبو الأنصار عبد الله ابنه أبا منصور عيسى بمتابعة ولائه لصاحب الأندلس .

ويبدو أن أبا منصور أخذ بنصيحة أبيه فبادر أول توليه الحكم بإرسال سفارة إلى الحكم المستنصر سنة ٣٥٢ هـ (١٩٣) . وأعتقد أن حرص ملوك برغواطة على إقامة علاقات وثيقة مع الأمويين في الأندلس ، يرجع إلى عاملين :

الأول أن عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية في الأندلس ، كان يحمل مودة خاصة لقبيلة مغيلة البربرية منذ أن لجأ عند أحد شيوخها وهو أبو قرّة وأنسوس المغيلي أثناء مطاردة أعوان عبد الرحمن بن حبيب الفهري له في المغربين الأدنى والأوسط . وكان أبو قرّة المغيلي هذا من رؤساء الخوارج الصفرية ، بمن شاركوا في ثورات الخوارج على العرب ، ويبدو أنه كان زعيم قومه وأنه حكمهم زهاء أربعين سنة (١٩٤) ، وفي ذلك يقول ابن خلدون في سياق حديثه عن مغيلة (١٩٥) أخوة مطماطة «وكان منهم جمهوران ، أحدهما بالمغرب الأوسط عند مصب شلف في البحر من ضواحي ما زونه ، المصر لهذا العهد ، ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، ونزل بالمنكب ، فكان منهم أبو قرّة المغيلي الدائن بدين الصفرية من الخوارج ، ملك أربعين سنة ، وكانت بينه وبين أمراء العرب بالقيروان لأول دولة بني العباس حروب ، ونازل طينة . وقد قيل أن أبا قرّة هذا من مطماطة ، وهذا عندي صحيح ، فلذلك أشرت ذكر أخباره إلى أخبار بني يفرن من زناتة» (١٩٦) .

وسواء أكان أبو قرّة من مغيلة أو من مطماطة ، فإن مطماطة وهم أخوة مغيلة ، كانوا من حلفاء برغواطة ، وكذلك كان بنو يفرن (١٩٧) . ومادام أبو قرّة قد اشترك في ثورة البربر الخوارج على العرب (١٩٨) ، فمن المرجح أنه كان صاحباً لميسرة المطفري أول ثوار البربر ، وطريف بن شمعون . ويذكر ابن خلدون أن أبا قرّة ثار سنة ١٥٠ هـ مع أبي حسان وأبي حاتم يعقوب بن ليبيب ، رموس بن خلد ، ومليح بن علوان ، وحسان بن زروال . وكان حسان هذا آخر هؤلاء الثوار من الداخلين مع عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس (١٩٩) .

ولا نستبعد أن تكون الصلات الرديئة التي ربطت بين أسرة عبد الرحمن

الداخل من أمراء بنى أمية ، وبنى طريف فى برغواطة ، قد توثقت عن طريق أبى قرة المقيلى الصفرى الذى يرجع إليه الفضل فى حماية عيد الرحمن من شرطة ابن حبيب النهري (٢٠٠) .

والثانى أن أخوال عيد الرحمن الداخل مؤسس أسرة بنى أمية فى الأندلس من بهر نفزة (٢٠١) ، والمعروف أن من بطون نفزة قمصيت ومنه مطماطة وصطفورة ومططرة ومغيلة (٢٠٢) .

هذه الصلات القبلية توحى بوجود ثمة علاقة تربط بين كل من مغيلة ومططرة ومطماطة من جهة ، وبين عيد الرحمن الداخل الذى كان ينتمى من جهة الأم الى قبيلة نفزة ، ولما كان أبو قرة من زعماء ثوار الخوارج الصفرية ، وكذلك الشأن بالنسبة لميسرة المططرى ، ولما كان كلاهما يرتفع فى نسبه إلى نفزة التى ينتمى إليها عيد الرحمن الداخل من جهة الأم ، فقد كان من الطبيعى ، والحال كذلك ، أن تتوطد الصلة بين بنى طريف حلفاء مططرة ومطماطة ، وبين بنى أمية فى الأندلس .

وقد استمرت العلاقات الودية بين الأمويين فى الأندلس ، والبرغواطيين فى عصر الإمارة وفترة عهد الخليفين الناصر والمستنصر ، ولكنها لم تلبث أن توترت بعد وفاة الحكم المستنصر فى سنة ٣٦٦ هـ ، وانتقال السلطة الفعلية إلى يد المنصور محمد بن أبى عامر ، عندما صرف جعفر بن على ، الذى كان المنصور بن أبى عامر قد أجازاه الى المغرب وولاه على البصرة سنة ٣٦٦ هـ ، جهوده فى محاربة برغواطة (٢٠٣) . ولكن أبا منصور عيسى بن أبى الأنصار ملك برغواطة ، تمكن من إيقاع الهزيمة بجعفر بن على ، ولحق بأخيه يحيى بالبصرة ، ثم أمر المنصور باستدعائه تاركاً أخيه يحيى على عمله بالمغرب .

وفى نفس الوقت الذى كانت قوات المنصور محمد بن أبى عامر تهاجم برغواطة ، كانت برغواطة تتعرض لهجوم ، شنته عليها جيوش بلكين بن زبرى الصنهاجى والى أفريقية من قبل الفاطميين سنة ٣٦٨ هـ . وفى إحدى الاشتباكات بين قوات برغواطة والجيوش الزيرية ، لقي أبو منصور البرغواطى مصرعه ، وانهزمت قواته ، وأثنى فيهم بلكين قتلاً ، ومع ذلك فلم تستطع

قوات بلكين القضاء على دولة برغواطة ، وواصل بلكين إرسال بعوثه العسكرية وحملاته على بلادهم ، فكان يفرزها عاماً بعد عام حتى سنة ٣٧٢ هـ عندما قتل أثناء عودته من المغرب الأقصى إلى القيروان (٢٠٤) .

ورغم هزيمة جيوش المنصور بن أبي عامر أمام برغواطة ، فقد عاود مهاجمتهم مرة ثانية عندما بعث ابنه المظفر عبد الملك ، مولاه واضحاً إلى المغرب في سنة ٣٨٩ هـ ، فهاجم أراضي برغواطة ، وأثخن فيها وقتل وسبى أعداداً كبيرة منهم (٢٠٥) .

كذلك قام بنو يفرن الزناتيون بمحاربة برغواطة ، وذلك عندما استقل بنو يعلى بن محمد اليفرنى بناحية سلا (٢٠٦) . وقد بلغت الحملات اليفرنية على برغواطة أشدها في عهد الأمير أبي الكامل تميم بن زمور الزناتى اليفرنى ، فقد كان يفرزهم في كل سنة مرتين ، واستمر على هذه الحال حتى وفاته عام ٤٤٨ هـ . ويبدو أن الأمير تميم اليفرنى استولى على شالة في إحدى هجماته بدليل أنه فر إليها سنة ٤٣٩ هـ عندما استولى حمامة بن المعز مع مغراوة على فاس (٢٠٧) .

وتسجل السنوات الأخيرة من عهد أبي حفص عمر بن عبد الله بن محمد بن مقلد بن اليسع البرغواطى آخر ملوك برغواطة على حد قول ابن أبي زرع ، وابن الخطيب (٢٠٨) ، بداية حركة الجهاد التى حمل المرابطون لوامها ضد المارقين على الإسلام برئاسة عبد الله بن ياسين ، وانضم إلى ابن ياسين العديد من المؤمنين بمبادئه الإسلامية الخالصة وقوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعرف أتباعه بالمرابطين نسبة إلى رباط ابن ياسين الذى تلقوا فيه تكوينهم الروحى والحربى ، ولشدة جدهم وحسن بلائهم ، كما عرفوا باللمثمين لاتخاذهم لثاماً يغطى الجزء الأدنى من الوجه ، وكذلك باللمتونيين نسبة إلى قبيلة لمتونة التى ينتمون إليها وتولت الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فى الصحراء الواقعة جنوبي جبال درن (٢٠٩) .

وعندما انطلق المرابطون للجهاد سنة ٤٤٥ هـ اتجهوا إلى درعة ، وأصطدموا بقوات مغراوة وسجلامة ، وتغلبوا عليها واستولوا على سجلامة ، وأصلحوا

من أحوالها ، ثم اندفع المرابطون بعد ذلك فى موجات كاسحة لقتال زناتة ، كما قاتلوا الشيعة الرافضة فى تارودانت وافتتحوها ، واستولوا على ماسة ، وتم لهم الإستيلاء على السوس بأسره سنة ٤٤٨ هـ ، وبعث القائد أبو بكر بن عمر الذى كان يقاتل مع عبد الله بن ياسين ، ابن عمه يوسف بن تاشفين لفتح واحات درعة فيما بين عامى ٤٤٨ هـ ، ٤٤٩ هـ فنجح ابن تاشفين فى فتحها ، وامتدت فتوح المرابطين حتى وادى تنسيفت من بلاد رجرجة ، واستولوا عام ٤٤٩ هـ على أغمات ، ثم اتجهوا إلى المصامدة بجبال درن (٢١٠) .

وفى أواخر عام ٤٥٠ هـ ، دعا المرابطون الى جهاد برغواطة بتامسنا وأنفا والريف الغربى ، ودارت بين المرابطين وبين برغواطة معارك ضارية أسفرت عن إصابة عبد الله بن ياسين شيخ المرابطين إصابة خطيرة انتهت بوفاته (٢١١) .

وأوصى ابن ياسين قبل وفاته المرابطين بمواصلة الجهاد ضد هرطقة برغواطة فقال لهم « يا معشر المرابطين ، انكم فى بلاد أعدائكم ، وإنى ميت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تحببوا فتفشلوا ، فتذهب ربحكم ، وكونوا ألفة وأعواناً على الحق وإخواناً فى ذات الله تعالى ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة ، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء ويستخلف فى أرضه من أحب من عبادته ، وإنى قد ذهبت عنكم ، فانظروا من تقدموه منكم يقوم بأمركم ويتود جيوشكم... » (٢١٢) . ثم توفى عبد الله بن ياسين يوم الأحد ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ ، ودفن فى كريفلة بتامسنا ، وبني على قبره مسجد .

واتفق المرابطون بعد وفاة ابن ياسين على تقديم الأمير أبى بكر بن عمر اللمتونى عليهم ، وما كاد أبو بكر ينتهى من دفن عبد الله بن ياسين حتى انطلق لقتال برغواطة ، ويذكر ابن أبى زرع أنهم «فروا بين يديه وهو فى أثرهم يقتل ويسبى حتى أثخن فيهم ، وتفرقت برغواطة فى الشعارى ، وأذعنوا له بالطاعة ، وأسلموا إسلاماً جديداً... » (٢١٣) .

وتجمع المصادر العربية على أن المرابطين قضوا على برغواطة قضاء تاماً واستأصلوا شأفتها ، ومع ذلك فإننا نلاحظ من خلال الحوادث والوقائع التى سجلها عصر دولة المرابطين ، أن المرابطين لم يقضوا تماماً على برغواطة بدليل

أنها ستظهر في تلك الأحداث وتشارك في الثورات ضد الدولة الموحدية كما سنوضح في ختام البحث .

ولهذا فإننا نعتقد أن المرابطين ، وإن كانوا قد نجحوا في القضاء على الكيان السياسي لبرغواطة كدولة لها مقرات الدول ، فإنهم لم يقضوا عليها كعصية اجتماعية بدليل أن برغواطة عادت إلى الظهور في عهد الموحدين ، ونجح البرغواطيون في مواجهة الموحدين ، وشاركوا في ثورة الماسي والصحراوي مشاركة غير ذات خطر ، أما من حيث الفكر العقائدي لبرغواطة فقد تطهر على أيدي المرابطين الذين ردها إلى الإسلام الصحيح ، فلم نعد نسمع بعد أن قضى المرابطون على دولتهم شيئاً عن ديانتهم الغربية المتطرفة . ومادامنا نتحدث عن برغواطة وأشهر ملوكها فيجدر بنا التعرض لاسرتين برغواطيتين كان لهما دور سياسي بارز في حوادث المغرب الإسلامي ، خارج نطاق تامسنا حاضرتهم .

(١) أسيرة منصور البرغواطي في صفاقس بإفريقية

ظهرت من برغواطة أسرة تولت الحكم في صفاقس بإفريقية في عهد بني باديس الصنهاجيين ، وكان من أبرز شيوخها منصور البرغواطي ، الذي ولاه المعز بن باديس على صفاقس ، ويصفه ابن خلدون بأنه كان فارساً مقداماً ولكنه جنح إلى الثورة على المعز بن باديس أيام تغلب العرب الهلالية على إفريقية وخروج المعز إلى الأندلس ، ولم يتح لمنصور أن يكمل ثورته بالنجاح ، إذ انقلب عليه ابن عمه حمو بن مليل البرغواطي ، وقتله في الحمام غداً (٢١٤) .

وانضمت إلى حمو طائفة كبيرة من عرب زغبة ورياح وعدى والأنبج ، واستبد حمو بصفاقس ، ولما توفي المعز ، طمع حمو في التغلب على المهديّة ، فزحف إليها في حشود ضخمة من أتباعه العرب ، فتصدى له تميم بن المعز وأوقع به الهزيمة ، وكان ذلك في عام ٤٥٥ هـ على حد قول ابن خلدون . و٤٥٦ هـ في رأى ابن عذارى . فترجع حمو إلى صفاقس ، وعندئذ أرسل تميم رلده يحيى لحصارها ، بيد أن تميم لم يصير طويلاً على هذا الحصار فرفعه بعد فترة . وفي سنة ٤٩٣ هـ زحف تميم بن المعز إلى صفاقس وتمكن من استردادها من يد حمو البرغواطي الذي قر إلى بمكن بن كامل أمير قابس ، فأجاره ، أما

صفاقس فقد استرجعها تميم بن المعز وأسند ولايتها إلى ابنه (٢١٦) .

(٢) اسيرة سكوت البرغواطى مولى الحموديين فى سبتة وطنجة

ترك يحيى بن على الحمودى كلاً من «رزق الله» وصديقه «سكوت» (أو سقوت) بن محمد البرغواطى «على حكم سبتة» ، بينما تفرغ هو لمعركة الخلافة فى الأندلس ، ويغلب على الظن أن سكوت هذا كان أحد الأسرى البرغواطيين الذين وقعوا فى أسر المنصور بن أبى عامر أو ولده سنة ٣٨٩ هـ وقت مهاجمة قوات الأندلس لدولة برغواطة . وكان سكوت آنذاك طفلاً حديثاً اشتراه أحد الخدادين ، ثم اشتراه على بن حمود (٢١٧) ، عندما كان حاكماً لسبتة بإسم سليمان المستعين . وفى سنة ٤٥٣ هـ أمر سكوت البرغواطى بقتل رزق الله حليفه ، كما قطع كل صلاته بجميع الحموديين ، ونادى بنفسه ملكاً (*) ، واتخذ لنفسه لقباً خلافاً مزدوجاً وهو «المنصور» و «المعان» كما نقش على العملة اسم أمير المؤمنين يقصد الخليفة العباسى القائم بالله لإسباغ الشرعية على حكمه ، وعهد لولده بحكم طنجة . ثم تطلعت أنظار سكوت إلى الجزيرة الخضراء التابعة لبنى عباد، واضطر إلى خوض بعض وقائع مع المعتضد بن عباد ، صاحب مملكة اشبيلية ، وتمكن بعد صولات وجولات من احكام السيطرة على المجاز ، والتحكم فى معابر الأندلس . وبدأ يغير بسفنه على السفن القادمة والصادرة ، ويقطع الطريق عليها على نحو ما يفعل القراصنة (٢١٨) ، فى الوقت الذى كانت قوات المرابطين تعمل فيه على توحيد الجبهة الاسلامية فى المغرب ، والقضاء على اتباع برغواطة فى الريف المغربى ، وفى هذه الفترة ازداد عيث القشتاليين فى الأندلس وانتزاع قواعد الواحدة اثر الأخرى ، وتمكن الفونسو السادس ملك قشتالة وليون من بسط سيادته على كل دويلات الطوائف ، وفرض على ملوكها الضعاف الإتاوات ، فوادعوه بقلاعهم وحصونهم بهدف شراء سلمه والإبقاء على عروشهم . وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة نذيراً للملك الطوائف بقرب نهايتهم ، واتخذ هذا الملك لنفسه لقب الإمبراطور صاحب الملتين سنة ٤٧٨ هـ ، وعندئذ فقط تحرك ملوك الطوائف ومدوا أيديهم يلتصقون الغوث والنصرة من يوسف بن تاشفين . ولم يتردد ابن تاشفين فى تلبية صرختهم بعد أن يفرغ من مهمته الرئيسية وهى

الإستيلاء على سبته وطنجة . وأثلج ذلك نفوس أهل الأندلس ورفع من معنوياتهم وبادر المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف بإرسال سفنه الى ساحل سبته إسهاماً منه في الحصار الماربطى لسكوت البرغواطى . ودارت بين الماربطين وقرات سكوت معارك ضارية في نواحي سبته أسفرت عن هزيمة سكوت ومصرعه ، وتمكن الماربطون من دخول سبته ، أما ابنه ضياء الدولة فقد انهزم في طنجة وفر منها عقب استيلاء الماربطين عليها (٢١٩) .

جـ- تطور الفكر العقائدى لبرغواطة

إذا كانت المصادر العربية تجمع على أن طريف بن شعون ، المؤسس الأول للدولة برغواطة في تامسنا كان مسلماً وأنه تقبل فكر الخوارج الصفرية ، بحكم صلته بميسرة المطغرى وإن كان ابن خلدون ينقرد من بين المؤرخين في أنه ادعى النبوة وخرج عن الإسلام ، فإن هذه المصادر تجمع على أن ولده صالح هو الذى قفز بتعاليم هذه الدولة الناشئة الى بحر من التطرف والاحاد ، فقد انسلخ من آيات الله سبحانه وتعالى على حد وصف ابن خلدون (٢٢٠) ، وادعى النبوة ، وشرع لأتباعه ديانة جديدة . ولم يكتف بذلك بل ادعى أن قرآناً جديداً غير قرآن محمد (ص) أنزل عليه ، وكان يتلو عليهم سوراً عديدة (٢٢١) ، ويزعم أن ما يتلوه عليهم موحى إليه من الله سبحانه وتعالى ، وأنه هو صالح المؤمنين الذى ورد ذكره في سورة التحريم «وإن تظاهروا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير» (٢٢٢) . وادعى أيضاً أنه المهدي الأكبر الذى يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال ، وإن عيسى بن مريم عليه السلام من أصحابه ، يصلى خلفه ، وأنه سيملاً الدنيا عدلاً مثلما ملئت جوراً ، كما نسب إلى موسى عليه السلام كلاماً كثيراً ، وزعم أن اسمه في اللغة العربية صالح وفي السريانية مالك ، وفي الأعجمية عالم ، وفي العبرانية وريا ، وفي البربرية ربا - ورى أى الذى ليس بعده شئ (٢٢٣) .

أما هذا القرآن الذى وضعه صالح بن طريف لقومه ، فكان يتكون وقتاً لما أوردته البكرى على لسان زمور البرغواطى من ثمانين سورة ، وأكثر هذه السور منسوبة إلى أسماء الأنبياء ، أولها سورة أيوب ، وآخرها سورة يونس ، ومن

سوره : سورة فرعون ، وسورة قارون ، وسورة هامن ، وسورة ياجوج وماجوج ، وسورة الدجال ، وسورة العجل ، وسورة هاروت وماروت ، وسورة طالتوت ، وسورة قمرود ، وسورة الديك ، وسورة الحجل ، وسورة الجراد ، وسورة الجمل ، وسورة الخنثى ، وسورة غرايب الدنيا ، وسورة الفيل ، وسورة اهلبيس (٢٢٤) .

ومن الجدير بالملاحظة أن الشرائع التى أحدثها صالح البرغواطى تخرج تماماً عن تعاليم الدين الاسلامى ، فقد حلل صالح لأتباعه وحرم كيفما شاء ، من ذلك على سبيل المثال :

(١) فيما يتعلق بالصلاة ، شرع لهم خمس صلوات فى النهار ، وخمس صلوات فى الليل ، ويتم الوضوء على النحو التالى : غسل السرة والخاصرتين ، ثم الاستغناء ، والمضمضة ، وغسل الوجه ، ومسح العنق ، والقفا ، وغسل الذراعين من المنيكين ومسح الرأس ثلاث مرات ، ومسح الأذنين ، ثم غسل الرجلين من الركبتين ، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود ، وبعضها الآخر على طريقة صلاة المسلمين ، وكانوا يسجدون ثلاث سجودات متصلة ، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر . وكان الواحد منهم عند إحرامه يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول «أيسمن ياكش» وتفسير ذلك بسم الله ، «مقر ياكوش» وتفسيره الله أكبر ، ويقضون أيديهم مبسوطة فى الأرض ، عندما يتشهدون ، ويقرأون نصف قرآنهم فى وقوفهم ، ونصفه فى ركوعهم ، ويقولون فى تسليمهم بالبربرية «الله فوقنا لم يغب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء» ، ثم يرددون كلمة «مقر ياكوش» خمساً وعشرين مرة ، ثم كلمة «ردام ياكش» بمعنى «لا أحد مثل الله» خمس وعشرين مرة (٢٢٥) .

(٢) أما بالنسبة للصوم فقد حرم صالح على قومه صيام شهر رمضان وأباح لهم الإفطار فيه وخصص لصيامهم شهر رجب (٢٢٦) ، بالإضافة الى صيام يوم من كل جمعة كفرض من فروضهم ، ويصومون الجمعة الأخرى التى تليه .

(٣) وأما الزكاة فقد أعفاهم صالح منها واكتفى بجمع العشر من جميع الحبوب ، وفى ذلك يقول البكرى على لسان زموه «ويأخذون العشر فى الزكاة

من جميع الحبيب ولا يأخذون من المسلمين شيئاً .

(٤) أباح صالح لأتباعه أن يتزوا من النساء كيفما شاموا ويقدر ما استطاعوا ، دون أن يحدد عدداً للزوجات ، وحرم على أتباعه الزواج من بنات العم ، كما حرم عليهم الزواج من مسلمات ، وحرم على سيدات قومه الزواج من رجال المسلمين ، كما أحل لأتباعه أن يطلقوا نساءهم ويرجعوهن ما أحبوا دون قيد أو شرط .

(٥) وفيما يتعلق بالحدود والعقوبات شرع صالح قتل السارق بالإقرار أو بالبينة ، كما شرع رجم الزانى ونفى الكاذب ، والدية عندهم مائة من البقر . (٢٢٧)

(٦) أما بالنسبة للطعام فقد حرم صالح على أتباعه رأس كل حيوان ، وحرم أكل الأسماك إلا إذا ذبحت ، وحرم عليهم أكل البيض ، وذبح الديكة وأكل لحومها لقداستها فى العقيدة البرغواطية ، وقد أغناهم بذلك عن الأذان ، فلم يكن لهم مؤذنون للصلاة ، واعتمدوا فى معرفة الوقت على صياح الديكة ، أما أكل الدجاج فمكروه (٢٢٨) .

(٧) وكان صالح يبصق على أيدي أتباعه ، فيلمعون هذا البصاق تبركاً ، ويحملونه إلى مرضاهم ليشفيهم ، وادعى صالح وقت رحيله إلى المشرق أنه سيظهر من جديد فى دولة السابع من ملوك بنى طريف ليملأ الدنيا عدلاً ورحمة (٢٢٩) .

وهكذا اعتنق البرغواطيون هذه الديانة التى شرعها صالح ، وعملوا بتعاليمه وآمنوا به نبياً وقرأوا قرآنه ، ويبدو أن هذه الديانة الخارجة عن الإسلام مرت بمرحلتين متتابعتين : مرحلة المحلية ، ثم مرحلة الإبتلاق والإنتشار . أما المرحلة الأولى وهى التى انتشرت فيها تعاليم هذه الديانة داخل نطاق دولة برغواطية وفى تامسنا نفسها فأعتقد أنها واكبت فترة حكم صالح والشرط الأول من عهد الياس . ونستند فى ذلك على نصيحة صالح لولده الياس عند رحيله الى المشرق ، ألا يظهر دينه إلا إذا قوى أمره ، ويبدو أن الياس أخذ بهذه النصيحة وعمل بها ، فقد ظل «مظهراً للإسلام مسراً لما أوصاه به أبوه من كلمة

كفرهم» «خوفاً وتقية» ، ومع ذلك فإن الياس بادر فيما يظهر بشرح عقائد ديانة والده لأهل الثقة من أتباعه ولم توفر لديه الإستعداد النفسى والعقلى لتقبل تعاليمه ، ونستند فى ذلك إلى رواية لابن الخطيب ، ذكر فيها أن خلقاً كثيراً من زناتة دخل فى طاعته (٢٣٠) . وبذلك بدأت دعوة صالح وولده الياس تنتشر فى داخل دولة برغواطة فى أضييق الحدود . ونخرج من ذلك بأن الشطر الثانى من حكم الياس يشكل مرحلة انتقالية بين المرحلة السرية المحلية لدعوة صالح وبين مرحلة الإنتشار الذى سيتحقق لهذه الدعوة فى عهد يونس الذى تنبأ مثل جده صالح ، واصطنع القهر والسيف لنشر الدعوة البرغواطية ، فكان يكره الناس على تقبل دعوته ولا يتردد فى استباحة دم من يرفض اعتناق ديانته . وقد أوضحنا فيما سبق أنه أحرق ٣٨٠ مدينة لمخالفة أهلها له ، كما سفك دماء ٧٧٧ شخصاً فى تاملوكاف ورفضوا الدخول فى دينه . وكان طبيعياً أن سياسة يونس فى نشر هرطقته بقوة السيف تستثير استياء جيرانه أمراء الدولات الإسلامية المجاورة ، وتحول هذا الإستياء عند بعض رؤساء المسلمين إلى غيرة على الإسلام . وأبرز القوى الإسلامية التى تصدت لبرغواطة دولة الأدارسة الحسنيين بفاس ، وهى دولة وإن كانت شيعية المذهب إلا أنها كانت أقرب الى السنة فى اعتدالها الى حد أن بعض المؤرخين اعتبروها دولة سنية (٢٣١) . لذلك تقدمت جيوش الأدارسة كما سبق أن أوضحنا لتحتل تامسنا وتضع بذلك حداً لهذه الهرطقة التى عمل بنو طريف على نشرها فى المغرب الأقصى بالقوة . ولكن لم يقدر للأدارسة تطهير تامسنا من هرطقة برغواطة ، بعد ظهور أبى غفير محمد البرغواطى ونجاحه فى تحرير بلاده من السيطرة الادريسية ، ثم انطلاقه لنشر الهرطقة البرغواطية من جديد ، ونجح أبو غفير فى تحقيق هدفه ، فعظمت شوكته واشتد أمره ، واعتمد بدوره على القوة العسكرية فى بسط سيادته على المناطق المجاورة لدولته ونشر فكر برغواطة الدينى بين بربر تلك النواحي ، وواصل كل من أبى الأنصار عبد الله وأبى منصور عيسى تطبيق هذه السياسة التوسعية ، خاصة وأن هذا الأخير قد تنبأ بدوره (٢٣٢) ، كما سبق أن أوضحنا فى سياق حديثنا عن الأحداث السياسية فى عهد ملوك برغواطة ، ومن العوامل التى ساعدت ملوك برغواطة على نشر ديانتهم ، كفايتهم

العسكرية العالية ، فقد ذكر البكرى أن قوة برغواطية العسكرية كانت تتألف من ثلاثة آلاف ومائتى فارس بخلاف القبائل البربرية التى تحالفت معها ، والتى سبق أن ذكرناها . ويؤكد ابن عذارى ذلك بقوله أن عسكر برغواطية يتجاوز ١٢٠ ألف مقاتل بعد احتساب العساكر المجندة من القبائل المختلفة (٢٣٢) التابعة لها .

وظلت برغواطية على هرطقتها حتى ظهور المرابطين الذين تصدوا تحت قيادة عبد الله بن ياسين ، للقضاء على هذه الهرطقة ، واستشهد ابن ياسين أثناء محاولته إرجاع برغواطية الى الاسلام الصحيح . ولجئ المرابطون فى تحقيق هدفهم ، فلم نعد نسمع بعد قضاء المرابطين على دولتهم عن ديانة برغواطية وهرطقتها . وإذا كانت لبرغواطية ذبول بعد سقوط دولتها تتمثل فى سكوت البرغواطى القائم بسببته ووطنجة ، فإننا لا نعرف على وجه اليقين ما اذا كانت دولته انتهجت نفس سياسة دولة برغواطية فى السوس الأدنى من الهرطقة والكفر أم أنها عادت إلى الإسلام . ويرى بعض الباحثين أن نشأة سكوت فى كنف بنى حمود الأدارسة ، غيرت من مبادئ البرغواطية الإلحادية ، فنشأ نشأة إسلامية (٢٣٤) . وتستنتج من رواية أوردها ابن عذارى أن سكوت كان مسلماً وتقول الرواية أن سكوت أرسل الى أبى الوليد بن جهور صاحب قرطبة فى طلب قارئ للقرآن ، فوجه إليه ابن جهور فقيهاً قارئاً يعرف بعون الله بن نوح (٢٣٥) وفى اعتقاده أن سكوت البرغواطى لم يكن صادقاً فى إسلامه أو أنه كان باطنياً يتظاهر بالإسلام تقية ، وأعتقد أنه كانت له نفس ميول حكام دولة برغواطية فى تامسنا من الهرطقة والإلحاد ، رغم رواية ابن عذارى سالفة الذكر ، ورغم ما قيل عن نشأته فى كنف بنى حمود الأدارسة ، وأيضاً رغم اهتمامه باستقدام كبار فقهاء عصره إلى سبته أمثال أبى الأصباغ بن سهل الجياني الذى درس بقرطبة وغرناطة وطليطلة ثم انتقل إلى سبته حيث قام بالتدريس فى مسجدها ، وأبى محمد بن منصور قاضى الجماعة ، وأبى اسحق اللزاتى . (٢٣٦) ومن الجدير بالذكر أن الادريسي الجغرافى المشهور نشأ فى سبته زمن سكوت ، والواقع أن عقائد برغواطية تبين للوكهم مبدأ التقية وإخفاء معتقداتهم الحقيقية وراء قناع زائف من التظاهرات الإسلامية ، فهم أهل باطن شأن كثير من

أصحاب النحل والهرطقات التي ظهرت في الشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول ، فسكوت فيما أعتقد كان يظهر الإسلام باستجلاب الفقهاء والمشايع إلى سبته ولكنه كان يخفى ما بداخله من أفكار دينية خارجة عن الإسلام . فطالما هاجم الأساطيل الإسلامية وخاصة الأندلسية عند مجاز جبل طارق ، ويصفه صاحب مفاخر البربر بأنه رجل استعان بالشر وتهاون بالأمر ، أضرم البحر بلججه ناراً ، وأخذ كل سفنه شصباً (٢٣٧) . كذلك أستند فيما ذهبت إليه إلى خبر أورده كل من ابن خلدون في العبر والقلقشندي في صبح الأعشى نستنتج منه أن سكوت ، وإن كان قد أظهر الإسلام في دولته ، فإنه أبقى على عقيدة برغواطية .

فقد ذكر أنه ظهر في غمارة في أواخر عهد الموحدين رجل لثامي عرف بأبي الطواجن ، ادعى النبوة (٢٣٨) ، ورجل إلى سبته وأخذ ينشر مبادئه فيها . يقول القلقشندي «ثار في غمارة محمد بن محمد اللثامي المعروف بأبي الطواجن ، وكان له يد في السيمياء ، وارتحل إلى سبته فنزل عليها ، وادعى النبوة ، وأظهر أنواعاً من السيمياء ، فاتبعه جماعة ، ثم ظهر لهم حقيقة أمره ، فرجعوا عنه ، وقتله بعض البربر ...» (٢٣٩) :

ونتساءل عن السبب الذي دفع أبا الطواجن إلى اختيار سبته بالذات لبث أفكاره المسمومة ، وادعائه النبوة ، فلو لم يكن واثقاً تماماً من وجود عناصر ملحدة بسبته ، لما فكر في اتخاذها مقراً لثورته ، فالخبر الذي أورده كل من القلقشندي وابن خلدون يوحى بأن سبته رغم خضوعها لكل من دولتي المرابطين والموحدين ، ورغم أن أهلها نبذوا الفكر البرغواطى بفضل جهود المرابطين ، إلا أنه ربما كان بعض أفراد من أهلها ، مازالوا يحتفظون بأفكار الحادية منذ أيام سكوت ، وهذا يفسر السر في انتقال هذا الشائرا إليها لنشر مبادئه التي ظن أنها ستجد تربة خصبة لها هناك .

أما فيما يتعلق بدولة منصور البرغواطى في صفاقس ، فليس لدينا من النصوص ما يشير إلى عقائده وإن كنا نميل إلى الاعتقاد بأن حركة منصور البرغواطى في إفريقية كانت سياسية بحتة ، فقد ظهوروا هناك في نفس الوقت

الذى ظهر فيه المراهطون فى المغرب الاقصى ، وحاولوا إعادة إنشاء كيان سياسى لبرغواطية فى بقعة أخرى بعيدة عن تامسنا والسوس الادنى ، بعد أن كان المراهطون قد قضوا على دولة برغواطية فى تامسنا .

المؤثرات المختلفة على العقيدة البرغواطية:

أن الدارس لما زودتنا به المصادر العربية من نصوص عن العقيدة البرغواطية ، وإن كانت شحيحة للغاية إلا أنها تكفى للقول بأنها فيما أرى لا تعدو مجموعة من الافكار الدينية ، اقتبست من أديان مختلفة . ونستطيع أن نقسم هذه الافكار المكونة للعقيدة البرغواطية أو التى تأثرت بها هذه العقيدة الى نوعين إسلامية ، وغير إسلامية .

أ- التأثيرات الإسلامية:

” كان طبيعياً أن تتأثر الديانة البرغواطية بالاسلام بحكم أن مؤسسها كان مسلماً . وإن كان هذا التأثير جاء باهتاً يبعد صلة هذه الديانة عن الاسلام ، فقد حرق البرغواطيون وشوهوا من قواعده وأساسه ، ويتمثل ذلك فى تبديل شهر الصيام من رمضان الى رجب ، وفى تحريم بعض الاطعمة التى أحلها الله تعالى ، وفى السماح بتعدد الزوجات بدون حدود ، وإباحة الطلاق أيضاً دون قيود أو شروط ، وفى تسمية كتابهم المقدس بالقرآن رغم تغييرهم لاسماء سوره ، قسموا بعضها بأسماء الانبياء والبعض الآخر بأسماء الحيوانات . كما يتمثل الاثر الإسلامى فى اعتراف البرغواطية بمن سبق من الانبياء مثل عيسى عليه السلام الذى اعتبره صالح بن طريف من أصحابه ، وموسى الكليم الذى ادعى صالح أنه كلمه ونسب إليه كلاماً كثيراً .

كذلك تأثرت البرغواطية بالتشيع ربما لاحتكاكهم بالشيعه البجلية الذين كثر عددهم فى مدينة تارودانت ونواحيها من المغرب الاقصى . وقد اختلفت المصادر فى أصل هؤلاء الشيعة البجلية الذين كانوا يعيشون بالقرب من تامسنا ، وفيما إذا كانوا على المذهب الاثنى عشرى (الموسوى) أم على المذهب الاسماعيلى (٢٤٠) ، (السبعى) أم أن مذهبهم كان قريباً من مذهب القرامطة ،

ثم ربط بين المعتزلة والشيعة . كما يعزى تأثيرهم بالتشيع الى مجاورتهم
للأدارسة الحسينيين الشيعة فى قاس فى النصف الاخير من القرن الثانى
للهجرة .

ويظهر أثر الفكر الشيعى ^(٢٤١) واضحاً فى وصية صالح بن طريف الى ولده
إلياس عند رحيله الى المشرق ، فقد أوصاه بعدم إظهار ديانته إلا إذا أحس
بقوته ، وتذكرنا هذه الوصية بمبدأ "التقية" الذى آمن به الأئمة الاسماعيليه ،
الذين عرفوا "بالأئمة المستورين" .

ويذكرنا وعده لابنه إلياس بأنه سيعود الى الظهور ، فى دولة السابع من
ملوكهم ، وبأنه المهدي المنتظر ، بالتشيع عند الاسماعيليه ، فاختياره رقم
"سبعة" على وجه الخصوص يوضح تأثيره بالمذهب الاسماعيلى الذى أطلق عليه
أيضاً اسم السبعية .

وربما كان المذهب الخارجى أكثر المذاهب الإسلامية ^(٢٤٢) تأثيراً فى عقيدة
برغواطية وهذا أمر طبعى ، إذ أن مؤسسها طريف ، كان أصلاً من الخوارج
الصفورية . ويتمثل التأثير الخارجى فى مبالغة البرغواطيين فى التمسك
بعقيدتهم ، بحيث أقدموا على محاربة كل الدويلات الإسلامية التى كانت قائمة
فى المغرب الإسلامى دون هوادة ، وإسرافهم فى توقيع العقوبات والحدود كنفى
الكاذب ، وقتل السارق ، مما يتفق مع مبادئ الصفورية المفرطة فى التطرف ،
كذلك يتمثل فى قسوتهم فى معاملة من يرفض ديانتهم ، وهو أمر يتفق أيضاً
مع طبيعة الخوارج الصفورية ، وكذلك فى اعتبارهم المسلمين كفرة لا يجوز
الزواج منهم .

ب- التأثيرات غير الإسلامية :

وأول هذه التأثيرات ما اقتبسوه فى عقيدتهم من الفكر اليهودى خاصة وأن
هذه المنطقة من المغرب الاقصى كانت معقلاً لليهود كما سبق أن ذكرنا ، وأن
طريف بن شمعون مؤسس هذه الدولة وواضع شرائعها يرجع إلى أصول يهودية .
وقد حرص طريف على إبراز هذا الاصل اليهودى فى استخدامه اسم شمعون بدلاً
من الاسم العربى سمعان .

ويتضح الأثر اليهودى فى تحريم برغواطة أكل البيض ، والإعتقاد فى تأثير اللعب وهى عادة شائعة عند يهود طنجة ، وتربية الشعور على شكل صفائر ، وهى من العادات المتبعة عند يهود بولونيا واليمن ، وتقديس الديك وهى عادة لاتزال رواسبها باقية فى منطقة الشاوية ودكالة (٢٤٣) ، التى كانت تدخل فى نطاق دولة برغواطة حيث يحتفل أهل البادية فى بعض مواسمهم بدفن عظام الديك ، كما يتضح الأثر اليهودى فى اهتمامهم ، بما يتعلق بموسى عليه السلام ، ونسبة بعض تعاليمهم اليه . لقد ظهر الفكر اليهودى فى عقيدة برغواطة بصورة واضحة الى حد أن بعض المؤرخين أمثال نحوم سلوتش اليهودى ، ودفردان (٢٤٤) يؤكدون أن دولة برغواطة هى دولة يهودية فى أساسها واتجاهها ، وأن كلمة "ياكش" البربرية التى نادى بها صالح إنما هى تحريف من اسم النبي اليهودى "يوشع" (٢٤٥) .

وأعتقد أنه لا ينبغي أن نستعين بالتأثير اليهودى فى العقيدة البرغواطية استناداً الى الاصل اليهودى لحكامها ، وقيامها فى وسط مجتمعات يهودية كانت قائمة فى المغرب الاقصى ، ولى التأثير اليهودى تأثير مسيحي واضح المعالم ، وإن كان أقل بكثير من تأثير اليهودية .

فقد سبق أن أوردنا على الصفحات السابقة نصراً أوردها ابن أبى زرع وابن خلدون تشير الى وجود بعض المسيحيين فى إقليم فاس فى الوقت الذى نزل فيه إدريس بن عبد الله بن الحسن بوليلى . ويؤكد مارسيه أنه عثر على وثيقتين بمدينة وليلى تتضمنان مايشير الى وجود مواطنين من الروم فى هذا الاقليم كانوا على الديانة المسيحية عند الفتح الاسلامى (٢٤٦) . لذلك لا نستبعد الأثر المسيحى فى الفكر البرغواطى ، خاصة وأن صالح أخبر ولده إلياس ، طبقاً لما أورده المصادر ، أن عيسى عليه السلام صاحبه وأنه يصلى خلفه . وقد سبق أن أوضحنا آراء بعض المستشرقين أمثال جوتييه من الربط بين الدونانية المسيحية واستبسال أبنائها فى الدفاع عن مبادئهم ، وبين الخارجية فى المغرب الاقصى وتمسك أبنائها بها ، ربما يذكرونا هذا التفانى الدونانى فى الدفاع عن عقيدتهم ، باستماتة البرغواطيين فى الدفاع عن عقيدتهم . ولقد بالغ بعض المؤرخين فى هذا رأى الى حد أنهم فسروا كلمة ياكش الذى جاء بها

صالح على أنها تحريف من اسم السيد المسيح *Jésus* (٢٤٧) . وإلى جانب هذه !تأثيرات السابقة لا يمكن أن نغفل أثر الافكار المحلية البربرية والتي ربما يرجع بعضها الى الوثنية ، فقرآن صالح الجديد كان باللغة البربرية ، وصلاتهم كانت بالبربرية . وقد دفع ذلك البعض الى الربط بين عقيدة برغواطة وبين الديانات الوثنية القديمة ، وقد فسروا كلمة "ياكش" على أنها باخوس إله اليونان (٢٤٨) .

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات الواردة فى المصادر العربية عن برغواطة وعقيدتها تتسم بالمبالغة ، رويت لخدمة أغراض مذهبية وسياسية معادية لبنى طريف (٢٤٩) ، وأن دولة برغواطة دولة إسلامية لم تخرج عن شعائر الاسلام ولا عن تعاليمه ، وإنها كانت دولة خارجية صفرية (٢٥٠) ، كما أن قرآن برغواطة لم يكن سوى ترجمة بربرية للقرآن العربى . ونعتقد من جانبنا أن هذا الدفاع عن هراطقة برغواطة باطل ، وأن هذه الدولة لم تكتف بالخروج عن تعاليم الاسلام ، بل عملت على نشر هرطقتها خارج نطاق حدودها مما زاد من خطورتها على الاسلام فى المغرب . ونستدل على هذا الرأى بما يأتى :

١ - أن التعاليم التى جاء بها صالح بن طريف وتنبيهه هو ومن جاء بعده من ملوك برغواطة مثل يونس ، وابى منصور عيسى ، وإقدامهم على تحريف الكثير من التشريعات الاسلامية يكفى فى حد ذاته لاثبات ان برغواطة دولة خارجة عن الاسلام . أما قول بعضهم أن قرآن صالح بن طريف لا يعدو ترجمة بربرية للقرآن الكريم فمفروض ولا يمكن الأخذ به ، استناداً الى أن مازودنا به البكرى عن الآيات الواردة فيه رغم قلته يكفى للتأكيد بأنهم مسخوا القرآن الكريم ، وتصرفوا فى أسماء الآيات والسور على هراهم . أما الزعم بأن المصادر العربية بالغت فى وصف عقيدة برغواطة لمصالح خاصة فقول مرفوض ، إذ أن الاخذ بهذا القول يعنى به الطعن فى صحة الروايات التى ساقها كتاب المسلمين الثقة ، أمثال البكرى وابن عذارى وابن خلدون وابن ابى زرع ، واتهامها بالتحيز والخروج عن الموضوعية . وإذا افترضنا جدلاً عدم موضوعية هؤلاء فيما يتعلق بتصريحهم عن برغواطة ، ألا يقتضى المنهج التاريخى والعلمى منا أن نتشكك أيضاً فى صحة بقية النصوص التى أوردوها من أخبار ووقائع تاريخية أخرى ؟ فكيف يجوز الاخذ ببعض هذه النصوص ورفض بعضها الآخر ؟

٢ - إن النصوص التاريخية التي أوردتها المصادر وخاصة البكري ، وابن خلدون وابن عذارى عن عقيدة برغواطة ، إنما جاءت على لسان أحد البرغواطيين وهو زموون الذي أرسله أبو منصور عيسى سفيراً إلى الحكم المستنصر سنة ٣٥٢ هـ . ولو أن هذه الاخبار المتعلقة بعقيدة برغواطة وتنبؤ ملوكها باطلة أو منحولة عليهم لكان زموون تصدى لإتكارها وتكذيبها في حضرة الخليفة الأموي العالم الحكم المستنصر ، ذلك أن حقيقة أمر برغواطة ومواطن عقيدتها كانت معروفة في كل من المغرب والاتللس يعرفها الخاص والعام ، ولهذا لم يعمد زموون فيما يظهر إلى إخفائها ، واضطر إلى توضيح ما غمض فيها أمام الحكم المستنصر ، واكتفى بإحاطة طرف وأس ملوكهم بهالة أسطورية ، وحرص على أن يسبق عليه أمجاداً وبطولات ، وزعم أنه هو نفس طريف ابن مالك المعافى صاحب أول سرية إلى الاتللس .

٣ - لو أن برغواطة دولة إسلامية على المذهب الخارجي الصفرى كما يذكر المدافعون عنها فكيف نفسر محاربة كل الدول الإسلامية في المغرب الأقصى على اختلاف مذاهبها لها ، وحرصها على مجاهدتها . فكما سبق أن أوضحنا لم تسلم برغواطة من الإدارة ولا من الفاطميين وأتباعهم ، ولا من جيوش المنصور بن أبى عامر ، ولا من بنى ^(٢٥٠) يفرن الزناتيين ، بل أن بنى يفرن أصحاب سلا كانوا أشد وطأة على برغواطة من أى قوى أخرى مناوئة لهم . ويسوق كل من ابن أبى زرع ، والسلاوى الناصرى رواية نستنتج منها كيف كان الأمير أبى الكمال تميم اليفرنى الذى اشتهر بصحة إسلامه وتدينه واستقامته مولعاً بجهاد برغواطة ، فكان يغزوهم فى السنة مرتين إلى أن توفى سنة ٤٤٨ هـ ، فلما قتل ولده سنة ٤٦٢ هـ فى حرب لمتونة ، وحملت جثته لتدفن إلى جوار قبر والده تميم ، سمعوا من داخل قبر أبيه تكبيراً ، فنبشوا قبره فألفوا جسده كما هو لم يتغير منه شيء ، وتذكر تلك المصادر أن الملائكة كانت تحف بقبره وتهلل وتسبح ثواباً لتميم على جهاده ضد برغواطة ^(٢٥٢) . ومن الواضح أن تصدى مسلمى المغرب لمحاربة برغواطة كان يعتبر جهاداً فى سبيل الله فى نظرهم ، وكان الجهاد من اهم الدعائم التى قامت عليها دولة المرابطين ، وكان جهاد المجوس البرغواطيين على حد قول ابن أبى زرع أهم أهداف المرابطين .

ويؤكد هذه النزعة الجهادية كثرة عدد الارتبطة التي أنشأت على سواحل المغرب الأقصى خصيصاً لقتال برغواطية وجهادها ، ومن ذلك رباط سلا ، الذي أورد ابن حوقل ذكره في القرن الرابع الهجري ، وقد وصفه بقوله « ويسله رباط يرباط فيه المسلمون . وعليه المدينة الازلية المعروفة بسله القديمة . وقد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها ، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت ، ورباطهم على برغواطية من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي سمت عمارة الاسلام اليها يغزون ويسبون ... » (٢٥٣) .

ويذكر المؤرخ المغربي المعاصر عبد العزيز بن عبد الله أن هذا الرباط الذي تحدث عنه ابن حوقل كان يقع على الجانب الشمالي لوادي مدينة سلا عاصمة بني يفرن ، ويرجع هذا المؤرخ وجود رباطين متميزين في سلا أحدهما أقيم على الوادي على مقربة من البحر ، والآخر بجانب أنقاض سلا القديمة ، وقد يكون أحدهما رباط عبادة ، والآخر رباط جهاد (٢٥٤) . ويرى د . أحمد مختار العبادي أن هذا الرباط الذي ذكره ابن حوقل في سلا ، يبين أن الحدود الشمالية لدولة برغواطية ، وصلت قريباً من موضع الرباط الحالية ، ويؤكد د . العبادي أن اسم الرباط وتاريخها يوحى بأنها كانت رباطاً لجهاد برغواطية ، ويرى أن مدينة الرباط الحالية ، ربما كانت رباط سلا الذي ذكره ابن حوقل (٢٥٥) .

ومن الارتبطة التي نشأت لجهاد برغواطية رباط شاعر القائم حتى الآن بالقرب من مدينة مراكش ويسميه الاهالي في يومنا هذا سيدى شيبكر .

ويذكر ابن الزيات التادلي أن مؤسس رباط شاعر هو يعلى بن مصلين الرجراجي وأنه كان من بين المجاهدين الذي قاتلوا كفار برغواطية ، وقد أسس هذا الرباط عند قبر شاعر أحد أصحاب عقبة بن نافع (٢٥٦) هذا بخلاف أربعة مائة وقوز ونفيس التي انتشرت على سواحل المغرب الجنوبية (٢٥٧) . وكان أمير سجلماسة محمد بن الفتح ابن مدرار الملقب بالشاعر بالله ، والذي نبذ مذهب الخوارج ، وكان شديد التدين ، دعا قومه الى جهاد برغواطية سنة ٣٤٠ هـ ، ولكنه لم يحقق مأربه « لقلّة من كان يدعو الى غزوهم من البربر » ولمهاجمة

الفاطميين لبلاده بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٤ هـ (٢٤٨) .

٤ - وفى اعتقادى أن دولة برغواطة أثرت بعقائدها الخارجة على الاسلام ، على المناطق المحيطة بها ، فانتشرت الآراء الهرطقية فى كافة أنحاء المغرب العربى الإسلامى بتأثير منها ، من ذلك ما أورده كل من البكرى ، وابن خلدون فى سياق حديثهما عن بنى صالح بن منصور الحميرى أصحاب نكور ، فهما يذكران أن صالح بن منصور استخلص نكور لنفسه بعد أن أقطعه إياها الوليد ابن عبد الملك سنة ٩١ هـ ، وكانت تجاوره قبائل مطماطة وزواغة وجراوة وغساسة وبنى مروان من غمارة وبنى يرتيان وبنى واسن . وقد اجتمعت على صالح قبائل غمارة وصنهاجة ، وأسلموا على يديه ، وانتشر الإسلام فيهم . وبعد مضى فترة من الزمن ثقلت عليهم الشرائع والنفقات فارتدوا عن الاسلام ، وأخرجوا صالح بن منصور ، وولوا على أنفسهم رجلاً من نفزة يعرف بالرندى . ثم عادوا الى الإسلام وتابوا وأرجعوا صالح بن منصور (٢٤٩) .

وأعتقد أن حركة نكور كانت معاصرة لخروج طريف بن شمعون فى تامسنا وظهور ولده صالح الذى أثر على بربر هذه المنطقة بسحره وعلومه التى تعلمها فى المشرق ، فكل من الحركتين ظهرت فى أوائل المائة الثانية من الهجرة ، ثم أن انتماء "الرندى" الى قبيلة نفزة التى من بطونها مغيلة ومظفرة حلفاء طريف يوحى بوجود نوع من الصلة بين الحركتين . يضاف الى ذلك احتمال نسبة الرندى الى مدينة رندة الواقعة جنوب الاندلس وهو موقع لا يبعد كثيراً عن برباط الموطن الاول لطريف ، كل هذا يربط بين الرندى فى نكور وطريف وولده صالح فى تامسنا ، ويؤكد تأثير كل حركة منهما بالآخرى .

ومن مظاهر تأثير برغواطة على المناطق المجاورة لها ، ظهور عاصم بن جميل أمير ورفجومة من بطون نفزة سنة ١٣٨ هـ ، وكان من غلاة الصفرية ، بعقائد تشبه الى حد كبير عقائد صالح بن طريف . وقد ادعى عاصم النبوة والكهانة وأسقط ذكر النبى (ص) من الأذان ، وزاد فى الصلاة ، ثم زحف وأتباعه الى القيروان ، واستحلوا المحارم ، وارتكبوا الكبائر ، وهو بذلك يعد مقلداً لصالح الذى تنبأ قبله فى عام ١٢٥ هـ أو عام ١٢٧ هـ ، متشبهاً بسلوك ملوك برغواطة.

المرابطين والموحدين ، حركة دينية صوفية ، قد تكون رد فعل للحركات
 اللاحادية والهرطقات التي شملت هذه البلاد فى القرون الثلاثة الثانى والثالث
 والرابع للهجرة . وظهر من هرغواطة نفسها وتامسنا عدد من الفقهاء وعلماء
 الدين المشهورين من أهمهم الفقيه الصالح الزاهد أبو العباس أحمد بن عبد
 الله بن عبد العزيز الهرغواطى (٢٦٤) (ت . سنة ٦٨٨ هـ) نزيل آزمور ،
 والشيخ الفقيه الاديب أبو اسحاق ابراهيم بن مناد الهرغواطى نزيل أنفا
 (ت بين ٦٧٠ - ٦٨٠ هـ) (٢٦٥) ، ومن بين العلماء الذين رحلوا من تامسنا
 قاصدين آزمور للتحصيل والدراسة - وهو أمر يؤكد ما ذهبت إليه من حدوث
 حركة دينية مضادة لهرطقة هرغواطة فى هذا الاقليم - الشيخ الفقيه أبو ابراهيم
 عبد الواسع بن عبد السلام الصنهاجى نزيل آزمور (ت ٦٦٧ هـ) ، والشيخ أبو
 على عمر بن موسى الهوارى نزيل آزمور ، والشيخ أبو مروان عبد الملك بن
 محمد الكتامى الذى درس بسبته وتوفى بآزمور سنة ٦٩٣ هـ ، والشيخ أبو
 على المنصور المسطاسى الزمورى الذى قرأ بقرطبة على علمائها وتوفى بآزمور
 سنة ٥٤٠ هـ وقبره مشهور بها ، والشيخ الفقيه القاضى أبو الحسن بن حمادوه
 الصنهاجى الذى ولى قضاء آزمور فى خلافة المستنصر الموحدى وذلك فى سنة
 ٦١٦ هـ ، والشيخ أبو موسى عيسى بن تلالين الجزولى الذى رحل الى المشرق ،
 ثم عاد ودخل الاندلس ، وقدم إلى آزمور فى عهد الناصر الموحدى (٢٦٦) .

ومن نزلاء أنفا الشيخ الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن اسحق الفزارى
 الذى ولى القضاء بها فى دولة المرتضى ، وله قبر مشهور بها عند الباب القبلى
 من الجامع الكبير . ومن نزلاء آسفى الشيخ الفقيه الانفى أبو على الحسن بن
 حسون الكفيف الذى توفى بها وله مؤلف سماه «الترجيح والتتبع فى الناسخ
 والمنسوخ» .

المصادر والحواشي

- ١ - عن برغواطة وقيامها في إقليم تامسنا أرجع الى ابن ابي زرع "ابو الحسن على بن عبد الله القاسي" كتاب الاتيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق تورنبرج ، أو بسالة ، ١٨٤٣ ، ص ٨٢ ، ٨٣ - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القسم الاول ، المجلد الاول ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٨ ، ص ٤٢٨ - السلاوي "ابو العباس احمد بن خالد الناصري" الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدولتان المرابطية والموحدية ، تحقيق وتعليق ولدى المؤلف الاستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ - مجهول ، نبذ تاريخية منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، نشر وتصحيح ليثى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ ، ص ٤٧ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول الى انتصاف القرن السابع ، دراسة في التاريخ السياسي ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٧ ، ص ٧٣ - أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والاتدلس ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٤٨٨ - محمود إسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، مغربيات - دراسات جديدة ، المغرب ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠ - محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٩٥ M. Talbi, The independence of the Maghrib, General history of Africa, Vol III, Unesco, 1988, p.250 - M. El Fasi and I. Herbec, Stages in the development of Islam and its dissemination in Africa, General history of Africa, vol III, Unesco, 1988, p.65 زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي حتى قيام دولة الأغالبة والرستميين والأدارسة ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥ ، ص ٤١٦ - ٤١٧ - محمود إسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ ، ص ٤٨ حاشية ١٦١ - رجب

محمد عبد الحليم ، دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى ، القاهرة ، ١٩٦١ وقد نسب الأستاذ الدكتور رجب محمد عبد الحليم الدولة الى صالح وأولاده رغم أنه أكد فى بحثه أن واضع الاساس لهذه الدولة هو طريف والد صالح (ارجع الى المرجع ص ٢٩) ورغم إشارة أغلب المصادر الى هذه الحقيقة ، وقد برر الدكتور رجب هذه النسبة الى صالح بأن الحكم بقى فى ذريته وحده دون إخوته .

ونحن نميل الى تسمية هذه الدولة إما بدولة برغواطة أو بدولة بنى طريف الجد الاول للملك هذه الاسرة الحاكمة ، وذلك تمييزاً لهذه الدولة التى قامت فى تامسنا عن دولة بنى صالح التى قامت فى نكور .

أما إقليم تامسنا *Tamasna* ، فقد كان طبقاً لما ذكره الحسن بن محمد الرزاق (ليون الافريقى) أحد أقاليم مملكة فاس ، فقد قسم الحسن الرزاق بلاد البربر الى أربعة ممالك : الاولى مملكة مراكش التى تنقسم الى سبع أقاليم هى حاحا وسوس ومراكش وجزولة ودكالة وهسكورة وتادلا . والثانية مملكة فاس التى تضم بدورها سبعة أقاليم هى تامسنا وقاس وأزغار والهبط والريف وكروط والحوز . والثالثة مملكة تلمسان وفيها ثلاثة أقاليم ، الجبال وتنس والجزائر ، والرابعة مملكة تونس وتخضع لها أربعة أقاليم : بجاية وقسنطينة وطرابلس الغرب والزاب (الحسن بن محمد الرزاق الناسى ، وصف أفريقيا ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ، ترجمة محمد شحى ومحمد الاخضر ، ج ١ ، ص ٢٠ ، ٣١)

وتامسنا كلمة بربرية ، بلويزة زناتة ، تعنى البسيط الخالى ، أطلقت على المنطقة السهلية الممتدة على ساحل المييط الاطلسى من الرباط الى الدار البيضاء ، وعلى وجه التحديد فإن حد تامسنا الشمالى مدينة سلا أى الضفة الشمالية لنهر أبى رقراق ، وحدها الجنوبى آسفى (عبد العزيز بنعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، سلا ، ١٩٨٩ ، ص ١٠٢) . وقد عرفت هذه المنطقة بالشاوية ، عقب تلاشى برغواطة فى عهد بنى مرين ، اشتقاقاً من كلمة شاه ، حيث كان عرب بنى هلال الذين نزلوا فى هذه

المنطقة واستوطنوا بها ، يقومون برعى الأغنام والماشية فعرفوا لذلك بالشاوية . وقد سمي أحد أبواب مدينة الرباط بإسم "باب تامسنا" ولا تزال لفظة تامسنا تطلق على صحراء غدامس بمعنى الأرض الفقر الخالية (أحمد مختار العبادي ، فى تاريخ المغرب والاتدلس ، ص ٤٨٨) . وكان لموقع تامسنا بمحاذاة المحيط الاطلسى أكبر الأثر فى اشتغال سكانها البرغواطيين بأعمال القرصنة ، فكانوا يعترضون السفن التجارية المارة فى مضيق جبل طارق ويسطرون عليها (أنظر تحقيق د. أحمد مختار العبادي لكتاب لسان الدين بن الخطيب ، أعمال الإعلام ، القسم الثالث ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ١٨١ حاشية ٣) . وهناك من الباحثين من يفسر لفظة تامسنا بأنها مشتقة من كلمة تيمزين التى تعنى الشعير ، وكانت زراعته مزدهرة فى هذه المنطقة . كما يرى البعض الآخر أن اللفظة تنعت بها اللة طحن الحبوب أو الرعى (ميلود عشاق ، من تاريخ المغرب الوسيط ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، العلم الثقافى ، العدد ٩٧٢ ، مايو ١٩٩٠ ، الرباط ، ص ٢) .

٢ - من بين المؤرخين القدامى الذين وصموا برغواطية بالهرطقة ابن أبى زرع الذى وصفهم بأنهم "مجوس ، أهل ضلال وكفر" (ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٢ ، ٨٣) والحسن بن الوزان الذى وصفهم بالزندقة . (الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٤) .

٣ - من الباحثين الحديثين الذين تصدوا للدفاع عن عقيدة برغواطية الدكتور محمود إسماعيل فى بحثه حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ١٣ - ٥٥ . والمؤرخ الجليل د . سعد زغلول عبد الحميد الذى يرى أن المصادر العربية بالغت فى وصفها لعقيدة برغواطية لأن معظم المؤرخين كانوا يخدمون أغراضاً مذهبية وسياسية معادية لبنى طريف (سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٤١٨) . وكذلك الدكتور رجب محمد عبد الحليم الذى دافع عن طريف مؤسس هذه الدولة واعتبره مسلماً وفتياً لمذهبه ولبنى وطنه بينما وصف ولده صالح بأنه كان من أهل العلم والخير (ارجع الى رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الاقصى

(١٢٥ - ٤٥٥ هـ - ٧٤٣ - ١٠٦٣ م) ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤٧ ومايليها)

- محمد ولد داداه ، مفهوم الملك في المغرب ، ص ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٤١٧ .

٥ - عن تأثر عقائد برغواطة بالمسيحية ارجع الى *Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, Casablanca, 1944, p.129, - N.Slouch, L'empire des Berghouata et les origines des Blad-es-Siba, Revue du Monde Musulman, t.II, Paris, 1910, p.398.*

أما الدوناتية فهي نحلة مسيحية نسبة الى دوناتوس *Donatus* ، أسقف نوميديا الذي رفض الاعتراف باختيار بعض قساوسة الغرب لسياسيليان أسقفاً لقرطاجنة سنة ٣١١م لشكه في ولاء هؤلاء القساوسة للعقيدة المسيحية . وقد آزرت الكنيسة والسلطات الرومانية سياسيليان ، بينما ناصر البربر وخاصة الفقراء منهم دوناتوس ، ثم مالث الحزب الدوناتى أن انشق على نفسه ، فظل دوناتوس على رأس المعتدلين ، بينما ظهر زعيم جديد هو سيركونسليون ، دفع الدوناتية الى التطرف والعنف ، وانضم اليه الفقراء المطحونين الذين كانوا يتطلعون الى الثراء وينادون بالمساواة ، وتحولت النحلة الدينية بذلك الى حركة اجتماعية بحتة تستهدف تجريد الفقراء لثروات الاغنياء ، وأطلق عليها حركة الدوارين *Circum cellas* ، أى الذين يحومون حول مستودعات حبوب الاغنياء لسرقتها . (شارل اندرى جوليان ، تاريخ أفريقية الشمالية من الفتح الإسلامى الى سنة ١٨٣٠م ، تونس ١٩٧٨ ، ص ٢٩٧ ومايليها ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٨ ، محمود إسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٥٧ حاشية ٢١٧) . ويرى بعض الباحثين (محمود إسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ١٨٧) أن هناك تشابهاً كبيراً بين الدوناتية المسيحية في

بلاد المغرب ، وبين الخارجية الاسلامية هناك . ويؤكد جوتييه أن الدوناتيين كانوا يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها مثلهم في ذلك مثل خوارج المغرب ، كما أن الدوناتيين كانوا يتعصبون لمبادئهم تعصباً أعمى ، وفي سبيل تلك المبادئ كانوا يضعون بأرواحهم ، وهم في ذلك يشبهون خوارج المغرب المتطرفين وعلى الأخص الصفرية (حسين مؤنس ، فجر الاتدلس ، ص ١٨٩) . ومن المعروف أن طريف بن شمعون مؤسس دولة برغواطة كان خارجياً صفرياً (لزيد من التفاصيل عن الخوارج في المغرب وحماستهم في سبيل عقيدتهم ارجع الى *E. Levi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Tome Premier, Paris, Leiden, 1950, pp. 43, 442.*

- ٦ - مفاخر البربر ، ص ٤٧ .
- ٧ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ .
- ٨ - انظر تعليق د. حسين مؤنس على ابن الابرار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥١ ، حاشية رقم ١ - حسين مؤنس فجر الاتدلس ، ص ١٤٦ .
- ٩ - *M.Talbi, The independence of the Maghrib, p250.*
- ١٠ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .
- ١١ - المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .
- ١٢ - نفس المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .
- ١٣ - حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٤ .
- ١٤ - *M.El Fasi and I.Herbek, Stages in the development of Islam, p.65,228.*
- ١٥ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك في المغرب ، ص ٧٣ .
- ١٦ - ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦ .
- ١٧ - *Terrasse, Histoire du Maroc, Casablanca, 1944, p22*

الواقعة من عهد عقبة بن نافع وحتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١١٠ هـ) حتى أنه يقول «غلب الإسلام عليهم (البربر) وعلى بلادهم وأصبحوا جميعاً مسلمين منذ ولاية إسماعيل بن عبيد الله . ودانت هذه البلاد من برقة إلى السوس للعرب ...» (نفسه . ص ٢٢) . ولكنتنا نحمد الدكتور رجب عبد الحليم يعود ليؤكد ما ذكره من انتشار الإسلام في تامسنا خلال النصف الثاني للقرن الأول الهجري . أن بعض أصحاب الديانات السابقة مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ظلوا ينتشرون في المناطق الساحلية والسهلية في المغرب الأقصى في حين ظلت داخلية البلاد التي تكثر في الشعاب الجبلية على الوثنية وهو في ذلك يقول «رغم انتشار الإسلام على هذا النحو في بلاد المغرب الأقصى ومنها إقليم تامسنا بطبيعة الحال ، إلا أنه فيما يبدو كان للبيئة الطبيعية والجغرافية أثرها في بقاء بعض الديانات السابقة على الإسلام في هذه البلاد مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ... أما داخلية البلاد التي تكثر فيها الشعاب الجبلية والهضاب العديدة والطبيعة الجغرافية المعقدة . فقد كانت الكثرة فيها من السكان على الوثنية» (ص ٢٣) . ثم يأتي بحقيقة مفارقة لما سبق أن ذكره وهي أن إسلام أهل تامسنا تم في عهد أول أمراء الأدارسة إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ١٧٧ هـ) . وهذا يعني أن أهالي تامسنا كانوا عند قيام دولة طريف في برغواطة لا يزالوا إما على ديانات سابقة أو وثنيين . ونحن نرفض ما سبق أن أكد عليه د. رجب عبد الحليم بقوله أن الإسلام قد انتشر هناك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز . وسوف نوضح على الصفحات التالية أن منطقة تامسنا كانت تحتفظ باليهود ، وكانت أعدادهم هناك تقدر بالآلاف وقد أسرف ابن أبي زرع في وصف جهود الأمير أبي الكامل تميم اليفرنى في قتاله اليهود والنصارى في منطقة فاس والسوس الأدنى . ونحن نأخذ بالرأى القائل بأن تحول المغرب كله إلى الإسلام لم يتم إلا في القرن الرابع الهجري : (Fasi, The Islamisation of North Africa, Unesco, 1988, p 66) وحتى من أسلم من أبناء هذه المناطق النائية مثل تامسنا فقد كان إسلامه سطحيًا

سلا عن الرباط ، وقد ذكره ابن الخطيب فى كتابه نفاضة الجراب (أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لأعمال الاعلام ، ص ١٨١)

٢٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٧ ، حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٥٣ .

٢٥ - ابن الأثير (عز الدين ابو الحسن على بن ابي الكرم) الكامل فى التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، المجلد الرابع ، ص ١٠٥ وما يليها ، ابن عذارى (ابو العباس أحمد) البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق ليثى بروفتسسال ، وكولان ، ليدن ، ١٩٤٨ - ١٩٥١ ، ج ١ ص ٢٧

٢٦ - الرقيق القيروانى ، تاريخ أفريقيا والمغرب ، بدون تاريخ ، ص ٦٩ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٧ ولزيد من التفاصيل ارجع الى حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٤٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص ١٧٠ وما يليها ، سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢١٢ ، رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى صالح ، ص ١٨ ، ويذكر د. رجب أن الإسلام بدأ ينتشر فى بلاد تامسنا منذ فتوحات عقبة بن نافع الذى اهتم بإنشاء المساجد فى البلاد التى يفتحها وإن كان يؤكد أن إقام فتح تامسنا وكل بلاد المغرب الأقصى قد تم على يد موسى بن نصير (المرجع السابق ، ص ١٦ ، ١٧) واستطرد د. رجب عبد الحليم فى توضيح أهم المساجد التى اهتمها عقبة بن نافع وموسى بن نصير كما أوضح أن حركة انتشار الإسلام ازدادت عمقاً فى بلاد المغرب فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز على وجه الخصوص لأنه اختار ولايته على هذه البلاد من التقاة الصلحاء (نفسه ، ص ٢٠) بحيث أنه لم يبق فى ولاية عامله على هذه البلاد إسماعيل بن عبيد الله ، أحد من البربر إلا أسلم . كذلك عرض لنا د. رجب أسماء أشهر عشرة فتحاء قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بإرسالهم الى مختلف نواحي المغرب (نفسه ، ص ٢١) . وتفهم من حديثه هذا أن الإسلام قد تغلغل فى جميع أنحاء بلاد المغرب بما فيها تامسنا فى الفترة

الواقعة من عهد عقبة بن نافع وحتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١١٠ هـ) حتى أنه يقول «غلب الإسلام عليهم (البربر) وعلى بلادهم وأصبحوا جميعاً مسلمين منذ ولاية إسماعيل بن عبيد الله . ودانت هذه البلاد من برقة إلى السوس للعرب ...» (نفسه . ص ٢٢) . ولكننا نحمد الدكتور رجب عبد الحليم يعود ليؤكد ما ذكره من انتشار الإسلام في تامسنا خلال النصف الثاني للقرن الأول الهجري . أن بعض أصحاب الديانات السابقة مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ظلوا ينتشرون في المناطق الساحلية والسهلية في المغرب الأقصى في حين ظلت داخلية البلاد التي تكثر في الشعاب الجبلية على الوثنية وهو في ذلك يقول «رغم انتشار الإسلام على هذا النحو في بلاد المغرب الأقصى ومنها إقليم تامسنا بطبيعة الحال . إلا أنه فيما يبدو كان للبيئة الطبيعية والجغرافية أثرها في بقاء بعض الديانات السابقة على الإسلام في هذه البلاد مثل النصرانية واليهودية والمجوسية ... أما داخلية البلاد التي تكثر فيها الشعاب الجبلية والهضاب العديدة والطبيعة الجغرافية المعقدة . فقد كانت الكثرة فيها من السكان على الوثنية» (ص ٢٣) . ثم يأتي بحقيقة مغايرة لما سبق أن ذكره وهي أن إسلام أهل تامسنا تم في عهد أول أمراء الأدارسة إدريس بن عبد الله (١٧٢ - ١٧٧ هـ) . وهذا يعني أن أهالي تامسنا كانوا عند قيام دولة طريف في برغواطة لا يزالوا إما على ديانات سابقة أو وثنيين . ونحن نرفض ما سبق أن أكد عليه د. رجب عبد الحليم بقوله أن الإسلام قد انتشر هناك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز . وسوف نوضح على الصفحات التالية أن منطقة تامسنا كانت تكتظ باليهود . وكانت أعدادهم هناك تقدر بالآلاف وقد أسرف ابن أبي زرع في وصف جهود الأمير أبي الكامل تميم اليفرني في قتاله اليهود والتصارى في منطقة فاس والسوس الأدنى . ونحن نأخذ بالرأى القائل بأن تحول المغرب كله إلى الإسلام لم يتم إلا في القرن الرابع الهجري : (Fasi, The Islamisation of North Africa, Unesco, 1988, p 66) وحتى من أسلم من أبناء هذه المناطق النائية مثل تامسنا فقد كان إسلامه سطحياً

متمزجا بتعاليم أديان ومذاهب أخرى كما سوضح فيما بعد

٢٧ - ميلود عشاق ، من تاريخ المغرب الوسيط ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٢ وهو يرد في هذا المقال على كثير من الآراء التي أوردها د. محمود إسماعيل في بحثه «حقيقة المسألة البرغواطية»

٢٨ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٤

٢٩ - المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

٣٠ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، تحقيق د. أحمد مختار العبادي ، ج ٣ ص ١٨١ ، حاشية ١ .

٣١ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٢٠٣ .

٣٢ - أحمد مختار العبادي ، في تحقيقه لأعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ حاشية ١ ، وطنجة مدينة أزلية قديمة بالمغرب الأقصى ، تقع عند الطرف الغربي لمضيق جبل طارق بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، ولا يفصلها عن الشاطئ الأسباني سوى ١٨ كم ، وهي تمثل آخر حدود أفريقية من المغرب ، ويفصل بينها وبين القيروان ألفا ميل (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، أحمد مختار العبادي ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ حاشية ١) وتبعد طنجة عن سبتة بنحو ثلاثين ميلاً في البر . ويذكر الحميري أنه كانت تعلوها في العصور القديمة قنطرة تصل بينها وبين الأندلس «كانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس ، فلما كان قبل الفتح الإسلامي ، طغى ماء البحر وزاد وخرج من البحر المحيط الى بحر الزقاق ، وأغرق هذه القنطرة ، وكان طولها اثني عشر ميلاً ..» (الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة لبنان ، ١٩٨٤ ، ص ٣٩٦) . وكانت طنجة تخضع في العصر السابق للفتح الإسلامي بمغرب لحكم يليان (ابن خلدون ، العبر ، المجلد الرابع ، القسم الأول (٧) ، ص ٣٩٩) فلما افتتحها موسى بن نصير ولى عليها طارق بن زياد أصبحت معبراً مغربياً الى الأندلس في العصر الإسلامي . ثم خضعت

للأداسة العلويين بفاس ، وجعلوا منها ومن سبعة قاعدتين بحريتين لأعمال القرصنة إلى أن تمكن المرابطون من القضاء على أسرة سكوت البرغواطى الحاكمة لهذه المنطقة (خواكين فالقى بيرميخو ، سكوت البرغواطى ملك سبتة ، ترجمة عبد اللطيف الخطيب ، مجلة تطوان ، الرباط ١٩٧١ ، العدد الحادى عشر ، ص ٩٤ وما يليها ، أحمد مختار المهادى ، تحقيق ابن الخطيب لكتاب أعمال الأعلام ص ٢٠٣ وما يليها) .
٣٣ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ، عهد العزيز بتعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقرق ، ص ٩ .

٣٤ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٢٠٣ ، أحمد مختار المهادى فى تحقيقه لأعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ ، حاشية ١ ، ويعتبر القلقشندى مدينة سلا نفس مدينة تامسنا فيقول «ومنها سلا بفتح السين وفى آخرها ألف ، وهى مدينة من الغرب الأقصى فى آخر الإقليم الثالث ... وهى مدينة قديمة فى غربها البحر المحيط ، وفى جنوبها نهر يصب فى البحر المحيط ، والبساتين والكروم . وبنى عهد المؤمن أمامها من الشط الجنوبى على النهر والبحر المحيط قصراً عظيماً ، وبنى خاصته حوله المنازل فصارت مدينة عظيمة سماها المهديّة ، وسلا متوسطة بين بلاد المغرب الأقصى ، قريبة من الأندلس ، وهى مدينة كثيرة الرخاء ، ولها معاملة كبيرة ، يقال لها تامسنا ، كثيرة الزرع والمرعى » (القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، طبعة تراثنا ، ج ٥ ، ص ١٦٩) .

٣٥ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٩ .

٣٦ - المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

٣٧ - الحسن بن الوزان ، ص ٢٠٥ .

٣٨ - نفسه ، ص ١٩٦ .

٣٩ - نفسه ، ص ٢٠٤ .

٤٠ - ويذكر ابن خلدون ان مواطن برغواطى فى تامسنا من سلا وازمرد وآنفى

واسعى (ابن خلدون العبر . القسم الأول المجلد السادس . ص ٤٢٨)

٤١ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ص ١٥٧

٤٢ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٩٣ ، ويعتبر الحسن بن الوزان دكالة من اقاليم فاس (الحسن بن الوزان . وصف أفريقيا ص ١٥٧) وبلاد الحوز هى الأراضى الخصبة التى تحدها دكالة وعبدية والأطلس ووادى أم الربيع . ومن أهم أنهارها نهر تانسيفت ، ومن أهم مدنها أغمات ، ونفيس ، وتعتبر أسفى من عمل دكالة وأصبحت بعد إنشاء مراكش فرضة لها ، واشتهرت بوفرة كرومها (القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ . ص ١٦٨) .

٤٣ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا .

٤٤ - البكرى ، المصدر السابق ، ص ٨٧ .

٤٥ - راجع كلا من البكرى (المغرب فى ذكر أفريقيا والمغرب ، ص ١٣٤ وما يليها) الذى يصف برغواطية بأنها مملكة وممالك ، وكذلك ابن الخطيب (فى أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٠) الذى يصف حكام برغواطية بأنهم ملوك (أنظر أيضاً الناصرى ، الإستقصا ، ص ١٧ - مفاخر البربر ، ص ٤٧ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٢١) وتجمع معظم المراجع العربية الحديثة على أن دولة برغواطية مملكة ، وأن حكامها ملوك (ارجع الى أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٦ ، ومحمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب ، ص ٧٣ - ٧٤ M. Talbi, The independence of Maghrib, p. 250 - Terrasse, Histoire du Maroc, p. 129)

N slouch, L'Empire des Berghouata et les origines des Blades Siba, Revue du Monde musulman, t. x, no3, 1910

٤٧ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢١ . ٢٢ .

- ٤٨ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٩ ، ٣٦٨ . ويصف تيراس الطبيعة الجغرافية لبرغواطة بأنها كانت تجمع بين السهول والهضاب والجبال . فقلب برغواطة كان يتألف من هضبة داخلية هي الشاوية الحالية ، وتقع ما بين مراكش وبر رشيد وستات وجيسر وواد زم . (Terrasse, Histoire du Marco, p. 129)
- ٤٩ - البكري ، المغرب ، ص ١٤١ - ميلود عشاق ، ملاحظات ، ص ٢ .
- ٥٠ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، وارجع كذلك الى القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٩ ، محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢١ .
- ٥١ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٩ .
- ٥٢ - المصدر السابق ، ص ١٩٨ .
- ٥٣ - نفسه ، ص ٢٠٥ .
- ٥٤ - نفسه ، ص ١٩٨ .
- ٥٥ - نفسه ، ص ١٩٦ .
- ٥٦ - نفسه ، ص ٧٢ - عبد العزيز بنعبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقرق ، ص ٩ ، ٢٥ .
- ٥٧ - الحسن بن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ١٩٩ ، حيث يذكر أن أدندون اختصت بالعديد من هذه المناجم .
- ٥٨ - المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .
- ٥٩ - J. Devisse, Trade and trade routes in west Africa, General history of africa, III, Unesco, 1988, p. 410 . يرجع د. رجب عبد الحليم سبب رواج تجارة برغواطة مع الأندلس لعاملين : الأول هو قيام علاقات مودة وصداقة ربطت بين حكام الدولتين ، والثاني هو وفرة الموانئ الصالحة لرسو السفن والتي كانت تقع على ساحل تامسنا الطويل الذى

يبدأ فى الشمال من سلا وينتهى فى الجنوب الى مدينة آسفى . (د. رجب عبد الحليم ، دولة بنى صالح فى تامستا ، ص ١٢٠) أما أشهر موانئ تامستا فقد حددها د. رجب عبد الحليم بأنها ميناء سلا الذى كان أهله على ثراء عظيم بسبب اشتغالهم بالتجارة مع أهل الأندلس ، وميناء فضالة الذى يقع إلى الجنوب من ميناء سلا ، وكانت ترد إليه السفن الأندلسية وغيرها من سفن البلاد الأوربية ، ثم ميناء أنفا وبعده مرسى مازيفن (أمازيغن) الذى يبعد عنه بخمسة وستين ميلا ، ثم مرسى الفيط الذى يبعد عن مازيفن بثمانين ميلا . أما ميناء آزموور فهو يقع بين كل من مرسى الفيط ومرسى مازيفن (ارجع الى د. رجب محمد عبد الحليم ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢٢) .

٦٠ - أبو القاسم بن حوقل النصيبى ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٨٣ .

٦١ - المصدر السابق ، ص ٨٣ .

٦٢ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، طبعة ١٩٦٨ ، ص ٢١٠ ، ٤٦١ .

٦٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٤١ .

٦٤ - المصدر السابق ، ص ١٤١ ، وارجع كذلك الى ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .

٦٥ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ .

٦٦ - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤ .

٦٧ - Terrasse, Histoire du Maroc, p. 22

٦٨ - الرقيق القيروانى ، تاريخ افريقيا والمغرب ، تحقيق وتقديم المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١٠٧ وما يليها - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٥١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٨٥ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ - ابن تغرى بردى «جمال الدين أبو المحاسن يوسف» النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة تراثنا ،

القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٢٧٣ - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٢ وما يليها - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الاسلامي ، ص ٢١٢ - سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٤٨ وما يليها - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٦٦ ، ٧٠ .

Terrasse, Histoire du Maroc, p. 108 - Talbi, The independence p. 249 - 250 .

٦٩ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٥ .

٧٠ - صاحب هذا الرأي هو د. حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

٧١ - لا نستطيع أن نحدد على وجه الدقة متى بدأت طلائع الخوارج في التسلل إلى المغرب ونشر الدعوة الخارجية فيه ، بسبب اختلاف النصوص الواردة في المصادر العربية ، كما أن فرق الخوارج لم تنتشر كلها في بلاد المغرب ، وإنما ظهرت منها فرقتان فقط على المسرح السياسي لأحداث المغرب الاسلامي ، هما فرقتا الاباضية والصفورية . (لمزيد من التفاصيل عن انتشار الخارجية في المغرب ارجع الى محمود اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ ص ٤٣ وما يليها ، جودت عبد الكريم يوسف ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥ - سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٥٣ وما يليها . ولمزيد من التفاصيل عن الحركة الاباضية في المشرق الاسلامي وأهم أئمتها في البصرة وعمان أمثال جابر بن زيد ، وأبي عبيدة بن أبي كريمة التميمي البصري ، والربيع بن حبيب الأزدي العماني البصري ، وأبو المنذر بشير بن المنذر النزواني ، وموسى ابن أبي جابر الأركوني ، وعبد الله بن اباض ، وصلة هؤلاء بحضرموت واليمن وشمال أفريقيا ، وأهم أتباعهم هناك ، ارجع الى سالم بن حمود بن شامس السمانلي ، ازالة الوعشاء عن اتباع ابي الشعشاء ، تحقيق د. سيدة كاشف .

القاهرة ١٩٧٩ ، سالم بن حمد بن سليمان الحارثي ، العقود الفضية في أصول الأباضية ، عمان ١٩٨٣ .

٧٢ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الاسلامي ، ص ٢١٥ .

٧٣ - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٤ - محمود اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٦٢ .

٧٤ - ميسرة : تجمع المصادر على أنه ينتسب إلى قبيلة مظفرة البربرية البثرية (ابن القوطية «ابو بكر محمد» ، تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ١٤ ، الرقيق ، تاريخ افريقيا والمغرب ، ص ١٠٩ ، البكري ، ص ١٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩١ - ١٩٣ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن خلدون العبر ، القسم الأول ، المجلد السادس ، ص ٤٢٨ ، مفاخر البربر ص ٤٧ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٤ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ص ٢١٨ ، سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٥٥ ، ناطق صالح مطلوب ، تاريخ المغرب العربي ، الموصل ، ١٩٨٨ ص ١٥٥ وما يليها) . ويرى د . محمود اسماعيل أن أصل ميسرة يكتنفه الغموض لاختلاف المصادر في ذلك ، ويستند في ذلك الى نص أورده ابن تقي بردي في النجوم الزاهرة ذكر فيه أن ميسرة عروى أزدي (محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص ٦٣ ، هاشية ١) . إلا أنه يرجعنا الى ابن تقي بردي تبين لنا أنه لم يشر إلى انتساب ميسرة إلى الأزدي ، وكل ما ذكره ابن تقي بردي عنه لا يعدو أنه كان يلقب «بالحقير» (ابن تقي بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٢٨٧) ويصفه في موضع آخر بأنه ميسرة الصفري (النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٩٤) ويبدو أن د . محمود اسماعيل قد التمس عليه الاسم الذي أورده ابن تقي بردي في النجوم (ج ١ ، ص ٢٨٩) وهو ابو يوسف الأزدي في سياق حديثه عن مراجعة كلثوم بن عياض القشيري لثوار البربر في بقدره ، وظن أنه لميسرة ربما لأن ابن تقي بردي وصف أبا يوسف هذا بأنه رأس الصفري . ويتمثل ذلك في قول ابن تقي بردي في أحداث سنة ١٢٣ هـ

(وفيهما كانت وقعة عظيمة بين الهرير وبين كلثوم بن عياض ، فقتل كلثوم في المصاف واستبيح عسكره ، كسرهم أبو يوسف الأزدي رأس الصفرية) . ومن الثابت تاريخياً أن ميسرة لم يقاتل كلثوم بن عياض إذ كان قومه قد قتلوه عندما أعرض عن مجاربة العرب في موقعة الأشراف ولولا على أنفسهم قائداً مقدماً هو خالد بن حميد الزناتى الذى التقى به خالد بن حبيب الفهرى في موقعة الأشراف ، سنة ١٢٢ هـ ، فانهزم العرب وقتل خالد بن حبيب . أما كلثوم بن عياض فقد سيره هشام بن الملك من دمشق ليواجه الهرير ويثأر لشهداء وقعة الأشراف . وكان خالد بن حميد الزناتى على رأس هؤلاء الثوار بعد مقتل ميسرة . وفى ذلك يقول ابن عذارى صراحة « ولما قدم كلثوم على وادى سبو وهو فى ثلاثين ألفاً قال ابن القطان : فيهم عشرة آلاف من صلب بنى أمية ، وعشرون ألفاً من سائر العرب . فتوجه إليهم خالد بن حميد الزناتى الذى تولى الأمر بعد ميسرة » (ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٥ وانظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩٢) . ويتضح مما سبق ذكره أن معظم المصادر الثقة تؤكد أن وفاة ميسرة حدثت قبل اشتباك العرب والهرير في موقعة الأشراف وبالتالي قبل موقعة بقدورة ، باستثناء الرواية التى أوردها ابن تغرى بردى الذى يجعل ميسرة بطل موقعة بقدورة التى يؤرخها فى ص ٢٨٩ من كتابه بسنة ١٢٣ هـ ، وفى ص ٢٩٤ بسنة ١٢٤ هـ . ونحن لا نأخذ برأى ابن تغرى بردى لأمرين : الأول لأنه مؤرخ مشرقى لا يعول عليه فى دقة الرواية وصدقها ، والثانى لأنه متأخر زمنياً عن فترة الأحداث .

٧٥ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ . وما يؤكد ذلك بعض أبيات أوردها البكرى ونقلتها عنه العديد من المصادر المتأخرة عنه ، كتبها سعيد بن هشام المصردى ، فى إحدى مواقع برغوطه ، وهى موقعة بهت ، يذكر فيها ما يؤكد أن طريف كان من أصحاب ميسرة ، ومنها :

سيعلم قوم تامسنى إذا ما	أتوا يوم التشور مهيمنين
هنالك يونس وينو بنيه	يقودون البرابر مهطعين
إذا وريا ورى زمت عليه	جهنم فايد المستكبرينا
فليس اليوم ردتكم ولكن	ليالى كنتم متميسرينا

- (البكرى ، المغرب ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠)
- ويذكر ابن الخطيب أن ميسرة ولى صالح بن طريف أميراً على المغرب ، ثم عزله وكتب كتاباً إلى أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر يوصيهم به ويصف فضله وعلمه (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١) .
- ٧٦ - الرقيق القيروانى ، تاريخ أفريقيا ، ص ١١٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الإسلامى ، ص ٢١٩ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٦٦ .
- ٧٧ - الرقيق القيروانى ، تاريخ أفريقيا ، ص ١١٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٣ .
- ٧٨ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ .
- ٧٩ - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٩ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ص ٢١٦ .
- ٨٠ - هذا رأى المدافع عن عقيدة برغواطية ، هو رأى د. محمود إسماعيل فى بحثه الموسوم بحقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٧ .
- ٨١ - محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب ، ص ٤٨ حاشية رقم ١٦١ . وفيها يذكر أن طريف بن شمعون كان من قواد ميسرة وأنه اختلف فى نسيبه إذا ما كان مصمودياً أو يهودياً أو يمينياً . وفى بحثه ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٤ ، يذكر أن طريف حليف ميسرة هو نفس طريف صاحب الحملة الاستطلاعية الى الأندلس سنة ٩١ هـ .
- ٨٢ - سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٥٤ ، ويذكر د. سعد زغلول أن طريف (ملك الذى قاد أول سرية إسلامية الى الجزيرة الخضراء سنة ٩١ هـ . والذى سميت جزيرة طريف بإسمه ، كان مع الخوارج فى ثورة ميسرة .
- ٨٣ - يذكر د. حسين مؤنس فى كتابه فجر الأندلس ، ص ٦٦ أن طريف الذى

عبر بسرية صغيرة الى الأندلس ، هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويرجع
الرأى القائل بأنه عربى ، وأن جزيرة لاس بالوماس ستحمل اسمه . وفى
حاشية رقم (٤) من نفس الصفحة يذكر أن طريف هذا سيلعب دوراً هاماً
فى الثورة التى قام بها ميسرة . ومن الجدير بالملاحظة أن د. مؤنس ينسب
ميسرة إلى برغواطية ، ولكنه فى ص ١٦٥ من نفس الكتاب يذكر أن
برغواطية أعلنت الخروج ، وكان يقودها داعية خارجى هو طريف بن شمعون
بن يعقوب وولده صالح .

٨٤ - ارجع الى رأى دكتور أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لتاريخ الأندلس
لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نسان جديان ، معهد الدراسات
الإسلامية بمريد ١٩٨١ ، ص ٤٥ ، حاشية ٣ . وكتابه الموسوم بـ «فى
تاريخ المغرب والأندلس» ص ٢٦٥ ، ٤٨٨ . فهو يذكر أن طريف صاحب
الحملة الإستطلاعية كان يدعى طريف بن مالك أو ملوك وأنه كان عربياً
ينياً ، وأن كان ابن عذارى يجعله بربرياً ، ثم يذكر أن طريف سيظهر اسمه
بعد ذلك على مسرح الحوادث المغربية على عهد الخليفة هشام بن عبد
الملك بدمشق ، وأن ابنه صالح انضم إلى الثورة الخارجية التى قام بها
ميسرة .

٨٥ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ،
الإسكندرية ، ١٩٨٢ ص ٧٠ ، وهو يستند فيما ذكره على نص الرازى
والحميرى وابن خلدون الذين ينسبون طريف صاحب الحملة الاستطلاعية
إلى الأندلس الى معافر أو النخع اليمينيتين ، وهذا يعنى أنه عربى
الأصل . ويستبعد أن يكون موسى بن نصير قد سير الطليعة الكشفية
الأولى تحت قيادة رجل غير عربى .

٨٦ - محمد عبد الحميد عيسى ، فتح الأندلس ، رواية متجددة ، مجلة أوراق
١٩٨٢ - ١٩٨٣ ص ٨٠ . ولم يذكر د. محمد عيسى فى هذا الأمر
سوى أن طريف كان يكنى بأبى زرعة وكان من موالى موسى بن نصير
(وأنظر أيضاً كتابه ، الفتح الإسلامى للأندلس ، ١٩٨٥ ، ص ١٧) أما

د ، عبد الرحمن الحجى قيرى أن طريف صاحب السرية كان بربرياً ، ولكنه أورد اسمه على أن طريف بن مالك الملقب بأبى زرة (عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، الكويت ، ١٩٧٦ ، ص ٤٥) .

٨٧ - محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٩٣ .

٨٨ - حمدى عبد المنعم حسين ، دولة على بن يوسف المرابطى فى المغرب والأندلس ، رسالة ماجستير نوقشت فى كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ص ٧ .

* يرى د. رجب عبد الحليم رأياً مخالفاً لرأى فقد أفرد صفحات عديدة من بحثه لإثبات أن طريف مؤسس دولة برغواطة هو نفسه صاحب الحملة الإستطلاعية على الأندلس وأنه كان بربرى الأصل واستند فى رأيه على ابن حوقل (انظر المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٦) وسنعرض فى الصفحات القادمة من البحث ما يشير الى رأينا ويدعمه من خلال النصوص والأدلة العلمية والمنطقية .

٨٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٧٠ .

٩٠ - المقرئ ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

٩١ - مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها - رحمهم الله - والحروب الواقعة بها بينها ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٨١ ، ص ١٦ .

٩٢ - ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، ص ٤٥ .

٩٣ - الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٣٥ ، وارجع كذلك ، الى ص ٣٩٢ .

٩٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، طبعة ١٩٦٨ ، ص ٢٥٤ .

٩٥ - المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٢٨ .

- ٩٦ - السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٦ .
- ٩٧ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .
- ٩٨ - المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
- ٩٩ - ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٥ .
- ١٠٠ - المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .
- ١٠١ - نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .
- ١٠٢ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٥ .
- ١٠٣ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٨ . وعن نسبة طريف صاحب الحملة الإستطلاعية للتغصن ، ارجع إلى ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٤ .
- ١٠٤ - المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ .
- ١٠٥ - البكرى ، المغرب ، ص ١٤١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .
- ١٠٦ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٣٧ .
- ١٠٧ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .
- * للدكتور رجب عبد الحليم رأى مناقض ، ارجع الى المرجع السابق ص ٣٤ ، من أدلة د. رجب عبد الحليم على أن برغواطية شاركت فى فتح الأندلس ما ذكره البكرى من أن اسم برغواطية هو نسبة الى وادى برياط الذى جرت عنده معركة طارق بن زياد الفاصلة وكذلك قوله بأن يونس بن الياس أصله من شذونة من وادى بریط ثم رحل إلى المشرق إضافة الى ما ذكره ابن خلدون (ارجع الى المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩) ونحن بدورنا نعتقد أن هذا لا ينهض دليلاً على مشاركة برغواطية فى فتح الأندلس ، إذ كيف يتسنى لقوم شاركوا فى فتح الأندلس أن ينسبوا دون غيرهم إلى وادى برياط ؟؟ ولماذا استثنوا هم دون باقى القبائل التى شاركت فى الفتح الإسلامى للأندلس ، فحملوا اسم هذا الوادى «برياط» ثم تحرف بعد ذلك الى برغواطية ؟ وفى تصورى أن الأرجح والأقرب إلى المنطق أن يكون هذا

الإسم «برغواطة» محرقاً من «برباط» نتيجة لاتحاد مؤسس هذه الأسرة من منطقة برباط وليس لمشاركة قبائل منطقة تامسنا في موقعة وادي برباط (ارجع إلى المتن) .

١٠٨ - ابن أبي زرع ، الأئمن المطرب روض القرطاس ، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، أويسالة ، ١٨٤٣ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

١٠٩ - نهد من مفاخر البربر ، ص ٤٧ .

١١٠ - السلاوي الناصري ، الاستقصا ، ص ١٥ .

١١١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

١١٢ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٢ - ويستند د. رجب عبد الحليم على رأى كل من ابن حوقل وابن خلدون لإثبات أن طريف بن مالك يرجع إلى الأصل البربري (المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ٣٣) .

١١٣ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ .

١١٤ - ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦ .

١١٥ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥ .

١١٦ - المصدر السابق ، ص ٢٤ .

١١٧ - نفسه ، ص ٦٩ .

١١٨ - نفسه ، ص ٧ .

١١٩ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ، ٢٥ . وارجع كذلك إلى :

N. Slouch, L'Empire des Berghouata, p. 395.

١٢٠ - *Fasi. The islamization of north Afirica, p. 66.*

١٢١ - محمود اسماعيل ، الخرائج في بلاد المغرب ، ص ٢٨٦ .

١٢٢ - *N. Slouch, op. cit., p. 395 .*

١٢٣ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

١٢٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام
ج ٣ ، ص ١٨٢ .

١٢٥ - ويعرض ميلود عشاق : لإضافة الى هذا الرأي مجمعة أخرى من الآراء
فيذكر أنه ربما كان اسم برغواطة جمع لإحدى اللفظتين البريتين
Bourget, Bergouten وكل منهما معنى التحريض والتهييج والاستفزاز
والتمرد ، وربما يكون أهل تامسنا قد رسموا أنفسهم بهذا الاسم إعتزازاً
وافتنخاراً ، كما يمكن أن يكون كذلك من وضع الأعداء والخصوم ازدراء
وتنقيصاً . كما عرض ميلود عشاق لرأى أمبارك رجالة ، الذى قسم الكلمة
الى مقطعين *Bar* و *Gwat* وهى تعنى ابن الوادى أو ساكن الوادى (ميلود
عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦) .

١٢٦ - أشونة من كور استجة بجنوب الأندلس ، وكان لأشونة حصن كبير ،
وكانت عامرة كثيرة المساكن (الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٦٠)
واستجة تقع بين القبلة والمغرب من قرطبة (الحميرى ، ص ٥٣) .

١٢٧ - ابن حزم الأندلسى «ابو محمد على بن أحمد» جمهرة أنساب العرب ،
تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مصر ، ١٩٧١ ، ص ٥٠١ ، مفاخر
البربر ، ص ٨٠ .

١٢٨ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠
وارجع كذلك إلى ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٧ .

* يذكر د. رجب محمد عبد الحليم أن طريف استمر فى المشاركة فى
الحروب التى خاضها الصفرية عقب مقتل ميسرة المطرفى سنة ١٢٢ هـ ،
ويؤكد أنه شارك فى موقعة الأشراف وبقدوة حتى هزيمة البربر على
أيدى العرب فى موقعة القرن عام ١٢٤ هـ والأصنام سنة ١٢٥ هـ . (ارجع
إلى رجب عبد الحليم ، دولة بنى صالح ، ص ٤٤ ، ٤٥) وهو يستند فى
رأيه هذا على نص لابن عذارى أورده فى البيان المغرب (ج ١ ، ص ٥٦)
يذكر فيه ابن عذارى أن طريفاً كان من جملة قواد العسكر الذين بلغ
عدهم ثلاثمائة ألف مقاتل حسب تقديره والذين اتجهوا إلى القيروان

للقضاء . على سلطة بنى أمية . ويؤكد د. رجب أن بداية ظهور دولة برغواطة أو دولة «بنى صالح فى تامسنا» على حد تعبيره كان فى عام ١٢٥ هـ مستنداً على اشارة لابن عذارى فى أخبار عام ١٢٤ هـ بافتداء ظهور دولة برغواطة .

ونحن لا نقبل إلى الأخذ بهذا الرأى إذ أن نفس ابن عذارى الذى استند عليه د. رجب فى اثبات رأيه يعود ليذكر فى موضع آخر من كتابه البيان ج ١ ، ص ٢٢٤ أن طريقاً انسحب الى تامسنا عقب مقتل ميسرة الذى حدث عام ١٢٢ هـ قبيل موقعة الأشرف ، وهو فى ذلك يقول «وكان طريف من أصحاب ميسرة ملك المغرب الذى تقدم فى ذكره ، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه ، احتل طريف ببلاد تامسنا فقدمه البربر على أنفسهم ...» . ومن المؤكد أن ابن عذارى قد نقل هذا الخبر الأخير عن البكرى الذى أورده فى كتابه ، ص ١٣٥ . أما الخبر الأول الذى يأخذ به د. رجب عبد الحليم قبيدو مضطرباً ، إذ لم يرد فى أى من المصادر الأخرى ، وقد ناقشنا فى صفحات بحثنا بعض مظاهر الاضطراب والتناقض فى روايات ابن عذارى فيما يتعلق بدولة برغواطة ، أما كون ابن عذارى قد حدد بداية ظهور دولة برغواطة بعام ١٢٤ هـ ، فهذا لا يعنى أبداً أن طريف خرج فى ذلك العام على وجه التحديد عن رفاقه البربر إلى تامسنا ، ولكن ربما يكون المقصود بخبر ابن عذارى هذا ، هو بداية ظهور عقائد هذه الدولة الغريبة فى عام ١٢٤ وسوف نثبت فى البحث أن ديانة هذه الدولة وعقائدها الهرطقية لم تظهر فى سنوات مؤسسها طريف ، وربما ظهرت فى عهد ولده صالح .

١٢٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

١٣٠ - البكرى ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

١٣١ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٨ .

١٣٢ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، مجد د. رجب عبد الحليم ، طريف مؤسس دولة برغواطة ، وعظم من شأنه ووصفه «بأنه لم يأت بما

يعاب عليه وظل وقياً لمذهبه ولبنى وطنه ، محافظاً على تاريخه ودوره فى فتح الأندلس حتى توفى عام ١٣١ هـ ، مؤكداً بذلك على أنه هو نفسه طريف بن مالك النخعى ، وهنا ما أثبتنا عدم صحته (ارجع الى المرجع السابق ص ٤٨) ثم يستطرد فى تفخيمه وتعظيمه لشخص طريف بأن عقد مقارنة بينه وبين طارق بن زياد منتهياً إلى أن طريف استمرت عظمته عندما أسس دولة استمر وجودها قروناً من الزمان بينما لف النسيان طارقاً وفى اعتقادى أنه لا وجه للمقارنة على الإطلاق بين القائد العظيم الناتج طارق بن زياد وبين طريف بن شمعون الخارجى ذى الأصول اليهودية الذى أسس دولة خارجة عن تعاليم الإسلام ، عملت على نشر هرطقتها بحد السيف .

١٣٣ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٣ .

١٣٤ - المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

١٣٥ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .

١٣٦ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ ، وقد أخطأ ابن خلدون بقوله أن عام ١٢٧ هـ كان يزامن خلافة هشام بن عبد الملك ، الذى توفى سنة ١٢٥ هـ .

١٣٧ - نيز من مفاخر البربر ، ص ٤٧ .

١٣٨ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

١٣٩ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .

١٤٠ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨١ .

١٤١ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .

١٤٢ - نيز من مفاخر البربر ، ص ٤٧ .

١٤٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ . وفى ذلك يقول البكرى «فاخير زموذ أن طريفاً أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحق ، وأنه كان من

أصحاب ميسرة المطغرى المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت ، والى طريف
نسبت جزيرة طريف ، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه ، احتل طريف بيلد
تامسنى ، وكان إذ ذاك ملكاً لزناته وزواغة ، فقدمه البربر على
أنفسهم ، وولى أمرهم ، وكان على ديانة الإسلام » .

- ١٤٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .
- ١٤٥ - مجهول ، نهد من مفاخر البربر ، ص ٨٠ .
- ١٤٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .
- ١٤٧ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٧ ، ٢٢٤ .
- ١٤٨ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .
- ١٤٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .
- ١٥٠ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٢ .
- ١٥١ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٧ .
- ١٥٢ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
- ١٥٣ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
- ١٥٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .
- ١٥٥ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٢ - محمود اسماعيل ،
حقيقة المسألة البرغواطية ص ٢٥ .
- ١٥٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ - ابن عذارى ، البيان ، ج ٦ ، ص ٥٧ -
ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ،
ج ٣ ، ص ١٨١ .
- ١٥٧ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ .
- ١٥٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .
- ١٥٩ - المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

- ١٦٠ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٦ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ،
ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .
- ١٦١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .
- ١٦٢ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٧ .
- ١٦٣ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص
٢٢٥ ، ابن خلدون ، عبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .
- ١٦٤ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ .
- ١٦٥ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
- ١٦٦ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٥
- ١٦٧ - "ويذكر ناهوم سلوتش أن يونس رحل الى الأندلس ولاذ بها قراراً من
حالة الفوضى التي ضربت أطنابها في أنحاء المغرب بعد ظهور الأدارسة
(ارجع إلى *Slouch, op. cit., p. 395*).
- ١٦٨ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٨ .
- ١٦٩ - المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
- ١٧٠ - نفسه ، ص ١٣٦ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ . وارجع
الى ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ٤٣٠ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ،
ج ٣ ، ص ١٨٤ .
- ١٧١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
- ١٧٢ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٧ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ،
ص ٢٤ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ،
ص ٣٨٣ .
- ١٧٣ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ٢٤ .
- ١٧٤ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٧ .

- ١٧٥ - المصدر السابق ، ص ٩ .
- ١٧٦ - البكري ، المغرب ، ص ١٢٢ .
- ١٧٧ - المصدر السابق ، ص ١٣٦ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .
- ١٧٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .
- ١٧٩ - المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
- ١٨٠ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٦ .
- ١٨١ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٦ - وراجع أيضاً البكري ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣١ .
- ١٨٢ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .
- ١٨٣ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣١ .
- * البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .
- ١٨٤ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .
- ١٨٥ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٤ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .
- ١٨٦ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٧ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .
- ١٨٧ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٣ .
- ١٨٨ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
- ١٨٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
- ١٩٠ - البكري ، المغرب ، ص ١٢٤ - ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢١١ .

- ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٢٨ - ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ج ٣ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- ١٩١ - لمزيد من التفاصيل انظر : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٣٩٤ وما يليها . ومن الجدير بالذكر أن عمر بن ادريس هر جد بني حرد الذين تلقبوا بالخلافة في الأندلس في عصر الطوائف .
- ١٩٢ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٥١ .
- ١٩٣ - البكري ، المغرب ، ص ١٣٤ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٣ وكان من نتائج هذه الموالاة إقبال سكان روض قرطبة على سكنى آرمود البرغواطية (البكري ، المغرب ، ص ١٥٥ ، محمد أحمد عبد المولى ، القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ ، ج ٢ ، ص ٦٥٧) .
- ١٩٤ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٥ .
- ١٩٥ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .
- ١٩٦ - نفسه ، ص ٢٥٥ .
- ١٩٧ - نفسه ، ص ٤٣٢ .
- ١٩٨ - لمزيد من التفاصيل عن أبي قرة المغيلي أو البفرني ودوره في الثورة على العرب سنة ١٤٨ هـ وتعاونه مع عبد الرحمن بن رستم أرجع إلى ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
- وانظر : رضوان البارودي ، بنو يفرن الزناتيون في بلاد المغرب والأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ١٣ وما يليها .
- ١٩٩ + المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .
- ٢٠٠ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
- ٢٠١ - مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ٥٥ .

- ابن عذاري البيان ، ج ٢ ، ص ٤٧ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين واثارهم ، ص ١٧٨ - البيان ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

٢٠٢ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .

٢٠٣ - لمزيد من التفاصيل ، ارجع الى المصدر السابق ، ص ٤٣٢ ، السلوى ، الاستقصا ج ٢ ، ص ١٨ *Terrasse, Histoire du Maroc, pp. 130, 131.*

أما البصرة فهي مدينة بالمغرب عرفت ببصرة الكتان لكثرة زراعتها له ، كما عرفت بالحمراء لاحتراق تربتها ، وكان لها سور مبنى من الحجارة والطوب يفتح فيه عشرة أبواب ، كما كان لها حمامان ، ومقبرتها الكبرى فى شرقها فى جبل ، أما الغربية فتعرف بمقبرة قضاة . واشتهرت بجمال بناتها (البكرى ، المغرب ، ص ١١٠) .

٢٠٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٣ ، السلوى الناصرى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٨ . أما بنو زيري فقد كانوا أوفياء للفاطميين موالين لهم فى بداية الأمر . ولكنهم بدأوا يشقون عصا الطاعة على الفاطميين فى عهد المعز بن باديس ، الأمير الرابع منهم ، فى سنة ٤٤٠ هـ ثار المعز على الفاطميين ، وأعلن استقلاله عنهم ، وتم انفصال بنو زيري عن الفاطميين فى مصر فى عهد المعز بن باديس سنة ٤٤٤ هـ ، وفى خلافة المستنصر بالله الفاطمى .

٢٠٥ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٣ .

٢٠٦ - المصدر السابق ، ص ٤٣٣ .

٢٠٧ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٦٩ .

٢٠٨ - المصدر السابق ، ص ٨٤ - ابن الخطيب ، "أعمال الأعلام" ، ج ٣ ، ص ١٨٧ ، ٢٣٠ .

٢٠٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الاسلامى ، ص ٦٠٩ .

٢١٠ - لمزيد من التفاصيل ، ارجع الى المرجع السابق ، ص ٦١٠ وما يليها ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٤ وما يليها .

٢١١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ ، نهد من مفاخر البربر ، ص ٥٢ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٦ ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول ، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ ، ص ٢٣ ، الناصري السلاوي ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٨ ، شارل اندري جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، تهريب محمد مزالي ، البشير سلامة ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٧ ، *Hrbek and Devisse, The almoravides, General History of Africa, Unesco, 1988, p. 348 - Terrasse, Histoire du Maroc, p. 221*

٢١٢ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ . وأنظر نص الوصية في ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ . وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة ابن ياسين ، وانقسموا إلى فريقين ، فريق يرى أنه توفي في عام ٤٥١ هـ ومن هؤلاء البكري (ارجع الى المغرب ، ص ١٦٨) وابن عذارى (البيان ، ج ٤ ، ص ١٦) وابن الخطيب (أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٠) ، وفريق آخر يرى أنه توفي في سنة ٤٥٠ هـ ، ومن هؤلاء صاحب الحلل الموشية (ص ٢٣) وابن خلدون (العبر ، ج ٦ ، ص ٣٧٦) . ولمزيد من التفاصيل ارجع الى حمدي عبد المنعم حسين ، دولة علي بن يوسف ، ص ٧ .

٢١٣ - ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ .

٢١٤ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٤٤ .

٢١٥ - ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

٢١٦ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٤٤ .

٢١٧ - ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ - مفاخر البربر ، ص ٥٨

السلامى الناصرى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ - ولزید من التفاصيل عن سكوت مولى الحموديين ، وعن الأسرة الحمودية التى هى فرع من الأدارسة أنظر خواكين قالقى ، سكوت البرغواطى ملك سبتة ، ترجمة عبد اللطيف الخطيب ، بحث بمجلة تطوان ، الرباط ، العدد ١١ ١٩٧١ ، ص ٩٤ - ٩٩ ، وأرجع الى محمد بن تاويت ، تاريخ سبتة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢ ، ص ٣٩ وما يليها .

* ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٧ ، السلامى الناصرى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

٢١٨ - نهد من كتاب مفاخر البربر ، ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٥ - خواكين قالقى ، سكوت ، ص ٩٨ .

٢١٩ - مفاخر البربر ، ص ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٦ - السلامى الناصرى ، ص ٣١ وأرجع كذلك إلى ابن الأثير (أبو عبد الله محمد عبد الله) الحلة السيرا ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٥١ حاشية ١ ، ولزید من التفاصيل عن سكوت أرجع الى رضوان البارودى ، التاريخ السياسى لمدينة سبتة منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى ، مقال صدر بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس والثلاثون سنة ١٩٨٩ ، ص ٥٧ وما يليها .

٢٢٠ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ .

٢٢١ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٥٧ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ . وقد أورد البكرى فى ص ١٤٠ آية من هذا الكتاب الذى وضعه صالح لأتباعه .

٢٢٢ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٠ .

٢٢٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٥ .

- ٢٢٤ - المصدر السابق ، ص ١٤٠ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ -
ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٤ .
- ٢٢٥ - ارجع الى المصادر السابقة ، ميلود عشاق ، المرجع السابق ، ص ٦ .
- ٢٢٦ - البكرى ، المغرب ، ص ١٣٨ .
- ٢٢٧ - المصدر السابق ، ص ١٣٨ وما يليها ، ابن أبي زرع ، روض
القرطاس ، ص ٨٣ ، أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب
والأندلس ، ص ٤٩٠ وما يليها .
- ٢٢٨ - ميلود عشاق ، ملاحظات حول المسألة البرغواطية ، ص ٦ ، ويذكر
الدكتور ابراهيم حركات أن كراهية أكل البيض لا تزال متصلة فى بعض
مناطق المصامدة حتى يومنا هذا (المرجع السابق ، ص ٦) . أما الديك فهو
يذهب الذئب عند يهود المشرق كله . ومازال اليهود يفتنون عظام هذا
الحيوان فى المقبرة . (N. Slouch, op. cit., p. 397) وقد بقيت من هذا
الإعتقاد عند عامة الناس فى مصر أفكار مشابهة فهم يذبحون على
أعتاب البيوت نوعاً معيناً من الديك لإزالة الشر الذى يصيب صاحب
البيت .
- ٢٢٩ - ارجع الى المصادر السابقة .
- ٢٣٠ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .
- ٢٣١ - ميل الدكتور الفاسى الى تشبيه الإدارة الشيعة بالسنة ، ارجع الى :
M. EL Fasi and I. Hrbek, The islamization of North Africa, p. 65
- ٢٣٢ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .
- ٢٣٣ - البكرى ، المغرب ، ص ١٤٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٠ .
- ٢٣٤ - يعد د. أحمد مختار العبادى من أنصار هذا الرأى ، ارجع الى كتابه
«فى تاريخ المغرب والأندلس» ، ص ٤٩٧ .
- ٢٣٥ - ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ .
- ٢٣٦ - لمزيد من التفاصيل عن الحركة العلمية فى عهد سكوت بسبته ارجع

- إلى خواكين فالثى ، سكوت البرغوطى ، ص ١٠٣ .
- ٢٣٧ - نبذ من مفاخر البربر ، ص ٥٥ .
- ٢٣٨ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٥٩ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٦٠ .
- ٢٣٩ - القلقشندي ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .
- ٢٤٠ - لمزيد من التفاصيل عن البهلية واختلاف آراء الإصدار فيهم ، ارجع الى أحمد مختار العبادي ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٩ وما يليها .
- ٢٤١ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك فى المغرب ، ص ٧٦ .
- ٢٤٢ - ارجع الى محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغوطية ، ص ٤٩ ،
Slouch, p. 397 .
- ٣٤٣ - أحمد مختار العبادي ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩١ ،
وراجع كذلك حاشية رقم ٢٢٨ .
- ٢٤٤ - N. Slouch, L'Empire, p. 394 - Gaston Deverdun, -
Marrakech des Origines à 1912, Rabat, 1959, p. 45 .
- ٢٤٥ - أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٤٩١ . ويذكر ناحوم سلوتش أن بعض القبائل فى وهران والقصور بالصحراء لا تزال تستخدم كلمة يوش المشتقة من ياكش أو يوشع حتى الآن ، N. Slouch, op. cit.,
p. 297.
- ٢٤٦ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغوطية ، ص ٤٢ .
- ٢٤٧ - المرجع السابق ، ص ٤٢ . - N. Slouch, op. cit., p. 398 .
- ٢٤٨ - نفسه ، ص ٤١ .
- ٢٤٩ - هذا رأى د. سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، وكذلك ارجع الى رأى د. رجب عبد الحليم فى المرجع السابق من ص ٤٨ - ٨٦ ، وقد حاول د. رجب الدفاع عن برغوطة وجاهد

لنحضر الرأي الذى يصنفها بالهرطقة ، وحجته فى ذلك أن المصادر الشرقية لم تذكر شيئاً عن دين برغواطية وخروجها عن الإسلام . مثل ابن حوقل والقدسى والاصطخرى كذلك ذكر أن الإدريسي لم يذكر بدوره شيئاً عن برغواطية وفاته أن الإدريسي كان بعيداً عن المغرب وأن الرحالة والجغرافيين السابقين كانوا من المشارقة وأن المؤرخين المغاربة والأندلسيين أمثال الكبرى وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والسلاوى أجمعوا على هرطقة برغواطية وخروجها عن تعاليم الاسلام .

كما أفرد د. رجب صفحات طويلة للدفاع عن عقائد برغواطية وتوضيح أنها عقائد خارجية صغرية تابعة من تعاليم الإسلام ، وستوضح على الصفحات التالية فى المتن ردنا على ذلك ، كذلك استدل د. رجب عبد الحليم على صحة رأيه بأن الأدارسة لم يقاتلوا برغواطية إلا ان فى عهد ملكها يونس وأن ذلك ينهض دليلاً قاطعاً على أن برغواطية لم تكن خارجة عن تعاليم الإسلام منذ ظهورها وتأكيداً على تبهته صالح وأولاده من الهرطقة (المراجع السابق ص ٦٠) . وفى الواقع أن برغواطية كما ستذكر بدأت منذ عهد الياس فى محاولة نشر تعاليمها خارج حدودها الجغرافية ، وسيقوم يونس ولد الياس بفرضها بالقوة ، عند هذه المرحلة بدأت القرى الإسلامية المجاورة تستشعر خطورة برغواطية التى كانت ساكنة فى الفترة الماضية فلما بدأت فى التوسع الإقليمى لنشر عقائدها وجب على الأدارسة وكذلك بنى يفرن ثم المرابطين جهادهم . وستوضح ذلك على الصفحات المقبلة .

٢٥٠ - محمود اسماعيل ، حقيقة المسألة البرغواطية ، ص ٤٠ ، وما يليها .

٢٥١ - محمد ولد داداه ، مفهوم الملك ، ص ٧٤ .

٢٥٢ - ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٦٩ ، ٧٠ - الناصرى السلاوى ، الإستقصا ، ج ٢ ، ص ١٨ .

٢٥٣ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٢ .

٢٥٤ - عبد العزيز بن عبد الله ، سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، ص ٩ .

٢٥٥ - أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٩٤ .

- ٢٥٦ - المرجع السابق ، ص ٤٩٤ .
- ٢٥٧ - البكري ، المغرب ، ص ٨٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ .
- ٢٥٨ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٨٣ .
- ٢٥٩ - البكري ، المغرب ، ص ٩١ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٣٩ .
- ٢٦٠ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ ، ص ٤٤٦ ، ويسميه صاحب
مفاخر البربر عاصم بن جهل اليزداجرسي ، ص ٧٧ . ولزيد من التفاصيل
ارجع الى السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ،
ص ٢٥١ .
- ٢٦١ - ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ٥٩ .
- ٢٦٢ - عن ديانة حامي ، ارجع الى البكري ، المغرب ، ص ١٠٠ - ابن
خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٤٤ - ابن ابي زرع ، روض القرطاس ،
ص ٦٢ . وقد نص صاحب مفاخر البربر في ص ٧٧ على تشابه بين
عقيدة حامي وعقيدة برشواطة .
- ٢٦٣ - عن دور برشواطة في حركة الماسي الصحراوي في العصر الموحدى ،
ارجع الى ابن عثاري ، البيان ، القسم الموحدى ، ص ٣٦ ، ٣٢ وما يليها
- البيلقي (ابو بكر ابن علي الصنهاجي) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ،
تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤ ، ص ١٢٢ وما يليها - ابن
ابي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٣ وما يليها - السلاوي الناصري ،
الإستقصا ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، ١١٣ وما يليها .
- ٢٦٤ - نبذ من مفاخر البربر ، ص ٧٢ .
- ٢٦٥ - المصدر السابق ، ص ٧٣ .
- ٢٦٦ - نفسه ، ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ .

مصادر البحث ومراجعته

أولاً المصادر العربية :

- ١) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد القضاءي) : كتاب الحلة السيرة ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم) : الكامل في التاريخ ، المجلد الرابع ، بيروت ١٩٦٥ .
- ٣) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله القاسي) : كتاب الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق تورنبرج ، أويسالة ، ١٨٤٣ .
- ٤) ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، طبعة تراثنا ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٥) ابن هزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ عيد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٦) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبی) : صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ٧) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويق قبل الإحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .
- ٨) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، المجلدان الرابع والسادس ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٩) ابن عذارى (أبو العباس أحمد المراكشي) : البيان المغرب في أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذين ليثي بروفنسال وكولان ، جزآن ، ليدن ، ١٩٤٨ .
- ١٠) ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك التوزري) : تاريخ الاندلس وهو

قطعة من كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدرسة ، مدريد ، ١٩٧١ .

(١١) ابن القوطية (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خليان ربييرا ، مدريد ، ١٩٢٦ .

(١٢) البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، تحقيق البارون دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ .

(١٣) البيلىق (أبو بكر الصنهاجى) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

(١٤) الحميرى (ابن عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق دكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٤ .

(١٥) الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق وتقديم المنجى الكعبى ، تونس ، ١٩٦٨ .

(١٦) السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

(١٧) السمانلى (سالم بن حمود بن شامس) : إزالة الوغش عن أتباع أبى الشعثاء ، تحقيق دكتورة سيدة كاشف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(١٨) القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩ .

(١٩) مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمراتها ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(٢٠) مجهول : نبذ تاريخية منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٤ .

(٢١) مجهول : كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق دكتور

- سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة ، النار البيضاء ، ١٩٧٩ .
- (٢٢) المراكشي (عبد الواحد) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذين سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
- (٢٣) المقرئ (أحمد بن محمد) : نفع الطبيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٩ .
- (٢٤) الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) : وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، ومحمد الأخضر ، ج ١ ، ١٩٨٣ .
- (٢٥) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، بيروت ، ١٩٥٧ .

ثانياً المراجع:

- (٢٦) البارودي (دكتور رضوان) : بنو يفرن الر حيون في بلاد المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٩١ .
- (٢٧) البارودي (دكتور رضوان) : التاريخ السياسي لمدينة سبتة من القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٣٦ ، لسنة ١٩٨٩ .
- (٢٨) جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، الجزائر ، ١٩٨٤ .
- (٢٩) جوليان (الأستاذ شارل أندري) : تاريخ أفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي الى سنة ١٨٣٠ ، جزآن ، تعريب الأستاذين محمد مزالي والبشير سلامة ، تونس ، ١٩٧٨ .
- (٣٠) الحارثي (سالم بن حمد بن سليمان) : العقود الفضية في أصول الاباضية ، عمان ، ١٩٨٣ .
- (٣١) الحجي (دكتور عبد الرحمن) : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، ١٩٧٦ .

- (٣٢) حسن محمود (دكتور) : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- (٣٣) حسين مؤنس (دكتور) : فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- (٣٤) حمدى عبد المنعم حسين (دكتور) : دولة على بن يوسف المرابطى فى المغرب والاندلس ، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠ .
- (٣٥) خواكين فالثى برميخو : سكوت الهرغواطى ملك سبتة ، ترجمة عبد اللطيف الخطيب ، مجلة تطوان ، العدد الحادى عشر ، الرباط ، ١٩٧١ .
- (٣٦) سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .
- (٣٧) سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ .
- (٣٨) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : تاريخ المغرب العربى ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- (٣٩) الطنجى (الأستاذ محمد بن تاويت) : تاريخ سبتة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢ .
- (٤٠) العبادى (دكتور أحمد مختار) : فى تاريخ المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- (٤١) عبد الحليم (دكتور رجب محمد) : دولة بنى صالح فى تامسنا بالمغرب الأقصى ، القاهرة ١٩٦١ .
- (٤٢) عبد العزيز بن عبد الله : سلا أولى حاضرتى أبى رقراق ، سلا ، ١٩٨٩ .
- (٤٣) عيد المولى (دكتور محمد أحمد) : القوى السنية فى المغرب من قيام الدولة الفاطمية الى قيام الدولة الزيرية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ .
- (٤٤) عنان (الأستاذ محمد عبد الله) : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

- ٤٥) عيسى (الدكتور محمد عبد الحميد) : فتح الأندلس ، رواية متجددة ،
مجلة أوراق ، مدريد ، ١٩٨٢-١٩٨٣ .
- عيسى (الدكتور محمد عبد الحميد) : الفتح الإسلامى للأندلس ، القاهرة ،
١٩٨٥ .
- ٤٦) محمود اسماعيل (دكتور) : الموارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن
الرابع الهجرى ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ .
- ٤٧) محمود اسماعيل (دكتور) حقيقة المسألة البرغواطية - مغربيات ،
دراسات جديدة ، المغرب ، ١٩٧٧ .
- ٤٨) مطلوب (ناطق صالح) : تاريخ المغرب العربى ، الموصل ، ١٩٨٨ .
- ٤٩) ميلاد عشاق : من تاريخ المغرب الوسيط : ملاحظات حول المسألة
البرغواطية ، مجلة العلم الثقافى ، العدد ٩٧٢ ، الرباط ، مايو ، ١٩٩٠ .
- ٥٠) ولد داداه (الأستاذ محمد) : مفهوم الملك فى المغرب من إنتصاف القرن
الأول إلى أنتصاف القرن السابع ، دراسات فى التاريخ السياسى ، دار
الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٧ .

الفهرس

المرضوع	الصفحة
مقدمة:	١
البحث الأول: «بنو أبى عبدة وزراء وقادة الدولة	
الأموية فى الأندلس»	٥٤-١
البحث الثانى: «أضواء على فن الغناء والموسيقى فى الأندلس	
فى عصر الدولة الأموية وعصر دويلات الطوائف»	٩٤-٥٥
البحث الثالث: «صور من التعاون العسكرى بين دمشق والقاهرة	
ضد الصليبيين فى العصر الفاطمى ٤٩٨ - ٥٦٤ هـ	
١١٠٤ - ١١٦٨ م) رؤية جديدة»	١٧٣-٩٥
البحث الرابع: «لمحات انسانية من حياة المعتمد بن عباد الأسرية»	١٩٢-١٧٥
البحث الخامس: «علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل	
وعقب سقوطها»	٢٤٤-١٩٣
البحث السادس: «قطر وموارد ثروتها الاقتصادية فى	
العصور الوسطى»	٢٦٦-٢٤٥
البحث السابع: «موقف مدينة صور من أحداث الشام منذ منتصف	
القرن الخامس الهجرى وحتى سقوطها فى	
أيدى الصليبيين سنة ٥١٨ هـ»	٣٩٣-٢٦٧
البحث الثامن - <i>Itinonio Mixto en El Andalus un Estudio Politico, Literario, Social</i>	
<i>tos Objetivos y Negativos).</i>	

الصفحة

El Matrimonio Mixto en El Al-Andalus (Un Estu-
dio Politico , Literario, Soical" ٣٩٥ - ٤١٠

البحث التاسع: «ترجمة مقال الدكتور راشيل آرييه

(رحالة من المغرب إلى المشرق)» ودراسة نقدية له ٤١١-٤٣٦

البحث العاشر: «بنو سراج وزراء بنى نصر بين الحقيقة التاريخية

والقصة الشعبية» ٤٣٧-٥١٨

البحث الحادى عشر: «دور الطراز فى الأندلس فى عصر

دولة بنى أمية» ٥١٩-٥٣٢

البحث الثانى عشر: «من جديد حول برغواطية هراطقة المغرب

فى العصر الاسلامى» ٥٣٣-٦٣٤

رقم الإيداع ٢٢٣٩ / ٩٧

الترقيم الدولي I . S . B . N .

4 - 053 - 212 - 977



صاحبها ومديرها . محمد بسيوني
خلف ١٦١ شارع فرنسا ٢٥ ٨٠٩٠٠٥ الاسكندرية

